الإسلام
و
الحياة

تاريخ الإسلام في الهند

الدكتور عبد المنعم النمر

تاريخ الإسلام
في
الهند

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف: ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت ـ لبنان

تاريخ الإسلام في الهند

الدكتور عبد المنعم النمر

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

حينما عزمت على اصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب كان أمامي عاملان :

العامل الأول :

قلة اقبال القراء على العملية الكبيرة المتخصصة التي تبحث جانباً من الجوانب العلمية التي لا تغري القراء بالاقبال عليها . .

العامل الثاني :

كان عاملا مغرياً . . فالكتاب مع أنه كبير ويبحث جانباً قد لا يهتم به الا القليلون ، الا أنه يكشف النقاب عن تاريخ مجهول لأمة اسلامية ، وحكم اسلامي ، عاش وازدهر في الهند ، نحو ثمانية قرون ونصف ، ويسد فراغاً كان لا بد أن يملأ ، إذ كان أول كتاب يعنى بهذه الناحية . ويقدم لقراء العربية تاريخاً مجهولا لهم ـ وما كان يصح أن يظل مجهولا ـ بعد أن زالت الحجب بيننا وبين هذه البلاد ، وازدادت الصلات بيننا وبينهم .

نعم . . كان من التقصير البالغ في حق تاريخ اسلامي مزدهر ، أن يستمر قراء العربية على عدم العلم به ، بينما يعرفون الدقائق من تاريخ الأمم الغربية . عن طريق تقريره في المدارس والجامعات ، وعن طريق القراءة الحرة كذلك.

وخرج الكتاب .. واستقبلته الصحافة ، والهيآت العلمية ، والجماعات الثقافية ، والقراء في مصر وخارجها استقبالا كريماً جعلني ازداد إيماناً بأن العمل الجاد المدروس ، يجد صداه في النفوس ، وشجعني على أن أواصل جهودي ، لأكمل أعرض تاريخ المسلمين في هذه البلاد ، فأخرجت كتابي « كفاح المسلمين في تحرير الهند » سنة 1964 م ، ليؤرخ الحقبة التي رزحت الهند فيها تحت وطأة الاستعمار الانجليزي ، ويكشف النقاب عن الجهود التي بذلها المسلمون هناك في سبيل تحريرها . ويرصد الأسباب التي أدت الى تقسيم الهند إلى دولتين ، والحوادث الدامية التي كدرت فرحة البلاد باستقلالها ، وتخلصها من عهد الاستعمار .. وما تبع ذلك من خلاف حاد حول الولايات المتنازع عليها بين الدولتين الوليدتين ، ولاسيا كشمير التي تركها الاستعمار « خراجاً » ينزف في جسمها الغض .

وكان كذلك أول كتاب في موضوعه كأخيه الذي سبقه .. وكمل بهما عرض واف لتاريخ المسلمين في الهند منذ فجر الاسلام حتى سنة 1947 م ، وهي السنة التي رحل فيها الاستعمار عن البلاد ..

واستمراراً لعنايتي بإبراز تاريخ الاسلام والمسلمين في الهند ، أخرجت كتاباً ثالثاً عن زعيم من أبرز الزعماء وأكثرهم اثراً في تاريخ الهند الحديث وهو « مولانا أبو الكلام أزاد » المصلح الديني والزعيم السياسي ، خرج الجزء الأول منه ، والجزء الثاني ، وكان موضوع رسالة الدكتوراه ..

كما دفعت للمطبعة بكتاب رابع عن بعض الزعماء المجاهدين من المسلمين في حركة تحرير الهند وأجد من واجب الوفاء وعرفان الجميل أن أسجل هنا مظاهر استقبال الصحافة والهيآت العلمية والأدبية والقراء لهذا الكتاب الذي أقدمه في طبعته الثانية :

فقد أقامت رابطة الأدب الحديث ، بالاشتراك مع رابطة موظفي الجمهورية حفل تكريم بمناسبة صدور الكتاب . وذلك في السادس والعشرين من مارس سنة

1959 م ، ودعت بعض الأساتذة للتحدث عن الكتاب ومناقشته ، كان منهم الدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب المصري بكلية آداب جامعة القاهرة ، والمستشار الثقافي لسفارتنا في الهند عليه رحمة الله . . والأستاذ (المرحوم)) مصطفى كامل السحرتي رئيس رابطة الأدب ، والدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الأستاذ المساعد حينذاك بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ، والأستاذ الأديب الشاعر السعودي عبد الله عبد الجبار ، والدكتور عبد الرحمن عثمان الأستاذ المساعد حينذاك بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ، والأستاذ الدكتور احمد الشرباصي المدرس بكلية اللغة حينذاك بجامعة الأزهر ، والصحفي الأديب (المرحوم) الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولي ، والمؤلف الأديب الدكتور عبد المنعم خفاجي الأستاذ المساعد حينذاك بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ، والأستاذ الشاعر (المرحوم) محمود الماحي ، وأمير الكمان الأستاذ سامي الشوا وغيرهم . .

وجاء في جريدة الأخبار بتاريخ 21-2-1959 : « انتهى الأستاذ عبد المنعم النمر من الكتاب الذي شغله في المدة الأخيرة . ولهذا الكتاب قصة : فقد سافر الأستاذ النمر الى الهند في يناير 1956 مبعوثاً من الأزهر والمؤتمر الاسلامي ، وأقام هناك أكثر من سنتين ، درس أثناء هذه المدة تاريخ الاسلام في شبه القارة الهندية ، وعندما عاد أخرج أول كتاب من نوعه باللغة العربية بعنوان : « تاريخ الاسلام في الهند » وهو الذي سيصدر خلال هذا الأسبوع » .

ومما جاء في جريدة الجمهورية بتاريخ 5-3-1959 : « بعد مدة عامين وثلاثة شهور قضاها الأستاذ عبد المنعم النمر متنقلا بين ربوع الهند ، دارساً لأحوالها وآثارها وتاريخها القريب والبعيد ، عاد وأخرج كتابه الضخم عن « تاريخ الاسلام في الهند » ، وسيجد القارىء والمؤلف فيه معلومات وحقائق وافية ، تنشر لأول مرة باللغة العربية ، عن الحضارة الاسلامية المزدهرة ، وعن الحكم الاسلامي الناجح ، الذي استمر يحكم الهند ثمانية قرون ونصف قرن حتى سنة 1857 م ، والكتاب من

هذه الناحية يسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ، والتاريخ الاسلامي ، كنا في أشد الحاجة الى من يسده من عدة قرون » .

ومما جاء في جريدة الشعب : بتاريخ 1-3-1959 « لبث الأستاذ عبد المنعم النمر أكثر من عامين في الهند ، وأتيح له أن يدرس تاريخ الاسلام فيها ، واستطاع أن يجمع كثيراً من الوثائق والصور التي دعم بها بحثه ، ثم قدم للمكتبة العربية كتاباً حافلا شاملا لتاريخ الحكم الاسلامي في الهند ، فسد به نقصاً كبيراً ، وشغل به فراغاً كان يجب أن يملأ منذ عدة قرون ، وبذلك حقق أمل الأزهر والمؤتمر الاسلامي فيه ، وحقق للقراء أملاً كانوا يتطلعون اليه » .

ومما جاء في جريدة الأهرام : « صدر كتاب (تاريخ الاسلام في الهند) للأستاذ عبد المنعم النمر ، وهو أول كتاب باللغة العربية ، يسجل تاريخ دخول الاسلام للهند ، والحكم الاسلامي الذي استمر مزدهراً فيها مدى ثمانية قرون ونصف ، حتى سنة 1857 م ، وقد ظل مؤلفه يجمع معلوماته خلال رحلاته في الهند ، طوال اقامته هناك ، ثم ظل يقرأ له عاماً آخر بعد عودته ، حتى أخرجه مرجعاً وافياً للباحثين ، ولكل من يهمه الاطلاع على تاريخ الحكم الاسلامي في هذه البلاد ، وجمع فيه الطرائف والغرائب من المعلومات والصور » .

وكتب الأستاذ (المرحوم) عميد الامام في جريدة المساء في 27 مارس 1959 تعليقاً يقول فيه :

« في أواخر العام الماضي جاء القاهرة في اجازة ، سفيرنا في الهند ، الشاعر الكبير الأستاذ عمر أبو ريشة . وأثناء مقابلاتنا العديدة ، حدثني مراراً عن الأثر العظيم للاسلام في الهند ، وقال انه لم يكن يتصور قط ، قبل أن يذهب الى تلك البلاد ، أن الاسلام قد ترك فيها كل هذا الأثر ، وخلف طابعه في كل جزء من مساحتها الشاسعة ، وذلك على الرغم من أنه قرأ الكثير عن الهند قبل أن يسافر اليها ، وكان مهتماً بجمع المعلومات عنها منذ طفولته »

« وقد ظلت أحاديث الصديق الكبير عن أثر الاسلام ، في الهند عالقة بذهني ، منذ عاد الى مقر منصبه في ديسمبر الماضي ، وظلت تثير في رغبة قوية لمعرفة المزيد من هذا الأثر الضخم ، الذي بهر السفير الغزير الثقافة . .

وفي هذا الأسبوع تحققت هذه الرغبة ، فقد صدر كتاب كبير هام للأستاذ عبد المنعم النمر بعنوان « تاريخ الاسلام في الهند » هو أول كتاب باللغة العربية يسجل هذا التاريخ بتفاصيله ، ويتحدث في اسهاب عن الآثار الرائعة الخالدة التي تركها الاسلام في الهند بأسرها ، وعما أحدثه في حياتها من تأثير شامل باق . . الخ » .

وكتب فضيلة (المرحوم) الأستاذ الدكتور احمد الشرباصي في مجلة الشبان المسلمين ، ابريل 1959 بحثا تحليلياً استعرض فيه مباحث الكتاب ، وختم مقاله بقوله :

« لقد جاء الكتاب بذلك كله أشبه بموسوعة عن تاريخ الاسلام في الهند ، ولا نعرف كتاباً سبقه في موضوعه على هذه الصورة . . اننا نحيي المؤلف على ما بذله من جهود مضنية في سبيل تأليف هذا الكتاب » .

وكتبت مجلة الأزهر في ابريل سنة 1960 تحليلا للكتاب بقلم الأستاذ محمد عبد الله السمان جاء فيه : « للاسلام والمسلمين تاريخ حافل بالهند ، استقر هناك خلال أكثر من ثمانية قرون ، والأستاذ عبد المنعم النمر المدرس بالأزهر الشريف حين كان مبعوثاً للمؤتمر الاسلامي والأزهر في الهند ، عامي 56 ، 1957 جعل هدفه أن يكتب تاريخ الاسلام في الهند ، حيث المراجع ميسرة ، والآثار الاسلامية قريبة منه ، والعلماء المؤرخون الهنود من المتأخرين ما زالوا على قيد الحياة . .

ونحن نتعجب مع المؤلف لهذا الاهمال في العناية بتدريس تاريخ الاسلام في الهند في الوقت الذي نعنى فيه بتدريس تاريخ اوروبا والغرب المفعم بالحقد على الشرق .

وبعد أن استعرض الكاتب مباحث الكتاب قال في آخر كلمته : «والواقع أن الأستاذ . . قد منح المكتبة الاسلامية العربية مؤلفاً كانت في مسيس الحاجة اليه ، حيث سد فراغاً كان لا بد أن يملأ ، كما أدى الى جانب مهمته ـ كمبعوث للأزهر والمؤتمر الاسلامي ـ واجب الوفاء ، فقد حقق هدفاً أدبياً ودينياً ، وليت مبعوثينا في شتى البلاد الاسلامية يقتدون به ، فيستطيعوا أن يسدوا للتاريخ والاسلام أجل الخدمات » .

وفي المملكة السعودية كتب الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي رئيس تحرير مجلة الحج التي كانت تصدر في مكة ، حينذاك مقالا طويلا ، استعرض فيه الكتاب واستهله بقوله :

« قراء مجلة الحج لا يزالون يذكرون مقالات العالم الأزهري البحاثة المعروف الأستاذ عبد المنعم النمر ، عن تاريخ الاسلام في الهند . . وما نحسب اننا في حاجة الى أن ننوه بمقدار ما بذله فضيلة الأستاذ النمر من جهود في تحضير هذا التاريخ ، بل يكفينا أن نشير الى أن هذه البحوث تعتبر الأولى من نوعها باللغة العربية .

وكما أتيح للأستاذ النمر أن يعكف على دراسة تاريخ الهند الاسلامية في مختلف عهودها ، وأن يدون نتيجة دراساته في مقالات وأبحاث كان منها ما نشرته هذه المجلة ـ فقد أتيح له أن يخرج من هذه البحوث ـ أخيراً ومما أضافه اليها ، كتاباً ضخماً في هذا الموضوع تعتز به المكتبة العربية » .

وجاء في مجلة الحج أيضاً من حديث طويل للأديب الكبير ، الناقد المعروف الأستاذ (المرحوم) مصطفى عبد اللطيف السحرتي « أود أن أحيي بكل اخلاص الأستاذ عبد المنعم النمر لأمرين : أولها وأهمها في نظري روحه البحاثة المتفتحة البناءة الطلعة . وثانيهما كتابه القيم (تاريخ الاسلام في الهند) الذي أسجل انطباعاتي عنه في هذه الكلمة . فلقد كشف الأستاذ النمر في بعثته الى الهند ، أنه ليس فقط خير سفير من سفراء الدين والثقافة في بلاد أجنبية ، بل انه مثال حي لكل

عالم ومفكر يذهب الى بلاد غربية ، باحثاً ومنقباً ومحققا . وقارئاً ومنصتاً ومشاهداً ، وجامعاً لقراءاته الواسعة ، ومشاهداته المنوعة في دفتي كتاب جامع . .

وهذه الروح المتفتحة البناءة العاملة ، وهذه الثمرة التي أنبتتها هذه الروح تجعلاننا نقف موقفنا هذا لنهنىء صاحبها ، ونشيد بمثاله الحي المستنير ، لأننا نشهد جل من يذهبون الى الخارج يعودون بلا ثمرة . . يذهبون كما يقول المثل الفرنسي كالأجولة ، ويعودون كالزكائب الفارغة » .

وختم حديثه التحليلي الطويل بقوله :

« هذه بعض انطباعات طافت بذهني وأنا أتصفح كتاب الأستاذ النمر هذا الكتاب البكر في العربية ، والذي أنفق فيه المؤلف جهوداً جبارة في تأليفه ، بالرجوع الى مصادر أصيلة ، عربية وغير عربية ، وبالرجوع الى مشاهداته في رحلاته ، وتصحيح طائفة من الوقائع التاريخية الخاطئة التي لمسها بنفسه ، وهو بهذا يضيف اضافات قيمة الى التاريخ الاسلامي في بلاد الهند ، ويبرز صوراً حية من أمجاد العرب وبطولاتهم ومفاخرهم ، مما يجعلنا بحق نكرر له الحمد على جهوده ، ونضاعف لشخصه التقدير والثناء .

وكتبت جريدة « العلم » التي تصدر بالرباط بالمغرب في ابريل 1959 تعليقاً على الكتاب جاء فيه :

« في هذا الشهر صدر في القاهرة كتاب كبير وهام للأستاذ عبد المنعم النمر عنوانه (تاريخ الاسلام في الهند) يعتبر أول كتاب في مادته باللغة العربية ، يسجل تاريخ المسلمين الأمجاد الذين حكموا الهند مدى ثمانية قرون ونصف ويتحدث في تفصيل عن الآثار والحضارة الاسلامية الرائعة ، التي تركها المسلمون في الهند بأسرها ، مما لا يزال محل اعتزازها وفخرها للآن » . ثم أخذ الكاتب بعد ذلك يسرد في ايجاز فصول الكتاب . .

وكتبت جريدة الحياة البيروتية في 18-11-1959 تعليقاً على الكتاب جاء فيه :
« تاريخ الاسلام في الهند » كتاب ما تكاد تفتح الصفحة الأولى من صفحاته ، حتى تتفتح أمامك أبواب من المعرفة والبحث ، لولا جهد المؤلف لبقيت مغلقة الى أمد بعيد . . »

ثم استعرض الكاتب في ايجاز فصول الكتاب وختم كلمته بقوله :

«هذه إلمامة عابرة عن الكتاب القيم، الذي طلع به على العربية العلامة الجليل الأستاذ عبد المنعم النمر ، ونقله لأصدقائه وعرف عنه المجاهد الكبير محمد علي الطاهر ، ونحن في انتظار الجزء الثاني ، لا يسعنا الا أن نزجي الشكر للأستاذ النمر على جهده العلمي مكبرين حصافة رأيه وأدبه » .

وكتب المؤرخ الهندي الكبير مولانا محمد ميان مدير جمعية علماء الهند مقالا تحليلياً طويلا في جريدة « الجمعية » التي تصدر في دلهي باللغة الأوردية ، وذلك في عدد 22 نوفمبر 59 أنقل لك هنا فقرات مترجمة عنه :

« كتاب جديد صدر في القاهرة ، عن تاريخ الاسلام في الهند باللغة العربية ، لمؤلفه الأستاذ عبد المنعم النمر ، وهو يحتوي على تاريخ الهند من بدايتها الى ما قبل مائة سنة ، أى الى الانقلاب التاريخي العظيم سنة 1857 م .

«ومراجع هذا الكتاب كلها مراجع علمية تاريخية موثوق بها ، ولم يقتصر على تاريخ الملوك وأصحاب التيجان فحسب ، بل ترى فيه أيضاً ما لا بد منه لباحث تاريخي لامة ما . .

وانني اريد أن أبين للقراء الحوافز الطيبة التي حملت المؤلف على أن يسهر الليالي الطوال ، ويعكف طوال اقامته في الهند على كتابة تاريخ لها . . فالهند لها تاريخ مجيد ، وقد أنجبت علماء ورجالا لهم مكانتهم في ميادين العلوم والفنون والحكم ، وخلفوا وراءهم تاريخاً ضخماً عظيماً ، ولكن مما نأسف له أننا لم نر واحداً من علماء

الهند ،طوال هذه المدة ،قد أدى واجب الوفاء نحو وطنه ،بكتابة تاريخ مفصل له بطريق علمي دقيق ،مما جعل العرب لا يعرفون عنا الا معرفة بسيطة جداً ،حتى جاء الينا المؤلف ،وأقام بيننا ،وكان هذا بلا شك من حسن حظنا ، وحظ أسلافنا الأمجاد ،فقد بهره ما رأى من آثارهم ،وما علم من تاريخهم ،فعكف على التنقيب عنه وتدوينه ،وتحمل في سبيل غرضه النبيل ما تحمل من المشاق ،عن طيب خاطر ، حتى وضع أما م القراء ثمرة كفاحه ،ممثلة في هذا الكتاب ،الذي أقول عنه بلا تردد ولا مجاملة : انه كتاب جامع وكامل من جميع نواحيه ،ومنصف لتاريخ الاسلام والمسلمين في كل سطر فيه . .

« وقد لفت نظري وأثار اعجابي ـ وقد أخرجت كثيراً من كتب التاريخ ـ أن المؤلف لم يقتصر على سرد حوادث التاريخ ،بل علل لها وحلل الحوافز والدوافع عليها ،وأصدر أحكاماً منصفة ،خفيت على كثير من المؤرخين الهنود وأخفاها المؤرخون غير المسلمين عمداً . . وترى هذا بشكل واضح فيما كتبه عن « أكبر » و « أورنجزيت » وعن « الغرب يتحرك نحو الشرق » .

« وهذه الناحية التي بينت فلسفة التاريخ ،أهم عندي من التاريخ نفسه . . وأننا هنا في الهند ،لا نملك الا أن نقدم الشكر للمؤلف الجليل ،ناصحين أبناءنا من طلاب المدارس العربية الاسلامية والجامعات المختلفة ،أن يعنوا بمطالعته ،راجين من المسؤولين فيها أن يقرروه في مناهجهم الدراسية » .

ولهذا التقرير الذي كتبه المؤرخ الهندي الكبير قيمة خاصة عندي ، باعتبارها صادرة من عالم متخصص في كتابة تاريخ المسلمين في الهند وله عدة مؤلفات في ذلك .

وتحدثت عن الكتاب صحف ومجلات عربية وهندية وباكستانية أخرى أرى أن المجال لم يعد يتسع للنقل عنها .

كما جاءتني رسائل شخصية كثيرة من مختلف البلاد العربية ، ومن الهند

وباكستان اعتز بها جميعاً ، وأختار منها رسالتين :

رسالة من قارىء ، لم يسبق لي شرف الاتصال به وهو السيد / محمد منلو من حمص ـ سوريا .

فقد ذكر أنه أفاد من قراءة الكتاب تصحيح كثير من احكام التاريخ عن المسلمين في الهند ، تلك الأحكام التي شحنت بها الكتب المترجمة عن الغربيين وتدرسها جامعاتنا ـ وقال :

« ما كنت أعلم الحقيقة حتى ظهر كتابكم ، فجلاها وأظهرها ناصعة . ان طلاب مدارسنا وجامعاتنا لا يعرفون من تاريخنا الأغر ، سوى ما يكتبه المستشرقون ، ومن ينقلون عنهم من علمائنا ، ولا يدرسون من تاريخهم عشر معشار ما يدرسونه عن الغربيين ، ونهضاتهم . والنتيجة الحتمية لهذا تسمم أفكار شبابنا ، واهمالهم ، ان لم يكن استهتاوهم بأمجادنا ، واعجابهم بالأجانب المستعمرين . فكم نحن بحاجة الى أمثال مؤلفكم للكشف عن تاريخنا المشرق ، وتنقية تراثنا من دسائس المستشرقين . . » .

ورسالة من الهند جاءتني من الأخ العالم الهندي الكبير الاستاذ ابي الحسن الندوى ـ وهو الخبير بتاريخ الهند ـ يقول فيها :

« أعجبني ما قرأت ، وتعجبت من سرعة ادراككم لكثير من الحقائق التي خفيت على كثيرين ، وأعجبني بصفة خاصة الفصل الخاص بالسيد الامام (احمد بن عرفان الشهيد) وهو موضوع يدق فهمه ، ويصعب الانصاف فيه على كثير من المؤرخين والكتاب ، وأعترف بصراحة أن الكتاب قد سد فراغاً عظيماً في المكتبة العربية العصرية ، وأهنئكم على هذا التوفيق . وحسب الشعب الهندي المسلم ابرازكم تاريخه ومآثره ، والانتصاف له من الذين يجحدون فضله ، ويغمطون حقه من المؤرخين الأوروبيين والشرقيين غير المسلمين ، أو يجهلون مكانته من اخواننا العرب المثقفين الخ . . » .

ومصدر اعتزازي بهاتين الرسالتين أنهما ليستا الهدف الذي حملني على تأليف هذا الكتاب . .

والآن . وبعد مضي نحو اثنين وعشرين عاماً على الطبعة الأولى نفدت فيها نسخ الكتاب مع كثرة طلابه ، وحالت ظروف دون اعادة طبعه .

الآن ، يسرني أن أقدم الطبعة الثانية من الكتاب ليعود إلى المكتبات بعد نفاده ، ويجده الراغبون فيه بعد ان افتقدوه مدة غير قصيرة . شاكراً لله أنعمه ، ومقدراً للقراء والعلماء منهم بخاصة ـحرصهم عليه وتقديرهم له . والله المستعان . .

40 شارع صالح حقي ـ مصر الجديدة

دكتور عبد المنعم النمر

أضواء على الهند

الهند

كانت كلمة « الهند » حينما يذكرها الكاتب قبل سنة 1947 يريد بها تلك البلاد الواسعة التي تشمل دولتي باكستان والهند الآن .. ونحن حينما نؤرخ للهند نريد بها ذلك المعنى الواسع .. ولم يكن الكاتب أو المؤرخ بحاجة إلى مثل هذا التنبيه قبل سنة التقسيم أعني سنة 1947 أما الآن فأجدني محتاجاً إلى هذا حتى لا يلتبس الأمر على القراء ..

وتستمد الهند اسمها من كلمة « سندهو » وهو الاسم الهندي لنهر « الأندوس » وهو نهر « السند » ومن هذه الكلمة اشتقت كلمتا « اند » « وهند » (ومعناهما الأرض التي تقع فيما وراء نهر الأندوس) وأصبح سكان هذا الأقليم يسمون الهندوس أو الهنود كما أصبحت بلادهم تعرف بالهندوستان(1)

على أن « جو ستاف لوبون » في كتابه حضارة الهند(2) أبدى رأياً آخر وقال يحتمل اشتقاق هذا الاسم من اسم إله الهنود « اندرا »

---

(1) حقائق عن الهند أصدره قلم الاستعلامات الهندي .

(2) ص25 ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

وأياما كان الأصل لكلمة « الهند » فأننا نعني بها البلاد الشاسعة التي يحدها من الشمال سلسلة جبال الهملايا ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع أفغانستان وإيران ثم تمتد الهند إلى الجنوب في شبه جزيرة يقع بحر العرب في غربها وخليج البنغال في شرقهما وسيلان في طرفها الجنوبي ويتجه الأقليم الشمالي منها إلى الشرق حتى جبال آسام .

وإذا أردنا تحديدها بخطوط الطول والعرض أمكن أن نقول إنها تقع شمال خط الاستواء بين خطي عرض8 ، 37 . وخطي طول61-100 شرق جرنيتش فهي بذلك تقع في الأقليم الحار والأقليم المعتدل وفيها من الفصول المناخية ثلاثة : الفصل الحار من ابريل تقريباً إلى يونيو حيث تبلغ الحرارة ذروتها ثم يبدأ فصل الأمطار الموسمية التي تخفف قليلا من حدة الحرارة وإن كانت تظل شديدة ويبدأ في الشمال من يوليو إلى سبتمبر ويبدأ قبل ذلك في الجنوب ويسقط بغزارة شديدة يصحبه رعد وبرق لم أحس مثلهما في البلاد العربية وكثيراً ما تسبب هذه الأمطار سيولا وفيضانات تقضي على الحرث والنسل وتخلف وراءها خرائب وبؤساً وأمراضاً متعددة وقد شاهدت ذلك وسمعت عنه في المدة التي قضيتها في الهند وأغزر مناطق الهند بالمطر هي المناطق الشرقية مثل البنغال وآسام .

ثم يبدأ فصل الشتاء ويكون دافئاً في الجنوب بينما تبلغ البرودة ذروتها في الشمال في ديسمبر ويناير وتسقط الثلوج وتتجمد المياه قريباً من سفوح الهملايا . . وفي هذه السنة أعني1956-1957 مات كثير من

الناس وهلكت آلاف المواشي من شدة البرد(1) ويوجد في المناطق الشمالية المصايف الممتعة كما في سملا ومسوري وغيرهما من بلاد الشمال أما كشمير التي تقع في منتهى الشمال الغربي فهي باردة جداً شتاء بينما صيفها معتدل لا تحس فيه حرارة لا سيما على المرتفعات التي تعتبر من أحسن المناطق الهندية وأمتعها في الصيف حيث تمتاز بمناظرها الطبيعية الخلابة مع جودة الهواء .

وتبدو لك جدران المدن والقرى وسطوحها أثناء فصل المطر وكأنها حقل نبتت فيه أنواع مختلفة من العشب فأن التراب الذي يعلو سطوحها أو يكون بين الأجر في جدرانها كثيراً ما يكون فيه بذور أعشاب مختلفة فإذا نزل المطر نبتت هذه البذور ونمت وقد تتسلق الجدار لعدة أمتار وقد شاهدت بعض الأهلين يجزون هذه الأعشاب من فوق السطوح والجدران بالمنجل ويقدمونها لدوابهم أو يتركونها تجف للوقود . وحقاً كان منظراً فريداً لم أر مثله من قبل . .

أنهارها :

وفي الهند أنهار عظيمة بعضها ينبع من الشمال حيث جبال الهملايا ويصب في بحر العرب مثل نهر السند أو نهر « الأندوس » وفي مجراه الأعلى تمده بعض الروافد لا سيما تلك التي تجري في البنجاب ، أو بلاد

(1) كما نشرت صحيفة « الجمعية » وغيرها من الصحف الهندية والطبيعة لا تتغير عما كانت عليه قديماً

الأنهار الخمسة . . فأن « ينج » معناها خمسة « وآب » معناها نهر . . وهي من أخصب بلاد الهند وأكثرها عمراناً . . وبعض هذه الروافد ينبع من كشمير ويعتبر نهر السند من أطول أنهار الدنيا إذ يبلغ طول مجراه 2900 كيلومتراً .

ومنها نهر الكنج أو حسب ما ينطقون « كَنكَا(1) » وهو النهر المقدس لدى الهندوس الذين يغتسلون في مياهه ليتطهروا من ذنوبهم ويتدفق من جبال الهملايا من ارتفاع أربعة آلاف متر ويعتبر الصعود إلى هذا المكان عند الهندوس من أعظم القربات ويقول « جوستاف لوبون »(2) « إن الأوروبيين هم أول من ارتقى إلى هذا المكان وحاول الهندوس تقليدهم والحج إليه فهلكوا » .

وعلى شواطىء كَنكَا ، تقوم معابد كثيرة يؤمها الملايين من الهندوس للعبادة أو التطهر . ومن أكبر الأنهار التي تنبع من همـلايا أيضـاً نهر « جمنا » وقد ذهبت إلى الهملايا حيث منبع ذلك النهر ورأيته يأتي من بعيد وسط الجبال ولم نكن في فصل الأمطار الكثيرة لذلك رأيته وفيه قليل من الماء الجاري في قنوات وسط مجراه . .

ويلتقي في طريقه إلى الشرق بنهر كنكا عند مدينة « إله أباد » أي

---

(1) هذه الكاف ذات الشرطتين « كَ » كاف فارسية ونطقها كنطق الجيم عند أهل القاهرة أو كنطق القاف في الريف بين الجيم والكاف وستمر بك كثيراً .

(2) ص38 حضارة الهند

مدينة الله بعد أن يمر جمنا في طريقه بدلهي وآكرا وكثير من المدن . . وقريباً من « إله أباد » قامت مدينة بنارس المقدسة عاصمة الهندوسية في الهند(1) ومن مياه نهر « كنكا » المقدسة كان ولا يزال الهنود يحملون الماء لغسل معابدهم وتطهيرها . . وفيه يرمي الهنود جثث موتاهم . وقد حاول الانجليز منعهم من ذلك ولكنهم لم يفلحوا ويقول جو ستاف لوبون(2) : «إن الهندوس ثاروا على الانكليز لما أرادوا فتح قناة كبيرة تأخذ مياهها من نهر كنكا المقدس ولكنهم شقوها برغم هذه المعارضة » ويسير « كَنكَا » حتى يصب في خليج البنغال . . بعد أن تتصل به كثير من الأنهار الكبيرة في الهند . . ويبلغ طوله 2420 كيلومتراً . .

ومن الأنهار الشهيرة أيضاً نهر براهمايترا الذي يجري في البنغال آتياً من الشمال الشرقي حيث جبال هملايا وأسام ويلتقي عند مصبه بأحد التفرعات التي يتفرع إليها كَنكَا عند مصبه .

وهناك عدا هذه أنهار تجري في وسط الهند حيث تنحدر من جبال في وسطها وتتجه غرباً لتصب في بحر العرب . . ويقدس الهنود احدها وهو « نريدا » الذي يصب في بحر العرب قريباً من « سورت »هو ونهر

---

(1) جاء في مجلة ثقافة الهند مارس1954 « هناك عند ملتقى نهري كنكا وجمنا » على مقربة من مدينة « إله أباد » اتخذ الهندوس هذا المكان وما حوله من قديم الزمان تقليداً دينياً هو أن يجتمعوا فيه من كل أقطار البلاد زرافات ليتبركوا بالغسل فيه ويستمر هذا الاجتماع الحاشد شهراً كاملا . . وتدل احصاءات هذا العام على أن أربعة ملايين من الزوار تقريباً حضروا يوم « اشنان » أي الغسل . (2) ص39

آخر يسمى « تايتى » وفي جنوب الهند عدة أنهار صغيرة منحدرة تتجه شرقاً لتصب في خليج البنغال أو غرباً لتصب في بحر العرب . .

والذي اطلعت عليه هن الكتب عن أنهار الهند وما لاحظته على العموم فيها أنها غالباً تسير دون حواجز تحد سيرها حيث لا تجد جسوراً على الجانبين كتلك التي نراها على النيل ولذا تجد النهر يجري حراً كما يشاء وكلما كثرت مياهه فاض على الجانبين وأغرق الزرع والقرى وجرف أمام تياره الكثير منها . . وذلك برغم ما قامت به الحكومات المتعاقبة التي حكمت الهند منذ مئات السنين وبرغم السدود الكثيرة التي أنشئت على بعضها للاستفادة منها في ضبط مياهها ، واستخراج الكهرباء من انحدارها . .

ومع ذلك فأن هذه الأنهار العظيمة وغيرها من الأنهار الكثيرة لم تف أرض الهند الشاسعة بحاجتها من الماء فإن كثيراً من الأراضي لا تمتد إليه مياه الأنهار ويعيش على الأمطار والأبار الارتوازية فالجهات التي تروى عن طريق الترع والأنهار لا تزيد على20 ٪ من مجموع سطح البلاد وهذه الجهات هي التي يستطيع الزراع فيها أن يعملوا مدة تراوح من ستة أشهر أو ثمانية كل عام . أما في سائر الجهات حيث تعتمد الأرض على الأمطار في ريها فأن مدة العمل الزراعي بها لا تكاد تتعدى أربعة أشهر في السنة »[1] .

وهذا الاحصاء على وجه التقريب لأنه يخص الهند الحاضرة لا الهند

---

(1) من نشرة للحكومة الهندية تحت عنوان « الهند والعالم العربي » ص34

التي نتكلم عنها وهو على كل حال يعطينا فكرة عامة في هذا الموضوع . . أما المدن والقرى فأنها تعيش غالباً على ماء الآبار وتجد فيها حاجتها بسهولة لكثرة ما يتسرب إلى باطن الأرض من مياه الأمطار والأنهار . .

وفيما عدا فصل الأمطار تجد بعض هذه الأنهار العظيمة قد تحولت إلى قنوات صغيرة وظهرت رمال مجرى النهر أو طميه وقام الفلاحون بزراعته . .

وقد مر بي القطار على جسور (كبارى) وصل بعضها إلى ما يقرب من كيلو متر ولم يكن تحته من المياه إلا قناة صغيرة وأما الباقي فكان مزروعاً أو يعد للزراعة . . ونهر جمنا الذي يفيض كل عام ويغرق كثيراً من القرى والمزارع ويهدد دلهى وغيرها بالغرق أراه بعد انتهاء فصل الأمطار قناة صغيرة يخوضها الناس بينما تمرح أفواج البقر على شاطىء القناة فوق الرمال بعد أن انحسرت عنها المياه ونشرت الملابس البيضاء التي اعتاد الغسالون غسلها ونشرها على الرمال على شاطىء المياه . .

زراعتها :

مما لا شك فيه أن بلاداً واسعة كالهند مختلفة في تربتها وأجوائها وارتفاعها وانخفاضها يمكن أن تجد فيها من أنواع النباتات ما لا تراه في غيرها ويمكن أن أترك الكلام في هذا لأحد علماء الهند الكبار وهو العلامة المرحوم الشريف مولانا عبد الحى الحسنى الذي وضع كتاب « الهند جنة المشرق ومطلع النور المشرق » . وهو لم يطبع حتى كتابة

هذه السطور وإن كانت مجلة « ثقافة الهند » قد عنيت بنشر نبذ منه وأنا أنقل لك هذا مما ذكرته المجلة في عدديها الصادرين في مارس ويونيو سنة 1954 . . يقول : « أما حاصلات هذه البلاد فكثيرة جداً . . اعتنى العلماء بجمع أنواع نباتها وأشجارها فكانت أكثر من ثمانية آلاف نوع من النبات وأربعمائة وسبعة وخمسين نوعاً من الشجر وما زالوا يكتشفون غيرها في أجام البلاد ورياضها » . .

فمن حاصلاتها الحنطة والشعير والذرة والأرز والعدس بأنواع مختلفة والحمص وغيرها ولا سيما الأرز الذي يذكرّون منه سبعة وعشرين صنفاً .

ومنها قصب السكر والقطن والتبغ والتوت والنارجيل والنخل والخيزران والخشخاش ، الذي يؤخذ منه «الأفيون والشاي والتنبول» وهو المعروف في الهند باسم « البان » يمضغون أوراقه وشجره يشبه العنب غير أنه لا ثمر له وينتفع بورقه في المضغ وهو عام شائع في الهند يمضغه الرجال والنساء بعد أن يضعوا عليه القات والنورة (الجير) وقطع الفوفل والجهان ويسمونه (إيليجي) وهو معروف في الحجاز باسم « هيل » وقرنفل وكثيراً ما يضيفون إليه التبغ . .

قال الشيخ أحمد بن علان :

لطائف الهند ثلاث أتت　　الأنب والنرجس والبان
قال لى الخان نسيت النسا　　والحق ما قاله الخان

ووصف المسعودي التنبول من تسعة قرون فقال : تنبت أرض

الهند ورقاً يسمى « التنبول » فإذا مضغوه مضيفين إليه الجص والفوفل تحمر الأسنان كأنها حبات الرمان ، ويمتلىء الفم بالرائحة الطيبة ويفرح القلب . وأهل الهند لا يستحسنون الأسنان البيضاء التي يصبغها التنبول بالحمرة » اهـ .

ولعل رأيه هذا يرجع إلى زمانه فإن الناس الآن يجتهدون في إزالة هذا اللون بمختلف المواد ولو أنك تجد أثره دائماً في أفواههم . وإذا مضغوه تكون لعاب أحمر كثير يتخلصون منه فيخيل لك أنه دم ولا زال الناس في الهند يتناقلون نادرة علق بها أحد شعراء فارس على هذا المنظر فقال : عجبت في الهند لرجال يحيضون من افواههم . .

« ومن اثمارها الموز والرمان والأترج واللوز والعنب والتمر هندي والليمون والأنبه (المانجو)(1) وفي الجهات الشمالية التفاح والأجاص .

---

(1) تكثر أشجاره وتتنوع ثماره حتى ذكروا أن أنواعه تزيد على المائة نوع ويصنعون منه وهو أخضر المخلل . ولا يعرف من عشت معهم في الهند عصيره كما نعرفه في مصر . . حتى كانوا يدهشون حين نقدمه إليهم . . وزراعة المانجو في مصر نقلت عن الهند ولا زلنا نسمي كثيراً من أنواعها بالهندي .

وقد نقل صاحب « جنة المشرق » شعرا لأحد شعراء الهند وهو مولانا ذو الفقار علي الديوبندي يتغزل فيه بالمانجو ويذكر أنواعها وأوصافها فيقول :

إن كنت تبغي أطيب اللذات   فعليك صاح بأطيب الثمرات
في حسن مرأى في نباهة سيرة   في لطف ذات سمو صفات
من طعمها في كل قلب شهوة   فكأنها مجموعة الشهوات
يا حسن خضرتها وحمرتها وصفرتها   على الأشجار في الروضات
لم تختلف كمثالها الأثمار في الألو   ان والأذواق والهيآت
هذا ولا تحببه صنفا واحداً   بل جملة الأصناف مختلفات
سبحان من بالفضل فضلها على   أشهى مذوقات ومشمومات

« ومن الأشجار شجر التيك (المعروف بالساج) الذي تصنع من أخشابه السفن وشجر القرفة والصندل والفوفل والنيل والأبنوس » وكثير من الأشجار ذكر المؤلف اسمها بالهندية حيث اصطلاحهم الذي لا نعرف مدلوله . .

وقد ذكر جوستاف لوبون مثل هذا وتكلم عن زراعة الخشخاش وما ينتجه من الأفيون الذي يعد من أهم صادرات الهند التي تسببت في الحرب بين الانكليز والصين « وهي الحرب المعروفة بحرب الأفيون » حيث أرغموا الصين على إدخال أفيون الهند إليها . . وتحدث عن زراعة القنب والحبوب الزيتية الكثيرة وعن الشاى ومركز الهند من حيث تجارته وعن خشب السال وما ينتجه من القطران والصمغ وعن شجر التيك (الساج) الذي يتحول بعد حرقه إلى فحم جيد وقد شاهدت كثيراً من أشجار السال تكسو منحدرات جبال الهملايا عند زيارتي لها . كما شاهدت أماكن تحويل الخشب إلى فحم . .

وأشجار الصنوبر تكسو أعالي الجبال كما توجد أشجار البلوط هذا عدا أصناف الفواكه ونباتات المنطقة الحارة التي تنبت بالجنوب . .

وقد شاهدت في الهند أشجاراً لم أرها في حياتي كما شاهدت كذلك أزهاراً غريبة في ألوانها وروائحها . .

وكثير من الفواكه والمحصولات لا نزرعها في مصر مع اعتقادي أنه يمكن زرعها هنا لو عنينا بزراعتها . .

حيواناتها :

لعل أقرب شيء إلى تصور الانسان حين يذكر الهند هو الفيل وكثيراً ما نسمع في مصر هذه الجملة « الهند والسند وبلاد تركب الأفيال » ويتفنن الخيال في هذه الناحية فيصور للانسان أن الأفيال كثيرة في الهند كثرة الغنم في مصر . . ولكن سرعان ما يتبدد هذا الخيال عندما يسير الانسان في الهند ويمكث فيها كثيراً فلا تصادفه الأفيال التي كان ينتظرها . . وقد مكثت أكثر من سنتين ولم أر إلا عدداً قليلا جداً من الأفيال ولا يزيد عن عشرة مع اني تنقلت في أكثر بلاد الهند . . وعرفت أن ثمن الفيل يبلغ أربعة آلاف روبية على الأقل أى300 جنيه وليس هذا هو المهم بل المهم بعد ذلك هو تغذيته التي تتطلب نفقات كثيرة ، وقد كانت من قبل يستخدمها الملوك في الحروب والزينة كما تستعمل في حمل الأثقال أو اقتناؤها شيئاً نادراً في الهند ولا يقتنيه إلا الحكومة ويذكر « جوستاف لوبون » من ثلاثة أرباع قرن تقريباً أن الناس يصطادون منها كل سنة نحو مائة بالكمون والفخاخ حتى تكاد تبيد وأكثر ما توجد في غابات آسام كما يوجد فيها وفي جبال هملايا كثير من الوعول والتيوس والدببة والحيوانات المفترسة وإن كانت الأساد تكاد تبيد كذلك . . أما النمور فكثيرة في الغابات لا يطاردها الناس عادة لما تتمتع به من احترام الهنود وما تقوم به من افتراس بعض الحيوانات الضارة في الوقت الذي لا تهجم فيه على أحد . . وإذا صادف النمر وهجم على أحد نتيجة لشدة الجوع فأنه يصبح خطراً بعدما يتذوق طعم الإنسان إذ أنه لا ينفك عن مهاجمته أينما وجده حتى يخرب بلاداً بأكملها ويفتك بالمئات من الناس .

ومن العجيب أن النمر يتحول في هذه الحالة إلى نوع من القداسة التي يمنحها الهندوس لآلهتهم كما يفعلون أكثر من ذلك مع الحية الخطيرة المعروفة « بالكوبرا » إذ يقدسونها نتيجة لما تبعثه في نفوسهم من الخوف(1) .

ويجوار هذه الحيوانات توجد التماسيح والسكركدن والضباع والقردة . . وهذه توجد بكثرة وفي كل مكان تقريباً حيث تعتدي على المزارع والبيوت وكثيراً ما شاهدتها في أسفاري تعلو القطارات في المحطات الكبرى وتقفز من أحدها إلى الآخر كما شاهدتها في دلهى ولكهنو وسهارا بنور وغيرها من المحطات . . وقد حدث لى مرة أنني كنت أضع بجانبي في القطار شيئاً من الموز وكنت في محطة « رورکی » قادماً من « مراد أباد » « إلى سهارا نبور » أتحدث مع زميلي فإذا بالقرد يدخل بخفة وسرعة من النافذة ويخطف الموز ولم نحس به إلا وهو خارج ثم وقف بعيداً منا وأخذ يقشره ويأكل وهو ينظر إلينا كأنه يغيظنا ويشمت بنا ومن يدرى لعله يهزأ بالانسان وهو ينظر إلينا . . وبجوار هذه الحيوانات توجد أنواع كثيرة أخرى لا يمكن أن تجدها في غير الهند فالطاووس يمكن أن تجده كثيراً في الأراضي يختال بذيله الطويل في الفضاء وكنت أنظر إليه وأتصور تلك المرات القليلة التي رأيته فيها في حديقة الحيوان في مصر محبوساً داخل الأسوار . . وقد حاول بعض الاصدقاء الذين كنا في زيارتهم أن يصيدوا لنا منها ولو واحداً وكان قريباً

---

(1) وقد رأيت المعابد وقد رسم عليها صور كثيرة للحية .

منا في متناول البندقية لكنهم لم يستطيعوا أن يقربوه لما يتمتع به من تقديس لدى أغلبية سكان المنطقة من الهندوس ، وصيده يجر مشاكل وثورات لا حد لها وربما يعقب ضحايا من المسلمين والهندوس على حد سواء وتساءلت : فكيف تصطادونه اذن ؟ قالوا في الصحراء حيث لا يعلم الهندوس وبعد ذلك أصطادوا طاووساً كبيراً ولحمه يفضل لحم « الرومى » المعروف في مصر أثناء رحلة في غابات الهملايا مع بعض الأصدقاء من بلدة « بهيت » أصطادوا عدة طواويس وكان عندي واحد ظل في البيت عدة شهور ، والهند تحرم تصديره أو تصدير ريشه . .

أما الغزلان فكثيراً ما رأيناها تعدو أمامنا في المزارع وهي إن كثرت أتلفت الزرع وضج منها الزراع ، والنسور التي تكثر في الهند كثرة الغربان في مصر تجدها في كل مكان تعلو الشجر بالعشرات أو تتجمع على فريستها التي ألقاها الناس من الحيوانات الميتة تنهشها وتريح الناس من رائحتها ومن كثير من المواد الضارة في الأرض ، والحدأة البيضاء الكبيرة الحجم تكثر في كل مكان ، أما الغربان فهي كالجراد وتكاد تزعجك بأصواتها في الصباح والمساء ، وكم تجمعت حولنا ونحن نأكل في حديقة المنزل ، وكثيراً ما كانت تهجم على « هشام » الصغير وتأخذ ما بيده وهو ينازعها وهي تنازعه حتى يستسلم لها وتستولي على ما بيده . .

وفي الصيف تكثر الحشرات وتهجم الثعابين والعقارب على الناس في بيوتهم . وقد اعتذر تلميذ لي مرة عن حضوره ليلا لأن الحارة التي يسكن فيها يوجد بها ثعبان يهجم على الناس حتى أصاب رجلين . .

وفي كل بيت تجد العقارب تمشي وتلدغ من تصادفه . . وقد قتلنا في البيت في فصل الصيف نحو خمسة وعشرين عقرباً كنا نجدها أحياناً بجانبنا ونحن جلوس وربما سعت إلينا ونحن في السرر[1] وقد أصابنا فزع شديد من هذه الحالة ولكنا رأينا عجباً . . فأن لدغة العقرب لا تقضي إلى الموت كما تشاهد في مصر . . وكم دهش الذين سمعونا نتحدث عن الموت من لدغتها ، فهم لا يعتبرونها إلا كما نعتبر لدغة الزنبور في مصر . . وهم يداوونها غالباً بالتعاويذ والتفل على موضعها .

وكنا نكذب أولا مثل هذه الأخبار لكنها تواترت بشكل لا يدعو إلى الشك وفي المكتب حيث كان ولدي « محمد » يحفظ القرآن لدغت العقرب ولداً فأتى ولدي يحدثني عما فعله « القارىء » الذي يحفظهم القرآن وكيف أنه قرأ كلاماً ثم تفل على موضع اللدغ فخف الألم وجلس الولد يتابع الحفظ كأنه لم يحدث شيء[2] .

وبجانب التعاويذ يوجد دواء يحضره الأطباء اليونانيون الذين تشتهر بهم الهند أو تختص بهم ويصنعونه من وضع ذيل العقرب مدة في الزيت .

أما الحشرات الأخرى الصغيرة ولا سيما الطائرة منها فما أكثر أنواعها ولشدة ما كانت تضايقنا في الصيف حتى لتعطل الإنسان عن العمل

---

(1) هكذا كان حالنا في « ديوبند » البلدة التي كنت أدرس في كليتها الاسلامية « دار العلوم » .

(2) وقد قرأت بعد ذلك بحثا عن العقارب وعرفت أنه يوجد منها نوعان نوع سام قاتل ونوع آخر لا تقضي لدغته للموت ولعل ما في الهند غالبا من النوع الأخير .

ليشتغل بكفها بعيداً عنه . . ولكني كنت مع ذلك أقف مشدوهاً أمام الفراشات المتعددة الأشكال المتنوعة الألوان الجميلة ، وكان الأولاد يجرون وراءها ويمسكونها ويتفرسون في أشكالها وكنت أنظر إليها وأرى في جمالها صنع الله الذي أتقن كل شيء . . حقاً إن الهند بلد العجائب .

ومما شاهدته أيضاً نوع من الطيور يسمى « الدراج أو النيتر » وهو نوعان : كبير يتآلفه الناس ، ويشبه في لونه الفراخ الرومي المعروفة في مصر ، ولو أنه أصغر منها حجماً ، وقد أحضرت منه عدداً في البيت إعجابا بشكله وعاش مع الدجاج والبط . . ونوع أصغر منه ويستعمله بعض الناس في قتال بعضه بعضاً ثم يكسب صاحب الغالب منه الرهان ويتجمع الناس كثيراً لمشاهدة الحرب بين هذين الطائرين . .

وبمناسبة هذا أذكر أيضاً أنني شاهدت كثيراً من الناس يتجمعون حول ما نسميه الحاوى في مصر يشاهدونه وهو يتولى بأنغام مزماره ترقيص الحيات وقد أبت التقاليد المضروبة على مثلى ، أن أشاهد مثل هذا المنظر وهو قريب مني مع شدة رغبتي في مشاهدته . . وكم وقفت التقاليد بين الإنسان وبين كثير مما يحبه ويشتاق إليه ليرضي رغبة حب الاستطلاع عنده . .

معادنها :

ربما كان ذكر الهند مدعاة لخيال واسع عن ذهبها السيال وغيره من الكنوز التي تتحدث عنها القصص ، وعن الثراء الذي يتحدث عنه التاريخ عندما يقص علينا أنباء الملوك وثرواتهم الذهبية . وسترى فيما

سيأتي من أنبائهم أخباراً كثيرة عن الذهب والأحجار الكريمة التي كان الملوك والحكام والأغنياء يزينون بها ملابسهم وتحفهم ويملئون بها خزائنهم . .

وقد كان ذلك مصدر ثروة فيما مضى . . وإن كان الآن كما يقول جوستاف لوبون قد نفد تقريباً . ويوجد خلاف ذلك الحديد ومحاجر الرخام الجيد التي كانت تمد الملوك بما يشيدون به المساجد والمباني الفخمة وأشهر هذه المحاجر « مكرانه » في راجبوتانا حيث كانت ولا تزال مصدر الرخام الجيد بأنواعه المختلفة وبجوار ذلك توجد مناجم الفحم الحجري وجبال الملح كما يسمونها . . وقد كان للملح دور كبير في حركة التحرير والعصيان المدني بالهند حين قام « غاندي » يدعو إلى مقاطعة الإنكليز والاستغناء عن الملح الحكومي ، ولا شك أن الطرق الحديثة في استغلال معادن الأرض تساعد كثيراً على استخراج بعض المعادن التي لم تعرف طريقة استخراجها فيما مضى او تحسين استغلال ما عرف منها من قبل ، حيث أخذت الهند تستغل بشكل واسع مناجم الحديد والمنجنيز وتعد الهند الحديثة ثاني دول العالم في استخراجه كما تخرج ثلاثة أرباع ما في حوزة العالم من « الميكا » وهو معدن شفاف من المواد الأساسية في صناعة الأدوات والأجهزة الكهربائية وتصدر معظم انتاجها منه إلى الولايات المتحدة يضاف إلى ذلك بعض كميات كبيرة من المعادن ذات النشاط الإشعاعي مثل التوريوم والمونازيت ومن المناسب بعد كل هذا أن أذكر هنا ما جاء في كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني (ص 251 طبع ليدن) .

« خص الله تعالى أرض الهند والسند بأنها توجد بها جميع الروائح العطرية والجواهر كالياقوت والماس وغيرها وكذلك الكركدن والفيل والطاووس والعود والعنبر والقرنفل والسنبل والخولجان والدارصيني والنارجيل والهليلة والنوتيا والبقم والخيزارن والصندل وخشب الساج والفلفل الأسود .

صناعتها :

على الرغم من أن الهند بلاد زراعية إلا أنه قام بها من قديم عدة صناعات كان أهمها صناعة النسيج فالهند مشهورة به وبأنواع فاخرة منه كانت تصدره إلى أوروبا في عهد الملوك المسلمين وقد كانت الشركة الإنكليزية أول ما جاءت إلى الهند تصدر منها إلى انجلترا البفته وكثيراً من المنسوجات وكانت أهم مدن الهند في هذه الصناعة « « أحمد أباد » التي لا تزال لها شهرتها للآن وتنتشر المغزل والمناسج اليدوية في جميع مدن الهند وقراها وإن كان الإنجليز قد حاولوا القضاء عليها ليفتحوا المجال لبضاعتهم في هذه البلاد الواسعة وسيمر بك الحديث عن هذا في شيء من التفصيل في فصول الكتاب الآتية إن شاء الله ، ومن أهم الصناعات كذلك صناعة الجلود وصناعة الآلات الحديدية التي نمت في عهد الحكم الإنجليزي حتى رأينا الهند تصنع كثيراً مما تحتاج إليه سككها الحديدية وأجهزة السيارات والدراجات وغير ذلك من الأدوات الحديدية هذا بالاضافة إلى صناعة السكر التي تنتشر مصانعها في كافة بلاد الهند وتنتج منه كميات وافرة حتى لتعد أكبر بلاد العالم في إنتاجه . . وكذلك صناعة الجوت الذي تصنع منه الأكياس والزكايب لاستهلاكها وتصدير

الفائض منها إلى الخارج وصناعة المطاط الذي تستورده خاماً من البلاد المجاورة فوق ما تنتجه محلياً وتقوم بصنع أشياء متعددة منه .

تجارتها :

ومن المناسب أن نذكر هنا أيضاً أن الهند تصدر كثيراً من منتجاتها الزراعية والصناعية للخارج فهي تصدر الشاى والقطن الخام والمغزول والمنسوجات القطنية والحريرية والعاج وخشب الساج والصندل والروائح العطرية وكثيراً من الحبوب الزيتية والأعشاب الطبية وجوز الهند والتوابل والجوت ومصنوعاته/. ولعل مما اشتهرت به الهند من قديم خيراتها الوفيرة التي كانت تصدر إلى البلاد الغربية أعنى التي تقع في الجهة الغربية منها سواء أكانت البلاد العربية أم الإفريقية أم الأوربية وكانت هذه الشهرة مما أسال لعاب الأوربيين وجعلهم يتسابقون إلى الهند ، وكانت تجارتها التي تذهب إلى أوروبا مارة بالبلاد العربية ومصر من مصادر ثروة هذه البلاد بما يجبى عليها من ضرائب ، ثم كانت هذه التجارة من عوامل النزاع بين أوروبا وبين البلاد العربية ولا سيما مصر ثم بين الدول الأوروبية نفسها مثل جنوا والبندقية ومثل أسبانيا والبرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا في استعمار الهند . وكانت صادرات الهند والرغبة في الاستفادة منها سبباً في اكتشاف رأس الرجاء الصالح بل سبباً في اكتشاف الدنيا الجديدة أى الأميركتين حينما حاول كولمب ، أن يصل إلى الهند عن طريق الاتجاه إلى الغرب بدلا من الشرق . . ولعلّ اسم الهند وتجارتها في أوروبا في ذلك الوقت هو الذي سبب كل هذا النشاط ، وهو الذي جعلهم يسمون الجزر التي وصل إليها المكتشفون

الأوربيون في أمريكا باسم جزر الهند الغربية لأنهم ظنوا حينا وصلوا إليها أنها هي الهند .

وهكذا كان اسم الهند وما يحيط بها من أفكار ضوءاً لامعاً يجذب إليها الأنظار مما سبب لها الاستعمار الإنجليزي ذلك الاستعمار الذي ظلت ترزح تحته طويلا وكبدها ما كبدها من متاعب وأهوال ، وكان استعمار الهند مدعاة لأن يؤمن الانجليز طرقهم إليها فعمدوا إلى استعمار مصر ، ومداخل البحر الأحمر في عدن والشواطىء الشرقية لأفريقية ثم الشواطىء الجنوبية لجزيرة العرب التي لا تزال تئن من هذا الاستعمار للآن رغم تخلص الهند منه . .

حضارة الهند

تعتبر الهند من الأمم ذات الحضارة القديمة بحيث تزامل في حضارتها حضارات مصر وبابل وآشور واليونان ، ويقول المؤرخون حين يبحثون في بدء تاريخ هذه الحضارة إنها بدأت قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة في حوض السند وهو أقرب مكان في الهند لتلك البلاد ذات الحضارة القديمة ومع ذلك يعجز المؤرخون عن الأتيان بمعارف كاملة مسلسلة عن تاريخ الهند منذ هذه الحقبة .

يقول جوستاف بولون[1] : « ليس للهند القديمة تاريخ وليس في

(1) ص205 حضارة الهند ترجمة عادل زعيتر .

كتبها وثائق عن ماضيها ولا تقوم مبانيها مقام الكتب ما دامت لا تزيد في القدم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا ما في قليل من الكتب الدينية من أكداس الأساطير التي تستشف منها الحوادث التاريخية لظل ماضي الهند مجهولا ، وأقدم المصادر التي يرجع إليها في تبين أثر الماضي المفقود أشعار الفيدا الدينية التي كتبت في أدوار مختلفة والتي تصل في القدم إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد » على أن كثيراً من الآثار التي كشف عنها المنقبون يمكن أن تعطينا صورة عن تاريخ الهند وحضارتها القديمة فقد رأيت آثاراً لأشوكا عند منبع جمنا وهو الذي حكم الهند الشمالية قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف ، كما رأيت أثناء زيارتي لـ « بتنا » عاصمة ولاية « بيهار » آثاراً ترجع إلى عهده أيضاً حيث كانت « باتلي بوترا » عاصمة أشوكا وهي في مكان « بتنا » تقريباً كما شاهدت آثار جامعته « نالندا » القديمة التي يقولون أنها كانت تتسع لأكثر من عشرة آلاف طالب والتي تعلم فيها بوذا . . ولذا أقامت حكومة الهند الحالية بجانبها معهداً للبحوث في الآداب القديمة ولا سيما البوذية منها ، وقد زرته واطلعت على كثير من الكتب النادرة الموجودة فيه والتي استجلبت هي أول صورها من أمكنة متعددة ، وفي المعهد كثير من الطلاب الشرقيين الذين أتوا من بورما وسيام والصين وغيرها ليبحثوا في آداب البوذية ويعيشون في بساطة حيث يقيم أكثرهم في خيام حول مبنى المعهد ذلك المبنى الوحيد في المنطقة مما جعلني أسجل إعجابي بهم في دفتر الزيارات .

الغزو الآري :

يقول المؤرخون إنه على الرغم من أن الهند محاطة بحواجز طبيعية عزلتها عن العالم على مر السنين إلا أنها تعرضت للغزو دائماً من الغرب حيث توجد الممرات التي تصلها بالدول الغربية منها ، فقد غزاها الآريون المنحدرون من أواسط آسيا قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، ولو أن بعض المؤرخين يرجع ذلك إلى أكثر من أربعة آلاف سنة ، كما غزوا أوروبا كذلك . . .

وقد كان لهذه القبائل أثر كبير في تاريخ الهند إذ يعزى إليها تكوين اللغة السنسكريتية التي يقول علماء اللغات إنها تشبه اللغات الأوروبية القديمة مثل اللاتيني ولغة القوط كما تشبه الفارسية القديمة مما جعلهم يحكمون بأن أصلها جميعاً واحد . . وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان الهند الأصليين ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التي اعتبرت على مر التاريخ ديناً يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه . .

« والهندوسية أسلوب في الحياة كامل أكثر مما هي مجموعة من العقائد والمعتقدات وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن وليست لها صيغ محددة المعالم ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة(1)

---

(1) الهند والغرب ص18

غزو الاسكندر :

في سنة 327 قبل الميلاد وصل الإسكندر الأكبر المقدوني إلى أرض الهند بعد ما فتح كل البلاد التي في طريقه من اليونان إلى الهند وأخضعها لحكمه ، وقد دخل الهند من ارض السند حيث يوجد الطريق الطبيعي الذي يتخذه الغزاة دائماً لغزو الهند وأخضع الإسكندر جزءاً كبيراً من أرضها بعدما هزم ملوكها . ثم توقف عن الغزو وعاد أدراجه نحو الغرب بعد أن ترك حاميات له في البلاد المفتوحة .

« ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج سياسية لتلاشي الحاميات الإغريقية التي تركها في أرض الهند في بضع سنين بيد أنه كان لها نتائج طيبة من ناحية وصلها الهند بأوروبا لأول مرة » .

وينبري لهذا الحاكم أحد الكتاب الهنود(1) ويثبت أن الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزوة الإسكندر ويبرهن على هذا بأدلة من التاريخ إلى أن يقول « وينتهي بنا كل ذلك إلى أن الهند قد عرفت الأغريق عن طريق فارس كما عرف الأغريق الهند عن طريقها أيضاً ، ولقد كادت الأقاليم الغربية لنهر السند تكون جزءاً من الأمبراطورية الفارسية في عهد « دارا » ثم في عهد ابنه ، كما اشترك الهنود في الجيش الذي قاده ابن دارا إلى اليونان وقد وصف « هيردوت » جنود هذه الحملة بأنهم كانوا

(1) الأستاذ بوذا بركاش في مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة 1950 .

يحملون أقواساً من الغاب وحراباً قصيرة ، وأن الهنود منهم كانوا يرتدون بزات من القطن ويحملون أقواساً من الخيزران ، وسهاماً ذات رؤوس مصنوعة من الحديد » .

« ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الأغريق والهنود على التفات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الأغريقي إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التي سمعها في البلاط الفارسي فقد شرع الهنود يهتمون بالأغريق . ويحدثنا « أرسطو » عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاورة سقراط ومناقشته في المشاكل الفلسفية التي يعالجها المفكر اليوناني » . ونحن من جانبنا يمكن أن نقول إنه كانت هناك صلة بين الهند والأغريق ، ولكن هذه الصلة قد زادت واتسعت بعدغزو الإسكندر، ذلك الاتساع الذي نلمسه في عدة مظاهر . أهمها ذلك التصاهر الذي حدث بين الهند والإغريق ، فهناك دلائل تثبت أن « تشاندار جو بتامرا » أحد ملوك الهند قد زوج ابنته من الإسكندر الأكبر تودداً له وتحالفاً ، ويسجل التاريخ أن خلف الإسكندر في سوريا وبلاد بابل وهو « سيلوكس »(1) زوّج ابنته من « تشاندرا جوبتامورا » طمعاً في مساعدته وعونه »(2) كما أن ملك سوريا هذا أرسل سفيراً إلى بلاط « تشاندرا » اسمه « ميغاستين » فأقام هذا السفير في العاصمة الهندية زمناً طويلا ، وكان هذا الاتصال الوثيق باعثاً لأحد الضباط الأغريق « بتروكليس » إلى

---

(1) ذكره كتاب حضارة الهند ص 21 باسم نيكاتوز السلوقي

(2) ثقافة الهند سبتمبر سنة 1950

الارتحال للهند والكتابة عنها ، على أن الاتصال بين الهند والدول الواقعة في الغرب منها قد اتسع أكثر من ذلك أيام امبراطور الهند الشمالية « أشوكا »(1) ذلك الإمبراطور الذي ولي الحكم في سنة 250 قبل الميلاد ، واعتنق البوذية ، وأصبح من أهم دعاتها في الداخل والخارج ، فأرسل بعثات التبشير البوذية إلى اليونان ومصر وسوريا وشمال إفريقيا ، للتبشير برسالة الحب والسلام والتعالي عن الألم ، تلك المبادىء التي بشر بها بوذا . وقامت بجانب هذه البعثات الرسمية بعثات دينية بوذية أخرى من قبل المؤسسات الدينية البوذية ؛ لتواصل جهودها في تلك البلاد الغربية وتبشر برسالة الدين البوذي ، حتى أصبح لهم مكان مرموق في هذه البلاد ، مما كان له أثره في بعض الأفكار الفلسفية التي نشأت فيها . . ومما يلاحظه الإنسان بكثير من الدهشة ذلك التشابه الحاصل فيما يقوله أتباع بوذا عنه ، وفيما يقوله أتباع عيسى عليه السلام عنه كذلك مما سنبسط فيه القول إن شاء الله عند حديثنا الخاص عن البوذية :

وأعتقد أنه من الضروري بعد هذا أن أحدثك عن حالة الهند الاجتماعية ولا سيما الأديان الشائعة فيها من قبل الإسلام لتأخذ فكرة عنها ما دمت تريد الوقوف على تاريخ الهند . والأديان فيها تفعل فعلها في حياة الناس اليومية ، ومعاملة بعضهم لبعض ، حتى يقول جوستاف

(1) ويقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة الهند ص212 : إن خلفاء الدولة الأغريقية البقطريانية التي أقامها نيكاتور السلوقي فتحوا البنجاب وشادوا عدة ممالك ووصلوا إلى « مترا » وأن أقاقاً اسمه مينا ندر أسس سنة 126 ق م مملكة بين نهر جنة ومصب نهر « نربدا » .

لوبون(1) : « إن المعتقدات الدينية في الهند هي أساس جميع النظم الأجتماعية ، فما في الهند من نظم اجتماعية ليس بالحقيقة إلا نظماً دينية » .

وسترى صدق ذلك فيما يأتي :

شعوب في شعب واحد

تحدثنا فيما سبق عن مساحة الهند الكبيرة وعن تباين المناخ فيها حسب قربها وبعدها من خط الاستواء وحسب ارتفاعها وانخفاضها وحسب تحكم الجبال والصحارى في تكييف جوها وحسب تأثير البحر ورياحه التي تهب عليها .

ونضيف إلى ذلك أن سكان الهند يختلفون في ألوان بشرتهم حيث تجد اللون الأسود غالباً في الجنوب فإذا سرنا نحو الشمال وجدنا اللون القمحي هو الغالب حتى إذا وصلنا إلى نهاية الشمال وجدنا السكان يمتازون ببياض البشرة كما في كشمير . .

وقد كانت مساحة الهند الواسعة وتعرضها للغزاة الذين وفدوا عليها من الغرب سبباً في اختلاف الناس كذلك في الأجناس التي ينتسبون اليها .

وقد تكون هذه الاختلافات السابقة هينة بجانب اختلاف السكان في اللغة والدين ؛ فأن تباين لغات السكان ولهجاتهم يلمسه كل زائر

---

(1) ص255 في كتابه حضارة الهند السابق .

للهند كما يلمسه سكان الهند أنفسهم الذين يستحيل عليهم التفاهم مع أبناء وطنهم متى غادروا دلهي مثلا ليزوروا الكَجرات أو المليبار أو مدراس أو بنغال أو البنجاب أو آسام أو التيبت أو بلوخستان أو غير ذلك من المناطق . ويقول العلامة « جوستاف لوبون » : « إن في الهند240 لغة ونحو300 لهجة ما عدا اللغة الفارسية والبهلوية والصينية والإنجليزية والسنسكريتية ولو أن الأخيرة لا تجد رجلا واحداً يتكلم بها في قضاء حاجاته وهي لغة كتب الهند القديمة التي لا يعرفها إلا قلة من البراهمة لمعرفة الكتب المقدسة فقط » وهذا الكلام قد قرره بشأن السنسكريتية منذ ثلاثة أرباع قرن . أما الآن وبعد استقلال الهند فقد عملت الحكومة الهندية على بعث السنسكريتية من مرقدها وذلك بالاقتباس منها في اللغة الهندية التي جعلتها اللغة الرسمية بجانب الانجليزية وفرضت تعليمها في مدارسها . وألفت بها عدة كتب ، كما جعلت بعض الاذاعات بها ، ووضعت النشيد الوطني بها أيضاً . ومما لمسته أن الأغلبية العظمى من الهنود لا يفهمون جيداً هذه اللغة فيسمعون الاذاعة أو النشيد الوطني وكأنهم يسمعون لغة أجنبية . وإذا كانت اللغات قد بلغت هذا العدد الضخم في الهند فان اللغة الأوردية الحديثة التكوين هي التي تحظى أكثر من كل اللغات بعدد أكبر من السكان نسبياً ، ويسميها جوستاف لوبون اللغة الهندوستانية ، يتكلم بها المسلم وغيره على السواء ، وقد تكونت في عهد المغول من اختلاط الفاتحين الذين كانوا يتكلمون ألسنة متعددة منها العربية والفارسية والتركية فنشأت من اختلاطهم بسكان البلاد الأصليين لغة جديدة تتكون من الفارسية والعربية والهندية والتركية أيضاً ، ثم دخلت فيها

ألفاظ كثيرة من الانجليزية بعد الاحتلال الانجليزي . . لانها لغة قام تكوينها على خليط من اللغات فهي لذلك لا ترفض أية كلمة أو أي اصطلاح يأتي من أية لغة أخرى ويصير بعد دخوله فيها لغة أوردية و « أوردو » معناها « معسكر » أي أن اللغة الأوردية كانت لغة العسكر ، لغة الجنود الفاتحين الذين اضطروا إلى خلط عدة لغات بعضها ببعض : لفظ من هنا ولفظ من هناك ليستطيعوا التفاهم ، وقد أخذت هذه اللغة تنمو بتشجيع الملوك المسلمين حتى صارت اللغة الرسمية للدولة المغولية وصارت لغة عدد كبير من الشعب مسلمين وغير مسلمين . وهي الآن بعد استقلال الهند قد نحيت عن مكانتها الرسمية السابقة وأبت الحكومة المركزية وبعض حكومات الولايات أن تجعلها لغة من لغاتها وأخذت الحكومة تزحزحها عن الحياة لتحل محلها اللغة الهندية .

ويجاهد المسلمون جهاداً مستمراً للاعتراف بها ولو في حكومات الاقاليم الشمالية مثل « أوتر برادش » ولكنهم يلقون للآن صدوداً عن الاستماع إلى صوتهم . وقد سمعت من أحد كبار المثقفين المسلمين(1) ان رئيس وزراء « أوتر برادش » ينكر أهمية اللغة الأوردية في الهند بينما هو في إنكاره هذا وفي خطبه في المجتمعات هو وجميع وزراء الحكومة حين يخاطبون الشعب يستعملون اللغة الأوردية ! ! . حتى قال « نهرو » في هذا الصدد مدافعاً عن الأوردية ومتهكماً بالمعارضين لها « إن المخالفين للأوردية يخالفونها بالأوردية » ورأي « نهرو » لا يلزم الحكومات المحلية

(1) في أغسطس 1956 .

وبرلماناتها المعارضة للأوردية ، وقد حضرت عدة حفلات بمناسبة تأميم قناة السويس وكان أكثرها من الهندوس فوجدت اللغة الأوردية هي لغة الشعر ولغة الخطابة ولغة الحديث .(1)

وحضرت اجتماع المجلس النيابي لحكومة « بيهار » فلاحظت أن النواب حين يخطبون يختار كل واحد اللغة التي يريدها ، فسمعت الأوردية والانجليزية والهندية في جلسة واحدة .

ولا شك أن اللغة الأوردية تجابه مستقبلا شاقاً وتجابه الذخيرة العظيمة من الكتب التي وضعت بها في مختلف العلوم والفنون مثل هذا المستقبل . ومن المعروف أن اللغة الأوردية هي اللغة الثالثة بعد العربية والفارسية في تدوين الكتب الإسلامية مع حداثة عهدها . . وإذا كان هذا هو حال الأوردية في حكومة الهند الحاضرة بعد الاستقلال فأنها في الباكستان الدولة الإسلامية هي اللغة الرسمية . .

ولكي نتصور مسألة اختلاف اللغات وتعددها في الهند أذكر لك عدد اللغات التي تذيع بها محطة الهند بعد التقسيم وهي اللغات الهامة التي عنيت الحكومة بالأذاعة بها . . فقد جاء في مجلة الثقافة الهندية عدد مارس 1953 « إن هيئة إذاعة عموم الهند تذيع بست عشرة لغة وعشرين لهجة في إذاعتها المحلية » ولا شك انها قبل التقسيم كانت أكثر من هذا

---

(1) ومما هو جدير بالذكر أن بعض الحكومات الفرعية في الولايات اعترفت بالأوردية في لغاتها مثل بومباي وأندرا ومدراس .

مراعاة لسكان الجزء الغربي من الهند الذي يكون باكستان الآن بما فيها من بلوخستان والقبائل الجبلية .

وقد كان عدم وجود لغة متفق عليها بين الهنود مساعداً للانجليز في فرض لغتهم في جميع الهند وجعلها اللغة الرسمية العامة حتى صار لها في الهند مكان ممتاز وأصبحت هي اللغة العامة التي يستطيع أي هندي التفاهم بها مع أخيه الهندي ولو إختلفت عن لغتهم الوطنية .

تلك هي الاختلافات بين القوم في اللغة . .

الاختلاف في الدين

أما الدين فهم مختلفون فيه أيضاً ولو أنه لا يبلغ في الكثرة مبلغ اللغات،فالأديان المشهورة في الهند هي الهندوسية والإسلام والبوذية والسيكية والمسيحية بجوار مذاهب أتباعها قليلون جدا . .

والهندوسية أقدم هذه الأديان في الهند تليها البوذية التي انتشرت قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ثم الإسلام ثم السيكيه ثم المسيحية التي بدأت تنتشر في الهند مع بعثات الغرب التجارية وبعد دخول الأنكليزواهتمامهم بنشرها وهي في الجنوب أكثر من الشمال . وهذا لا ينفي أنه كان لليهودية والمسيحية بعض أتباع قليلين قبل الإسلام .

ويكوّن الأختلاف في الدين فوارق كبيرة بين سكان الهند لا يكونه الاختلاف في اللغة لمكانة الدين من التأثير على النفوس في العادات والعقائد حتى لتشعر بالتفاوت البعيد بين أبناء الوطن الواحد في أفكارهم وعقائدهم وعاداتهم بل ومظاهرهم التي كثيراً ما تخضع لديانتهم وطقوسهم . .

وسنتكلم إن شاء الله في شيء من التفصيل عن هذه الأديان ولاسيما المحلية التي نتجت في الهند والتي تعتبر غريبة عن القارىء العربي .

وسكان الهند قبل التقسيم كانوا نحو435 مليوناً والهندوس هم أكثر السكان إذ يبلغون الثلثين « حوالى ثلثمائة مليون » يليهم المسلمون الذين يبلغون المائة مليون مسلم وتجد بجانب هذا نسباً صغيرة من البوذيين والمسيحيين والسيخ[1] .

وإن الإنسان ليحتار حين ينظر إلى اختلاف الهنود في ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم وطبائعهم وعاداتهم ويتساءل كيف يتكون من هذا الخليط شعب واحد .

إن الحقيقة الواقعة أنه لا رابطة بين سكان الهند جميعاً إلا الإسم فقط ثم تجدهم بعد ذلك يفترقون ويكونون جماعات أو أجناساً ظلت على مر السنين متباعد بعضها عن بعض كل يحارب الآخر ليحكمه . وكل يعتز بجنسه وخصائصه ويشعر بالفارق البعيد بينه وبين الآخرين ، وقد يكونون مع ذلك متفقين في الدين لكن الطبقة وخصائصها مقدمة في نزعاتهم على كل اعتبار . . وهذا يصدق أكثر ما يكون على أتباع الهندوسية . وإن كنا نجد له شبيهاً بين المسلمين حيث قسموا أنفسهم إلى طبقات من حيث نسبتها للأفغان أو المغول أو أحد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان أو آل البيت من نسل علي رضي الله عن الجميع . . بحيث صار من عدا هؤلاء في نظرهم أحط منهم شأناً حتى لا

---

(1) تكتب سيك وسيخ ومعناها المريدون .

تجوز المصاهرة معه ، وسنذكر ذلك بتفصيل إن شاء الله . .

ولم تشعر الهند كلها بوحدة سياسية كتلك التي شعرت بها تحت حكم الإنجليز ، وإن كان الحكم الإسلامي في عهد « أورنكَزيب » آخر ملوك المغول الأقوياء قد كاد يوحد الهند كلها تحت سلطانه إلا أنه بقيت ولاية في الجنوب لم تخضع له ، أما في عهد الإنجليز فقد خضعت الهند كلها لسيطرتهم حتى أصبح الحاكم الإنجليزي العام في دلهي يسيطر على الحكم في جميع أنحاء الهند ، وكانت هذه الوحدة السياسية تحت حكم الإنجليز مقدمة وتمهيداً لوحدة الهند كلها الآن تحت حكم أبنائها ولو أنها انقسمت إلى دولتين ، ورب ضارة نافعة . كما يقولون . .

الأديان في الهند قبل دخول الاسلام

الهندوسية

سبق أن قلنا إن الديانة الهندوسية عبارة عن تقاليد وأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعد ما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلبوا على سكانها الأصليين وطردوهم من ميادين الحياة . .

وأعظم وأقدم كتبهم التي تقوم عليها طقوسهم ويستمدون منها عقائدهم أربعة يرجع تاريخ أقدمها إلى 4500 سنة ق . م . وبعضها إلى حوالى 1200 ق . م[1] . وهذه الكتب أربعة .

---

(1) المسألة الهندية ص 47 نقلا عن المؤرخ الهندي « تيلاك » وإن كان المؤرخ « مكس موللر » يرى أنها ألفت قبل الميلاد بألف سنة كما في حضارة الهند ص 257

(1) ركفيدا[1] (2) سام فيدا : وهما يشتملان على مجموعات من الأناشيد التي كانوا ينشدونها في تقديم القرابين للآلهة . .

(3) يكَرفيدا وتشتمل على الصلوات والأدعية شعراً ونثراً .

(4) « أتهرفْيدا[2] » يصف عقائد الجمهور في الأرواح الشريرة والرقي والسحر وهو آخر مجموعة من هذه الكتب . ولذا ظل مدة غير معترف به فهو لا يلقي ما تلقاه الكتب الثلاثة السابقة من التقديس[3] . .

وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات التي جاءت في هذه الكتب كما يأتي :

(1) عبادة قوى الطبيعة (2) تشخص هذه القوى بأسماء الآلهة . (3) اعتقاد خلود الروح[4] (4) عبادة الأجداد (5) الميل إلى اخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهو الاله « اندرا[5] » على

---

(1) Rigveda معنى « فيدا » مقدس . والفاء تنطق بثلاث نقط فوقها « ورك » بالكاف الفارسية التي بين الجيم والكاف وتشبه نطق القاهرين بالجيم . . ولذلك ترى بعضهم يعربها إلى الجيم كما في كتاب المسألة الهندوسية لعبد الله حسين وبعضهم إلى الغين كما في كتاب حضارة الهند أما الفاء ذات الثلاث نقط فبعضهم يعربها بالفاء ، وبعضهم بالواو . . وكثيراً ما تقرأ في الكتب « الرغ ويدا » العصر الويدي . الفيدا العصر الفيدي . وذلك ناشيء من عدم وجود الفاء ذات الثلاث نقط أو الكاف الفارسية في اللغة العربية .

(2) الهاء هنا تنطق مخطوفة كأنها غير موجودة وهي غالبة في اللغة السنسكرية واللغة الأوردية والتاء مفتوحة والراء ساكنة .

(3) تاريخ الهند لسيد هاشم ص17 والمسألة الهندية47 لعبد الله حسين . .

(4) على أساس فكرة التناسخ . .

(5) سبق أن نقلنا أن بعض المؤرخين يرى أن اسم الهند مشتق من اسم الأله

العموم . (6) أساس الدين أو حقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرابينه ويقدم فواكهه وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

ويمضي هذا المؤرخ الاجتماعي في تحليل هذه الأصول والاستشهاد لها ثم يتحدث عن حضارة هؤلاء الآريين التي قامت على أساس كتبهم ويختم حديثه بقوله : « إنك لا تبصر حضارة تساوت هي وحضارتهم في النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى . وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودي الذي مثل دوراً كبيراً في العالم وجدت ذلك أعلى من هذا ففي تاريخ بنى إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً في كتب الآريين من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخرافية الضاربة[1] » .

فكرة الطبقات

وقد بدأت الإشارة إلى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في الفيدا ، ومن المهم أن نقول إن هذا التقسيم جاء أولا نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع . فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية بينما يقوم الآخرون بالحروب وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطاليب الحياة حتى يتفرغ الكهان والمحاربون لعملهم ، وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة

---

(1) صفحات 296,288,283 .

وهي طائفة « الشودرا » التي هي أخس الطبقات والتي عرفت عند كتاب العربية بالطائفة المنبوذة .

وكانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة في مبدأ حياة هؤلاء ، ثم أخذت على مر الأيام تتسع وتتشكل ويوضع لها نظام وحدود . . عنيت بها الكتب التي شرحت هذه الكتب المقدسة وبينت خصائصها ووظائفها وحظها في الحياة . . وأهم هذه الشروح ذلك الشرح الذي قام به « منو مهارشي[1] » .

ومن شروحه وتقنيناته ننقل لك ما تتعرف به على الأوضاع الهندوسية للحياة الاجتماعية ، وقد جاءت هذه الروح في العصور المتأخرة قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون أو ثلاثة على خلاف بين المؤرخين وعلى هذا الأساس الذي وضحه « منو » وقعده قامت الحياة الهندوسية إلى الآن . .

جاء في شرائع « منو » تحديد الطوائف في الحياة الهندوسية الاجتماعية هكذا : (1) طائفة البراهمة أي الكهان . (2) طائفة الاكشترية (وهي الطائفة المحاربة) . (3) طائفة الفيشية (وهي طائفة الزراع والتجار التي توفر مسائل العيش للكهان والمحاربين) . (4) وطائفة الشودرا (وهي أسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعترف لها بعمل إلا خدمة الطوائف السابقة في أخس حاجاتها . وهي طائفة المنبوذين وعلى

(1) معناه : منو الوالي الكبير » فان « مها » معناها في اللغة السنسكريتية عظيم أو كبير و « رشي » معناها الولي .

الرجل أن يتزوج من طائفته أو من طائفة أدنى منها[1] ، ولكن الرجل الذي يتزوج بواحدة من « الشودرا » يصبح مفضوحاً مهتوك الستر ، ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزي في الدنيا والآخرة . فإنه لا يتزوج نساء الشودرا إلا رجال من الشودرا .

ويمكن للبرهمي أن يتزوج امرأة أكشترية أو من الفيشية ولا عكس[2] أي لا يصح للمرأة من طبقة عالية أن تتزوج من طبقة أقل منها ، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبيهم التي هي أقل من صفات طبقة أمهم .

أما الفكرة التي أقاموا عليها هذه الطبقات وجعلوها من المعتقدات فهي كما جاءت في شريعة « منو » : ــ « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشري فخلق من فمه البراهمة ، ومن ذراعه الاكشتريه ، ومن فخذه الفيشية ومن رجله الشودرا . . وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة . . فعهد إلى البراهمة في درس أسفار الڤيدا وتعليمها وتقريب القربان ، وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ ، وفرض على الأكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية ، وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات . . وخص الڤيشية بتربية المواشي وإيتاء الزكاة والتضحية ، ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث الخ . وأوجب على

---

(1) سبب سماحهم للرجل بأن يتزوج من طبقة أدنى منه اعتقادهم بأن الولد يرث أباه في خصائصه وذلك قاصر على الطبقات الثلاث الأولى كما يتبين مما ذكر بعده .

(2) حضارة الهند ص 295 وما بعدها

الشودرا عملا واحداً فقط وهو خدمة تلك الطبقات » .

« ونار جهنم هي دار البرهمى الذي يتزوج امرأة من الشودرا . فإذا ولد له ولد طرد من البراهمة » .

ويعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا ، وإن كان يؤذن لهم في حالة الحاجة بالقيام ببعض الوظائف وأعمال التجارة .

« يؤجر الواهب مرة لهبته المال لغير البرهمى ، ويؤجر مرتين على هبته لرجل يزعم أنه برهمى ، ويؤجر مائة ألف مرة على هبته لبرهمى متبحر في كتب الڤيدا ، ويؤجر أجراً لاحد له على هبته لبرهمى متبتل في علم اللاهوت » .

« كل ما في هذا العالم ملك البرهمى ، وللبرهمى حق في كل موجود بسبب النسب » .

« ولن يدنس البرهمى صاحب الركڤيدا بذنب ، ولو قتل أهل العوالم الثلاثة » .

« وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم » .

وقد حددت شريعة « منو » العلاقة بين البراهمة والأكشترية حيث قالت « لافلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية ، فتانك الطائفتان إذا ما اتحدتا كتب لهما الفوز في الدارين » .

« ويجب أن يعد البرهمى أباً للأكشترية ، ولو كان عمر البرهمى عشر سنوات وعمر الأكشترى مائة سنة » .

أما الڤيشية وهم الزراع والتجار فهم أقل مرتبة من الأكشترية ، لأنهم وإن كان يجري فيهم الدم الآرى إلا أنه قليل . . ومنزلتهم من البراهمة هي منزلة الفخذ من الرأس ، وأين ذاك من هذا ؟ !

أما الشودرا : فلا يجري فيهم الدم الآرى مطلقاً ، فهم من سكان البلاد الأصليين ، وهم خطر على الدم الآرى ، ولذلك وجب أن تتحاماهم الطبقات الثلاث كما يتحامى الإنسان المرض الخبيث ، ومن هنا جاء التشديد في شريعة « منو » في عدم الزواج منهم ، أو محاولة الارتفاع بهم عن طبقتهم السفلى ، حتى لا يحدثوا أنفسهم يوماً من الأيام برفعة تسول لهم الزواج من الطبقات العليا . . جاء في شريعة « منو » :

« يجب على الشودرى أن يمتثل امتثالا مطلقاً أوامر البراهمة » .

« خدمة الشودرى للبراهمة هي أفضل عمل يحمد عليه » .

« لا يجوز للشودرى أن يجمع ثروة زائدة ولو كان على ذلك من القادرين فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بقحته » .

« تقطع يد ابن الطبقة الدنيا إذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه وتقطع رجله إذا رفسه برجله حين الغضب » .

« وإذا ما دعاه باسمه أو اسم طائفته متهكماً أدخل إلى فمه خنجر محمى مثلوث النصل طوله عشرة قراريط » .

« ويأمر الملك بصب زيت حار في فمه وفي أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يبدي به رأيا للبراهمة في أمور وظائفهم » .

« ومن يك ذا علاقات برجل منبوذ أسقط في نهاية سنة ، ولو كانت

العلاقة عن طريق قراءة الكتاب المقدس معه ، ولو كان في الركوب معه في مركبة واحدة ، أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكل معه على خوان واحد » .

على هذا الأساس الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية قامت الحياة الاجتماعية للهندوس . . وظلت كذلك عبر القرون تزداد كل يوم شدة وتمكيناً وتزداد كل طبقة إيماناً بموقفها من غيرها حتى رأيت طبقة الشودرا[1] « المنبوذين » وكأنهم أشد إيماناً بذلتهم من غيرهم فهم لا يسكنون مع بقية الأهالي ، ولكنهم يتخذون لهم مساكن في أطراف البلد في غاية الحقارة والضعة ، ولا يحاولون أن يرتفعوا عن وضعهم ، والجهل بينهم متمكن اللهم إلا بعد أن انتشر التعليم حيث استطاع جماعة قليلة منهم التعلم ومن هنا بدأوا يشعرون بمكانهم المهان في المجتمع وأخذوا يفكرون في تغييره .

جاء واحد من هؤلاء إلى بيتي للخدمة التي يمارسها وطلب ماء ليشرب ، فأعطيته الكوب وأنا بعيد الذهن عن فكرة الطبقات . . . ولكن سرعان ما دهشت حين امتنع عن لمسها وابتعد عني وأشار إلى أن أصب الماء في يده وهو يشرب ، وعبثاً حاولت إفهامه أن يشرب من الكوب فإني لا أعتقد أنه نجس . . فقد كان عدم معرفتي بلغتهم حائلا بيني وبين حسن تفهيمه ولو أن الأشارات أفادت نوعاً لكنه لم يقتنع

---

(1) معنى كلمة الشودرا ، في اللغة السنسكريتية : المتروك . المهمل . المنبوذ ويسمون في اللغة الأوردية « تهانكي » أو « لجهوت » مع حذف الهاء في النطق كأنها هكذا « اتشوت » .

ففعلت ما أراد . . وكنت كلما اقتربت بالكوب من يده حتى لا يقع الماء على الأرض ابتعد هو بيده خوفاً من أن يلمس الكوب ، وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى حين جاءت خادمة من هؤلاء لعملها ، وكنا في الصيف فطلبت الماء لتشرب فذهبت إليها بنتي « أمال » الصغيرة بالكوب ، وناولتها إياها ، ولكنها امتنعت ، ثم أشارت إليها أن تصب الماء في كفها وأثناء صب الماء فزعت المنبوذة وارتعدت وابتعدت ، فلما تبينت الأمر علمت أن البنت قربت الكوب منها حتى كادت تلمسها ففرت هي من ذلك على هذه الصورة فتعجبت ، بل رأيت ما هو أكثر ، فإن « طلمبة » الماء في البيت لا تستطيع أن تلمسها لتخرج بها الماء ، فإذا أرادت ماء منها نادت أحداً طاهراً يدير لها « الطلمبة » لتتلقى هي الماء من بعيد وتشرب حتى لا تنجس الحديد الذي يلمسه الأطهار . .
وقد أيقنت من هذا أن هؤلاء استقر في طبعهم الذل ، واعتقدوا في أنفسهم النجاسة بمرور عشرات القرون ، ومن الأسف أن المسلمين يعاملونهم كما يعاملهم الهندوس تماماً دون أن يشعروهم بأنسانيتهم ويفهموهم ألا فرق بينهم . . ان « ديوبند » مثلا نصفها مسلمون ، ولو أن مثل هذه المرأة أو هذا الرجل وجدوا من المسلمين من يشعرهم بأنه لا غضاضة من مثل الشرب من كوبهم أو مجالستهم لما استغربوا من أن نقدم لهم الكوب ولما امتنعوا عن قبوله بهذه الصورة . .

وأعتقد أن هؤلاء لو وجدوا من المسلمين معاملة تشعرهم بقيمتهم على خلاف معاملة الهندوس لهم لأقبل كثير منهم على الإسلام ولكن المسلمين تأثروا بمعاملة الهندوس لهم فعاملوهم مثلهم . . على أن الحكام المسلمين الذين حكموا الهند أكثر من ثمانية قرون لو وجهوا عنايتهم إلى

إنصاف هؤلاء لأمكن لهم أن يحققوا غرضهم ، فقد كانت الدولة الإسلامية حينذاك قادرة على أن تسن لهم القوانين التي ترفع مستواهم ، وتفتح لهم المدارس ، وتعاونهم بالمال ، وتعاملهم معاملة حسنة تشعرهم بما في الإسلام من حرية ومساواة وإخاء وحينئذ كان من الممكن أن يقبلوا على الإسلام وهم عشرات الملايين ولكن لم يتجه الحكام لمثل هذا فظل المنبوذون كما هم منذ أن حكمت عليهم شريعة « منو » بأن يبقوا داخل نطاق طائفتهم لا يخرجون عنها ولا يرتفعون إلى غيرها . الأولاد يرثون الآباء في صنعتهم ومهانتهم ومهنتهم ، ولا ننكر مع هذا أن بعض هؤلاء المنبوذين دخلوا الاسلام بفضل بعض الجهود الفردية للمسلمين فوجدوا معاملة طيبة وكانوا هم وجميع المسلمين سواء إلا في ناحية الزواج[1] . . .

ودليلنا على هذا أن هؤلاء حينما تعلموا وتفتحت عيون المتعلمين منهم إلى مكانتهم الوضيعة في المجتمع هالهم أمرهم وثاروا على الوضع الذي هم فيه ورفعوا أصواتهم مطالبين بتغييره أو الخروج من الديانة الهندوسية التي تحكم عليهم هذا الحكم القاسي منذ عشرات أو آلاف القرون . . وحينئذ بدأ الناس حولهم يبحثون ويفكرون في الطرق التي ينبغي اتخاذها لأرضائهم لكي يظلوا في الديانة الهندوسية أو ليجذبوهم إلى ديانة أخرى يجدون فيها ما يطلبون من الإنصاف . .

---

(1) تتحكم فكرة الطبقات بين المسلمين في ناحية الزواج على الأخص ، فهم إما صديقي او فاروقي أوعثماني أو سيد نسبة إلى الخلفاء الأربعة أو أنصاري نسبة لواحد من الأنصار او أفغاني . . أو مغولي وهذه هي الطبقات العليا ، وتصاهر كل طبقة داخل نطاقها غالبا ، ولا يصاهرون سواهم ، إذ يعتبرونهم غير أكفاء لهم . .

وأذكر بهذه المناسبة البعثة الأزهرية التي أوفدها الأزهر سنة 1936 إلى الهند لتبحث في شأن المنبوذين بمناسبة ما أشيع من عزمهم على تغيير دينهم ، وكانت البعثة برئاسة المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى وعضوية المرحومين الشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد أحمد العدوى وسكرتيرية المرحوم الأستاذ حبيب أحمد . وقد مكثت البعثة في الهند عدة شهور تتصل بالمهتمين بالشؤون الإسلامية وتبحث معهم في إمكانات العمل الذي يستطيع الأزهر أن يقدمه لهذه الطائفة ترغيباً لها في الإسلام .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البعثة لم تخرج بنتيجة عملية فأنه لم يكن من المعقول أن مصر ببعثاتها أو بماليتها الضعيفة تستطيع أن تؤثر في هذا العدد الضخم وتجذبه للاسلام بالخطب في مدة وجيزة بينما كان المسلمون في الهند عدة قرون في غفلة عن هذا الأمر بل إنهم كما سبق أن قلت كانوا عاملا منفراً من الإسلام بمعاملتهم السيئة للمنبوذين اللهم إلا بعض أفراد كان لهم جهود ذكرها تقرير بعثة الأزهر ولكنها جهود كانت كذرة في محيط . . وكان أمل البعثة وكبار المسلمين المعنيين بهذا الأمر معلقاً على رئيس المنبوذين الدكتور « امبيدكار » ولكن هذا بدا وسط تيارات تجذبه هنا وهناك فظهر كأنه يتلاعب بالجميع ويختار الورقة الرابحة هنا أو هناك وانتهى الأمر بعدم اعتناقه الإسلام واتجاهه أخيراً نحو البوذية . .

ويحسن بنا أن نستعين هنا بدراسة البعثة حول هذا الموضوع لكي تأخذ صورة شاملة عن هذه الطائفة التي لا يوجد لها نظير في العالم كله برغم عددها الكبير الذي يزيد على 60 مليوناً من الأنفس . .

فقد جاء في التقرير ص77 عن جهود المسلمين لتحويل هذه الطائفة للاسلام « وثمة أمر واحد لا شك فيه هو أن المسلمين لم يحاولوا ـ قبل العصر الحديث ـ أن يدخلوا المنبوذين خصيصاً في الإسلام ولو عنوا بذلك في وقت من الأوقات لأسلم المنبوذون كافة منذ أجيال » ثم يقول عن جهود جمعيات التبشير المسيحية مع هؤلاء « كان المنبوذون هم الهدف المقصود من أعمال المبشرين ، ولذلك ركزوا جهودهم في هذه الناحية . . ويصح أن يقال إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة في كفاحها الطويل بين المنبوذين » . وكان نجاحها في ملابار ومدراس كثيراً كما شاهدت ذلك حين رحلتي في الجنوب .

ثم يتحدث التقرير عن انتشار التعليم في عهد الاحتلال البريطاني للهند حيث أتيحت الفرصة لبعض المنبوذين أن يتعلموا فتفتحت عيونهم لما هم فيه من ضعة وبدأوا يهددون بترك الديانة الهندوسية ليجدوا حظهم في الحياة كغيرهم وهنا يتنبه بعض رجال الهندوس من ذوى المدارك العالية للخطر السياسي الذي يترتب على انفصال هؤلاء من الهندوسية وانضمامهم إلى دين آخر من ديانات الهند ، إذ أن عدد الهندوس ونفوذهم سيقل تبعاً لذلك فيقوم جماعة منهم بدور المصلحين ، ويأخذون في العمل لرفع مستوى هذه الطائفة ، وكان على رأس هؤلاء مستر « غاندي » الزعيم الهندي الكبير حيث أراد أن يحمل حزب المؤتمر الوطني والمجلس التشريعي على اتخاذ قرار بالغاء فكرة النبذ ، ولكنه أخفق أمام هجمات الهندوس عليه حتى اضطر لسحبه من المجلس . . وهنا نجد المنبوذين يلجأون إلى القوة في تحطيم القيود المفروضة عليهم

حيث حاولوا عدة مرات اقتحام المعابد المحرم عليهم دخولها ولكن البوليس كان يطاردهم في كل مرة ويحمي هذة المعابد من نجاستهم . .

وقد كان « غاندي » أكثر الناس شعوراً بخطر انفصال المنبوذين عن الهندوس ، لذلك رأيناه يصوم حينما قرر الانجليز في احد المؤتمرات بينهم وبين الهند أن يمنحوا المنبوذين مقاعد مستقلة ويجعلوهم طائفة لها كيانها الخاص البعيد عن الهندوس ، فشعر أن هذا هو بدء التفرقة التي ستضعف شأن الهندوس سياسياً ، فقرر الصيام حتى يرجع الإنجليز عن هذا الرأي ، ويتنازل المنبوذون عن فكرة الطائفة المستقلة في مقابل زيادة عددهم في المجلس التشريعي . . وقد قبل المنبوذون هذا الرأى ورجع غاندي عن صيامه وكسبوا بذلك مكسباً جديداً . وبالرغم من ذلك ظلت حالتهم كما هي دون تغيير يذكر مهما بلغوا من الثقافة ، ولقد واجه زعيمهم الدكتور « امبيدكار »(1) ـ وهو من كبار المحامين ومن خيرة المثقفين ـ موقفاً صعباً لأنه من طائفة المنبوذين ، فعندما انتخب عميداً لكلية الحقوق في بومباى سنة 1935 ثارت ثائرة الهندوس لا لشيء إلا لأنه منبوذ مع أنه من أكفأ رجال القانون وكان زعيم الطائفة المتكلم باسمها في عدة مؤتمرات في « لندن » . وفي عدة مفاوضات واجتماعات بينه وبين رجال حزب المؤتمر في الهند . ومع كل هذا ثار الهندوس لتعيينه عميداً لكلية الحقوق .

ولهذا عقد المنبوذون اجتماعاً عاماً في اكتوبر سنة 1935 حضره عشرة

---

(1) توفي قريباً واعتنق البوذية قبل وفاته وكان يشغل منصب وزير العدل أخيراً .

آلاف منهم ، وتولى رياسته الدكتور « أمبيدكار » حيث بين للحاضرين أن الطريق الوحيد لعلاج النبذ هو الانسلاخ عن الهندوسية إلى دين يضمن لهم الحرية والمساواة . . وقد أعلن المنبوذون في كل مكان الموافقه على هذا الرأي . وهنا اضطرب الهندوس اضطراباً شديداً لما يترتب على هذا من ضعف قوتهم السياسية بينما يزداد غيرهم ممن يدخل هؤلاء في دينهم قوة . . وطلب زعماؤهم منه أن يتريث في تنفيذ هذا القرار . أما أصحاب الديانات الأخرى فقد ظن كل منهم أنهم سيكسبون هذا العدد بجانبهم وأخذوا يتنافسون في استمالة زعماء المنبوذين إليهم بالمال والبيان . . فسعى إليهم زعماء السيك وجمعوا تبرعات لمساعدتهم في انشاء مدارس ومصانع . . كما سعى إليهم المسلمون وبينوا لهم ما في الإسلام من حرية ومساواة وارتفاع بشؤونهم في المجتمع ، وكذلك فعلت جمعيات التبشير المسيحية ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، وذلك لأنه كانت هناك عوامل تحول بين المنبوذين وبين تنفيذ قرارهم ، فهم يعيشون على خدمة الهندوس غالباً فإن خرجوا من الهندوسية فقدوا مصدر رزقهم ولم يجدوا عوضا عنه حيث لم يكن في وسع المسلمين ولا السيك ولا الجمعيات التبشيرية أن يهيئوا المعيشة الطيبة لهذا العدد الضخم في جميع أنحاء الهند . . كما أن زعماء المنبوذين الذين قرروا من قبل الخروج من الهندوسية دخل كثير منهم الانتخابات وهم لا يستطيعون الحصول على أصوات الهندوس اذا هم تمسكوا بقرارهم ، ولذلك كله تلاشت هذه الحركة وتضاءلت وخفتت الأصوات القوية التي كانت تنادي من قبل بالانفصال الجماعي ، ومع هذا فقد أسلم عدد قليل منهم لاسيا من منبوذى الجنرب في مليبار وعلى رأسهم الدكتور طايل

الذي سمى نفسه بعد إسلامه « كمال باشا طايل » وأبدى مع بعض زعماء المسلمين نشاطاً ملموساً في دعوة أبناء جنسه إلى الاسلام .

وكان من أثر هذه الحركة من المنبوذين أن أحس زعماء الهندوس بالخطر إذا تحول هؤلاء عن الهندوسية وبدأوا يفكرون في تخفيف حدة النبذ وكان « غاندى » على رأس المجاهدين في هذا الصدد ، فألف جماعة سماها « جماعة خدمة المنبوذين » ، وأخذ يجمع لهم التبرعات ، وينشىء لهم المصانع الصغيرة والمدارس لتعليمهم ، وأنفق الهندوس بسخاء في هذه الناحية . وإذا كنا لا نستطيع إغفال الجانب الإنساني في جهاد « غاندى » هذا فانه لا يمكننا كذلك أن نغفل أن الناحية السياسية والعصبية الهندوسية كانتا من أكبر الدوافع له على القيام بما فعل نحو المنبوذين ، وقد أثمر اتجاه غاندي في تقريب المنبوذين وإعطائهم بعض الحقوق فرأينا المدارس المتعددة تفتح لهم ، ورأينا الحكومة الهندية بعد الاستقلال ترحب بهم في وظائفها بل وتفضلهم على غيرهم أحياناً ، ورأينا بعضهم يرتقون إلى مناصب الوزارة ورأينا الدستور الهندي الحديث يقوم على التسوية العامة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات لا فرق بين برهمي ومنبوذ ، ورأيناه يجعل ممارسة العبادة في المعابد حقاً للجميع دون تفرقة بحيث يعاقب من يخل بهذا القانون . وقد علمت أن بعض البراهمة اشتدوا في محاربة هذه الفكرة ، ولما وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأن منع المنبوذين من دخول المعابد يعتبر مخالفة للقانون تركوا هم المعابد ولم يدخلوها . . . وقد حضرت حفلة في

« ديو بند »(1) ، قدم لي القائمون بأمرها رئيس المنبوذين فيها وقد دعى إلى هذه الحفلة التي جمعت وجوه البلدة ، وكان من قبل رئيساً للبلدية .

وليس معنى هذا أن الدولة بزعمائها وقوانينها . قضت على هذه الفكرة التي ظلت قائمة في الهند آلاف القرون ملتصقة بعقائدهم الدينية ؛ إذ أنه من الصعب أن يقضى على فكرة كهذه في وقت قصير بالقوانين . . وأعتقد أن هذه الطائفة ستبقى هكذا أو قريباً مما كانت ما دامت حرفة الزبالة والمهن الحقيرة القذرة قاصرة عليهم في الهند . . وما دام الهندوس يتلون صباح مساء كتبهم المقدسة التي أسست لهم هذا النظام الذي لا يوجد مثله في أى دين أو مجتمع .

إن أقسى القلوب لتحس بالإشفاق لما يعانيه هؤلاء المساكين من احتقار ، وأعتقد أنه لا توجد جماعة في العالم ترهق بما يرهق به هؤلاء من ازدراء . . ولا يستطيع أي إنسان أن يحس إحساساً حقيقياً بحالة هؤلاء إلا إذا رآهم وشاهد وعرف عن قرب ما يلاقونه من هوان ، إن أى قارىء عربي لا يستطيع أن يتصور المهانة التي كان فيها هؤلاء والتي لا يزالون يرزحون تحتها . . كان الواحد منهم لا يستطيع أن يقابل هندوسياً برهمياً في الطريق ، وكان عليه أن يجلس ويدير ظهره للطريق إذا مر به هذا الهندوسي . فحتى مجرد النظر كان محرما !! إنهم حقاً في حاجة إلى رثاء ، وإن من واجب الحكومة الهندية كحكومة متمدنة

---

(1) البلدة التي كنت أقوم بالتدريس في كليتها الاسلامية التي تسمى دار العلوم وهي أكبر دار للدراسات الاسلامية في الهند وباكستان والبلاد الآسيوية الشرقية وتقع شمال دلهي بنحو90 ميلا .

متحضرة أن ترفع عن هؤلاء إصرهم والأغلال المضروبة عليهم ، وأن تعمل على إنقاذ هؤلاء أولا من المهن الحقيرة التي يزاولونها ، وهي جمع القذارات المتخلفة من الإنسان صباحاً ومساء ، فأن الطريقة البدائية التي يتبعها أهل الهند في بيوت الخلاء المكشوفة(1) التي تقتضى أن يأتي المنبوذ أو المنبوذة مرتين في اليوم ليجمع فضلات الإنسان فيها ويحملها تحت إبطه في سلة مكشوفة ليرميها في إطراف البلدة . هذه الطريقة يجب أن يقضى عليها ، فأنها من أسباب شقاء هؤلاء المساكين واستقذارهم فوق ما هم فيه ، ويجب أن تبحث الحكومة عن أعمال نظيفة ومهن غير مستقذرة لهم أو لأكثرهم ، حيث إن تنظيف البيوت الآن وقف عليهم ، فلو أننا غيرنا نظام دورات المياه عما هي عليه الآن لما كانت هناك حاجة إلى هذا الجيش الذي يتردد على البيوت صباح مساء ويملأ الطرقات في كل مدينة وقرية ، ويصبح من واجب الحكومة حينئذ أن تهيء لهم العمل المناسب بعيداً عن هذه القذارة التي يزاولونها الآن .

أعتقد أنه بهذا يمكن التدرج مع الزمن في القضاء على هذه السبة وتلك الوصمة ، فأن ستين مليوناً أو أكثر ليس عدداً بسيطاً من السهل إغفاله وتركه كالسائمة أو أقل . . .

ومن المناسب ونحن في آخر الكلام عن هؤلاء المساكين أن أنقل لك هنا إحصاء عنهم كما دونه تقرير بعثة الأزهر وقالت إنه يرجع لأحصاء

---

(1) فهي مثل « الكوانين » المعروفة في الريف وتراها عندهم في الريف وفي المدن كذلك ، ولكنها تختفي في المباني الحديثة بالمدن الان .

رسمي يرجع إلى سنة 1930 . . وهو وان لم يبين الحقيقة كما هي لزيادة العدد الآن عما هو مدون لكنه مما لا شك فيه يعطينا فكرة واسعة عنهم . سواء فيما يختص بعددهم أو نسبة المتعلمين فيهم حتى هذه السنة قال : يبلغ عدد المنبوذين وفق آخر إحصاء رسمي صدر منذ ست سنوات : 50,195,770 نسمة أي بنسبة 14 ٪ من مجموع سكان الهند وبنسبة 21 ٪ من تعداد الهندوس العام . . وتختلف نسبتهم إلى عامة السكان ثم إلى الهندوس بين إقليم وآخر وفيما يلي بيان ذلك : ــ

في الهند البريطانية

الأقاليم	عدد المنبوذين	الأقاليم	عدد المنبوذين
الولايات المتحدة(اوترپرديش)	11.322,000		
مدراس	7,234,000		
بنغال	6,900,000	البنجاب	1,280,000
بهار وأوريسا	5,774,000	دلهي	73,000
الولايات الوسطى وبرار	2,118,000	أجمير ومروار	67,000
آسام	1,829,000	كرج	65,000
بومباي	1,750,000	بلوخستان	05,700
مقاطعة الحدود	5,500	إمارات الهند الغربية	218,000
جزائر أندمان ونيكوبار	5,10	الولايات الوسطى	253,000
في الأمارات		« المتحدة	309,000
حيدر أباد	2,473,000	برودا	209,000

ترافنكور 1,770,000	كشمير 170,000
راجبوتانا 1,565,000	كوجين 125,000
ميسور 1,000,000	إمارات مدراس 65,000
إمارات الهند الوسطى 780,000	» بنغال 31,000
إمارات بهار وأوريسا 632,000	سخيم 2,000
إمارات البنجاب 393,000	إمارات آسام 1,400
إمارات بومباى 349,000	» الحدود 540
	» بلوخستان 020

ذلك هو عدد المنبوذين في أنحاء الهند أخذاً من الإحصاء الرسمي الذي أجري منذ نحو 25 سنة ولا شك أن عددهم قد ازداد كما ازداد عدد السكان جميعاً . .

أما نسبة التعليم بينهم فيمكن أن نتبينها بوجه عام من هذا الأحصاء عن بعض الولايات .

في ترافنكور	في الألف	149
» إمارات آسام	» »	129
» » برودا	» »	103
» بلوخستان	» »	69
» بنغال	» »	50
» إمارة كوجين	» »	48

« مقاطعة الحدود	» »	36
« إمارات مدراس	» »	35
« في آسام	» »	31
« بومباى	» »	28
« إمارات بومباى	» »	28
« « بلوخستان	» »	25
« اجمير	» »	22
« إمارات الهند الغربية	» »	19

أما بقية الولايات والأمارات فأن نسبة التعليم فيها تتضاءل بين المنبوذين حتى تصل في بعضها إلى 2 في الألف .

وهذه النسبة قد زادت الآن طبعاً للجهود التي بذلت لتخفيف وطأة الاضطهاد عن هؤلاء وإتاحة الفرصة لهم للتعلم . . ومع ذلك فأن كل إنسان يشعر أنهم لا يأخذون حقوقهم كأناس من بني آدم يجب على مواطنيهم أن يسمحوا لهم بالحقوق التي يتمتعون هم بها . . وأن يعملوا ماوسعهم على تنفيذ القوانين التي تسنها الحكومة لصالح هؤلاء حتى يعيش هذا العدد الضخم كما يعيش بنو آدم في العالم ويساهموا في نهضة وطنهم بأعمالهم الفكرية والصناعية والزراعية وغير ذلك من نواحي الأعمال ؛ لأن الحكم بالموت على هذا العدد الضخم يعتبر أقسى حكم يصدره شعب على شعب آخر فما بالنا إذا تصورنا أنه حكم يصدر من جزء من الشعب على جزئه الآخر . . إن الذي يعشى على التطويل في هذا وربما التكرار هو ما أحسه من الألم لهؤلاء حين رأيتهم ، وما أشعر

به من فداحة الخسارة على الشعب الهندي حين يقسو على هؤلاء ويعزلهم عن ركب الحياة ، ويحكم عليهم بالشلل الفكري والعلمي والصناعي . .

وإذا كانت الحكومة قد أدت شيئاً من واجبها وبقي عليها أشياء ، فعلى الشعب الهندي أن يفسح بصدره لما تعمله الحكومة ويشجعها على النهوض بهم ففي ذلك الخير لهم جميعاً ولسمعتهم وسمعة وطنهم ، وقبل أن تطالب الهند والشعب الهندي حكومة جنوب افريقيا بعدم التفرقة بين الملونين والبيض في المعاملة ، عليها أن تعمل هي وشعبها على عدم التفرقة بين الهنود أنفسهم في المعاملة ؛ ليضربوا المثل بذلك على ديمقراطية صحيحة وفهم سليم لمقتضيات الحياة في العصر الحديث عصر الحرية والأخاء والمساواة . .

وإن أي إنسان لا يستطيع أن ينسى جهاد « غاندي » وإخوانه وتلاميذه في هذا السبيل مهما كان الدافع لهم على هذا الجهاد ؛ فإن المهم أن يصل هؤلاء إلى الحقوق التي يتمتع بها الآخرون . .

تحية للمجاهدين في سبيل النهوض بهؤلاء المساكين . . وتحية لهؤلاء المساكين أنفسهم . وعفواً إذا أطلت في الحديث عن هؤلاء ولعل من المناسب بعد هذا أن نتابع البحث في ديانة الهند .

المذاهب والآلهة الهندوسية :

تبلورت الديانة الهندوسية ذات الآلهة التي لا حد لها إلى آلهة ثلاثة . .

(1) الآلهة شيفا «Shiva» (2) الاله ڤشنو «Vishnu» (3) براهما !

أما الأله شيفا فهو إله الحياة والتبديل ، وأما « فشنو » فهو الحافظ ، وأما « براهما » فهو الباريء الخالق . . وهو أعلاها(1) .

وبجوار ذلك نشأ مذهب آخر هو المذهب الجينى . . مستقل عن الديانة الهندوسية . ونكتفي برسم صورة سريعة عن هذه المذهب .

الشيفى :

هو المذهب الذي يعبد أتباعه الأله شيفا المختص بالأبادة والموت ، أو على فكرتهم في التناسخ هو المختص بالتبديل والتحويل إذ أنه لا موت حقيقياً عندهم . . ولم يكتف أتباع هذا المذهب بعبادة الأله « شيفا » بل أنهم أخذوا يخترعون له أو بمعنى أصح لعمله واختصاصه رموزاً ترمز اليه ويعبدونها وقد أداهم فكرهم إلى أن يتخذوا عضوى التناسل في الرجل والمرأة رمزين لهذا الأله ويعبدوهما بعد أن يقيموا لهما تماثيل في معابدهم « فظهر المذهب القضيبي الذي اتخذ عبادة شيفا في صورة عضو التوليد موضوعاً له فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضة على الدوام فيقبلونها بين حين وحين مصلين لها ، وعضو التذكير يمثل الآله شيفا وعضو التأنيث يمثل زوجته

---

(1) والفكرة التي تقوم عليها عبادة الهندوس كما حدثني غير واحد منهم أن الله واحد ولكنه حل في شيفا وفشنو . . الخ وقال لي كاهن إننا لا نستطيع تصور المجرد ولذلك رمزنا للاله بهذه الرموز التي سميناها آلهة حتى يمكن تصوره والتوجه له . وقال لي بعضهم إن فكرتنا قريبة من فكرة المسيحين عن حلول روح الأله في عيسى . وكل فرقة منهم اعتقدت في حلول الاله في واحد فعبدوه . وهذا تفسير المثقفين لا العوام .

صور آلهة الهنود كما جاءت في كتبهم



« الصورة مأخوذة عن مجلة ثقافة الهند »

« باروتي أوكالى » أي إلهة الحياة والموت والأمم التي خرج العالم منها(1) » .

ويقول جوستاف لوبون تعليقاً على هذا « ولا تجد عبادة أدت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كعبادة «كالي»الهائلة . . ولا يزال يرى في معابدها من الفحشاء والمنكر والدعارة ما يستحيل وصفه(2) » .

وأكثر ما يكون عباد « شيفا » وأتباعه في الوسط والجنوب « وحين قام محمود الغزنوى بغزو الهند سنة1001 م كان يوجد اثنا عشر معبداً مشهوراً لتقديس هذا الرمز »(3) وأتباع شيفا يخططون على جبهاتهم عادة ثلاثة خطوط أفقية من الزغفران وغيره هكذا « ☰ »

القشني

هذا المذهب الذي يعبد أتباعه الإله Vishnu « قشنو » إله الحفظ والحب والجمال . .

ولما كان من طبيعة الهندوس أنهم يميلون إلى تمثيل المعاني في صور حسية لما يدعونه من عدم قدرتهم على تعقل المعاني العليا وإدراكها ، وأنهم لهذا يدعون أن الإله يحل في صور مادية يتخذونها معبودات لهم ويقدسونها تقديسهم للأله نفسه ، وغالباً ما ينسى الناس الأصل ، ويتجهون بكل تفكيرهم وعبادتهم إلى الرمز قال منشئو هذا المذهب إن الأله « شنو » يمكن أن يحل في كل عظيم وبطل من الإنسان أو الحيوان ،

---

(1).(2).(3) حضارة الهند ص604,603

ويضاف حينئذ إلى قائمة المعبودات التي لا تنتهي . . وأشهر ما عرف عندهم من الأبطال الذين حل فيهم الأله « ڤشنو » : راما ، وكرشنا ، فراما هذا إنسان تحول إلى إله معبود بعد أن حل « ڤشنو » فيه ، وتورد كتبهم قصته ، ونحن حين نقرؤها يأخذنا الإعجاب بخيالها الذي يفوق خيال قصص ألف ليلة وليلة ، ولكن ما جاء فيها من البطولة الخيالية لراما كان مدعاة لعبادة الناس له ، ولا بأس أن نضع أمام القراء صورة مختصرة لهذه القصة معتمدين على ما جاء عنها في كتاب حضارة الهند[1] وغيره .

كان ملك الجن المقيمين في سيلان قد عبث بالكهان فسخطت عليه الآلهة ، وعقدت مجلساً لأنقاذ البشر منه ، ورأت أن يتجسد أحدها في صورة إنسان ليقهر ملك الجن « راونا » فتجسد « ڤشنو » في صورة البطل « راما » وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة « راما » وهي « سيتا » حيث خطفها من الهند إلى بلاده ، ومع ذلك ظلت وفيه مخلصة في حبها له ويجتهد « راما » لمعرفة مكان زوجته المحبوبة « سيتا » ليستردها ويتعب في ذلك حتى يتقدم أحد القرود فيكشف له عن مكانها ، فيهجم « راما » بمساعدة القرود والدببة على ملك الجن ، ويقضي عليه ، ويعود بزوجته راكبين المركبة السحرية حتى وصلا إلى

(1) ص 461 وقد وجدت في مطالعاتي شبهاً قوياً بين اساطير الهنود وأساطير قدماء المصريين حول آلهتهم . وقد انقرضت أساطير قدماء المصريين ولم يبق لها وجود إلا في باطن الكتب بينما ظلت الأساطير الهندية للآن مسيطرة على عقول الهنود كأصل من أصول دياناتهم .

الهند وانتصر بذلك العرق الآرى ممثلا في « راما » فأصبح معبوداً ومعه « سيتا » منذ ذلك الوقت .

وقد أصبح القرد بسبب هذه المعاونة التي أسداها إلى « راما » من الحيوانات المقدسة[1] ، وأصبح تاريخ استرجاع « سيتا » وانتصار « راما » عيداً دينياً يحتفل به الڤشنويون كل عام . . وقد شاهدت احتفالهم بهذا العيد ورأيتهم يطوفون البلدة والكهان في مركبة كتلك المركبة التي ركبها « راما » في عودته مع « سيتا » للهند . . وبيوتهم ومعابدهم ممتلئة بصور وتماثيل لهذا وتلك ، ويقومون في كل صباح يقدمون خضوعهم لهذه الصور أو التماثيل المعلقة في بيوتهم ثم يذهبون لأعمالهم .

وبجوار « راما وسيتا » يأتي بطل آخر حل فيه « ڤسنو » فصار معبوداً كذلك وهو « كرشنا » « Krishna » وبطولته تتمثل في الحب واجتذاب قلوب النساء إليه حتى فتن به ، وأصبح هو مع « راما » يمثلان عاطفة قوية من عواطف الهندوس ، هي عواطف الحب والوفاء والعشق والغرام ، فأصبحا لذلك مهوى أفئدة العاشقين ، الوطين ومهوى أفئدة الأمهات المحبات العطوفات . . ويعلق العلامة جوستاف لوبون على هذا فيقول[2] :

« وما في ديانة « ڤشنو » من الغرام يأتي في الهند ذات الجو المحرق

---

(1) ذكرت الصحف أخيراً أن الحكومة الهندية اعتذرت عن عدم تصدير القرود للخارج لما في ذلك من مصادرة لعقيدة الشعب .
(2) ص144

وذات السكان الملتهبي المزاج بنتائج مخالفة للآداب الأوروبية » . هكذا إلى هذا الحد !! مع ما تعلمه عن المجتمع الأوروبي وآدابه المنحلة . . ثم يقول : « وتجد في كَجرات على الخصوص بعض المذاهب القائلة بعبادة « كرشنا » فيدعى كهانها « بالمها راجوات » فمن أقصى آمال النساء أن يصبحن عاشقات لكرشنا أى لممثليه أولئك الكهان الذين يبيعون قضاء الأوطار بأعلى الأسعار » ثم ينقل عن الكاتب الهندي السيد مليباري قوله « قد يرى الأوروبيون أن المهاراجوية « الكهان » خرافة شائنة أو طريقة شهوانية ساقطة ، بيد أن ألوف الأسر الهندوسية ستظل رازحة تحت نيرها البهيمي ما بقي هذا النير مستتراً تحت رائحة الطهر »وفي مكان آخر من الكتاب(1) ينقل عن هذا الكاتب الهندوسي قوله عن أتباع هذا المذهب : « إن المهاراجا هو الكاهن الذي يؤله أى الذي يتجسد فيه « ڤشنو وكرشنا » فيقف عليه كل ڤشنوي تقي جسمه وروحه وملكه وأهله وتوابعه » .

وإليك بعض ما يجبيه المهاراجا من عباده الأتقياء : خمس روبيات(2) للتشرف برؤيته ، 20 روبية للمسه ، 35 لغسل رجليه ، 60 للجلوس بجانبه ، 50-500 للثواء بغرفته ، 13 ليتفضل فيضربه بسوطه ، 19 لشربه من غسالته او غسالة ثيابه القذرة ، 100-200 من النساء اللاتي يقضين معه روح اللذة » .

---

(1) ص610 .

(2) الروبية تساوي سبعة قروش ونصف الآن .

ولم يقف الكاتب الهندي عند هذا السرد ، بل أبدى تعجبه من مسألة « قضاء روح اللذة » وإغضاء رجال غيارى ونساء محصنات عن أعز المشاعر[1] ولكن الكاتب والمؤرخ الاجتماعي الفرنسي الكبير يعلق على هذا فيقول : وأرى مع ذلك أنه ليس في الأمر مالا يمكن إيضاحه مع وقفة للنظر ، فقد ظل الإيمان الديني أقوى العوامل في توجيه النفوس على الدوام ، . . . ولكن أي توجيه هذا وللناس عقول ؟ !!

لقد كانت فكرة الحلول عند الهندوس سبباً في سهولة اعتقادهم وعبادتهم لأي عظيم وأي قوي . . فكل قوي لا بد أن يكون قد حل فيه الأله وإلا لما صار قوياً . .

ومن هنا تعددت الآلهة وتعددت المذاهب وإن كانت كلها داخل الهندوسية التي أوحت بمبادئها وأفكارها بإيجاد وخلق مثل هذه المذاهب وهذه الاعتقادات ، فالهندوسي لا يرفض تقديس أي قوى ، ومن الممكن بكل سهولة أن يضيفه إلى قائمة القديسين في المعبد أو البيت ؛ فالبقر مقدس لما يدره من خير على الحياة في الهند ، والأفعى مقدسة لقدرتها على الضر ، والنمر حين يذوق طعم لحم الإنسان فيصبح مفترساً وخطراً على الإنسان لا يحاولون قتله ، بل إنه ينقلب في نفسهم إلى قديس يعبد لقوته وسطوته . . والقطار لا مانع من عبادته لقوته الخارقة في قطع المسافات وحمل المسافرين وأثقالهم . . وهكذا نجد

---

(1) حدثني كبير الأساتذة بدار العلوم « ديو بند » أنه رأى في بلده كاهنا هندوسيا يجلس عاريا في أحد البيوت وهو مضطجع وعورته بارزة للجميع وكل واحد من أتباعه يتهافت عليه ويقف أو يقعد أمامه ويؤدي تحية الخضوع والتقديس لهذه العورة البارزة أمامه . .

صورة للبقرة وصورة للأفعى في المعابد وتقدم إلى هذه الصور مراسيم العبادة حين تهفو نفس الهندوس للتبتل والعبادة . . ولقد حكى لنا العلامة جوستاف لوبون أن ولي عهد انكلترا حينما زار الهند أحيط بمظاهر التقديس والاجلال لاعتقادهم أن روح الأله « فشنو » قد حلت فيه . .

والباب مفتوح يدخله كل بطل وكل قوي وطريقه إلى المعبد سهل لتصبح صورته مكان التقديس والاجلال تعنو لها الجباه وتخشع لها القلوب . .

وأتباع فشنو يكثرون في الشمال وهم يرسمون غالبا على جبهاتهم ثلاثة خطوط رأسية هكذا « ! ! ! »

وأما الذين يضعون نقطة وسط جبهتهم فهم من أتباع كريشنا . .

الجينية

إحدى الديانات المنتشرة في الهند ، وإن كان أتباعها الآن قليلين مثل البدهية أو البوذية كما تذكر في الكتب العربية . وإذا كانت الشيثرة والفشنوية مشتقتين من الديانة القديمة الهندوسية التي تقوم على الكتب المقدسة الهندوسية من الفيدا وغيره فأن الجينية يعتبرها أتباعها ديانة مستقلة كالبوذية لا تعترف بالفيدا . ويدعى الجينيون أن ديانتهم أقدم الديانات في الهند ، ولكن المؤرخين لا يعرفون الجينية حقيقة إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، ويعرفون مؤسسها أو منظمها الأخير « مهاويرا » الذي يؤرخون ميلاده بسنة 599 قبل الميلاد أى قبل ولادة بوذا التي كانت سنة 557 ق . م وتعاصرا في الحياة ثلاثين سنة ، ولكنهما

لم يتقابلا ، مع أنهما كانا في منطقة واحدة تعرف الآن باسم « بيهار » وقد مات مهاويرا قبل بوذا بحوالى خمسين سنة ، ولكن بعض المؤرخين يعتبرون الجينية مشتقة من الهندوسية . وقد قامت الجينية كما قامت البوذية في وقت ثارت فيه الطبقة المحاربة على البراهمة لاختصاصهم بجميع الامتيازات . وكان « مهاويرا » من هذه الطبقة المحاربة فأسس هذه الديانة التي تختلف عن البرهمية الهندوسية ، لا سيما في القول بتقسيم الناس إلى طبقات وفي عدم الاعتراف بآلهة الهندوسية الثلاثة . برهما وشيفا وفشنو ، وإن اعترفوا ببعض آلهة أخرى ، ولكن لم يعبدوها ، فأن هذه الديانة تقوم على عدم الاعتراف بالروح الأكبر أى الخالق وإن اعترفت بوجود أرواح خالدة ، وهم يتجهون في عبادتهم إلى أبطالهم الذين يعتبر « مهاويرا » آخرهم ، فهم يعبدون الأنسان عوضاً عن الله ، ويتخذون الأصنام للعبادة في معابدهم(1) ، وتخالف الجينية الهندوسية أيضاً في أنها لا تعترف بمسألة تعدد الولادة التي يقول بها الهندوس نتيجة لفكرة التناسخ التي تقول بأن الأنسان لا يزال يموت ويولد حتى تطهر نفسه تماماً فتصل إلى الخلود والنعيم .

أما الجينية فتقول إن الإنسان يستطيع أن يتحرر من دورة الولادة هذه بتعطيل حياته ، وذلك بالتخلي عن كل عمل وكل ما يغذى جسمه حتى تنتهي حياته ، وكأنها ترغب بذلك في الانتحار حتى سميت بالأنتحارية . .

---

(1) ثقافة الهند ديسمبر سنة 1951 م

وأهم شيء في الجينية هو الدعوة إلى تجرد الأنسان من شرور الحياة وشهواتها حتى تدخل النفس في حالة من الجمود والخمود لا تشعر فيها بأي شيء مما حولها ، والناسك الحق هو الذي يقهر جميع مشاعره وعواطفه وحوائجه . فلا يحتاج إلى شيء حتى اللباس ؛ لأنه لا يشعر بحر ولا برد ولا حياء ، ويهتم الكهان الجينيون بنتف أشعارهم كلها كدليل على أنهم لا يهتمون بالجسد المادي ؛ لأن الذي يشعر بالحياة ـ وبالتالي بحاجته إلى ستر عورته ، وأن في الحياة خيراً وشراً وحسناً وقبحاً ـ معناه أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها ويقولون إن آدم وحواء كانا يعيشان في الجنة بطهر كامل لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر ، ولا يحملان هماً أو غماً حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللذة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر ، فأخرجا من الجنة ، وبهذه النظرية يعيش نساكهم عراة لا يسترهم شيء مطلقاً لأن هذا هو المثل الأعلى عندهم ، إذ معناه إن الناسك تجرد من كل إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها ، فأصبح لا يهتم فيها بخير أو شر أو حسن أو قبح .

ويفلسفون هذا المعنى فيقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الأثم ، فلو لم يكن الأثم في الحياة لما كان الحياء ، فترك اللباس هو ترك للأثم وتصوره ، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الأثم أن يعيش عادياً ويتخذ من الهواء والسماء لباساً له . .

وهكذا نرى السمات البارزة لهذا الدين هي : المساواة وعدم الاعتراف بأله مع الاعتراف بالروح ، والرغبة في الانتحار البطيء

للوصول إلى سمو الروح وتخلصها من الآلام ، والرغبة في العرى واعتباره مثلا أعلى للناسكين حتى سمى هذا الدين : بدين العرى .

وقد حدثني بعض الأساتذة أنه رأى في بلده مرة ناسكا جينياً يسير عارياً في ذهول شديد ، وكان يتحاشى أن يمر على ماء !! حتى دخل بيتاً من بيوت الجينيه ، فعد ذلك شرفاً كبيراً لأهل البيت ، وأعدوا طعاماً ، لكنه لم يتناول منه إلا شيئاً بسيطاً ، والباقي من الطعام أصبح مقدساً يهدونه لأحبابهم للتبرك به .

وقد انقسم الجينيون إلى فرقتين : إحداهما تميل إلى التقشف التام وإنكار الذات متخذة من حياة « مهاويرا » المتقشفة شعاراً لها . أما ثانيتها فمعتدلة في شؤون الحياة ، متخذة من حياة « مهاويرا » الأولى في كنف والديه حين كان يتمتع بالخدم والملذات قدوة لها . . ولكل وجهة .

وأتباع هذا الدين لا يصلون إلى المليون ، ولكن معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس في التجارة والمداولات المالية ، حتى ليعتبرون اليوم من الطبقة العليا اجتماعياً ، واقتصادياً ، وقد ساهموا مساهمة لا يستهان بها في تراث الهند الثقافي والعقلي . . وهم بمقتضى أصول دينهم سلميون هادئون منصرفون إلى العمل الهادىء المنتج ، ولرهبانهم نفوذ كبير عليهم جعلهم يتجهون دائماً إلى الخير في عملهم مبتعدين عن الأذى حتى للحيوانات .

ولهذا نجدهم على مر التاريخ قد اكتسبوا حب الحكام وإعجابهم وتقديرهم ، فكان ذلك يدفعهم إلى التقدم المالي والاجتماعي في جميع مظاهر الحياة المادية والأدبية والفنية ، حتى في عهد ملوك المسلمين نالوا

كل احترام وتقدير ، ووصلوا إلى درجة عالية من العز والرفعة ، حيث استخدمهم الحكام المسلمون في رعاية الأمن والسلام ، وحتى خلع الامبراطور « أكبر » على المعلم الجيني « هيراويجيا » لقب معلم الدنيا ، وحصلت العائلات الجينية العليا على نفوذ عظيم في الديوان الملكي المغولي[1] » .

البدهية أو البوذية

إحدى الديانات التي نبتت في الهند وسيطرت على المجتمع الهندي مئات السنين ، ثم انتقلت من الهند إلى ما حولها في سيلان وبورما وسيام والهند الصينية والصين واليابان ، حتى أصبحت هذه البلاد الآن هي الموطن الحقيقي لازدهار البوذية بعد أن اضمحل شأنها وتقلص ظلها في الهند نفسها ، وحتى يقدر معتنقوها في هذه البلاد بحوالى الخمسماية مليون .

ولد « بودا » « Boddha » في القرن السادس قبل الميلاد سنة 557 ق . م[2] وبودا هذا لقب له ، ومعناه « العارف المستنير » ، أما اسمه فهو « كوتاما » « Gautama » أو سدهارتا « Siddhartha » وكانت ولادته في أسرة حاكمة مترفة من الأكشترية فنشأ على طبع أسرته مترفاً منعما . ولكن لفت نظره ما كان يراه أحياناً من مظاهر البؤس والمرض والشقاء والتفاوت بين الطبقات ، فأخذ يفكر في هذه المظاهر حتى نغص

---

(1) ثقافة الهند سبتمبر سنة 1956 م .

(2) هذه المعلومات عن مجلة ثقافة الهند ديسمبر 1953،ص وحضارة الهندص 359 لجوستاف لوبون.

عليه تفكيره هذا ما كان فيه من نعيم وترف ، واستمر يفكر في هذه الحياة وفي لذاتها وانقطاعها بعد حين ، فأفزعته هذه الحقيقة ، وانقطع يفكر ويبحث عن مخرج من هذه الآلام ، وهام على وجهه تاركاً القصور والنعيم يبحث عن حقيقة السعادة في الحياة ، وكان يلازم شجرة يجلس تحتها ويفكر ، وقد صارت هذه الشجرة بعد ذلك ذات مكانة مقدسة ما زال البدهيون ينظرون إليها نظرة تقديس ، وتحيطها الحكومة الهندية بضروب العناية حتى تبقى عليها وعلى ما حولها من أشجار مقدسة ، وهي الآن في منطقة كَيا «Gaia» من ولاية « بيهار » . . واستمر هائماً على وجهه بين الغابات وفي الصحارى يعاني آلام البؤس والفاقة والجوع . ويمارس أنواع الرياضات الجسمية والروحية حتى استطاع أن يصل إلى حالة من التجرد عن الماديات ، ويعلو بنفسه على الشهوات حين أدرك أن الشهوة هي أم الشرور في الحياة ، وأنه لا بد من القضاء عليها ، حتى يحس الانسان بالسعادة والراحة ، يقول بوذا : « لما أدركت هذا تحررت عن شرور الهوى والخطأ والجهل » فأخذ يدعو الناس إلى هذا التحرر نحو أربعين سنة مرتحلا من مكان إلى مكان يبشر بالمحبة بين الناس ، وبأن يعطف الانسان على كل مخلوق ولو كان حيواناً ، فلا بد أن ننظر إلى المخلوقات كلها نظرة فيها عطف وحنان بعيداً عن التعالي والغرور ، والتفاني في الاعتداد بالنفس والجري وراء شهواتها ، وعمل « بوذا » بما كان يدعو إليه من مبادىء ، فقاسم الناس آلامهم وهو يتنقل بينهم يدعوهم إلى مبادئه الرحيمة ، مبادىء الحب والرحمة والتسامح . .

وكانت البلاد ظامئة إلى روح جديدة تنزل على قلوبها الملتهبة بالحقد

والشهوة برداً وسلاماً . . وتزيل منها ما علق بها من أفكار سيئة عن الطبقات والتعالي والغطرسة من جانب ، والذل والعبودية من جانب آخر .

لقد كان الناس يعيشون مثقلين تحت وطأة الأفكار الهندوسية التي تقسم الناس إلى طبقات حتى ظهر « بوذا » وكأنه واحة وارفة الظلال ، فوجد فيها الكثير من الهنود الملجأ الذي يمكن أن يستظلوا بظله ، ويرتووا بمائه فأقبلوا ينضوون تحت لوائه ، وظل هكذا يبشر بمبادئه حتى توفى سنة480 ق . م ولفتت هذه المبادىء السمحة نظر الامبراطور « أشوكا » امبراطور الهند الشمالية في القرن الثالث قبل الميلاد بعد أن خاض حروباً قاسية رأى فيها من العنف والفظاظة ما جعل نفسه تحس بظمأ شديد إلى حياة الرحمة واللين والحب ، فوجد في دعوة « بوذا » ما يشفي نفسه من سقمها ؛ فاعتنقها ودعا إليها في حماس وأخذ يشكل حياته على أساس مبادئها ويرسل رسله إلى الممالك المختلفة يبشرون بها ، وكان عمله واندفاعه نحو تحقيق مبادىء الحب والعطف والتسامح في رعيته ، بل وفي الحيوانات أيضاً لافتاً لنظر الكثيرين ، وداعياً عملياً للبوذية ، حتى انتشرت واكتسحت في طريقها الديانة الهندوسية القديمة وظل الأمر بها كذلك عدة قرون حتى أخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، بينما كانت الهندوسية تسترد مكانتها الضائعة شيئاً فشيئاً ، حتى انحسرت البوذية عن موطنها الأصلي في الهند ، واسترجعت الهندوسية سيطرتها على الشعب ، ولم يعد للبوذية في موطنها إلا قليل من الأتباع يستوطن أكثرهم شمال الهند في « نيبال » بينما ازدهرت خارج بلادها كما سبق أن قلنا في سيلان وبورما وسيام والصين الخ . .

إن المؤرخين الذين يؤرخون لبوذا يذكرون عنه أنه كان نبيل الفكر قوي الروح ماضي العزيمة واسع الصدر عزوفاً عن الشهوات ، زاهداً كريم النفس حسن المعاشرة ، بريئاً عن الحقد والعدوان ، جامداً لا ينبعث فيه حب ولا بغض ، ولا تحركه عواطف ، ولا تهيجه نوازل ، وكانت مكانته رفيعة في اعين الناس والملوك والأمراء والبراهمة والرهبان ، فكانوا يزورونه ويتبركون به ، وينتظرون أيام قدومه ويحتفون به ، وكان مجلسه دائماً حافلا بالأمراء والوزراء والعلماء والعارفين والرهبان .

وكانت البوذية في أول أمرها مذهباً خلقياً يرمى إلى تزكية النفس وتحررها من الشهوات ، ويدعو إلى الحب والتسامح ، والعمل بقدر ما يمكن للتخفيف من آلام الإنسان ، لا فرق بين إنسان وآخر . فالكل في نظرها سواء على عكس الهندوسية . . ثم أخذت تتشكل وتتعقد وتتشعب حسب أفكار وعقول أتباعها الدارسين لها الداعين إليها ، حتى أصبح لكل قرن بوذية تختلف قليلا عن البوذية السابقة واللاحقة ، وتفلسفت وصارت أفكاراً منظمة ، ومدارس فلسفية تعددت حسب وجهات نظر الباحثين ، وشتان ما بين الأولى والثانية . فالأولى تزكية وتربية ، والثانية دراسة وفلسفة ، وإن كان لا يمكن إنكار الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها هذه أو تلك . .

ولم تبحث البوذية في أمر الأله كما هو الشأن في الهندوسية ؛ إذ كان جل مقصد بوذا هو تطهير النفس من شهواتها ، وتحليتها بمكارم الأخلاق في معاملاتها مع الناس .

ولذا نجد تعاليم بوذا تدور كلها حول هذا الأساس الخلقي : لا تقتل . لا تسرق مالا . لا تشرب خمراً . لا ترقص . لا تكذب . لا تزن . لا تكن مترفا . الخ . وكان أهم شيء اتجهت إليه نفسه هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذي أوجدته الدّيانة البرهمية القديمة ، لأن الناس عنده سواسية لا فرق بين صغير وكبير ، وتفاوتهم يكون حسب طهارة نفوسهم وما تتحلى به من حب وعطف وتسامح نحو الآخرين .

لذلك لم يعن « بوذا » كثيراً بالبحث عن الأله . فإن للبرهمية آلهة ولكن الناس شقوا بها . فالأولى إذن أن يتجه لتخليص الناس من هذه الآلام التي يئنون من عذابها . وكان هذا المظهر الخلقي الرائع سبباً في جذب كثير من الناس إلى دعوته ، لكنهم كانوا حينما يدخلون هذه الدعوة ويعتنقون مبادئها لا يجدون فيها توجيهاً لأله يعبدونه ، والناس دائماً بطبعهم منساقون إلى الاعتراف بأله أقوى منهم يتجهون له ساعة اليأس والشدة . . فلذلك كان الداخلون في البوذية كثيراً ما يظلون على اعترافهم بآلهتهم التي كانوا يعبدونها في البرهمية . . ومن هنا بدأت البوذية تختلط في مظاهرها بالهندوسية ، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالأله يعترفون بالآلهة ، ويتقربون إليها ، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة للبوذية ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى شيئاً فشيئاً ، ويندمج أتباعها في تقاليد وطقوس الهندوسية وآلهتها ، حتى ظهرت البوذية بمظهر الهندوسية ، وبدأت معابدهم تظهر فيها آلهة الهندوس ، بل أصبح بوذا بعد حين إلهاً يعبده البوذيون ، وبذا مهد السبيل لانحسار موجة البوذية من الهند ورجوع الهندوسية إلى مكانتها القديمة . هكذا يعللون انتشار

البوذية وتغلبها على الهندوسية أولا ، ثم تغلب الهندوسية عليها بعد مرور ألف سنة من ولادتها أعني في نحو القرن السادس المسيحي . .

ومما يلاحظ أن البوذية الأصيلة لا تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية من الغسل في الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام والاشغال بالعبادات المتعبة ، والجولان عراة حفاة ، والتزيي بزي الرهبان من حلق الرؤوس أو تلبيد الشعر ، وتتريب الجسد وعرض النذور والقرابين ، فكل ذلك ليس له حظ في النجاة عند البوذية . يقول بوذا : « التعري وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وتتريب الجسد . . الخ . . كل ذلك لا يطهر فانيا لم يقهر شهواته » ثم يقول « لا يطهر نهر رجلا متعهداً للسيئات ، مضمراً للمقت ، مرتكبا للجناية » وقال في موضوع آخر « النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد لا أكل اللحم(1) » والعمل الصحيح في البوذية هو تطهير الباطن من حب النفس والشح والحقد والغلظة والشهوة والغضب ، وهو غض البصر عن عيوب الناس ، والتأسي بهم في أحزانهم وأوجاعهم ، والأخذ بالتقوى في شعابها المتعددة من الاجتناب « عن قتل كل ذي روح ، وعن سلب أموال الناس ، وعن النظر إلى نسائهم ، وعن قول الزور ، وشرب المسكرات ، والتعدي بالجوارح » .

وهكذا تقوم البوذية على السمو الأخلاقي والطهر النفسي غير عابئة بمظاهر العبادة التي لا تؤدي لهذه الغاية في نظرها . .

---

(1) لأن الهندوسية تحرم أكل اللحم . .

وتجد البوذية الآن من حكومة الهند عناية خاصة من جهة الأبحاث ، ففي منطقة « نالندا » قريباً من « بتنا » في « بيهار » أقامت معهداً للبحوث في الثقافة والتعاليم البوذية بجانب الجامعة القديمة التي اكتشفوا مبانيها والتي ترجع إلى مئات من السنين قبل الميلاد ، وقد زرت هذه المنطقة بصحبة أحد وزراء بيهار (شاه محمد عزيز منعمي) وبعض علمائها ، وقضينا وقتاً قصيراً في المعهد تعرفنا فيه على مهمته ، ونظرنا بعض الكتب النادرة المستقدمة من جميع أنحاء العالم للبحث عن البوذية وآدابها وتعاليمها ، وكان بعض هذه الكتب قد كتب على خوص النخيل المعروف في الهند باسم « التار » ويمتاز بأنه عريض وأملس . .

ولاحظنا بالمعهد طلاباً من جميع الأمم الشرقية التي تعنى بالبوذية ، وسجلت كلمة إعجاب بالروح التي أملت قيام هذا المعهد ، ودفعت هؤلاء الشبان إلى التخصص والتفرغ لما يعنى به من الدراسات القديمة . .

ومما يلفت النظر حقاً هذا التشابه الكبير بين ما نسج حول « بوذا » وولادته وحياته ، وبين ما قاله أتباع عيسى عليه السلام عنه ، وإن الإنسان ليتأمل كثيراً ويقف عند هذا التشابه الذي يكاد يكون تاماً بين التفكيرين البوذي والمسيحي مع العلم بأن بوذا سابق على عيسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، وأن البوذية وأفكارها تسربت إلى البلاد الغربية من الهند بوساطة دعاة « أشوكا » والمبشرين بالأفكار البوذية . وقد سبقت الإشارة إلى ما كان بين الهند وهذه البلاد من صلات قوية بعد غزوة الاسكندر للهند . .

وبودي أن أضع أمامك هذه المقارنة التي عقدها الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة في كلية الحقوق وأستاذ الملل والنحل في كلية أصول الدين بالأزهر سابقاً ، وذلك في كتابه « الملل والنحل » عن التشابه الكبير بين ما يقوله أتباع بوذا عنه وما يقوله أتباع عيسى عليه السلام . .

أقوال البوذيين عن بوذا	أقوال المسيحيين عن المسيح
بوذا ابن الله	عيسى بن الله
كان تجسد بوذا بوساطة حلول	كان تجسد المسيح بواسطة حلول
القدس في العذراء مايا	روح في العذراء مريم
دل على ولادة بوذا نجم ظهر في	ودل على ولادة عيسى نجم ظهر
أفق السماء	في المشرق
وعرف الحكماء بوذا وأدركوا	وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا
أسرار لاهوته	سر لاهوته
وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا	وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا
من مجوهرات	من ذهب وطيب
لما كان بوذا طفلا قال لأمه	لما كان يسوع طفلا قال لأمه
مايا إنه أعظم الناس جميعا	مريم أنا ابن الله
لما كان بوذا ولدا نحيفا سعى	كان يسوع ولدا نحيفا فسعى الملك
الملك وراء قتله	وراء قتله كيلا ينزع الملك منه
وصعد بوذا إلى السماء بجسده	وصعد يسوع إلى السماء بجسده
وسوف يأتي بوذا مرة ثانية	بعد صلبه
للأرض ويعيد السلام	ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية
	ويعيد السلام

وعلى هذا النمط من التشابه التام أتى الأستاذ بست وأربعين نقطة . . وكذلك لاحظ هذه الناحية المؤرخ جوستاف لوبون حيث قال[1] ، تجد أوجه شبه شاملة للنظر في حوادث حياته (بوذا) الخرافية وبعض أقاصيص الإنجيل . .

لقد وقفنا كثيراً مع بوذا والبوذية فيكفيها هذا ، وما أردنا إلا رسم صورة عامة عن هذا الدين الأخلاقي الذي نبت في الهند ، ثم انحسر عنها لينتشر ويزدهر في بلاد غيرها . .

وهذه الأديان التي سبق الكلام عنها هي الأديان التي كانت تتقاسم الهند وقت ظهور الإسلام وزحفه إلى هذه البلاد الواسعة . .

---

(1) ص344 حضارة الهند . .

الزحف الإسلامي نحو الهند

بدء دخول الاسلام في الهند

سبق أن أشرنا إلى الصلات التي كانت قائمة بين الهند والبلاد الغربية من قبل الميلاد ، وكان التجار العرب هم واسطة هذه الصلات تقريباً ، أو كانوا هم أكثر أهل البلاد العربية صلة بالهند ، فبلادهم قريبة من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند ، وسفنهم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد ، ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود ، كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب ، بل كانوا يذهبون إلى ما وراء ذلك في خليج بنغال وبلاد الملايو وجزر اندنوسيا حتى كونوا لهم جاليات عربية في بعض ثغور هذه البلاد .

وحين ظهر الإسلام ودخل العرب في دين الله أفواجا كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وغيرهم ، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها ، وكان من الطبيعي أن يتحدث هؤلاء في حماس وإيمان عن دينهم الجديد ، وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم ، يدعو الناس إلى التوحيد والأخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعاً . وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام

الطبقات القائمي الـذي تقوم عليه دياناتهـم ، فكان حديث التـوحيد والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها ، وأن يقارنوا بينها وبين ما هم فيه من أوضار التفرقة وأثقالها ، وكانت النتيجة أن تتفتح القلـوب لهذا الدين ويقبل الناس عليه ليتخلصوا من العناء النفسي والاجتماعي الذي كانوا يعانونه ، كما ينفضون عنهـم الـوثنية الهنـدوسية المحشـوة بالخرافات والأساطير . . ولـذا وجـد الإسـلام في الهنـد أرضـاً خصبـة سهلة ، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام ، وأقاموا المساجد ، وباشـروا شعائرهم في حرية تامـة لما كان للمسلمين والعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكام باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهنـدية التـي كانـت تدر على هؤلاء الحكام الدخل الوفير .

وكانت سواحل السند ومليبار الواقعة على بحر العرب من أسعـد هذه البلاد بالدين الجديد هي وجزيرة سيلان أو جزيرة « الياقوت » كما يسميها المؤرخون القدامى . .

ولم يكن من السهل على كتب التاريخ أن تتبع الجهود الفردية التي بذلها هؤلاء التجار والبحارة العرب في سبيل الإسلام ، ولذلك اكتفت بذكر العنوان لهذه الجهود بينما عنيتْ كعادة كتب التـاريخ بذكر حادثـة وقعت لأحد حكام مليبار الذين سمعوا عن الإسلام وأقبلوا عليه . .

ونحن ننقل هنا ما ذكره الشيخ زين الدين(1) صاحب كتاب « تحفة

(1) هو الشيخ زين الدين عبد العزيز المعبرى عائلته يعرفها أهل مليبار حتى اليوم بأنها عائلة =

المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين » في القسم الخاص بظهور الإسلام في مليبار قال : ـ

إن جمعاً من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد « مليبار » يقال لها « كدنكلور » وهي مسكن ملكها في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وتوطنوا فيها ، وبعد ذلك وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان(1) .

فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم ، وسألهم عن الأخبار ، فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدين

= علم وورع وتقوى وكان جده زين الدين أبو يحيى من كبار العلماء المتصوفين وصاحب تصانيف كبيرة باللغة العربية . بنى جامعا في « بناني » وحوله مدرسة وزاوية كانت تأوى العلماء والمتورين القادمين من مصر وسوريا ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد ابن حجر الهيتمي سنة 909 هـ حيث علم فيها دروس التفسير والحديث وتتلمذ عليه الشيخ زين الدين هذا وقد نقل كتاب التحفة من العربية إلى البرتغالية سنة 1898 م ـ والانكليزية سنة 1833 والأدوية . ويعتبر من الكتب الموثوق بها . . .

وقد زرت « بناني » ، في 17 نوفمبر 1957 وزرت المسجد الجامع الذي يوجد بجوار جداره الجنوبي قبر الشيخين ووقفت عند الباب الموصل للقبور وسلمت عليهما ودعوت لهما ونظرت من الباب فوجدت الحشائش والأشجار تعلو القبرين . وقابلني أفراد من ذريتهم يسمون للان « بالمخدومين » . ولهم مقام خاص بين المسلمين هناك وأكثرية سكان هذه المدينة مسلمون بفضل جهاد هؤلاء العلماء الأعلام وذريتهم . .

(1) حكاية اهتمام المسلمين بزيارة قدم أبينا آدم عليه السلام في سيلان شيء أشك فيه كثيرا فإنه لم يكن ذلك شيئا يهتم به بين المسلمين في تلك الأيام كما أعرف فلنمر على سبب الزيارة مر الكرام دون أن نتشكك في وجود هؤلاء بمليبار . . ومدينة « كدنكلور » هذه تسمى اليوم « كرنكلور » على مقربة من ميناء « كوتشين » على ساحل مليبار وكان التجار العرب والروم يأتون لهذه البلدة للتجارة . .

الإسلام وبمعجزة انشقاق القمر ، فأدخل الله سبحانه وتعالى في قلبه صدق النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به ، ودخل في قلبه حب النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمر الشيخ أن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم ، ومنعه أن يحدث بهذا السر المليباريين . ثم إنهم سافروا إلى سيلان ورجعوا إليه ، فأمر الشيخ بأن يهيء مركباً لسفره من غير أن يعلم به أحد . وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء ، فقال الشيخ لصاحب مركب « أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا في مركبك » فرضي بذلك . ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزراءه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام ، ورتب أمور البلاد من بعده . . والحكاية مشهورة عند كفرة مليبار أيضاً . . »

ثم إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء ليلا ، وسار المركب حتى وصل إلى « شحر »[1] ونزل فيها هو ومن معه أياماً سنح لهم فيها ترتيب بعثة تبشيرية من المسلمين تقصد مليبار تدعو الناس للإسلام وتنشيء المساجد ، ولكن فوجيء الجميع بمرض الملك مرضاً شديداً ، ولم يفته وهو في شدة مرضه أن يوصي الدعاة ألا يتأخروا عن السفر إذا مات ، وكانوا « شرف بن مالك واخوه مالك بن دينار ، وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك » فقالوا له ، لا نعرف موضعك ولا حد ولايتك ، وإنما أردنا السفر بصحبتك فتفكر الملك ساعة ، ثم كتب لهم ورقة بخط

---

(1) على الشاطيء الجنوبي لجزيرة العرب .

مليبارى عين فيها مكانه وأقرباءه وأمرهم أن ينزلوا في « كدنكلور » أو « دار مفتن » أو فندرينه » أو « كولم » وقال لهم لا تخبروا أحداً بمرضي أو بموتي إن مت ، ثم إنه توفي إلى رحمة الله ، وبعد ذلك بسنين سافرت البعثة مع أسرها إلى مليبار فوصلوا إلى « كدنكلور » ، ونزلوا فيها ، وأعطوا مكتوب الملك المتوفى إلى الملك الذي فيها ، وأخفوا خبر موته ، فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضي والبساتين على مقتضى ما كتبه ، فأقاموا فيها وعمروا بها مسجداً ، وتوطن فيها « مالك بن دينار » وارتحل ابن أخيه « مالك بن حبيب » للدعوة للإسلام وبناء المساجد ، فوصل إلى « كولم » بأسرته وعمر بها مسجداً ، ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى « هيلى ماراوى » وعمر بها مسجداً ثم إلى « باكنور » وعمر بها مسجداً ثم رجع إلى « منكَلور » وعمر بها مسجداً ، ومنها إلى « كانجر كوت » وعمر بها مسجداً ، ثم ذهب إلى « جرفتن » ومنها إلى « شاليات » وعمر بكل منها مسجداً ، ثم عاد إلى « كدنكلور » عند عمه « مالك بن دينار » . . ثم خرج ومعه عمه مالك إلى هذه المساجد التى بناها حيث صلى في كل منها ورجع إلى « كدنكلور » شاكراً لله وحامداً له ظهور دين الإسلام في أرض ممتلئة كفرا ، ثم خرج « مالك بن دينار ومالك بن حبيب » مع الأصحاب والعبيد إلى « كولم » وتوطنوا فيها إلا « مالك بن دينار » وبعض أصحابه ، فإنهم سافروا إلى « شحر » وزاروا قبر الملك المتوفى فيها ، ثم سافر مالك إلى خرسان وتوفي فيها هو وزوجته . أما مالك بن حبيب فإنه رجع إلى مليبار وترك بعض أولاده في « كولم » واتخذ لنفسه وزوجته مستقراً في « كدنكلور » حتى انتقلا لرحمة

الله[1]. هذا خبر أول ظهور الإسلام في ديار مليبار ، وأما تاريخه فلم يتحقق عندنا ، وغالب الظن أنه كان بعد المائتين من الهجرة ، وأما ما اشتهر عند مسلمي مليبار من أن إسلام الملك المذكور كان في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) برؤيته انشقاق القمر وأنه سافر إلى النبي وتشرف بلقائه الخ . . فلا يكاد يصح منها شيء » .

أما المؤرخ « فرشته » الذي كتب تاريخ الهند في عدة أجزاء بالفارسية وترجم للأوردية فقد ذكر أيضاً أن هذه الحادثة وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن السامرى رأى بنفسه معجزة شق القمر ، وسافر وقابل الرسول ، ومات حين رجوعه في ظفار بعد ما ذكر الرواية الأولى دون أن يرجح إحداهما[2] .

وهكذا يظهر لنا أن أصل الحادثة لا اختلاف عليها وإنما الخلاف في تعيين زمن وقوعها . .

ويوجد في « المكتب الهندي » « أندياأفس » مخطوطتان منظومتان باللغة العربية وفيها شرح لحوادث اعتناق الملك للدين الإسلامي ، وقدوم المسلمين إلى مليبار ، وفي واحدة منهما كتب اسم الملك « شكروتي » وفي الأخرى « شكرورتي » وتنطق « جكرورتي » ومعنى

(1) قبره معروف في شمال مليبار باسم قبر سيدنا مالك للآن كما سمعت من كثير حين زيارتي لمليبار في نوفمبر 1957 .

(2) تاريخ فرشته الترجمة الاوربية ص 834 جـ4 نقلا عن مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر 1955 من مقال للاستاذ محي الدين الالواني المليباري . « والسامرى » لقب لملكهم وينطقونه احياناً « الزامورين » .

الكلمة الملك والامبراطور . ونحن لا يهمنا كثيراً البحث في اسم الملك بقدر ما يهمنا وقوع الحادثة نفسها كدليل على انتشار الإسلام في مليبار . . على أنه إذا صح أن هذه الحادثة وقعت في القرن الثالث الهجري كما يؤكد بعض المؤرخين فأنه مما لا شك فيه أن الاسلام قد وصل إلى مليبار قبل ذلك بكثير على يد التجار والبحارة العرب الذين كانت لهم صلة تجارية وثيقة بهذه البلاد . . فأن الاسلام قد وصل إلى سيلان على يدهم أيضاً في وقت مبكر جداً وهي أبعد من مليبار . . وتكون عناية الكتب بذكر حادثة اعتناق الملك للاسلام راجعة لأهميتها ؛ لأنها وقعت من ملك ، والكتب التاريخية دائماً تعنى بحوادث الملوك قبل أن تعنى بالحوادث الفردية . .

ونحن لا نزال نرى للآن أثر العرب في مليبار متمثلا في بعض الأسر العربية الأصل ، وفي عناية هذه البلاد أكثر من غيرها من بلاد الهند باللغة العربية كما شاهدت ذلك بنفسي حين رحلتي اليها في نوفمبر 1957 ويحكي لنا الشيخ زين الدين في كتابه(1) عن ازدهار الإسلام وانتشاره في هذه البلاد برغم أن حكامها لم يكونوا من المسلمين ، وذلك بفضل نشاط المسلمين ومركزهم المالي والتجاري في البلاد ، فكانوا يبنون المساجد ويقيمون الجمع والأعياد وينفذون فيما بينهم أحكام شريعتهم . وينظر الهندوس المحليون إليهم نظرة إكبار وتقدير ، وإذا اعتنق هندوسي الإسلام ولو كان من الطبقة السفلى فأنه ينال نفس الاحترام والتقدير ، مما كان سبباً لدخول كثير من المضطهدين في الإسلام .

---

(1) وقد عاش في القرن العاشر الهجري . .

وبودي أن أضع أمام القراء مقتطفات من بحث طويل في هذا الموضوع للباحث الهندي الدكتور « تاراشند » نشرته له مجلة « ثقافة الهند » (مارس سنة1950) .

قال:« أما كيف وصل المسلمون إلى الهند ؟ فنقول :

« إن الروابط بين الهند والبلاد العربية : القطر العربي وفلسطين ومصر : قديمة جداً فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند . . وأنشأ البطالسه موانيء على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية . . وكانت في الاسكندرية جالية هندية ذبحت بأيدي « كارا كالا » في أوائل القرن الثالث . . . ووجدت نقود الأمبراطورية الرومانية من زمن « أغسطس » (14 م) إلى زمن الامبراطور زينو (419 م) في حفريات الهند الجنوبية ، وهذا دليل حي على سعة التجارة الهندية مع العالم الغربي . .

وقد أبدى الفرس نفس النشاط الذي اتصف به الرومان . . ثم قال : وقد كان من الطبيعي أن يهتم العرب بالتجارة بين الشرق والغرب ، وقد فعلوا ذلك . . إلى أن قال : قال « رينود » كل شيء يحملنا على اليقين بأنهم (العرب) باشتراكهم مع الفرس تمتعوا في هذه السواحل الهندية إلى القرن الرابع عشر بالنفوذ الذي تمتع به البرتغاليون من بعدهم » .

« وكانت السفن العربية تبحر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل الجنوبية ، فتتجه إلى مصب السند أو ساحل مليبار ، وكانت الرياح تسهل مجراها إلى « كولم » والموانيء الأخرى ، كما كانت السفن

المبحرة من الخليج الفارسي تتخذ نفس الطريق ، وبمساعدة الرياح تصل حتى جزائر الملايا وساحل الصين .

« ومن هذا القرن (الثامن الميلادي) أخذ نفوذ المسلمين يزداد ، وفي خلال المائة التالية استقروا بساحل مليبار كل الاستقرار ، ورحبت بهم الحكومة الوطنية كتجار ، وسهلت لهم السبل للمكث والتملك ، وأطلقت لهم الحرية الدينية » . .

« وقبل أن يتقدم القرن التاسع انتشروا على ساحل الهند الغربي كله ، وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعبادتهم وتحمسهم لنشر دينهم » . « وقد كانت الهند الجنوبية إذ ذاك مسرحاً للمصادمات الدينية بين الهندوسية والبوذية والجينية . كما كان هذا العصر من الوجهة السياسية كذلك . . فكان الناس بطبيعة الحال مضطربين مستعدين لقبول أفكار جديدة . فظهر الإسلام بدين ساذج يدعو إلى عقائد بسيطة ، وعبادات سهلة ، وإلى المبادىء الجمهورية في الهيئة الأجتماعية . فكان للاسلام دوي عظيم » .

ثم ذكر قصة اعتناق أحد الملوك للإسلام . ثم قال : ولا يخفى ما يكون لاسلام الملك من تأثير عميق في رعاياه ،وتذكار هذا الحادث ظل حياً في مليبار . فمثلا جرت التقاليد أن زامورين (راجا) عندما يرتقي العرش يحلقون رأسه ويكسونه كواحد من المسلمين ، ويتوجه رجل من « مابلا » المسلمين (أشرافهم) ويزعمون أن زامورين ليس جلوسه على العرش إلا كنائب عن الملك الغائب ، وهو ينتظر رجوعه من البلاد العربية ، وكذلك أمراء « ترافنكور » . حينما يتوجون ويحملون السيف

يعلن كل واحد منهم في دوره قائلا . إني أحافظ على هذا السيف حتى يرجع العم الغائب الذي رحل إلى مكة »(1) .

وبعد ما شكك الكاتب في تفاصيل حادثة إسلام الملك قال : « ولكن كما قال المؤرخ إنيس » «Innes » لنا أن نستنتج من الحكاية أن الأسرة الحاكمة في « كارا نفانور » انتهت بأسلام ملك يحمل لقب بيرومل وعزله في القرن التاسع « والظاهر أن المسلمين في هذا العهد وصلوا إلى نفوذ كبير فقد كانوا يلقبون بكلمة « مابلا » وهو لقب احترام . وخص المسلمون بمظاهر الاحترام الأخرى . وقد كان من عطف « زامورين » وحمايته ومساعدته أن كثر عدد التجار العرب في مملكته ، وهم ساعدوه مساعدات عظيمة ، ليس بتوفير ثروته وتعمير بلاده فحسب بل في حروبه كذلك » .

وأسرة « علي راجا »(2) المسلمة التي كانت تنجب أمراء البحر والوزراء للملوك « كولاترى » أسسها رجل من العرب الذين استقدمهم من بلادهم الملك « شيرا من بيرومل » وكان « زامروين » يثق بالمسلمين

---

(1) سألت أهل مليبار عن هذا التقليد وهل بقي للآن ، فقالوا . ليس له وجود في هذه الأيام .

(2) في اثناء رحلتي إلى ملابار زرت هذه الأسرة في « كننور » شمالي كاليكوت بدعوة منها وتناولنا الشاي عندها وعلمنا أن آخر أمرائها كانت أميرة او سلطانة كما يقولون توفيت في أكتوبر 1957 وكانوا يحكمون في « كننور » وما حولها وبعد تقسيم الهند زال حكمهم ، ولكن بقي للاسرة مجدها فاجتمعوا وانتخبوا كبيراً لهذه الأسرة وشاهدت الحراس بأزيائهم الزاهية حسب تقاليدهم القديمة ويحافظون على الطربوش في الأسرة وأهدوني صورة السلطان الذي كان واليا قبل السلطانة واسمه « محمد علي راجا » والمسلمون هناك يؤدون لهم ما يليق بهم من تحية وإكبار ويسمون بيتهم بيت السلطان . . وبيت الملك .

ثقة عظيمة ، حتى أنه كان يرغب بنفسه الناس إلى اعتناق الاسلام ، وذلك لتقوية أسطوله الذي كان في أيدى المسلمين ، بل إنه أصدر أمراً يحتم على كل أسرة من السماكين في مملكته أن تربي واحداً أو اثنين من أبنائها على الديانة الاسلامية » . . وتقول الروايات إن تاجراً مسلماً كان يتاجر مع البلاد العربية أقام سوقاً في مكان يسمى « ويلابورم » شاء القدر أن تكبر السوق ويصير مكانها ثغراً عظيماً وهي التي تسمى الآن « بكاليكوت »[1] .

ثم ذكر بعد ذلك ماراه الرحالون ودونوه عن حال المسلمين في هذه البلاد ، وكيف أنهم كثروا وازداد عددهم وجاءوا إليها من البلاد العربية . . وذكر أقوالا عن هؤلاء الرحالة كالمسعودي الذي زار الهند في أوائل القرن العاشر (916 م) ووجد عشرة آلاف مسلم من مسلمى السرف وعمان والبصرة وبغداد في « مي مور » « شول » الحاضرة . عدا كثيرين من ذرية العرب المولودين في البلاد وكذا أبو دلف المهلهل ، وابن سعيد في القرن الثالث عشر وماركوبولو ، وأبو الفداء ثم ابن بطوطه في

(1) زرت هذه المدينة الكبيرة عدة مرات وأقمت فيها أياماً وهى تقع على ساحل بحر العرب وتعتبر ميناء صغيراً ولا تزال السفن الشراعية الكبيرة تأتي لها من البلاد العربية وتعود محملة بالاخشاب والحبال وجوز الهند والفلفل وشاهدت بها مسجداً قديماً جداً يقال إنه يرجع إلى الف سنة مضت ، وقابلت بها بعض العرب من البحرين والكويت الذين استوطنوها وأصبحت لهم تجارة كبيرة مثل « يعقوب الصقر » من الكويت وغيره وكثير من الأسر فيها يفتخر بأن أصله عربي وبها نشاط إسلامي في المدارس الدينية ودور اليتامى والتربية الأسلامية وتصدر فيها الصحيفة الأسلامية « الهلال » « تشانداريكا » باللغة الملايالية التي تنطق باسم حزب « مسلم ليك » أى الرابطة الأسلامية وفيها عائلة « بافقية » العربية وتعتبر نفسها من الاشراف وعميدها هو السيد عبد الرحمن بافقية رئيس الحزب الاسلامي .

القرن التاسع عشر الذي ذكر الكثير عن أحوال المسلمين الحسنة في هذه البلاد ، وكان مما ذكره أن رئيس التجار في « كاليكوت » كان من المسلمين واسمه « ابراهيم شاه بندر » من البحرين . ثم قال أخيراً :

« فهذه التصريحات ناطقة بأن المسلمين سكنوا الساحل الغربي الهندي قديماً وازدادوا فيه عدداً وثروة ومنعة ، . . ووصلوا إلى مقام ونفوذ كبيرين عند ملوك ملابار الهندوس . . » .

هذا القدر الذي لخصه هذا الكاتب بعد تفصيل هو ما نريد إثباته ولعلنا نكون قد أطلنا في هذه النقطة ، ولكن لا بأس ما دام الحديث يستدعي ذلك لا سيا إذا استشهدنا بأقوال مؤرخين من غير المسلمين . . والمهم بعد هذا أن الاسلام انتشر في هذه البلاد بجهود الأفراد ولم يكن هناك حاكم إسلامي يقال إنه يجبر الناس على الأسلام أو يرعى شؤون المسلمين ، ولكنها جهود الأفراد وقوة نفوذ الاسلام وبساطته هي التي مهدت له السبيل . .

في سيلان :

وحينما نتحدث عن الاسلام في سيلان فإننا لا نحيد عن الحديث عن الهند ، فسيلان والهند شيء واحد تقريباً وإن كانت السياسة جعلت منهما حكومتين . . على أن حديثنا عن الإسلام في سيلان يعزز حديثنا عنه في الهند فإن التجار المسلمين قبل أن يذهبوا إلى سيلان ويؤثروا فيها لا بد أن يمروا بالهند ويتركوا أثرهم فيها أيضاً .

تقول كتب التاريخ إن سيلان اهتمت بالإسلام منذ عهده الأول حينما سمعوا عنه من التجار العار العرب .

جاء في كتاب « عجائب الهند » لمؤلفه الرحالة « بزرك بن شهر يار »[1] (1013 م ـ404 هـ) : لما سمع أهالي سيلان عن الرسول العربي أوفدوا رجلا ممتازاً إلى جزيرة العرب للاستطلاع عن حالات ودعوة الرسول الجديد ليبلغهم كما رأى وسمع . فوصل ذلك المبعوث إلى جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (13-23 هـ ـ634-644 م) فتشرف بمقابلة الخليفة وتحدث معه عن دعوة الرسول وتاريخ حياته وجمع معلومات ، ثم عاد إلى سيلان ولكن فاجأه الموت في الطريق وهو في « مكران » ، وكان معه خادم هندى فعاد إلى « سيلان » وبلغ أهلها عن مشاهداته ومعلوماته . وبين لهم ما سمع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر الصديق الخليفة الأول وكذلك كشف لهم تفاصيل المحادثات التي جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : إن عمر بن الخطاب رجل تقي شجاع يلبس الثوب المرقع وينام في المسجد[2] ، ولا شك أنه كان لهذا الحديث نتائجه في إقبال الناس على الإسلام . على أن التاريخ يحدثنا أيضاً عن الأسر المسلمة العربية التي سكنت سيلان واستقرت بها مما سيمر بك قريباً عندما نذكر أسباب فتح السند إن شاء الله . .

ومن كل هذا نعرف شيئاً عن دخول الإسلام في جزيرة سيلان التي يوجد بها الآن عدد كبير من المسلمين لهم مقام ممتاز فيها . .

---

(1) ص56 نقلا عن ثقافة الهند سبتمبر1955 مقال للأستاذ محي الدين الواتي .

(2) عجائب الهند ص156 .

فتح الهند

كان حديثنا الماضي عن الجهود الفردية السلمية الهادئة لنشر دعوة الإسلام في الهند . والأمر في هذا السبيل لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان هناك تفكير مبكر قام في رؤوس الحكام المسلمين نحو هذه البلاد ونشر دعوة الإسلام فيها وضمها إلى رقعة الدولة الإسلامية التي أخذت تتسع حتى وصلت شرقاً إلى حدود الهند حينما وطىء المسلمون أرض فارس وقوضوا عرش كسرى ، وانطلق الفاتحون المسلمون وراء انتصاراتهم يضيفون نصراً إلى نصر وأرضاً إلى أرض . .

لقد بدأ هذا التفكير في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فكر واليه على البحرين وعمان وهو « عثمان بن أبي العاصي الثقفي » سنة 15 هـ في تسيير جيشه إلى الهند . . يقول البلاذري في كتابه « فتوح البلدان ص438 » : ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاصي الثقفي البحرين وعمان سنة 15 هـ فوجه أخاه الحكم بن أبي العاصي إلى البحرين ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى « تانه »(1) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود ، وإني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك

---

(1) تانه تقع شمال بومباي قريبة منها على بعد نحو 15 ميلا ، وهي تقع على بحر العرب وقد حدثني أحد العلماء المعنيين بالتاريخ في بومباي أنه شاهد بها بعض المقابر الإسلامية القديمة التي يعتقد المسلمون أنها ترجع إلى هذا العهد القديم . .

مثلهم : ووجه الحكم أيضاً إلى بروص (« Broach »[1]) ووجه أخاه المغيرة بن أبي العاصي إلى خور الديبل فلقي العدو فظفر به . . » .

ويبدو من كتاب عمر رضي الله عنه لواليه أنه كان يخشى على المسلمين من المجازفة بركوب البحار . وتلك فكرة خاصة بسيدنا عمر وجدنا أثرها كذلك حين منع معاوية واليه في الشام من ركوب البحر الأبيض لفتح إحدى الجزر الواقعة قريباً من ساحل الشام . .

ولا شك أن عثمان بن أبي العاصي قد استعان في توجيه حملته إلى الهند بالسفن العربية وبحارتها المسلمين الذين كانوا يعرفون جيداً هذه البلاد ، وكانوا سادة البحر في هذه الناحية من قديم ، ولم يكن هناك ما يخشى منه على المسلمين لكن الخليفة كانت له هذه الفكرة الخاصة التي لم يشاركه فيها عثمان ابن عفان رضي الله عنهما حين ولي الخلافة ، فأذن لمعاوية بالغزو عن طريق البحر كما بدأ يفكر في الهند ويرسل رسله ليعرف أخبارها وطرقها لينفذ فكرة غزوها . .

ولذلك لا أوافق على رأي الأستاذ حبيب الذي كتبه في مذكرته لطلاب كلية أصول الدين بالأزهر والذي ينفي فيه أن عمر رضي الله عنه كان يخاف على المسلمين من ركوب البحر . . إذ أن هذا الخوف تمثل جلياً في منعه معاوية كما ظهر بصورة أوضح في كتابه لواليه حين قال له : « حملت دوداً على عود » .

---

(1) تقع الآن شمال سورت بينها وبين نهر تريدا وكانت ميناء قديماً لكنه فقد أهميته على مر الزمن وقد مررت بها عند ذهابي إلى بلدة « سورت » في أكتوبر 1956 .

ولا شيء على عمر في خوفه وإشفاقه على المسلمين ، فالأمر لا يعدو احتياطاً من ناحيته لأمور المسلمين الذين يرعاهم ويسأل عن سياستهم وتوجيههم ولا يريد أن يزج بهم في طريق يخاف عليهم منه . . وقد رأينا إشفاقه هذا يتمثل في كتابه لعمرو بن العاصي بعد أن وجهه لفتح مصر يأمره بالرجوع عن غزو مصر إن لم يكن قد دخل حدودها ، فإنه لم يفعل هذا إلا خوفاً على المسلمين من الابتعاد عن مركز الخلافة ووجود مسافات وحوائل ، ربما تحول بينه وبين إمدادهم حين يحتاجون للمدد . فهو احتياط على كل حال لا عيب فيه ، بل إنه يمدح عليه . . ولكل وجهة . .

يقول البلاذرى « فلما ولى عثمان رضي الله عنه وولي عبد الله بن عامر ابن كريز العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره فوجه « حكيم بن جبلة العبدى » . فلما رجع أوفده الى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفتها . قال : فصفها لي قال : « ماؤها وشل وثمرها دقل[1] ولصها بطل . إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا » فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال : بل خابر » . فلم يغزها احدٌ . . فلما كان آخر سنة 38 هـ وأول سنة 39 هـ في خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) توجه إلى ذلك الثغر « الحارث ابن مرة البعدي » متطوعاً بأذن علي فظفر وأصاب مغنا وسبيا . . الخ »

---

(1) وشل : قليل ، دقل : رديء .

وقد ظل القواد المسلمون يطرقون أبواب الهند ويصيبون من أطرافها حتى كان زمن الحجاج بن يوسف عامل الوليد بن عبد الملك على العراق ، وبدأت الحملة القوية المنظمة تتجه إلى الهند لفتحها وضمها إلى رقعة البلاد الإسلامية . .

ويختلف المؤرخون في ذكر السبب الذي حدا الحجاج إلى تسيير حملة على الهند فيذكر البلاذرى أنه كان في سيلان أو جزيرة الياقوت كما تسميها نسوة من العرب المسلمين مات عنهن آباؤهن ، فأراد ملك الجزيرة أن يجامل الحجاج ، ويرسل له هؤلاء النسوة ، أو حسب ما ذكره البلاذرى هديين إليه تقرباً منه ، فأركبهن سفينة إلى البلاد العربية ، فعرض للسفينة قوم من ميد الديبل في بوارج ، فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن - وكانت من بني يربوع - « يا حجاج » ، وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : «لبيك» فأرسل إلى « داهر » يسأله تخلية النسوة . فقال «إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم» ، فحمل ذلك الحجاج على غزو السند مملكة « داهر » .

ويذكر بعض المؤرخين(1) أن سبب الحملة هو هجرة جماعة إلى السند من بنى هاشم فراراً من ظلم الحجاج وعسفه بالعراق ، فكتب الحجاج إلى ملك السند يطلب منه تسليم الفارين ، ولكنه لم يظفر بما يريد ، فقرر أن ينتقم لنفسه من ملك السند .

---

(1) (رايس) عن مجلة الثقافة الهندية مارس سنة1950 مقال الدكتور تاراشند عن وصول المسلمين للهند ، وتاريخ الهند لسيد هاشمي بالأوردية .

ولا تناقض في رأيي بين السببين ، فيصح أن يكون كل منهما قد حدث ، فحفزا الحجاج لغزو هذه البلاد . .

وقد وجه الحجاج أولا بعض قواده إلى هذه البلاد ، ولكنه فشل في مهمته ، فرأى أن يوجه حملة أخرى جعل على رأسها ابن أخيه الشاب الشجاع محمد بن قاسم الثقفي ، وذلك سنة 711 م ـ سنة 92 هـ . وكان عمره إذ ذاك لم يصل إلى العشرين ، ولكنه عرف بالصلابة والشجاعة . وقد جهزه الحجاج بجيش قوي حشد له فيه كل ما يحتاج إليه حتى الخيوط والمسال ، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج ، فنقع في الخل الأحمر الحاذق ، ثم جفف في الظل ، وقال لهم ، إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق (أى قليل) فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا . وسار محمد بجيشه من جنوب فارس قريباً من الساحل ، حيث كانت سفن الحملة تحمل ما تحتاج إليه من العدة والمؤن . . حتى وصل الديبل[1] يوم جمعة ، ووافته سفنه التي كانت تحمل العتاد ، فخندق وركز الرماح تجاه المدينة ، ونشر الأعلام وأنزل الناس على راياتهم ، ونصب منجانيقاً تعرف بالعروس ، وكان بالديبل « بد » عظيم « والبد » فيما ذكروا منارة عظيمة في بناء لهم فيه أصنامهم (أى معبد) . وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم « بد » والصنم بد أيضاً . وقد أمر محمد بن قاسم أن يرمي البد بالمنجانيق

(1) الديبل كان موقعها قريباً من كراتشي وانلرست الآن . . جاء في صبح الأعشى ص64 ج5 أنها « الديبل » بلدة على ساحل البحر وفي تقويم البلدان بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر وقال ابن سعيد أنها في خليج السند أكبر فرض السند (موانيها) واشهرها .

فكسره ، ثم دار قتال انتهى باستيلاء المسلمين على المدينة ، ومكث محمد يقتل من فيها ثلاثة أيام ، وهرب عامل « داهر » عنها واختط للمسلمين بها ، وبنى لهم مسجداً ، فكان أول مسجد بهذه المنطقة . . .

ثم تابع محمد سيره والبلاد تخضع له صلحاً أو عنوة و « داهر » مستخف به لاه عنه ، حتى تلاقى الجمعان ، واقتتلوا قتالا شديداً وكان « داهر » يركب فيلا كعادة ملوك الهند ، ولكنه لم يمكث طويلا حتى قتل وانهزم أصحابه ، وتبعهم المسلمون يقتلون كيف شاءوا ، وبذلك خلا الجو للمسلمين في هذه البلاد التي كان يملكها « داهر » ، واتجه محمد بجيشه نحو الشمال يريد الرور ، وكانت البلاد تقابله مستسلمة طالبة منه الأمان حتى وصل إلى « ملتان » فقاتله أهلها ، ولكنهم انهزموا في النهاية بعد حصار شديد فقتل منهم « محمد » المقاتلة وسبى الذرية كما سبى سدنة البد ، وأصاب ذهباً كثيراً لا سيما ذلك الذي كان يهدى إلى صنمهم ، وسيقت الغنائم إلى الحجاج ، فسر بها ورأى كيف نجحت الحملة نجاحاً عظيماً فقال : شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس « داهر »[1] .

وفي الوقت الذي كان فيه قائدنا ينتقل من نصر إلى نصر ، مؤملا أن يضم إلى المملكة الإسلامية مملكة الهند الشمالية وعاصمتها « قنوج » جاءه خبر وفاة عمه الحجاج سنة 95 هـ ، وبعد قليل جاءه خبر وفاة الخليفة « الوليد بن عبد الملك » ــ وكان سنده وسند عمه الحجاج ــ

---

(1) فتوح البلدان ص445 الطبعة الأولى مطبعة الموسوعات بالقاهرة .

وتولية « سليمان بن عبد الملك » وكان عدوا للحجاج وأسرته لضغائن قديمة بينهما . . فولى صالح بن عبد الرحمن على العراق ، وكان الحجاج قد قتل أخاه ، وولى « يزيد بن أبي كبشه » السند ، وأمر بعزل محمد بن قاسم ، وحمله إلى العراق مقيداً بالسلاسل مع معاوية بن المهلب حيث حبس في سجن « واسط » حتى وافاه مصيره المحتوم بعد عذاب شديد سلط عليه . .

ولم يكن لمهارة القائد الشاب ، ولا لبلائه في توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، ولا لانتصاراته الرائعة في الهند ، لم يكن لذلك كله من قيمة أمام حقد الخليفة وواليه في العراق على الحجاج ، وإذا كان الحجاج قد مات ، ونجاه الموت من التشفي ، فقد لقى ابن أخيه ما كان ينتظره لو بقى حياً . . وهكذا كانت الاحقاد والأضغان تلعب بمصائر عظماء القادة والرجال ، ولعلنا نذكر بهذه المناسبة أيضاً مصير قائدين عظيمين من قواد الدولة الأموية وهما قتيبة بن مسلم ، وموسى ابن نصير بعد أن فتحا المغرب والمشرق ثم آل أمرهما إلى مثل ما آل إليه أمر الشاب البطل محمد بن قاسم ، مما جعله يتمثل بقول الشاعر .

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد حز هذا المصير في نفوس كثير من أهل الهند فبكوه كما بكاه الشعراء وانطلقت ألسنتهم ترثيه فقال أحدهم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

أما هو فقد رثى نفسه وهو في سجنه حيث قال :

فلئــن ثويت بواســط وبأرضها رهــن الحــديد مكبــلا مغلولا
فلــرب قينــة فارس قد رعتها ولــرب قرن قد تركت قتيلا(1)

على أن الذي يسترعي الاعجاب بشخصية هذا القائد الشاب ليس هو هذه الفتوحات العظيمة فحسب ، بل حسن سياسته للبلاد المفتوحة ، وتدبير أمورها وتأليف قلوب أهلها ، وهذه هي ميزة القواد المحنكين رزقها هذا القائد العربي الشاب .

يقول الأستاذ عبد الله يوسف في كتابه « تكوين الهند » معلقاً على حملة ابن قاسم « سر نجاح المسلمين في هذه الحملة كان مزدوجاً ، فلقد كان الهنود الذين يحاربونهم على حال من الفوضى والشقاق ، بينما كانت سياسة محمد بن قاسم سياسة صلح وكياسة ، فلما استتب له الأمر ، وكل الأمور الادارية للهنود نائبين عنه ، وكانت سياسة الحكم العليا خيراً مما جرت به التقاليد المحلية ، ومما يؤثر عنه أنه لم يخن عهداً قطعه على نفسه ، ولقد كتب له الحجاج مرة يشيد بمزاياه العسكرية ، ويمتدح له تجشم المشاق في سبيل إسعاد الشعب وتحسين أحواله ، ويثني على سياسة الحكم التي اتبعها ، إذ حدد الخراج الذي تدفعه كل قرية على حدة ، وشجع كافة طبقات الشعب على اتباع القانون ، والوفاء بما

(1) فتوح البلدان للبلاذري ملخصاً ، وتاريخ الأمم للخضري .

يقطعون لبعضهم من عهود فارتفعت بذلك سمعة الحكم الأدبية »[1]

وكان من الطبيعي بعد ما جرى لهذا القائد الفاتح أن توجد الفرصة لمن يريد استرداد ملكه أو الرجوع عن الإسلام ، لذلك ثارت القلاقل في البلاد المفتوحة مما اضطر والى السند إلى الحرب من جديد لاسترداد ما فتحه محمد ابن قاسم من قبل ، حتى كان عهد « عمر بن عبد العزيز » فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يظلوا في مراكزهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد سبقته سيرته الطيبة إلى أسماع هؤلاء ، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء العرب ، واستمر الحال هكذا في هذه البلاد : أمير يأتي من قبل الخلافة وأمير يذهب ، وكل منهم مشتغل بتوطيد الحكم الإسلامي في السند .

وفي أيام أحد هؤلاء الولاة ، واسمه الحكم بن عوانة الكلبي بنى مدينة سماها « المحفوظة » وجعلها مأوى للمسلمين ، كما بنى مدينة أخرى سماها « المنصورة »[2] صارت مركز الولاة فيما بعد . .

ولما انتقل الحكم إلى الدولة العباسية انتقل حكم السند كذلك إليها ، وأرسل خلفاء الدولة العباسية الولاة إلى السند ، فجعلوها تابعة

---

(1) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب أحمد .

(2) ولكن جاء في صبح الاعشى ص63 ج5 عن المنصورة : سميت بذلك لأن عمر ابن حفص المعروف بهزار مرد بناها في أيام جعفر المنصور وسماها بلقبه . وقد صارت مع المحفوظة مدينتين بأنلتين اليوم . جاء في تعليق للاستاذ حبيب : « ويقدر السير إيليوث انهما كانتا واقعتين إلى شمال نهر السند بين الديبل والرور على الضفة الشرقية للنهر ، وعلى بعد منه . وقد أثبتت الكشوف الأثرية صحة هذا التقدير .

لهم ، واستقر الأمر لهم فيها ، وزادوا في عمارة « المنصورة » حتى إذا كان عهد أبي جعفر المنصور تم فتح كشمير والملتان . .

واستمر الأمر على ذلك حتى ضعف سلطان الخليفة العباسي ، وبدأت الأطراف تنفصل عن مركز الخلافة في بغداد ، فانفصلت السند كذلك ، وقامت فيها حينئذ ولايتان أو إمارتان للمسلمين ، إمارة في الجنوب وعاصمتها « المنصورة » ، وإمارة في الشمال وعاصمتها « ملتان » ، وقد أتيح الاستقرار لهاتين الأمارتين بما توفر لهما من خيرات البلاد ، ومن التجارة الواسعة التي كانت بين السند ، وبين الشرق والغرب ، وكان من الطبيعي أن تزدهر العلوم والحضارة العباسية في هذه البلاد وتصبح ملجأ للفارين من بطش الحكام في بغداد ، حيث يجدون الأمن والسلام[1] .

ومما لا شك فيه أن وجود المسلمين في أرض السند وفي ملتان وكشمير كان نقطة ارتكاز للدعاة المسلمين الذين كانوا يقومون في حماس وصفاء نفس بنشر دعوة الإسلام في البلاد الهندية كلها ، مما كان له أثره ـ ولا شك ـ في انتشار الاسلام رويدا رويدا فيها .

على أن الفتوحات الأسلامية قد توقفت تماماً ، وظلت الهند بعيدة عن أي غزو إسلامي ، حتى طرق بابها طارق قوي ، كتب بطرقاته هذه صفحات جديدة في تاريخ الهند والاسلام .

وكان هذا الطارق هو الفاتح المسلم الشجاع السلطان محمود الغزنوي .

---

(1) تاريخ الهند لسيد هاشمي .

الدول الإسلامية في الهند

الدّولة الغزنويّـة

كان خليفة المسلمين في بغداد يمد ظله على كل البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، وحين كانت له قوة تؤيد ظله وتؤكد نفوذه تظل هذه البلاد خاضعة لكلمة العاصمة « بغداد » .

فلما ضعف الخليفة ، وأصبح خاضعاً لقواده من الأتراك والفرس اشرأبت أعناق حكام الأطراف إلى الاستقلال ، وكان هذا هو التفكير الطبيعي لولاة مغامرين يحبون السيطرة والحكم ، والاستقلال بشؤونهم ، فعملوا كذلك ، واستقل كثير منهم ، وكان الخليفة نفسه في حالة ضعف لاتمتد معها آماله في حكم هذه الولايات ، وهو لا يستطيع حكم بغداد نفسها ، فبقي له اسم الخلافة العباسية ، يمنح بركاته ونفوذه الاسمي لكل من يسترضيه بشيء ما من حكام الولايات ، وكان الحكام يلجأون إلى هذه البركات كتأييد شعبي لنفوذهم وقوتهم الحربية ، إذ كان الشعب المسلم لا يزال ينظر إلى الخليفة نظرة إجلال باعتباره من سلالة البيت النبوي الكريم .

والذي يعنينا الآن من أمر هذه الولايات ولاية قامت في أفغانستان ، واتخذت من « غزنه » عاصمة لها ، وقام عليها إسحاق بن « ألبكتكين » واليا من قبل السامانيين الذين كانوا تابعين بالاسم للخلافة العباسية . .

ولما توفي إسحاق اجتمع القواد والكبراء على اختيار « سبكتكين » ؛ لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته .

كان « سبكتكين » من غلمان « إسحاق بن ألبكتكين » ، والمقدم عنده في شؤونه ، وعليه مدار أمره ، واشتهر بالعقل والعفة ، وجودة الرأي والصرامة . فلما ولي أمر « غزنه » حقق ظن الناس فيه ، وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمآل(1) وبذلك قامت الدولة الغزنوية السبكتكينية سنة977م و366 هـ وظلت تحكم زهاء قرنين من الزمان .

وعندما استقر له الأمر في « غزنه » فكر في أمر الهند ، وبدأ يرسل جيوشه إلى أطرافها الغربية ، وهنا رأى « جيبال » ملك الهند أن ينازله حتى يحد من شوكته ، ولكنه هزم ، وتعهد بدفع غرامة ، ثم نكث عهده ، فسار إليه سبكتكين وهزمه مرة ثانية ، فعظم شأنه وعلت هيبته في النفوس .

وكان ولده « محمود » عضده وساعده الأيمن في كل حروبه ، سواء مع الهند أو مع غيرها من الولاة المسلمين حول إمارة « غزنه »

وبعد ملك دام عشرين سنة توفي ناصر الدين سبكتكين (سنة 387 هـ997 م) بعد أن عهد بالملك من بعده لابنه الصغير إسماعيل ، وكان محمود غائباً عن العاصمة ، فقدم إليها ، ودارت بينه وبين أخيه مناوشة

---

(1) تاريخ الأمم للخضري جـ3 ونزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني جـ1 ص71

انتهت بتغلبه وقبضه على ناصية الحكم بعد نحو سبعة أشهر من وفاة أبيه ، ولكنه كان كريما مع أخيه فعامله معاملة حسنة كريمة . .

محمود بن سبكتكين الغزنوي

387 هـ 997 م إلى 421 هـ 1030 م

محمود بن سبكتكين أو محمود الغزنوي - كما اشتهر في التاريخ - اسم لامع يذكره التاريخ بأعماله وبطولاته ؛ كما يذكره كل هندي مسلم وغير مسلم ، باعتباره الرجل الذي أسس بشجاعته وجرأته حكماً اسلامياً في الهند ، ظل يزدهر ويقوى من بعده على يد عدة أسر نحو ثمانية قرون ونصف قرن ، حتى انطوت صفحته على يد الإنجليز نهائياً سنة 1857 م . .

ولد محمود سنة 357 هـ 967 م[1] ، وارتقى أبوه عرش الملك في غزنه وهو صغير لم يعد العاشرة من عمره ، فشب واكتمل شبابه في رعاية أبيه ، وأتيح له أن يشارك في الحروب الكثيرة التي قام بها أبوه حتى اشتهر أمره ، وسمي سيف الدولة ، كما لقب أبوه بناصر الدولة . . .

ولما انتصر على أخيه إسماعيل بعد شهور من وفاة أبيه ، وامتلك زمام الحكم بدأ يتجه إلى من حوله من أمراء المسلمين الذين يخشى منهم على مملكته ، فقامت بينه وبينهم حروب انتهت بانتصاره حتى على

(1) يقول ابن الأثير أنه ولد في يوم عاشوراء سنة 360 هـ .

الدولة السامانية التي كان يتبعها اسمياً ، فتخلص من هذه التبعية ، وكتب للخليفة العباسي يلتمس منه الاعتراف به أميراً على « غزنة » ، فأرسل إليه الخليفة القادر يقره أميراً عليها ، وأنعم عليه بالخلع الخليفية ، ثم بعد مدة أنعم عليه بلقب أمين الملة ، ثم بلقب يمين الدولة بعد انتصاراته بالهند .

كان محمود طموحاً جريئاً ، وكان مسلماً غيوراً ، وقد رنى ببصره إلى الساحات التى يرضي فيها طموحه وغيرته ، ولم يمكث طويلا حتى اتجه إلى الهند التي كان قد طرق أبوابها ، وخاض حروباً مع بعض ملوكها في عهد أبيه . .

ففيها يجد ما يرضي طموحه وغيرته الاسلامية . . فهي بلاد واسعة مترامية الأطراف ، يحكمها ملوك مختلفون ، ويسكنها أناس لا يزالون يعكفون على أصنام لهم . فهي إذن ساحة الجهاد التي تناسبه . .

ولقد قضى محمود الفترة الأولى من حكمه يحارب أمراء مسلمين ، وكأنه وجد عمله هذا في نهايته أمراً غير مرغوب فيه ، فاتجه للهند علّه يكفر عما كان بينه وبين المسلمين من حروب ، ونجد هذا الإحساس واضحا حين أعلن أنه يريد أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين[1] ، ونتيجة لهذا أمضى محمود نحو خمسة وعشرين عاماً في حرب وجهاد ، وفتح لبلاد الهند ، ورفع للواء الإسلام فوق أراضيها ، فحقق بذلك أمنيته ، وأخذت شهادة التوحيد يتردد صداها

---

(1) ابن الأثير ص58 جـ9 .

في بلاد مترامية الأطراف ، بينا تتداعى الأصنام والهياكل واحداً بعد الآخر ، وتقوم على أنقاضها وبدلا منها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وكان السلطان محمود كلما غزا غزوة ، وأحرز انتصاراً وجمع غنائم رجع إلى عاصمة ملكه « غزنه » ، وعلى جبينه أكليل النصر ، وبين يديه الغنائم الوافرة يوزعها على شعبه ، ويستعين بها في مشاريعه وإصلاحاته العديدة ، ويستريح ويباشر أمور الحكم ، بينا قواده ونوابه يوطدون سلطانه في الهند ، ثم يعود من جديد إلى ميدان الجهاد ليحرز نصراً وفخراً ، ويضم بلاداً جديدة إلى مملكته التي تتسع يوماً بعد يوم . .

* * *

بدأ محمود غزواته للهند في سنة 392 هـ ـ 1001 م حيث التقى بالملك « جيبال » في المحرم من هذه السنة ، وكانت عدته من المحاربين نحو خمسة عشر ألفاً ، أما « جيبال » فكان معه نحو 12 ألف فارس ، 30 ألفاً من المشاة ، 300 فيل وبالرغم من كثرة عدد العدو ، واستماتته في القتال فأن « محموداً » تغلب عليه ، وأسر « جيبال » مع 15 رجلا من أبنائه وأقربائه بعد أن أعمل القتل في جنوده . .

وقد غنم محمود غنائم كثيرة ، منها قلادة ثمينة كانت في عنق جيبال ، يقول عنها ابن الأثير(1) ، إنها كانت من الجوهر العديم النظير ، قومت بمائتي ألف دينار وأصيب أمثالها من أعناق الأسرى قدرها المؤرخ فرشته(2) بنحو خمس عشرة قلادة من الجواهر النفيسة قدرت كل واحدة

---

(1) ص 59 جـ 9 (2) جـ 1 واسم هذا المؤرخ الهندي « الحكيم محمد قاسم البيجابورى » واشتهر تاريخه باسم تاريخ فرشته في أربعة أجزاء كتبها بالفارسية وترجمت للأوردية ، ويمتاز =

منها بنحو 180 ألف دينار ، كما استولى محمود على كثير من الأسرى . . ويقول ابن الأثير « فلما فرغ محمود من غزواته أحب أن يطلق « جيبال » ، ليراه الهنود في شعار الذل ، فأطلقه بمال قرره عليه فأدى المال . ومن عادة الهنود أن من وقع فيهم أسيراً في أيدى المسلمين لم تنعقد له بعدها رياسة ، فلما رأى « جيبال » حاله حلق رأسه ، وألقى بنفسه في النار » .

أما محمود فبعد استيلائه على « بشاور » سافر إلى « بهندا » أو « ويهند » فحاصرها حتى استسلمت ، ثم رجع من الهند في المحرم سنة 393 هـ ـ 1002 م

وفي سنة 395 هـ ـ 1004 م رجع محمود إلى الهند ليغزو « بهاطيه » بجانب « ملتان » وكان واليها « راجابجي راؤ » أو « بحيرا » كما يسميه ابن الأثير ، وكانت مدينة محصنة يحيط بها خندق عميق ، وكان واليها معتزاً بكثرة جنوده وأفياله ، ويظهر عدم المبالاة بمحمود ونوابه ، فلما التقى الجمعان استمرت الحرب سجالا ثلاثة أيام ، ثم انتهت بانتصار محمود ، وفرار الوالي بما بقى من جيوشه إلى داخل المدينة ، فسبقهم المسلمون إلى مداخلها واستولوا عليها ، وفر الوالي وجماعة معه إلى صحراء السند ، فتعقبه المسلمون ، حتى إذا وجد نفسه سيقع في أيديهم

= بالاسهاب في ذكر الجزئيات عن تاريخ الهند . . . واسم الكتاب في الأصل « كلزار ابراهيمي » فرغ من تصنيفه سنة 1015 هـ وقد خدم المؤلف في مملكة أحمد نكر بالجنوب ، ثم انتقل إلى إبراهيم عادل شاه ملك بيجابور وصنف له هذا الكتاب وكان شيعياً من كبار العلماء نزهة الخواطر جـ5 ـ ص385 مختصراً .

قتل نفسه ، وقطع المسلمون رأسه ، وأرسلوا به إلى محمود ، كما قتلوا كل من كان معه ، وتم لمحمود النصر ، وغنم غنائم كثيرة من الأموال والأفيال ، وأقام بها مدة يصلح شؤونها ، ثم رجع إلى غزنة بعد أن ترك بالهند من يرعى أمرها ، ويعلم الناس الأسلام فيها . .

وفي سنة 396 هـ ـ 1005 م . توجه محمود لفتح « مولتـان » وكان حاكمها المسلم الشيخ « حميد لودى » مطيعاً له ، ولما توفي استخلف « أبا الفتوح » الذي اشتهر عنه خبث اعتقاده وإلحاده ، ودعـوة النـاس إلى الألحاد ، واستجابتهم اليه ، فرأى محمود أن يجاهـده ليرجعـه عما هو عليه ، فسـار إليه واضطـر قبـل أن يحاربـه أن يؤدب « أمنـديال » أو « أنـديال » كما يسـميه ابـن الأثـير ، وكان واليا على لاهـور ، وذلك لاستنجاد أبي الفتوح به ، وقيامـه لنصرتـه ومنازلتـه لجيوش محمـود ، وكانت النتيجة إنهزام جيوشه وفراره حتى بلغ كشمير . فتركه محمـود وسار إلى « مولتان » ، فلما رأى واليها ما أصاب هذا الملك القوى داخله الرعب ، وأعلن الاستسلام لمحمود ، وندم على ما فعل ، ورجـع عن إلحاده ، ورضي بأن يرسل إلى السلطان عشرين ألف دينار كل سنة ، فقبل محمود منه ذلك وأقره على ولايته « مولتان » .

هذا ما يقرره المؤرخ « فرشته » ، أما ابن الأثير فيقول إن محموداً اضطر لحرب « أنديال » لأنه لم يسـمح لمحمود بالمرور من أراضيه ، كما يقول : إن أبا الفتوح لم يستسلم ، بل نقل أمواله إلى « سر نديب » ، وترك مولتان فوصلها محمود ، وحاصرها حتى افتتحهـا عنوة ، فوجـد أهلها في ضلالهم يعمهون ، وألزم أهلها بعشرين ألفاً عقوبة لهم . . .

ويضيف ابن الأثير أن السلطان الغزنوي سار بعد ذلك في هذه السنة سنة 396 هـ إلى قلعة « كواكير » وكان بها ستمائة صنم ، فافتتحها وحرق أصنامها ، فهرب صاحبها إلى قلعة « كالنكر » فسار خلفه ، وكانت حصناً كبيراً يسع خمسمائة ألف إنسان ، وفيه خمسمائة فيل ، وما يكفي الجميع مدة ، فلما وصل إليها محمود حاصرها ثلاثة وأربعين يوماً ، ثم بلغته أنباء سيئة عن خراسان ، فقبل ما عرضه عليه الوالي من الصلح على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنّ من الفضة(1) ، ولبس الوالي الهندي خلعة يمين الدولة ، وطلب أن يعفوه من شد المنطقة ، فلم يستجب له ، فشدها وقطع خنصره ، وأرسلها إليه توثقة لعهده فيما يعتقدونه ، وعاد يمين الدولة إلى خراسان لأصلاح الأمور بها . .

وفي سنة 399 هـ 1008 م ، خرج محمود من غزنه لاخضاع « أندريال » نهائياً ، وكان قد سار به وتعقبه حين سار إلى مولتان ، ولكنه فر إلى كشمير ، وتركه محمود ، وسار إلى مولتان . . ولما علم « أنديال » بخروج محمود أسقط في يده ، ثم رأى أن يراسل ملوك الهند ، يستعين بهم لصد هذا الغازي المسلم الذي يعتبر خطراً عليهم جميعاً ، فاستجاب له ملوك « أجين وكواليار وكالنكر وقنوج ، وأجمير ، ودلهي » . وأرسلوا جيوشهم إلى البنجاب ، وعسكر الجمعان في صحراء بشاور ، وكانت جيوش الهندوسيين تتزايد يوماً بعد يوم .

---

(1) عرفت أثناء إقامتي بالهند أن المن أربعون سيرا أي ثمانون رطلا ، ووجدت في التعليق على رحلة ابن بطوطه في الهند أن المن رطل ولعل ذلك كان فيما مضى وهو ما يميل إليه العقل في مثل حالتنا هذه . .

وهنا نجد عملا جليلا في معناه تقوم به النساء المسلمات ، فقد تبرعن بحليهن - كما يروى ابن الأثير - ، وبما استطعن جمعه من المال إلى الجيش الاسلامي في الهند ، ورأى محمود إزاء تكاثر العدو كل يوم أن يحتاط في الحرب ، فحفر الخنادق ثم تقابل الجيشان ، ودارت المعارك العنيفة ، وابتلى المسلمون وزلزلوا زلزالا شديداً ، لكن الله أراد لهم النصر في النهاية ، فأن الفيل الذي كان يركبه « أنديال » أصابه ذعر أثناء المعركة ففر به ، ورأى جنوده أن ملكهم قد فر ، فتابعوه وتبعهم المسلمون يعملون فيهم القتل حتى قتلوا ثمانية آلاف منهم ، ورجعوا إلى محمود بما حملوه من غنائم كثيرة .

* * *

ثم سار محمود إلى قلعة « نكَركوت » أو « بهيم » واستولى عليها ، وكان الهندوس قد جعلوها مركزاً وخزانة لصنمهم الأعظم ، ينقلون إليها أنواع الجواهر وأنفسها تقرباً إلى آلهتهم ، فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله عند أحد الملوك من النقود واللآلى واليواقيت ، وقد اضطر الهندوس للتسليم ، لما رأوه من حرص المسلمين على القتال واستبسالهم فيه ، وفتحوا باب القلعة ، وصعد يمين الدولة إليها مع بعض خواصه ، فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ، ومن الدراهم تسعين مليوناً ، ومن الأواني الذهبية والفضية سبعمائة ألف وأربعمائة مَناً .

وذكرها « فرشته » هكذا700 ألف دينار من الأواني ، والحلى سبعمائة منّ من الذهب والفضة ، ومائتى منّ من الذهب الخالص ، وألفين من الفضة الجيدة وعشرين منا من اليواقيت والأحجار الثمينة . استولى عليها كلها ، ورجع بها إلى غزنة ، حتى إذا وصل إليها بسط كل

غنائمه أمام الناس الذين أخذوا يفدون من كل مكان ليروا هذه الغنائم العجيبة والخيرات الوفيرة الثمينة ، وبقي هذا المعرض هكذا ثلاثة أيام ، وقد أجتمع عنده رسل الملوك ، وأخذ يقسم هذه الأموال على الفقراء والمساكين وغيرهم ممن أراد أن يؤلف قلوبهم .

ولا شك أن مثل هذا المعرض وما حواه من نفائس كان بجانب الروح الدينية أكبر حافز على التطوع في جيش هذا الغازي المنتصر ، والذهاب إلى أرض الهند ، حيث يجدون النصر والذهب والجواهر الثمينة . .

* * *

وفي سنة 402 هـ ــ 1011 م كما يذكر «فرشته» أو 405 هـ كما يذكر ابن الأثير توجه محمود لغزو « تهانسير »(1) لما سمعه من أن الهندوس يتخذون فيها صنماً يعتقدون قدم وجوده ، ويحيطونه بضروب التعظيم ، فأراد محمود أن يقضي على هذا الصنم ، ويذكر ابن الأثير أنه لقي في طريقه كثيراً من ضروب المشقات ، لكنه استطاع التغلب عليها والاتصال بعدوه والانتصار عليه .

أما فرشته فيذكر قصة يحسن أن نوردها ، لما تنطوي عليه من دلالة طيبة ، فقد ذكر أن أحد الملوك الهندوس ـ وكان على صلح ومودة مع محمود ـ كتب إليه حين علم بتوجهه إلى تهانسير يقول له بعد أن عرض إخلاصه وطاعته إنني أعرف أن هدم المعابد الهندومية شيء تتقربون به

---

(1) يذكرها ابن الأثير ص 84 جـ 9 باسم ناتيشر ، ولكن الاسم الأول هو الذي ينطقونه للآن .

إلى الله ، وقد حصلتم على هذا التقرب بما هدمتم من معابد ، لا سيما في قلعة « نـكَركوت » ، ونحـن على استعـداد لدفـع ما تريدون من مال وجواهر ، وأرسل لكم زيادة على ذلك خمـسين فيلا كل عام ، على أن تترك المعابد ولا تهدمها .

فأجابه محمود : إننا نحن المسلمين نعمل أولا على نشر الإسـلام وهدم معابد الأصنام ، ونعتقد أننا سنجد على ذلك أضعافاً مضاعفة من الأجر والثواب عند الله ، ولا حاجة لنا إلى المال . .

ولما سمع ملك دلهى عن قصد محمود هدم هذا المعبد ، كتـب إلى ملوك الهند يستحثهم على الوقـوف في وجـه هذا الفاتـح المعتـدي على أصنامهم ، فلما عرف محمود ذلك أسرع في الهجوم قبل أن يتجمعوا ، فهدم المعبد وكسر ما فيه من أصنـام إلا صنماً كبـيراً أرسلـه كما هو إلى « غزنة » حيث ألقاه في الطريق يمر عليه الناس ، ويطئونه بأقدامهم . . وقد ذكر المؤرخون أنه غنم من هذا المعبد ياقوتاً كان وزنه450 مثقالا عاد به مع الغنائم الأخرى إلى غزنة ظافراً منتصراً ، وقد صارت غزنة لكثرة ما فيها من الأسرى الهندوس كأنها مدينة هندية . .

* * *

وفي سنة406 هـ1015 م ، توجه يمين الدولة إلى كشمير ، ويختلف المؤرخون في نتيجـة هذه الحملـة ، فالمؤرخ « فرشتـه » يذكر أنـه لم يستطع فتحها لكثرة الثلوج وشدة البرد فرجع عنها . أما ابن الأثير فيذكر أن صاحب كشمير قابله حين اقترب منه وأسلم على يديه .

* * *

ثم سار محمود إلى الشرق يتابع انتصاراته وإخضاع الولاة في طريقه إلى « قنوج » وكان في شعبان سنة407 هـ1016 م ، أما فرشته فيقول إنه سار من غزنه في سنة409 هـ1017 م إلى « قنوج » ويتفق الأثنان على أن ملكها على عظمته وهيبته بين ملوك الهند لم يستطع مواجهة محمود ، بل ترك عاصمته وفر ، فدخلها محمود وكسر أصنامها وغنم ما فيها من أموال ، وإن كان فرشته يذكر أنه حضر إليه خاضعاً فعفا عنه وأدخله في خواصه ، وقيل إنه بعد ذلك أسلم . . . ثم أخذ محمود بعد ذلك يوالى زحفه وانتصاراته فاستولى على قلعة « ميرت » « وكَلجند » « ومترا » التي كانت تابعة لملك دلهى ، والتي بهرته بما فيها من غنائم ثمينة ، وما كانت عليه من المباني الفخمة العالية ، حتى كتب رسالة إلى غزنة يصفها ويذكر عجائبها . ثم استولى على قلعة « جنديال » ثم قلعة « شروه » . وكان صاحبها « جندرائي » .

وهكذا انتقل يمين الدولة من نصر إلى نصر ، لم يقف أمام أي حصن ، ولم يأبه لأية صعوبة ، ورجع إلى غزنة محملا بالغنائم ذات الأرقام الخيالية من الجواهر والذهب والفضة والأفيال والأسرى . .

ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله حتى قيل انه أنفق ما جمعه في هذه الغزوة على بنائه ، كما أمر ببناء مدرسة كبيرة أمام المسجد كانت مكتبتها تحوي آلاف الكتب النادرة التي لا توجد إلا في غزنة . .

وفي سنة » 410 هـ1019 م كتب محمود إلى الخليفة العباسي في بغداد يخبره بفتوحاته في الهند ، فابتهج الخليفة وأعلن هذا النبأ السار على

الناس ، فشاركوه ابتهاجه ، وعقدت المجالس المتعددة لأعلان هذا الابتهاج ، والدعاء لمحمود الذي اعتبروه مجدداً لعهد الصحابة في فتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكان ذلك بمثابة عيد عظيم في بغداد ، وأنعم عليه الخليفة بالألقاب والخلع(1) .

وفي سنة 413 هـ 1022 م توجه محمود إلى « كَواليار » جنوب دلهى بمسافة كبيرة ، فحاصر قلعتها عدة أيام حتى اضطر ملكها إلى الصلح معه وتقديم الأموال اليه . .

في سومنات :

ولنترك هذا لننتقل إلى غزوة أخرى هامة من غزوات البطل الناجح . ففي سنة 416 هـ 1025 م . توجه محمود إلى « كَجرات » وكان يقصد بالذات « سومنات » ومعبدها الشهير في الهند على شاطىء بحر العرب(2) . .

كان في هذا المعبد صنم يعرف بسومنات ، وكان من أعظم أصنام الهند يحجون إليه كل ليلة خسوف ، ويزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت أجسادها اجتمعت عنده ، لينشئها من جديد في جسم آخر على حسب ما كانت عليه من خير أو شر ، وذلك على أساس فكرتهم في التناسخ . وكان « شيفا » عندهم هو إله الحياة والتبديل ، وكأن سومنات أصبح

(1) تاريخ فرشته ص94 جـ1 .

(2) وقد رسمها المرحوم الأستاذ حبيب في خريطة بكتابه ص8 بين دلهى وعليكره في الشمال ، وهو خطأ أظن أن منشأه هو وجود محطة قبل عليكره اسمها قريب الشبه من هذا الاسم ، وقد لفت التشابه نظرى حين مررت عليها . .

عندهم هو القائم بهذا العمل ، وكان يدعون أن المد والجزر الذي يحدث عندهم في البحر إنما هو عبادة البحر له على حسب ما يستطيع ، وكان المعبد مبنياً على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص ، أو بصفائح الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة كما يقول « جو ستاف لوبون » ! أما سومنات الصنم نفسه ، فكان من حجر طوله خمسة أذرع ، ثلاثة مدورة ظاهرة ، واثنتان في البناء، وكان في حجرة مظلمة تضيئها قناديل الجوهر الفائق . . كما كان عنده سلسلة ذهبية وزنها مائتا منّ ، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجواهر ، كل واحدة منسوبة إلى عظيم . .

فقد كان الهندوس يحملون إليه كل نفيس ، ويغدقون على سدنته ، وله من الوقف ما يزيد على عشرة آلاف قرية ، فاجتمع في البيت من نفيس الجواهر مالا تحصى قيمته ، وكان من شدة تعظيمهم له يحملون له الماء من نهر « كَنكَا » المقدس على بعد مئات الأميال ، ويكون عنده من البراهمة كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه . وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس الزوار ولحاهم ، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون . ذلك هو معبد سومنات . .

ولقد كان موقعه في أقصى جنوب الكَجرات على شاطىء بحر العرب ، والطريق إليه من الشمال صعب تحفه الأخطار . . فما الذي حمل محمود على ركوب هذه الأخطار ، والمجازفة بجيشه في عبور الصحراء ، وقطع المسافات الشاسعة ؟ .

هنا يحدثنا المؤرخون أن الأخبار وصلت إلى سمعه ، أن الهندوس

يحكون فيما بينهم كلما هدم معبداً وحطم صنماً أن « سومنات » غاضب على هذا الصنم ، ولو كان راضياً عنه ما استطاع محمود أن يحطمه ، ولهلك قبل أن يبلغه ، فعزم على غزوه وتحطيمه ، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ، ورأوا ما حل به عرفوا كذب ادعائهم وفاقوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ودخلوا في الإسلام . . وهكذا سيرته عقيدته الدينية التي تستسهل الصعب ولا تعرف الخطر . .

فسار من غزنة في شعبان سنة416 هـ1025 م ومعه ثلاثون ألف فارس سوى المتطوعين ، وقبل أن يخوض الصحراء تزود لها ، وزاد على حاجته عشرين ألف جمل تحمل الماء والزاد ، فاجتاز الصحراء في سلام حتى وصل إلى كَجرات ، ومنها إلى سومنات مستولياً على البلاد والقلاع التي في طريقه دون مشقة . .

وكان وصوله إليها في منتصف ذي القعدة سنة416 هـ1026 م . فوجد حصناً عالياً منيعاً مبنياً على ساحل البحر ، ورأى أهل سومنات قائمين على الأسوار يتفرجون على المسلمين ، وكأنهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد سومنات ، فقد كانوا واثقين أنه سيقطع دابرهم ، وسيأخذ بثأر الأصنام منهم وكانوا يقولون : تعالوا يا معشر المسلمين ، لقد دعاكم سومنات ليهلككم جميعاً ، ويأخذ بثارات الأصنام التي كسرتموها .

ولكنهم ما لبثوا أن أفاقوا من أوهامهم ، وسيوف المسلمين تحصدهم حصداً ، وهنا يتقدم جماعة منهم إلى سومنات يلوذون به ، ويسألونه النصر ويعفرون وجوههم ، ولكن برغم ذلك كثر القتل في

الهنود حتى انهزموا ، ولجأوا إلى المعبد يدافعون عنه ، وكانوا يدخلون إلى صنمهم يعانقونه ويبكون ، ثم يخرجون للقتال ، وكان قتالا دموياً حاراً ، لعبت فيه العقيدة دورها في دفع أهلها إلى الاستبسال في الدفاع أو الهجوم ، ولكن استبسال الهنود لم يجد نفعاً أمام المسلمين ، بل دفعهم إلى الفناء جماعة بعد جماعة ، حتى لم يجدوا بداً من الفرار ، وترك معبدهم في يد المسلمين يفعلون به ما يشاءون ، ولاذوا بالمراكب ، ولحقهم المسلمون فقتلوا بعضاً وأغرقوا بعضاً . وهكذا تم النصر للمسلمين ، واستولى محمود على كل ذخائر المعبد ومجوهراته بعد أن هدمه وحطم صنمهم . وقد توسل الكهنة ألا يمس معبودهم ويعطونه ما شاء من مال ، ولكنه أبى ، فإنه لم يخرج لطلب المال ، وإنما خرج لإعلاء كلمة الله وهدم هذه الأصنام التي تعبد من دون الله .

وقد قدر ابن الأثير قيمة ما غنمه محمود من هذا المعبد بعشرين ألف ألف دينار (20 مليوناً) . أما الصنم فقد كسره محمود ، وأخذ بعضه وجعله في عتبة المسجد العظيم الذي بناه في غزنه ، كما أخذ أبواب سومنات ، وحملها معه إلى عاصمة ملكه « غزنه » .

وبمقدار ما فرح المسلمون وهللوا وكبروا لتحطيم هذا المعبد والقضاء على أوهام الهندوس حوله ، استولى الحزن والكمد على نفوس الهنود ، وبقي أثره البعيد الغور في نفوسهم جيلا بعد جيل .

ولقد رأينا حكومة الهند بعد أن ظفرت باستقلالها تعمد إلى إعادة بناء هذا المعبد من جديد ، وافتتحه رئيس الجمهورية في احتفال

عظيم[1] . وفي طريق محمود إلى غزنة أخضع بعض البلاد وضمها إلى مملكته الواسعة . .

وقد ظل محمود بعد هذا يواصل جهاده وحروبه ، سواء أكان في الهند أم في خراسان وغيرها ، حتى مرض وظل مرضه سنتين ، ومع ذلك لم يحتجب عن الناس ، وظل يثابر أمور ملكه حتى توفي قاعداً في شهر ربيع الثاني سنة 421 هـ - أبريل سنة 1030 م بعد أن أوصى بالملك لابنه الصغير محمد ، تاركاً ولده الكبير مسعود ، كما فعل أبوه من قبل معه . .

وكان قد أقام أحمد بن نيالتكين نائباً عنه ، وقائداً لجيوشه في الهند . . وقد دفن بغزنه في قبر يحيط به مسجد عظيم ، وقد احتفظ فيه ببعض آثاره من الهند منها القضيب الذي كان يحطم به الأصنام ، وكذلك أبواب سومنات ، وظلت هذه الآثار باقية في أفغانستان حتى سنة 1832 . فاختفى القضيب ، ونقلت الأبواب الأثرية إلى الهند حينما غزا الانجليز الأفغان سنة 1839[2] » .

محمود في نظر التاريخ :

مات محمود وأصبح في ذمة التاريخ ، وشغل المؤرخون وتعبوا في تتبع أعماله وسردها . . وما دونوا كل أعماله حتى ليقول ابن الأثير بعد

---

(1) والمسلمون يتناقلون فيما بينهم أن كل مولود في باكستان ولد في يوم افتتاح هذا المعبد سمي باسم « محمود » كما يقولون إن أحد الشعراء قال شعراً يناجي فيه محمود الغزنوي بهذه المناسبة ، هكذا سمعت من الكثيرين . .

(2) مذكرة الاستاذ حبيب نقلا عن الأستاذ عبد المجيد العبد . ولكن مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزي في دلهي ، أن الانجليز نقلوه إلى بلادهم لا إلى الهند . .

أن كتب الكثير العظيم عنه ، هذا هو بعض ما بلغنا عن أعماله وفتوحاته . .

وإن الإنسان ليدهش حين يقرأ ما قام به ، كيف استطاع أن يقوم بكل هذا ، ويقطع كل هذه المسافات ، ويفتح هذه الفتوحات ؟ ! ولكن هكذا يكون النادرون من عظماء الرجال ننظر إليهم وكأنهم عمالقة ، نسرح ببصرنا إلى أعلى فيأخذنا الدوار من طول النظر . . وما بلغنا الإحاطة بمن ننظر إليه . .

يقول ابن الأثير عنه(1) : «كان يمين الدولة عاقلا ديناً عنده علم ومعرفة ، صُنّف له كثير من الكتب في فنون العلم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم ، كثير الغزوات ملازماً للجهاد ، وقد ذكرنا منها ما وصل إلينا على بعد الدهر» . ويقول المؤرخ «فرشته» : اتفق المؤرخون على أن السلطان محموداً كان جامعاً للمحاسن الدينية والدنيوية ، كما عرف بسياسته وشجاعته وعدله ، وكان أكثر غزواته لإشاعة الإسلام ، وإقامة العدل واستئصال الظلم ، وكان من أشجع الملوك ، يمشي إلى الحروب كالسيل لا يبالي الخطر بل يركبه . .

ثم يقول ومع هذا فقد اتهمه بعض المؤرخين بالحرص والطمع ، وهذا غير صحيح . حقيقة إنه كان يحب أن يجمع المال ، لكن لا

(1) جزء9 ص139 .

ليدخره ، بل لينفقه على معاريفه. من الفقراء والمساكين والعلماء والشعراء . فقد اجتمع في بلاطه من العلماء والشعراء واهل الفن ما لم يجتمع عند غيره ، وما كان يمكن هذا إلا بالبذل والعطاء (1) . وقال الأستاذ عبد الله يوسف في كتابه « تكوين الهند » (2) .

لقد وصف المؤرخون السلطان محمود الغزنوي بأنه متعصب طامع متعطش للدماء مغرم بالتدمير ، ولكنها صورة تبعد عن حقائق التاريخ كل البعد ، فقد كان في سبيل الله محارباً موهوباً ، نصب نفسه للقضاء على عبادة الأصنام ، وقد رأى والده ، فيما يرى النائم الرسول عليه السلام ، وهو يقول أن مملكة غزنة ستكون من نصيبه جزاء له على حسن صنيعه ، وأضاف الرسول إلى ذلك قوله « لا تجعل جبروتك يطغى على فضائلك ، وثابر على إسداء الخير للانسانية » . وقد كانت هبات السلطان محمود لشاعره الفردوسي أقل مما كان الشاعر يتخيل - بخياله الخصب - أنه سيكون من نصيبه ، (3) ولكن السلطان محمود كان سخياً في عطائه لرجال بلاطه من العلماء ، وكان أكثر ذلك سخاء في هباته للمكتبة والمتحف ، والمساجد العديدة والمباني العامة التي شيدها في عاصمة ملكه .

---

(1) جـ1 الطبعة الأوردية ،

(2) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب ، وأعتقد أن هؤلاء المؤرخين الذين يشير اليهم مؤرخون غربيون أو غير مسلمين ، يرون في تحطيم الأصنام تعصباً وغراماً بالتدمير .

(3) يشير بذلك إلى حادثة الفردوسي مع السلطان التي سيأتي ذكرها نقلا عن كتاب حاضر العالم الأسلامي . . .

وجاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي [1] .

يعترف مؤرخو الأفرنج بأن محمود الغزنوي لم يكن فاتحاً غازياً عالي المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل إنه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيسا جامعاً بين دولتي السيف والقلم ، وقد ضم بلاطه الفارابي والفردوسي والبيروني . وقد كان السلطان محمود هو الذي اقترح على الفردوسي نظم الشاهنامه ، ووعده بأن يكافئه على كل بيتين قطعة من الذهب ، إلا ان ذلك أثار عليه غضب حساده ، فوشوا به إلى السلطان ، فبدل الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسي وفر وهجاه هجوا مراً ، وندم السلطان وأمر من يرجعه إليه ، ولكن الفردوسي كان قد مات . . وقد نبغ في أيامه بديع الزمان الهمذاني ، وكان عامله على هراة وأبو بكر الخوارزمي » .

وجاء في نزهة الخواطر [2] .

كان السلطان من أعيان الفقهاء له مؤلفات . منها التفريد في الفروع ، وهو مشهور في بلاد غزنة في غاية الجودة ، وكثرة المسائل ، وبه نحو ستين ألف مسألة ، ولا ندري متى تفرغ لمثل هذا التأليف ولكن لا عجب فقد كان صاحب السيف والقلم . . ويقول جو ستاف لوبون [3] .

---

(1) ص289 جـ4 للامير شكيب أرسلان (2) جـ1 ص90 للعلامة عبد الحي الحسني الهندي .

(3) ص218 من كتاب « حضارة الهند »

« وما تم على يد محمود الغزنوي من فتح فذو طابع ديني سياسي ، فمحمود الغزنوي كان مسلماً متين العقيدة تواقاً إلى رفع شأن الشريعة النبوية ، فأعلن في كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم ، فأنعم عليه خليفة بغداد بلقب يمين الدولة » .

ذلك هو محمود الغزنوي كما تصوره أعماله وكما كتب عنه المؤرخون . . رجل عظيم ونادر بين العظماء ، ومهما حاول بعض المؤرخين أن يلصقوا به بعض العيوب فعلى فرض ثبوتها فأنها تتضاءل بجانب نواحيه العظيمة الكثيرة ؛ فأن الرجل لا يقاس على أساس أنه معصوم من العيوب ، ولكن على قدر محاسنه وعيوبه تقاس عظمته بين العظماء . . .

لقد وضع بجهوده النادرة وجهاده المخلص اساس دولة إسلامية عظيمة في الهند ظلت أكثر من ثمانية قرون تقوى وتزدهر . . وليس هذا هو المهم وحده ، فإن الملايين ممن هداهم الله للإسلام ، وما زال يهديهم بسبب ما خطه هذا البطل العظيم في أرض الهند ، ليذكر كل من أتى بعده بعظمته وبما قدم للاسلام من خدمات ، وإن المسلمين الذين يعدون في الهند بعشرات الملايين ، وما أضافوه ولا زالوا يضيفونه للاسلام من قوة ، وما خدموه به من فكر ورأى ليمثلون أمام الأجيال من بعده عظمة ما قام به هذا البطل المسلم عليه رحمة الله[1] .

---

(1) لاحظت أثناء اقامتي في الهند شدة تقدير المسلمين لمحمود الغزنوي على عكس نظرة الهندوس الذين ينظرون اليه وإلى أعماله نظرة عداء . وبهذه المناسبة أذكر ما سمعته كثيرا من أن الهندوس يكرهون بل يمقتون كلمة الجهاد والمجاهدين .

خلفاء محمود في الهند

بعد وفاة محمود تابع خلفاؤه من الملوك الغزنويين حكمهم لأرض الهند وتوسعهم في ضم أراضي جديدة منها إلى حكمهم . .

جاء بعده ولده « مسعود » الذي أخذ الملك من أخيه محمد بعد وفاة والده بشهور ، فتابع سياسة أبيه في الفتح والتوسع « وكان شجاعاً كريماً محباً للعلماء كثير الأغداق عليهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة كالقانون المسعودي في الرياضة للبيروني(1) ، والكتاب المسعودي في الفقه الحنفي للقاضي أبي محمد الناصحي »(2) وقتل مسعود أثناء ذهابه للهند سنة 432 هـ / 1040 م على يد أخيه ، محمد وأولاده ، وجاء بعده ابنه « مودود » وسار سيرة أبيه وجده في التوسع بارض الهند ، وتوالى الملوك الغزنويون على عرش غزنة والهند . . إلا أن تناحرهم فيما بينهم

---

(1) « البيروني » بكسر الباء نسبة الى منطقة في ضواحي خوارزم تسمى بيرون خاصة بالغرباء ولد بها سنة362 هـ ـ973 م واتجه الى دراسة الفلك والرياضة حتى نبغ فيهما ، دخل في حاشية محمود الغزنوي العلمية وألف كتبا عدة ، وتجول في السند وكتب « كتاب الهند » من ناحيته التي نبغ فيها ، ولما أتم كتابه « القانون المسعودي » في الرياضة والفلك ونسبه الى السلطان مسعود سنة 427 هـ كافأه عليه بفيل وما يحمله من فضة فاعتذر شاكرا ، وكان يعرف عدة لغات : العربية والفارسية والسنسكريتية وعندما زرت مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد في ديسمبر سنة 1957 وجدتها قد طبعت القانون المسعودي لأول مرة سنة1955 م وتوجد منه ست نسخ مخطوطة موزعة في مكاتب العالم ، واحدة في اكسفورد وهي مكتوبة سنة475 هـ ، ونسخة في برلين ، ونسخة في المكتبة الأمبراطورية في كلكتا ، وواحدة في مكتبة لتن بعليكره ، وواحدة في مكتبة ملافيروز في بومباي . وقد توفي البيروني في يوم الجمعة2 رجب440 هـ11 سبتمبر1048 م

(2) نزهة الخواطر جـ1 ص 98

أضعفهم ، وجعل البلاد التي فتحوها تتمرد عليهم ، كما أطمع فيهم من حولهم . حتى سقطت عاصمتهم « غزنة » سنة 547 هـ 1152 م في عهد آخر ملوكها « بهرام شاه » .

الدّولة الغورية

بجانب الدولة الغزنوية وفي جبال غور أو غورستان ، نشأت الدولة الغورية ، وقوي أمرها في الوقت الذي كانت فيه الدولة الغزنوية تسير في شيخوختها نحو الغروب ، وعلى يد هذه الدولة الناشئة كانت نهاية الدولة الغزنوية في غزنة وفي الهند . قام الحسين بن الحسن الملقب بعلاء الدين وأسس ملكه في منطقة جبال غورستان(1) ، ثم زحف بجيشه إلى « غزنة » في عهد ملكها « بهرام شاه بن مسعود بن محمود الغزنوي » فاستولى عليها ، وفر بهرام سنة 547 هـ سنة 1152 م ، ولكنه استطاع أن يرجع إلى ملكه بمساعدة الأهالي الذين انقضوا على نائب علاء الدين ، وخلعوه ومثلوا به ثم استرجعها علاء الدين من خسروشاه بن بهرام ونكل بالأهالي ، وظلت بيده حتى توفي ، فحاول الغزنويون استرداد ملكهم وتم لهم ذلك . .

ولكن خلفه غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وأخوه شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام استطاعوا الاستيلاء على غزنة ثانياً ،

---

(1) جاء في حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص290 « وهؤلاء الغوريون أمراء « فيرزكوه » قاعدة بلاد الغور والغور (بضم المعجمة) هي بلاد في الجبال بقرب هراة ومعنى (فيرزوكوه) الجبل الأزرق .

ومكنوا ملكهم فيها حيث ظلت تحت حكمهم ، وانقضى نهائياً ظل الغزنويين منها سنة 567 هـ 1171 م ، وأصبحت تابعة للدولة الغورية . . .

شهاب الدين الغوري

لما فر خسروشاه الغزنوي من غزنة إلى الهند واصل حكم الغزنويين لها ، واتخذ « لاهور » عاصمة له ، ولما توفي سنة 555 هـ1160 م خلفه ابنه « خسرو ملك » ، وظل بها حتى زحف شهاب الدين إليه ، واستولى على لاهور سنة 582 هـ1186 م وبدأ بذلك حكم الغوريين للهند ، وزال عنها حكم الغزنويين بعد أن حكموها من 392 هـ إلى 582 هـ سنة 1001 م إلى 1186 م ، وقد قبض شهاب الدين الغورى على « خسرو ملك » الغزنوي بعد آن استولى على لاهور ، وأمنه على نفسه ، وبقي كذلك شهرين مكرماً عنده حتى أرسل غياث الدين إلى أخيه يأمره بإيفاد خسرو إليه ، فأرسله ومعه ولده ، وكان يحسّ نهايته فتمثل وهو في طريقه بقول الشاعر :

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

فلما وصلا إلى بلاد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين ، بل أمر أن يوضعا في قلعة ، وظلا بها حتى انتهت حياتهما . .

وقد جعل الملك غياث الدين أخاه شهاب الدين نائباً عنه في حكم الهند ، فأخذ هذا يعمل لكي يخضع الهند له ويوسع ملكه فيها ، متخذاً من لاهور عاصمة له في الهند . .

وقد لعب شهاب الدين دوراً في الهند يشبه إلى حد كبير دور محمود الغزنوي فيها ؛ فقد كانت لكل منهما حروب وفتوحات ، عقد عليه فيها لواء النصر ، ومكن لحكم الإسلام فيها . .

وقبل أن يستولي شهاب الدين على لاهور كان قد استولى على مولتان من القرامطة التي يحكمونها ، وذلك سنة 572 هـ سنة 1176 م وبعض البلاد الأخرى في الهند .

وبعد أن استولى على لاهور سار إلى قلعة بتهنده وكانت تحت يد ملك « أجمير » واستولى عليها .

وإزاء الخطر الذي بدا من شهاب الدين وانتصاراته في الهند تجمع بعض الملوك الهندوس وعلى رأسهم راجا يتهورا ، وحشدوا جيوشهم لمقابلته صفاً واحداً ، والتقى الجمعان سنة 587 هـ 1191 م على نهر « سرستي » على بعد ثمانية أميال من دلهي ، في موضع مشهور الآن باسم « تراوري » ، وكان القتال حاراً دارت فيه الدائرة على المسلمين ، فانهزموا أمام الكثرة الهندوسية ، وسقط شهاب الدين جريحاً حتى ظن أنه قتل ، وحمله بعض رجاله من ميدان المعركة حتى بلغوا به مأمنه ، وتوافد عليه الناس يهنئونه بالسلامة . . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه ، فملاء مخالي خيلهم شعيراً وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم ، فأكلوه ضرورة[1] .

وقد كان لانهزام شهاب الدين أثر شديد على نفسه ، حتى إنه أقسم

---

(1) ابن الأثير ص65 جـ19 .

ألا يقرب النساء ، ولا يغير ملابسه حتى ينتصر وينتقم ويغسل ما لحقه من عار .

وفي سنة 588 هـ 1192 م كون جيشا عظيما وسار به إلى الهند ، وتقابل الجيشان في نفس الموقع الذي انهزم فيه من قبل على نهر « سرستي » ، وقد كتب له ملك أجمير يهدده وينذره بالمصير الذي لقيه من قبل ، فخادعه شهاب الدين ، ثم انقض عليه وأعمل في جيشه القتل حتى انهزم ، وتمكن المسلمون من أسر الملك ، وصعد شهاب الدين إلى الحصن ، وأخذ ما فيه من الأموال واستولى على البلاد ، ثم ضرب عنق الملك ، وأقام ابنه حاكما مكان أبيه على أن يدفع له الجزيه ، ورجع إلى « غزنه » بعد أن أقام مملوكه قطب الدين أيبك نائبا عنه في البلاد التي خضعت له . .

« فتح دلهي »

وكان قبل رجوعه قد توجه إلى دلهي للاستيلاء عليها ، ولكن ملكها تقدم له بالخضوع والهدايا ، فرأى أن يتركه في مملكته ، ولكن قطب الدين توجه إلى دلهي بعد ذلك ، واستولى عليها وضمها إلى البلاد الإسلامية ، وجعلها عاصمته في الهند ، وكان ذلك سنة 589 هـ ـ 1193 م . .

ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمكانتها كعاصمة للدولة الإسلامية ، وإن اتخذ بعض الملوك عاصمة غيرها أحياناً ، لكنها ظلت محتفظة بمركزها بين المدن الهندية الكبرى كمركز للفكر والحكم الإسلامي ، حتى دخلها الانجليز واستولوا عليها ، وزال عنها السلطان الإسلامي

سنة 1274 هـ سنة 1857 م ومع ذلك ظلت محتفظة بمكانتها الفكرية الإسلامية للآن(1) .

وقد قام قطب الدين بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية في الهند بنفسه أحياناً ، وبواسطة بعض القواد الشجعان أحياناً أخرى ، وذلك مثل اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي الذي اتجه شرقاً بجيشه ، فاستولى على بيهار وأنزل بالبوذية فيها ضربة لم تقم لها قائمة بعدها ، واتجه شرقاً يفتح البلاد ويدعم هيبة الحكم الاسلامي فيها ، وينشىء المدارس والمساجد حتى وصل إلى البنكَال ، وصار حاكماً لها(2) ، بينما كان شهاب الدين يأتي أحياناً ليقود جيشه في الهند إلى فتوحات وانتصارات يوسع بها رقعة المملكة ، ويوطد ملكه ويغنم الغنائم الكثيرة ، ويرجع إلى غزنه .

ففي سنة 589 هـ 1193 م توجه بجيشه إلى « قنوج » واستولى عليها وغنم منها الغنائم الكثيرة ، ثم علم أن ملك « بنارس » يستعد لحرب المسلمين ، وكان واسع الملك قوياً معتداً بقوته ، معه سبعمائة فيل وعدة

---

(1) بنيت دلهي في عهد أحد الملوك الهنود واسمه « وادبته » الراجبوتي سنة 307 هـ 918 م وسميت دلهي لأن أرضها كانت لينة غير متماسكة لأن « دهول » في اللغة الهندية معناه التراب الغير المتماسك . وقد جاء بعد هذا الملك عدة ملوك تداولوا عليها حتى سقطت في يد قطب الدين أيبك وصارت عاصمة الدولة الاسلامية سنة 589 هـ 1193 م . . اهـ فرشته جا باختصار . والنطق القديم لها هو «دهلي» . ولكن الانجليز حرفوه الى « دلهي » فصارت تنطق بهذا أيضاً ونحن لم نلتزم واحدا منهما فتارة وتارة . . ويلاحظ أن مكان المدينة تغير على مر الزمن فقد قامت أولا حول المكان الذي يشغله « منار قطب » الآن قريباً من المطار ثم أخلت تزحف نحو الشمال حتى صارت على شاطىء نهر « جنا » وأتقر مكانها الأصلي . .

(2) المسألة الهندية ص 110)

آلاف من المقاتلين ، ولما التقى الجيشان اقتتلا قتالا عنيفاً كان النصر في آخره للمسلمين ، وكثر القتل في الهنود حتى امتلأت الأرض بهم وجافت ، وكان المسلمون لا يأخذون إلا الصبيان والجواري ، وأما الرجال فيقتلون ، وقتل ملك بنارس ولم يعرفه أحد إلا من شريط ذهبي في أسنانه ، ودخل شهاب الدين البلاد ، وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل(1) ، وعاد إلى « غزنة » ومعه الفيلة التي غنمها ، وكان من جملتها فيل أبيض امتنع عن خدمة شهاب الدين دون بقية الفيلة(2) » .

وبذلك دخلت هذه البلاد في حكم المسلمين ، وتم ذلك في سنة 590 هـ ـ 1194 م ، وقد ظل شهاب الدين وقواده يغزون ويواصلون فتح البلاد وإخضاعها ، فتم لهم إخضاع « تهنكرا ، وكواليار ، ونهروالا » .

ولما مات أخوه غياث الدين في سنة 599 هـ ـ 1203 م أصبح شهاب الدين ملكاً بعده على المملكة الغورية ، كما أصبح سيداً على الهند الشمالية كلها تقريباً من السند إلى البنگال الشرقية . .

وقد وقعت له بعض المتاعب بسبب قتاله مع خوارزم شاه ، وانهزامه أمامه وأمام خلفائه ، حتى أشيع أن شهاب الدين قد قتل في الحرب ، فشقت كثير من بلاده عصا الطاعة عليه ، مثل مولتان ولاهور وغيرها ، فسار إليها شهاب الدين سنة 601 هـ ـ 1205 م ، وقضى عليها وعلى

---

(1) يقول جوستاف لوبون في حضارة الهند ص 220 « إنه حمل غنائم على أربعة آلاف جمل ، كما هدم ألف معبد في بنارس ، وربما تكون في هذه الأرقام مبالغة . .

(2) ابن الأثير ص 41 جـ 12

فتن غيرها بمساعدة قطب الدين أيبك نائبه في الهند وعاد إلى غزنة . .

لكنه في طريق عودته داهمه رجال مجهولون وقتلوه غيلة وهو في خيمته . يقول ابن الأثير قتله جماعة من الكوكرية الكفار ، حيث اغتنموا فرصة وجوده وحده وانشغال الحراس عنه ، فدخلوا عليه وطعنوه اثنتين وعشرين طعنة ، ودخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد . . وقيل قتله جماعة من الاسماعيلية ، وكانت له قوة تحارب بعض قلاعهم في خراسان ، وقد حمله أصحابه وأخفوا خبر موته ، وساروا به وبغنائمه وخزائنه حتى وصلوا إلى غزنه ، ودفنوه بها في شعبان سنة 602 هـ 1206 م .

وشهاب الدين الغورى هو بطل حديثنا عن الهند ، فأن عمه علاء الدين أو أخاه غياث الدين لم يكن لهما في مجرى الحوادث بالهند ما كان له ، ولذا نقصر حديثنا في هذه الدولة عليه ، لا سيما وأن الهند بعد وفاته لم تعد تابعة « لغزنه » حقيقة ، بل استقل بالعمل والحكم فيها مملوكه ونائبه قطب الدين ، الذي أقام بها أسرة مالكة أعقبتها لفترة طويلة أسر كثيرة مالكة ، لم تكن لها صلة بالنسبة للغورى ، بل كانت كلها من المماليك كما سنعرف فيما بعد . .

شهاب الدين في نظر التاريخ :

إن شهاب الدين بحروبه وانتصاراته في الهند ليشبه إلى حد كبير - كما قلت من قبل - سلفه الأسبق محمود الغزنوي ، فكلاهما كان له قدم راسخة وجهاد مشكور في فتح الهند ، وتحطيم أصنامها ، والعمل على رفع راية الإسلام بها . .

« وقد كان شهاب الدين شجاعاً مقداماً كثير الغزو ، عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم ، حاكماً بينهم بما يوجبه الشرع المطهر ، وكان العلماء يحضرون عنده فيتكلمون في المسائل الفقهية وغيرها ، وكان فخر الدين الرازي صاحب التفسير الكبير يعظ في داره ، فحضر يوماً ووعظ وقال في آخر كلامه : يا سلطان ، لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازي ، وأن مردنا إلى الله . . فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه »(1) .

وقال المؤرخ الفرنسي « رينيه غورسه » : «إن محمود(2) الغوري أسس ملكا عظيماً ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول الاسلامية التي جاءت بعده من ترك وأفغان وطغلوقيين وسادات وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة ، وحق الإسلام في السلطنة العامة على الهند ، مما بقي إلى زمن استيلاء البريطانيين » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ معين الدين حسن بن الحسن السجزي الاجميري المشهور باسم معين الدين الجشتي منبع الأولياء

(1) ابن الأثير جـ2 ص84 (2) نقلا عن حاضر العالم الاسلامي ص 291 جـ4

(2) لعله أراد محمد الغوري فأن كتب التاريخ التي اطلعت عليها ذكرت أن اسمه هو (أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري) لا محمود . حتى كتاب حاضر العالم الاسلامي ذكر أن اسمه هو (محمد الغوري) في عدة مواضيع ولكنه ترك كلام « غروسه » بدون تعليق أما الذي يسمى محمود فهو الذي خلف محمد الغوري وهو محمود بن غياث الدين الغوري وقد رفض أن ينتقل من بلاده إلى « غزنة » ليتولى منها حكم ملك آبائه في أفغانستان والهند ، كما أنعم على قطب الدين أيبك بالخلع والهدايا وبوثيقة إعتاقه وتفويضه التام في حكم الهند . كما جاء في تاريخ فرشته جـ1 ص235 .

والكرامات في الهند قدم إليها في عهد السلطان محمود الغوري ، وتنقل في مدنها حتى استقر أخيراً في « أجمير » ، ودفن بها سنة 627 هـ ـ 1229 م ، ويعتبر قبره أكبر مزار في الهند ، ويتناقل الناس أنه أسلم على يديه كثير من الهندوس يبلغون تسعة ملايين ، لما رأوه من كراماته وأحواله العجيبة ، وإليه وإلى تلامذته الصوفيين يرجع الفضل في إسلام الكثير من الهندوس . .

دولة المماليك

اقتصر حكم الدولة الغورية للهند على عهد غياث الدين وأخيه شهاب الدين الذي تولى فتح الهند وتدويخ ملوكها ، وبعد قتله شغل الغوريون بالخلافات والحروب بينهم بشأن الملك ، بينما كان « قطب الدين أيبك » قائماً في الهند بشأن الحكم فيها ، مستقلا بأمورها بعد أن وافق الملك الغوري الذي خلف شهاب الدين ، وهو « محمود بن غياث الدين » على اضطلاعه بالحكم فيها ، وبذلك أتيح لقطب الدين أن ينشىء دولة مستقلة في الهند يتولاها المماليك من أسرته ، أو ممن يقوى منهم على انتزاع الحكم له بأى أسلوب يوصله إليه ، كما كان الحال مع المماليك في مصر . .

جاء في كتاب « حاضر العالم الإسلامي »[1] نقلا عن « رينيه غروسه » صاحب تاريخ آسيا .

« كان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك ،وكان شأن هؤلاء المماليك في الهند شأنهم في مصر . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة ، اندمجوا في الجيش فامتازوا بالبسالة والأقدام

(1) ص292 جـ4

وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة إلى درجة إلى أن ينال الامارة ، وأحياناً السلطنة كما كان يقع في مصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون إبقاء المآثر ، والطمع في تخليد الذكر ، فكما أن سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة » .

قطب الدين أيبك

المشهور باسم « لك بخش »

كان أحد مماليك شهاب الدين الغوري ، جلب من تركستان في صغر سنه ، فاشتراه أحد القضاة في نيسابور ، وعني بتربيته وتعليمه حتى تبحر في العلوم ، ولما توفي القاضي اشتراه أحد التجار ، ثم دخل بعد ذلك في ملك شهاب الدين الغوري ، وقد جمع من الصفات الطيبة ما حببه إلى قلب سيده ، فقربه إليه ، كما أبدى من ضروب الشجاعة والاقدام ما جعله أميراً لجيش شهاب الدين ونائباً له في الهند . .

ولقد كان لقطب الدين فضل كبير ويد طولى في كل ما أحرزه شهاب الدين وجيشه في الهند من انتصارات وفتوحات كما سبق أن عرفنا ذلك ، وكان يعتبر الحاكم الفعلي ، والقابض على شؤون العمل والتصرف في الهند ، لذلك لم يتبدل الأمر بها عندما قتل شهاب الدين ، وشغل الغوريون بعده بالنزاع على الحكم ، فقد كان بالهند حاكمها الفعلي ، وقائد جيوشها ، فظل قابضاً على ناصية الحكم ، ولم يجد خلف شهاب الدين بدأ من إقراره على الهند ، بل إقطاعها له ، فأعتقه

وأرسل له المظلة الملوكية ، وغيرها من إمارات السلطنة جرياً على عادتهم ، فجلس على عرشها يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذي القعدة سنة 602 هـ ـ1206 م .

ولم تمتد أيامه في السلطنة كثيراً ، فقد توفي بعد ذلك بمدة قصيرة سنة606 هــ1210 م ، ودفن بلاهور على أثر حادث أصابه وهو يلعب لعبته الرياضية المحببة إليه « البولو » . .

وكان عادلا كريماً باسلا مقداما يضرب به المثل في الشجاعة والكرم ، وكان يعطي الناس أكثر مما يستحقون ودون حساب ، حتى اشتهر باسم « لك بخش » أي معطي المائة ألف . .

وقد انصرف قطب الدين إلى القيام ببعض الإصلاحات ، وبناء بعض المساجد مثل المسجد الكبير الذي شيده في دلهي والذي اشتهرت منارته التي لا تزال معروفة للآن باسم « قطب مينار » أي « منارة قطب » ، كما بنى مسجداً معروفاً باسمه في أجمير(1) وجاء في كتاب « بين الآثار الاسلامية(2) » « إن قطب الدين أسس مسجد قوة الإسلام تخليدا لذكرى استيلائه على دلهي . . وهو من أعظم المساجد في العالم . . ثم المنار الذي يحمل اسم « منار قطب » ويعد أفخم بناء من نوعه وقد أتمه خلفه . . .

---

(1) من حاضر العالم الاسلامي ص292 (2) ص52 وهو للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية المساعد بجامعة الاسكندرية . . وقد لاحظت أن المؤلف اختلط عليه الأمر فذكر أن قطب الدين تسلم قيادة فرقة محمود الغزنوي بعد وفاته والصحيح أنه تسلم الأمر في الهند بعد الغوري لا الغزنوي . .

وقد زرت بقايا هذا المسجد في 27 يناير 1958 وهو يبعد عن القلعة الحمراء في دلهي مسافة 12 ميلا ، ولم تصل إليه مباني نيو دلهي للآن على رغم أمتدادها ، وكانت دلهي في الوقت الذي استولى فيه قطب الدين عليها في هذا المكان حول مسجده ، ولكنها تحولت بعد ذلك على شاطىء نهر « جمنا » ، كما نراها الآن ، ووجدت على باب المسجد لوحة كتب عليها « مسجد قوة الاسلام ، أصل مسجد السلطان قطب الدين أيبك بناه عام 1191 م وأكمله ألتمش » سنة 1230 م ووسعه علاء الدين خلجي سنة 1295 م » .

والمسجد قد تهدم ، ولم يبق منه إلا بعض الجدران بدون سقوف ، ولا تزال بالأرضية حجارتها الكبيرة . ورأيت على واجهة الباب البحري كتابة باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر عن أمر إنشائه وسنته هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعو إلى دار السلام . . »

ثم كتب تحت ذلك « جرت هذه العمارة بأمر . . الخ » ولم أستطع قراءة الباقي ، وبجانب المسجد كانت مدرسة كبيرة تهدمت أيضاً . ويظهر من آثارها الباقية ضخامتها واتساعها . .

ورأيت في وسط المسجد عموداً حديدياً قديماً ، أمر بصنعه الملك « دهاوا » الهندي ، ويرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادي ، وقد رأيت المئات من الزوار يتنقلون بين هذه الآثار ، وقد اصطف الكثير منهم في شكل طابور للصعود فوق المنارة ، بينما صعد بعضهم على طوابقها المتعددة حتى أعلاها ، وأخذوا يلوحون بأيديهم للذين لا يزالون على الأرض . والمنارة كانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن

خمس فقط ، طولها 238 قدماً ، ومحورها من أسفل 47 قدماً ، ومن أعلى 9 أقدام فقط ، ويقول المؤرخون إن الطابق الأول أسسه آخر حاكم لدلهى وهو « راجا برتوى » الذي انتصر عليه قطب الدين أيبك ، فنقش عليه بعض آيات القرآن واشتهر باسمه سنة 1200 م ، ثم بنى ألتمش الدورين الثاني والثالث سنة 1210 م .

ثم زاد فيروز تغلق شاه الرابع والخامس سنة 1351 م وهي على شكل مخروطي ، وارتفاع الأول 95 قدماً والثاني 50 ، 8,5 بوصة ، والثالث 40 قدماً ، 3,5 بوصة ، والرابع 25 قدماً ، 4 بوصات ، والخامس 22 قدماً ، 4 بوصات ، وقد أجرى فيروز تغلق سنة 1351 م وبهلول لودى سنة 1388 م بعض ترميات في المنارة . وفي كل طابق نقش حول المنارة آيات من القرآن الكريم وبعض مكاتيب السلطان .

وهي من الحجر الأحمر ، ولكنها من فوق يختلط المرمر مع الحجر الأحمر والطبقة السادسة كانت 12 قدماً ، 10 بوصات ، ولكنها سقطت بسبب زلزلة سنة 1803 م ثم أعيد بناؤها سنة 1829 م ولكن حاكم الهند العام أمر بإزالتها نهائياً خوفاً من خطر وقوعها . أما السابعة فلم يعرف لها تاريخ[1] .

---

(1) من دليل آثار دهلي .

شمس الدين ألتمش

بعد وفاة قطب الـدين اجتمـع كبـار رجـال الدولـة ، واختـاروا « شمس الدين ألتمش » سلطاناً خلفاً لقطب الدين ، وكان ذلك سنة 607 هـ ، 1211 م ، وقد كان مملوكا لقطب الدين ، جلب في صغر سنه إلى « بخارى » ، وبقي يتنقل من سيد إلى سيد ، حتى اشتـراه قطـب الدين ورباه في مهد السلطنة ، وأخذ يتدرج في المناصب ، حتى صـار أميراً على الجند وزوجه السلطان بابنته . ويقول ابن بطوطة[1] « لما مات قطب الدين استبد بالملك ، وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يتقدمهم قاضي القضاة إذ ذاك « وجيه الدين الكاساني » ، فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضي إلى جانبه كالعادة ، وفهم السلطان عنهـم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه ، فقرأه القاضي والفقهاء وبايعوه جميعاً » .

وقد شغل عقب توليتـه بالحـروب فسـار إلى أوريسـه وبنـكَال ، وكَواليار وغيرها من البلاد التي ثارت على حكم دلهي بعد موت قطب الدين وأخضعها تماماً . .

وفي عهـده سنـة 617 هـ ــ 1121 م غزا جنـكيز خان البنجـاب الغربية ، ولكنه رجع عنها وإن كان المغول قد أصبحوا أداة تهديد خطير للدولة يهاجمونها بين حين وآخر ، وهـكذا شغـل « ألتمش » بالحـروب حتى استتب له الملك . .

---

(1) ص31 مهذب الرحلة جـ2

ثم توفي سنة 633 هـ 1235 م[1] بعد أن أوصى بالملك لابنته « رضية » فكان ذلك سبباً لقيام خلافات بينها وبين إخوتها ، وبينها وبين كبار رجال الدولة انتهت بقتلها ، وكان « التمش » ملكا فاضلا عادلا يقول ابن بطوطة عنه[2] « ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغا ، وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه ، ثم إنه فكر في ذلك فقال : إن بعض الناس تجري عليهم المظالم ليلا ، وأريد تعجيل إنصافهم ، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك ، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير ، فكان المظلوم يأتي ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه » وكان يتردد على العلماء والصوفية ولا سيما الشيخ قطب الدين[3] بختيار الكعكي ويلتمس منه الدعاء ويخدمه ويجلس عند رجليه يدلكهما .

---

(1) ودفن بمسجد قوة الإسلام الذي أتمه بعد وفاة قطب الدين ، وقد زرت قبره بين الآثار المتهدمة من مسجد قوة الإسلام ، وهو وسط حجرة لا تزال متماسكة ، بناها لنفسه وكتب على جوانب القبر من سورة الواقعة بالخط الثلث المنحوت في الحجر بحروف بارزة « والسابقون السابقون أولئك المقربون . الآيات » وفي الحائط الغربي ثلاثة محاريب أوسطها أوسعها وكتب في أعلى المحراب بحروف المرمر « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » وفوق محراب آخر كتب « كل من عليها فان » وعلى الجدران بعض آيات وأذكار مكتوبة بالخط الكوفي أيضاً . .

(2) ص 31 جـ 2 من مهذب الرحلة . .

(3) هو الامام العارف بالله قطب الدين بن كمال الدين الكعكي الاوشي من كبار الأولياء ، أصله من بلدة « أوش » من بلاد ما وراء النهر ، رحل إلى بغداد وسعد بملازمة ولي الله الشيخ معين =

ويقـول عنـه رينيه غورسـه (1) : « كان من عظـام السلاطـين المدبرين ، وطد أركان السلطنة ، وأكمل فتح الهند الشمالية ، وأعلى من هذا كله أنه حفظ الهند من جائحة المغول ، لأنه في زمـان ألتمش هذا زحف الجنكيزيون على إيران وأزالوا سلطنـة خوارزم العظيمـة ، وفـر الأمير جلال الدين مانكبر دى الخوارزمي شريداً ملتجئاً الى ألتمش فكان من حسن تدبير هذا أنه رد غارة المغول على البنجاب ، لكنه لم يتهور في إصراخ جلال الدين إلى محاولة إعادة ملكه له ، وشن الغارة على المغول مما لم تكن تؤمن عاقبته » .

بعد ألتمش

ذكرنا أن ألتمش أوصى بالملك لابنته « رضية » تاركاً إخوتها(2) ، وقد تولت الحكم سنة 633 هـ 1235 م ومكثت أربع سنـين ، وكانـت

= الدين السجزي الاجميرى وفاز منه بالخلافة ، ثم رحل الى الهند ودخل دلهى فأكرمه السلطان « التمش » وكان يتردد عليه الكثير من الناس الذين يتزودون من فيضه وهديه . وقد عاش عزبا وكان يستمع للغناء فيغيب عن رشده ويغشى عليه حتى مات وهو كذلك بعد ثلاثة أيام لم يصح فيها من استغراقه وكان ذلك سنة 633 هـ وعمره حوالى الخمسين سنة . . ومدفنه قريب من « منار قطب » نزهة ص196 جـ1 .

(1) عن حاضر العالم الاسلامي ص292 جـ4 .

(2) هذا ما يذكره كتاب المسألة الهندية للمرحوم الاستاذ عبد الله حسين ص 112 . أما ابن بطوطة فيذكر أنه بعد موت التمش بويع ابنه ركن الدين فعمد الى قتل أخيه مما جعل أخته تثير عليه الشعب ليقتله وتجلس هي على العرش ولكنها بعد أربع سنين أبعدت عنه وجلس مكانها أخوها الأصغر ناصر الدين . وغيرهما يقول انه جلس بعدها أخوها معز الدين بهرام شاه ثم بعده علاء الدين مسعود بن ركن الدين ثم جلس ناصر الدين بن محمود ألتمش وهذه تفصيلات لا يهمنا أصحابها كثيراً فانهم لم يتركوا أثراً يذكر ولذا نقف عند أحدهم أو آخرهم ناصر الدين . .

تركب كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبش ، فخلعت عن العرش وتولى مكانها أخوها الأصغر محمود ناصر الدين ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، فاختار « بالبان » أحد مماليك أبيه الشجعان وزيراً له ، فأبدى من الكفاية والمقدرة وحسن تدبير الأمور ما جعله الحاكم الفعلي للبلاد ، وقد حاولت أخته « رضية » أن تنزع الملك منه وتسترده لنفسها ، ولكنها هزمت وقتلت بعد أن فرت هائمة على وجهها . قتلها أحد الزراع طمعاً في مالها وملابسها ــ بعد أن أمدها بكسرات من الخبز ــ لما عرف من ملابسها الداخلية الثمينة أنها امرأة . . وبذلك خلا الجو لناصر الدين بن ألتمش ، ووزيره « بلبن » الذي استطاع أن يخمد الثورات التي قامت في عهده ، كما تمكن من صد غارات المغول التي أخذت تكثر على الهند . .

وقد جاء في نزهة الخواطر(1) عن ناصر الدين أنه كان « أنموذج الخلفاء الراشدين ، نادى برفع المظالم ، وأظهر العدل والكرم ، وكان ورعاً متعبداً ذا حلم وأناة ورأفة ، راغباً في الخيرات مع الزهد والتقشف ، وكانت له عناية عظيمة بالأدب ، ومعرفة حسنة بالكتابة ، ومن أخباره أنه كان يكتب القرآن الكريم : نسختين منه كل سنة فيبيعها ويقتات بثمنها(2) وأن زوجته سألته أن يعطيها جارية تكفي مؤنتها في طبخ الطعام وغيره من أمور البيت فأبى » .

---

(1) جـ1 ص228

(2) يقول ابن بطوطة « وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة » .

وتولى ناصر الدين سنة 664 هـ ــ 1266 م . . وبوفاته انتقل الملك من أسرة شمس الدين ألتمش إلى أسرة أخرى من المماليك ، هي أسرة « غياث الدين بلبن » . .

« غياث الدين بلبن[1] »

كان غياث الدين من الأتراك أخذه المغول من تركستان وباعوه ، وانتقل من يد إلى يد حتى وصل إلى يد الشيخ جمال الدين البصري في بغداد ، فجاء به إلى الهند فاشتراه منه السلطان ألتمش . يقول « فرشته » إن جمال الدين عرف أنه من أسرة ألتمش حاكم الهند ، فجاء به مع عبيد آخرين وباعه له ، وتوسم فيه « ألتمش » نجابة الأصل فقربه إليه ، ثم ظهر له أقرباء في حاشية السلطان ، فأخذ يترقى ويتدرج في المناصب لذلك ولما أبداه من الكفاءة والمقدرة ، ثم زوجه السلطان بابنته ، وظل يترقى حتى كان وزيراً لناصر الدين محمود بن ألتمش ، وكان له الفضل الكبير في إدارة الحكم ، وقمع الغارات والثورات ـ كما سبق ـ وظل وزيراً نحو عشرين سنة ، ولما مات محمود قام بالملك بعده سنة 664 هـ 1266 م ، ولم يكن يهتم بثورات الهندوس كما كان يهتم بغزوات المغول . وفي أول أمره وجد الخطر عليه من « جماعة الأربعين » المماليك الذين كانوا يتلاعبون بالملك ، فقضى على نفوذهم ، ونظم الدفاع عن الحدود ضد غارات المغول ، كما أخمد ثورة البنكال وعين أحد أبنائه حاكماً عليه « وهو بغراخان » .

---

(1) جاء ضبطه في رحلة ابن بطوطة بفتح اللام « بلبن » .

على أن ولي عهده « محمد خان » قتل سنة 684 هـ 1285 م أثناء دفاعه عن المولتان ضد غارات المغول ، فحزن عليه حزناً شديداً ، حتى توفي بسبب حزنه عليه . .

وإن التاريخ ليذكر له بالخير والتقدير موقفه الكريم إزاء الامراء وابناء الملوك الذين فروا من وجه المغول ، والتجأوا إليه من بلاد تركستان وما وراء النهر وخراسان والعراق وآذربيجان وفارس والشام وغيرها ، فوجدوا عنده الأمن والإكرام والإعزاز ، وكان فيهم بعض أبناء الخلفاء العباسيين الذين كان ينزلهم منزلة خاصة ويجلسهم معه في مجلسه الخاص ، وقد بنى لهؤلاء الذين التجأوا إليه عدة أماكن ، وجهزها تجهيزاً طيباً يتناسب مع مقامهم ،سماها : محلة عباسي ، محلة سنجري ، محلة خوارزم شاهي ، محلة ديلمي ، محلة علوي ، محلة أتابكي ، محلة غوري ، محلة جنكيزي ، محلة رومي ، محلة سنقري ، محلة يمني محلة موصلي ، محلة سمرقندي ، محلة كاشغري محلة خطائي ، وكان « بلبن » يجد في إكرامه لضيوفه هؤلاء لذة ونعمة يشكر الله عليها »[1] .

ويقول ابن بطوطة « إنه بنى دارا سماها دار الأمن ، فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفاً أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضى من يطلبه . وقد دفن بتلك الدار » .

« وقد كان بلبن من خيرة السلاطين سيرة في رعيته ، بذل جهده في

---

(1) تاريخ فرشته جـ1 ملخصاً

تعمير البلاد وسد الثغور . وكان عادلا فاضلا حليماً محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، يتردد في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة إلى بيوت كبار المشايخ فيحظى ويفرح بصحبتهم ، ويتردد إلى مقابر الأولياء فيزورها وإلى مجالس التذكير ، ويقعد بها كآحاد الناس ، ويداوم على الصلاة بالجماعة ، والصيام فرضا أو نفلا وعلى صلاة الضحى والتهجد ، وكان لا يداهن في العدل والقضاء ولا يسامح أحداً ولو كان من ذوي قرابته (1) .

ومن أجل ذلك حكم الدولة حكماً مقروناً بالحزم مستخدماً العنف مع العصاة الثائرين ، والمجرمين المفسدين ، والحكام الملوثين ، والقواد الخاسرين ، فكان إدارياً قديراً وحازماً عادلا ، كتب له النجاح والتوفيق إلى آخر حياته » .

وقد توفي آخر سنة 585 هـ 1287 م بعد حياة ، حافلة وبعد أن أوصى بولاية العهد إلى حفيده « كي خسرو » ابن ابنه محمد الذي قتل في حروبه مع المغول ، وكان يحبه كثيراً كما حزن عليه كثيراً ، ولعل هذا بالإضافة إلى عدم ميله لابنه « بغراخان » هو الذي جعله يعهد بالملك إلى حفيده مع أنه كان شاباً صغيراً ليست له تجربة .

ومع ذلك فإن « كي خسرو » لم يتولى العرش بعد وفاة جده ، فإن نائب السلطان كان يكره والده فعمل على ألا يمكن ابنه من العرش ، فدبر حيلة للتخلص منه وتولية « كيقباد » بن بغراخان بن بلبن ، وقد تم له ذلك فعلا وخرج « كي خسرو » من دلهي شبه فار ، وبقي كيقباد متصرفاً في شؤون الملك في دلهي ، وكان أبوه لا يزال حاكماً في البنكال ،

---

(1) نزهة الخواطر ص192 جـ1

ومع ذلك لم يكن له من الملك إلا اسمه إذ كان منصرفا إلى اللهو والفساد والشراب تاركاً الأمور لنائبه . وقد كادت الحرب تقع بينه وبين أبيه حين تقابل جيشاهما ، ولكنهما تلاقيا وتصافيا وأقر الوالد ابنه على عرشه ، وقدم له نصائحه التي لم يستمع إليها بل ظل غارقاً في لهوه وشرابه حتى مرض بسبب ذلك وأصابه الشلل ، فأفاق حينئذ من سكرته ، ولكن بعد فوات الأوان .

وفي مرضه قام خلاف بين الأتراك والأفغان ، وكل له وجهة ومطمع ، فالأتراك يريدون أن يستمر الملك في أسرة بلبن ، والأفغان يريدون الاستيلاء على الملك منهم ، وجعل « جلال الدين فيروز الخلجي » سلطاناً ، وكان كيقباد قد عينه نائباً عنه في آخر حياته ، بعد أن سمى نائبه الأول حين تنبه لسوء عمله واستقلاله بتصرفه ، وقد شاء الله للأفغان أن ينتصروا ، فتولى جلال الدين الملك ، وقبض على ناصية الأمر ، ودخل قصر السلطان بعد حصاره ، وقتل « كيقباد » . . ويقول ابن بطوطه : « حدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين « كيقباد » أصابه الجوع في تلك الأيام ، فلم يجد ما يأكله ، فبعث له أحد الجيران الشرفاء ما أقام أوده ، ثم دخل عليه القصر فقتل » .

وكان ذلك سنة 689 هـ 1290 م ، وبذلك انتقل الملك إلى أسرة أفغانية ، هي أسرة الخلجي[1] ، وهي الأسرة التي كان منها « اختيار الدين الخلجي » الذي قام بالفتوحات في بهار والبنكال أيام شهاب الدين الغوري ، وكان حاكماً للبنكال في ذلك الوقت .

---

(1) نسبة إلى خلج موضوع قرب غزنة .

السّلاطين الخلجية

جلال الدين فيروز شاه

689 هـ : 1290 م ـ 695 هـ : 1296 م

استطاع جلال الدين الخلجي أن يستخلص الملك لنفسه من بين أنياب الأتراك المؤيدين لأسرة « غياث الدين بلبن » ، والذين عملوا على أن يولوا الطفل الصغير ابن « كيقباد » الملك ، حتى لا يخرج الحكم من أسرة بلبن ، برغم هذا استخلص جلال الدين الملك لنفسه ، وكانت سنه حينذاك سبعين سنة ، وقد كان من المقربين لغياث الدين بلبن وحفيده كيقباد الذي اختاره في أواخر أيامه نائباً عنه ، ثم صار ملكاً سنة 689 هـ ـ 1290 م .

وقد اشتهر جلال الدين فيروز شاه بالحلم الذي لم يعرف عن أحد من الملوك ، وكانت سنه لها دخل كبير في سلوكه الحليم هذا ، حتى أنه جيء له ببعض الثائرين عليه مكبلين بالأغلال بعد انهزامهم ، فلم يسعه إلا أن يأمر بفك قيودهم وإكرامهم ، وأجلسهم بمجلسه ، وأخذ يهون عليهم ، ويقول لهم : كنتم زملائي ، وقد جعلني الله ملكاً ، فأنا أشكر الله على نعمته ، ولا أنسى الماضي ، وانتم بوفائكم لأميركم من آل بلبن قد قمتم بالواجب عليكم ، ولا يمكن أن أحاسبكم على هذا الوفاء ، فإني وفي كذلك لنعمة غياث الدين بلبن ، وكان من وفائه لبلبن أنه يذهب لقصره ، وفيه آل بلبن ، فيترجل عن فرسه حين يقرب منه تعظيماً

لذكرى هذا القصر وساكنيه ، وكان يكرمهم ، ويخصهم برعايته ، وإن كان قد اضطر إلى قتل الأمير الصغير الذي عين ملكاً في عهد أبيه ، لخشيته على نفسه منه ، حيث كان الأتراك يتجمعون حوله .

وقد حدثت في أيامه بعض الثورات ، لكنه قمعها ، كما رد بعض غارات المغول ، وكان له ابن أخ يسمى « علاء الدين » ، وكان طموحاً وثابا ، وكانت هناك شبه جفوة بينه وبين عمه برغم أنه تزوج ابنته ، وقد ولاه إحدى الولايات « كره ومانكبور » ، وقد ذهب علاء الدين مرة إلى الجنوب بحجة أنه خارج للصيد ، حتى وصل إلى بلاد « ديوكره »[1] في الدكن ، وهناك باغت بمن معه من الجيش هذه القلعة ، فاضطر ملكها إلى الصلح معه على مال كثير يؤديه له ، فرجع به وبالهدايا التي أهديت إليه ، ولم يذهب إلى دلهى ، بل ذهب إلى « كره » ولم يبعث إلى عمه شيئاً ، فأغرى الناس عمه به ، فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه ، فقال السلطان : أنا أذهب إليه فإنه بمقام ولدي ، وذهب إليه في عساكره ، وركب النهر للوصول إلى ابن أخيه ، حيث تواعدا على اللقاء في النهر ، على أمل أن ينتهي اللقاء نهاية سعيدة مثل ما حدث بين السلطان « كيقباد » وأبيه « بغراخان » ، ولكن علاء الدين كان يضمر الغدر لعمه ، فدبر حيلة لقتله حين اللقاء به ، والتعانق معه ، وهكذا تم له قتل عمه الذي ساقه حلمه وظنه الحسن إلى حتفه . وكان ذلك آخر سنة 695 هـ : 1296 م .

---

(1) يقول المؤرخ فرشته إن علاء الدين وصل بعساكره إلى بلاد لم يصل إليها مسلم من قبل غازياً .

علاء الدين الخلجي
المشهور باسم « اسكندر الثاني »
696 هـ : 1296 م – 716 هـ : 1317 م

بعد أن غدر علاء الدين بعمه وقتله على هذه الصورة ، زحف بجيشه إلى دلهي ، وكانت زوجة السلطان المقتول قد عملت على المناداة بابنه سلطاناً خلفاً له ، واستعد لملاقاة علاء الدين ، ولكنه لم يستطع الثبات أمامه ، فدخل علاء الدين دلهي واستولى على العرش سنة 696 هـ 1696 م ، ونكل بأسرة عمه ، وسمل أعين ولديه[1] .

ولما استقرت له الأمور بدأ يتجه لشؤون الدولة الحربية والاجتماعية ، والحق أنه كان سلطاناً قوياً في سطوته ، منظماً لأمور دولته ، اتسعت رقعة المملكة في أيامه اتساعاً لم تشهده قبله . .

شهدت الهند في أيامه سنة 704 هـ 1304 م غارة كاسحة للمغول تحت قيادة « علي بيك جنكيزي وخواجه تريال » ، حتى وصلوا إلى أبواب دلهي وحاصروها ، فجهز لهم علاء الدين جيشاً عدته ثلاثمائة ألف رجل . وألفان وسبعمائة من الفيلة بقيادة ملك نايب ، فقاتلهم قتالا شديداً حتى هزمهم وداست الفيلة رؤساءهم في دلهي ، إلا أن كثيراً

---

(1) جاء في مذكرة الأستاذ حبيب ص52 ما يفيد أن علاء الدين لم يكن ابن اخ فيروز شاه ، وهذا خلاف ما ذكره المؤرخون ، فقد ذكروا كما ذكرت أن فيروزشاه كان عم علاء الدين . قال ابن بطوطة ص39 جـ2 (وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته الخ) .

منهم تفرقوا في البلاد ، واستوطنوا فيها ، وصاروا بعد قليل عنصر قلق وخطر على علاء الدين ، فاضطر لتعقبهم ، والقضاء على عشرات الآلاف منهم ، والاستراحة من شرهم ، وكان ذلك سنة 705 هـ - 1305 م .

وفي سنة 706 هـ-1306 م أرسل جيشه إلى الدكن بقيادة « خواجه حاجي وملك نايب » ، فتم لهم الانتصار على حاكمها ، وضموا بلاده إلى مملكة علاء الدين ، ثم قصد جيشه قلعة « ديوكره » ، ويسميها ابن بطوطه « الدويقير » ، وتأتي في بعض الكتب باسم « ديوكير » ، فأعلن صاحبها الاستسلام ، وقدم لعلاء الدين التحف والهدايا حين قدم عليه في دلهي مذعناً خاضعاً ، فأكرمه وجعله والياً على بلاده وما حولها من قبل سلطان دلهي . .

وقبل ذلك استولى على الكَجرات من الراجبوت ، ولكي نصور الحروب التي قام بها ، والفتوحات التي تمت له في اختصار ننقل لك ما جاء في حاضر العالم الإسلامي عنه(1) :

« وسنة 1290 م انتقلت سلطة الهند من أيدي المماليك إلى « آل قليجي » الأفغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان « علاء الدين » ، الذي كسب للمسلمين فتوحات جديدة ، فأخضع بهوپال ، واجتاح بلاد المهرات - في مقاطعة بلاد بومباى الحاضرة - وضرب على راجا المهرات

(1) ص293 جـ4 . وكان المؤرخ ينسب هذه الأسرة « آل قليجي » إلى قالج خان ، وكان رأس هذه الأسرة . كما تنسب أحياناً إلى « خلج » وطنهم الأصلي فيقال خلجي .

الجزية ، وفتح مدناً ، وقفل بغنائم كثيرة ، وعام 1297 م زحف 100 ألف مغولي مما وراء النهر ، يقودهم أمير من ذرية جنكيز خان قاصدين البنجاب ، فالتقى بهم علاء الدين ، وهزمهم شر هزيمة بقرب « لاهور » ، فعادوا سنة 1305 م ، وتقدموا نحو دلهي ، فكسرهم علاء الدين كسرة أشنع من الأولى ، وأسر منهم جانباً ، رماهم تحت أرجل الفيلة فداستهم ، ثم عاد علاء الدين إلى إتمام فتح الهند الوسطى فاستولى على مملكة كجرات . ثم غزا مملكة « جيتور » ، وبعد حرب ضروس التجأ ملكها إلى جبال « ارافالي » ، فلم يرجع علاء الدين عنه إلا بعد أن أقر له بالطاعة ، وفي سنة 1308 م سير علاء الدين أحد قواده « الملك كافور »[1] لغزو مملكة دكن ، وامتنع راجا مملكة مهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده ، ومملكة « تلينكانا » ، وفتح عنوة عاصمتها فارا نكال ، واستولى على خزائن ملكها ، وفي سنة 1310 م غزا مملكة « ميسور » واجتاح مدينة « هاليبيد » العظيمة . ثم في أثناء إيابه لدلهي قتل راجا المهرات الذي عاود العصيان ، وضم المهرات إلى سلطنة دلهي . وفتح الدكن لم يتيسر لا للاسكندر ، ولا لمحمود الغزنوي ، ولا لمحمد الغوري ، وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل إلى بلاد الدكن في غزواته » .

---

(1) كان يسمى « كافوراً » « وملك نايب » وكان هندوسياً فأسلم ، وهذا الأسم الأخير « ملك نايب » يظهر أنه أضيف إليه لما عينه الملك نائباً له فصار نائب الملك . ولكنهم يقدمون المضاف إليه فيقولون « ملك نايب » ولهذا كانت هذه التسمية « الملك كافور » غير صحيحة كما يظهر لي .

وهكذا كتب النصر لعلاء الدين في كل الحروب التي خاضها جيشه حتى لقب باسكندر الثاني ، وكان من أشهر قواده : كافور ، وظفر خان ، وألغ خان ، وألماس بيك ، وقد قال بعض المؤرخين : « إن عدة المعارك العلائية كانت أربعا وثمانين وفي كلها ظفر وغنم »[1] . ولكن كان كافور هو نائب السلطان وأشهر القواد وأقربهم إليه ، وقد سكر علاء الدين بنشوة الانتصار الذي كان ملازماً له ، ولم يكن على قدر من العلم ، فسولت له نفسه أن يخترع ديناً جديداً يضع فيه نفسه موضع التقديس ، غير أن صاحبه « علاء الملك » قاضي قضاة دلهي أقنعه بالعدول عن مثل هذه الأفكار[2] .

وإذا كنا للآن قد شغلنا مع علاء الدين بحروبه وانتصاراته ، فإن هناك جانباً هاماً من أعماله نحب أن نقف عنده ، وكان هذا الجانب خليطاً من الظلم والقسوة ، ومن رعايته لشؤون شعبه فيما يختص بأسعار حاجات المعيشة .

ذلك أن بعض أفراد أسرته حدثته نفسه بالقضاء عليه ، فكان رد علاء الدين عليه أن فتك به وبكل من حامت حوله شبهة في ذلك ، وأخذ يعامل الأمراء بالشدة ، وبث حولهم العيون ، حتى أصبحوا في فزع من أن يتكلموا بشيء ، كما قيد حريتهم ، وأمرهم ألا يتصاهروا

---

(1) نقلا عن نزهة الخواطر جـ2 ص152 .

(2) كما جاء في مذكرة الأستاذ حبيب وفي المسألة الهندية للأستاذ عبد الله حسين ، وقد لاحظت في المسألة الهندية أن المؤلف كثيراً ما يحرف الأسماء نظراً لنقله عن الانجليزية فيذكر مثلا اسم « خوارزم » هكذا « خوارا سام » ويذكر اسم قائد علاء الدين « خواجه حاجي » هكذا « خاجا هاجي » .

إلا بإذنه ، وصادر كثيراً من ثرواتهـم ؛ فقـد قيل له إن الحـرية التـي اعطيت لهم ، والمال الكثير الذي صار في أيديهم هو الذي دفعهـم إلى الثورة عليه ، فكان رده على ذلك أن صادر حرياتهم ، والمال الذي في أيديهم ، ومنع شرب الخمر والمخدرات ، وقد أصدر بعض القوانـين التي تحد من زيادة الثروة في أيدي الناس ، ومنهـا ـ كما جاء في نزهـة الخواطر : (1) أن يؤخذ نصف غلات الأرض لبيت المال بغير استثناء . (2) ألا يزيد أحد مهما كان على امتلاك أربع بقرات (ثيران) للمزرع ، وجاموستين وبقرتين واثنى عشر رأسا من المعز (3) وأن تؤخذ الضريبة على علف الدواب .

على أن عنايته بتسعير مواد المعيشة وغيرها يوحي إلينا بمقدار حرصه على راحة شعبه ، وتوفير حاجاته بثمن معتدل لا ظلم فيه على المنتج أو المستهلك .

يقول ابن بطوطة عنه : « كان من خيار السلاطين ، وأهل الهنـد يثنـون عليه كثـيراً ، وكان يتفقـد أمـور رعيتـه بنفسـه ، ويسـأل عن أسعارهـم ، ويحضر المحتسـب ـ وهـم يسمونـه الرئيس ـ في كل يوم للملك ، ويذكر أنه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك بسبب كثرة المغرم « الضريبة » على البقر فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار ، وأعطاهم الأموال وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها للنـاس . ومـا يرتفـع من ثمنهـا لبيت المال ، ويكون لكم أجـرة على بيعها ، ففعلوا ذلك ، وفعل مثل هذا في الأثواب التـي يؤتـى بهـا من « دولت أباد » ، وكان إذا غلا الزرع فتح المخازن ، وباع الزرع حتى

يرخص السعر ، ويذكر أنه ارتفع السعر ذات مرة ، فأمر ببيع الزرع بثمن عينه ، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعاً غير زرع المخزن (يريد مخزن الحكومة) ، وباع للناس منه ستة أشهر ، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا عن بيعه بها » .

وقد عني صاحب نزهة الخواطر(1) بتفضيل هذا الجانب من أعمال علاء الدين فقال :

إنه أسس قواعد السعر للأطعمة والأقمشة ، وكل ما يحتاج إليه الناس ، بين قواعد تسعير الأطعمة بتوليته محتسباً يشرف على سوق الأطعمة وأسعارها ، وتحصيل الضريبة على الزرع عيناً ، وتخزينها في مخازن الحكومة ليخرجها حين تقل الأطعمة أو يرتفع السعر ، وتخصيص تجار الأطعمة بالسكنى والبيع في مكان معين على نهر « جمنا » ، كما منع الزراع من خزن ما زاد عن حاجتهم ، وأمر بعرض الأسعار كل يوم عليه ، وكان يتفقد بنفسه هذه الأسعار .

ثم ذكر القواعد التي اتخذها بخصوص الأقمشة ، وكيف بنى لها سوقاً خاصاً عند الباب البدايوني بدلهي ، وأعد دفاتر لحصر المعاملات ، وتقييد أسعارها وكميتها ، وأعطى تجار « ملتان » مبالغ كبيرة ليتولوا بأنفسهم جلب الأقمشة من البلاد الأخرى وبيعها ، بالأسعار المعهودة .

---

(1) كما عني المؤرخ فرشته كذلك بتفصيلها . .

وهكذا فعل بتجارة الخيول والبقر والجواميس والإبل والمعز والضأن ، وكل شيء يحتاج إليه الناس من الأبرة فما فوقها على ما يناسبه الزمان .

وقد توسع صاحب نزهة الخواطر في ذلك حتى ذكر الأسعار التي عينت لهذه الأشياء كلها حسب التعامل في ذلك الزمان ، وهذا وإن كان لا يعنينا الدخول في تفاصيله ، إلا أننا نأخذ منه صورة عامة عن سياسة علاء الدين ، واجتهاده لتأمين شعبه في معيشته ، وتوفير أسباب الرخاء له ، بقدر ما يمكنه ، ولا شك أن ذلك جهد يستحق التقدير ، وعناية يقابلها المؤرخ بالثناء . .

ومما ورد في الأشياء المسعرة « السكر القالب المصري » مما يدلنا على أن مصر كانت تصدر إلى الهند هذا النوع ، وإلا فمن أين جاءت هذه التسمية ؟ ! وللآن لا زال الناس يسمون السكر باسم « مصري » كما سمعت مراراً ، كما يسمون نوعاً من العدس باسم « مصري دال » أي عدس مصري . . وهو العدس المقشور المعروف في مصر . وفي الهند أصناف من العدس قد تصل إلى العشرين . ونختم كلامنا عن علاء الدين بما جاء في تاريخ البرني عنه ، قال[1] :

« إن حدود مملكته اتسعت لدرجة لم تتفق لملك من قبله وتوطدت الأمور وسار كل شيء طبق رغائبه ، وامتلأت خزائنه بالذهب والفضة والجواهر ، وكان كثير البذل سفاكاً للدماء ، أميا لا يعرف

(1) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب ص53 وكذلك جاء في تاريخ فرشته جـ2 .

القراءة والكتابة ، إلا أنه كان موفقاً في كل مقاصده ، خبيراً في قيادة الجيوش وإدارة الأحكام ، وحينما اغتصب الملك من الشاه فيروز صار ينثر الذهب في طريقه على أعوان الملك السابق استجلاباً لهم ، وكسباً لولائهم ، فلما تم له ذلك قلب لهم ظهر المجن وقبض عليهم جميعاً ، فقتل البعض منهم وسمل عيون الآخرين ، وصادر أموالهم ، واستصفى أملاكهم ، ولم يستثن إلا ثلاثة تنزهت نفوسهم عن قبول الرشوة ، وارتكاب الخيانة لسيدهم السابق ، فأعطى بذلك درساً عظيماً للذين لا وفاء لهم ولا عهد ، والذين يلبسون ثوب زيد لعمر وطبقاً للظروف ، وتماشياً مع الهوى ، ولقد بالغ علاء الدين في احترام القواد الثلاثة الذين حافظوا على ولائهم لفيروز ، فأفاد بذلك الجيل المعاصر له درساً أخلاقياً متيناً » .

وإننا من جانبنا نعتبر هذا التصرف دليلا على العقلية الواسعة ، والنفسية الكبيرة لهذا السلطان . وقد توفي في شوال سنة 716 هـ ـ1317 م ، فيكون قد مكث في الحكم عشرين سنة حافلة بجلائل الأعمال ، ومن أثاره الباقية في دلهى حتى الآن الجزء الذي أضافه لمسجد « قوة الإسلام » من الناحية الجنوبية ، والأبواب الضخمة التي عملها له ، وتعرف باسم « علائى دروازه » أي بوابة علاء ، وقد شاهدتها ، ولا تزال متينة وتعلوها قبة كبيرة ، وكلها من الحجر الأحمر .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في أيام هذا السلطان وسلفه وخلفائه أيضاً عاش رجلان عظيمان لهما في تاريخ الصوفية والشعر مقام ملحوظ في الهند ، أولهما : الشيخ نظام الدين البدايوني الصوفي الكبير ، ولد في

بدايون سنة 636 هـ 1238 م وانتهت إليه الرياسة في دعاء الخلق إلى الله ، وكان جلال الدين فيروز الخلجي وعلاء الدين يحترمانه ، ويحاولان مراراً أن يزوراه ، ولكنه كان يمتنع عن مقابلتهما وقد توفي سنة 725 هـ 1324 م[1] ودفن في دلهي وقبره مشهور وتسمى منطقة كبيرة في دلهي باسمه « نظام الدين أولياء » وتتخذ جماعة التبليغ في الهند مركزها الرئيسي في مسجده .

وثاني الرجلين الشاعر الصوفي العظيم « الأمير خسرو » بلغ مرتبة عظيمة عند الملوك ، وكان شاعراً متفننا وصوفياً مخلصاً . وكان تلميذ الشيخ نظام الدين وصفيه . تأثر لوفاته فمات بعده بقليل ، ودفن بجواره سنة 725 هـ 1224 م .

خلفاء علاء الدين

كان لعلاء الدين من الأولاد : خضر خان ، وشادي خان ، وأبو بكر خان ، ومبارك خان الذي لقب بقطب الدين ، وشهاب الدين .

وشاء الله ألا يبارك في هذه الذرية ، فكان نصيبهم جميعاً القتل .

سجن خضر خان في عهد أبيه في حصن كَواليار لغضبه عليه ، وتوفي علاء الدين وابنه في سجنه ، وعمد « كافور » الذي كان قد بلغ منزلة كبيرة في عهد علاء الدين إلى « شهاب الدين » الابن الأصغر للسلطان ، ونصبه على العرش لينفرد بالسلطة ، فقد كان عمره ست

---

(1) في عهد غياث الدين طغلق شاه .

سنوات ، وقبض على أبي بكر خان ، وشادي خان وسمل أعينهما وأرسلهما إلى السجن مع أخيهما خضر خان الذي سمل عينيه أيضاً ، ونجا قطب الدين من سمل عينيه ،وبجوار ذلك، أساء « كافور » معاملة الملكة الوالدة ، واغتصب أملاكها وسجنها ، وظن أن الأمر بذلك قد استتب له ، ولكن الله سلط عليه عبدين مخلصين لذكرى سيدهما وهما « بشير ومبشر » فقتلاه ولما يمض عليه عدة أسابيع ، فأخذ جزاءه .

وتولى الملك « قطب الدين مبارك » في محرم سنة 717 هـ 1317 م بعد أن خلع أخاه الصغير « شهاب الدين » وسمل عينيه هو الآخر وسجنه مع أخويه ، وكانت هذه القلاقل والحوادث في العاصمة باعثة بلا شك على خروج من يستطيع الخروج عليها ، فاضطر قطب الدين أن يسير إلى الدكن لتأديب الخارجين عليه هناك ، وقبض على رأسهم « هريال ديو » وسلخ جلده ، وحين أحس بحركة ترمي إلى تولية ابن أخيه خضر خان بدله ، أخذ ابن أخيه هذا وكان يرافقه ، وسنه عشر سنوات ، وأمسك برجليه ، وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه كما يقول ابن بطوطة ، ثم بعث برسول إلى القلعة التي سجن فيها خضر خان وإخوته ، فقتلهم جميعاً ، كما قتل أطفالهم ، وأخرج نساءهم من البيوت ، ويقول ابن بطوطة « ولما أتوا بخضر خان ليضربوا عنقه فزع ، وكانت أمه معه ، فسدوا الباب دونها وقتلوه ، وسحبوهم جميعاً ورموهم في حفرة دون تكفين وغسل ، وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة 728 هـ(1) .

---

(1) مهذب ابن بطوطة جـ2 ص44 .

ولم يسر قطب الدين سيرة أبيه ، فانفرط عقد الدولة ، كما انصرف هو إلى اللهو والشراب ، وقد سلط الله عليه من يقتص منه للقتل الذين قتلهم ، وكان أحب الناس وأقربهم عنده ، وأكثرهم تسلطاً عليه وهو « خسرو خان » أحد قواده المحبين لديه حيث دبر مؤامرة لقتله(1) ، وتم له ذلك ، ورمى بجثته من سطح القصر إلى صحنه في ربيع الأول سنة 721 هـ ـ 1321 م ، وأرسل خسروخان إلى الكبراء والأمراء ـ وكان كبير وزراء قطب الدين ـ فجاءوا إليه وهم لا يعلمون ما حصل ، وكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك ، فبايعوه باسم ناصر الدين خسرو خان وأغدق عليهم العطاء ، ولكن سيرته فيما بعد كانت شاذة لم تشهد البلاد مثلها ، ففوق أنه قبض على نساء قطب الدين ، وانتهك حرماتهن ، ووزعهن مع بناته على الأشراف من أعوانه ، كان ميالا إلى الهندوس ؛ فقد كان هندوسياً وأسلم ، فاحتضنهم وبلغ الأمر به أن وزع بعض بنات الأشراف عليهم ، كما حرم ذبح البقر مراعاة لهم . وكان الجهال من أتباعه الهندوس يتخذون المصاحف كراسي يجلسون عليها(2) ويضعون الأصنام في المساجد .

وقد ضج الناس من هذه التصرفات الشاذة ، واستغاث أشراف دلهي وأعيانها بحاكم لاهور « غازي ملك » أو الملك الغازي « طغلق » الذي لم يقر تصرفات خسرو من أولها ، وغضب عليه لخيانته سيده وقتله

---

(1) ذكر تفاصيلها ابن بطوطة جـ2 ص45 ، وكان خسرو خان هندوسياً وأسلم وقربه السلطان إليه .

(2) تاريخ فرشته جـ1 ص427

إياه ، فوجد الفرصة سانحة للزحف إلى دلهي ، وتخليص البلاد من شر هذا السلطان ، الذي سمي نفسه « مساعد المؤمنين خسرو خان » !!! فتم له وللشعب ما ارادوا ، وتخلصوا منه وسقوه من الكأس التي سقى منها غيره ، وكان ذلك في شعبان سنة 721 هـ ـ أغسطس سنة 1321 م بعد حكم لم يدم أكثر من خمسة أشهر .

وبذلك انتقلت سلطنة دلهي إلى أسرة « طغلق[1] » .

---

(1) تكتب « طغلق » و « تغلق » بالتاء والطاء .

الدولة الطغلقية

غياث الدين طغلق شاه

721 هـ ــ الموافق 1321 م إلى 725 هـ ــ الموافق 1325 م

يقول المؤرخ فرشته : إن مؤرخي الهند القدامى والمحدثين أهملوا ذكر نسب طغلق ، وأنه لذلك ذهب لأحد حكام لاهور يسأله عن هذا النسب ، ثم ذكر أن والده كان من غلمان السلطان غياث الدين بلبن ، وكان تركياً .

ويذكر ابن بطوطة(1) ويعتبر مرجعاً مهماً في تاريخ طغلق وابنه محمد نظراً لأنه زار الهند في أيام الأخير وكتب ما شاهده وسمعه ـ يذكر أن طغلق كان من الأتراك القراونة ، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك ، وكان ضعيف الحال ، فقدم السند في خدمة بعض التجار ، وذلك في أيام السلطان علاء الدين الخلجي ، وأمير السند إذ ذاك أخوه « أولغ خان » ، فخدمه طغلق وتعلق بجانبه ، ثم ترقى في خدمته حتى صار أميراً للخيل ، ثم من الأمراء الكبار .

ولما تولى قطب الدين ولاه مدينة « ديال يور » وعمالتها ، وجعل ولده محمداً أمير خيله ، ثم لما قتل قطب الدين ، وولي خسرو خان أبقاه على إمارة الخيل .

---

(1) ص 47 وما بعدها جـ2 .

وقد أبلى طغلق في حرب المغول[1] بلاء حسناً ، حيث كان قريباً من الحدود ، فقام بصدهم عن دخول الهند ، فسمى بالملك الغازى ، ويقول ابن بطوطة : إنه دخل المسجد الجامع بملتان فوجد مكتوباً على مقصورته « إني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرة ، فهزمتهم ، فحينئذ سميت بالملك الغازي » .

ولما أراد « طغلق » أن يسير إلى دلهى لمقاتلة خسرو خان ، كتب إلى كشلو خان وهو يومئذ بملتان ، وإلى غيره من الحكام يطلب منهم القيام بنصرته ، ويذكرهم بنعمة قطب الدين عليهم ، كما كتب إلى ولده « محمد » ـ وكان أمير الخيل عند السلطان خسرو خان ـ أن يأتي إليه ، ففر إلى أبيه بالخيل التي كانت تحت يده ، وجهز طغلق الجيش ، وسار به مع كشلو خان إلى دلهى ، فهزم جيش « خسرو خان » الذي خرج لمقابلته بقيادة أخيه « خان خان » ، وسار طغلق حتى وصل دلهى ، والتقى بجيش السلطان ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصاره بعد أن كاد يهزم ، ودخل القصر السلطاني .

وقال لكشلو خان : تكون انت السلطان ، فقال له : بل أنت تكون السلطان وتنازعا ، ثم قبل طغلق أن يتولى الملك ، أما خسرو فكان قد فر ، وأخيراً جيء به بعد أن قبض عليه ، فقال للسلطان إني جائع فأمر له بالطعام والشراب فلما أكل وقف وقال : يا طغلق افعل معي فعل الملوك ، ولا تفضحني ، فقال له : لك ذلك ، وأمر به فضربت

(1) ينطقها أهل الهند (مغل) وهو النطق الصحيح كما سنعرف فيما بعد ، ولكنا جارينا النطق المشهور لتعود الناس عليه .

رقبته ، وذلك في الموضع الذي قتل هو فيه قطب الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين ، وهكذا كانت نهاية هذا المعتدي ، وكما تدين تدان ، وكان ذلك سنة 721 هـ ـ 1321 م .

وأسس طغلق شاه أسرة حكمت الهند نحو مائة سنة وبعدما استقرت له الأمور جعل ابنه « محمد » ـ وكان يسمى « جونه » و « ألغ خان » ـ ولياً للعهد ، وسيره على رأس جيش للجنوب ، حيث خرج عليه راجا ورنكَل وبلاد التلنك ، وهناك أراد ابنه أن يخرج على أبيه بوسوسة بعض قواده ، ولكن الآخرين امتنعوا عليه ، فلما علم أبوه بالملك مؤخراً عاقب بعضهم ، وفر آخرون ، والتجأوا إلى سلطان بنكَال من أسرة غياث الدين بلبن . . وفي ذلك الوقت اشتكى أميران من أمراء بنكَال مما فعله بهما أخوهما السلطان هناك ، فرأى طغلق أن يسير بنفسه إليه ، ويترك ابنه « ألغ خان » ولي عهده نائباً عنه في دلهي ، فسار للبنكَال وحارب السلطان وهزمه ، وجاء به أسيراً إلى دلهي ، وعين بدله أخاه ناصر الدين أحد أخويه اللذين فرا لدلهي من قبل ، فقضى بذلك على استقلال بنكَال ، وجعلها تابعة لدلهي .

ولكنه لم يتمتع طويلا بثمرة انتصاراته ، ففي أثناء عودته دبر ابنه له مؤامرة ، حيث بنى له بيتاً من خشب يستقبله فيه حين قدومه ، فلما استقر فيه جاء بالفيلة واستعرضها أمامه في ناحية منه فوقع البيت عليه ، ودفن تحت أنقاضه ، يقول ابن بطوطة : بعد أن أطعم الناس وانصرفوا استأذن ابنه في أن يعرض الفيلة أمامه ، وكان قد أقامه بواسطة الملك زاده واسمه « أحمد بن إياس » كبير وزراء السلطان ، بحيث إذا وطئت

الفيلة ناحية منه سقط كله ، فلما وطئته سقط البيت عليه وعلى ولده « محمود » فأمر ابنه أن يؤتى بالفؤس والمساحي للحفر عنه ، وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس ، فأخرجوه فوجدوا أنه قد أحنى ظهره على ولده ليقيه الموت ، ودفن في مقبرته التي بناها من قبل في « طغلق أباد[1] » وكان ذلك سنة 725 هـ ـ 1325 م .

ذكر المؤرخون عن « غياث الدين طغلق » أنه كان ادلا فاضلا كريماً حليماً متورعاً حسن الأخلاق راجح العقل متين الدين ، كان يلازم الصلوات الخمس بالجماعة ، ويجلس للناس في الديوان العام من الصباح إلى المساء ، ويتفقد بنفسه أحوال الناس ، ويكرم العلماء والمشايخ ويعظمهم تعظيماً بالغاً[2] .

محمد طغلق شاه

725 هـ ـ 1325 م إلى *752 هـ 1351* م .

سبق أن ذكرنا أشياء من حياته ، ولما توفي أبوه تولى هو الملك باسم « محمد طغلق » وكنيته « أبو المجاهد » وكان اسمه « جونه »[3] ، ثم سماه أبوه « ألغ خان » وهو ولي العهد ، يقول عنه صاحب نزهة الخواطر[4] : « إنه السلطان الجائر المشهور بالعادل ، وكان من عجائب

---

(1) معنى أباد : عمران . وكذلك معنى « بور » وقد صارت هذه المدينة الآن آثاراً وخرائب جنوب دلهي .

(2) نزهة الخواطر ص 101 جـ 2 .

(3) وسميت مدينة « جونبور » المعروفة في الهند باسمه للآن .

(4) جـ 2 ص 129

الزمن ، وسوائح الدهـر ، لـم ير مثلـه في الملـوك والسلاطـين في بذل الأموال الطائلة وسفك الدماء المعصومة » . .

وجاء ابن بطوطة إلى دلهي في زمانه سنة734 هـ 1337 م ، ودون كل ما شاهده وما سمعه عنـه ، ويقول(1) : ـ « أمـا أخبـار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده » ثم يصفه فيقول : وهو « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يغنى ، أو حي يقتل » ، ثم يقول « وسنذكر من أخباره عجائب لـم يسمع بمثلهـا عمن تقدمه ، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيداً ، وبعض مآثره لا يسعه عقل كثير من الناس ، ولذا يعدونـه من باب المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعني إلا قول الحق فيه » ، وابن بطوطة لـم يقتصر على ذكر كرمه ومدائحـه ، ولكنـه ذكر بجانب ذلك فظائعه وجرائمه التي ارتكبها ، ومن أجل هذا نعتقد أن ابن بطوطة لـم يجامل بل ذكر ـ كما يقول ـ كل ما رآه ، وهو من أجـل ذلك يعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ هذا الملك . وتذكر بعض كتب التاريخ عنه(2) ، أنه كان متديناً لا يشرب الخمر ، وقائداً شجاعاً وإدارياً قديراً ، يعتبر أحد القواد والإداريين العظام . غـير أنـه كان شديداً في معاملة رعاياه إلى حد القسوة ، يقتل أحدهم على الذنب الصغير .

(1) ص52 وما بعدها جـ2

(2) مثل المسألة الهندية ص125

وجاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي[1] : ـ « وظهر من بني طغلق هؤلاء سلطان اسمه « محمد » اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معا ، فانتبذ كل أمير في مملكة ، وأعلن انفصاله عن دلهي ، فملك في الدكن ، وملك في مالوا ، وملك في البنغال .. الخ ، وكلهم أصبحوا مستقلين بأنفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهي سوى دواب[2] والبنجاب ، وهذه أيضاً تعرضت لفادحة كبرى ، وهي غارة المغول . ويقول المؤرخ فرشته[3] : إن محمد طغلق ورث ملكاً واسعا مستقراً ، واستمر كذلك وهو يحكم البلاد من دلهي مباشرة أو بوساطة الراجاوات ، وكان المال يتدفق كالمطر على الخزينة العامة للدولة ، لكن هذا الملك المستقر اضطربت دعائمه بعد ذلك ، وأخذت الولايات تنفصل عن دلهي وتستقل عنها ، ويذكر أسباباً عدة لذلك . منها : كثرة الإنفاق على الحملات الحربية التي وجهها إلى الأطراف ، وكثرة سفكه للدماء دون مراعاة لخلق أو دين ، ثم كثرة الضرائب التي اضطر إلى فرضها لمجابهة الإنفاق والعطايا الكثيرة . ثم ما أحدثه من نظام النقد بغير الذهب والفضة » .

وبالإضافة إلى هذا تلك المجاعة وهذا القحط الذي حدث في

---

(1) ص293 جـ4

(2) اسم للأراضي الواقعة شرق دلهي بين نهري جمنا وكنكاو « دواب » معناها النهران . لأن « دو » معناها اثنان « وآب » معناها الماء أو النهر . ومثل هذا « بنجاب » أي الأنهار الخمسة « بنج » معناها « خمسة » . وهو اسم للمنطقة التي تجري فيها الأنهار الخمسة .

(3) ص12 وما بعدها ملخصا جـ1 .

أيامه ، ومسبب له وللدولة وللشعب متاعب كثيرة ، وهكذا نجد الملك العريض الذي ورثه لم يستطع أن يحافظ عليه ، برغم ما تصفه بعض كتب التاريخ من أنه كان من الإداريين والقواد العظام .

* * *

والواقع أن شخصية هذا السلطان تتعب المؤرخ الذي يريد أن يصدر الحكم عليه نظراً لأعماله المتناقضة ، ولا أستطيع إلا أن أقول إنه كان من أصحاب الشخصيات المزدوجة ، يجمع في وقت واحد بين شخصيتين : شخصية متمسكة بالدين متواضعة غاية التواضع ، كريمة غاية الكرم ، وشخصية أخرى بعيدة عن الدين كل البعد ، حين يسرف في سفك الدماء دون رعاية لخلق أو دين أو إنسانية ، لا فرق عنده بين مسلم وغير مسلم ، بل ربما كان نصيب المسلمين من ظلمه أكثر .

وأحب بعد ذلك أن أضع أمامك بعض الحوادث التي ذكرها المؤرخون ، وأولهم ابن بطوطة الذي أغدق عليه وولاه القضاء .

بعد أن سرد ابن بطوطة أخباره الغريبة في البذل والعطاء دون حساب ، ذكر حكايات في تواضعه وتمسكه بالشريعة يتخيل الإنسان منها أنه من طراز الخلفاء الراشدين . قال :

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه للقاضي ، فمضى على قدميه ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي ، وكان قد أمره قبل ذلك ألا يقوم له ، فحكم عليه القاضي ، ونفذ حكمه ، وأغرب من هذا ما حكاه عن أمير صبي ادعى على السلطان أنه ضربه من

غير موجب . ورفعه إلى القاضي فحكم عليه بأن يرضيه وإلا أخذه بالقصاص .

يقول ابن بطوطة : فشاهدته يومئذ ، وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : « وحق رأسي لتضربني كما ضربتك ، فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت الكلاه (القلنسوة) قد طارت عن رأسه » .

ثم يقول : وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة ، آمراً بملازمتها في الجماعات ، يعاقب على تركها أشد العقاب ، ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها ، كما أمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الصلاة والوضوء وشروط الإسلام ، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب .

وينتقل ابن بطوطة بعد هذا الذكر الجانب المظلم من أعماله فيقول : وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين ، وكرمه الخارق للعادة ـ كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر ، وكنت كثيراً ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ، ولقد جئت يوماً فنفر بي الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض ، فقلت ما هذه ؟ فقال بعض أصحابي : هي صدر رجل قطع ثلاث قطع ، وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ، ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف .

ثم يذكر ابن بطوطة بعض حوادث القتل والتعذيب . ومنها هذه الحادثة التي وقعت للشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني .

وكان من كبار الصلحاء ، يزوره السلطانان السابقان قطب الدين وطغلق ، ويعظمانه ويتبركان به ، فلما تولى محمد طغلق أراد أن يستخدمه جرياً على عادته من استخدام الفقهاء والصلحاء ، محتجاً بأن الصدر الأول من المسلمين كانوا يستعملون أهل الصلاح ، وحدث الشيخ في ذلك بمجلسه العام فامتنع ، فغضب عليه ، وأمر الشيخ الفقيه المعظم « ضياء الدين السمناني » أن ينتف لحيته ، فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هذا ، فأمر بنتف لحية كل منهما فنتفت ، ونفاهما من دلهي ، وبعد أن ذكر بعض أحوال الشيخ شهاب الدين بعيداً عن دلهي قال : إن الملك عاد بعد سنين وطلب منه أن يلي بعض الأعمال ، فقال لا أعمل لظالم . فبلغ الملك ذلك ، فأتى به ، فأصر على قوله ، وقال له : أنت تعرف أنك ظالم ، فقيده وغل يديه ، ومكث على ذلك أربعة عشر يوماً لا يأكل ولا يشرب ، وفي كل يوم يحضره أمام الفقهاء الذين يلحون عليه بالرجوع عن قوله ، فيزداد إصراراً عليه ، فأمر السلطان أن يطعم الشيخ العذرة « الغائط » فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين ، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك . ثم ضربت عنقه » .

***

وهكذا كان هذا السلطان يتصرف ، على أن تصرفه لم يقف عند إعدام الأشخاص والقضاء عليهم ، بل تعداه إلى الحكم على العاصمة « دلهي » بالإعدام والتخريب . وذلك عندما أمر أهلها بالهجرة منها وتركها ، فصارت مسكناً للبوم والغربان والهوام والحشرات بعد أن كانت تزهو على المدن ببهائها ، ونعيم سكانها . يقول ابن بطوطة « ومن أعظم ما كان ينقم بسببه على السلطان إجلاؤه لأهل دلهي عنها .

وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ، ويختمون عليها ويكتبون عليها « وحق رأس خوند عالم (أي سيد العالم) ما يقرؤها غيره ، ويرمونها بالقصر ليلا . فإذا فضها وجد فيها سبه وشتمه ، فعزم على تخريب دلهي ، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى « دولت أباد » في الدكن فأبوا ، فهددهم فلم يجدوا مناصاً من الخروج ، وتركوا المدينة خاوية على عروشها . وصعد السلطان مرة إلى سطح قصره ، ونظر إلى دلهي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال : الآن طابت نفسي وهدأ خاطري ! ، وهكذا وجدناها لما دخلناها خالية ليس بها إلا قليل عمارة » اهـ .

صور متناقضة من أعمال هذا السلطان لا تملك معها إلا أن نقول بأنه كان ذا شخصيتين متناقضتين . . فكان يقسو إذا اشتم روح الخروج عليه وعلى أمره وهيبته ، لا يراعي ديناً ولا خلقا ، بينما كان في الوقت نفسه يبالغ في التمسك بما يظنه هو الدين فقط كالصلاة والصيام ومظاهر التواضع والعدل .

وقد عدد المؤرخ فرشته(1) أعماله الحسنة والسيئة كما ذكر علمه وفضله والعلوم التي كان يتقنها حتى كان يعرف العربية ويقول الشعر بها ، وقال : إنه حقاً كان نموذجاً للرجل الصالح والرجل الطالح . وقد قضى أيامه التي قاربت الثلاثين عاماً في متاعب لا سيما في آخر أيامه ، حتى توفي وهو راجع من إحدى الحروب على نهر السند ، بعد

(1) ص95 جـ2 .

أن أصيب بالحمى في المحرم سنة 752 هـ ـ 1351 م . ولم يترك ذرية ترث العرش ، فقد كانت به علة تمنعه من النسل كما جاء في نزهة الخواطر .

وقد كان محمد طغلق متيماً بحب الخلفاء العباسيين ، مستجلباً رضاهم بعد أن انتقلوا إلى القاهرة . وفد عليه أحد أبنائهم فبالغ في إكرامه بما لم يفعله مع أحد . ويحكي ابن بطوطة عنه ، أنه شعر مرة بعدم رضاه عنه ، فذهب إليه ، وأخذ يستعطفه ثم قال له : لا أشعر بأنك راض عني إلا إذا وضعت رجلك فوق عنقي ، ولما تم ذلك بعد إصرار السلطان قال : الآن علمت أنك راض عني .

ومرة حكى له الشيخ عبد العزيز الأردبيلي أحاديث في فضل العباس وآبنه وشيئاً من مآثر الخلفاء فأعجب به حتى قبل قدميه وأغدق عليه العطايا .

وهكذا كان متطرفاً وشاذاً في كل ناحية من نواحي حياته ، حتى ليبلغ فيها ما لا يبلغه أحد . . ولله في خلقه شؤون .

فيروز شاه الطغلقي
753 هـ ـ *1351* م إلى *790* هـ ـ *1388* م

لم يترك محمد طغلق وارثاً للعرش من ذريته ، وكان فيروز ولياً ومخلصاً له ، لازمه في أيام مرضه يخدمه ، فأثر ذلك في نفسه فتكلم وهو مريض ، وأشار أن يكون فيروز ولي عهده ، ولكن لم يعلن ذلك رسمياً ، ولما مات حدث بعض الهرج ؛ نظراً لعدم وجود ولي عهد معلوم

عند الجميع ، وأراد بعض زعماء الجنود الذين أتوا مما وراء النهر وغيرها لمساعدة محمد طغلق أن ينتهزوا هذه الفرصة لإشباع أغراضهم ، إن لم يكن في تولي الملك ، فبالاستيلاء على بعض الخزائن والمجواهرات ، وإزاء هذه الحالة اجتمع كبار رجال الدولة والأمراء والأولياء ، ورأوا أن يكون « فيروز » سلطاناً ، ولما أبلغوه قرارهم لم يوافق عليه ، وأظهر لهم أنه يريد الحج ، ولكنهم أصروا عليه أن يتولى السلطنة ، فقبل أخيرا إزاء هذا الإصرار . ويقول المؤرخ فرشته : إن سنه كانت في ذلك الوقت نيفا وخمسين سنة ، وإن كانت بعض كتب التاريخ الأخرى تفيد أنه كان حول الخامسة والأربعين ، وأياً كان فقد تولى الملك في المحرم سنة 752 هـ 1351 م . وقد تربى في حجر عمه غياث الدين طغلق ، وابن عمه محمد طغلق ، وولي الحجابة مدة منَ الزمان ، ومرت عليه الأحداث التي جرت في عهد ابن عمه ، وكان ذا قلب رقيق ، لكنه لم يكن يستطيع تعديل شذوذ ابن عمه ، فلما ولي الملك جعل همه في إرضاء نفسه وحسه ، وتعويض الشعب المرهق والتخفيف عنه ، فساس دولته سياسة الحكام العظام الذين يعنون بشعوبهم ، ويسهرون لتوفير الراحة لهم في كل ناحية من نواحي حياتهم .

وقد كان ساعده الأيمن وزيره « مقبول خان » الذي كان هندوسياً وأسلم ، وحسن إسلامه وإخلاصه ، مما جعله يثق به ، ويغدق عليه العطايا جزاء إخلاصه وخدماته .

إصلاح الماضي :

رأى السلطان « فيروز » كل ما فعله ابن عمه ، ولكن لم يكن يملك

له دفعاً . رأى الدماء التي سفكت ، والأسر التي نكبت ، ورأى الشعب يئن تحت أثقال الضرائب الفادحة التي فرضها عليه السلطان ، وبالغ المحصلون في جمعها ، بل وجمع ما زاد عليها ، لذلك جعل همه حين تولى الملك أن يعمل على إزالة هذه المظالم ، وإصلاح الأخطاء التي ارتكبها سلفه . . فأخذ يواسي المنكوبين ، ويدفع لهم التعويضات لعلها تخفف عنهم ، وقد دفعته رغبته ونيته الطيبة ، ووفاؤه لابن عمه ، وحبه في التخفيف عنه في قبره إلى أن يستكتب المظلومين الذين يسترضيهم إقرارات بأنهم سامحوه وعفوا عنه ، ثم جمع كل هذه الإقرارات ، وفتح قبر ابن عمه ، ووضعها فيه على ظن أن ذلك يخفف من ذنوبه وحسابه ، ويعفو الله عما اقترفه . . هكذا كان يظن ، وهكذا فعل !!

واتجه إلى الشعب الذي فدحته الضرائب ، وأفقرته المجاعة وأنهكته ، فأعفى المزارعين من الديون التي كانت عليهم ، وأحرق صكوكها التي كانت تحت يد الحكومة ، ثم خفف عنهم الضرائب وشدد في إشرافه على المحصلين لها حتى لا يظلموا الشعب ، كما أنه ألغى نظام الإقطاع الذي كان سائداً في ذلك الوقت ، والذي كان يقضي بإعطاء أراض لرجال الجيش والأمراء ، فجعلها تابعة للحكومة ، مما زاد في دخلها ، وبالتالي في رفاهية الشعب .

مشروعاته العمرانية :

وكان لفيروز اتجاه خاص نحو المشاريع العمرانية ، فأكثر من حفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء المساجد والمدارس والحمامات والمستشفيات والمقابر والقصور وإقامة الجسور والقناطر وإنشاء

الحدائق . كل ذلك بصورة لم تتوفر لغيره ، وقد ذكر المؤرخون إحصاءات لكل هذا ، وجاء اختلاف بينهم في ذكر الأرقام ، وإن كانوا يجمعون على كثرتها والإشادة بها . يقول صاحب نزهة الخواطر : (1)
« وبالجملة فإنه حفر خمسين نهراً ، وبنى أربعين مسجداً ، وعشرين زاوية ، ومائة قصر ، وخمسين مارستانا (مستشفى) ، ومائة مقبرة ، وعشر حمامات ؛ ومائة جسر ، ومائة وخمسين بئراً ، وأما الحدائق فإنه أسس ألفا ومائتي حديقة بناحية دلهى وثمانين حديقة بناحية سادرة ، وأربعين حديقة بناحية جتور ، كانت فيها سبعة أقسام من العنب » وذكر « فرشته » مثل ذلك وزاد عليه : ثلاثين مدرسة ، ولا ريب أن مثل هذه المشروعات العمرانية تعود بالدخل الوفير على الشعب والدولة معاً ، مما جعل فيروز يغدق على العلماء وغيرهم من أرباب الحاجات ، ويرتب الأرزاق للمدرسين والأئمة والقائمين بالعمل في الزوايا والقصور والمستشفيات ، ويستمر في إصلاحاته العمرانية ، وهذا كله من سمات الدولة الراقية المستقرة . .

وقد أنشأ مع ذلك مدينة جديدة قرب دلهى سنة755 هـ سنة1354 م وسماها فيروز أباد ، وحفر لها نهراً من جمنا كما أجرى إصلاحات في « منار قطب » كان يحتاج إليها ، على أن الذي يدلنا أكثر من هذا على رقى الدولة ، وصلاح الحكم واتجاهه نحو رعاية الشعب هو ما قرره فيروز شاه من ضمان الدولة لمعيشة المقعدين العاجزين عن العمل ، وكذلك المرضى وعلاجهم ، مما سنه عمر رضي الله عنه من قبل ، وإن

(1) ص111 جـ2

كان العصر الحديث يفتخر بأنه من اختراعه . وكان فيروز شاه مع تسامحه مع الهندوس ، ومعاملته الحسنة لهم ، لا يحب مظاهر العبادة الوثنية الهندوسية ، ولا التظاهر بها ، كما كان شديد الوطأة على الملحدين ، وأصحاب المذاهب الإسلامية الشاذة ، حريصا على نشر دعوة الإسلام ، وجذب الناس إليه ، حتى كان يعفى من الضرائب ، أو يمنح الهدايا لكل من يعتنقه ، مما كان له أثره الطيب في دخول كثير من الناس في الإسلام .

وكان سلفه محمد طغلق يحكم في أول أمره نحو ثلاثين ولاية تابعة له ، ولكن أمراءها أخذوا يستقلون حتى مات ، ولم يبق تحت حكمه إلا نحو ربعها ، فلما جاء فيروز كان من الصعب عليه أن يسترجع كل ما فقده سلفه(1) . استقلت الدكن في عهد محمد طغلق على يد علاء الدين البهمني ، وجاء « فيروز » وكان الطريق إليها محفوفاً بالمخاطر ؛ لأن بعض الولايات التي في طريقها ليست خاضعة له ، كما أنه جاءته رسالة سنة 757 هـ 1356 م من الخليفة العباسي في مصر « الحاكم بأمر الله أبي بكر بن أبي ربيع بن أبي سليمان » يطلب منه أن يعفو عن حاكم الدكن ويتركه ، وأرسل له مع ذلك خلعة وقراراً بتعيينه نائباً عنه في الهند ، فلذلك تركه ، وتأسست الدولة البهمنية الإسلامية في الدكن من ذلك الوقت .

أما البنكَال فقد كانت تحت حكم « شمس الدين حاجي إلياس » فذهب إليه فيروز سنة 754 هـ 1353 م . وبعد حصاره رجع دون أن

---

(1) تاريخ الهند لسيد هاشمي ص140

يخضعه . وبعد حين أرسل له حاكم البنكَال كثيراً من التحف والهدايا طالباً منه العفو والصفح ، فعفا عنه وتركه مكتفياً بتقديم الهدايا إليه وإعلان الخضوع له .

ولكنه عاد في عهد ابنه « اسكندر خان » إلى مهاجمة البنكَال سنة 760 هـ-1359 م ولم ينجح بسبب كثرة الأمطار فتركه وعاد ، ثم عاود السفر للمرة الثالثة بقصد إخضاعها ، وبعد حصارها مدة قدم له « اسكندر خان » الهدايا والتحف وطلب العفو وتركه ، فقبل فيروز شاه وأقره على حكم البنكَال ورجع .

ولما قامت الثورة في السند ذهب بنفسه لإخضاعها ، ولكنه بعد حصار الثوار رجع عنها إلى كجرات دون إخضاعها ، وقضى فصل المطر هناك ، ثم رجع للسند ، ولكن حاكمها الثائر طلب العفو عنه ، فجاء به إلى دلهي مع الأسرى وأكرمه ، وأطلق الأسرى وأرجعهم لبلادهم ، وهكذا تبدو من خلال تصرفات فيروز ميله إلى حقن الدماء والسلم والعفو بقدر المستطاع .

وقد حدث أن ثار عليه أحد الثوار ، فأبعده عن الهند ، ولكن الخليفة العباسي في القاهرة كتب إليه يطلب الصفح عنه ، فاستجاب له ، وأكرم الثائر ، وخلع عليه الخلع والألقاب . .

ولما ذهب إلى قلعة « نكَركوت » حاصرها وفتحها ، وحطم أصنامها ، ووجد فيها مكتبة هندوسية تضم ألفا وثلثمائة كتاب في مختلف العلوم ، فأمر أن تترجم الكتب الثمينة فيها من السنسكريتية للفارسية ، فترجمت عدة كتب في الرياضة والنجوم والأدب والموسيقى . نقل منها

دون أن يتناول الطعام أو يلجأ إلى النوم حتى استيقظ أبوه ، وعرض عليه القصة ، وعوض الشاكية بما أرضاها .

ذلك ما فعله فتح خان بن فيروز . والولد سر أبيه . . وقد عجل الموت باختطافه سنة 776 هـ ـ 1374 م ، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً ألجأه إلى الاعتكاف عن الناس ، ولم يخرج منه إلا بعد أن نصحه خلصاؤه بأن أمر الملك لا يستقيم مع هذه العزلة ومع هذا الحزن . .

وكان هذا الحزن الدائم مع كبر السن سبباً في ضعفه عن تحمل أعباء الملك كلها ، فجعل ابنه « محمدا » يتولى الأعمال عنه ، ولكنه لم يحسن في تصرفاته ، فثار عليه الشعب وغضب عليه أبوه وجعل ولاية العهد لحفيده « طغلق » ابن ولده فتح خان بعد أن فر محمد . وتوفي فيروز سنة 790 هـ ـ 1388 م .

خلفاء فيروز شاه

بعد وفاة فيروز كان حفيده « طغلق » هو السلطان وسمي باسم « غياث الدين طغلق الثاني » ، ولم يكن كفياً للمنصب ؛ إذ كان شاباً لاهياً عن تدبير أمور السلطنة ، وقد كانت عاقبته أن قتله « أبو بكر بن ظفر خان بن فيروز » في صفر سنة 791 هـ ـ 1389 م ، وتولى « أبو بكر » هذا مكانه ، ولكن عمه « محمد » الذي فر في حياة أبيه بعد الثورة عليه إلى « نكركوت » أخذ يعمل للاستيلاء على دلهى ، فهجم عليها ثلاث مرات انتهت بانتصاره . فسجن « أبا بكر » في إحدى القلاع في ذي الحجة سنة 792 هـ ـ 1390 م كما في تاريخ فرشته ، وإن كان المؤرخ

« سيد هاشمي » في كتابه « تاريخ الهند » يختلف معه في تحديد التاريخ . .

وتولى « محمد بن فيروز » الملك باسم « ناصر الدين محمد بن فيروز شاه » ، واستمر حتى توفي بمرض السل في ربيع الأول سنة 796 هـ ـ 1394 م ، وجاء بعده ابنه « اسكندر » ، ومكث في الحكم نحو شهر ونصف توفي بعده ، فاشتد الخلاف بين أركان الدولة على من يتولى السلطنة ، واستمرت دلهي بدون سلطان خمسة وأربعين يوماً ، ثم نادوا بمحمود بن محمد بن فيروز سلطاناً على دلهي ، وكان صغير السن سبقته عهود من القلاقل التي صاحبت تغير السلاطين واحداً بعد الآخر ، مما كان له أثره الملموس في ضعف هيبة الحكم ، وقيام كثير من الولايات التابعة لدلهي ـ على قلتها ـ بثورات لطلب الاستقلال : قامت ثورة من الهندوس في شرق الهند ، فذهب إليهم « خواجه جهان » على رأس جيش فأخضعهم ، ولكنه طمع في الاستقلال ، واتخذ مدينة « جونبور » عاصمة له ، ولقب بلقب « سلطان الشرق » ، وأخضع قنوج وبهار ، وجاءت له الهدايا من البنغال ، وأسس أسرة حاكمة تعرف باسم ملوك الشرق[1] ، وفي بنجاب وغيرها قامت الثورات وأخذ سلطان دلهي يتضاءل .

ومن هذا الوقت والهند تموج بالخلافات والثورات ، والهندوس في كل مكان يقومون ضد سلطان دلهي ، وكذلك أمراء المسلمين ، في هذا

---

(1) وكانت هذه الدولة من أفضل الدول ، وسلاطينها من أفضل السلاطين الذين عرفتهم الدول الإسلامية في الهند إصلاحاً وصلاحاً .

الوقت هجم « تيمور » على الهند ، ليخضعها لسلطانه بعد أن أخضع كثيراً من المالك الإسلامية ، وكان هجومه سنة 801 هـ 1399 م . فاستولى على دلهي ، وفر السلطان محمود إلى كَجرات أولا ، فلم يحسن « مظفر خان » استقباله خوفاً على مصالحه السياسية ، فذهب إلى « دلاور خان » حاكم « مالوا » ، فأحسن استقباله ، ومكث عنده حتى عاد إلى دلهي بعد خروج تيمور كما سيأتي بيانه إن شاء الله . .

تيمور في الهند[1]

شهدت الهند قبل ذلك عدة غارات من المغول ، كان سلاطين المماليك يتولون ردها ودفع أخطارها عن البلاد ، فلم يتمكنوا من اقامة حكم فيها ، وكانوا يخرجون من وسط آسيا كالجراد المنتشر لا يبقي ولا يذر ، وكأنهم كانوا في سجن فانطلقوا منه ، وكأن بهم سعاراً إلى الدماء والتخريب والتدمير ، كانوا من عباد الأوثان وقوى الطبيعة ، وامتازوا بالقوة والشجاعة ، وعدم المبالاة بما اعتاد الناس أن يتحرزوا عنه ، كل همهم السلب والنهب والحصول على الغنائم ، وانحدروا من وسط آسيا إلى البلاد الإسلامية فدمروها ، وأتوا على حضارتها كأن لم تغن بالأمس . .

---

(1) يكتب اسمه دائماً في الكتب العربية « تيمور لنك » وكلمة « لنك » بالكاف الفارسية التي تشبه في نطقها الجيم عند أهل القاهرة معناها الأعرج في اللغة الفارسية ، وكان تيمور بكسر التاء كما ضبطها بعض المؤرخين أعرج ، فالتصقت الصفة به لكن كثيراً ممن ينطقونها لا يعرفون دلالتها .

وكتب التاريخ العربي كثيراً ما تذكرهم باسم « التتار » ، ولكن كتب التاريخ في الهند كثيراً ما تتحرى ذكرهم باسم « المغول » وهو أقرب ما يكون إلى الحقيقة .

والمغول والتتار كلاهما من أتراك وسط آسيا ، وكانا أبناء عم ، مثل ربيعة ومضر في العرب ، فالمغول ينتسبون إلى « مغل خان » والتتر ينتسبون إلى أخيه « تترخان » ، وقد وقعت حروب كثيرة بين أبناء العمومة ، فكان يتغلب فيها أحدهما على الآخر ويحكمه ، وظلوا في أراضيهم لا يتعدونها ، حتى وقع خلاف بين ملكهم « جنكيز خان » وبين « خوارزم شاه » ، وكان « جنكيز » من المغول ، فزحف بجيش جرار مكتسحاً في طريقه « بخارى وسمر قند » منكلا بأهلها ، ولم يستطع خوارزم شاه أن يقف أمامه أو يقابله وجهاً لوجه ، حتى استطاع أن يصل إلى حدود العراق ، وتم له ذلك في سنة 617 هـ ـ 1220 م .

وفي عهد حفيده « هولاكو » تم للمغول الاستيلاء على بغداد سنة 656 هـ ـ 1258 م ، وقضوا على الخلافة والحضارة العباسية فيها ، كما زحفوا على البلاد الإسلامية الأخرى ، حتى بلغوا الشام وقصدوا مصر ، ولكن ملكهم « سيف الدين قطز المظفر » وحد كلمة المسلمين في مصر والعرب ، والتقى بالمغول الزاحفين في « عين جالوت » ، ثم في « بيسان » ، وانتصر عليهم بعد معارك عنيفة ، وردهم عن مصر ، وقضى على خطرهم الكاسح الزاحف ، حتى أخرجهم من الشام كلها بمساعدة قائده « ركن الدين بيبرس » ، وفي الوقت الذي تم فيه للمغول اجتياح البلاد الإسلامية على هذه الصورة ، لم يستطيعوا دخول الهند

كما عجزوا عن دخول مصر ، فظلت الدولة الإسلامية في كل منها قائمة تحت سلطان المماليك ، تصد غاراتهم ، وتحول بينهم وبين دخول البلاد ، وكان السلطان بالهند في ذلك الوقت الذي سقطت فيه بغداد هو « ناصر الدين محمود بن ألتمش » ، فكانت دلهي في عهده وعهد خلفه « السلطان غياث الدين بلبن » ملجأ وملاذا للأمراء والكبار الفارين من وجه المغول في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية التي اجتاحوها ، ووجد هؤلاء الفارون من سلاطين دلهي المسلمين كل إكرام وإعزاز ، كما سبق أن أشرنا إليه أثناء الكلام عن « غياث الدين بلبن » .

وكان المغول في ذلك الوقت يعبدون قوى الطبيعة ، فلما اختلطوا بالمسلمين في البلاد المفتوحة بدأوا يعرفون الإسلام ويعتنقونه ويتحمسون له . وبذلك دخل في الإسلام عنصر قوي ، ودم جديد متحمس ، سواء في ذلك المغول المقيمون في الهند وغيرها من البلاد الإسلامية ، أم المغول الذين يقيمون في بلادهم بعد احتكاكهم بالمسلمين .

وكان « تيمور » من هؤلاء المغول المسلمين ، أهلته جرأته وإقدامه إلى الاستيلاء على « سمر قند » وما وراء النهر وتركستان وخوارزم وكاشغر وبلوخستان وخراسان والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية متخذاً من « سمر قند » عاصمة له ، وكان يتصل من جهة أمه بالقائدين السابقين العظيمين « جنكيز خان » وحفيده « هو لاكو » ولكنه كما يقول المؤرخ الهندي سيد هاشمي : لم يكن من المغول المتوحشين الذين جاءوا للهند في عهد المماليك في جيش غير منظم وغير مهذب ، بل كان جيشه منظماً تحت قيادة علمية حكيمة .

ولقد استطاع تيمور أن يستولى على البلاد الإسلامية ويفتحها ، حتى بلغ الشام ، وطلب من حاكم مصر التسليم وكان السلطان « برقوق » ، فأبى واستعد للحرب ، ولكنه مات ، فقام خلفه ابنه السلطان « فرج » لقتاله حتى هزمه قرب دمشق(1) واضطر تيمور أن يطلب الصلح فأجابه إليه ، ولكن الفتنة التي قامت فى جيش المماليك جعلت السلطان يترك الشام ويعود إلى بلاده ، مما أتاح لتيموردخول دمشق وتخريبها سنة 803 هـ ـ1400 م ولكنه لم يستطع الزحف إلى مصر .

قبل ذلك كان « تيمور » قد أغوته الهند كما أغوت سابقيه ، وشجعه على ذلك اضطراب الحكم فيها ، وقيام الفتن والثورات الداخلية وضعف السلاطين المسلمين ، على أنه مع ذلك قد صبغ هجومه عليها صبغة دينية إسلامية ، حيث رأيناه يعلن بأن هجومه « لمحض الرغبة في محاربة الكفار ، ونشر الدين الحق طبقاً لما جاءت به تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم . ولتطهير البلاد من رجس الكافرين ؛ وتحطيم أصنامهم ، وهدم معابدهم ، ولكي نصير غزاة مجاهدين وقادة لجيوش المؤمنين »(2) .

وقد اجتاح « تيمور » البنجاب ، ونراه في هجومه يحرص على أن

---

(1) وهكذا لم يذق المغول طعم الهزيمة إلا على يد الجيش المصري سواء في عهد هولاكو أم تيمور ، وهذا مما تفخر به مصر في تاريخها المجيد وان كانت الهند قد صمدت طويلا أمام غارات المغول كما أشرنا من قبل لكنها أخيراً خرت أمامهم . ومن الموافقات العجيبة أن سلاطين المماليك في مصر والهند هم الذين تصدوا للمغول .

(2) من مذكرة المرحوم الأستاذ حبيب . ص71 .

يظهر بمظهر المسلم الغيور ، فيزور قبر ولي الله الشيخ « فريد الدين شكر كَنج » ، كما نراه ينتقم لأحد المسلمين الذي قتله الهندوس مع خسمائة كانوا معه ، فيقتل بهم ألفاً من الهندوس ، ولما حاصر إحدى قلاع الأمراء الهندوسيين « راثي جندل » وانتصر عليه ، طلب منه العفو فلم يقبل ، فأرسل إليه الراجا الهندوسي رجلا شريفاً من السادات ، فقبل « تيمور » وساطته ، وعفا عن الراجا(1) .

وتقدم « تيمور » إلى دلهي ، ومعه غنائمه وأسلابه ، وحينما وصل قريباً من دلهي كان معه نحو مائة ألف من الأسرى الهندوس ، فقال له بعض أمرائه إننا نخشى إذا تلاقينا مع جيوش دلهي أن ينتهز هؤلاء الفرصة ، ويكونوا حرباً علينا ، لا سيما إذا لم نحرز النجاح في هجومنا ، فأمر تيمور أن يقتل جميع الأسرى الذين يزيد عمرهم عن خمس عشرة سنة ، أما الصغار فيظلون عبيداً في خدمة الجنود ، فكانت مجزرة رهيبة ، ثم لم يجد كبير عناء في الاستيلاء على دلهي ، وفر السلطان « محمود » ووزيره « إقبال خان » إلى كَجرات « ثم إلى مالوا » تاركين العاصمة له سنة 801 هـ ـ1398 م ، وحين تم له النصر صلى ركعتين بجوار قبر « فيروز شاه » شكراً لله ، وأقام في ميدان المصلى ، فحضر إليه الأشراف والمشايخ ، فأكرمهم وأجابهم إلى ملتمسهم أن تسلم بلدتهم من السلب والقتل ، ولكن المدينة تعرضت مع ذلك لأقسى غارات النهب والسلب ، وحملات القتل والتدمير ، ولم يسلم منها إلا حي الأشراف والسادات احتراما لمركزهم الديني .

---

(1) تاريخ فرشته جـ2 ص79 .

ويفسر المؤرخون ما حصل لدلهى بأن الجنود انتشروا في البلد يبحثون عن المجرمين المختفين ، فأدى ذلك إلى حوادث صغيرة بينهم وبين الأهالي ، كانت سبباً في ثورة الجند وقسوتهم على الأهالي في السلب والنهب والقتل ، وكان أمراؤهم يحاولون إيقاف ثورتهم ، لكنهم لم يستمعوا ، وكان تيمور في ذلك الوقت محتجباً في قصره لعدة أيام ، فلم يسمع شيئاً من ذلك ، ولم يستطع أحد إبلاغه نبأ ما حدث . وأنا أستبعد هذا التعليل الذي يحاول به المؤرخ تبرئة « تيمور » من نقضه لعهده ؛ لأنه من البعيد جداً أن يحدث مثل هذا في دلهى ولا يعرفه « تيمور » ، ومن البعيد أن يظل في قصره جاهلا بما يجري حوله ، وهو القائد الفاتح المحارب الذي يعرف ما يجب على القائد من اطلاعه ووقوفه على الأمور أولا بأول .

وهناك مؤرخون آخرون يعللون هذا تعليلا أقرب ما يكون إلى القبول فيقولون : إن الجنود انطلقوا في البلد يحصلون الأموال التي فرضت على الناس ، ولكن الأهالي لم يستجيبوا لهم ، وكان في الجنود غرور وقسوة ـ كما هي عادة الفاتحين المنتصرين ، ولا سيما إذا كانوا من جنود المغل ـ فأدى ذلك إلى احتكاك بينهم وبين الأهالي قتل بسببه بعض الجنود ، فبلغ ذلك الأمر إلى « تيمور » فاستشاط غضباً ، وأمر بحملة القتل والتأديب لهؤلاء المتمردين ، فأعمل الجنود قسوتهم مع الناس جميعاً مسلمين كانوا أم هندوسا ، ولم ينج من انتقامهم إلا الأشراف والسادات والحي الذي يسكنون فيه[1] .

---

(1) تاريخ فرشته جـ2 ص80 وما بعدها ملخصا .

وقد مكث « تيمور » في دلهي خمسة عشر يوماً ، كانت في الواقع أقسى أيام عرفتها ، ثم تركها بعد هذه الأيام تعاني آلام القتل والتدمير والفقر ، ولم يترك إلا حامية صغيرة لحراسة الأشراف والسادات ، وسار متجها إلى البنجاب ، فمن قدم له الهدايا والخضوع قبل منه ذلك ، ومن أظهر العصيان والتمرد لقي جزاءه . وتعرضت بلاده للتدمير ، حتى خرج من الهند ـ دون أن يحكمها كما كان يعلن ـ حاملا معه الأسلاب والغنائم من الذهب والفضة والمجوهرات ، متجهاً إلى البلاد الإسلامية في الغرب وأخيراً توفي سنة 807 هـ ـ 1404 م ودفن في سمر قند . وقد كان « تيمور » محباً للفنون ، أعجبته مباني مسجد محمد طغلق وغيره ، وأحب أن يقيم مثلها في « سمر قند » عاصمة ملكه ، فجمع أساطين الفن والعمارة من دلهي وأرسلهم إليها .

وبخروج تيمور من دلهي ومن الهند أتيح للسلطان محمود ووزيره إقبال الفارين من وجهه قبل ذلك أن يرجعا إلى عرش السلطنة ، ولكن أية سلطنة كانت ؟ !

لقد كانت سلطنة إسمية ليس لها نفوذ حقيقي ؛ فقد ضاعت هيبتها ، وأتيح لكل من له غرض أو شهوة في الحكم والسيطرة أو التمرد أن يعلن ما يريد ، ولم يمكث محمود طويلا حتى فقد وزيره « إقبال » في البنجاب ، ثم مكث بعده نحو اثنتي عشرة سنة ، حيث توفي في ذى القعدة سنة 815 هـ ـ 1412 م بعد أن ظل على العرش ما يقرب من عشرين سنة ، ملئت كلها بالفتن والأحداث كما رأيت . . وبموته انتهت أسرة طغلق الحاكمة ، وحاول « دولت خان لودي » أن يحكم خلفا له ،

ولكن « خضر خان » - وكان حاكم « لاهور » - زحف إلى دلهي ، واستولى عليها ، وقبض على « دولت خان » وسجنه حتى مات في سجنه ، بعد أن حكم سنة وثلاثة شهور ، واستولى « خضر خان » على الحكم في ربيع الأول سنة 817 هـ-1414 م .

وبه بدأ حكم السادات في دلهي . .

حكم السادات
817 هـ-1414 م إلى 825 هـ-1451 م

أسس « خضر خان » أسرة جلست على عرش دلهي نحو سبعة وثلاثين عاماً ، كانت كلها مليئة بالفتن والثورات ، وتقلص فيها نفوذ دلهي إلى حد كبير ، واستقلت الأطراف ، ففي الشرق مملكة « جونبور » ، وفي الجنوب « مالوا » ، وهكذا لم يعد لملوك دلهي شيء من السلطان ، حتى على دلهي نفسها ، بعد أن فقدوا هيبتهم ، وضاعت منهم كل أملاكهم ، وقد ادعى « خضر خان » حين جلس على العرش أنه نائب عن تيمور ، ولعله أراد بذلك مصانعة المغول أو الاعتراف بجميل تيمور على السادات ، وعلى كل حال تعاقب على دلهي في هذه المدة « خضر خان » من سنة 817 هـ-1414 م-824 هـ-1421 م ، ثم ابنه « مبارك شاه » إلى سنة 839 هـ-1435 م ، ثم « محمد شاه ابن فريد خان بن خضر خان إلى سنة 849 هـ-1445 م ، ثم ابنه « علاء الدين » إلى ربيع الأول سنة 855 هـ-1451 م ، وكان مشهوراً بلقب « شاه عالم » ، ولم يمتد نفوذه إلى أكثر من أطراف دلهي ، حتى تندر الناس والمؤرخون بهذه العبارة ، التي تدل على مقدار سلطنته : « ملك

شاه عالم من دهلى إلى پالم » ، وپالم مكان في أطراف نيودلهي يقوم به المطار الآن .

وقد انتهى ملك السادات في زمنه ، حيث استولى على العرش « بهلول لودي » وهو من أسرة أفغانية كانت تحكم لاهور ، وبه بدأ حكم اللوديين في دلهى .

حكم أسرة لودي

855 هـ ـ 1451 م إلى 932 هـ ـ 1526 م

وهذه هي الأسرة الثانية التي بدأ حكمها وسطوع نجمها في لاهور أيضاً ، ثم زحفت منها إلى دلهى حيث استولت عليها ، وحكمت منها ، فقد كان خضر خان رأس الأسرة السابقة حاكماً في لاهور ، وفي عهد « شاه عالم » كان بهلول حاكما على لاهور كذلك ، ولما رأى ضعف العاصمة ، وتعرض نفوذ المسلمين فيها للضياع ، وكثرة الفتن والأحداث ، زحف إلى دلهى واستولى عليها ، وبايعه جميع الأفغان في ربيع الأول سنة 855 هـ ـ 1451 م ، وفر شاه عالم ، واختفى عن الأعين ، وعاش في « بدايون » كفرد بسيط لا يعرف عنه أنه كان ملكاً ، حتى توفي سنة 883 هـ ـ 1478 م وكان « بهلول » رجلا عادياً في أول أمره ، ثم سعى الحظ في ركابه ، حتى صار حاكم « لاهور » ومنها قفز إلى دلهى .

والمؤرخون يذكرونه بالتقدير من ناحية أخلاقه وسيرته ومعاملته للناس ، ولا سيما العلماء ، وتواضعه مع رعيته حتى كأنه واحد منهم ، وكان عماله من المسلمين والهندوس على السواء .

وقد مكث في الحكم نحو سبعة وثلاثين عاماً . حيث أعاد الروح إلى عرش دلهي ، حين جعل لاهور والولايات التي كان يحكمها تابعة له ، ثم حارب السلطان « حسين شاه الشرقي » ملك « جونبور » الذي هجم على دلهي مرات بقصد الاستيلاء عليها ، فكان نصيبه الفشل ، وضياع ملكه ، وضمه إلى ملك دهلي ، وأقام « السلطان بهلول » عليه ابنه « باربك » نائباً عنه ، وفر حسين الشرقي إلى أطراف بلاده ، وأقام هناك قانعاً بقليل من العيش .

وقد وسع بهلول ملكه كذلك من ناحية الجنوب في وسط الهند ، وبذلك استعادت سلطنة دهلي مكانتها واتسع نفوذها .

وكان بهلول في قومه مثال الملك الصالح ، مقداماً شجاعاً صادق القول متورعاً ، يجالس العلماء ويذاكرهم في مسائل الشريعة ، ويبذل جهده في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحسن إلى قومه الأفغان ، ويبالغ في إكرامهم ، ولا يجلس على السرير في حضرتهم ، وتردد إلى بيوتهم ، ويتناوب الطعام في بيوت الأمراء ويركب أفراسهم عند الحاجة(1) .

وتوفي بهلول سنة 894 ـ هـ 1488 م . وخلفه ابنه السلطان عادل نظام الدين المشهور باسم « اسكندر شاه اللودي » .

وقد وقع نزاع بينه وبين أخيه « باربك » حاكم « جونبور » الذي لم يسلم له بولاية الملك بعد أبيه ، وانتهز « حسين الشرقي » الفار الخلاف

---

(1) نزهة الخواطر جـ 3 ص 43 .

بين الأخوين ، فشجع « باربك » وانضم إليه ، ولكن اسكندر انتصر على أخيه ، وفر حسين إلى البنكَال ، وخضعت ولاية جونبور لسلطنة دلهي كما كانت ، فاتسعت حتى وصلت إلى « بندهيل كهند » ، وتجاوزت بنارس .

وفي سنة 909 هـ ـ1503 م ترك « اسكندر شاه » مدينة دلهي إلى « أكَرا » ، وسكن هناك بناحية منها ، لا تزال تسمى باسمه للآن « سكندره » .

وكان اسكندر من خيرة السلاطين ، تقيا عالماً محسناً متواضعاً ، يحب العلماء ويكرمهم ، ويسهر على راحة شعبه ، مجتهداً في تطبيق العدالة بين رعاياه ، وتوفي في سنة 923 هـ ـ1517 م .

وقام بعده ابنه السلطان « ابراهيم اللودي » ، فلم يحسن تدبير ملكه ، فقامت ثورات في كل مكان ، كما قامت حرب بينه وبين أخيه « جلال الدين » حاكم « جونبور » انتهت بانتصاره وقتل أخيه ، ولكن كثيراً من الولايات التابعة له قد استقلت ، وفر كثير من أتباعه وقواته ، ولحقوا بأعدائه خوفاً على أنفسهم من القتل وسوء المعاملة ، بعد ما دبر إبراهيم مؤامرة للكثير من رجاله الذين أساء الظن بهم وقتلهم . . حتى حاكم لاهور « دولت خان اللودي » أحد أفراد أسرته الذي ثار عليه ، وزحف بجيشه على « دلهي » ، وكاد يستولي عليها ، لولا أن جنوده شغلت بالسلب والنهب بعدما تم لهم النصر ، فهجم عليهم « إبراهيم » وهزمهم ، واضطر « دولت خان » للفرار من دلهي ، والاستنجاد بالحاكم التيموري « بابر » الذي كان يسيطر على كابل وما حولها غربي

الهند ، فانتهز « بابر » هذه الفرصة ، وسار بجيش قليل ، ولكنه منظم مزود بالأسلحة الحديثة ، فتم له النصر على « إبراهيم اللودي » الـذي قتل في معركة « باني بت » سنة932 هـ ـ1526 م ، فدخل بابر دلهى ، واستولى على عرشها ، وبدأ به حكم دولـة إسـلامية جديدة هي دولـة المغول .

الدُول الإسلامية الأخرى في الهند

ركزت الأضواء كلها للآن على الدولة الإسلامية التي قامت في دلهي ، واتخذت منها عاصمة ؛ لأنها هي الدولة الكبرى التي كانت تتجه إليها الأنظار ، وكانت حين قوتها تسيطر وتتسع سيطرتها ، وحين تضعف تستقل بعض الأطراف عنها ، فكانت للملك بمثابة القلب في الهند .

وهناك دول إسلامية أخرى كانت تقوم على أنقاض ضعف سلطان دهلي ، وتعيش مستقلة حتى إذا قوي سلطان دلهي أعادها مرة ثانية إلى سلطانه ، وقضى على استقلالها فتصير تابعة لدلهي .

من هذه الدول : دولة قامت في الكَجرات ، وأخرى في الدكن ، وثالثة في البنكَال ، ورابعة في جونبور وخامسة في مالوا .

ولا أريد الآن أن أستقصي لك أحوال هذه الممالك ؛ فإن ذلك يستدعي كتباً مستقلة تتبع أحوال الملوك ، وكيف وصلوا إلى الحكم ، وكيف حكموا ، وكيف قامت الحروب بينهم وبين غيرهم . . الخ . .

الشيخ عبد العزيز بن شمس الدين الدهلوي كتاباً كان يشتمل على مائة وأربعة أبواب ، فترجم منها مائة باب في أحكام الكسوف والخسوف وكائنات الجو وعلامة المطر وعلم القيامة والفال وغيرها ، وهذا الكتاب محفوظ في المكتبة الحبيبة بقرية « بهيكن بور » من أعمال عليكَره . وصنف له علماء زمانه عدة كتب بأمره وتوجيهه فنظم أعز الدين الخالد خاني كتابا في الحكمة الطبعية والتفاؤل والتطير ، وسماه « دلائل فيروز شاهي » ، وكذلك صنف عن الملك كتباً بأمره ، وصنف القاضي ضياء الدين البرني تاريخا سماه « التاريخ الفيروز شاهي » في تاريخ ملوك دلهي من عهد بلبن إلى أيامه(1) .

على أن الذي يدعو للعجب أن السلطان نفسه كان مشغولاً بالتأليف والبحث ، برغم مشاغله العديدة في إدارة الحكم ، وأمور الحرب ، فألف كتاباً في الرياسة والسياسة رتبه على ثمانية أبواب ، وأمر أن ينقشوها في الأحجار ، وينصبوها في المنارة المثمنة من الجامع الكبير بفيروز أباد دلهي ، كما اخترع السلطان ساعة عجيبة يخرج كل ساعة منها صوت عجيب يترنم ببيت من الشعر ، يذكر الملك بأن كل ما دقت الساعة يعلم أنه قد نقص من عمره ساعة ، وكانت تستخرج منها أوقات الليل والنهار ، ووقت إفطار الصائم ، وكيفية الأظلال وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول ، ونصبت تلك الساعة بمدينة فيروز آباد(2) .

---

(1) ، (2) نزهة ص112 جـ2 . وهذا البيت هو : -

هر ساعتي كه بردهشه طاس ميزنند نقصان عمر في شودآن يا دمي دهند

وضياء الدين البرني كان من مشاهير الفضلاء وأعرفهم بالتاريخ وسياسة المدن وقرض =

وعلى كل حال يمكن من خلال أعمال « فيروز شاه » التي سردناها أن نكون فكرة عن شخصيته واتجاهه في الحكم ، ذلك الاتجاه المحمود الذي تنشده الرعية في راعيها وحاكمها دائماً ، لقد كان فيروز يحرص باستمرار على أن يسمي نفسه « الحقير المذنب فيروز بن رجب » ، ولم يكن تواضعه هذا يحمل معه جانباً آخر من القسوة والشدة كما كان ابن عمه محمد طغلق ، بل كان تواضعاً خالصاً ، ورغبة طيبة في خدمة الشعب ، وكان يعلن في كل ما يعمله أنه يعمله بعناية الله وتوفيقه ومن أجل عباده لعلهم يذكرونه بالخير ، وقد قص المؤرخ « فرشته » قصة وقعت لابنه « فتح خان » وهي كافية لأن تكون عنوان العهد الفيروزي . فقد كان ابنه وولي عهده « فتح خان » هذا يتعلم في مدرسة ، وعاد منها متعباً وقت الظهيرة ، فانتهزت فرصة مروره عجوز ، واشتكت له ما حدث لزوجها وأولادها التجار الذين أخذ الجيش الفيروزي كل ما كان معهم وقبض عليهم ظناً أنهم من الجواسيس ، فقال لها إيتيني بالشهود ، وتعالي إلى القصر ، ولكنها قالت له : لا أستطيع دخول القصر إن أتيت بالشهود ، فقال لها : حسناً سأنتظرك هنا حتى تأتيني بهم . فوقف وقت الظهيرة ، وفي حر دلهي مدة ينتظرها حتى طال الانتظار ، وكلما زين له مرافقوه أن ينصرف قال : لا . . لا بد أن يكون الأمراء أوفياء لشعبهم ، وجاءت المرأة بمن شهد على صدقها فأخذهم جميعاً إلى القصر ، فوجد أباه نائماً ، فانتظر معهم

= الشعر ، وكانت بينه وبين الأمير خسرو الشاعر الكبير مودة ومباحلة في قرض الشعر وإنشاده ، كما كان من أصحاب ولي الله الشيخ « نظام الدين » المعروف قبره الآن باسم قبر « نظام الدين أوليا » في دلهي وكان من أعظم الأولياء في أيامه .

لكن إذا كان المقام لا يتحمل التفاصيل ، فإنه يتسع للأجمال ، لكي نرسم صورة عامة عن أحوال هذه الممالك وملوكها حسب ما يتسع له المقام .

الدولة الإسلامية في الكجرات(1)
810 هـ ــ 1407 م إلى 965 هـ ــ 1572 م

كانت الكَجرات تابعة لدهلي ، وحين قامت فيها ثورة أرسل لها سلطان دلهي « ناصرالدين محمدالطغلقي » أحد قواده وهو « ظفرخان » سنة 793 هـ 1390 م لإخادها ، فنجح في ذلك ، وظل مقيماً بها نائباً عن السلطان في حكمها ، محافظا على ولائه لدهلي ، حتى حين خرج عليها كثير من الولاة ، واستقلوا بولاياتهم ، ولما هجم « تيمور » سنة 801 هـ ــ 1398 م على دهلي فر سلطانها إلى كَجرات ، واحتمى بها مدة ، ثم انتقل إلى « مالوا » وظل بها حتى خرج تيمور من الهند ، ورجع السلطان إلى عاصمته مرة ثانية ، لكن دهلي اعتراها الضعف الشديد ، فلم يجد « ظفر خان » مناصا من الاستقلال بها ، فأعلن استقلالها ، وسمي باسم « مظفر الأول » وكان ذلك سنة 810 هـ ــ 1407 م . ذكر عنه صاحب نزهة الخواطر(2) أنه « السلطان الصالح المجاهد في سبيل الله الغازي » كان من أمراء فيروز شاه الدهلوي ، ولاه السلطان « محمد بن

---

(1) تقع الكجرات الآن في شمال ولاية بومباى من ولايات الهند . وجنوبها يطل على بحر العرب وأشهر مدنها « أحمد أباد » التي تعتبر عاصمة البلاد الكجراتية ، وكانت لها صلات تجارية وثقافية في الماضي مع البلاد العربية ، وتتكلم اللغة الكجراتية .

(2) ص 169 جـ3 .

فيروز » على كَجرات سنة 793 هـ ، فساس أمور الملك بالعقل والدهاء والتدبير والسياسة ، وغلب على أرض كَجرات كلها ، ولما تزلزل بنيان السلطنة بدهلي ، وتلاشت أجزاؤها استقل بكَجرات سنة 810 هـ ، ولقب نفسه « بمظفر شاه » ، وكان عادلا فاضلا كريماً ، رحيماً شجاعا مجاهداً في سبيل الله ، متعبداً حسن العقيدة والفعال ، سموه في كبر سنه فمات ، وكانت وفاته في سنة 813 هـ - كما في « مرآة سكندري » أي ما يوافق سنة 1410 م .

أحمد شاه

وقام بعده بالملك حفيده « أحمد شاه » بوصية منه ، فساس أمور الدولة بالعدل والإحسان ووسع رقعتها ، وأنشأ مدينة جديدة قريبة من سركَيج أو « سرغيز » التي كانت مقر الحكم ، سمي هذه المدينة الحديثة باسمه واسم شيخه « أحمد الكهتوي » وكان صوفياً كبيراً(1) وهي مدينة « أحمد أباد » الشهيرة في الماضي والحاضر ، والتي صارت عاصمة الكَجرات منذ ذلك الوقت .

اجتمع عنده أهل العلم من كافة الأقطار ، لما عرفوه عنه من التدين ، وتشجيع العلم وإكرام العلماء ، وحثهم على التصنيف ، ومن

(1) هو الشيخ الزاهد شهاب الدين أحمد بن عبدالله الكهتوي السركيجي أحد المشايخ المشهورين في الهند في التصوف ، طلب منه مظفر شاه أن يقيم معه في سركيج ، فأقام فيها ، وبايعه أحمد شاه ، وأخذ عنه طريقته لشدة حبه وتقديره له . ولد سنة 737 هـ 1336 م وتوفي سنة 849 هـ 1445 م ودفن في سركيج بجوار مقبرة السلاطين ، وقد زرت قبره حين ذهبت لأحمد أباد ، ورأيت آثار هذه المدينة البائدة « سركيج » في 29 اكتوبر سنة 1956 .

هؤلاء العلماء الشيخ بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني[1] الذي صنف له شرح التسهيل لابن مالك، ومصابيح الجامع في شرح البخاري، وعين الحياة وهو مختصر حياة الحيوان الكبرى للدميري، وتحفة الغريب في شرح مغنى اللبيب.

وتوفي أحمد شاه في سنة 845 هـ - 1442 م فتولى الملك ابنه محمد شاه إلى سنة 855 هـ - 1451 م ثم قطب الدين بن محمد إلى سنة 862 هـ - 1457 م ثم داود بن أحمد شاه الذي لم يلبث أن عزل وتولى بعده محمود شاه.

محمود شاه

أحد مشاهير ملوك هذه الأسرة وهو المعروف باسم «محمود بيكَرو»[2]، وبيكَرو تتألف من كلمتين «بي» ومعناها اثنان، و «كَرو» ومعناها قلعة، أي صاحب القلعتين، واشتهر بهذا الاسم لفتحه قلعتين من أمنع القلاع، وهما «جبرنار وشامبانير» تولى الملك سنة 863 هـ - 1458 م، وظل في الحكم خمسة وخمسين عاماً، كانت كلها حافلة بجلائل الأعمال، قام بحروب عظيمة، فتح فيها القلاع

---

(1) ولد بالاسكندرية وتلقى العلم بها وبالقاهرة ثم أخذ يتنقل في البلاد الإسلامية حتى وصل إلى كجرات في أيام السلطان أحمد شاه سنة 820 هـ - 1417 م فأكرمه وأغدق عليه، وأقبل الناس على علمه، ثم رحل إلى الدكن وتوفي بها بمدينة كلبر كه «إحسان أباد» سنة 827 هـ 1423 م.

(2) كان معاصراً له من سلاطين دلهي السلطان «اسكندر لودي» وكانت بينهما محبة، وأرسل له اسكندر التحف والهدايا.

والحصون ، ووسع ملكه ، لكنه تحاشى أن يكون ذلك على حساب جيرانه من المسلمين ، فقد كان هذا السلطان تستولي عليه عاطفة إسلامية ، مع رجولة نادرة ، تجعلنا نقف عندها لنقص شيئاً من قصصها . وكان حريصاً على أن يسود التوفيق حكام المسلمين جميعاً ، فلا يطغى منهم قوى على ضعيف ، فإذا حدث ذلك من أحدهم هب لنصرة الضعيف في شهامة تحمد له على مر التاريخ .

حدث سنة 866 هـ ـ 1461 م أن وصله رسول من أم نظام شاه البهمني صاحب الدكن الإسلامية ، يخبره أن « محمود شاه الخلجي » سلطان « مالوا » خرج إلى الدكن بعساكره ويستنجد به ، وكان محمود في رحلة للصيد ، فقطع رحلته ، وجهز جيشه لينجد الدكن ، فلما علم الخلجي بذلك رجع ، ثم حدث مثل ذلك في العام الذي يليه ، ولما رجع الخلجي كتب إليه محمود كتاباً يقول له فيه : ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم ، وقد التزمت حفظ ملكه ، حتى يبلغ مبلغ الرجال ، فإن دخلت حده دخلت في حدك . وفيما يليك من جهات الكفار ما يغني عنه ، ويرفع درجتك بالجهاد .

ومع ذلك لما بلغه أن محمود شاه الخلجي توفي ترحم عليه ، وعمل له زيارة ، ولما زين له بعض جلسائه انتهاز الفرصة والاستيلاء على ملكه قال لهم : ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين على أهل بيته في وقت واحد : فقد ذاته وخلل جهاته .

ولما سمع بعد ذلك أن ناصر الدين الخلجي سم أباه غياث الدين خلجي قصد تأديبه ، ولم يرجع عنه إلا بعد أن أظهر براءته .

وهكذا تراه من خلال هذه الحوادث رجلا مسلماً شهماً ، قل أن يوجد نظيره في الرجال .

وكان بجانب شهامته هذه معنياً بتعمير البلاد ، وتأسيس المساجد والمدارس والحدائق ، والإكثار من الزراعة وغرس الأشجار وحفر الآبار ، ولذلك أقبل عليه أهل الفن والحرف من كل البلاد ، فارتقت كَجرات في عهده من النواحي العلمية والزراعية والصناعية ، وكانت تصدر الثياب الفخمة إلى كثير من البلاد حتى أوروبا .

وكان يكرم العلماء ويقربهم ؛ ولذلك اجتمع كثير من علماء الهند والعجم والعرب ، واشتهرت كَجرات في أيامه بدراسة الحديث . وفد عليه جلال الدين بن محمد المالكي المصري فقربه إليه ، ولقبه بملك المحدثين(1) . كما وفد عليه العلامة مجد الدين الأيجي(2) ، فأكرمه وعهد إليه بتربية ابنه « مظفر » الذي ولي الملك بعده ، وصنف له بعض العلماء كثيراً من الكتب ، كما ترجم له أحد العلماء تاريخ ابن خلكان

---

(1) ولد بمصر سنة 856 هـ 1452 م وتعلم بها ثم ارتحل إلى مكة ، وقرأ على شمس الدين السخاوي كتب الحديث ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم إلى الهند في عهد السلطان محمود ، فأكرمه كثيرا ، حتى إذا مات وخلفه ابنه مظفر حصلت بينهما جفوة بسبب الدس عليه ، وبقي في أحمد أباد حتى توفي سنة 929 هـ 1522 م ودفن بها .

(2) من العلماء المشهورين بالحديث ، لقبه السلطان محمود برشيد الملك . ولما تولى « مظفر » الحكم قدمه على جميع الأمراء ، وجعله وزيرا له سنة 917 هـ 1511 م واستمر وزيرا أربع عشرة سنة ، ثم في عهد ابنه بهادور شاه منحه النيابة المطلقة ، فقام بها خمس عشرة سنة ، ولما جاء همايون شاه التيموري ، واستولى على كجرات أخذه معه إلى أكرا وقربه إليه ، حتى إذا فر همايون وتولى شير شاه السوري أذن له في الرجوع لكجرات ، فرجع إلى أحمد أباد ، ولما مات دفن بها .

للفارسية[1] ، وقدم عليه أبو القاسم بن أحمد المكي المعروف بابن فهد ومعه فتح الباري بخط أبيه وعمه ، وقدمه إليه فأكرمه .

وفي أيامه أخذ البرتغاليون يهاجمون سواحل الكَجرات ، فاستعان هو والزامورين ملك المليبار الهندوسي بالأسطول المصري في عهد « قانصوه الغوري » وكان البرتغاليون كثيراً ما يعتمدون على السفن المصرية في بحر العرب والبحر الأحمر ، فاستجاب لهما سلطان مصر ، وأرسل الأسطول بقيادة الأمير حسين ، ووقعت بينهم وبين البرتغاليين معركة بحرية أمام « كاليكوت » في مليبار ، تحطم فيها الأسطول البرتغالي سنة 914 هـ ـ 1508 م غير أن الأسطول البرتغالي ، جمع شتاته وسار شمالا إلى « ديو » في الكَجرات حيث كان الأسطول المصري والكَجراني هناك ، وفي هذه المرة استطاع أن يهزم الأسطولين بسبب خيانة حاكم ديو ، وتواطئه مع البرتغاليين ، ومنعه تموين الأسطول المصري ؛ مما جعله يغادر مياه الهند راجعاً إلى مصر ، فقوى شأن البرتغاليين بعد هذه الموقعة .

وفي آخر أيام السلطان محمود توجه إلى « نهر واله » ، وزار أئمة الدين أحياء وأمواتاً ، وعقد مجلساً خاصاً لمذاكرة التفسير والحديث ، وأكثر من العطايا ، ثم رجع إلى سر كَيج ، وأكثر من أعمال البر ، والتردد على قبر الشيخ أحمد كتو .

وكان قد أنشأ لنفسه مقبرة ، فذهب إليها وفتحها ، وجلس عند

---

(1) سماء منظر الإنسان ـ ترجمة تاريخ ابن خلكان .

القبر وقال : اللهم هذا أول منازل الآخرة فسهله لي ، واجعله من رياض الجنة ، ثم ملأه فضة . وتصدق بها على المحتاجين . .

ثم توفي في يوم الاثنين الثاني من شهر رمضان سنة 917 هـ ـ 1511 م بعدما مكث في الحكم خمساً وخمسين سنة .

مظفر الحليم

وخلفه ابنه « مظفر » الذي اشتهر باسم السلطان مظفر الحليم الكَجراتي .

كان هذا السلطان نموذجاً عالياً للملوك ، جمع الفضل من أطرافه ، ويطيب لي أن أسترسل قليلاً في ذكر تاريخه الحسن ، فمثله قليل في الملوك ، وبسيرته الطيبة النادرة يتعطر التاريخ .

عني والده بتربيته على يد العلماء والمشايخ ، ووكل به العلامة الشيخ المحدث مجد الدين الأيجي ، حتى صار من حفاظ القرآن ، ومن المحدثين الفقهاء . اشتهر بالتقوى والعفو والتسامح حتى أطلق عليه « السلطان الحليم » ، وكان مع ذلك عارفاً بالموسيقى ، ملماً بعلوم زمانه ، ماهراً في الفنون الحربية وفي الخط بجميع أنواعه ، كتب مصحفين بيده وأرسلها إلى الحرمين الشريفين[1] .

---

(1) قال الآصفي في تاريخه : إنه كتبها بالخط الثلث بماء الذهب ، وخص بها إمام الحنفية ، وجعل لها وقفاً يصرف لمن يقوم على حفظها ، ومن يدعو له عند ختمها ، وللسقاء الذي يسقي القراء وللفراش كذلك .

وقد حدث في أيامه أن أغار ملوك الهندوس على مملكة « مالـوا » الإسلامية التي يحكمها آل خلجي ، فاستنجد محمود الخلجي الثاني به ، فسار إليه بجيشه ، وكانت موقعة جمع فيها الهندوس قوات ضخمة ، فنازلهم جيش « مظفر » وهزمهم ، ودخل القلعة التي كانوا قد استولوا عليها ، وأعمل فيمن فيها القتل ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، وفر من نجا بنفسه ، ودخل مظفر القلعة مع محمود الخلجي وطافا بها ، وتقدم إليه السلطان الخلجي يقول له : الحمد لله الذي بهمتك رأيت بعيني ما كنت اتمناه لأعدائي ، والآن لم يبق لي أرب في شيء من الدنيا ، والسلطان أولى بالملك مني ، فرد عليه مظفر الحليم وقال له : إن أول خطوة خطوتها إلى بلادك كانت في سبيل الله تعالى ، والثانية كانت لنصرتك ، والحمد لله قد تم لنا النصر ، فبارك الله لك في ملكك ، ووعده بأن ينصره ويعينه دائماً ، وأبقى عنده بعض جيوشه لمساعدته . .

ومن الحوادث ذات الدلالة على تدين هذا السلطان ، أن الخلجي أخذه وطاف به في أنحاء قصره ؛ حتى وصل إلى مكان خرج فيه نساء متزينات يحملن مختلف الجواهر ، ونثرنها تحت أقدامه ، فلما رأى ذلك أشار بأن تحتجب النساء ؛ لعدم جواز النظر إليهن ، فقال له الخلجي : إنهن ملكي ، والعبد وما ملكت يداه لسيده . ثم قفل راجعاً إلى كَجرات ، وكان ذلك في صفر سنة 924 هـ ـ 1519 م .

وهكذا فعل هذا السلطان صاحب النفس الكبيرة التي قل أن يحملها مثله من السلاطين ، فعل ذلك مع أن سلاطين آل خلجي كثيراً

ما وقفوا مواقف عدائية ضد كجرات ، متعاونين مع الهندوس ، وفي أول هذه الحرب ، حينما كان الخلجي مشتبكاً مع الهندوس ، أشار بعض قواد مظفر عليه أن ينتهز هذه الفرصة ، ويهجم على « مالوا » ويأخذها ، ولكنه اجاب بأنه ليس من الرجولة والشهامة في شيء أن نجتمع مع الهندوس ضد الخلجي ، وننتهز فرصة انشغاله ونأخذ ملكه . ويذكر المؤرخون عن تدينه وتقواه الكثير ، ويذكرون الحكايات التي وقعت له في هذا الصدد .

يذكرون أنه كان شديد التمسك بالسنة في كل قول وعمل ، كثير الذكرى للموت ، كثير البكاء كلما ذكره ، محافظاً على الوضوء والصلاة في جماعة ، لم يقرب الخمر قط ، وكان شديد العناية بأحوال رعيته ، حتى كان يتنكر ويخرج بنفسه بالليل والنهار ؛ ليقف على شؤون شعبه بنفسه .

ومما ذكره الأصفي في تاريخه(1) أن تاجر خيل خاصمه عند القاضي ، فخرج إليه ماشياً حتى إذا حضر عنده لم يتحرك القاضي من مجلسه ، ونصحه ألا يترفع عن خصمه ويجلس معه ، وهو مطيع لأمر القاضي ، فلما حكم عليه بدفع ثمن الخيول للتاجر ، ودفعها إليه ، قال القاضي للتاجر : هل بقيت لك دعوى عليه ؟ فقال : لا . . وحينئذ قام القاضي من مجلسه ، وسلم على السلطان ، وقدم له فروض الطاعة ، ملتمساً منه العفو عن معاملته في مجلس القضاء . . فقام

---

(1) نقلا عن نزهة الخواطر ص356 ج 4

السلطان ، وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مكانه ، وجلس بجانبه وشكره على عدالته ، وعدم تمييزه على خصمه ، وقال له : لو لم تفعل هذا وراعيتني لانتصفت للعدالة منك ، وجعلتك كآحاد الناس ، فجزاك الله عني وعن الحق خيرا ، فمثلك يكون قاضياً ، فتهلل وجه القاضي ، وأثنى عليه وقال له : ومثلك يكون سلطاناً . .

هذه الحادثة تكفي لأن تكون عنوان الحكم في هذا العهد ، وتكفي وحدها لأن تكون تاريخاً له .

ومن بره لأهل الحرمين أنه كان يرسل لهم العطايا والأقمشة ، وأنشأ في مكة رباطاً ومدرسة وسبيلا للماء ، وجعل لها وقفاً يرسل إلى مكة ينفق منه على المدرسين والطلبة ومن يقيم بالرباط . .

وقد حدث في سنة 931 هـ ـ 1525 م أن خرج السلطان لصلاة الاستسقاء ، فأكثر من الصدقة على المحتاجين ، وتقدم للصلاة وأخذ يدعو ، وكان آخر ما دعا به « اللهم إني عبدك ولا أملك لنفسي شيئاً ، فإن تلك ذنوبي حبست القطر عن الناس ، فها هي ذي ناصيتي بيدك ، فاغثنا يا أرحم الراحمين » . قالها وهو واضع جبهته على الأرض يكرر قوله : يا أرحم الراحمين . فما رفع رأسه حتى هاجت الرياح والبرق والرعد وأمطر الناس . .

وعند ما مرض ، وشعر بدنو أجله جمع عنده كثيراً من العلماء والصوفيين ، وأخذ يتحدث معهم فيما يصلح أن يكون بلاغا للآخره ، ويذكر لهم ما من الله به عليه من حفظ القرآن والحديث ، وقال : ما من حديث رويته عن أستاذي المسند العالي مجد الدين الأيجي بروايته له عن

مشايخه إلا وأحفظه وأسنده وأعرف حالة راويه ، وما من آية إلا وقد من الله علي بحفظها ، وفهم تأويلها وأسباب نزولها وعلم قراءتها . وأما الفقة فقد عرفت منه ما أرجو به أن أكون ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً بفقهه في الدين » ، وإني منذ مدة وأنا أحاول أن أتشبه بعمل الصوفية ، وأشتغل بتزكية النفس ، عملا بما قيل « من تشبه بقوم فهو منهم » ، وإنني أطمع في شمول بركاتهم متعللا بعسى ولعل . . ثم أخذ يكثر من التصدق ، وزيارة الأولياء حتى توفي إلى رحمة الله سنة 932 هـ ـ 1526 م ، ودفن في سر كيج بجوار والده .

وقد زرت هذه المقابر[1] ، ويقابلها قبر الشيخ أحمد كتو ، شيخ السلطان أحمد ، وهي في مسجد عظيم ، واسع الرحاب فسيح الجنبات متين البنيان ، على بحيرة كبيرة ، كانت بيوت هؤلاء الملوك تقوم عليها ، فأصبحت الآن أثراً بعد عين ، تهدمت البيوت ، وبقي المسجد والمقابر تشهد بعظمة هؤلاء الملوك ، بقدر ما تثير في النفس من ألم دفين ؛ فقد بقي المسجد وسط خرائب ومزارع ، وخلا من العابدين الساجدين إلا قليلا ممن يقوم على حفظه ، ولا يتردد عليه إلا طلاب الذكريات ، وقد أقام أمامه بعض الأهالي « أكشاكا » متداعية تحوي بعض الضروريات للزوار . جلست مع أصحابه بعد أن تعبت من الطواف بنواحي المسجد على شاطىء البحيرة ، بجانب قبور السلاطين العظام ، وأنا أردد النظر في هذه الآثار العظيمة ، التي ظلت بعد أصحابها تقاوم الظروف

---

(1) في 29 اكتوبر سنة 1956 .

والصروف ، وأذكر عنها ما قاله المويلحي في حديث عيسى بن هشام عن الآثار المصرية « خبر صادق ، ولسان ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عمن غبر » .

***

وبعد وفاة « مظفر شاه » قام خلاف بين أركان الدولة على من يتولى الملك من أبنائه ، كان من نتيجته أن قتل « اسكندر » ثم نودي بأخيه الطفل « محمود » ملكاً ، ولكن أخاه الكبير « بهادر » سرعان ما عاد من سفره ، ونادى بنفسه ملكا سنة 932 هـ ـ1526 م ، وقتل أخاه « محمودا » سراً ، وقمع ثورة « لطيف خان » ثمْ قتله ، فاستقر له الملك ، وسار بجيشه إلى « جتور » وأخضعها وإلى « مندو » عاصمة الدولة الخلجية ، فقاتل ملكها « محمود شاه الخلجي » وأسره سنة 937 هـ ـ1531 م ، ثم توجه إلى أجين ، وسار نكَبور ، وبهلسه ، وكاكرون ، وكانور ، وهو شنكَك أباد ، وإسلام أباد ، ومندسور ، وفتحها كلها ، ثم عاد إلى « جتور » وسلط مدافعه على القلعة حتى تم فتحها ، وتقدم له « راناسانكَا » بالطاعة ، وأهدى إليه كل ما ظفر به من أملاك محمود الخلجي وجواهره ، ثم سار إلى « رنتهمبور » ، وفتحها عنوة ، وعاد إلى « جتور » مرة ثالثة وأخضعها . وهكذا قضى هذه السنين في حرب كتب له فيها النصر دائماً .

وكانت دولة المغول التي قامت في دلهي سنة 932 هـ ـ1526 م لم تتعرض للدولة الإسلامية بالكَجرات ، حتى طمع « همايون بن بابر »

في ضمها إلى ملكه ، فسار إليه ، والتقى بجيشه ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصار همايون ، وفرار بهادر إلى « ديو » سنة 942 هـ ـ1536 م ، ولكن لم يجن « همايون » ثمرة النصر ، فقد خرج عليه « شير شاه السوري » وهزمه ، وفر همايون إلى إيران ، فانتهز « بهادر » الفرصة ؛ وكر راجعا إلى بلاده ، طارداً نواب همايون منها ، لكنه هو الآخر لم يتمتع طويلا بلذة العودة إلى بلاده ، فقد بلغه ان البرتغاليين هجموا على « ديو » فسار إلى ملاقاتهم ، وهناك خدعه القائد البرتغالي ، وادعى أنه إنما جاء لتهنئته بعودته للحكم ، لكنه لا يستطيع النزول إلى البر لمرضه ، فسار إليه « بهادر شاه » ، وركب سفينة ؛ ليصل إلى القائد البرتغالي في مركبه ، وبعد ما تقابلا عاد « بهادر شاه » ، لكنه وهو في طريق عودته غدر به البرتغاليون ، وهجموا على سفينته ، فتنبه للخديعة ، وثبت لهم ، وأخذ يحاربهم ، ولكن بدون جدوى ، وسقط شهيداً في البحر سنة 943 هـ ـ1537 م .

وقد اتسعت المملكة في أيامه اتساعاً لم تشهده من قبل ؛ لما عرف به من الشجاعة وعلو الهمة ، وكان جواداً معطاء لا يجري على لسانه في العطاء أقل من لك تنكه(1) مما جعل وزراءه يغيرون قيمة التنكه .

وبموته قامت القلاقل في مملكته ، وظلت كذلك حتى استولى عليها

---

(1) اللك يساوي مائة ألف ، فاضطر وزراؤه إلى تغيير قيمة التنكة ، وهي الصفيحة ، كما هو معروف في الحجاز . .

الامبراطور المغولي « جلال الدين أكبر » سنة 978 هـ ـ1572 م في عهد مظفر شاه الثالث ، وانطوت بذلك صفحة مملكة عظيمة جادت على الزمان برجال عظماء ، سجلوا لهم في التاريخ ذكراً وفخراً . .

سلاطين مالوا

كانت إمارة « مالوا » تقع في وسط الهند ، بين كَجرات والدكن وأكرا .وفي عهد محمد شاه بن فيروز شاه تغلق عُينً « ظفر خان بن وجيه الملك » حاكما لكجرات ؛ و « خضر خان » حاكما على لاهور ، « ودلاور خان غوري » حاكما على مالوا ، وظلت هذه الولايات تابعة لسلطان دلهي ، حتى إذا ضعف عمل كل حاكم من هؤلاء على الاستقلال بحكم ولايته ، وكان « السلطان محمود » قد فر من دلهي حين هجم عليه تيمور سنة 801 هـ ، وتوجه إلى كجرات ، ولكن ظفر خان لم يحسن استقباله لاعتبارات سياسية ، ولعله خاف من تيمور ، فاتجه السلطان محمود إلى « دلاور خان » في مالوا فأحسن استقباله ، وأكرمه حتى عاد إلى دلهي بعد خروج تيمور ، كما سبق وحينئذ رأى دلاور خان ألا وجه لبقائه تابعاً لسلطنة متهالكة تركها تيمور جثة هامدة طمعت فيها النسور ، فاستقل بحكم مالوا ، وأسس أسرة حاكمة بها هي أسرة الغوري التي يرجع نسبها إلى شهاب الدين غوري فاتح الهند ، ولم يمكث دلاور خان طويلا بعد أن استقل بأموره ؛ فقد مات سنة 808 هـ ـ1405 م فتولى الملك من بعده ابنه :

هوشنك

وقد اتهم بوضع السم لأبيه ، ولذا غضب عليه السلطان ظفر خان أو مظفر خان كما سمي بعد استقلاله بكَجرات ؛ للصداقة القديمة التي كانت بينه وبين زميله « دلاور خان » ، وسار إلى هوشنك بجَيشه ، فانهزم أمامه ، والتجأ إلى القلعة ، وطلب منه العفو والصفح ، ولكن مظفر خان لم يقبل منه ، وقبض عليه وسجنه في القلعة ، وبعد سنة فك قيده ، وظل في الحكم حتى توفي [1] ، وخلفه ابنه « غزنين محمد شاه » الذي كان آخر أسرة غورى في الحكم ، فأن أحد الأمراء في عهده استطاع بعد موته أن يقبض على الحكم . ويؤسس أسرة حاكمة أخرى هي أسرة خلجي وهذا الأمير هو :

محمود الخلجي

وقد قبض على الحكم في آخر شوال سنة 839 هـ 1436 م ، وعمره أربع وثلاثون سنة . وبقي به حتى توفي سنة 873 هـ 1469 م فيكون قد مكث في الحكم أربعة وثلاثين عاماً ، قضاها كلها في الحروب ، حتى كأن راحته كانت في الضرب والطعان واقتحام الأهوال . وقد كان محمود من السلاطين العظام الذين اتسموا بحسن السياسة في السلم والحرب ، فوفد على بلاطه العلماء والكبراء من كل البلاد في الهند ، وخارج الهند وكان يكثر العطاء ، ويكرم العلماء ، حتى وفد عليه سنة

(1) لا تزال إحدى المدن الكبيرة في وسط الهند تسمى باسمه « هوشنك اباد » ، وهي محطة كبيرة من محطات القطار ، مررت عليها حين رجوعي من حيدر آباد لدلهي في ديسمبر سنة 1957.

870 هـ-1465 م رسول الخليفة العباسي في القاهرة ، المستنجد بالله يوسف بن محمد العباسي بخلعه الخلافة ، فأكرمه وذكر الخليفة معه في الخطبة .

وقد ذكر المؤرخون كثيراً من أحوال هذا السلطان ، وأرى ألا بأس من الاستطراد ولو قليلا معه .

هاجمه أحمد شاه الكَجراتي ، وظلت الحرب بينهما مدة دون أن يظفر أحدهما على الآخر ، حتى تفشى الوباء في جيش أحمد شاه ، فاضطر للرجوع(1) ثم سار محمود إلى ملك كَواليار الهندوسي الذي اعتدى على بعض أطراف مملكته ، ففر أمامه واستولى على قلعته .

وأرسل له علماء وكبراء دلهى وميوات أن يأتي إليهم لينقذهم من ظلم سلطان دلهى ، وكان من أسرة السادات التي وليت الحكم بعد انتهاء أسرة طغلق ، فسار إليهم وجرت الحرب بينه وبين جيش دلهى سجالا ، وفي صباح أحد الأيام قام من نومه مذعوراً مهموماً لرؤيا رآها(2) ، وصادف أن جاءه رسل سلطان دلهى يطلبون الصلح ، فاستجاب له ورجع سنة 845 هـ-1441 م .

وفي سنة 855 هـ-1451 م استعان به أحد الهندوس « راجا كَنك داس » ضد سلطان الكَجرات « محمد شاه بن أحمد شاه » ، وفي أثناء

---

(1) يقول المؤرخ فرشته جـ4 إن أحد الصالحين الذين كانوا يرافقون السلطان احمد قص عليه أنه رأى الرسول في منامه يقول له : قل لأحمد شاه يرجع عن محاربته المسلمين وإلا تفشى الوباء في الجند ، ولكن أحمد لم يستمع إليه ، واستمر حتى أصيب الجيش بالأمراض ومات الكثير منه .

(2) يقول فرشته إنه رأى أن أحد الهندوس هجم على العاصمة « مندو » واستولى عليها .

ذهابه توفي محمد شاه وخلفه ابنه قطب الدين . فاستمر محمود في حملته ، واستولى على « بـرودا »(2) ، ثم تابـع سـيره حتـى التقـى الجيشـان في « جانبور » ، وبالرغم من فرار كثير من أمراء جيشه مع جنودهم ، إلا أنه ظل يحارب ويناوش ، حتى استطاع الفـرار ليلا ، وفي طريقـه إلى « مندو » أصيب بخسـائر كثيرة من المهاجمين الهندوس .

ولعل هذه هي الهزيمة الوحيدة له في حكمه الطويل ، ولما رأى نفسه مشغولا بحرب الهندوس ، وخشي أن يهاجمه ملك الكجرات كتب إليه أنه لا يليق أن يحارب المسلمون بعضهم بعضـاً ، وأمامهـم الهنـدوس عدوهم المشترك ، وطلب الصلح ، فأجابه قطب الدين إليه .

ولكننا مع ذلك نراه يهاجم مملكة الدكن الإسلامية في عهـد علاء الدين البهمني الـذي تمـكن من صده ، فرجـع ليشعـل الحـرب مع الهندوس الذين كانوا يخرجون عليه ، أو الذين كان يريد ضم بلادهم إليه ، وكان الانتصار حليفه دائماً ، وكان كثيراً ما يهدم المعابد ، ويقتل الهندوس حين ينتصر ، حتى يقول المؤرخون : إنه في ذلك أعاد ذكرى محمود غزنوي .

وفي سنة866 هـ ـ1461 م . هجم على مملكة الدكن الإسلامية ، منتهزاً صـغر ملكها الطفل « نظام شاه بهمني » الـذي استنجـدت أمـه

---

(2) زرت هذه المدينة بصحبة المرحوم مولانا حسين أحمد مدني شيخ الإسلام في25 أكتوبر1956 وكانت قبل استقلال الهند يحكمها راجا هندوسي ورأيت فيها مظاهر الرقي والعمران والتقدم حيث كانت عاصمة الراجا . وهي على طريق القطار بين دلهي وبومباي .

بالملك محمود الكَجراتي ، فتجهز لنجدتها ، وأنذر محمـود الخلجـي ، فرجع كما سبق أن أشرنا إلى ذلك عند الكلام عن السلطان محمود .

وهكذا ظل في حرب مستمرة ، حتى توفي سنة 873 هـــ ـ1469 م أثناء قيامه بإخماد فتنة في « كجوارا » ، وكان عادلا منصفا حازماً ، يذكر المؤرخون أن الناس في عهده لم يعرفوا أو يسمعـوا عن سرقـة . وإذا أتلف جيشه شيئاً للناس عوضهم عنه . وبعده تولى الملك ابنه :

غياث الدين :

وكان قد قضى مع أبيه أكثر من عشرين سنة في حرب وجهاد ، فمال إلى أن يستريح ، ويترك الحرب ، وكانت الظاهرة الغريبة فيه أنه يميل إلى جمع كثير من النساء في بيته من مختلف الأجناس ، لكنه كان يعنـي بتعليمهن وتثقيفهن ، حتى علمهن فنون الحـرب ، وألبسهـن ملابس الرجال ، ووجه كثيراً منهن لحفظ القرآن ، كما عني بتربية الحيوانـات والزواحف ، وعين لها الطعام والخدم ، ومع ذلك ظلت أمور الدولة في أيامه مستقرة ، لم يحدث شيء فيها إلا أن « بهلول لودي » ملك دهلي أغار على أطراف المملكة ، فسار إليه ولكن بهلول أسرع بالرجـوع ، فأرسل وراءه الجيش ، مما اضطر بهلول معه أن يقدم الهدايا لأمير الجيش راغباً في الصفح والمسالمة ، فاستجاب له القائد ورجع . ولغياث الدين قصص وطرائف أحب أن أذكر بعضها هنا ملخصة لما فيها من الطرافة .

كان « غياث الدين » مشغولا بجمع النساء من كل مكان وكانت لذته في رؤيتهن أمامه ، حتى جمع نحو عشرة آلاف امرأة ، ومـع ذلك كان

يقول : لم أر فيهن امرأة جميلة . ومرة طمع أحد أخصائه أن يقدم له امرأة جميلة فخرج في البلاد وطاف بها ، حتى وقعت عينه على بنت فقيرة لأحد الرعايا ، فاحتال عليها حتى جاء بها إلى القصر ، ولكن أباها فزع وجاء إلى العاصمة يطلب بنته ، وفي موكب غياث الدين وقف الرجل ، وقال له : إنصف أيها الملك . فوقف غياث الدين ، ونزل عن فرسه ، وقال لا أبرح مكاني حتى يفتي العلماء في أمري وتأخذ حقك ولو بإقامة الحد علي ، وازاء هذا أظهر الرجل سروره بأن تكون بنته عند الملك ، وجاء العلماء وحكموا بأنه ما دام السلطان لا يعلم أنها جاءت بهذه الطريقة فلا حرج عليه .

وجاء رجل بدوي مرة يريد مقابلته ليطلب منه مساعدة في زواج بنته ، ولم يجد حاجبه الشيخ لقمان طريقة لوصول هذا البدوي إلى غرضه إلا أن يدبر حيلة يقول عنها للملك إن بدوياً أحضر له هدية ، ويريد مقابلته فأخبره وأذن للرجل ، وأعطى لقمان للبدوي حفنة قمح وعلمه أن يقول لا أعطيها للملك إلا في المسجد . وتمت هذه الخطة وقام الرجل في المسجد ، وطلب من الملك أن يتلقى هديته في حجره ، ثم ألقى فيه حفنة القمح ، وأمر الملك للرجل بعطاء كبير .

ولعل مغزى اتجاه الرجل للملك بطلب مساعدته أكبر من باقي القصة كلها . وكان غياث الدين مع انشغاله بأمور الدنيا كثير التفكير في أمور الآخرة ، كان كلما لبس ثوباً جديداً أمر النساء الحافظات أن يقرأن القرآن ، وينفثن عليه لحصول البركة ، وكان يأمر خواصه بأنهم كلما رأوه منشغلا بأمور دنياه يحضرون أمامه ثياب الكفن ، فكان إذا رآها انقطع عن أمور الدنيا ، واتجه للعبادة والتفكير .

وقد ضعف غياث الدين في آخر أيامه ، وقام خلاف بين ابنيه « شجاعت خان » المعروف بعلاء الدين ، و « ناصر الدين » حول الاستئثار بالحكم ، انتهت بغلبة ناصر الدين الذي قبض على مخالفيه وحبسهم ، وكان ذلك في عهد أبيه الذي كان يؤيد « شجاعت خان » . وظل أبوه مقيماً في القلعة حتى توفي سنة 906 هـ ـ 1501 م واتهم ناصر الدين بأنه دس السم له . .

واستقل « ناصر الدين » بالحكم بعد ذلك وقد حدثت بينه وبين ابنه شهاب الدين حرب انتهت بفراره ، ولكن أباه لم يتعقبه لشفقته عليه ، وكان شهاب الدين يسيء الظن بأبيه ، ويرى أنه دس السم لجده غياث الدين ، وظل ناصر الدين في الحكم حتى سنة 917 هـ ـ 1511 م ، وكانت مدته 11 سنة و4 شهور . وقام بالملك بعده ابنه محمود .

محمود الثاني الخلجي :

وكان سيء التدبير واقعا تحت تأثير « مدني راى » أحد راجوات الهندوس الذي أفسد بينه وبين إخوته ، مما جعل الفساد يدب في جهاز الدولة ، وقامت حرب بينه وبين بعض الأمراء انتهت بفرار محمود ، ثم ساعده « مدني راى » على الرجوع لملكه ، وحينئذ أخذ النفوذ الهندوسي يطغى على نفوذ محمود ، فشكا المسلمون إلى سلاطين دلهي وكجرات والدكن ، فهبوا لنجدتهم ، ولكنهم لم يصيبوا نجاحاً ، وسارت الأمور هكذا حتى تغلب « مدني راى » الهندوسي على محمود الخلجي نهائياً ، واضطر للفرار بحيلة الاصطياف ، واستغاث بالسلطان « مظفر الحليم الكجراتي » فهب لنجدته وذهب إلى « مندو » وطرد الهندوسي منها ،

وسلمها إليه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على السلطان مظفر . .

وقد ترك السلطان مظفر بعض قواته لمؤازرة محمود خلجي ضد أعدائه ، ولكن هؤلاء الأعداء غافلوا هذه القوات وانقضوا عليها حتى كادوا يفنونها وبالرغم من ضعف قوات الخلجي إلا أنه قرر أن ينتقم من هؤلاء الهندوس ، فنازلهم في حرب عنيفة أتت على كل قواته تقريباً ، حتى لم يبق معه إلا عشرة من الفرسان ، ومع ذلك قرر أن يخوض بهم المعركة ، حتى قتلوا جميعاً ، وبقي محمود وحده ، وحينئذ قرر أن يستمر في القتال وحده حتى يفوز بالشهادة ، وهجم وحيداً دون مبالاة فقتل كثيراً ، وأصابه أكثر من عشرين جرحا ، ومع ذلك استبسل في الهجوم ، واستمر في الضرب ، والهندوس من حوله يحاربون وهم في ذهول مما يفعله هذا الملك الشجاع ، وأخيراً سقط من فوق فرسه ، وهنا يقص التاريخ أروع ما سجله في صفحاته ، فقد استولى على الهندوس الراجبوت الإعجاب بهذا البطل الشجاع الذي لم يسمعوا بمثله في التاريخ ، وأخذتهم نشوة الإعجاب التي هزت فيهم خلايل الشهامة والمروءة ، فتقدموا للبطل ، وحملوه وأكرموه ، وقدموا له الدواء ، وتقدموا بين يديه كما يتقدم الأمراء الخاضعون لمليكهم ، وأحاطوه بكل أنواع التكريم ، حتى أجلسوه على العرش ، وعاد ملكا كما كان(1) .

هذه حادثة قل أن يكون التاريخ قد ظفر بمثالها . أبطال يكرمون

---

(1) وردت تفاصيل هذه الحادثة في تاريخ فرشته جـ4 ص598 .

بطلا عدواً لهم إلى هذا الحد بعد أن حاربهم إلى آخر رمق ؟ !! إن هذا شيء يستحق الإعجاب حقاً بهؤلاء الأبطال الشجعان ، وبهذا الملك الذي رزقه طلب الاستشهاد كل هذا التكريم ، وحقاً : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة . .

وعاد محمود الخلجي لملكه للمرة الثالثة ، وكانت المرة الأولى حين أعانه مدنى راى ، الهندوسي على العودة ، بعد أن غلبه بعض قواده (صاحب خان ، ومحافظ خان) ، والمرة الثانية حين أعاده مظفر شاه الكَجراتي بعد أن تغلب عليه (مدنى راى) كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولكنه مع هذا لم يتمتع طويلا بهذه العودة ، فقد سار إليه بهادر شاه الكَجراتي ، وحاصره في قلعة (مظفر أباد) وقبض عليه سنة 937 هـ ــ 1531 م ، وعاد به أسيراً إلى أحمد أباد ، لكنه قتل في الطريق ، وهكذا انتهت الأسرة الخلجلية الحاكمة في « مالوا » ، وانضمت هذه البلاد إلى حكم كَجرات . .

مملكة الدكن البهمنية

748 هـ ــ 1347 م إلى 934 هـ ــ 1527 م

كانت المملكة البهمنية في الدكن أسبق إلى الوجود من زميلتيها في مالوا وكَجرات بنحو ثلاثة أرباع قرن تقريباً ، إذ تأسست هذه الدولة في أواخر عهد السلطان محمد تغلق ؛ وكان بعدها عن دلهي أكبر مساعد لها على الاستقلال ثم الاحتفاظ بهذا الاستقلال مدة كبيرة ، حيث ظل سلاطين دلهي عاجزين عن الوصول إليها بجيوشهم ، حتى قامت دولة المغول وعظم شأنها ، فضمتها إلى سلطانها . وقد أسس هذه المملكة :

علاء الدين حسن كَنكَو بهمان

ويذكر المؤرخون عنه أنه كان في مبدأ حياته خادماً لمنجم كبير ، له نفوذ واسع عند الملوك ، وكان « حسن » ذا طموح عجيب استطاع أن يتقرب إلى شاه محمد تغلق حتى صار من أمرائه والمقربين لديه ؛ وسار معه في حملته لبلاد الدكن ، ولما تم له إخضاعها مكث حسن هناك حاكماً صغيراً ، فلما ساءت أعمال السلطان ، وضعف نفوذ دلهي على الأطراف استطاع حسن بالاتفاق مع بعض أمراء الجند أن يستقلوا بحكم الدكن ، ثم أتاحت له ظروفه أن يظهر على بقية حكام المنطقة ، ويتولى قيادة الجيش ضد الهندوس ، وينتصر عليهم ، ويصبح الحاكم الفعلي لبلاد الدكن سنة 748 هـ ـ1347 م ويؤسس بذلك أسرة ظلت تحكم الدكن قريباً من قرنين من الزمان ، وقد اتخذ مدينة « كَلبر كَه » المعروفة باسم « إحسان آباد » عاصمة له ، وتوفي في ربيع الأول سنة 759 هـ ـ1356 م بعد أن البلاد حكماً ناجحا وقسمها إلى اربع ولايات(1) ، حتى يسهل ضبط أمورها ، كما ضم بعض بلاد الهندوس المجاورة إليه بعد أن هزمهم ، وغنم منهم الغنائم الكثيرة ، وأستمر في الحكم نحو إحدى عشرة سنة وجاء بعده ابنه : محمد شاه بهمني .

وكان قوياً شديد الوطأة على الهندوس الذين غدروا بالمسلمين ، فأقسم لينتقمن منهم شر انتقام ، وسار إلى راجا (فيجا يانكَر) وغيره ،

---

(1) وهي كلبركة ، ودولت أباد ، وبيرار ، وتالينكانا الإسلامية .

وأعمل فيهم القتل ، حتى قيل إنه قتل منهم مئات الألوف ، واضطرهم لدفع الجزية كل سنة ، وقد أسس محمد في عهده حكومة تشبه حكومات العهد الحالي ، حيث قسم الحكم إلى وزراء كل له اختصاصه ، وجعل لهم رئيساً ، فوزيراً للمال ووزيراً للخارجية، وهكذا ، كما أعطى لحكام الأقاليم ما يشبه الاستقلال الذاتي في شؤون ولاياتهم .

وقد عمد في أيامه إلى سك نقود ذهبية خاصة بمملكته ، ولما أساء المصرفيون الهندوس التصرف بإذابة هذه النقود وتخبئتها بإيعاز راجا (فيجا يانكر) وراجا فارانكل قام بقتل جميع المصرفيين الهندوس ، مما أفضى إلى حرب عنيفة بينه وبين راجات الهندوس المتقدمين ، وهذه الحرب هي التي ذبح فيها نحو أربعمائة ألف منهم .

وقد أنشأ محمد في العاصمة مسجداً كبيراً ، ثم توفي سنة 776 هـ ـ 1375 م .

وجاء بعده ابنه مجاهد شاه

وكان فاتحاً مقداما ، قامت الحرب بينه وبين راجا (فيجا يانكر) « كشن رائي » فهزمه ، وغنم الغنائم الكثيرة ، وفي أثناء عودته قتله عمه داود سنة 779 هـ ـ 1378 م وتولى الملك بعده ، ولكنه لم يلبث أن قتل وهو يصلي سنة 780 هـ ـ 1379 م .

وتولى محمود شاه بهمني

وكان من خيار السلاطين في هذه الدولة ، عارفاً باللغتين العربية والفارسية ، قصده العلماء والشعراء من كل ناحية ، وكان الحافظ

الشيرازي الشاعر الفارسي المشهور من أقرب الناس لديه ، وأكثرهم نوالا من عطائه ، وقد عني بأحوال رعيته ، وتوفير الأرزاق لهم ، كما عني بإنشاء المدارس والتكايا ، وترتيب الأرزاق لليتامى والمقعدين والطلاب والعلماء ، وتوفي سنة799 هـ ـ1397 م بعد أن حكم قريباً من عشرين سنة .

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة « فيروز شاه بهمنى » الذي اختير للملك بعد فترة قصيرة من القلاقل وأحداث القتل ، تلت وفاة عمه السلطان محمود ، وقد تم اختياره للملك سنة800 هـ ـ1398 م ، وقد تربى فيروز تربية علمية على يد الشيخ فضل الله الشيرازي ، وكان شديد الذكاء سريع الحفظ ، ولذا لم تشغله أمور الدولة عن الاشتغال بالعلم والتدريس ، فكان يقوم بالتدريس ثلاثة أيام في الأسبوع وكان من الكتب التي يدرسها شرح المقاصد ، وتحرير اقليدس والمطول ، ونال الطلاب والعلماء كثيراً من عنايته وعطائه ، ولشغفه بالعلوم بدأ في إنشاء مرصد للنجوم في « بالا كهات » قريباً من دولت أباد ، وكان مع ذلك ولوعا بالنساء والخمر والغناء ، حتى زين له شيخه الشيرازي حق المتعة ، فوجدها فرصة تحقق غرضه ، فتمتع بمئات النساء ، وقد بنى بلدة سماها « فيروز أباد » .

ومما يجدر ذكره أن « تيمور » قد غزا الهند في مبدأ أيام فيروز ، فبادر بإرسال الهدايا والتحف إلى فاتح الهند الذي سر بهديته وبروحه الطيبة ، وأرسل له التحف والهدايا مع كتاب رقيق يثنى عليه فيه الثناء الجميل .

وفي آخر أيامه كانت الخمر والنساء قد أضعفت صحته ، وأنهكت

قواه ، فتمكن أخوه « أحمد شاه » من الاستيلاء على الملك سنة 825 هـ ـ1422 م ، ولم يلبث فيروز أن توفي بعد ذلك بأيام. وكان أحمد شاه من كبار القواد في أيام أخيه ، ولما تولى الملك قام بحملات تأديبية على الهندوس الذين نقضوا عهودهم ، فذبح منهم الآلاف ، وأرغمهم على دفع مال له كل سنة ، وقد عنى بتأسيس المساجد والتكايا كما أسس مدينة سماها « أحمد أباد بيدار » وجعلها عاصمة ملكه ، وتوفي في رجب سنة 838 هـ ـ1435 م وجاء بعده :

علاء الدين شاه الثاني :

وقد عاصر جلوسه على العرش قيام الدولة الخلجية في مالوا على يد محمود الخلجي ، الذي طمع في الدكن وهاجم أطرافها فصده علاء الدين ، وقد كثرت في عهده الفتن والمنازعات بين المسلمين السنيين ، وبين الشيعة ، وكان أكثرهم من الأجانب الوافدين على الدكن من الخارج ، ولكن علاء الدين قمع هذه الفتن في حزم وشدة ، بعد أن قتل كثير من الشيعة الأجانب فيها ، وقد قام علاء الدين بحروب متعددة مع ملوك الهندوس المجاورين له في ڤيجا يانكر ، وكوكن وغيرها كتب له فيها النصر ، ويذكر المؤرخون عنه أنه كان عادلا حازما ، لا يتهاون في إقامة العدل بين الناس لا فرق بين كبير وصغير ، ويحكون عنه أنه كان يخطب على المنبر ذات يوم ، فذكر عن نفسه : أنه السلطان العادل الكريم الحليم الرؤوف بعباد الله . . الخ ، فقام أحد تجار الخيول العرب من أهل الإحساء في الجزيرة العربية ، وكان السلطان قد اشترى منه بعض الخيول ، ولكن الوزراء لم يعطوه الثمن ـ قام هذا التاجر

العربي وباغته بقوله : لا والله لا عادل ، ولا كريم ، ولا حليم ، ولا رؤوف أيها الظالم الكذاب ، تقتل الذرية الطاهرة (لعله يشير إلى ما حدث من قتل الشيعة) ، وتتكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين ، فتأثر السلطان وفاضت عينه بالدمع ، وغضب على وزرائه غضباً شديداً ، ودخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات(1) ، وقد توفي سنة 862 هـ ـ1457 م ، ودفن في أحمد أباد الدكن . .

وجاء بعده ابنه « همايون » الذي اشتهر باسم « همايون الظالم » لما عرف عنه من شدته وقسوته ، وكثرة الدماء التي أراقها ، ومعاملته الوحشية لبعض قواده وكثير من جنوده وزوجاتهم ؛ لاتهامهم بخيانته .

وبعد أن قتل خلفه ابنه الطفل نظام شاه ثم أخوه « محمد الثالث » سنة867 هـ ـ1462 م ، وكان في وصاية أمه حتى بلغ سن الرشد ، وقد طمع الهندوس المجاورون له في مملكته ، لكن وزيره القوي خواجه عماد الدين محمود الكَيلاني(2) تمكن من صدهم ، والمحافظة على المملكة ،

---

(1) نزهة الخواطر جـ3 ص101

(2) مشهور باسم محمود كاوان ، ويقال له ملك التجار وخواجه جهان . كان من أبناء الملوك والوزراء ولد في بلاد العجم سنة813 هـ ـ1410 م ورحل إلى القاهرة ، وتلقى عن ابن حجر العسقلاني ثم رحل إلى الشام يطلب العلم والتجارة ، ثم جاء إلى الهند وسنه43 وقصد بلاد الدكن في عهد علاء الدين الثاني ، وتقرب إلى السلاطين حتى صار وزيراً وكان عالماً بارعاً في المعقول والمنقول كريماً شجاعاً يغدق على أهل العلم في كل الأقطار ، وكان مع سعة ثروته لا يدخر منها شيئاً وترك آثاراً خالدة في هذه الناحية منها مدرسة عظيمة في أحمد أباد الدكن اشتملت على مسجد ومكتبة وقاعة للمطالعة وأماكن للتسلية . وإلى محمود هذا يرجع الفضل في توطيد المملكة حين هبت عليها الأعاصير ولكن حساده نقموا عليه قربه من الملك فدسوا عليه خطاباً مزوراً لأحد أعداء الملك الذي تعجل بقتله سنة 886 هـ ـ1481 م ثم ندم على ذلك ندماً شديداً ـ اهـ نزهة جـ3 ص162 .

حتى بلغ الملك سن الرشد ، وأمسك بزمام الأمور في يده ، ولكن محمودا ظل مع ذلك حارس الدولة ومدبرها القوي . .

وقد خاض محمد شاه مع قواده كثيراً من المعارك العنيفة ضد الهندوس المجاورين ، كتب له فيها النصر ، حتى اتسعت مملكته من ناحية الغرب إلى البحر ، مستولياً على « كَوا » ، كما استولى على كانشي إحدى المدن السبع المقدسة عند الهندوس ، واتسعت المملكة من الجنوب والشرق ، حيث أخضع آوريسه على الساحل الشرقي على خليج البنكَال ، وكان محمد شاه مفرطا في الشراب ، لم يعمر طويلا حيث توفي قبل الثلاثين من عمره ، وكان ذلك سنة 887 هـ ـ 1482 م .

وخلفه ابنه الصبي « محمود » ، وبدأت الدولة تضعف في عهده وعهد خلفائه ، وطمع حكام الأقاليم في الاستقلال ، فاستقلوا بولاياتهم وأنشأوا ممالك مستقلة(1) بها ، وبقي السلطان في العاصمة لا نفوذ له حتى تولى الملك « كليم الله بهمني » ، وفي أيامه جاء « بابر » إلى الهند ، وفتح دلهى ، فكتب إليه كليم الله أن أمراءه غلبوا عليه ، ولم

---

(1) كانت خمس دول مستقلة : الأولى دولة بريد شاه في بيدار (1490-1657) (الثانية) دولة عماد شاه في بيرار (1484-1572) ومؤسسوها كانوا هنودا أسلموا (الثالثة) دولة نظام شاه في أحمد نكر (1496-1600) ومؤسسوها كانوا كذلك هنوداً وأسلموا (الرابعة) دولة قطب شاه في كولكنده (1512-1687) ومؤسسوها أصلهم فارسي ، (الخامسة) دولة عادل شاه في بيجابور (1489 ـ 1686) وقيل إن مؤسسها من أمراء الأتراك العثمانيين الفارين وكان شيعيا (حاضر العالم الإسلامي ص295 جـ4) .

يعد له نفوذ ، وأنه أصبح كالاسير ، وطلب منه أن يحضر لإنقاذه ، على أن يتنازل له عن بعض أجزاء مملكته ، لكن « بابر » كان عنه في شغل ، فاضطر بعد هذا إلى الفرار والالتجاء عند حاكم « أحمد نكَر » ، وكان ذلك سنة 934 هـ ـ 1527 م ، حيث بقي هناك في رعاية سلطانها حتى توفي ، وبذلك انقضت الدولة البهمنية في الدكن من الوجود ، أما الدول الإسلامية التي قامت على أنقاضها منذ ضعف شأنها فقد ظلت في صراع بعضها مع بعض ، وبعضها مع الهندوس أو البرتغال ، حتى ضمت كلها نهائياً للامبراطورية الإسلامية في دلهي ، وكان آخر ما ضم منها سنة 1098 هـ ـ 1686 م في عهد الامبراطور المغولي « أورنكَزيب » كما سيأتي .

وبجوار هذه الممالك التي قامت في كَجرات ومالوا والدكن وتكلمنا عنها سابقا كانت هناك ممالك إسلامية أخرى ، قامت في البنكَال وجونبور ، والسند ، وغير ذلك ، وكان ضعف سلطان دلهي يؤذن دائماً باستقلال الأطراف ، وقيام ممالك متعددة منفصلة عنها إسلامية وهندوسية ، حتى إذا ردت الروح لدلهي ، وقوي شأنها أخذت تستعيد سلطانها ، وتقضي على استقلال هذه الممالك ، وتضمها إلى مملكتها . كذلك كان الشأن عند ما ضعفت دلهي في أواخر عهد محمد تغلق ، ثم لما جاء حكم المغول ، وقوي شأنهم أخذوا يوسعون ملكهم على حساب هذه الممالك المستقلة ، حتى إذا ضعف المغول بعد أورنكَزيب عاد الأمر كما كان من قبل ، وأصبح في الهند عدة دول إسلامية وهندوسية متفرقة متحاربة ، مما سهل للغزاة الغربيين التسلط على الهند .

هذه فكرة إجمالية عن الحالة في الهند ، أما الكلام عن هذه الدول كلها بتفصيل ولا سيما الإسلامية منهـا فإنـه لا يتسع له المقـام في هذا المؤلف . وقد أفرد لها المؤرخ « فرشته » مجلدين كبيرين من تاريخـه ، فلنكتف بما قدمنا من الطوائف خارج دهلى ، ولنعد إلى حديثنا عن شؤون الملك في عاصمة الهند الكبرى « دهلى » .

دولة المغول

أو : الدولة التيمورية

932 هـ ـ 1526 م إلى 1273 هـ ـ 1857 م

سبق أن تحدثنا في اختصار عن استيلاء « بابر » على دلهى بعد أن استعان به حاكم لاهور .

ولما كان « بابر » سيعتبر مؤسساً للدولة التيمورية العظيمة فإننا نعيد الكلام عنه هنا في تفصيل ، وفاء بحق هذا المؤسس والقائد العظيم ، وقد اشتهر هذا المؤسس باسم « بابر شاه »(1) ، واسمه الكامل « ظهير الدين محمد بابر » وهو ابن عمر الشيخ ملك فرغانه ابن أبى سعيد بن ميران شاه بن تيمور ، وأمه كذلك من أسرة جنكيز خان ، فهو من جهة الأب والأم ينتسب إلى جنكيز خان ، والانتساب إلى جنكيز هو في العالم التوارني أقصى ما تتخيله الأماني لملك أو أمير ، كما هو الشأن عند العرب في الانتساب لآل البيت(2) .

ولد بابر في المحرم سنة 888 هـ ـ 1483 م وقد نشأ في بيت الملك ، وحرص أبوه على تثقيفه ، فتعلم العلوم المختلفة والفنون الحربية ، وتوفي أبوه وهو صغير ، فجلس على العرش ، وسنه اثنا عشر عاماً سنة

(1) وينطق « بير » ومعنى كلمة « بير » في اللغة الهندية النمر .

(2) حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص296 .

899 هـ ـ1494 م . وقد لقي كثيراً من الشدائد منذ صغره ، فبعد أن ضم إليه مملكة ما وراء النهر فقد ملكه ، وسار إلى أفغانستان منهزما أمام ملك بخارى ، ثم استطاع أن يوطد أقدامه في « كابل » بعد ذلك ويؤسس مملكة سنة 910 هـ ـ1504 م ، وأخذ يوسع مملكته ، ويقوي حكمه ، حتى استنجد به اللودي حاكم لاهور ضد ابن عمه ابراهيم اللودي حاكم دلهى ـ ، وكانت الهند وحديثها مما يسيل له لعاب الفاتحين والمغرمين بالحروب والغنائم ، لا سيما من الجنود والأفغان ، فانتهزها فرصة باعتباره أحد أحفاد تيمور أيضاً ، وسار إلى الهند باثنى عشر ألف مقاتل فقط ، لكنهم كانوا مزودين بالمدافع الحديثة التي لم يعرفها حاكم دلهى الذي اعتمد على كثرة جنوده ، وكانوا مائة ألف من الفرسان مزودين بالفيلة ، والتقى الجيشان في « پانيپت » في رجب سنة 932 هـ ـ إبريل 1526 م ، ولم تنفع الكثرة شيئاً أمام تنظيم بابر ومدافعه ، لا سيما وقد كان إبراهيم اللودي رجلا متكاسلا مترددا ، غير معني بتنظيم جيشه ، فدارت الدائرة عليه وقتل ، وقتل معه آلاف من جيشه وفر الباقون ، ودخل « بابر » دهلى ظافراً ، حيث نودي به ملكا على الهند في يوم الجمعة 15 من رجب 932 هـ ـ إبريل 1526 م ، وسار ابنه « همايون » على رأس جيش إلى « إكرا » ، فاستولى عليها ، وغنموا من دلهى وأكرا الغنائم الكثيرة ، التي حرص بابر على توزيعها على الجنود ، وإرسال بعضها إلى كابل(1) ، عندئذ دب الذعر في قلوب ملوك

---

(1) قد أغدق بابر على الجنود والقواد تأليفا لهم ومكافأة على شجاعتهم وثباتهم ، وأرسل إلى كل فرد من رعيته في كابل قطعة من الفضة تذكارا لفتح دلهى ، ولما قدم « همايون » لوالده جوهرة « كوهينور » أثمن جواهر العالم المعروفة ردها له متجاوزاً عنها ، وقد انتقلت هذه الجوهرة

الهند الهندوس ، حيث رأوا في هذا الفاتح قوة إسلامية جديدة ربما تقضي عليهم ، في الوقت الذي اطمأنوا فيه على ملكهم بجانب ملوك المسلمين الضعاف ، فتجمع ملوك الهندوس « رانا سنك » ملك جيتور ومعه ملوك مار قار وآمير ، وأجمير ، وكواليار وتشنديري « جنديري » ، وانضم إليهم محمود اللودي أخو السلطان المقتول ، ووجد بابر نفسه أمام تكتل عظيم من قوى المسلمين والهندوس معاً ، وهنا برزت مواهبه الحربية ، وقدرته في تعبئة قواته نفسياً وحربياً ، فوقف يخطب فيهم مذكراً إياهم بالنصر القريب ، ومخوفا لهم عاقبة التخاذل أمام هذه القوى المتجمعة ، وتقدم في التعبئة النفسية خطوة أخرى ، حيث أعلن أمام جنده أنه سيطهر نفسه من شرب الخمر ، وحطم كؤوسها وأراق ما كان عنده منها ، ثم قال لهم : هلموا بنا إذن نقسم بالله وكتابه ألا نبرح مكاننا حتى ننتصر أو نهلك جميعاً . وجاوبه جنده ، فرفعوا المصاحف وأقسموا ، وغلت دماؤهم ، ولعب الحماس بنفوسهم ، وتقدموا للقتال ، فكانت الغلبة للمدفع والنفس القوية ، والتنظيم المحكم ، وبذلك تشتت شمل هؤلاء المتجمعين ، وأخذ بابر يتعقب من بقي منهم حياً ، ويأتي على ملكه ، وبذلك انكسرت قوة المقاومة أمامه ، واستقامت له الأمور ، لا سيما بعد أن طارد محمود اللودي الذي فر إلى

= الفريدة من مملكة إلى مملكة حتى استقرت اخيراً في تاج ملك الانجليز بصفته امبراطور الهند .
هذا ما جاء في مذكرة الأستاذ حبيب ص89 ولكن جاء في نزهة الخواطر جـ5 ص373 في ترجمة الأمير محمد بن سعيد الاردستاني أنه جاء من الجنوب إلى « الامبراطور شاهجهان » وعرض عليه ألماساً كان وزنه ستة عشر ومائتي حبة وهي التي يسمونها « كوه نور » وهي اليوم في إكليل ملك الدولة الانكليزية » ومعنى « كوه نور » جبل نور لكثرة ما تشعه من نور .

البنكال ، وكانت تحكمها أسرة أفغانية ، وتابعه بابر حتى استـولى على بيهار .

وحينما بدأت الأمور تستقر له اتجه للاصلاحات الداخلية ، فمهد الطـرق للمسافرين ، وأكثر من حفر الترع ، وغـرس الأشجـار والبساتين ، كما نظم الضرائب ، وأقام محلات للبريد على الطريق من آكره إلى كابل . .

وقد قام بابر بتلك الفتوحات ، وهذه الإصلاحات في الهند في مدة وجيزة لم تتعـد خمس سنـوات ؛ إذ توفي في جمـادى الأول سنـة 937 هـ آخر ديسمبر 1530 م ، وهو في السابعة والأربعين من عمره ، وأوصى بأن يدفن في « كابل » فدفن هناك . . كما أوصى بأن يكون ابنه همايون ولي عهده في الهند .

بابر في نظر التاريخ :

وبابر يعتبر في نظر التاريخ أحد العظماء الذين يندر وجودهم لا في الناحية العسكرية فحسب ، بل في كل ناحية من نواحي حياته ، وهذا هو سر عظمته النادرة ، فقد تغلب على جيش اللودي باثنى عشر ألفا من الجنود ، برغم خيانة حاكم لاهور له بعد أن استدعاه ، ثم تغلب على الجيوش الكثيرة الجرارة التي جمعها ملوك الهند الخائفون على ملكهم من الضياع ، حتى استطاع أن يؤسس ملكا إسلاميا ، ازدهر أكثر من قرنين من الزمان .

وكان مع نبوغه العسـكري نابغـة في مختلف العلـوم ، حتـى ذكر

المؤرخون عنه أنه كان حنفي المذهب مجتهداً ، ألف عدة كتب في علوم مختلفة : في العروض وفي الفقه ، وكتابه فيه يسمى « المبين » ، كما اخترع خطاً سمي باسمه كتب به مصحفا وأهداه إلى مكة .

وكان مع ذلك أديباً رقيقاً، يقرض الشعر بالتركية والفارسية ، ومن أهم آثاره التي تركها مذكراته التي كتبها بنفسه عن حياته ، وقد كتبها في صراحة تتجلى فيها شجاعته النفسية أمام كثير من الحقائق التي ذكرها عن نفسه ، وقد كتبها باللغة التركية ، ثم ترجمت إلى الفارسية ، ترجمها عبد الرحيم ميرزا خان في عهد أكبر ، ومن الفارسية ترجمت إلى عدة لغات أوروبية ، وإن كنت لا أذكر أنها ترجمت للعربية للآن .

يقول رينان الفيلسوف الفرنسي عنها(1) : « إن هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق في الرواية ، وعند ما يفكر الإنسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان المليقي هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادراً على ترك الكتاب من يده ، فتجد في تلك الأسطر كلاماً معقولا ، مع أصالة الرأي ، ورقة الطبع وشدة الجلد ، وبالإجمال تجلى من كلامه حرية الفكر والدهاء والعدل ، وعدم الانقياد إلى الأوهام الخ » .

ولعل الأحداث التي ذكرها في صراحة عن حياته مما تغري بالمطالعة ، وتعطي هذه المذكرات جاذبية لدى القراء المتعطشين دائماً

---

(1) عن حاضر العالم الإسلامي ص298 جـ4 .

لقراءة خبايا النفوس واعترافاتها ، مثلها مثل اعترافات « روسو » وإن كان هناك فرق كبير بالطبع بين الاعترافين .

يقول جوستاف لوبون عنها[1] : « فعدت مذكرات بابر التي شبهت بتفاسير يوليوس قيصر نموذجاً حسناً في الآداب ، ولا شيء يشمل النظر أكثر من تجلي حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند « بابر » في مذكراته تلك ، فبابر هذا الجبار الذي هو سليل جنكيز خان وتيمور لنك سار على سنة أجداده ، فأقام أهراماً من الرؤوس المقصولة ، ومع تبصره وجبروته هذا كان أديباً رقيقا يتكلم الفارسية والمغولية والعربية ، وله قصائد بالفارسية ، وكان صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ — إلى أن قال :

حقاً إن بابر المقدام الموهوب العالم ، الذي يعد من أقوى الفاتحين في العالم ، كان يجمع في شخصه مغامرة عرقه ورقته وهمجيته ، فكان حينما مات - وهو ابن خمسين سنة (تقريباً) - ملك الهند الذي دوخها باثنى عشر ألف مقاتل ، بعد أن ظهر زعيم قرية ، وهو في الثانية عشرة من عمره . . »

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية[2] : « إن شجاعة بابر وإقدامه فوق وصف الواصفين ، وإنه لما فتح سمر قند ثاني مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلا ، وقطع جبال الهند كوش في وسط الشتاء ، وهو

---

(1) حضارة الهند ص435 .

(2) عن حاضر العالم الإسلامي ج4 ص298 .

أمر خارق للعادة ، وكان شاعراً ، له ديوان باللغة التركية ، وكتب خاطرات حياته « بابر نامه » وقد طبعت هذه في قازان سنة 1875 م ، وترجمها للفارسية عبد الرحيم مرزاخان ، ومنها نقلت للغات الأوروبية » .

ويذكر المؤرخون عن بابر قوته الجسمية ، حتى كان يستطيع حمل رجلين كل رجل بذراع ، والسير بهما مسافات طويلة ، وأنه عبر كل نهر صادفه ، وعبر نهر كَنكَا في ثلاث وثلاثين ضربة بذراع ، وكان مشهوراً بطول ذراعه ، وكان يتسلق الجبال العالية ، ويستمر على ظهر حصانه لمسافة ثمانين ميلا ، دون أن يدركه التعب ، ويذكر المؤرخون مع هذا أنه كان مفرطاً في شرب الخمر ، على عادة أهل زمانه ، وأنه عاد إليها بعد أن أقسم على تركها عند بدء الموقعة بينه وبين جيوش الهندوس المتحالفة ، وكان إدمانه الخمر مما سبب له ضعفاً عاماً في صحته في أواخر حياته القصيرة ، فعجلت بشيخوخته قبل الأوان .

ذكر المؤرخ فرشته أنه صنع حوضاً من المرمر للخمر ، وكان يجلس على حافته مع ندمائه يشربون ويتبادلون الشعر ، ومع ذلك يذكر أنه كان محافظاً على أداء الصلاة ، لم يفته وقت منها ، كما كان محافظا على صوم الجمعة من كل أسبوع !!

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه في الوقت الذي أسس فيه بابر دولة المغول في الهند ، كانت الدولة العثمانية قد احتلت مصر والشام والبلاد العربية في عهد سليم الأول ، وكان في إيران الدولة الصفوية ، وفي

الهند كانت البرتغال قد غزت الشواطىء ، وأسست فيها بعض المستعمرات ، بعد أن كشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذوا يوطدون سلطانهم على شواطىء بلاد الهند والبحار المؤدية إليها .

كما كان فيها دول إسلامية مستقلة في كَجرات ومالوا والدكن وجونبور ، وبنكَال والسند .

همايون شاه
937 هـ ـ 1530 م

ولد همايون في كابل سنة 913 هـ ـ 1506 م ، وتربى تربية حربية سياسية ، كما تعلم كثيراً من العلوم المختلفة ، وعند ما توجه أبوه لفتح الهند كان ساعده الأيمن ، فقد أرسله أولا إلى البنجاب عندما استغاث به حاكم لاهور ، ولما نكث هذا عهده سار بابر ولحق بابنه ودخل الهند ، ولما استقر في دهلي توجه همايون إلى « أكَرا » واستولى عليها ، وهكذا ظل في أيام أبيه قائداً مظفراً ، ثم لما مرض أبوه واشتد عليه المرض عهد بالملك له ، وأوصاه أن يحسن معاملة إخوته على ألا يغفل عنهم .

وكان لبابر أربعة أولاد ، كان همايون أكبرهم وأقربهم إلى قلبه[1] ولذا عهد إليه بالملك في الهند ، على أن يكون أخوه « كمران » والياً على

(1) هكذا ذكر المؤرخون الهنود : سيد هاشمي وفرشته ، وإن كان بعض المؤرخين العرب يذكرون إن « كمران » كان أكبر منه .

كابل وقندهار ، ثم أضاف إليه همايون ولاية شمال البنجاب أيضاً ، على أن يكون تابعاً إسمياً لدلهي ، وأما أخواه الصغيران « هنـدال مرزا ، وعسكرى مرزا » فقد أعطاهما ولايات في الهند ، وكان همايون شديد العطف على إخوته حسن المعاملة معهم ، لكنهم لم يكونوا معه كذلك ، بل ظاهروه بالعداوة ، وتفرق شملهم حتى طمع فيهم أعداؤهم ، وأصبحت حياة همايون سلسلة من المصائب والمصاعب .

وقد ورث همايون من أبيه ملكا قام على الفتح والقهر ، وجروح المنهزمين لم تندمل بعد ، ولذا انتهزوا وفاة بابر ليخرجوا على همايون ويستردوا ملكهم ، وهكذا تسلم مع تاج الملك هذه المتاعب التي أحنت ظهره ، وحملته أخيراً على الفرار من الهند ناجياً بنفسه .

بدأ همايون بمحاصرة قلعة « كالنكَر » كوصية أبيه ، وأثناء ذلك علم باعتداء محمود لودي بمعاونة الأفغان في جونبور على ملكه ، فذهب إليه وطرده وأخضع جونبور له ، ثم سار إلى « شير خان » الذي كان يحكم بيهار ، وامتد حكمه إلى البنكَال ، فأظهر له شير خان الخضوع .

وبعد ذلك سار همايون إلى كَجرات حيث كان « بهادر شاه » ملكها يحمي الفارين من وجه همايون ، ويعاونهم في الهجوم على ملكه ، وتم لهمايون إخضاع كجرات ومالوا ، وذلك بخيانة أحد قواد بهادر شاه ، واسمه مصطفى بن بهرام الرومي المشهور باسم خان الرومي . وفر بهادر شاه إلى ديو سنة 942 هـ ـ 1536 م ، وفي هذا الوقت انتهز « شير خان » فرصة انشغال همايون في كَجرات وخرج عليه ، واستولى على كثير من بلاده ، فأسرع همايون إليه والتقى الجيشان لكنه انهزم ، وقتل

كثير من جيشه وغرق الكثير أيضاً في نهر كَنكَا ، حتى أشرف همايون نفسه على الغرق ، لولا أن أنقذه أحد السقائين الذي أعطاه قربته ، فعبر عليها النهر ونجا سنة 946 هـ ـ 1539 م .

وقد ذكر المؤرخون أن شير خان غافلة حين طلب منه الصلح ، ثم صبحه بهجوم عنيف ، كان من نتيجته غرق هؤلاء الآلاف من الجنود . وهذه الموقعة العنيفة التي ذهب ضحيتها الكثير لم تخل من طرافة ؛ فقد ذكر المؤرخون أن « همايون » لما جمح به فرسه نزل النهر وغرق ، وأشرف همايون نفسه على الغرق ، لولا وجود رجل كان يحمل قربة يسمى « نظام » ، فقدم له قربته التي عبر عليها النهر ونجا ، وهنا أحس همايون بفضل السقاء عليه ، فوعده أن يوليه الملك نصف يوم إذا رجع إلى « آكَرا » وذهب إليه الرجل بعد ما رجع لعاصمته ، فوفى بعهده له ، وولاه الملك نصف يوم ، وقد انتهز السقاء هذه الفرصة فأشبع رغبته وحقق أمله وآمال أسرته في الغنى وكثرة المال ، ونفذ له همايون كل ما أراده .

وقد عاد همايون إلى « آكَرا » لتتجمع على رأسه المتاعب من كل ناحية ، فهو قد هزم أمام « شير خان » الذي أصبح أكبر منافس له يهدده بضياع ملكه ، ومع ذلك استمر إخوته في العناد والكيد له ، غير مبالين بالموقف الخطر الذي يهدد عرش المغول ، ظانين أنهم يستطيعون أن يجلسوا عليه بدلا من همايون ، وكان هذا وهماً منهم ، فقد كانت الحرب في الحقيقة امتحاناً لقوة جنسين ونفوذهما : الأفغان الذين يمثلهم شير خان ، والمغول الذين يمثلهم همايون .

وفي وسط هذه المتاعب ، لم يفقد همايون الأمل في التغلب على خصمه العنيد ، فاستمر نحو سنة يعد جيشاً لمنازلته مرة ثانية ، وخرج إليه ، والتقى الجيشان قريباً من مدينة « قنوج » ، ولكنه أصيب أيضاً بهزيمة منكرة في محرم سنة 947 هـ ـ1540 م ، وفر جيشه ولاذ هو بالفرار ، وتعقبه شير خان إلى « آكَرا » ثم إلى « لاهور » ولم يجد الملك الفار من يعاونه ، حتى إخوته خذلوه وشمتوا فيه وعاونوا عدوه عليه . ويقول المؤرخون : إن همايون صار إلى حالة تعسة حتى دخل السند وهو هائم على وجهه لا يجد من يؤويه ، ولا يملك إلا بعيراً يركبه هو وزوجته وهي حامل ، حتى وصل إلى قرية « عمر كوت » بالسند ، وهناك ولدت له ابنه « جلال الدين أكبر » الذي صار ملكاً فيما بعد .

ولما وصل إلى « قندهار » في أفغانستان سمع أن أخاه خرج إليه ليأسره ، ففر بنفسه تاركاً ابنه مع أمه في « قندهار » والتجأ إلى امبراطور إيران « طهما سب شاه الصفوي » الذي أكرمه وأحسن ضيافته . .

وخلا الجو في الهند لشير خان ، فدخل دلهي وآكَرا ، وصار هو سلطان الهند المعروف باسم « شير شاه السوري » سنة 947 هـ ـ1540 م ولنترك همايون في إيران لاجئا ، لنتابع الحديث عن الهند وعن سلطانها الأفغاني الجديد ، على أن نلتقي بهمايون مرة أخرى حين يسطع نجمه ، ويعود إلى الدائرة التي يعني بالحديث عنها التاريخ والمؤرخون .

« شير شاه السوري »

947 هـ ـ 1540 م إلى 952 هـ . 1545 م

صبي عادي فر من اضطهاد زوجة أبيه ، فكان امبراطوراً للهند كلها . تلك هي قصة « فريد خان »(1) في اختصار ، وهي قصة حياة نادرة حفلت بالمتاعب والمجازفات التي لم تكن إلا لتلهب في هذا الإنسان العجيب عزمه وطموحه ، وتجعله نادرة من نوادر الزمان .

ونحن حين نتناول حياة هذا الرجل بالدرس والتحليل نجعل أهم غاية لنا استخراج العبرة ، واستلهام العظمة لإحياء موات النفوس ؛ فإن في دراسة التاريخ درساً للأحياء ، وعبرة لأولى الألباب .

جاء جده إبراهيم إلى بلاد الهند رجلا عادياً ، يلتمس الرزق أيام السلطان « بهلول » اللودي ، وهو أفغاني من قبيلة « سور » ولذلك سمى « السوري » ثم كان ابنه « حسن » والياً على « شهرام وخواص بور » عمالتين من عمالات « رهتاس » .

ورزق « حسن » بابنه « فريد » هذا ، وكان أكبر أبنائه ، ولكن لم تطب له الحياة في بيت أبيه ؛ لأن زوجة جديدة شاركتهم الحياة فيه ، واستولت على قلب أبيه ، فترك لها البيت وفر إلى « جونبور » واتجه إلى العلم كأقرانه ، فقرأ : كَلستان وبوستان(2) واسكندر نامه ، وكافية ابن

---

(1) هكذا كان اسمه أولا .

(2) كتابان لسعدى الشيرازي في الأخلاق والتصوف .

الحاجب وشروحها ، وغير ذلك من علوم عصره ، وأراد أبوه أن يرجعه إلى بيته ، ولكن الولد أبى أن يعود إلى جنة زوجة أبيه .

وذهب أبوه بعد أعوام إلى « جونبور » ، وسمع حديث الناس عن ذكاء ابنه ، فدفعه ذلك إلى أن يصر على أخذه معه ، ويوليه بعض شؤونه ، وهنا بدأت مواهب فريد تظهر ، وبدأ الناس يسمعون منه نغمة جديدة لم يعهدوها من قبل ، فقد جمع الفلاحين والعمال عليهم وقال للفلاحين : أنتم عماد الدولة ترتفع وتنحط بكم ، لا سبيل لأحد عليكم بغير حق ، ولكم الخيار في الطريقة التي تدفعون بها الضرائب ، وقال للعمال : إنني سآخذ بالبطش كل من يظلم أحد الفلاحين ، وكان هذا سبباً في استقرار الحياة وسعادة الناس ، فارتفع شأن فريد ، وأخذ الناس يتحدثون عنه ، وطار صيته إلى البلاد الأخرى المجاورة .

ولم يكن هذا ليعجب زوجة أبيه ، فدست له ، حتى عزله أبوه بعد مدة يسيرة ، فسافر إلى « آكَرا » أيام إبراهيم اللودي ، وتقرب إليه وإلى دولت خان ، وظهرت مواهبه عندهم فقدروه ، ولما مات أبوه جعلوه مكانه ، فرجع إلى ميدان عمله الأول ، وأخذ يباشر شؤونه من جديد ، ولكن الأمور سرعان ما تغيرت حيث دخل « بابر » الهند وهزم إبراهيم اللودي وبدأ حكم المغول ، فالتجأ فريد إلى والي « بهار » محمد خان وخدمه بإخلاص ، وحدث أن هجم عليه أسد وهو في رحلة للصيد ، وكاد يفتك به ، فاندفع فريد نحو الأسد في خفة ، وقضى عليه بضربة سيف سريعة . فأعجب به وسماه « شير خان » ومعنى « شير » أسد ،

وجعله مدرباً ومربياً لابنه « جلال خان »[1] لكن الأمور فسدت بينه وبين محمد خان ، فتركه وذهب إلى « جنيد برلاس » الذي كان واليا على كره وجونبور من قبل السلطان بابر شاه ، فأكرمه ومهد له الوصول إلى خدمة « بابر » ، فمكث في خدمته مدة ، لكنه توجس خيفة منه فتركه ، وعاد إلى محمد. خان والى بهار الذي عفا عنه وأعاده إلى عمله معه ، ولما توفي محمد خان تولى الأمر من بعده ابنه « جلال خان » القاصر ، فكان « شير خان » صاحبنا هو الحاكم الفعلي للبلاد ، حتى إن « جلال » فر إلى بنكال تاركاً له « بهار » فعظم فيها أمره ، وأخذ يوسع نواحي بلاده ، فضم إليه قلعة « جنار » بدون حرب ، حيث تزوج أرملة حاكمها ، وكانت للقلعة أهمية كبرى في « بهار »[2] .

ولما توفي بابر سنة 1530 م وتولى همايون ، وشغل بالفتوح ، كان شير خان يوطد ملكه ويوسعه على حساب ملك همايون ، كما ضم إليه البنكال ، فأخذ همايون يتجه لهذا الحاكم العنيد الذي علا شأنه واتسع ملكه ، وأصبح قريناً له يجاذبه العداء ، فسار إليه ، وكانت المواقع التي قدمنا الحديث عنها في تفصيل عند الكلام على همايون ، والتي انتهت بانتصاره واستيلائه على العرش .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الحرب بين همايون وشير خان كانت امتحاناً لقوة الجنسين المتحاربين المتنافسين في حكم الهند : المغول والأفغان . والواقع أن المغول أخذوا الحكم من الأفغان ، في دلهي ،

---

(1) تاريخ شاهي لأحمد يادكار ص176 (2) تاريخ « شير شاه لذي الفقار » .

لكن بعض الإمارات والولايات كانت تحت حكم الأفغان ، وخصوصاً في الشرق ـ في جونبور وبهار وغيرها ، وكان الأفغان يتطلعون إلى استرداد ملكهم الذي فقدوه ، وهم لا يقلون في الحروب وتنظيمها عن المغول ، وكان شير خان ينظر هذه النظرة منذ أن بدأ نجمه يسطع ، فعندما كان في خدمة بابر نجده يتحدث مع أصدقائه حديث نفسه فيقول لهم : « إنني لو ساعدني الحظ لنفيت المغول من البلاد ، فقد عرفتهم فوجدتهم لا يستطيعون مقاومة الأفاغنة لو اتحدوا ، وإن المغول لا يحسنون إدارة البلاد ولا الاتصال بأهلها ؛ لأنهم يعتمدون على نوابهم ، والنواب لا يعدلون ولا يهتمون بمصالح الأفراد ، وإنني سأعمل على توحيد كلمة الأفاغنة ورفع شأنهم ما دمت حياً(1) » .

فحديث شير خان يدلنا على النفسية التي كانت تسود المعركة ، لا سيا من ناحية الأفغان على الأقل .

ومما يجدر ذكره لشير خان أنه حين انتصر على همايون ، وغرق أكثر جنوده في نهر « كَنكَا » وكاد هو يغرق حين باغتهم شير خان بالهجوم ، ترك همايون زوجة وراءه ، وفر ناجياً بنفسه ، فلم تجد هذه الزوجة مفراً من أن تذهب إلى شير خان بنفسها ، ورآها تأتي إليه دون حجاب في توسل وخضوع ، وهنا تبرز في القائد الأفغاني صفات الرجولة والشهامة ، ويعلو عن الحزازات والصغائر ، فنزل عن فرسه واستقبلها هي ومن معها بكل إجلال واحترام ، وطمأنهن وأكد لهن أنه يعرف فضل

---

(1) شير شاه للدي الفقار .

« بابر » عليه عندما كان يعمل عنده ، وأركبهن إلى « أكرا » في حراسة ابنه ، وأمره بأن يعمل على راحتهن وإجلالهن طول الطريق ، حتى يصلن آمنات ، كما أمره بأن يقتل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء عليهن . وهكذا يتصرف القواد العظام .

وعندما تم له النصر على همايون ، وأصبح سيد الهند ، وجلس على العرش أنشد بيتين من الشعر الفارسي(1) بقيا مرآة لنفسية هذا القائد المنتصر . يقول فيهما « اللهم إنك القوي الغني ، وأنت العزيز المقيت للفقراء ، وإنك معطى الملك لفريد بن حسن ومفوض جنود همايون للأسماك » وكان جلوس شيرشاه على عرش « آكرا » في 4 رجب 947 هـ 1540 م .

* * *

وهنا تبدأ صفحة أخرى هي من أمجد الصفحات في تاريخ ملك من الملوك ، لقد كانت الكلمات التي قالها للفلاحين ولعماله حينما كان يرعى بعض الشؤون في ولاية أبيه ، والتي أشرنا إليها من قبل ، كانت هذه الكلمات تمثل مبدأ راسخاً في نفسه لم يحد عنه طول حياته ، وكان نجاحه في تلك الولاية الصغيرة مقدمة لنجاحه حين ولي الحكم العظيم . لقد مر في حياته بشتى أنواع الشدائد والمصائب ، بدأ يجابهها

---

(1) هما : خدايا توانا تونكرتوني توانا ودرويش برور توني
فريد حسن راتو شاهي دهي بباه همايون بما هي دهي

نقلا عن ثقافة ديسمبر سنة 1953 .

منذ عرف الحياة في بيت أبيه ، ثم تقلب في مختلف الأعمال ، وعند كثير من الولاة ، وقضى عمره إلا قليلا يجاذب الشدائد وينازلها ، حتى تغلب عليها أخيراً ، ولكنها صقلته ، وجعلت منه رجلا ممتازاً قل أن يجود بمثله الزمان ، وكان شير شاه متشوقاً إلى العمل ، متشوقاً إلى الإصلاح ، متطلعاً إلى يوم يتمكن فيه من تنفيذ آرائه ومبادئه وإصلاحاته ، كان كلما تكلم عن آماله وآرائه وما يعده للمستقبل ، ضحك منه أصحابه وظنوه في حلم لذيذ ، ولكن الله حقق له أحلامه ، وبدأ عندما ولى أمر الهند يقوم بأعظم إصلاحات قام بها حاكم ، والمهم في هذه الإصلاحات أنها قامت على أساس نظرية من أرقى النظريات في حكم الشعوب ، فالحاكم الذي يقول : إذا لم يستطع الحاكم إصلاح رعيته وإسعادها فلا يستحق أن يأخذ منهم الضرائب ، والحاكم الذي يعتبر الفلاحين عماد الدولة ، ترتفع بارتفاعهم ، وتنخفض بشقائهم ، والذي يحذر ولاته من بطشه إذا أساءوا معاملة الشعب ، هذا الحاكم صنف نادر من الحكام ، ولعله أرقى صنف فيهم على مر التاريخ حين يوجد في أى زمن من أزمنة التاريخ .

فلا عجب إذن إن رأينا هذا الحاكم الذي جاء إلى الحكم ، وهو مهيأ له تمام التهيئة ، ورأسه مليء بالأفكار ، وعزمه مرهف للعمل بدون إبطاء ، لا عجب إذا رأيناه ينجز في أقل من خمسة أعوام ما يقف أمامه المؤرخون في حيرة وإعجاب ، فقد رأيناه يضع قواعد للحكم والنظام والإدارة تبقى أساسا بعده للحكام ، وهو مع هذا كله يتأسف شديد التأسف ؛ لأنه تمكن من حكم البلاد وهو كبير السن ، فربما لا تسعفه

قوته ، ولا يسعفه عمره من تنفيذ كل ما كان يريد ، ومع ذلك كان ما نفذه عظيماً ورائعاً ونادراً بين أعمال الملوك .

وإذا ألقينا نظرة عامة على أعماله ومشروعاته تجدها تهدف إلى شيء واحد هو رفاهية الشعب ، والرقي بمستواه ، وتخليصه من آثار الظلم والإعنات ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم .

فقد كانت سياسة الدولة من قبله تقوم على أن الملك هو مالك الأرض كلها ، يقطعها لمن يشاء ، وعلى الفلاحين أن يزرعوها ، ويؤدوا نحو تسعة أعشار المحصول لأسيادهم أصحاب الأقطاع .

فجاء شير شاه ومسح الأرض ، وحدد مقدار ما يؤخذ من الزارعين للحكومة بنحو ربع الحاصلات ، ولهم الخيار في أدائه نقداً أو عيناً ، على أن يتمتعوا بثلاثة أرباع محصولاتهم ، ثم شدد مراقبته على المحصلين حتى لا يظلموا الشعب ، وجعل للفلاح الحق في تخطي العامل ، ودفع ما يريد مباشرة لخزينة الدولة ، وبجوار ذلك حدد الضريبة التي تؤخذ من التجار دون إرهاق ، مع توفير الأمن لهم في تنقلاتهم .

وقسم المملكة إلى مديريات ، وجعل لكل مديرية حكامها وعمالها ، وحدد لهم اختصاصاتهم ، وجعل فيهم من يراعي تصرفاتهم ويرفعها باستمرار إليه ، وبذلك أقام الحكم على أساس القاعدة الشعبية التي كان دائماً شديد العناية بتوفير الرخاء والأمن لها .

ومما يتصل بعمله العظيم لرفاهية شعبه وتنظيم إدارته ، ما قام به من

تعبيد الطرق وغرس الأشجار المثمرة والمظللة على جوانبها ، وبناء أماكن متقاربة على طول هذه الطرق ، لينـزل فيهـا المسافـرون فيجـدوا ما يريدونه من راحة وطعام وأمن ، وتمكن بذلك من تنظيم البريد ووصوله بسرعة بين أطراف المملكة .

فقد مهد شارعاً أو طريقاً واسعاً من بنجاب إلى « سنار كَاون » في بنكَال طوله نحو ثلاثة آلاف ميل ، وطريقاً آخر من « أرَا » إلى « برهان بور » ، في وسط الهند ، وطريقاً ثالثاً من « أكَرا » إلى « جونبور » وجتور في غربها ، ورابعاً من لاهور إلى ملتان في البنجاب ، وعلى كل ميلين بنى رباطاً ، ورتب به مائدتين للمسـلمين والهنادك ، وأسس به مسجداً عين فيه الإمام والمؤذن ، كما جعل فيه فرسين للبريد(1) ، تجـري إلى الرباط الآخر حيث يتسلم فارس آخر من راكبها الرسائل ، ويجري بها ويسلمها لمن يليه ، وهكذا حتى يصل البريد بسرعة من أقصى البلاد ، وبذلك أتيح له أن يقف على أخبار البلاد أولا بأول ، وقد غرس على جانبي الطرق أشجار المانجو والجامن والكهرمن ، وهي أشجـار تثمـر وتظلل الطريق حتى يأكل منها المسافر ويتمتع بظلها ، ولا يزال بعض هذه الطرق معروفة للآن ، سرت بها بالسيارات ، ولاحظت أشجـار قديمة لا يزال بها أثر من حياة ، كما لاحظت بعض المباني المتهدمة التي كانت تبنى على كل ميلين ، وقد قال لي صاحبي إنها من عهد شير شاه السـوري ، وقد يكون هذا صحيحا وتكون هذه الأشجار قد عمرت كل

---

(1) ذكر المؤرخون أنه خصص للملك3400 من اجود الخيول . .

هذه المدة ، وإن كان هذا أمراً بعيداً ، لكن المقطوع به أن بعض هذه الطرق من أيام شيرشاه ، ولو أن الأشجار الموجودة وآثار المباني قد تكون من عمل غيره ممن سار على طريقته وهديه ، والمهم في هذا كله أن النازلين في هذه الاستراحات ما كانوا ليدفعوا شيئاً بل تتكفل الحكومة بنفقاتهم ، وهذا هو الأمر الذي يدعو إلى الإعجاب .

والأعجب من هذا أنه خصص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام ، من غير أن يدفعوا نظير ذلك شيئاً[1] ، وكان يقول : لو ساعدني الزمان أبعث برسالة إلى عظيم الروم (يريد سلطان بني عثمان) وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس ، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد ، فندفع بمساعدة ملك الروم شرّ الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج ،ونحدث شارعاً آمناً إلى مكة المباركة ، ولكن الأجل لم يمهله ، فمات قبل أن يحقق أمله[2] وقد عنى بجانب ذلك بأمور العمارة ، فنقل مدينة دلهى على شاطىء جمنا ، لما كانت تعانيه من قلة الماء ، وجعل عمارتها على النهر ، كما عنى بإعادة بناء مدينة « باتلي بترا » التي كان قد أسسها الامبراطور « أشوكا » قبل الميلاد ، ونال الزمان من مبانيها وحولها إلى خرائب ، فعمل شير شاه على تجديدها ، وهي مدينة « بتنا » عاصمة ولاية « بهار » الآن ، وبنى كثيراً من المدارس ، وعين للطلاب والأساتذة فيها الرواتب ، وهيأ لغير المسلمين كذلك المدارس ، وجعل أوقافها في يد رجالهم[3] .

(1) نزهة الخواطر جـ4 ص155 .

(2) تاريخ شاهي .

(3) ثقافة الهند ديسمبر 1953

أما أمر الجيش فقد لقي منه عناية كبيرة . كان هو بنفسه يختبر الذين يريدون الدخول في الجيش ، وينظم شؤونه، فوضع له نظاماً دقيقاً ، وقيد أسماء الفرسان وأوطانهم وخصائصهم في دفاتر خاصة ، ووزع الجيش على مراكز متعددة في البلاد ، على أن تكون دلهي ورهتاس أهم وأكبر المراكز ، وكان هو نفسه قائداً لفرقة مكونة من مائة وخمسين ألف فارس ، وسن قانوناً يقضي بتعويض كل من أصابه ضرر أثناء الزحف من الجيش ، مع التشديد على رجاله في صيانة أموال الشعب ما استطاعوا ، فكان بذلك ثاني رجل يعنى بتنظيم جيشه ، ويضع له الأصول والضوابط بعد علاء الدين الخلجي .

وقد قامت حروب بينه وبين بعض راجوات الهند ، انتهت بنصره وضم بلادهم إليه .

وتكتب مجلة « ثقافة الهند » التي تصدرها الحكومة الهندية فتقول : « كان الناس في غاية الطمأنينة في عهده ، حتى كان المسافرون يتركون أمتعتهم في فناء البيت دون مراقبة ، وينامون نوماً هادئاً لا يزعجهم خوف[1] ، وكان الأمن كذلك يسود القرى والفلوات القفر ، فكان الرحالة ينصبون خيامهم فيها متى شاءوا ، ويتركون متاعهم ودوابهم ويغرقون في نوم عميق » .

« ولم يتعرض الامبراطور لشعبه الهندي في قضاياه الداخلية ، فكانت ترفع إلى مجالسهم الدينية إلا ما كان منها يمس أمن الدولة

---

(1) تاريخ الأفاغنة ص206 .

وسلامتها ، فما كان هناك فرق بين المسلم والهندوسي في المشاكل الاجتماعية ، وهذا كله إلى جانب ما كان يرسله الامبراطور من جواسيس خاصة لأنحاء البلاد ؛ ليوافوه بأخبار وتصرفات عمالها فيها مع الشعب » .

وتقول : وكان لهذا الامبراطور ميزة كبرى لم نرها في غيره ـ وقد أشرنا من قبل إلى أن فيروز الخلجي قد سن هذه السنة ـ وهي عطفه على الضعفاء ، حيث خصص للشيوخ والمرضى والعميان والعجزة المقعدين رواتب تقوم بنفقاتهم من المطعم والملبس ، يأخذونها من خزانة بلدهم لا فرق بين مسلم وغير مسلم .

وكتبت تقول : وكان الامبراطور كثيراً ما يقول : على الملك أن يكون قدوة وأسوة لكل ما يطلبه من شعبه ، فإن الناس على دين ملوكهم ، وعليه ألا يذهل أبداً عن أن القوة لله القادر القهار ، الذي مكن له في الأرض وجعل له السلطان ، فالأمر بيده وحده ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وعليه أن يذكر أنه ينوب عن الله في عباده ، فتجدر به الدولة ما دام قائماً بالعدل والحق ، ويستحق العقوبة إذا حاد عن ذلك[1] » .

ومن خلال هذه الكلمات نزداد معرفة بنفسية هذا الامبراطور العظيم . وقد جاء في نزهة الخواطر[2] ذكر برنامج عمله اليومي ،

---

(1) ثقافة الهند ديسمبر 1953 .

(2) جـ4 ص151 .

ويحسن أن نذكره هنا في اختصار ، لنعرف من خلاله كثيراً من حياة هذا الامبراطور وأعماله .

كان يستيقظ من نومه في ثلث الليل الأخير ، ليتهجد ويقرأ الأوراد ، ثم ينظر في حسابات الإدارات المختلفة ويعطي تعليماته لكبار رجاله ، وبعد أن يصلي الفجر في جماعة يقبل عليه الأمراء فيسلمون عليه ، ثم يسأل الناس عن حوائجهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه ، ثم يتوجه إلى المظلومين والمستغيثين ويجتهد في اغاثتهم ، وبعد ذلك تعرض عليه عساكره ، فينظر إليهم وإلى أسلحتهم ، ويثبت من يراه صالحاً للعسكرية بعد اختباره ، ثم تعرض عليه الجبايات التي ترد عليه كل يوم ، ثم يقابل الأمراء والسفراء ، ثم يقبل على الطعام مع جماعة من العلماء والمشايخ والأمراء، ثم يقيل إلى الظهر ، فيقوم ويصلي جماعة ، ويشتغل بتلاوة القرآن الكريم . وهكذا يمضي في أعماله حتى يتم يومه .

كان شير شاه يتأسف لأنه جاء إلى الحكم وهو كبير السن ، وكان يخشى أن يعاجله الموت قبل أن يحقق ما يريد للهند ، وقد وقع سريعاً ما كان يخشاه ، فقد توفي في ربيع الأول سنة 952 هـ ـ 1545 م ولو مد الله في أجله لحفلت صفحات تاريخه بأكثر مما حفلت به ، ولكن لكل أجل كتاب .

قال أحد المؤرخين الأوروبيين ، وهو المستر كين : « توفي شير شاه وتلاشت أسرته ، حتى لا نجد منها أحداً لو فتشنا عنه ، إلا أنه أسس مبادىء الإصلاح العام التي استفيد منها في العصور التي تتابعت بعده ،

واهتم برفاهية الجمهور اهتماماً يسجل بالثناء »[1] .

وقال مؤرخ آخر ، هو المستر « استانلي » : « إن جودة رأيه وصلاحه لا يحتاجان إلى برهان ، وأما نظم مملكته وإصلاحاته الأخرى فقد ظل معمولا بها إلى عصر أكبر » .

خلفاء شير شاه

سليم شاه : ترك شير شاه ولدين ، هما : عادل خان الكبير ، وكان ولى عهده ، وجلال خان الصغير ، وكان معروفاً باسم إسلام خان ، وحينما توفى شير شاه لم يكن واحد منهما موجوداً معه ، وكان جلال خان ، أقرب إلى العاصمة من عادل خان ، لذلك رأى أمراء شير شاه أن يجعلوه هو الملك ، واتفقوا على إجلاسه على العرش ، وجاء جلال وجلس على العرش ، وأرسل إلى أخيه عادل يستدعيه للحضور ، لكن عادل لم يحضر إلا بعد أن أخذ الأمان لنفسه ، وعند وصوله إلى « أكرا » مثل الأخوان دوراً طيبا ، فقد ترك جلال العرش وقال لأخيه : كنت أحافظ عليه حتى تحضر ، فلم يقبل عادل . وأصر على أن يبقى أخوه الصغير ملكاً على أن يتولى هو أمر بعض الإقطاعيات ، وهكذا تم الأمر في سلام ، وجلس جلال على العرش باسم سليم شاه ، وانصرف عادل إلى ولايته . لكن للأسف لم يدم هذا السلام طويلا ، فقد دب فيهم داء الملوك وأبناء الملوك ، وبدأ سليم شاه بالعدوان على أخيه ، وقامت

(1) تاريخ شير شاه لذي الفقار ص82 (نقلا عن ثقافة الهند ديسمبر1953) .

الحرب بينهما ، ومن لطيف ما يرويه المؤرخ « فرشته » أن سليم شاه أرسل أحد أمرائه بقيد من ذهب إلى أخيه ليأتيه به مقيداً ، ولكن أخاه قبض على رسوله وقيده ، وراسل بعض أمراء سليم شاه ، وكانوا قد تعهدوا لعادل خان بالأمان ، فغضبوا لنقض سليم شاه العهد ، واتفقوا سراً معه على أن يحضر ويهجم على العاصمة في الجزء الأخير من الليل ، وهم سيمهدون له طريق النصر ، وسار عادل خان بجيشه ، ومروا في طريقهم بالشيخ « سليم سيكري » ، وكان ولياً متعبداً ، وكانت الليلة ليلة الخامس عشر من شعبان ، فنزل بجيشه عند الشيخ لإحياء هذه الليلة ، ثم ناموا ففاتهم الموعد ودخلوا العاصمة نهاراً ، ففسد التدبير واضطر الأمراء الموالون لعادل خان سراً إلى أن ينضموا لسليم شاه ، وبذلك انتصر ، وفر عادل إلى الشرق حيث انزوى عن تيار الحياة ومجرى التاريخ ، فلم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك ، وبعد هذا استقام الأمر لسليم شاه ، فأخذ في تنظيم شؤون مملكته ، وتابع إصلاحات أبيه في الطرق والتعمير وتنظيم الجيش ، ولمست البلاد في عهده نعمة الرخاء والرفاهية والاستقرار ، ثم توفي في سنة 961 هـ 1554 م ، وهي السنة التي توفي فيها سلطان كجرات محمود ابن اللطيف الكجراتي ؛ وبرهان نظام شاه البحري(1) ملك أحمد نكر إحدى ممالك الدكن .

---

(1) جاء في تاريخ فرشته أن والده (والد المؤرخ) أرخ وفاة هؤلاء بجملة « زوال خسروان » أي زوال الملوك وبحساب جمل هذه الجملة يخرج التواريخ ، وتلك عادة مؤرخي الهند وشعرائها وعلمائها ، ويعنون بمثل هذا في إثبات التواريخ حتى نجد أنهم يختارون المولود بحيث يطابق حساب جملة تاريخ ولادته ، ولذا نسمع أسماء غريبة ، وعدة أسماء لشخص واحد ، وكلها من أجل حساب تاريخ ميلاده من حروف اسمه .

وبعد وفاة سليم شاه تولى ابنه « فيروز » وكان صغيراً ، فطمع خاله « مبارز خان » في الملك ، فقتله بعد ثلاثة أيام ، وتولى هو الملك باسم « محمد عادل شاه » وكان جاهلا يتندر الناس بجهله ، متلافاً كثير البذل بلا حساب . يقول المؤرخ الهندي سيد هاشمي سمع « عادل شاه » أن الملوك السابقين كانوا يبذلون للناس ، ويعطونهم ، فقلدهم تقليداً أعمى في البذل حتى خربت الخزينة ، فاضطر لأخذ أموال كبار الأمراء والأغنياء ، فأسخط الأمراء والكبار ولم يرض أحداً ، وكان له وزير هندوسي الأصل اسمه « هيمو » يقول « سيد هاشمي » عنه أيضاً إنه كان في أدنى درجات الإنسان ، لا يستحق أن نتحدث عنه ، ومع ذلك سلم له عادل شاه الأمور كلها ، فزاد ذلك في أعدائه والناقمين عليه ، ولما قامت الثورة في البنكَال سافر « هيمو » لإخضاعها، فانتهز أحد أقارب عادل شاه هذه الفرصة وهو « إبراهيم سوري » وقبض على أكَرا ودهلي ، وفر عادل منهزماً نحو الشرق ، حيث لحق بوزيره هيمو الذي ذهب للبنكَال(1) ، فأثار ذلك العمل طمع « اسكندر سوري » في الملك ، وكان حاكماً في لاهور ، فزحف إلى دلهي وأكَرا ، والتقى بجيش إبراهيم فانتصر عليه وجلس على العرش ، وكان همايون قد استعد وهو في « كابل » لغزو الهند ، فزحف إليها بجيش عدده خمسة عشر ألف محارب ، والتقى مع جيش اسكندر شاه ، وأعاد التاريخ ذكرى موقعة أبيه « بابر » مع الأفغاني إبراهيم لودي ، وتم النصر لهمايون ، ودخل

---

(1) سيكون لعادل ووزيره هيمو موقعة مع « اكبر » كاد يتم النصر فيها لهما لولا أن سقط هيمو من فوق جواده فتشتت جيشه وتم النصر لأكبر ووزيره بيرم كما سيأتي . .

دلهي وأكرا ، واستعاد بذلك ملكه المفقود سنة 962 هـ ـ 1555 م ودخل باب التاريخ مرة ثانية .

عودة همايون شاه
962 هـ ـ 1555 م إلى 963 هـ ـ 1556 م

اضطر همايون أن يفر من الهند بعد أن هزمه شير شاه سوري وخذله إخوته ، ولم يجد مأوى يستقر فيه إلا في إيران ، حيث استضافه ملكها « طهماسب شاه الصفوي » وأكرمه . . وظل همايون في ملجئه يرقب الأحوال في الهند وفي أفغانستان ، حيث كان يحكم إخوته هناك ، وكان خلفاء شير شاه قد أغرقهم النزاع في دمائهم ، ونسوا أن هناك عدواً يتربص لهم ، فكان بأسهم بينهم شديداً ، وطمع همايون أن يأخذ ملك إخوته أولا ، فاستعان بطهماسب شاه فأعانه بجيش صغير زحف به على قندهار ، وكانت في حكم أخيه ميرزا كمران ، فأخذها ، وبعد ذلك بنحو سبع سنوات استطاع أن يستولي على كابل أيضاً ويقبض على أخويه كمران وعسكري ، ولكنه عفا عنهما ، وأرسلهما إلى مكة بعيداً عنه ، بعد أن ذاق منهما الأمرين ، وهكذا لم ينتقم منهما وغلب عفوه على انتقامه ، مع أن كثيراً ممن حوله لم يكونوا راضين عن هذا العفو ، وكان ساعده الأيمن في هذا كله هو « بيرم خان » الذي صاحبه في منفاه ، وعاش معه طول هذه المدة ، ثم قاد له الجيوش حتى تم فتح قندهار وكابل ، وأصبح في مركز أبيه « بابر » قبل هجومه على الهند واستيلائه عليها ، وفي الوقت الذي بدأ فيه خلفاء شير شاه وسليم شاه يتنازعون ، ويحارب بعضهم بعضاً أخذ همايون يستعد للهجوم على الهند ، ولم يكن

يفكر في عهد شير شاه أو ابنه سليم شاه في ذلك لتماسك الدولة في عهدهما ، وهجم على البنجاب بخمسة عشر ألف مقاتل ، واستولى عليها وعلى لاهور هازما جيش أمير خان وتتر خان ، ثم تابع سيره إلى دلهي ، فالتقى بجيش اسكندر شاه سوري المكون من ثمانين ألف مقاتل وبضع مئات من الفيلة ، وكأن التاريخ يعيد نفسه في موقعة بابر مع إبراهيم اللودي ، فقد انتصر همايون بجيشه الصغير على جيش اسكندر الكبير ، ودخل دلهي وأكَرا منتصراً مستعيداً ملكه فيهما بعد أن فقده نحو خمسة عشر عاماً ، حين خرج من الهند ناجياً بنفسه سنة 947 هـ ـ1540 م ، ثم عاد منتصراً إلى العاصمة سنة 962 هـ ـ 1555 م ، وفي هذه الحرب التي استعاد فيها همايون ملكه كان بيرم خان أكبر عون له فيها ، وحين أتم فتح البنجاب أنعم عليه بلقب خان خانان أي أمير الأمراء ، ثم بعد ذلك عين أبنه أكبر حاكم على البنجاب ومعه بيرم خان خانان مستشاراً له لصغر سنه .

وأخذ همايون في تنظيم أمور دولته من جديد ، لكن القدر لم يمهله طويلا . كأنه أراد له أن يسترجع الملك الذي تسلمه من أبيه ليسلمه إلى ابنه من بعده .

ويصور تاريخ فرشته آخر ساعاته ، فيقول : كان ينزل من المكتبة ، وأثناء نزوله سمع الأذان ، فجلس على السلم يدعو ويردد الأذان ، ثم قام متكئا على عصاه ، فزلق على السلم ووقع مغشيا عليه ، وأدركه خدمه ونقلوه إلى الحرم الملكي ، وجاءوا له بالأطباء ، فأفاق قليلا ، ولكن ساعته كانت قد حانت ، فلم يجد طب الأطباء

شيئاً ، وتوفي في ربيع الأول سنة 963 هـ ـ يناير 1556 م وهو في الواحدة والخمسين من عمره ، ودفن في المقبرة المعروفة باسمه ، وهي تعد من أفخم الآثار الفنية التي تركها المغول والتي تعتز بها الهند الآن ، وقد بنيت على قبره سنة 973 هـ ـ 1565 م في عهد ابنه أكبر ، وقد تربى همايون في قصر أبيه « بابر » في « كابل » ، فتعلم الفنون الحربية والسياسية على عادة أبناء الملوك في عصره ، كما كان يعرف اللغة التركية والفارسية شاعراً عالماً بالهيئة والهندسة والنجوم ، وتبحر في علم الاصطرلاب ، وكان على العموم بارعاً في العلوم الرياضية ، شغوفاً بالكتب ومطالعتها ، محباً لصحبة العلماء . ذا دين وحلم ، فكان يحافظ على الوضوء ، ويكره أن يسمى الله على غير وضوء[1] ، وكان دائماً يغلبه حلمه على غضبه ، فيعفو عمن أساء إليه ، ولا سيما إخوته ، ولعل هذا الحلم هو الذي أطمعهم فيه ، وجر عليه الكوارث منهم .

ولم يكن همايون مثل أبيه بابر في الشجاعة والصبر والجلد ، ولذا لقي كثيراً من المتاعب بعد موت أبيه ، لأنه لم يكن يقضي على خصومه ويحاربهم حتى النهاية ، بل كان يحارب هنا ، ثم إذا لاحت له مبادىء النصر أسرع إلى مكان آخر ، ولعله كان مضطراً إلى ذلك لكثرة الخارجين عليه في كل مكان . . ولكن همايون حمل من الأعباء ما لم يحمله غيره ، ولقي في أيامه ما لم يلقه ملك . وإذا كان بابر يعد مؤسس الدولة المغولية

---

(1) فرشته جـ2 ص 311 وذكر أنه كان من كبار رجاله رجل يسمى عبد الحي . . فمرة لم يكن متوضئاً فلما ناداه لم يجترىء على ذكر اسم الله (الحي) وقال « عبد الـ » فقط ، فتعجب الحاضرون وسألوه ، فقال : لم أكن متوضئاً فكرهت أن أذكر اسم الله وأنا على هذه الحالة .

في الهند فإن همايون يعتبر المؤسس الثاني لها بعد أن استعاد ملكه فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لمكثه مدة كبيرة في إيران ، ومعاونة امبراطورها الشيعي له ، وقوة نفوذ بيرم خان الشيعي في بلاطه - أثر كبير في وفود كثيرة من الشيعة من إيران والعراق وغيرهما إلى الهند ، والعمل في حكومته واتساع نفوذهم في البلاط المغولي . . مما سنرى آثاره في عهد « أكبر » ومن بعده من الملوك .

جلال الدين أكبر

963 هـ - 1556 م إلى 1014 هـ - 1605 م

هو جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيموري ، كانت أمه حاملا به حين فرت مع أبيه ، حتى إذا بلغت السند وضعته في قلعة « عمر كوت » حيث نزلا ضيفين عند حاكمها من الراجوات في ربيع الأول سنة 949 هـ - فبراير 1542 م ، ثم واصل همايون سيره بأسرته حتى وصلوا إلى قندهار التي كانت تحت حكم أخيه ، ولما علم بأن أخاه يريد القبض عليه والفتك به فر بنفسه إلى إيران ، تاركا ابنه مع أمه في قندهار عند أخيه ، ولما عاد بعد مدة إلى أفغانستان ، وفتح قندهار وكابل لحق أكبر بأبيه ، حتى إذا تم فتح الهند جعله أبوه حاكما على البنجاب ، ومعه بيرم خان خانان مستشاراً له وموجها ، وعندما وقعت لهمايون حادثة السلم أرسل الأمراء رسولا إلى أكبر في بنجاب يخبره بمرضه ،

ولكن همايون توفي قبل أن يعود ، فأعلن في البنجاب[1] المناداة به سلطانا على عرش أبيه سنة 963 هـ ـ1556 م ، وكانت سنه في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة وتسعة شهور ، ولذا قام بيرم خان وصياً عليه ونائباً عنه في أمور السلطنة ، وقبض على ناصية الحكم وأدار دفته ، وكان بيرم خان قائداً قوياً بصيراً بأمور الملك ، اعتمد عليه همايون في منفاه ، وفي استرداد ملكه ، وقد أبلى بلاء حسناً في توطيد الملك لأكبر ، وقمع الثورات والفتن والغارات على دلهي وغيرها ، حتى استتب الأمر له أو كاد .

لم يمكث همايون طويلا بعد أن انتصر على اسكندر شاه سوري ودخل دلهي ، حتى يتعقب خصومه ، ويقضي عليهم ويقر أمور مملكته ، بل توفي ولم تقم دولته على عمد راسخة ، وكان أعداؤه الأفغان لا يزالون يقبضون على أكثر البلاد ، فاسكندر شاه سوري ما زال بفلول جيشه ينتهز الفرص لينقض على ملك المغول ، وعادل خان سوري مع وزيره هيمو ما زالا في الشرق بقوتهما ينتهزان الفرص أيضا للاستيلاء على أكرا ودهلي واسترجاع الملك مرة ثانية[2] ، وكثير من الأمراء والحكام طمعوا أثناء الفوضى هذه وانحلال عقد السلطنة في أن يستقلوا ، وهكذا واجه أكبر كل هذه الصعاب .

أما عادل خان ووزيره هيمو فقد انتهزوا فرصة وجود الملك الصغير

---

(1) يقول المؤرخ فرشته جـ2 ص312 : إن الرسول الذي ذهب إليه من دهلي تلاقى معه في « كلانور » وأخبره بوفاة أبيه وهناك أديت مراسيم التعزية له وأعلن توليه العرش . .

(2) كان عادل قد فر أمام إبراهيم سوري حين كان وزيره هيمو في البنغال كما سبق .

في لاهور حين تولى الملك وهجموا على دلهي وأكَرا واستولوا عليهما وعلى البلاد المجاورة ، وبذا فقد المغول بلاد دوآب(1) واستعد هيمو لمطاردة أكبر في البنجاب حيث كان قد توج هناك ، ولما علم بيرم خان بذلك أعد جيشه وزحف إلى دلهي ، والتقى مع هيمو في سهول « بانيبت » ، وكان مع « هيمو » جيش ضخم مؤلف من مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، ولم يكن مع بيرم خان وأكبر إلا عشرون ألفاً ، وكان ذلك في محرم سنة 964 هـ ـ1556 م ، وتدخل القدر في هذه المعركة ، فكانت نهايتها على غير ما يتوقع ؛ إذ سقط هيمو من فوق جواده ، ووقع الذعر في جيشه بعد ما لاحت له بوادر النصر ، فلاذ بالفرار وواصل بيرم خان سيره حتى استرجع ما فقده من دلهي وأكَرا وبلاد دواب ، بعد أن قبض على « هيمو » وقتله بيده .

أما اسكندر شاه سوري الذي هزمه همايون واسترد منه ملكه فكان لا يزال يتربص لاسترجاع ملكه ، فحاربه أكبر حتى التجأ إلى جبال السوالك شمالا ، ثم ضيق عليه الخناق حتى طلب الصفح والأمان والسفر إلى بنكَال والإقامة بها ، فأجابه أكبر إلى ذلك .

ولما بلغ أكبر سن الرشد سنة 967 هـ ـ1560 م ـ كان نضوجه العقلي مبكراً ، برغم أنه لم يتلق من العلوم والفنون ما يتلقاه أمثاله من أولاد الملوك ، ويظهر أن الحياة التي عاشها ، والظروف التي اكتنفت ولادته

---

(1) هي البلاد الواقعة بين نهري جنا وكنكا شمال دلهي وشرقها ، وهي الآن من ولاية « اوتر برديش » وعاصمتها (لكنو) ودواب معناها النهران : فدو يعني اثنين واب يعني ماء .

ونشأته قد علمته كثيراً ، وكان بيرم خان أستاذه وقائده ونائبه قد حمل عبء الملك عنه منذ أن اعتلى عرش أبيه ، واستطاع أن يوطد دعائمه ، ويطارد أعداءه ، ويقضي عليهم واحداً بعد واحد ، وكان « بيرم » شيعيا متعصباً ، والشعب سنيا ، كما كان في مركز يكثر فيه حساده ومبغضوه ؛ لذلك رأى أكبر حين بلغ رشده أن ينحيه عن العمل معه في كياسة ولطف ، وقال له إنني قضيت الكثير من عمري في الصيد ، وقد تحملت عني الأعباء الثقال طول هذه المدة ، ولذلك فإني أحب أن تستريح من عناء العمل وأحمله أنا عنك .

ولكن هذا اللطف لم يقض في الأمر قضاء نهائياً ؛ فإن بيرم خان شعر بالحقيقة ، وحدثته نفسه ـ وهو القائد العظيم الذي دعم الدولة لأكبر وله الفضل عليه ـ حدثته نفسه بالخروج عليه ومحاربته ، فتعقبه أكبر ببعض قواده حتى اضطر لأعلان خضوعه ، وطلب الصفح من السلطان ، فعفا عنه وأشار عليه أن يذهب إلى الحجاز ليقضي هناك ما بقي من أيامه ، وفي طريق بيرم إلى الحجاز ، وحين وصل إلى بلدة « فتن » في كَجرات قتله بعض الأفغان انتقاما منه ، ودفن في مقبرة هناك ، ثم نقلت عظامه إلى دهلي . ثم إلى مشهد الرضا[1] .

---

(1) نزهة الخواطر ج3 ص65 وتاريخ هند لسيد هاشمي ص181 ، وقد ولد بيرم خان في غزنة ولما كبر دخل في خدمة همايون شاه حين كان وليا للعهد ثم صار ملكا ، وأخلص له حتى قربه إليه ولما فر همايون شاه إلى السند لحق به هناك وحرضه على الالتجاء لإيران ، ومكث معه هناك ، وكان شيعياً والدولة الإيرانية شيعية فاستطاع أن يخدم همايون كثيرا ، ثم بعد مدة فتح همايون بمساعدته قندهار وكابل ثم الهند فكان له المنزلة الكبيرة عنده حتى جعله مربيا ومشرفا على ابنه أكبر ، ثم صار نائبا عنه ووصيا عليه لما تولى الملك بعد وفاة أبيه همايون . وكان قتله سنة 985 هـ1577 م .

وقد واجه أكبر عندما استقل بالأمر عده مشكلات ، فقد كان صغير السن مما جعل القواد والحكام يستخفون به ، ويحاولون الخروج عليه والاستقلال بأمورهم ، ولكن أكبر كان برغم صغر سنه شجاعاً مقداما سريعاً في بت الأمور ، يعتمد على عنصر المفاجأة والإقدام في حروبه لأعدائه ، فكان يلاحقهم واحداً بعد واحد حتى قضى عليهم .

ثار عليه أحد الكبار « خان زمان » واسمه « عَلي قلي خان » ، وكان من كبار قواد أبيه ، والتف حوله كثير من الجند والقواد والأمراء ، وانتهز فرصة ذهاب أكبر لإخضاع ثورة البنجاب وهجوم أخيه حكيم مرزا عليها ، فاستولى على قنوج وأوده ، لكن أكبر رجع بسرعة إلى آكَرا ، وجمع جنده وسار إلى خان زمان في سرعة ، وكان الموسم موسم الأمطار والسيول وفيضان الأنهار ، وبرغم ذلك سار أكبر حتى وصل إلى شاطىء « كَنكَا » ، وكان خان زمان على الشاطىء الآخر غارقاً في بحار الأمن ، مطمئناً إلى أن أكبر لا يستطيع أن يصل إليه في مثل هذه الأيام ، ولكن أكبر كانت له همة تتغلب على كل ما أمامه من صعاب ، فعندما وصل إلى الشاطىء ولم يجد سفناً تنقله إلى الشاطىء الآخر ألقى بفيله إلى النهر وهو يركبه ، والأمراء والقواد من حوله يعارضونه في هذه المجازفة الخطيرة ، ولكنه لم يبال بالمعارضة ولا بالخطر ، وأخذ معه عدداً قليلا من الجند ، وعبروا النهر ليلا ، وما إن أصبح الصباح وأشرقت الشمس حتى كانت طبول الحرب تدق على أبواب « كَره مانك بور » التي كان خان زمان يتحصن فيها ، فذهل هو وجنده من هذه المفاجأة ، وفقد السيطرة على الموقف ، وهجم أكبر بجنده القليلين ، فقتل خان زمان

وتفرق جنده ، واستولى أكبر على البلدة . وغنم الغنائم وقضى على خصم عنيد . وقد أرخ بعض الفضلاء ـ كعادتهم ـ لهذا النصر الغريب بهذه الكلمات « مبارك فتح أكبر » سنة 974 هـ ـ 1567 م(1) .

وبعد ذلك توجه أكبر إلى قلعة « رنته بور » وفتحها ، ثم إلى قلعة « جتور » في راجبوتانا أيضاً ، وكان يدافع عنها « جي مل » ، وهي قلعة يضرب بها المثل في المناعة ، ذهب إليها على رأس جيشه ، وأخذوا يهدمون أسوارها بالمتفجرات ، وفي ليلة أطل « جي مل » من فوق أسوار القلعة ، فلمحه أكبر وسدد إليه رمية أطاحت به ، فدب الذعر والخوف في جنوده وأهله ، وأخذوا يقتلون أنفسهم ويحرقونها ، ثم فتحوا أبواب القلعة ووقفوا عندها ليقاتلوا المهاجمين حتى آخر قطرة من دمائهم ، وفطن أكبر لهذا فساق إليهم الفيلة فمزقتهم إربا إربا ، ودخل المدينة سنة 976 هـ ـ 1568 م .

* * *

وبعد أن تم له فتح « جتور » ، وضم راجبوتانا إلى مملكته أصبحت حدودها إلى مملكة كجرات الإسلامية ، وكان كثير من أعدائه الفارين قد

---

(1) تاريخ الهند لسيد هاشمي ص132 ، 133 وكان علي خان شيعياً ومن القواد الذين أبلوا بلاء حسناً مع همايون في توطيد ملكه ، ثم اشترك في قتال « هيمو » وكان له الفضل في هزيمته في أول عهد أكبر فلقبه « خان زمان » ورقاه وولاه على « جونبور » ونواحيها ثم دب الخلاف بينه وبين أكبر مما أدى إلى قتاله وقتله سنة 974 هـ . ويقول صاحب نزهة الخواطر إن القرية التي قتله فيها وتم له النصر عليه سميت باسم « فتحبور » ولا تزال معروفة للآن بهذا الاسم قريباً من إله أباد من مقاطعة « أوتر برديش » أي المقاطعة الشمالية .

لجأوا إليها واستقروا فيها ، وأخذوا يغيرون على راجبوتانا ومالوا ، فتوجه أكبر لفتحها وإخضاعها ، وقد سبق أن تحدثنا عن فتح همايون لكَجرات في زمن « بهادور شاه » لكن هذا لم يستمر طويلا ، فقد استرد بها دور شاه ملكه حين هزم همايون أمام شير شاه ، وفر من الهند ، وبقيت كَجرات مستقلة ، وكان يحكمها في ذلك الوقت مظفر شاه الثالث حفيد بهادور شاه ، وكان ملكا إسميا ، أما السلطة فكانت في يد « غلام إعتماد خان » وكان قد دخل جديداً في الإسلام ، ولم تكن حالة البلاد مستقرة ، بل كثرت فيها الفتن واختل نظام الملك ، فذهب إعتماد خان إلى أكبر ، وطلب منه أن يفتح كَجرات ، ويتولى حكمها ويقضي على ما فيها من فتن داخلية ، ورآها أكبر فرصة ، فذهب بجيشه وفتحها دون مقاومة من مظفر شاه ، بل رحب به وسلم له أمر كَجرات سنة 980 هـ ـ 1572 م ، ثم أخذ أكبر يتعقب أعداءه الذين فروا إليها ، وأخذوا يجمعون الناس حولهم لمناوأته ، فتابعهم في سرعته ومفاجآته حتى أخضعهم تماماً وطهر كَجرات من فسادهم .

ولما زحف أكبر بجيشه لإخضاع مدينة « سورت » وكان البرتغاليون قد أسسوا بها مركزاً لتجارتهم ، وحامية من الجند تحميهم ، هب هؤلاء لمعاونة المدافعين عنها ، لكنهم رأوا غلبة أكبر فمالوا إلى الصلح معه واكتساب وده ، وعقدوا معه معاهدة تعهدوا فيها بتيسير الحج إلى مكة ، وعدم التعرض في البحر للحجاج المسلمين ، وكانت « سورت » ميناء يبحر منها الحجاج ، ولا يزال فيها للآن شارع يسمى « باب مكة » ، وهذا يفسر لنا سيطرة البرتغاليين على البحار في ذلك الوقت .

وحين عاد أكبر من كَجرات اصطحب معه ملكها مظفر شاه الثالث الذي عاش في كنفه مدة ، حتى زين له بعض أمراء كَجرات أن يفر ويعود إليها ليسترجع ملكه ، فاستجاب لهم وفر من أكَرا ، وحين وصل إلى هناك التف حوله كثير من الأمراء والمحاربين ، فعين أكبر عبد الرحيم خان(1) بن وزيره السابق بيرم خان على رأس حملة لإخضاعه ، فلما وصل إلى كَجرات انهزم أمامه مظفر شاه إلى البلاد الساحلية ، ولكنه لم يسلم بل ظل عدة سنين يحارب حرب عصابات ، وأخيراً استسلم سنة 1001 هـ ـ 1592 م وقبض عليه ، وفي طريقه إلى آكَرا مقبوضاً عليه قتل نفسه فاستراح وأراح .

بنجاب وكابل : وكان حكيم ميرزا أخو أكبر من أبيه يحكم كابل ، ومنها هاجم البنجاب ، فسار إليه أكبر وهزمه وتعقبه حتى أخذ كابل .

وقد أعاد حكيم مرزا انتقاضه على أخيه ، وهاجم البنجاب مرة ثانية بعد أن استعاد حكم كابل ، فسافر أكبر إلى البنجاب سنة 989 هـ ـ 1581 م واستخلصها لنفسه ، ثم تعقب أخاه إلى كابل ، ففر إلى الجبال واعتصم بها ، ثم عفا عنه أكبر وأعاده لحكم كابل ، وظل بها إلى

---

(1) ولد سنة 964 هـ ـ 1556 م بلاهور وابوه هو بيرم خان أستاذ أكبر وقائده الذي انتهى أمره إلى قتله في « فتن » بكجرات وهو ذاهب إلى الحجاز بعد أن نحاه أكبر . . وكانت ـ سن عبد الرحيم حين قتل أبوه أربع سنوات ، فاحتضنه أكبر وتربى تحت عنايته وتثقف ثقافة ممتازة . وتدرج في المناصب وصار مؤدبا لابنه جهانكير وفي عهده تولى قيادة الجيوش ففتح له البلاد ونال لقب خان خانان أى أمير الأمراء . وكان ممتازاً بثقافته وكرمه وحبه للعلماء ومعرفته العربية والفارسية والهندية والتركية ، وصنف وترجم كتباً كثيرة ، منها ترجمة مذكرات بابر توفي سنة 997 هـ ـ 1588 م .

أن مات سنة 994 هـ ـ 1585 م فضمت للامبراطورية نهائياً ، وولى عليها مان سنكَ الهندوسي ، وكان ذلك من دلائل تسامح أكبر وحكمه القومي ، إذ كانت هذه أول مرة يعين فيها هندوسي لحكم ولاية إسلامية كانت الهند تحكم منها قبل ذلك .

وفي البنكَال : كان داود الأفغاني ملكاً عليها ، وكان يخضع خضوعاً إسميا للمغول ، ويدفع الخراج لهم ، حتى إذا شعر داود خان بقوته وانشغال أكبر بحروبه امتنع عن دفع الخراج ، فسار إليه أكبر سنة 983 هـ ـ 1575 م ، وعاجله بسرعة برغم المطر والسيول ، حتى وصل إلى شرق بهار في مدة وجيزة أذهلت أعداءه هناك ، فلم يستطع داود خان مقابلته وتجنب الاصطدام به ، فترك أكبر بعض قواده ليتموا إخضاع البنكَال وعاد ، فأخذ هؤلاء يخضعونها شيئاً فشيئاً ، وكان داود خان قد ذهب إلى أوريسه في الشمال ، واعتصم بها وأخذ يهاجم منها جيش أكبر ، لكنه كان ينهزم ، ولم يبق في البنكَال قائد قوي يقف أمام المغول لكنها مع ذلك كانت منطقة نفوذ الأفغان الذين تجمعوا فيها بعد أن وقعت بهم الهزائم أمام المغول ، باعتبارها مملكة يحكمها الأفغان ، وكانت لهم فيها الإقطاعيات الكبيرة والكثيرة بما يصحبها من النفوذ ، ولذلك ظل نفوذ المغول فيها غير مستقر ، ولم تسلم البلاد تماماً لهم إلا في عهد نكير .

***

وكانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين ؛ ولكن الفساد والفتن والمنازعات كانت تسودها ، وقد طمع أكبر في أن يضم هذه الولاية

الجميلة الفاتنة بمناظرها ونباتها وبحيراتها وهوائها إليه ، فأرسل قواده إليها ، ولكن الثلوج والبرد عاقهم عن إتمام فتحها ، وإن كان ملكها قد أعلن خضوعه لأكبر ، لكنه لم يكتف بهذا ، فأرسل جيشاً أتم فتح كشمير ، ودخل ملكها في حاشية أكبر ، وصارت ولاية من ولاياته سنة 995 هـ ـ1586 م .

* * *

أما السند فقد ضمها أيضاً إلى ملكه سنة 1001 هـ ـ1592 م ، ويعتبر المؤرخون هذه السنة سنة جديرة بالذكر في تاريخ أكبر ، ففيها تم فتح السند وقندهار التي أصبحت ولاية من ولايات الهند ، وأوريسه ، كما تم فيها القبض على مظفر شاه الكَجراتي بعد أن استمر سنين يحارب كما سبق ، وفيها أيضاً قدم راجوات الهند طاعتهم لأكبر بعد أن ظلوا مخالفين له .

ونستطيع بذلك أن نقول أن مملكة أكبر اتسعت اتساعاً عظيماً ، فشملت الهند الشمالية والوسطى بما فيها كَجرات ومالوا ، وكذلك البنكَال في الشرق وأفغانستان في الغرب .

أكبر يتجه لفتح الجنوب

ولم يكن أكبر قد توجه إلى الجنوب ، حيث الممالك الإسلامية الخمس التي قامت على أنقاض الدولة البهنمية في الدكن ، وهي دولة بريد شاه في بيدار ، ومالك بيرار ، وكَولكنده وبيجابور ، وأحمد نكَر ، وكان ملك أحمد نكَر قد أغار على مملكة بيرار وضمها إلى ملكه سنة

980 هـ ـ1572 م ، فقـويت بذلك شوكتـه ، وأصبـح قوة خطــيرة ، وكانت الحروب لا تنقطع بين هذه الدول الإسلامية بعضها مع بعض ، وبعضها مع دول الهندوس حولها ، لا سيما مملكة فيجا يانكَر التي تقع في أقصى الجنوب في طرف شبه الجزيرة .

وفي شمال هذه الممالك كانت تقوم مملكة أخرى إسلامية هي مملكة خانديس وعاصمتها « بر هانبور » ، وكانت تشتهـر بقلعـة عســير كَره الحصينة ، وقد ضمها ملك الكَجرات أخيراً إليه ، وصارت تابعة له ، حتى ضمت الكَجرات إلى مملكة أكبر ، وبقيت خانديس تابعة إســمياً للمغول ، يدفع حاكمها الخراج لهم ، لكن جاء أحد الملوك وامتنع عن دفع الخراج الذي كان يدفعه الملوك السابقون فلذلك كله اتجه أكبر إلى الجنوب ، فسار إلى أحمد نكَر سنـة 1004 هــ1595 م وكان ملكهـا في ذلك الوقت الطفل نظام شاه ، ولكن عمته تشانـد(1) « جاندبـي بي » كانت هي الملكة الحقيقية ، فوقفت أمام « أكبر » وجيشه موقفاً خالداً يندر أن نرى في التاريخ مثله لامرأة وربما لرجل من الرجال .

---

(1) هي أخت برهان نظام شاه البحري ملك أحمد نكر تزوج بها عادل شاه البيجابوري ملك بيجابور ، فلما توفي قامت بحضانة ابن اخيه إبراهيم عادل شاه ، وحملت أعباء السلطة عنه بجدارة وكفاءة وصبر حتى بلغ رشده ، فرجعت إلى أحمد نكر وكان ابن أخيها الصغير ملكا فحملت أعباء الدفاع عن ملكه حتى أنقذته من الوقوع في يد أكبر ، واستمر الحال على ذلك مدة تفرق الأمراء فيها واختلفوا ، حتى دعا بعضهم دانيال بن أكبر لدخول البلاد ، وجاء أكبر وعبد الرحيم خان بجنودكثيرة وحاصروا عسير كره وأحمد نكر وشددوا الحصار فرأت لا بد من الصلح ، فلما عرف الناس منها ذلك اتهموها بتسليم البلاد لأكبر وقتلوها سنة 1006 هـ ومع ذلك لم يقدروا على الدفاع عن بلادهم (نزهة ج5 ص124) ومعنى تشاند باللغة الهندية « قمر » وبي بي لقب تعظيم . .

عندما سار إليها أكبر أصدرت نداء إلى الدول الإسلامية المجاورة وإلى أمرائها تنبههم إلى الخطر الذي يقترب منهم ، وتهيب بهم أن يقفوا صفاً واحداً معها لمجابهته ، فأسرع لنجدتها ملك بيجابور ، بينما كان أكبر قد حاصر القلعة ، وأخذ يهدم أسوارها بالمتفجرات كما فعل في قلعة « جتور » في راجبو تانا ، فذعر الجنود بداخل القلعة ولاذوا بالفرار ، وهنا حضرت جاند بي بي ورفعت نقابها ، وفي يدها سيفها وعلى جسمها درعها ، وصرخت في جنودها الفارين أن يعودوا ويثبتوا ، فاستجابوا لها وعادوا يمطرون المهاجمين بالرصاص والأحجار ، وهي تشجعهم حتى انتهى اليوم ، وكانت بعض أماكن في سور القلعة قد تهدمت من فعل المتفجرات ، فانتهزت فرصة الليل ، وأخذت تعيد بناء ما تهدم ، وطالت المحاصرة التي كان يتولاها مراد بن أكبر ، ونال التعب والإعياء من كلا الفريقين ، وفي هذا الوقت كان جنود بيجابور التي هبت لنجدة أحمد نكَر قد اقتربت . فمال مراد إلى الصلح كما قبلته« جاند بي بي»، على أن تكون « بيرار » للمغول ، وبذلك حالت شجاعة هذه المرأة الباسلة دون أن يكسب جيش أكبر نصراً حاسماً خاطفا .

بعد ذلك قامت حرب شديدة بين جنود أكبر وبين مملكة « بيجابور » ، ولعل ذلك حدث لنجدتها لأحمد نكَر ، فوقفت الممالك الإسلامية : أحمد نكَر وكَولكنده مع بيجابور واستمرت الحرب مدة لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، ثم توفي مراد بن أكبر الذي كان يقود الجيوش ، فأسرع أكبر بإرسال ابنه الثاني « دانيال » ، ثم لحقه أكبر نفسه سنة 1008 هـ ـ1599 م على رأس جيش عدته ثمانون ألفا ، ولكن كان موقف مملكة خانديس قد تغير بعد وفاة ملكها ، وقيام ابنه « شاه بهادور

دل[1] » بالملك بعده ، ومناوأته للمغول وامتناعه عن دفع الخراج لهم ، وكانت هذه المملكة تقع في شمال الدكن ، وتعتبر ممراً إلى الممالك الإسلامية : أحمد نكَر وبيجابور وكَولكنده في الجنوب ، فاهتم أكبر بموقف هذه الدولة ورأى أن يخضعها ؛ ليفتح الطريق أمامه إلى الجنوب ، فحاصر قلعتها المشهورة « عسير كَره » بينما كان ابنه دانيال يحاصر أحمد نكَر ، وطالت أيام الحصار حول « عسير كَره » ولقى منها عناء أكثر مما لقيه أخيراً من أحمد نكَر حتى جاءته الأنباء بتسليم أحمد نكَر سنة 1009 هـ ـ1600 م وهو محاصر لعسير كَره ، ثم ساعدته الظروف فتفشت الأمراض في القلعة ، ووقع ملكها « بهادور » تحت تأثير الأوهام والخوف فسلمها ودخلها أكبر ، وغنم منها الغنائم الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ، وبذلك انتهت خانديس وضمت مع أحمد نكَر إلى ملك المغول ولم ينل من بيجابور وكَولكنده شيئاً وبقيتا مستقلتين .

***

بهذا أصبحت مملكة أكبر من الاتساع بحيث شملت الهند كلها ، ما عدا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الذي كانت تحكمه ممالك بيجابور وكولكنده الاسلاميتان وفيجا يانكر الهندوسية التي كانت تقع في نهاية الجنوب . وكان راجوات الهند الذين يحكمون وسطها في راجبوتانا وكواليار وغيرهما قد سلموا نهائياً لاكبر ، إما بالحرب أو بالمصالحة ، بل أصبح هؤلاء الهندوس من أكبر المعاونين لأكبر والمتحمسين له ، بعد ما

---

(1) معنى بهادور شجاع ومعنى دل بكسر الدال القلب أي شجاع القلب .



مملكة أكبر وبيان الولايات بها « نقلا عن تاريخ الهند لسيد هاشمي »

رأوا من حسن سياسته نحوهم ، وقيام المصاهرات بينهم وبينه ، وتألفت بذلك مملكة أكبر من هذه الولايات :

(1) كابل(2) قندهار(3) السند(4) ملتان(5) لاهور(6) كشمير(7) دهلي(8) أكره(9) أجمير(10 إله أباد(11) أوده(12) بهار(13) بنكال(14)

أوريسه على ساحل خليج البنكَال(15) مالوا(16) كَجرات(17) خانديس(18) برار(19) أحمد نكَر .

ثورة ابنه سليم :

عاد أكبر بسرعة من الدكن حينما علم أن ابنه وولي عهده سليم قد قام بثورة في إله أباد بقصد الاستيلاء على الملك ، وترك دانيال وأبا الفضل يحكمان الدكن ، وحينما وصل إلى أكَرا أرسل لإبنه سليم في إله أباد التي كان يحكمها ، فجاء إليه معتذراً وصفح عنه .

وفي ذلك الوقت رجع أبو الفضل من الدكن ، وكان بينه وبين سليم جفوة ، فخشي أن يحرض أباه عليه ، فأشار الى أحد أتباعه « راجارام » والى « بندهيل كهند » أن يقتله قبل أن يصل ، فقتله سنة 1011 هـ ـ1602 م ، فغضب أكبر وحزن كثيراً ، وانتقم من القاتل « راجارام » شر انتقام .

وفي سنة1013 هـ ـ1604 م توفي ابنه الآخر « دانيال » في الدكن ، فاغتم كثيرا ، ولم يلبث هو أن توفي في جمادى الآخرة سنة 1014 هـ ـ1605 م بعد أن مكث ملكا على الهند نحو خمسين سنة ، وكان عمره حين توفي نحو63 سنة ودفن في اسكندر أباد قريباً من « أكرا » .

أكبر في نظر التاريخ :

في كل ما تقدم صاحبنا أكبر في حروبه وفتوحاته ، وعرفناه محارباً شجاعا لا يعبأ بالصعوبات ، ولا يعرف المستحيلات حتى دانت له الهند

كلها تقريباً ، ولكن لأكبر جوانب أخرى ، لعلها أكثر أهمية من فتوحاته وحروبه ، وقد ظفر هذا الامبراطور المغولي باهتمام بالغ من المؤرخين الهنود والأوروبيين لم يظفر به امبراطور سواه ، وكتب عنه الأوروبيون والهندوس كثيراً ، وأشادوا به ، واختلف هؤلاء عن بعض المؤرخين الإسلاميين في تقدير بعض أعماله والحكم عليها ، ولكل وجهة ، ونحن حين نكتب هنا عن أكبر نحرص أشد الحرص على أن نضع أعماله أمام القراء ، ونحكم عليها من الزاوية الإسلامية التي تولى الحكم من ناحيتها وباسمها ، دون أن نغمطه حقه في أية ناحية من نواحي نشاطه الأخرى .

ولد أكبر وتربى في ظروف عصيبة بالنسبة له ، فلم يحظ بعناية من أبيه البعيد عنه ، ولم يتعلم مثل أولاد الملوك،وحينما قدر له ان يعتلي عرش أبيه ـ وعمره ثلاث عشرة سنة ـ لم يتجه إلى تكميل نفسه من الناحية العلمية ، بل انصرف إلى ما ينصرف إليه أمثاله من عيش القصور ، والخروج للصيد وغير ذلك ، ومع هذا كان أكبر يتمتع بذكاء نادر ، وشخصية قوية ، وكان يضم إلى هذا جرأة غريبة ، ولقد كانت هذه الجرأة أبرز صفة فيه ، لمسنا أثرها في حروبه ، وسنلمس أثرها كذلك في آرائه وأعماله الأخرى ، بحيث يمكن أن نقول : إن هذه الصفة ـ الجرأة النادرة ـ كانت مفتاح شخصيته .

أكبر وسياسته في الحكم :

وجدت من المناسب ، بل من الضروري أن أخصص لأكبر هذا العنوان ، لأنه هو الآخر قد اختط لنفسه سياسة جديدة في حكم الهند

تختلف عن غيره من الملوك المسلمين الذين حكموها ، فقد أقام حكمه على أساس الهند للهنود لا للفاتحين ، وحكمها على أساس قومي لا تفريق فيه بين جنس وجنس ، وأهل دين ودين ، وسار في سياسته القومية هذه إلى آخرها ، مضحياً في سبيلها بكل شيء حتى ببعض أوامر الدين ، هادئاً من هذه السياسة إلى كسب ود الشعب على اختلاف نزعاته ، وإقامة حكمه على دعائم من رغبات الشعب ومصالحه ، ونظر الشعب فوجد حاكمه يسوسه هذه السياسة القومية الهندية ، ويجعل من كابل وقندهار ولايتين تابعتين للهند ، بدلا من أن تكون الهند محكومة من كابل ، وحينئذ أخلصوا له الطاعة لا سيا الهندوس وراجاواتهم ، الذين لم يروا من قبل مثل هذه السياسة التي تتخذ شعارها عدم التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، وإلغاء ما كانوا يتضايقون منه ويشعرون بالهوان من أجله وهي الجزية ، ومع ذلك ساهموا مساهمة كبيرة في وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، حتى رأوا كثيراً من الأمور بيدهم ، ورأوا حاكم كابل هندوسياً منهم ، وهكذا وجد الهندوس في أكبر وعهده ما لم يجدوه من قبل ، بل وجدوا ما لم يكونوا يحلمون به أو يتخيلونه ، وهو عقد مصاهرات بينهم وبين الملك وأبنائه وأمرائه ، ودخول كثير منهم في حاشيته ، وتغلغل نفوذهم في إدارة الحكم ، كل هذا جعل منهم رعايا مخلصين متفانين ، بعد أن كانوا من ألد أعداء الأباطرة والحكام المسلمين ، وكانت هذه السياسة الجديدة لأكبر تعتبر انقلاباً هاماً في سياسة حكم المسلمين للهند . فظفرت هذه السياسة بالتقدير من المعاصرين ومن المؤرخين جميعاً . . ولا يمكن لأحد من المسلمين الواسعي الأفق أن يعترض على أكبر في سياسته هذه أو معظمها على

الأقل . بل إنهم يرون في عدل أكبر وسياسته نحو رعاياه صورة من صور المبادىء الإسلامية العادلة التي تحرص على العدل بين جميع الرعايا . . .

ويمكن أن نفصل بعض ما أجملناه عن سياسته(1) :

لقد أزال الفوارق بين المسلمين والهندوس في دفع الضرائب ، بل رفع الضرائب التي كان يدفعها الهندوس عند زيارتهم لأماكنهم المقدسة ، وفتح بابه للشاكين ، وجعل على بابه ناقوساً يدقه كل من أراد أن يقدم شكواه إليه ، وأعان الزراع وثبت ملكياتهم للأرض ، وتجاوز عن ديونهم المتأخرة . وله إصلاحات اجتماعية ، وأوامر إدارية إلى حكامه وولاته تدل على مبلغ رقي الحكم في عهده ؛ فقد منع الزواج قبل سن الرشد ، وأباح للأرامل الهندوسيات الزواج وكن لا يتزوجن ، كما منع المرأة من إحراق نفسها إذا مات زوجها ، وامتنع عن جعل اسارى الحرب عبيداً ، وشجع العلماء الهندوس في تعليم اللغة السنسكريتية . ومن أوامره لحكامه : أن يحيطوا علماً بأحوال رعيتهم ويعاملوا الناس معاملة حسنة ويحسنوا إلى الفقراء ، وألا يعفوا عن المجرمين ، ولا يقبلوا الهدايا ، ولا يعترضوا على المخالفين لهم في الدين ، فهم إن كانوا على الحق فلا يصح الاعتراض عليهم ، وإن كانوا على الباطل فهم مرضى يجب الرفق بهم ، ثم عليهم أن يلاحظوا دخل الناس وخرجهم ، حتى إذا زاد خرجهم كان ذلك دليلا على اكتساب حرام ، ومنع اغتيال

---

(1) نقلا عن مجلة ثقافة الهند عدد يونيو1955 باختصار .

النساء والرجال في الأنهار معاً ، كما منع شرب الخمر وعصرها ، ومشى النساء كاشفات وجوههن . ومنع جبر أحد على الإسلام ، ومن أجبر فله الخيار ، وجعل للناس الحرية التامة في اعتناق أي دين يريدون .

وهذه التوجيهات ـ ومثلها كثير ـ تدل دلالة واضحة على مبلغ النضج في التفكير ، وفي تسيير دفة الحكم في البلاد .

أما ما يتصل خاصةً بسياسته نحو الهندوس فيحسن أن أنقل هنا ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في كتابه « حاضر العالم الإسلامي »(1) :

« يقول مؤرخو الهند من الأفرنجة أن سلطان دلهي عرف كيف يستولي على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم ؛ لأنه كان شهماً وفياً عالي الجناب ، تام المروءة حفيظا للعهود ، ملاكا للافئدة بشرف خصاله ونبل فعاله ، وكانت هذه البيوتات المالكة في آمبر ، ومار قار ، وبيكَانير ، الأمثلة العليا في النبالة والأصالة ، وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان ما شاهدوه من المكارم والمعالي محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبذلوا من دونه أرواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم لنفسه ، وعول عليهم في مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية ، ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم ردءا له في المواقف ، لا سيما راجا آمبر المسمى « بهاري مال » ، وولده « باخفان داس » ، وحفيده « مان سيغ » الذي كان أخاً لأكبر في

(1). ص300 جـ4 في فصل عقده عن الممالك الإسلامية في الهند .

الرضاع ، وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » اليد اليمنى لأكبر في أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنكال ، ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه ، ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار أكبر بزواج بعضهم من بعض ، وبدأ في ذلك بنفسه ، فعقد نكاح أخت الراجا « باخفان داس » ولولده « جهانكير » على حفيدة « راجا مارقار » وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسرة المالكة في بيكانير وأجمير ، ووشج بذلك علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية ، فتوطدت دولته وأمن شر العواقب » .

وجاء في مجلة ثقافة الهند(1) عن أكبر من هذه الناحية :

« كان أكبر في أول أمره ميالا إلى العلماء والصلحاء ، وكان يتبع أحكام الشريعة ويحترم الصوفية ، ويحضر بنفسه في مجالسهم ، وكان للعلماء الكلمة النافذة في سياسة البلاد وشؤون العباد ، وكانوا لا يعاملون من خالفهم في دينهم معاملة العدل والمساواة(2) ، ولكن كان أكبر لا يحب أن يعمل بهذه الخطة ، فأخذ يتبرأ منهم ، فلم يبق عنده من العلماء إلا من كان يوافقه على سياسته ، ويحذو حذوه في إدارة شؤون المملكة التي كان أكثر أهلها من غير المسلمين .

« اختار أكبر كثيراً من عادات الهندوس ، وشاركهم في أعيادهم وترك زي الآباء وتزيا بزيهم (! ! !) وتزوج بنات الأمراء والقواد من

---

(1) عدد يونيو 1955 . (2) هكذا في نظر المجلة ، ولعله يشير مثلا إلى فرض الجزية على الهندوس ، وكان ذلك أبغض شيء لهم . والمجلة تصدرها حكومة الهند .

الهندوس ، فتزوج بنت راجا « جيبور » « بيهار مال » سنة 1562 م فولدت له ابنه سليم الملقب بجهانكير ، وتزوج ببنات راجا بيكانير وجيسلمير في سنة 1570 م ، وزوج ابنه سليم « بمان باثي » بنت راجا بهكوان داس ، فاشتدت بذلك العلائق الودية بين الهندوس والمسلمين ، لا سيما بينهم وبين فرق راجبوت ، وكانت لهم إمارات كبيرة في جهات مختلفة من الهند ، وكانوا بواسل محبين لوطنهم أولي بأس شديد ، وقرب إليه كثيراً من علماء الهندوس وأمرائهم ، فمال إليه الهندوس ، وحسبوه كواحد منهم ، وقاتلوا عنه ، وأعانوه على الثائرين ، ولو كانوا إخوانهم في الدين » .

وجاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي أيضاً عن سياسة أكبر :

« كانت نهاية أكبر سنة 1014 هـ ـ 1605 م بعد أن ملأ الهند مآثر ومفاخر ، وأدار السلطنة إدارة قل من سدد لمثلها في الأوائل والأواخر ؛ لأنه إلى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير مرتكنة على قواعد ثابته وأنظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، وأهواء الأشخاص هي الغالبة . فسير أكبر دولته هذه على أصول إدارة جديدة : فارسية مغولية ، غاية في الضبط والدقة ، ورفع استبداد الأمراء والملوك ، فأرضاهم ، وأراح الرعايا من ضررهم ـ صنع لويس الرابع عشر في فرنسا ـ وشكل الدولة على النسق الحالي المتبع في هذا الوقت في العالم . . الخ » .

ويقول جوستاف لوبون(1) :

---

(1) في كتابه حضارة الهند ص 223 .

« ويعد عهده الذي دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب الذكر ، ونرى النظم التي انتحلها من أكثر النظم ملاءمة للشعوب التي ملكها ، وكتب لكثير من هذه النظم البقاء بعده ، وقلدها الانكليز في الغالب » .

وفي عهد أكبر بدأت اللغة الأوردية المكونة من الفارسية والتركية والعربية تبرز إلى الوجود ، وكانت التركية لغة الأسرة المالكة ، والفارسية لغة الدولة ، والعربية لغة الدين الإسلامي .

ومما يذكر لأكبر أيضاً عنايته الكبيرة بجيشه وتنظيمه ، حتى إنه أعطى أسماء معينة لمدافعه ، وكتب لها تاريخاً دون فيه ما أدته هذه الاسلحة من خدمات ، وكان نابغا في علم الحركة ، وله عدة مخترعات ، منها اختراعه ماسورة للبندقية من الحديد لا تنفجر(1) .

وفي أواخر عهد أكبر تألفت شركة الهند الانجليزية سنة 1009 هـ ـ 1600 م ، وبدأ عملاؤها يتصلون بأكبر ، وينالون منه بعض الامتيازات التجارية ، كما أنه استقبل أول سفير للملك جيمس الأول في بلاطه وهو السير « توماس رو » .

عقيدة أكبر وموقفه من الإسلام

كان لا بد لنا ونحن نتحدث عن أكبر أن نعقد له هذا البحث ما دام هو قد شغل نفسه وعصره بعقيدته الدينية ، وأثار حوله كثيراً من

---

(1) من مذكرة الأستاذ حبيب ص108 .

الكلام ، بل كثيراً من الثورات ، و « أكبر » هو امبراطور إسلامي من أسرة مسلمة ، حكمت باسم الإسلام ، وأسدت إليه كثيراً من الخدمات ، لذلك كان أى انحراف عن هذا الطريق لافتاً للأنظار ، ومثيراً للجدال والقلاقل ، ولو ظلت لأكبر عقيدته الدينية سراً بينه وبين الله لم تتسرب آثارها إلى أعماله السياسية والحكمية ، ودون أن تتأثر الدولة بها لكان من الممكن أن نتركها له كما هي بينه وبين الله ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك ؛ فإن ما طبع عليه أكبر من الجرأةوالمجازفةفي حروبه ، وفي مصاهرته للهندوس جعلته يجهر بعقيدته التي خالف فيها شعبه المسلم ، وخالف بها ما جرت عليه أسرته الملكية من محافظة على الإسلام ، واجتهاد في دعم تعاليمه بين الناس ، فعل ذلك دون خشية من الله أو من شعبه المسلم ، ولعل الذي ساعده على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة هو اطمئنانه إلى الهندوس الذين أصبحوا عونه في الملمات ، والذين يسرهم منه بلا شك أن يخطو هذه الخطوة .

وشيء آخر ألمسه من تصرفاته دفعه إلى ما فعل ، وهو ميله لأن يكون حكمه قائماً على نظرياته السياسية ، بعيداً عن التقيد بأمور دينه وتعاليمه ، ورغبته بأن يكون حكمه للهند حكماً قومياً ، أو إن شئنا تعبيراً حديثاً قلنا حكماً لا دينيا ، وإن كان هذا جره إلى خطوة أخرى أجرأ من سابقتها ، حين دفعه الغرور لأن يخترع ديناً جديداً مزيجاً من الأديان التي عرفها ليكون دين دولته ، وليصبح هو بعد ذلك صاحب دين جديد ، يتمتع بالتقديس الذي يحظى به واضعو الأديان ـ وما أكثرهم في الهند ، وما أكثر ما نالوا من تقديس الملايين وتفانيهم ـ أضف إلى هذا أن أكبر لم يتلق تعليماً دينياً في صغره يعصمه من مثل هذا

الزلل ، وأن الذي قام على إرشاده وتوجيهه ، وكان له أكبر الأثر والفضل عليه هو بيرم خان الشيعي المتعصب ، وكان لهذا أثره فيما بعد حين قرب إليه كثيراً من علماء الشيعة وجعلهم مستشارين له ، مثل فتح الله الشيرازي وأبي الفضل الناكَوري وأخيه أبي الفيض ووالدهما مبارك ، بل كان كثير من العلماء يرمونهم بالإلحاد والزندقة ، وكان لهؤلاء بلا شك أثرهم في توجيه أكبر وتشجيعه حتى أثبت كثير من المؤرخين أنه كان شيعياً .

ولنذكر لك في تفصيل ما قدمناه في إجمال :

ذكر بعض كتب التاريخ عن أكبر في أول عهده حرصه على تقريب أهل العلم والصلاح ، حتى كان يذهب بنفسه إلى بيت الشيخ عبد النبي أحمد الكَنكَوهي(1) لاستماع الحديث . ويسوي نعليه بيده ويضعهما قدامه ، وكان يرحل إلى أجمير لزيارة قبر الشيخ معين الدين حسن السجزي الجشتي(2) راجلا في كل سنة ، وكان يتبرك بالشيخ

(1) ولد ببلدة « كنكوه » التابعة لسهار انبور من مديريات المقاطعة الشمالية ، وتعلم على أبيه ، ثم رحل إلى مكة وسمع الحديث عن ابن حجر المكي وغيره ، وسار على مذهب المحدثين حين رجع إلى الهند ، فخالف كثيراً من الصوفية ومنهم والده في مسألة السماع ووحدة الوجود والموالد وغيرها ، فثار العامة عليه وطردوه من بلاده ، وسمع عنه « أكبر » فطلبه سنة 971 هـ 1563 م وبالغ في إكرامه ، وأغدق عليه المناصب والأموال ، فأقبلت عليه الدنيا ، واستمر على ذلك سنين حتى دخل أبو الفيض وأخوه أبو الفضل في خدمة أكبر ، فنفسا عليه ، ودبرا له المكائد حتى غضب عليه أكبر ، وأمر بطرده من الهند ، فسافر إلى الحجاز ، ومكث بها مدة ثم طلب العفو للرجوع إلى وطنه فأذن له ، ولكنه حين عاد أمر بالقبض عليه وفوض أمره لوزيره الهندوسي « تودرمل » وللشيخ أبي الفضل فعذباه حتى مات ، وقيل قتل مخنوقاً سنة 991 هـ ـ 1583 م ، ا هـ من نزهة الخواطر جـ 4 ص 219 وما بعدها بتصرف .

(2) هو الحسن بن الحسن السجزي ولد سنة 537 هـ 1142 م في سجستان وتوفي أبوه سنة خمسة=

سليم بن بهاء الدين السيكروي(1) وزاد اعتقاده فيه لما بشره بثلاثة بنين ، فرزق بهم بعد أن كان محروماً منهم ، ولذلك سمى ابنه باسم هذا الشيخ « سليم » على غير عادة المغول في تسمية أبنائهم ، وبنى مدينة في المكان القفر الذي كان يقيم فيه الشيخ قريباً من « أكرا » ؛ وجعلها عاصمة بلاده مبالغة منه في تكريمه ، وسميت هذه المدينة « فتح بور سيكري » وهكذا نرى أكبر مسلماً خاضعاً متدينا ، يحترم العلماء ويجلهم ويتقرب إلى الأولياء منهم ، وهذه بداية استمرت نحو عشرين سنة من حكمه ، ثم مع الأسف لم تتفق مع النهاية ؛ فقد تحول أكبر عن هذه الروح المسالمة الخاضعة إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور ، ونفخ فيه من حوله من الشياطين ، فزينوا له أنه ظل الله في أرضه ، وأنه لذلك لا

عشر عاماً ، وترك له بستاناً ورحى فعاش منهما ثم أخذته الجذبة الربانية ، فترك كل شيء ، وسافر إلى سمرقند وحفظ القرآن ودرس بعض الكتب ، ثم أخذ الطريقة عن بعض رجال الطرق ، وأخذ يتنقل في البلاد حتى وصل إلى لاهور بالهند ، ثم إلى دلهي ثم الى أجمير واستقر بها ، وأظهر من الكرامات ، والوقائع الغريبة ما جعل الملايين يدخلون الإسلام ، وقد سمعت من المرحوم شيخ الإسلام مولانا مدني أن تسعة ملايين دخلوا الإسلام على يديه ، ولأجل كراماته ، ويقول صاحب نزهة الخواطر : إن الحديث عن كراماته تقصرُ عنه الأقلام ويعتبر منبع الأولياء في الهند وله مولد في كل عام يحج إليه مئات الآلاف مسلمون وهندوس ، وتعتبر أجمير لدى العامة في الهند من المدن المقدسة تقريبا ، حتى إن الجهال ربما يكتفون بالحج إليها ، ويعتبرونها المدينة الثالثة بعد مكة والمدينة ، وكل ذلك من أجل ولي الله الشيخ معين الدين الجشتي ، هذا وقد توفي سنة 627 هـ ـ 1229 م وله من العمر خمسة وتسعون عاما . رضي الله عنه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء ـ نزهة الخواطر جـ 1 ص 135 .

(1) ولد سنة 884 هـ ـ 1479 م وقرأ على العلامة مجد الدين السرهندي وغيره من العلماء ، ورحل إلى الحجاز ، وكان بعد الحج يطوف بالبلاد العربية المجاورة ، ثم يرجع للحج . وهكذا ، حتى حج اثنتين وعشرين حجة ، وقد اشتهر بالولاية في الهند ، وكان يقيم على جبل قريبا من سيكري على بعد 12 ميلا من « أكرا » واعتقد فيه « أكبر » فكان يتقرب إليه ويسأله الدعاء وتوفي سنة 979 هـ ـ 1571 م .

يصح أن يستمع لهؤلاء العلماء ، ولا أن يقلدهم ، بل الرأى ما يراه هو ، وهو مجتهد ، بل إن مرتبته باعتباره إماماً وخليفة فوق مرتبة المجتهدين ـ وهذه الفكرة قريبة جداً من فكرة الشيعة عن الإمام واجتهاده إن لم تكن هي ـ وكان هؤلاء اللذين زينوا له ذلك هم المشايخ مبارك(1) ابن خضر الناكوري وولداه : أبو الفيض . وأبو الفضل

---

(1) قال عنه صاحب نزهة الخواطر ولد سنة 911 هـ ـ 1505 م ، وكان مفرط الذكاء دخل أكبر أباد سنة 950 هـ ـ 1543 م وانتهت إليه الإمامة في العلم والفضل ، وقال عنه صاحب البدايوني إنه كان ذا أطوار مختلفة ، لحق بالمهدوية ثم بالطريقة النقشبندية ، ولما رأى أن أهل إيران تغلبوا ونالوا في الدولة أعز منال صرف إليهم عنان العزيمة ، وعلم جرا ، توفى سنة 1001 هـ ـ 1592 م ودفن بلاهور . أما ابنه الكبير أبو الفيض فقد ولد بمدينة أكرا سنة 954 هـ ـ 1547 م تصفه نزهة الخواطر بأنه لم يكن له نظير في الشعر والعروض والقافية واللغة والتاريخ واللغز والانشاء والطب وكانت له قدرة عجيبة في الشعر والنثر الغير المنقوط المكون من الحروف المهملة ، وألف كتاباً في التفسير سماه « سواطع الالهام » من الحروف المهملة أيضا قال في مقدمته من قصيدة طويلة مدحا له :

الـواح سحر أم طلسم مكرم لأسرار روح للسواطع ملهم

وكان يرمى بالزندقة والإلحاد قال البدايوني عنه : إنه مخترع الجد والهزل والعجب والكبر والحقد جمع فيه من الخصال غير المرضية ما لم يجمع في غيره من النفاق والخبث والرياء والخيلاء والرعونة ، وكان غاية في الفساد والعداوة لأهل الإسلام ، والطعن في أصول الدين والصحابة ، وكان يحل المحرمات ويحرم الفرائض والمباحات ، صنف تفسير القرآن لتطهير عرضه عن ذلك بمشهد من الناس ، لكنه كان يصنفه في حالة السكر ، وكانت الكلاب تطأ أوراقها . ذهب إليه السلطان أكبر ليعوده في مرض موته فخرج يقول إنه كان يعوي عليه كالكلب ، ومن عجيب أمر الناس وكرههم له أنهم أرخوا لوفاته جريا على عادتهم بهذه الكلمات « فيضي ملحدي » ، « خالد في النار » توفى سنة 1004 هـ ـ 1595 م ودفن بأكرا أو لاهور .

أما أبو الفضل أخوه الصغير ، فقد ولد سنة 958 هـ ـ 1551 م وتعلم على أبيه وأخيه ، وتضلع في العلوم المختلفة ولا سيما العلوم الحكمية . ودعاه أكبر مع والده إلى أكبر أباد العاصمة في ذلك الوقت ، فأخذ يتقرب إلى أكبر مع أبيه حتى صار من أقرب الناس إليه

وغيرهم ، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ عنهم أنهم كانوا من الشيعة وأن التحول في عقيدة أكبر حدث بعد اتصالهم به ودخولهم في حاشيته ، وقد كانت نفس اكبر مستعدة لمثل هذا التغرير ، ميالة إلى التحرر من قيود الشريعة وإلى الاستماع للأديان الأخرى : اليهودية والمجوسية والنصرانية والوثنية ، وقد بنى في مدينته الجديدة مكاناً سماه « عباد تخانة » أي مكان العبادة التي اخترعها أكبر ومن حوله ، وهي عبادة متحررة من مراسم الإسلام ، ومقتبسة من الأديان كلها ، وكأنه أراد بذلك خلق دين جديد يجمع عليه شعبه المتعدد الأديان كما جمعهم حكمه وسلطانه ، وسماه « الدين الإلهي » ، ونادى أكبر بأن الدعوة الإسلامية قد مضى زمنها بمرور ألف سنة عليها ، وأنها أصبحت لا تتفق مع زمانه ، ولا يتعين أن يكون الحق معها ، بل يكون دائراً بين الأديان والمذاهب كلها ، ولذا فلا بأس من أن نقتبس منها كلها طريقة العبادة الجديدة ، وانساق أكبر في هذه الطريقة ، فأنكر الوحي والجن والملائكة والحشر والنشر وسائر المغيبات ، وأنكر المعجزات ، وجوز التناسخ ، وحرم ذبح البقرة ، وأحل الخمر(1) والميسر والمحرمات الأخر .

= وعينه فيما يشبه رئيس وزرائه ، اتهم مع أخيه وأبيه بأنهم الذين زينوا لأكبر ما صنع من الخروج عن الإسلام ، وكان أعلم وزراء الدولة التيمورية وأكبرهم في الحدس والفراسة وإصابة الرأى وسلامة الفكر وحلاوة المنطق وبراعة الإنشاء ، له مصنفات كثيرة في التاريخ وغيره أشهرها « اكبر نامه » في تاريخ اكبر « وآئين اكبرى » أي قوانين اكبر ونظمه ، كما ترجم حياة الحيوان للدميري ، وكليلة ودمنه ، وكثيرا من الكتب الأخرى . لما قتله « راجا نرسنك ديو » بتدبير « جهانكير » لسوء العلاقة بينهما حزن اكبر عليه كثيرا وانتقم من الراجا شر انتقام ، وكان قتله سنة 1011 هـ ـ1602 م (نزهة الخواطر جـ5 ص24 وما بعدها . ملخصا) .

(1) هكذا ذكر بعض كتب الهند التاريخ التي نقلنا عنها هذا كما ستعرفها في آخر هذا

وأمر بإيقاد النار في حرمه الخاص على طريقة المجوس[1] ، وأن تعظم الشمس حين طلوعها على طريقة مشركي الهند ، وبدل الكلمة الطيبة ، « لا إله إلا الله محمد رسول الله » إلى « لا إله إلا الله ، أكبر خليفة الله » فلما رأى الفتنة العظيمة بإشاعة تلك الكلمة أمر أن يتفوه بها في بلاطه ، وكان يسجد للشمس والنار في كل سنة يوم النيروز ، مع العناية بالاحتفال به في أنحاء المملكة ، ورسم القشقة على جبينه[2] كما اتخذ كثيراً من العادات الخاصة بالهندوس وأشاعها بين شعبه ، وكان يحث أتباعه على ترك التقليد ، يعني به دين الإسلام قائلا : إن واضعه من فقراء الأعراب ، وأمر ألا يقرأ من العلوم العربية إلا النجوم والحساب والطب والفلسفة[3] . ويقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي ، بعد أن سرد مثل ما تقدم ص307 « ولم يغفل أكبر عن النصرانية ، ففي سنة 1580 م أرسل إلى رهبان البرتغال الذين كانوا في « جوا » يستقدم منهم من يفقهه في عقيدتهم . فلبوا دعوته

الكلام ، وقد مر فيما نقلناه عن مجلة ثقافة الهند أنه حرم الخمر . . ولعل هذا الخلاف ناشيء من حب بعض المؤرخين له أو تحاملهم عليه ، أو لعل ذلك كله حصل في أوقات مختلفة في حكمه الذي بلغ أكثر من خمسين سنة .

(1) ذكر المؤرخ الفرنسي « رينيه غروسه » أنه جيء له بالنار المقدسة من إيران ، وهيبها محفوظ من عصر إلى عصر منذ أيام رعاة الإيرانيين القدماء ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق في بلاطه . (نقلا عن حاضر العالم ص 309 جـ4) .

(2) اعتاد الهنود حتى الآن أن يضعوا على جبينهم نقطة ملونة من الزعفران وغيره حتى أصبح ذلك شعارا لهم ، ورأيت غالبهم يخططون جبينهم بخطوط أفقية حول النقطة هذه ، معتقدين أن ذلك لحصول البركة ، وتسمى هذه النقطة عندهم « قشقه » وتختلف حسب أتباع كل مذهب كما سبق لي لكلام عن المذاهب الهندوسية .

(3) نزهة الخواطر بتصرف ، نقلا عن تاريخ البدايوني المعاصر لأكبر في كتابه « المنتخب » .

وأرسلوا إليه إنجيلا أمر بنقله إلى الفارسية ليفهمه ، وبعد ذلك عهد إلى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد ، ثم أذن للجزويت بفتح مدارس في أكرا ولاهور وغيرهما وكان يذهب إلى كنائسهم ، ويقول مؤرخوهم إنه كان يجثو على ركبته » .

ثم نقل عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية بشأن عقيدة أكبر ما يأتي :

مما لا مشاحة فيه أنه ترك الإسلام ، ووضع عقيدة سماها « التوحيد الإلهي » وهي اعتقاد مجرد بالإله ، مما اتفقت عليه كل المذاهب ، ولكن لما كان الناس يريدون رمزاً ، وتحقق أكبر أنهم يريدونه ، فقد أوصاهم بأن يجعلوا الشمس رمزاً للإله ، وكذلك النار التي هي من طبيعة الشمس .

وقد كان لهذه الضجة التي أثارها أكبر بدينه الجديد آثار بالغة المدى في دولته ؛ فقد خرجت عليه بعض الولايات ، وحاربته ، كما ناصبه كثير من العلماء العداء وهاجموه ، وهاجموا آراءه ومؤيديه ، فشتتهم ونفى بعضهم إلى الحجاز ، مثل الشيخ عبد الله السلطانبوري[1] والشيخ عبد

---

(1) ولد في سلطانبور في البنجاب ، واشتغل بالعلم من صباه ، ثم لما شب اشتهر أمره فولاه همايون شاه شياخة الإسلام ، كما كان شير شاه وابنه سليم يعظمانه ، ويتلقيان إشارته بالقبول ولقباه بصدر الإسلام ، ولقبه أكبر بمخدوم الملك ، وعظمه غاية التعظيم ، ثم دس له الشيخ مبارك بن خضر كما دس للشيخ عبد النبي الكنكوهي زميله عند أكبر ، فغضب عليه وأخرجه إلى الحرمين سنة 987 هـ ـ1579 م ، فاستقبل في مكة استقبالا طيباً من جميع العلماء وعلى رأسهم ابن حجر المكي ، ثم بعد مدة عاد إلى الهند فأمر أكبر بوضع السم له حين وصل إلى كجرات فتوفي مسموما سنة 990 هـ ـ1582 م اهـ (نزهة جـ4 ص206 باختصار) .

النبي الكنكو هي الذي كان يتبرك به من قبل ، وذلك بعد أن امتنعوا عن التوقيع على بيان حرره الشيخ مبارك بن خضر الناكورى وولداه ، وفيه يشهد العلماء بأن أكبر ظل الله في أرضه ، وأن له أن يشرع . . الخ . ووقع عليه نحو ثمانية عشر عالماً بعضهم بالرضا ، وبعضهم بالإكراه ، ورأينا المؤرخين له ، يبرر بعضهم عمله ، وبعضهم يحمل عليه وعلى مؤيديه حملة عنيفة متهماً إياهم بالخروج عن الإسلام .

وأعتقد أن القارىء بعد ما عرف كل هذا عن أكبر لا يشك في أنه انسلخ عن الإسلام ، وأصبح تائهاً شريداً بين الأديان لا يستقر على دين ، ذلك حكم لا يحتاج إلى جدال ؟ ولا أدري كيف برر بعض العلماء الذين وقفوا بجانبه سلوكه المخالف للإسلام ، وعلى أى أساس إسلامي آزروه وعاونوه ؟ !

إن للمؤرخين الذين اتهموا رؤوس هذه الحركة بالزندقة والإلحاد كل العذر في هذا الاتهام ، فما كان لمسلم أن يقر مثل هذه التصرفات ، فما بالك بعلماء كانوا أكبر سند لها ، وفي مقدمتهم كما سبق : الشيخ مبارك بن خضر وولداه .

قال الأمير شكيب بعد أن سرد كثيراً من أعماله المخالفة للإسلام : «عندما يقرأ الإنسان أعماله هذه يعرف أن الرجل قد تمجس ، وانتهى النزاع وقضي الأمر ، ولكن حين تجده معجباً بالبوذية والبرهمية والنصرانية والتصوف والتشيع ، تعلم أن الرجل وإن كان ساعياً بزعمه وراء الحقيقة فهو مختلط العقل في المسألة الإلهية ، والجنون كما قيل فنون ». ثم علق الأمير على تأييد ثمانية عشر شخصاً من حاشيته له تعليقاً

لطيفاً يستحق أن نسجله هنا ، قال:« لقد ذكرنا ذلك بالذي روى عنه الشهرستاني في « الملل والنحل » أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير ، فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه ، قال له مناظره : « أترى الباري تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك ؟ ! » .

وقد كان لموقف « أكبر » هذا من الدين صدى طيب في نفوس المؤرخين الأوروبيين وغيرهم ممن لا يدينون بالإسلام ، ويسرهم دائماً مثل هذا السلوك من المسلم ، لا سيما إذا كان في مقام أكبر وخطره ، حتى افتخر بعض الكتاب الأوروبيين بأنه كان أكثر ميلا إلى الكثلكة منه إلى اي دين أو مذهب آخر .

ونحن بالطبع لا نجاريهم في هذا ، وإنما نأسف لأن ملكاً عظيماً مثل أكبر قد قام بخدمات عظيمة في الهند لا تزال محل إعجاب وتقدير ، ومع ذلك لم يقدم أية خدمة لدينه ، بل كان على العكس هادماً له ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تقديره كملك سياسي عظيم ، يعتبر فخر الملوك المغول ، أو ملوك الشرق في عظمته وقدرته كحاكم قوي ، شهدت الهند على أيامه عهدا من الأمن والاستقرار والازدهار الفكري والعلمي والفني قلما شهدته في عصر من العصور .

أكبر والحركة العلمية والفنية

نشأ أكبر نشأة لم يتح له فيها أن يتعلم كما يتعلم أمثاله ، وحين ارتقى العرش لم يتجه إلى تحصيل الضروري من التعليم ، فكان كما

قال مؤرخوه : جاهلا بالحروف !! لكنه مع ذلك كان على قدر كبير من الذكاء والنبوغ وقوة الشخصية ، والرغبة في الاستماع إلى العلماء والاستفادة منهم ، فكان مجلسه يحفل دائماً بالعلماء من كل مذهب ودين ، يتحدثون ويتجادلون في كل ناحية من نواحي العلم ، وهو يستفيد منهم ، ويستمع لهم ، وقد أتاح لمجالسه العلمية حرية البحث مهما كانت نتيجته ، فشهد مجلسه مناظرات ومحاورات دينية وفلسفية وتاريخية ، واستمع هو إلى علماء الأديان كلها ، يحاول كل منهم إظهار دينه بمظهر القائم على الحق وحده ، ثم أرسل لعلماء المسيحية الذين هبطوا الهند للتبشير في ظل القوات الغربية البرتغالية وغيرها ؛ لكي يشرحوا له دينهم وطريقتهم ، ففرحوا بهذا الاتجاه ، واتصلوا به وأعطوه إنجيلا ، أمر بترجمته إلى الفارسية حتى يفهمه ، وهكذا استمع لكل الأديان ، ولعل ما سمعه من الحديث المنمق عن كل منها ، مع فقدانه الحصانة الإسلامية لعدم التعليم في صغره جعله يتذبذب بينها جميعاً ، ويقبل ما زينه له المغوون من حوله .

ولم يكن من الغريب وهذه روحه العلمية أن تنشط في عهده وبأمره حركة التأليف . وقد عني المؤرخون الذين أرخوا له بذكر هذه الكتب ومؤلفيها ، ونحن هنا نذكر بعضاً منها ؛ لنعطي القارىء صورة من تنوع الثقافة ، والتأليف في هذا العهد . . فمنها :

1 ـ ترجمة حياة الحيوان للدميري بالفارسية ، ترجمها أبو الفضل بن المبارك سنة 983 هـ ـ 1575 م .
2 ـ وترجمة الإنجيل بالفارسية ، ترجمه أبو الفضل أيضاً سنة 986 هـ ـ 1578 م .

3 ـ وترجمة كليلة ودمنة من الفارسية الغير المتعارفة للفارسية المعروفة لأبي الفضل .

4 ـ « آئين أكبري » أي قواعد ونظم الحكم الأكبري ، ألفه أبو الفضل سنة 1004 هـ .

5 ـ « أكبر نامه » أي تاريخ أكبر ، ذكر فيه تاريخ الهند في أيام ملوك المغول حتى أكبر .

6 ـ ترجمة « ليلاوتي » في الحساب والمساحة من السنسكريتية لأبي الفيض ابن المبارك .

7 ـ ترجمة « اتهرين فيدا » من الكتب المقدسة الهندية ترجمه من السنسكريتية للفارسية عبد القادر البدايوني[1] وبهادن الهندي ، وأبو الفيض وإبراهيم السرهندي .

8 ـ ترجمة « مها بهارت » المقدس عند الهنود للفارسية ، ترجمة البدايوني والقزويني وسماه السلطان « رزم نامه » .

9 ـ ترجمة « رامائن » أحد الكتب المقدسة التاريخية عند الهنود ترجمة البدايوني سنة 997 هـ ـ 1588 م .

---

(1) من مفاخر العلماء في أيامه ، ولد سنة 974 هـ ـ 1540 م ودرس علوم زمانه ونبغ فيها وأكثرها قرأها على الشيخ مبارك بن خضر الناكوري وصحب أبا الفضل وأبا الفيض من أبناء أستاذه نحو أربعين سنة . اتصل بأكبر شاه فقربه إليه واتخذه إماماً لصلواته وأغدق عليه وأمره بتأليف وترجمة كتب كثيرة تعتبر من أمهات الكتب فقام بها على خير وجه ، ويعتبر كتابه في التاريخ « منتخب التواريخ » من أهم المؤلفات التاريخية وأصدقها وقد نقد فيه أكبر ومن حوله نقداً مراً دون أية مراعاة أو خوف وتوفي سنة 1004 هـ ـ 1595 م وسنه سبع وخمسون سنة . . اهـ من نزهة الخواطر .

10 ـ تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر والشام وبغداد للبدايوني بالفارسية .

11 ـ ترجمة « تزك بابري » أي مذكرات بابر التي كتبها عن يومياته ترجمها من التركية للفارسية عبد الرحيم بن بيرم خان سنة 997 هـ ـ 1588 م .

12 ـ ترجمة معجم البلدان من العربية للفارسية ، قسمه السلطان على اثنى عشر رجلا منهم البدايوني .

13 ـ التاريخ الألفي في تاريخ ألف سنة . أمر السلطان أصحابه بتصنيفه ، واختار منهم سبعة رجال : فتح الله الشيرازي ، وغياث الدين القزويني ، وهمام الكيلاني ، والحكيم الكيلاني ، وإبراهيم السرهندي ، ونظام الدين الأكبر أبادي ، والبدايوني ، وأمرهم أن يكتب كل منهم في أسبوع أخبار سنة . ثم أمر السلطان أحمد بن نصر التتوي بإتمامه ، فكتب إلى أيام جنكيز خان ، ولما قتل أمر جعفر بيك بإتمامه فأتمه إلى أيام أكبر ، وكتب الخطبة له أبو الفضل .

14 ـ الطبقات الأكبرية في التاريخ لميرزا نظام الدين الهروى .

15 ـ منتخب التواريخ للبدايوني في ثلاثة مجلدات : الأول في أخبار الملوك من سبكتكين إلى همايون ، والثاني في أخبار أكبر إلى أربعين سنة من جلوسه على العرش ، وهو الكتاب الذي هاجم فيه أكبر وأبا الفضل وعقيدتهما دون أي خوف ، والثالث في ذكر من عاصره من الشيوخ والعلماء والشعراء والأطباء .

16 ـ حل لنظم الشاهنامه للفردوسي نثره تقي الدين التستري بأمر أكبر ، وعدا هذه ألفت وترجمت كتب كثيرة أخرى من الهيئة والنجوم

والموسيقى وغيرها ، وإن الإنسان ليعجب لهذه الحركة العلمية الواسعة التي بعثها أكبر حوله . وإن كان هو في عرف رجال التعليم جاهلا بالقراءة والكتابة .

* * *

-وتتصل الحركة أو النهضة الفنية بالحركة العلمية التي رعاها أكبر ونماها ، وليس من الغريب على امبراطور واسع الأفق مثله أن يعنى بالفن حتى يزدهر في بلاطه ازدهاراً لم يشهده من قبل في بلاط الملوك المسلمين بالهند ، وقد كان لآباء أكبر وأجداده عناية ملحوظة بالفن . رأينا ذلك عندما جاء تيمور إلى الهند وأعجب بفن العمارة فيها ، فأخذ الفنانين معه إلى سمر قند ، ليشيدوا بها مسجده المشهور ، وكذلك رأينا بابر رجلا فناناً معجباً بالطبيعة ومظاهرها ، وإن كان اشتغاله بتأسيس الدولة في الهند لم يتح للفن ازدهاراً وسط المعارك والدماء ، ولما جاء ابنه همايون شغلته الحروب التي انتهت بفراره من الهند إلى إيران . « وهناك تعرف على كثير من رجال الفنون الذين كانوا يعملون بالبلاط الإيراني ، وفي تبريز التقى بالمصور عبد الصمد الشيرازي ومير سيد علي ، واستدعاهما سنة1549 م إلى بلاطه في كابل حين استولى عليها ، وهناك صورا له قصة الأمير الخيالية ، وهي قصة إيرانية مشهورة اشتملت على ألف وأربعمائة صورة على القماش ، وتحتفظ متاحف فينا ولندن بأكبر عدد منها ، ولما جاء أكبر وتميز عهده بالهدوء والاستقرار والطول أيضاً لقى الفن أكبر رعاية عنده ، لا سيما فن التصوير ، فلما أنشأ مدينة « فتح بور سيكري » ، وجعلها عاصمة له زين قصورها برسوم حائطية

جميلة ، عملها له فنانون من إيران والهند ، وخطا أكبر خطوة أخرى في تشجيع التصوير ،فأنشأ لذلك معهداً حكومياً التحق به حوالى مائة فنان ، كانوايعملون تحت إرشاد المصورين الإيرانيين ، وجمعت لهم الصور الفنية الرائعة من إيران ليحاكوها ، فأنتجوا كثيراً منها ، كما تم في عهده ما بدأ في عهد أبيه من تصوير قصة الأمير حمزة السابقة ، ويوجد بعض هذه الصور في متاحف أوروبا وأمريكا ، على أن فن التصوير الأوروبي الحديث الذي وصل أكبر عن طريق إرساليات الجزويت قد حاز إعجابه ؛ ففي سنة 1580 م أهدته نسخة من الإنجيل مزينة برسوم ، كما أهدته صوراً للسيد المسيح وأمه العذراء » .

« ويمتحف المتروبولیتان بأمريكا عدد من صور المخطوطات الجميلة من عصر « أكبر » وتحمل إمضاءات مشاهير الفنانين حينذاك ، وأجدرها بالذكر ثلاث صور في مخطوطة « رزم نامه » وهي الترجمة الفارسية للملحمة الهندية « مها بهارات » ، وأكثر هذه الصور الثلاث إبداعاً صورة تمثل « كرشنا » وهو يحاول أن يرفع أحد الجبال في سيلان » .

ذلك باختصار ما كتبه المؤلف الأمريكي « ديماند » ، وترجمه الأستاذ أحمد محمد عيسى(1) عن عناية أكبر بالتصوير ، وهذا يعطينا فكرة عامة عن عنايته بنواحي الفنون الأخرى تغنينا عن الكلام عنها . إذ المهم أن نعطي القارىء صورة عن هذا الامبراطور العظيم ونواحي نشاطه وعنايته بمختلف أنواع الثقافات .

---

(1) في كتاب الفنون الإسلامية ص69 وما بعدها .

ولعلي بعد هذا الحديث الطويل عن أكبر أكون قد وفقت في تصوير شخصيته العظيمة التي لا تقل في نظر التاريخ عن أعاظم الرجال في العالم . .

جهانكَير[1]

حكم من 1014 هـ ـ 1605 م إلى : 1037 هـ ـ 1627 م

كتب جهانكَير في يومياته التي كتبها بخطه والمسماة « توزك جهانكَيري[2] » يقول :

« بفضل الله وعونه جلست على عرش الملك في دار الخلافة « أكَرا » يوم الخميس الثامن من جمادى الأخيرة سنة 1014 هـ (17 أكتوبر سنة 1605 م) وأنا في الثامنة والثلاثين من عمري ، وكان لا يبقى لوالدى أحد من الأولاد حياً ، إلى أن بلغ الثامنة والعشرين من حياته ، فكان يتوجه إلى الصالحين من عباد الله ، ويلتمس أولياءه ليدعوا له بولد ، وقد عاهد نفسه ونوى لو رزق غلاماً يعيش فإنه يزور قبر « معين الدين جشتى » منبع الأولياء في الهند ـ ماشياً على رجليه ، قاطعاً مسافة مائة وأربعين فرسخاً من العاصمة أكَره إلى أجمير بكل إجلال واحترام ، فولدت ظهيرة يوم الأربعاء في السابع عشر من ربيع الأول سنة 977 هـ ـ « 1570 » م .

---

(1) اسمه محمد سليم ولما تولى العرش تلقب بلقب « نور الدين محمد جهانكير » ومعنى جهانكير آخذ الدنيا أو مالكها .

(2) نقلا عن مقال لمولانا عبد الحميد نعماني في ثقافة الهند سبتمبر 1950 .

وكان هناك جبل « سيكرى » على مقربة من « أكَره » اتخذ الشيخ سليم سفحه سكناً له ، وكان معمراً مرتاضاً ؛ بلغ في الورع والصلاح ما بلغ ، والتف حوله من أهالي سيكرى كثير من الناس مسترشدين به ، فلما سمع والدي عن الشيخ وعن كماله في أحواله ـ وكان في تلك الأيام أشد ما يكون رغبة في الولد ـ اقبل على الشيخ ذات يوم ، وسأله متهولا : كم يكون لي من الأولاد أيها العارف الجليل ؟ فأجاب الشيخ : إن الله يهب لك ثلاثة أولاد . فقال أبي : إني نذرت أن أفوض الأول منهم إليك ليتربى تحت نظرك وعنايتك ، فتقبل الشيخ سليم وقال : قد جعلناه لنا سميا ، فلما حان أوان الوضع أرسل أبي أمي إلى دار الشيخ في قرية « سيكرى » فسماني بعد ميلادي « محمد سليم » ولقبني بالسلطان ، وقد جعل مولدي فيما بعد دار الحكومة (العاصمة) ، تبركا به فبدلت أرض سيكرى غير الأرض ، وانقلبت غاباتها التي كانت تسكنها السباع والأسود والحشرات جنات وروضات ، ذات شوارع جميلة ، ومبان ضخمة وسماها « فتح بور » بعد ما فتح « كَجرات » .

وأم سليم هي بنت راجا جيبور « بهارى مل » الهندوسي تزوجها أكبر سنة 970 هـ ـ 1562 م ، وقد تربى تربية طيبة « فسمع الحديث من الشيخ محمد سعيد الهروي الشهير بمير كلان ، وقرأ عليه شيئاً من العلم بأمر والده ، كما سمع من المفتي صدر جهان البهانوي(1) » ولعل

(1) نزهة الخواطر جـ5 ص 121 .

هذه التربية مع تأثير الشيخ سليم فيه قد وجهته وجهة غير وجهة أبيه ، فكان صحيح العقيدة في الإسلام يحترم العلماء ويكرمهم .

كان أكبر من أخويه : مراد ودانيال . وزوجه أبوه بإحدى بنات راجوات الهند ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ، وكان بينه وبين أبيه شيء من الجفاء ، حيث كان يحس بعدم حبه له كما يحب أخويه ، كما اعترف بذلك في مذكراته ، وقد ولاه أبوه ولاية « إله أباد » ، ولعل شعوره من أبيه بهذا الجفاء جعله يخرج عليه حينما كان مشغولاً بحرب الدكن ، وإن لم يسر في هذا الخلاف إلى نهايته ، وقد خلا له الجو من أخويه : مراد ودانيال . حيث ماتا في الدكن ، فلم يبق إلا هو وارثاً للعرش ، وهذا هو الذي جعل أباه يتجه إليه ويصفح عنه ، ويزوده بنصائحه قبل وفاته ، ولكن ظهر له منافس صغير في الحكم ، وهو ابنه الأكبر « خسرو » الذي كان يطمع أن يلي الحكم بعد جده ، وربما كان يستغل ثورة أبيه على جده ، ويعرف الجفوة التي بينهما ، فأداه ذلك إلى الطمع في الحكم متخطياً أباه !! وإن كان ذلك لم يتم له ، إلا أننا رأيناه في عهد أبيه يخرج عليه وتقع الحروب بينهما حول الحكم ، وحينما ورث « نور الدين جهانكَير » الملك من أبيه ـ وهذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه عندما ولي الحكم ـ ورث ملكاً واسعاً ثابت الدعائم ، موطد الأركان ، ساعدت السنون الخمسون التي قضاها أبوه في الحكم مع حسن سياسته على توطيده ، ومع ذلك فإن حكمه لم يخل من بعض المتاعب التي أثارها ابنه خسرو في البنجاب ، وراناسنك الراجبوتي في « أودي بور » وقد ظل منذ أيام أبيه متمرداً ، وكذلك القائد عنبر في أحمد نكَر بالدكن وكما حدث في كابل وقندهار .

ففي الدكن قامت ثورة في « أحمد نكَر » بقيادة « عنبر الحبشي »[1] ، بعد ما خضعت للمغول في أيام أكبر بعد حروب طاحنة ، فأرسل جهانكَير إليها خان خانان لإخمادها ، ولكنه لم ينجح ، وكان عنبر قد اتخذ مقراً له في مدينة « أورنك أباد » ، وامتاز بحسن التدبير والشجاعة والنشاط ، فرأى أنه لا يستطيع مواجهة جيش المغول ، فلجأ الى حرب العصابات ، واعتمد في إضعاف عدوه على المباغتات ، حتى اضطره للانسحاب من أحمد نكَر إلى برهانبور في ولاية خانديس ، وبذلك ضاعت أحمد نكَر من المغول ، ولما وصلت هذه الأنباء إلى جهانكَير سنة 1018 هـ ـ 1609 م أعد جيشاً عظيماً ، وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، وجعل على رأسه « برويز » و « خان جهان » يعاونهم « راجا مان سنك » من ولاية برار في الدكن ، وعبد الله خان أزبك من كَجرات على أن يلتقوا جميعاً في أحمد نكَر ، ولكن اتفق أن عبد الله خان أسرع إلى هناك قبل أن يصل الآخرون ، فباغته « عنبر » بطريقته حتى اضطره إلى الرجوع ، وكان لذلك تأثيره في الجيوش الأخرى التي كانت تتقدم الى

---

(1) كان عنبر من العبيد الحبش الذين يجلبون إلى الهند ، ودخل في جيش عادل شاه البيجابوري ولكنه تركه بعد حين ، وضاق به الحال حتى عثر على أحد الكنوز ، فأخذ ينفق عن سعة ويجمع الناس حوله فاستدعاه حسين نظام شاه ملك أحمد نكر فارتفعت منزلته عنده وأصبحت السلطة بيده ، ولما مات الشاه وخلفه ابنه الصغير كان عنبر هو الملك الحقيقي الذي ساس البلاد سياسة حكيمة حازمة حتى ازدهرت في أيامه ، وأكثر من شراء العبيد الأحباش وعلمهم ، فصاروا قوة كبيرة في الدولة بعلمهم وشجاعتهم . وكان كثير الإحسان إلى العلماء والصوفية والفقراء . شجاعا استطاع أن يقف أمام المغول ويصدهم ويحفظ لبلاده باستقلالها مدة كبيرة ، وقد توفي سنة 1035 هـ ـ 1625 م ، ودفن قريباً من دولت أباد ، وبني على قبره قبة عظيمة اهـ ملخصاً من نزهة الخواطر جـ5 ص 291 .

أحمد نكَر ، حيث جبنت عن التقدم ، وأقام « برويز » في « برهانبور » واستمر عنبر مسيطراً على أحمد نكَر يوطد أركان المملكة ويدعم فيها سلطانه .

ولكن جهانكير لم يسكت طويلا على هذا ، فأعد ثانياً جيشاً كبيراً ، وجعل على رأسه ولده « خرم »(1) القائد الشجاع ، وذهب السلطان إلى « مالوا » في وسط الهند ليكون قريباً من الدكن حيث تدور المعارك ، ومن حسن حظ « خرم » أن الأمور حول « عنبر » قد تغيرت ، ودب في البلاد الفساد والفتن ، فسهل ذلك مهمته حين رأى عنبر أن يتنازل عن بعض البلاد ، ويعقد الصلح ، وتم ذلك في سنة 1025 هـ ـ1616 م .

وفي « أودي بور » براجبوتانا كان « رانا سنك » لا يزال متمرداً على الدولة ، مسبباً لها بعض الاضطرابات في تلك الناحية ، فأرسل اليه السلطان جيشاً بقيادة « مهابت خان » وكان الرانا يحارب ويفر إلى الجبال ، ويعتصم بها وبقلاعه المنيعة فيها ، فلم يصب مهابت خان نجاحاً تطمئن الدولة إليه ، فأرسل السلطان ابنه « خرم » سنة 1023 هـ ـ1614 م ، فاستطاع أن يدخل « أودي بور » ويضيق الخناق على الرانا والطرق المؤدية إليه ، ودام الحصار عليه مدة اضطر فيها للتسليم وتقديم الطاعة ، فعامله السلطان معاملة حسنة حين قدم إلى دهلي ، وانتهى أمره .

---

(1) بضم الخاء وتشديد الراء ومعناها سرور .

أما « خسرو » ابنه فقد عرفناه طامعاً في الملك منذ أيام جده بدلا من أبيه ، وكان بعض الأمراء الكبار يؤيدونه ، ولما صار الملك إلى أبيه دفعه ذلك إلى الخروج عليه ، ففر إلى بنجاب معلناً الثورة ، فأسرع جهانكَير يتعقبه ، وأرسل له جيشاً بقيادة الشيخ فريد بخارى الذي عينه وزيراً للجيش ، فسار إلى لاهـور ، وأخـذ يتعقـب « خسـرو » حتـى فر إلى أفغانسان ، وهناك قريباً من كابل اعترضه نهر « جناب » ، ولما أراد أن يستخدم السفن لعبور، أبى الملاحون عليه ذلك ، فاغتصب سفينة وقهر ملاحها على العبور هو ومن معه ، ولكن في وسط النهر غافلهم الملاح ، وألقى بنفسه في النهر ، وسبح بعيداً عنهم وتركهـم وهـم لا يحسنـون الملاحة ، فظلت سفينتهم تتأرجح في الماء حتى تمكنت قوات جهانـكَير من القبض عليهم ، وسيقوا إلى كابل مقيدين بالأغلال ، وانتهى أمره بالبقاء في سجنه حتى مات ، وقيل إنه مات بالسم .

جهانكير يتزوج .

لـم نكن نعني كثيراً بأمر زواجه هذا لولا أنه كان بما صاحبه ومـا أعقبه من أحداث ذا أثر كبير في سياسة الدولة ، فقد أحـب جهانكير زوجة أحد رجاله ويسمى « شير أفكَن » أي صائد الأسد ، وقد التحق بخدمة أكبر ، ثم بخدمة جهانكَير ، فولاه في « بنكَال ، ولكنه كما يقول جهانكَير في مذكراته علم ما يأتي به من فساد لا تحسن مغبته ، فكتب إلى أحد قواده أن يبعث به إليه ولو بالقوة ، فلما وصل إليه رسول جهانكَير واسمه « قطب الدين » وأبلغه رسالة السلطان ، أدرك نواياه ومـا يخبـأ له ، فغافله بضربة قضى عليه ، ولكن رجال قطب الدين عاجلـوه هو

الآخر وجعلوه جذاذاً[1] » .

بعد ذلك ، أبدى السلطان رغبته في التزوج بأرملته واسمها « مهر النساء[2] » بنت غياث الدين الطهراني ، وكان واقعاً في حبها من قبل ، ولكنها رفضت أولا ، ثم قبلت أخيراً فتزوجها ، وسماها « نور جهان » أي نور الدنيا ، وهنا دخل في بلاط السلطان عامل جديد ، أو عنصر جديد كان له أثر كبير في توجيه سياسة الدولة ، وما حدث فيها من كثير من الفتن والأحداث .

كان جهانكير يحب نور جهان ، وكان جمالها ساحراً ، فأصبح أسيراً لها منذ تزوجها وأصبحت هي وكأنها الملك الحقيقي ، تصدر الأوامر بتوقيعها مع توقيع الملك ، وضربت النقود باسمها واسمه معاً ، وجلست في شرفة قصرها تستقبل الأمراء والأعيان والأشراف كما يفعل الملك ، وأصبح لأهلها والمتصلين بها النفوذ الأكبر في المملكة ، فصار

---

(1) هكذا روى جهانكير نفسه . أما الروايات الأخرى فتقول إنه أرسل قطب الدين ليقنع « شير أفكن » بتطليق زوجته الجميلة ليتزوجها السلطان ، فلما سمع هذا الكلام رفض وثار وقتل قطب الدين ، وهذه الرواية أقرب إلى التصديق للظروف التي صاحبتها ، وليتزوج جهانكير بزوجته بعد قتله .

(2) جاء أبوها إلى الهند من طهران ، وعرفت في أكبر أباد العاصمة بالجمال البارع ففتن بها جهانكير وكانت من خيار النساء حسنا وعلما وعقلا ، اخترعت أمورا كثيرة في الزي والحلي والعطور ، وكانت ماهرة في الرمي والسياسة ، شغلت الدولة بأطماعها وأغراضها ، وأثارت الخلاف بين أبناء زوجها ، وانتهى أمرها بأن قبض عليها أخوها « آصف » حين مات جهنكير في لاهور فمكثت فيها ، وأكرمها شاهجهان طول حياتها حتى توفيت سنة 1055 هـ ـ 1645 م ، ودفنت قريبا من مقبرة زوجها (نزهة ج5 ص302) .

أبوها رئيساً للوزارة بلقب « اعتماد الدولة »[1] ، وأخوها « آصف » رئيساً لتشريفات الإمبراطور . فانتقلت السلطة الحقيقية إلى نور جهان وأهلها والمقربين إليها ، بينما كان جهانكَير متيماً في حبه غارقاً في شرابه ولهوه . فاتيح لها بذلك أن تتدخل في ولاية العهد ، وأن تعمل على تفضيل أحد أبناء جهانكَير على إخوته الآخرين ، فترتب على ذلك فساد وحرب بين الإخوة .

كان « خرم » ابن الملك قائداً مظفرا ، وشخصية ممتازة بين أبنائه ، وكان أكبرهم وأقواهم نفوذا لدى الأمراء والجيش ولدى أبيه أيضاً ، فعملت نورجهان على أن تستولي عليه فزوجته بابنة أخيها « آصف » وكان لها بنت من زوجها الأول الذي قتل ، فزوجتها لابن جهانكير الأصغر « شهريار » ثم بدأت تعمل على أن يكون زوج بنتها ولياً للعهد ، فثارت خصومة عنيفة بينها وبين « خرم » الذي رأى أنها تنتزع حقه الطبيعي في الملك بعد أبيه ، باعتباره أكبر أبنائه والقائد الذي أخضع الثورات ووطد الملك لأبيه ، على أن جهانكير تركهم في نزعاتهم ، وأوصى بالملك من بعده لابن آخر هو « برويز » الذي لم تكن له كفاية بجانب أخيه ، فثارت ثائرة « خرم » وخرج على أبيه سنة 1032 هـ 1622 م ، وحاول أن يستقل بولايتي بيهار وبنكال ، ثم ترك ذلك بعد ثلاث سنين ، واصطلح مع أبيه سنة 1035 هـ 1625 م ، وإن كان ذلك قد ترك أثراً في

---

(1) هو غياث الدين الطهراني الشيعي ولد ونشأ بايران وتقدم الهند في أيام أكبر ، لتقرب إليه وتدرج في المناصب ، ثم لما تزوج جهانكير بنته هذه جعله وكيلا عنه وأطلق يده في كل أمور الدولة ، توفي سنة 1031 هـ ــ 1621 م ودفن في لاهور . . (نزهة جـ5 ص302) .

نفس السلطان ، ثم نرى أن أحد القواد العظام « مهابت خان » ـ وكان قد تعقب خرم حتى قضى على ثورته وتولى أمر بنكَال ـ كان محبوباً من الجيش ومن « برويز » ابن الملك بنوع خاص ، فساء ذلك نور جهان لأنها تحب « شهر يار » زوج بنتها ، ونسبت إليه خيانات في عمله ببنكّال ، فاستدعاه جهانكَير وكان في طريقه إلى كابل لإخضاعها فحضر مع بضعة آلاف من جنوده الشجعان ، وهناك في كشمير كانوا يعدون للجيش جسراً يعبر عليه ، ومر عليه أكثر جنود الملك ، وبقي منهم القليل ، فانتهز « مهابت خان » الفرصة وهجم في جرأة على الملك وأسره سنة1036 هـ ـ1626 م وصار واقعاً تحت سلطانه ، وإن كان قد أدى له ما يجب من التوقير والاحترام ، وظل شهوراً على ذلك حتى استطاعت نور جهان بسياستها وبما انضم للملك من جنود أن تخلص الملك من سيطرة مهابت خان ، ففر إلى الجبال وطلب العفو ، فرأت نور جهان أن تعفو عنه لتستعمله أداة ضد « خرم » الذي كان يريد الفرار إلى إيران ، ثم رجع إلى الدكن حيث مزارعه وإقطاعه ، فذهب إليه وبدلا من تعقبه انضم اليه ، وأصبح من أنصاره وفي هذه الأثناء توفى « برويز » في « برهانبور » . وقام بعد عنبر الحبشي في الدكن « ياقوت الحبشي » فأعلن الحرب على المغول ، فأرسل له جهانكَير جيشاً وذهب هو إلى كشمير ليقضي فيها بعض الوقت كما هي عادة السلاطين ، وهناك عاوده مرض « ضيق التنفس » وكان شديداً ، فعادوا به ولكنه اشتدت به العلة وتوفي في الطريق في صفر سنة 1037 هـ ـ1627 م[1] . . ودفن في لاهور .

(1) تاريخ الهند لسيد هاشمي ص207 ما بعدها .

وهكذا كان زواجه من « نور جهان » ذا أثر فعال في حياته وفي الأحداث والحروب التي منيت بها الدولة نتيجة اطماعها وأهوائها .

جهانكَير في نظر التاريخ

ذلك الذي قدمناه يكشف لنا جانباً من حكم جهانكير ، وما قام في عهده من مشكلات وحروب .

وهناك جانب آخر يستحق أن نقف عنده طويلا حتى نرسم صورة كاملة له ولعهده من جميع نواحيه . .

جاء « جهانكَير » إلى الحكم بعد أبيه أكبر ، فوجد ملكاً مستقراً ثابتاً واسع الأرجاء ، لكنه وجد أيضاً ما أثاره أبوه من أبحاث وأعمال وتقاليد من الناحية الدينية كانت موضع غضب الكثير من رعيته .

ولم يكن جهانكَير على شاكلة أبيه من هذه الناحية ، فقد كان سليم العقيدة محترماً للدين وتعاليمه وعلمائه ، فسارع بإبطال ما أثاره أبوه خلافاً للشريعة الإسلامية ، فألغى فكرة الدين الإلهي والأفكار التي قامت حوله ، فهدأت بذلك نفوس المسلمين ، وإن كان لم يلغ التقليد الذي يقضي بالسجود وتقبيل(1) الأرض تحية للسلطان .

---

(1) مما قرأته في تاريخ الشيخ أحمد السرهندي المشهور في الهند بأنه مجدد الألف الثاني للشريعة أن بعض الحاقدين عليه وشوا به عند جهانكير : أنه ما سجد للسلطان تكبرا ، فغضب عليه وسجنه في قلعة « كواليار » وكان شاهجان بن جهانكير مخلصا للشيخ ، فأرسل له بعض خاصته يزينون له أن يسجد للسلطان إذا حضر عنده ، وهو يضمن ألا يمس بسوء بعد ذلك . ولكن الشيخ أبى السجود فلبث في سجنه ثم أخرجه السلطان بعد ذلك على أن يظل ملازماً لعسكره.

ومن المسلم به بين المؤرخين أن جهانكَير لم يكن في عزم أبيه وقوة شخصيته ، بل كان يغلب عليه التردد والاستسلام لمن يثق به ، وكان مفرطاً في شرب الخمر وتعاطي الأفيون حتى أفسد صحته في أواخر حياته ، كما كان مغرماً بالصيد وتتبع الحيوانات ، وبحث خواصها واقتناء الغريب منها ، وكان مولعاً كذلك بالتصوير بارعاً فيه مشجعاً عليه ، وكان حريصاً على كتابة يوميات سجل فيها ما كان يمر به من حوادث في صراحة ، وتسمي « تـوزك جهانـكَيري » أي يوميات جهانكَير ، ويتمثل فيها أدبه وبراعته في الكتابة ، إذ كان أديباً شاعراً ، وقد ترك كذلك كتاباً بالفارسية ضمنه نصائحه لأبنائه ، ويسمى « بندنامه » لا زال معروفاً للآن ، كما أمر الشيخ محمد بن الجلال الكَجراتي بترجمة القرآن للفارسية ترجمة متقنة لا تصنع فيها ولا زيادة(1) .

وتعتبر يومياته من أهم ما تركه ، فإن مذكرات يكتبها الملك يوماً ، فيوماً ، يدون فيها حوادثه وخواطره ، ويكشف للناس ما استتر عنهم وراء الحجب الملكية لتعتبر من أمتع ما يقرأ ، كما تعتبر من أهم المصادر لمعرفة اتجاهات الملك ونفسيته ، ومن خلالها يمكن للقارىء أن يعيش معه في حربه وسلمه ، في قصره الخاص ومع الناس ، في لهوه وجده ، في مجالس الحكم وفي ميادين الصيد يطارد الطيور والوحوش ،

= فلبث كذلك ثماني سنوات حتى إذا تولى شاهجهان ترك له الحرية فعاد لوطنه (نزهة الخواطر جـ5) .

(1) نزهة الخواطر ج5 ص122 وتاريخ الهند لسيد هاشمي .

ويدون ملاحظاته عليها ، ومما يزيد هذه اليوميات قيمة ما دونه فيها من أشياء تؤخذ عليه ولم يحاول إخفاءها ، لذلك رأيت أن أضع أمام القراء نماذج منها في موضوعات متفرقة ليروا كيف كتب هذا الملك يومياته(1) :

* اول ما أمرت به بعد جلوسي على العرش تعليق سلسلة العدالة ، لأطلع بنفسي على شكاوى المظلومين .

* نهيت عن أخذ الجباية على الشوارع والأنهار باسم « تمغا » و« مير بحري » نظراً إلى ضعف الناس وعجزهم ، وخشية من أن يدخل بعض الجنود دور الأهالي قهراً ويؤذوهم ، ويلين القاضي وأمير العدل جوانبهما للمعتدين » .

* عملت من أول يوم نزلت فيه مدينة « أحمد أباد » على الجلوس كل يوم مع شدة الحر والسموم ـ بعد الفراغ من صلاة الظهر ـ في شرفة على جانب البحر ساعتين أو ثلاثاً ، لا يحول بيني وبين الناس باب ولا جدار ولا حارس ، وما تخلفت يوماً ـ حتى أيام ابتلائي بالوجع الشديد ـ عن حضور الشرفة ، ولو كان في ذلك حرمان لنفسي من الراحة والهناء .

* بفضل الله اعتادت نفسي السهر ، فلا أدع النوم ينهب أوقاتي إلا ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم غالباً ، فأقضي ما بقي من اليوم في الوقوف على أحوال الملك ، وذكر الله تعالى .

---

(1) نقلا عن مقال مترجم عنها في مجلة ثقافة الهند سبتمبر سنة 1950 م .

* لما توالت على الأنباء باعتداء بعض الموظفين والأغنياء على بنات بعض الضعفاء ، دعوت الشيخ بنارسي وغياث الدين خان وغيرهما من الأمراء الذين قصروا في حفظ الأمن ، فلما حضروا إلى « أكَره » أمرت بحلق رؤوسهم ولحاهم ، وإركابهم الحمير والطواف بهم في أزقات البلد وشوارعها » .

ولم يخف جهانكَير شيئاً مما يفعله ، فتجده يدون في تفصيل مؤامرته مع « راجا نرسنك ديو » لقتل الشيخ أبي الفضل كبير وزراء أبيه أكبر ، خوفاً من أن يفسد بينهما مما سبقت الإشارة إليه ، ونراه يكتب في تفصيل طويل كذلك شربه للخمر ، وكيف زينها له أحد حاشيته بعد أن امتنع عنها حتى بلغ الخامسة والعشرين ، وكيف صار بعد ذلك مدمناً إدماناً أتلف صحته وعقله ، وهو لا يستطيع التخلص منها حتى إذا ما ارتعشت يده من أثر الإفراط في الشرب تولى غيره رفع الكأس إليه ، ثم كيف أدمن الأفيون بعد ذلك حتى مات .

ومن يومياته التي تلفت النظر ما دونه عن رحلاته للصيد وملاحظاته الدقيقة لأنواع الطيور ، وعنايته بتدوين خصائصها الغريبة ، وتصويرها ورعايته لفن التصوير بوجه عام .

ويحسن أن نضع أمامك هنا بعض هذه اليوميات والملاحظات ، يقول :

* خطر ببالي مرة وضع قائمة بما اصطدته منذ بدأت الاصطياد إلى اليوم ، فأمرت بذلك مسجلي الأحوال وكاتبي الأخبار ، فوضعوا قائمة علمت منها أن مجموع ذلك ثمانية وعشرون ألفا وخمسمائة واثنان وثلاثون

رأساً من الحيوانات ، منها سبعة عشر ألفاً ومائة وسبعة وستون رأساً من مصائدي المختصة بي .

ثم ذكر بعد ذلك عدد كل نوع من الحيوانات المصيدة .

* أخبرني الصيادون بأربعة أسود ، فقمت إليها ومعي النساء ، استأذنتني « نور جهان » بعد ما رأت الأسود ، فأذنت لها فاسقطت أسدين ، وبينا نحن كذلك إذ أطلقت على الباقيين وأردتهما في طرفة عين ، وما رأيت إطلاق الرصاص من الهودج وإصابة من غير خطأ كما رأيت ؛ فإن الهودج ينصب على الفيل ، والفيل لا يقيم ساكناً عندما يشعر بوجود الأسد بل يتحرك ، فطربت للملك ، وأنعمت عليها بألف أشرفي ، وسوار من الالماس يبلغ ثمنه مائة ألف أشرفي .

* أتوا بطائر ، من إحدى مزاياه أنه عندما يقبل الليل ينوط رجليه بفرع أو بخشبة تنصب لجلوسه ، فيبيت معلقاً مقلوباً مغرداً طول الليل ، ويستوي عندما يطلع الفجر ، ولا يغترف من الماء شربةً أبداً ، فإن الماء يفعل به فعل السم .

* أهدى نجل الملك « داور بخش » أسداً تآلف مع شاة ، فكانا في قفص واحد ، وكان الأسد يعاشرها معاشرة الحب ، ولما احتجبت عنه مرة عز عليه وازداد قلقه واضطرابه .

* ألفت الأسود وأنست حتى أصبحت تختلف إلى الناس من غير سلاسل ، وهم يأمنون أذاها ولا يحفلون بقربها .

أما براعته في التصوير وولعه به وتشجيعه له فيتبين مما كتبه عنه . يقول عن دقة إدراكه للصور :

* لو كانت هناك صورة رسم وجهها مصور ، ورسم العين والحاجب مصور آخر فإنني أفطن للذي رسم هذا وذاك .

واهديت إليه مرة صورة تيمور في مجلسه ومعه أولاده وحاشيته فسر بها كثيراً ، وقال عن مهديها « خان عالم » .

« من حسن الحظ لخان عالم وسعادته أن وفق لهدية ثمينة كهذه تعد من نفائس الدهر ونوادره » ثم كتب يقول :

* أرسلت « بشن داس » المصور ـ وكان وحيد عصره في صناعته ـ إلى العراق مع خان عالم ليرسم صورة الملك . وصورة الأعيان والأمراء في دولته ، وكانت الصورة التي وصلت منقولة عن أصل في العراق .

وهذا يعطينا فكرة عن مدى عنايته بهذه الناحية ، وقد جاء في كتاب الفنون الإسلامية(1) « اعتاد هذا الامبراطور أن يصحب في رحلاته اثنين أو ثلاثة من مصوري البلاط ، لتسجيل ما يعرض أثناء الرحلة من الحوادث الهامة » ثم ذكر أسماء الفنانين الممتازين في عصره وإعجابه بفنهم .

---

(1) تأليف . م . س . ديماند ، ترجمة أحمد محمد عيسى ص72 باختصار .

ويقول « أصبح رسم الصور الشخصية في عصر جهانكير شائعاً إلى حد كبير ، وكثيراً ما رسم الامبراطور ، إما بمفرده أو بين رجال حاشيته . . . ومن بين الصور التي ترجع إلى عهده صورة رائعة بمتحف « المتروبوليتان » بأمريكا تمثل الامبراطور يراقب معركة بين فيلين ، كما يحتفظ بصور تمثل المتصوفين والزهاد وهم يتحدثون مع الأمراء والأشراف ، وبصورة اخرى تمثل جهانكير أثناء زيارته لأحد النساك » .

وتقول مجلة ثقافة الهند(1) عن تدوين هذه اليوميات :

« إنه سجل فيها مالا يستطيعه كاتب بخفة الفكر وخطف النظر مهما يكن مقتدراً ، فهو يكتب عن الولايات : طول البلاد وعرضها ، ويكشف عن مساحتها بالضبط ، وعن البلاد ومواقعها وطقسها ، منتوجاتهاوحاصلاتها ، وعن أثمارها وفواكهها وأشجارها وغدرانها وبحارها وأنهارها ، ثم عن عوائد الناس ومعاشرتهم مسهباً مطنباً ملتقطاً من هنا وهناك » .

« وقد أكسبته هذه الرحلات الكثيرة التي اختلط فيها بشعبه عن قرب بصراً بأمور رعيته ، ومعرفة بدقائق أحوالها ، ووقوفاً على أمثل الطرق في سياستها التي كانت تدعياً لسياسة أبيه في عدم التفرقة بين رعاياه ، فكان الجميع يتمتع برعايته وعدله وعطفه » .

---

(1) سبتمبر سنة 1950 .

جهانكَير والأجانب الأوروبيون

تولى جهانكَير الحكم ، وقد ظهر على رقعة الهند ثلاث دول أوروبية تتناحر من أجل السيطرة على البلاد صراحة أو باسم التجارة .

كانت هذه الدول هي البرتغال التي مضى على عملها في الهند أكثر من قرن ، وطدت فيه أقدامها وصار لها مستعمرات ،وانجلترا ممثلة في شركة الهند الإنجليزية ، وهولاندا ممثلة في شركة الهند الهولاندية ، وقد تأسست هاتان الشركتان : الأولى سنة1009 هـ ـ1600 م ، والثانية سنة 1011 هـ ـ1602 م ، وبدأتا تنازلان البرتغال وتنافسانها ، وكل شركة تحاول أن تحظى بأكبر نفوذ عند الحكام ، وأوفر قسط من التجارة ، وإقامة المراكز لها داخل البلاد ، وقد بدأ الإنجليز والهولنديون عملهم بغاية الخضوع ، متخذين أساليب التجار في الحصول على أكبر نجاح في عملهم ، وقد فتح أكبر بلاطه لهم ، شأنه مع كل الناس ، ولم يكن هؤلاء السلاطين يظنون مطلقاً أن هؤلاء التجار سينتزعون الحكم منهم يوماً من الأيام ، وكانوا لا يلقون بالاً إليهم ، فما هم في ظاهر الأمر إلا تجار يلتمسون الرزق .

فلما جاء جهانكَير نظر إليهم هذه النظرة ، وكان ملك الإنجليز « جيمس الأول » قد عين سفيراً له عنده هو « هوكينز » ، « وحين ظهر هذا السفير ممثلا لملك انجلترا ، وشركة الهند الإنجليزية معاً لدى بلاط جهانكَير المغولي ، قال له وزراء هذا الملك : إن ملك انجلترا ليس غير

ميد جزيرة صغيرة ، يسكنها صيادون بائسـون ، فلما مضـت سنتـان ونصف على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عنـد الملك المغـولي ضرع إليه أن يعطيه كتاباً لمولاه ، فقـال له الـوزير الأول : إن مما لا يناسب قدر ملك مغولي أن يكتب إلى أمير صغير كملك انجلترا . بيد أن تلك الشركة الانجليزية لم تقنط ، فنالـت بالدسـائس براءة من الملك المغـولي سمـح لهـا فيهـا بأن تتاجـر في سورت ، فاتسعـت أعمالهـا بالتدريج[1] » .

وكان قد تغير سفير الانجليز وأصبح « توماس رو » بدلا من « هو كينـز » ، فاستطـاع بأساليبـه أن يحظـى بثقـة السلطـان سنـة 1024 هـ ـ1615 م ، وكتب يقول : إنه اختلط مع عساكر الملك نحـو ثلاث سنوات ، وكان يحظى بعناية خاصة من الملك ، وظل يسعى عنده لعدم فرض ضرائب على التجارة الانجليزية حتى فاز بمسعاه ، فوق أنه في سنة 1616 م سمح لهم بتحصين ثغر سورت .

وفي عهده أيضاً سنة 1616 ـ1618 م افتتح الهولنديون مراكز تجارية في سورت وأحمد أباد ، وبعض مواقع على ساحل الدكن وفي أكرا ؛ أما البرتغاليون فقد ركبهم الغرور حتى جرت الحـرب بينهـم وبينـه سنـة 1022 هــ ـ1613 م فأصيبوا بهزيمة ساحقـة ، مما اضطرهـم لتحسـين أساليبهم ؛ فتحسن حالهم واستفحل أمرهم .

---

(1) حضارة الهند لجوستاف لوبون ص242 .

وهكذا بدأ الأخطبوط الأوروبي يمد خيوطه في عهد جهانكَير . ولذلك يأخذ المؤرخون عليه أنه رفع الضرائب عن تجارة الأوروبيين ، مما سهل لهم التغلغل في البلاد ، ولم يكن أحد يظن في ذلك الوقت أن الهند ستقع في قبضة الانجليز في النهاية .

« شاهجهان »(1)

توفي جهانكَير دون أن يستقر الأمر على خليفته من بعده ، وقد ترك ولدين يتنازعان الملك : « شهر يار » الذي تؤيده « نور جهان » لأنه زوج بنتها ، « وخرم » الذي كان الجيش وأكثر الأمراء يؤيدونه ، وعلى رأسهم « آصف خان »(2) أخو نور جهان ووالد زوجة خرم ، وكان هناك عدا هذين بعض الأمراء كابن خسرو وابن دانيال .

وكان « خرم » في الدكن شبه منفي ؛ فقد كانت هناك جفوة بينه وبين أبيه ، وحينما وصله خبر وفاة أبيه بالبريد السريع عجل بالعودة إلى

---

(1) هو الذي عرفناه سابقاً باسم « خرم » بضم الخاء وتشديد الراء ، ومعناه مسرور وقد ورد ذكره باسم « كرام » في مذكرة الأستاذ حبيب ، وهو خطأ أوقعته فيه الترجمة عن الإنجليزية . ومعنى شاهجهان أي ملك الدنيا ، وهو لقب أعطاه له أبوه بعد انتصاراته في الحروب .

(2) هو الأمير أبو الحسن بن غياث الدين ، نشأ في بلاد الفرس ثم انتقل مع أبيه إلى الهند أيام أكبر . قربه جهانكير وولاه « جونبور » بعد أن تزوج بأخته ، وهو أبو « أرجمند بانو » أو ممتاز محل التي تزوجها شاهجهان والتي اشتهرت باسم « تاج محل » والتي بنى لها شاهجهان المقبرة الخالدة التي عرفت باسمها في « أكرا » وكان له أثر في تولية شاهجهان بعد أن قبض على أخته وعلى الأمراء . وللملك قربه السلطان كثيراً حتى كان يحدثه « بالعم » وفوض إليه أموره . وكان عالماً بارعاً شجاعاً كريماً ، توفي سنة 1051 هـ ـ 1641 ودفن بلاهور .

« أكرا »، في الوقت الذي قام فيه آصف خان بالقبض على أخته «نور جهان » في لاهور بعد احتكاك بينهما ؛ بسبب سعيها لتولية شهريار ، كما قبض على شهر يار وأبناء خسرو ودانيال حتى خلا الجو لختنه « خرم » .

وكان خرم أو شاهجهان كما لقبه أبوه قائداً ممتازاً . قال عنه السير « توماس رو » السفير الانجليزي في بلاط المغول « إنه لم ير شخصية أثبت ولا أشد رزانة من شخصيته ، وكان دائماً عبس الوجه ، ولم يشاهد مرة مبتسماً ، ولم يكن من المستطاع قراءة وجهه» وكان له أنصار كثيرون في حاشية أبيه وفي الجيش كذلك ، وهذا كله مهد له السبيل للوصول إلى العرش برغم مكايد « نور جهان » وطمع ختنها « شهر يار » ولما وصل الى « اكرا » نودي به ملكاً على الهند وسمي باسم « محمد شهاب الدين شاهجهان » وذلك في جمادى الأخرة سنة 1037 هـ-1628 م .

ولم تخل أيامه من المتاعب والحروب برغم ما كان يعم الدولة من الرخاء والرفاهية ، فقد خرج عليه « خان جهان »[1] في أول أيامه بالحكم ، وقام بثورة عليه في مالوا وشمال الدكن ، فحاربه حتى اضطر للتسليم وطلب العفو ، فعفا عنه وولاه أمور الدكن ، وبعد مدة ألحقه بمجلسه وقربه إليه ، ولكنه برغم ذلك لم تطمئن نفسه إلى الملك

(1) هو « خان جهان » بن دولت خان اللودي تقرب إلى دانيال ثم إلى جهانكير ، وتدرج في المناصب ، وكان جهانكير يعتمد عليه ، ويحبه حباً مفرطاً لا يتصور فوقه وبعد وفاته وتولى شاهجهان توجس منه خيفة فخرج عليه ا هـ من نزهة الخواطر جـ5 ص139 ، 140 .

وكرمه ، ففر وأعلن العصيان في الدكن ، وأصبح مصدر قلق للدولة ، استعان بملوك الدكن المستقلين ، وأخذ يحرضهم على حرب المغـول ، فاستجاب له مرتضى نظام شاه ملك بيجا بور ، فذهب شاهجهان على رأس حملة إلى هناك ، فلم يثبتوا أمامه ، ولجأ خان جهان إلى الفرار ، وكان معه قلة من الفوارس الشجعان الذين ما فتئوا يحاربون معه أينا سار حتـى قتـل في إحـدى المواقـع سنـة 1040 هـ ـ1630 م ، وكان يريد الذهاب إلى غربي الهند والاستعانة بالأفغان هناك .

في بيجابور وكَولكندة .

احتفظـت هاتـان المملكتـان الإسلاميتـان باستقـلالهما في جنـوب الدكن ، بعد أن ضم السلطان أكبـر إلى ملـكه ممـالك : برار وبيدار وأحمـد نكَر ، وإن كانـت الأخـيرة قد انتفضـت على المغـول مراراً ، وكبدتهم خسائر كبيرة حتى استقر فيها الأمر لشاهجان تماماً ، وأصبحت قاعدة قواته في الجنوب سنة1041 هـ ـ1631 م ، وقد مر بنا ما قامت به بيجابور من مساعدة للثائر خان جهان ، بل لغيره أيضاً من الهنـدوس ضد شاهجهان ، مثل ما فعلت مع أحد المراهتة الذي لم يعجبه تسليم أحمد نكَر ، فقام ضد المغول بمساعدة بيجابور . أما كولكنده(1) فقد كان ملكها شيعياً يسب الخلفاء الراشدين ويتبرأ منهـم ، ويذكر اسـم شاه إيران في خطبته ويناوىء المغول ، لذلك قرر شاهجهان تجـريد حملـة كبيرة لأخضاع هاتين الدولتين ، فذهب الجيش أولا وحاصر « بيجابور »

(1) مكانها : في مملكة حيدر أباد السـابقة .

ولكن القحط والوباء جعلا الجيش المحاصر يفك حصاره عنها ، ورجع شاهجهان ، وترك محله في القيادة « مهابت خان » الذي قام بإخضاع فتح خان ، في أحمد نكّر نهائياً كما سبقت الإشارة إليه .

ولما توفي مهابت خان ، وقام أحد المراهتة بالثورة على المغول قرر شاهجهان اللعاب بنفسه على رأس الجيش ، لعدم كفاية ابنه « شجاع » للوقوف أمام هؤلاء الأعداء ، وكان ذلك سنة 1046 هـ ـ1636 م ، واتخذ من دولت أباد في مملكة أحمد نكّر مقراً لقيادته ، وأرسل الرسائل لملكي بيجابور وكولكنده ، حيث طلب من الأول « عادل شاه » عدم مساعدة المفسدين والثائرين وإبعادهم عن مملكته ، وطلب من الثاني أن يؤدي له الخراج ، ويذكر اسمه في الخطبة بدل شاه إيران ، ويمتنع عن أعمال الشيعة من سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم ، فاستجاب له هذا الملك ، أما عادل شاه البيجابوري فلم يستجب ، فاجتاح بلاده ، وقضى في طريقه على المراهتي الثائر ، واضطر عادل شاه إلى الخضوع وتعهد بدفع الخراج للمغول . وبذلك بدأت سيطرة شاهجهان على ما بقي من الدول الإسلامية في الجنوب ، حيث أصبحتا شبه تابعتين له واقعتين تحت نفوذه . وبعد أن أتم شاهجهان ذلك رجع إلى « أكَرا » وترك أمور الدكن في يد ولده « أورنكزيب » سنة 1047 هـ ـ1637 م .

مع البرتغال :

كان البرتغال يقيمون مراكز لتجارتهم في أماكن مختلفة ، وكان لهم مركز في « هو كَلي » بالبنكَال قريباً من كلكتا ، وانتهزوا فرصة تسامح ملوك المغول معهم ومع غيرهم من الإنجليز والهولنديين فأخذوا

يحصنون مركزهم في « هوكلي » ، ويتدخلون في شؤون الحكم ، وحاول والي البنكال أن يثنيهم عن عملهم ، ويردهم عن غيهم ، ولكنهم استمروا في غوايتهم مغترين بمدافعهم وأسلحتهم الحديثة ، فأمر شاهجهان واليه أن يهجم عليهم وينتزع القلعة منهم ، ويحرمهم من امتيازاتهم التجارية ، فنفذ الوالي أمر شاهجهان ، وأسر أربعمائة من رجالهم ، وأراح البلدة من شرورهم وغرورهم ، وكان ذلك سنة 1042 هـ ـ 1632 م ، وقامت بعض ثورات أخرى كما حدث من « راجا بندهيل كهند » ، وقد انتهت بقتله وخضوع بلاده . وكما حدث من سكان التبت الذين سببوا بعض المتاعب لكشمير فقضى على متاعبهم .

أما قندهار في أفغانستان فكانت قد خرجت من يد المغول إلى شاه إيران ، وظلت تابعة لهم حتى قام سوء تفاهم بين واليها « علي مردان[1] » وبين شاه إيران أدى إلى أن ينضم علي مردان إلى شاهجهان ، وبذلك عادت قندهار إلى الهند دون أن تراق فيها قطرة دماء ، وقد كان لهذا الرجل « علي مردان » أثر كبير في فن العمارة وتنسيق الحدائق وحفر الترع في الهند ، مما لا يزال يذكره التاريخ بالإعجاب ، وكانت لا تزال في دلهي قناة تحمل اسمه إلى عهد قريب ، وكان انضمام قندهار سنة

(1) هو الأمير علي بن علي الشيعي تولى أمر قندهار بعد والده من قبل الدولة الصفوية في إيران سنة 1034 هـ ـ 1624 م في أيام عباس شاه الصفوي وظل 12 عاماً حتى إذا توفي عباس شاه وقام بالملك حفيده ـ وكان ظالما توجس منه علي شراً فانضم إلى شاهجهان بولايته فقدره وولاه على كشمير وتوفي بها سنة 1067 هـ ـ 1654 م ونقل جثمانه إلى لاهور ا هـ . (نزهة جـ5) .

1048 هـ ـ1638 م على أنـه فقدها بعـد ذلك في سنـة 1059 هـ ـ1649 م .

عصر شاهجهان

كان عصره عصر رخاء ورفاهية لم تشهد الهند له مثيلا من قبل ، وساعد على ذلك ما تجمع في خزائنه من الثروات الضخمة التي خلفها أبوه وأجداده .

وشاهجهان عملاق في التاريخ ، وسيظـل عملاقـاً ، لا بحروبـه وانتصاراته ، ولكن بآثاره الفنية الرائعة التي ظلت وستظل عنوان صدق على الرقي الذوقي والفني ، والازدهار المالي في عهده ، مما لم تره الهند من قبله ولا من بعده .

وإن الإنسان لينظر إلى هذه الآثار والمباني الكثيرة فتروعه ضخامتها وكثرتها ، ولكن حينما ينظر إليها نظرة دقيقة ويتفحص الفن الرائع الذي قامت عليه ، والذي يراه ماثلاً في كل كبيرة وصغـيرة وعظيمـة ودقيقـة فيها ، فإنه يقف حائراً مذهولا أمام القدرة المالية والفنية التي خلفت لنا هذه الآثار التي تعد حقاً من معجزات الفن والزمان .

وإن القلم مهما كتب وأجاد ، وأنفـق من الزمـان والقرطـاس في تصوير هذه الآثار وعظمتها ، فإنه لا يمكنه أبداً أن ينقـل الإحسـاس الصادق الذي يغمر الإنسان حين يرى هذه الآثار ، ويمشي بينها ويجيل طرفه بين آياتها ، بل ينعقـد لسانـه ، ويخجـل بيانـه عن أن يتطـاول فيحاول أن يحدث الناس عنها حديث حسه ونفسه .

ذلك كان إحساسي حين شاهدتها ، وقضيت وقتاً بسيطاً بينها بعد أن قرأت عنها . . برغم أنني لم أملك من الوقت ما يتيح لي تماماً الوقوف عليها كلها أو على دقائقها .

تلك كانت نظرتي ، ولو أن رجال الفن والعمارة وقفوا موقفي ، ونظروا ما نظرت لأحسوا أكثر مما أحسست ، وقدروا أكثر مما قدرت ، ودهشوا أكثر مما دهشت ؛ ذلك لأن إرهاف حسهم في فنهم ، وعمق تقديرهم ومعرفتهم يجعلهم أكثر إعجاباً وتقديراً لهذا السلطان الفنان الذي ارتفع بذوقه إلى هذا الحد ، ولهؤلاء الفنانين والمهندسين الذين بلغوا في إبداعهم إلى هذا السمو ، ولا يعرف الفضل من الناس إلا ذووه . . .

هذه الآثار تتمثل في القلعة الحمراء في دلهي ،أو « لال قلعة » كما يسمونها هناك ، والمسجد الجامع المقابل لها ، ومقبرة تاج محل في « أكرا » .

أما القلعة الحمراءفهي ذلك البناء الضخم الفخم الذي بناه لسكناه ، وبنى سوره من الحجارة الحمراء ، والذي اشتمل على أمكنة متعددة لقيام الملك ونسائه وحاشيته وجنوده ، ومجلسه الخاص والعام ، وعلى مسجد يعتبر تحفة في عالم البناء ويسمى « مسجد اللؤلؤة » من الرخام الخالص ، وإن كان صغيراً .

وقد زرتها فتعبت من التنقل فيها وراعني ذلك التفنن في البناء وفي الترف . والقلعة تقع على شاطىء نهر جمنا مثل القلعة الحمراء التي بناها أكبر في « أكرا » حتى في شكلها الخارجي . كانت دائماً مقر سلاطين

المغول في دلهي، نزع الإنجليز منها آخر ملك مغولي « بهادور شاه » واحتلوها ، وظلوا بها حتى خرجوا من الهند فتركوا بها كثيراً من مظاهر التخريب والنهب حيث أخذوا كل ما بها من أشياء وأحجار ثمينة . يقول جو ستاف لوبون(1) :

« وفي سنة 1637 م استقر شاهجهان بدلهي، وأنشأ فيها القصر الفخم الذي لم يسمح الإنجليز بغير بقاء جزء منه ، فيعد مع ذلك من أجمل مباني الدنيا ، وقد أقامت فيها الحكومة الهندية متحفاً يضم بعض آثار وصور الملوك المغول ، وفي فناء القلعة الواسع تقيم الحكومة الآن حفلاتها الرسمية لكبار زوارها من الخارج . وفي المناسبات الرسمية كذلك » .

أما المسجد الجامع أو « جامع مسجد » كما يسمونه في الهند فيعتبر أفخم مسجد بناه سلطان في الهند كلها ، يقوم على مرتفع من الأرض عما حوله ، وأكبر مساحته غير مسقوف ، يقوم وسطها حوض كبير للوضوء ، والجزء الغربي منه هو المسقوف ، يقوم سقفه على ابنية معقودة ضخمة ، أرضه من المرمر والجدران مكسوة بالمرمر كذلك إلى ثلاثة أذرع ، ومنبره كله من المرمر الأبيض الناصع ، وعلى جدرانه وأعمدته الضخمة يتجلى الفن الرفيع والمجهود الجبار الذي بذل في تحليته .

أمر شاهجهان ببنائه سنة 1060 هـ ـ 1560 م ، وعند البدء في تأسيسه أعلن الملك في الناس أن الذي يتقدم لوضع الحجر الأساسي له

---

(1) في كتابه حضارة الهند 224 ص .

هو الذي لم تفته التكبيرة الأولى في صلاة الجماعة ، ولا صلاة التهجد . فسكت الناس جميعاً ، ثم تقدم الملك وقال : الحمد لله ، فإني لم يفتني من ذلك شيء طول العمر ، ولكني آسف لإذاعة سري المكتوم ، وقد تم بناؤه في ستة أعوام ، وتنافس أمراء الأقاليم في إرسال الأحجار والمرمر لبنائه .

وقد افتتح أول مرة بصلاة عيد الفطر فيه في موكب ملكي حافل ، ثم توالت التحسينات فيه بعد ذلك ، وله ثلاثة أبواب : الباب الكبير الشرقي المواجه للقلعة وباب شمالي يقابله ثالث جنوبي ، يصعد إليها بدرجات كثيرة .

وكان المسجد في أيام الثورة سنة 1274 هـ ـ 1857 م مثابة الثائرين ومجتمعهم . يخطبون فيه ويثيرون الشعب ، ويعلنون القرارات ضد الإنجليز ، ولذلك احتله الإنجليز بعد أن انتصروا على الثائرين في دلهي ، ومنعوا الصلاة فيه ، وظل كذلك حتى عام 1279 هـ ـ 1862 م . وهو الآن يغص بالمصلين كل وقت لا سيما في آخر جمعة من رمضان ، ويسمونها « جمعة الوداع » في الهند ، ويقع حول جدرانه من جميع النواحي دكاكين صغيرة ، أكثرها إن لم يكن كلها من الخشب تشوه منظر المسجد ، ولذا أرادت حكومة الهند إزالتها ، لولا أن اعترضها أمر تدبير العيش لمئات من التجار المسلمين الذين يقيمون متاجرهم البائسة حوله ، ومن الناحية الشرقية بينه وبين القلعة فضاء كبير يمتد مئات الأمتار ، زرع بالحشائش الخضراء(1) ومن الناحية

---

(1) وقد دفن في هذا الفضاء الواسع مولانا أبو الكلام آزاد وزير معارف الهند في المكان الذي =

الجنوبية من هذا الفضاء تقع حديقة « ادوارد » الكبيرة التي لا يزال اسمها والتماثيل فيها تذكر الناس بعهود الإنجليز السوداء ، وظلمهم للشعوب وسيطرتهم على الهند .

وحين زرت المسجد عقب وصولي إلى دلهي في يناير سنة1956 م مع صديقي الأستاذ محمود فهمي زكي المذيع المصري بالإذاعة الهندية ، والأستاذ محي الدين ألوائي الهندي المتخرج من الأزهر والمذيع بالإذاعة الهندية العربية كذلك ، أخذ بيدي وسرنا إلى الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد حيث تقوم هناك حجرات تضم بعض الآثار ، منها ـ كما يقولون ـ شعرات من الرسول ، وأوراق من مصحف يقولون إنه بخط الإمام علي ، وغير ذلك . فرأينا هذه الأشياء وأخذ بعض الخدم يشرحون ويبالغون ، وكلامهم مثل كلام بعض الناس في مصر وغيرها عن هذه الأشياء ، لذلك استمعت إليهم ، ثم انصرفت وأنا أقول : هنا مثل ما هنالك ، والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما لفت نظري هذه الكثرة من أسراب الحمام التي تغطي صحن المسجد والمتشابهة في اللون ، فذكرتني بحمام الحرمين الشريفين . والناس يتصدقون على هذا الحمام مثلما يتصدقون على حمام الحرمين ، بالحبوب يبذرونها له تقرباً إلى الله .

وقد شاهدت بعض العمال يقومون فيه ببعض ترميمات ، فسألت أحد الأصدقاء الذي كان يرافقني ، فأخبرني أن الحكومة الهندية

= كان يخطب فيه قبل وفاته بأسبوع في مؤتمر شعبي يطالب بجعل اللغة الأوردية لغة رسمية ثانية ، وعلمت أن الذي اختار له هذا المكان هو صديقه رئيس الوزراء جواهر لآل نهرو .

اعتمدت مبلغاً كبيراً لإجراء إصلاحات وترميات به تشمل تغيير حجارة الأرض كلها ، وبعض الجدران ، وهذا المسجد من أفخم الآثار الإسلامية ، ويزوره كل مسلم يأتي إلى دلهي ، ويصلي فيه ولا سيما ملوك ورؤساء الدول الإسلامية ، ولهذا كله عنيت الحكومة به ، وخصصت له هذا المبلغ الضخم الذي قيل لي عنه إنه 600 ألف روبية على عدة أعوام .

أما تاج محل : فهو الأثر الفني الرائع الذي خلفه شاهجهان ليكون أعجوبة الدنيا من بعده ، هو ذلك البناء الذي أعده لتدفن فيه زوجته المحبوبة أرجمند بانو(1) .

أقامه خارج مدينة « أكرا » في الناحية الشرقية منها على شاطىء نهر « جمنا » وأول ما يلفت نظرك حين تترك الباب الخارجي ، تلك المباني التي أقامها على الجانبين للعمال الذين اشتغلوا في إقامته ، حتى إذا سرت قليلا وملت إلى اليسار متجهاً للشمال رأيت بوابة كبيرة كسيت بالمرمر وكتب على جانبيها وأعلاها سورة الفجر ، وانتهت بقوله تعالى «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» . وقد نحتت الحروف من حجر أسود يسمونه

---

(1) أرجمند : اسم فارسي معناه جدير كفء لائق . وبانو : لقب يضاف للنساء مثل : بيكم ، خاتون : وهي بنت أصف خان شقيق نور جهان كانت نادرة الحسن والجمال تزوجها في عهد أبيه وسنها عشرون سنة ، فولدت له أربعة أبناء وثلاث بنات ، وتوفيت سنة 1040 هـ ـ 1630 م وسنها تسع وثلاثون سنة في مدينة برها نبور شمال الدكن فدفنوها في بلدة « زين أباد » ، ثم نقلوا جسدها بعد ستة أشهر إلى « أكبر أباد » في ضواحي « أكرا » وبنى شاهجهان على قبرها هذا الأثر الذي نتحدث عنه ، ثم دفن بجوارها بعد وفاته ، وسميت المقبرة باسمها بعد تحريف بسيط فاشتهرت باسم « تاج محل » .

حجر موسى ، وهي آية في حسن الخط الثلث ، أعجبت به أيما إعجاب ، وزاد عجبي حين لفت نظري المرشد الذي تولى لنا الشرح إلى أن الكاتب راعى في كتابته خداع النظر الذي يرى الأشياء البعيدة صغيرة نوعاً عما تكون عليه وهي قريبة ، فكان كلما ارتفع مكان الخط كبره قليلا ، وهكذا يكبره شيئاً فشيئاً بحيث يتناسب في رأى العين مع الحروف القريبة ، لتبدو كلها صورة واحدة غير متفاوتة في الصغر والكبر ، وحول ذلك نقوش بديعة على شكل أشجار وأزهار وأوراق ؛ فإذا خطونا خطوات داخل البوابة رأينا على بعد قريب باب المقبرة المرتفعة عن الأرض يسامت البوابة الخارجية تماماً ، وتمر قناة صغيرة بينهما ، قامت في وسطها تماماً فوارات متوازية البعد والارتفاع ، عددها أربع وعشرون ، كانت في أيام السلاطين تفور بماء الورد الذي يمدها من القلعة القائمة قريباً منها ، فيعطر الجو ويكسوه منظراً رائعاً ، ولا تنطلق فيها المياه الآن إلا يوم الأحد وهي مياه عادية طبعاً ، وعلى جانبي القناة ممران ومنتزهان عن يمين وشمال امتازا بحسن التنسيق ، وسلامة الذوق ككل شيء في هذا المكان .

فإذا سرنا في أحد الممرين ، واجهنا بناء المقبرة ورأينا على اليسار مسجداً من المرمر هو مسجد اللؤلؤة ، وعن اليمين بيتاً للضيافة ، ورأينا جنوبيهما قليلا مبنيين للموسيقى عن اليمين والشمال أيضاً ، وكل هذه المباني متناسقة متشابهة ، ولا عجب فقد كان عنصر التنسيق والتشابه هو الأساس الذي قام عليه بناء هذا الأثر الخالد الممتاز .

وبعد أن سرنا نحو مائة متر صعدنا درجات ، وخلعنا أحذيتنا ، فرأيت أن المبنى العام للمقبرة يأخذ شكل مصطبة واسعة مربعة أقيم

البناء في وسطها وبقي حوله من جميع الجهات فضاء ، وفي كل زاوية من زوايا المصطبة الأربع قامت منارة عالية مكسوة بالمرمر الأبيض ارتفاع كل منها 190 قدما ، وقد منعت الحكومة صعود الزوار عليها ؛ لتكرر حوادث الانتحار من الراغبين في الموت سريعاً .

والبناء تتوسطه قبة كبيرة تقوم فوق القبر ، وكان يعلوها هلال وحلية من الذهب زنتها كما سمعت 32 منا ، والفكرة السائدة بين الناس الذين سمعتهم هناك أن ذلك كان من ذهب ، فأخذه الانجليز ووضعوا بدله نحاساً وطول الهلال بحليته نحو 31 قدماً .

والمدخل الرئيسي للضريح يتخذ شكل قبو مرتفع يمشي تحته الإنسان خطوات ، فيجد الباب الذي ينفذ بنا إلى الداخل ، وقد كتب على واجهة القبو وجانبيه أيضاً سورة يس والقرآن الحكيم ، وعلى الباب الصغير كتبت سورة « إذا الشمس كورت » بنفس الخط والنظام والحجر الذي وصفناه سابقاً على الباب الخارجي .

وحين تركنا الباب وجدنا أمامنا فتحة بها بضع درجات تنزل إلى الطابق الأرضي ، فنزلنا في انحناء كأننا أمام الملك والملكة الراقدين ، نحييهما كما كانا يحبان في دنياهما ، وتفادينا بهذا الإنحناء أن تصطدم رؤوسنا بالمرمر الذي كسيت به أرضية الطابق الثاني . . فوجدنا أمامنا قبرين ، على كل منهما تركيبة جميلة من المرمر من قطعة واحدة ، إحداهما كبيرة فوق قبر الملك ، وعلى يسارها تركيبة أصغر منها على قبر زوجته ، وقد زينت كل منهما بنقوش من الاحجار الثمينة الملونة في غاية الإبداع على شكل الأزهار والأوراق . وقد وضع على ضريحه مقلمة

ودواة من المرمر المنقوش وكتب عليه « مرقد مطهر أعلى حضرت فردوس آشياني صاحب قرآن ثاني شاهجهان بادشاه طاب ثراه توفي سنة 1076 هـ » . أما قبرها فقد كتب عليه من فوق قوله تعالى « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . الآية » وقوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت . » وعلى الجوانب كتبت أسماء الله الحسنى . وعلى واجهة المقبرة كتب عليها « مرقد منور أرجمند بانوبيكم مخاطب بممتاز محل توفيت سنة 1040 هـ »

وصعدنا بعد ذلك الدرجات التي نزلناها ، فوجدنا في الطابق الذي يعلو هذا تركيبتين يحاكيان التركيبتين الموجودتين تحت ، ويسامتانهما ، يحيط بهما سور من المرمر اللامع المشبك البديع والدقيق الصنع . قيل لنا إنه من صنع الفنيين الصينيين . كما قيل لنا إن شاهجهان صنعه أولاً من ذهب ، ثم عاد فرفعه ووضع بدله المرمر خوفاً عليه من السرقة ، وقد تدلى من سقف القبة قنديل فوق القبرين ، قيل لنا إنه من صنع مصر أهداه « لورد كيرزون » . أما الأبواب فقد حليت بنقوش معدنية ، قيل إنها كانت من الفضة فأخذها الإنجليز ، ووضعوا بدلها المعدن الحالي ، وقد حليت التركيبتان كما حليت الجدران بأشكال الزهور والأوراق بأغصانها وألوانها ، حتى لتجد في الزهرة أو الورقة عدة ألوان ، بل تجد في الورقة تلك العروق التي تمتد فيها ، وقيل لنا إن كل هذه الأزهار والأوراق قد صنعت من الأحجار الكريمة ذات الألوان الطبيعية التي تحاكي لون الورقة والزهرة . وعدد الأحجار الموجودة في الورقة نحو ستين حجراً من صنع الايرانيين ، وبعضها جاء من إيران أيضاً ، وعددها في الزهرة نحو ثلاثين .

وفي أعلى تركيبتها كتب « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . . . الآية » .

وفي الجوانب كتب « إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون . الآيات » . وقيل لنا إن الذي قام بكتابة الخط هو « أمانت خان شيرازي » وعلى جوانب القبرين ثماني حجرات مثمنة الشكل متشابهة ، خصصت لقراءة القرآن والأوراد والأدعية ، ولاحظت كسراً بأحد الجدران ظهر منه الآجر الداخلي للجدران بعد أن زالت عنه قشرة المرمر ، قيل إن أحد المهندسين الإنجليز فعله حتى يتبين ما وراء المرمر ، وظل كذلك حتى الآن . . ورأيت عمال الحكومة يقومون ببعض إصلاحات وترميمات حرصوا على أن يرمزوا لها بحرف N الإنجليزي حتى يتميز الأصل من الترميمات الحديثة .

وكان المرمر الذي استعمل في تشييد هذا الأثر الرائع يأتي من بلاد مختلفة أهمها « مكران » التابعة لجيبور في راجبوتانا ، قدمه الأمراء والحكام هدية للسلطان ، وحملته الفيلة من أماكنه البعيدة .

وقد أتفق على بنائه ما يوازي 320 كرور روبية أي 320 مليون روبية ، مع ملاحظة أن أجرة العامل في أيامه كانت توازي قرش صاغ مصرياً ، وظل العمل في هذه المقبرة وتوابعها اثنتين وعشرين سنة ، رمزوا لذلك بعمل قبابة صغيرة فوق الأبواب ، مميزين السنين التي استغرقها العمل بالمقبرة بقباب بيضاء عددها سبع عشرة قبة ، وتوابعها بخمس قبب حمراء .

والبناء يقع على شاطىء نهر جمنا ، لذلك نجد كثيراً من الصور التي تؤخذ له تبدو منعكسة على صفحة الماء ، ورأيت قريباً منه على حافة الماء تقريباً معبداً للهندوس صغيراً لا أدري لماذا ومتى أقيم في هذا المكان ؟! والصورة العامة للمقبرة بيضاء ناصعة ، ويبدو رونقها وجمالها على أتم ما يكون في الليالي المقمرة حين تنعكس عليها أشعة القمر الفضية . فيأخذ جمالها بالألباب . أما بقية المباني التي أقيمت حولها فتبدو حمراء ، سواء في ذلك دار الضيافة ومباني الموسيقى ، أم المباني الأخرى التي يشغل بعضها الآن بعض تجار الصور والتماثيل المرمرية الدقيقة الصنع ، وعلى بعد قريب من تاج محل نرى القلعة الحمراء التي بناها أكبر على نهر « جمنا » وأكمل شاهجهان بناءها .

ذلك وصف عام لهذه التحفة الفنية الرائعة التي لا يوجد لها نظير في العالم ، والتي تنطق برقي الذوق والفن وهندسة البناء في ذلك الزمان ، مما يجعلها مفخرة الهند ، لا يستغني أي سائح أو زائر عن زيارتها ، وإرواء نفسه من متعتها ، والوقوف أمامها في خشوع وإعجاب بعظمة هذا الملك المسلم ، وعظمة الفن في عهده ، وعظمة نفسه التي حملت هذا الوفاء النادر لزوجته المحبوبة ، وفاء ترك العالم يتمتع بهذه الدرة العظيمة في عالم الفن والبناء . وهذا هو الذي يجعل الحكومة تحرص على المحافظة عليه . وترميم بعض ما يحدث فيه من خلل .

تقول مجلة ثقافة الهند(1) الرسمية « تجري الآن بعض الترميمات

---

(1) في عددها الصادر في مارس سنة 1953 .

والتحسينات«في تاج محل باكرا» وهو الأثر الذي تفتخر به الهند ويعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، وقد قاوم هذا الضريح الأثري العتيق الذي يعود تاريخه إلى ثلثمائة سنة مضت ، والمبنى من الرخام الأبيض ، عوامل الزمن فلم يتأثر إلا قليلاً ، وكانت آخر مرة أصلح فيها سنة 1291 هـ ـ 1874 م ، ومنذ سنة 1359 هـ ـ 1940 م حتى يومنا هذا يعكف مهرة الصناع باكرا على ترميمه . ولا غرو فقد عاون أسلافهم منذ أجيال « شاه جهان » امبراطور المغول في بناء هذا الأثر التذكاري الذي تكلف نحو ثلاثة ملايين جنيه لزوجته المحبوبة ، وقد اعتمدت وزارة المال الهندية 400 ألف روبية نفقات إصلاحه » .

« والضريح نفسه يتألف من بناء مرمري أبيض يقوم على شرفة عالية » وتعلوه قبة ضخمة في وسطه ، تحيط بها أربع قباب أصغر حجماً ، وترتفع عند زوايا الشرفة أربع منارات دقيقة ، وتبلغ مساحة الضريح 186 قدماً مربعاً ، وقطر القبة الداخلي 58 قدماً ».ويخترق ضوء النهار ستاراً مزدوجاً من الرخام المشغول فتسقط أشعته على قبرين تحت القبة تماماً للأمبراطور وزوجته المحبوبة ، أما الزخارف الداخلية المطعمة بأحجار شبه نفيسة فتمتاز بألوانها الزاهية ، ورسومها الأخاذة » .

« والتاج مزار لا يسع أي سائح أن يتخلف عن زيارته ، ويقع في حديقة فسيحة الأرجاء ، تزينها أشجار السرو الباسقة وتكسو أرضها الخضرة اليانعة ، وتجري خلالها المياه الرائعة الهادئة ، فإذا ماجن الليل وسقطت أشعة القمر الفضية على القبة اللؤلؤية البيضاء شاهد الرائي أمامه منظراً يسلب اللب ويخلب الأبصار » اهـ .

وتحدث كتاب « بين الآثار الإسلامية في العالم »(1) عن تاج محل فقال :

« وهذا الأثر يعد أجمل العمائر الإسلامية على الإطلاق في القرن الحادي عشر الهجري ، ولذلك سنقف عنده قليلاً نتأمل في روعة قصته وبهاء طلعته . وجمال تكوينه ودقة تصميمه . أمر بتشييده الملك « شاهجهان » ابن الملك أكبر(2) ليضم رفات زوجته ورفاته بعد مماته ، ولإنشائه قصة لحمتها الإخلاص ، وسداها الوفاء؛ إذ تزوج الشاه بالأميرة(3) «ممتاز محل» التي حرف اسمها فأصبح «تاج محل» . وقد رزقت منه أربعة عشر(4) ولداً ، ثم توفيت على أثر الوضع ، فحزن عليها حزناً عميقاً ، وواصل البكاء ليلاً ونهاراً . وعقد العزم على أن يخلد هذا الحب ، فشيد هذا البناء الفخم ، ونقل رفات زوجته إليه ، وقد استغرق البناء اثنتين وعشرين سنة ، وكان يعمل فيه عشرون ألف عامل » . إلى أن قال « ويتجلى في البناء سمو الذوق واتزان الأبعاد ، والتناسب بين الأجزاء والتناسق في الزخارف والألوان ، فهو بحق أجمل عمائر الهند ، ومن أروع الآثار الإسلامية في الشرق والغرب » .

---

(1) للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة الإسكندرية ص53 .

(2) خطأ تاريخي وصحته شاهجهان بن جهانكير .

(3) لم تكن من الأميرات ، كما يتوهم ، بل هي بنت لأحد الإيرانيين الذي قدم من إيران وخدم في قصر الملك .

(4) جاء في نزهة الخواطر جـ5 ص87 أن شاهجهان تزوجها وعندها عشرون سنة ، وتوفيت وسنها تسع وثلاثون ، وولدت له أربعة أبناء وثلاث بنات منهم الملك أورنكزيب عالمكير .

تلك هي أفخم الآثار التي خلفها شاهجهان ، والتي تعتبر أهم وأروع ما تركه ملك في الهند من آثار ، ولعله يتبادر إلى الذهن حين النظر إليها وإلى ما أنفق عليها من مبالغ ضخمة أن هذه المبالغ إنما ابتزها الملك من الشعب ، وأن هذا الثراء الذي يبدو في مظاهر هذه الآثار إنما قام على حساب الشعب وإفقاره .

ولكن الواقع يسارع بنفي هذه الفكرة ؛ إذ أن استقرار الدولة ورفاهية الشعب ، وما ورثه شاهجهان من الملوك السابقين ، كان أكبر معين له على إقامة هذه العمارات دون أن يظلم ، أو يبتز المال من الشعب . قال المؤرخ الهندي سيد هاشمي[1] « إن ميزانية الدولة في عهده بلغت مبلغاً لم تبلغه من قبله ولا من بعده ، حتى في أيام حكم الإنجليز الذين حكموا ملكاً أوسع من ملكه ؛ فقد كان يحصل من ضريبة الأرض 27 كرور روبية أي 270 مليون روبية[2] ، غير ما يحصل من كابل وقندهار ، وكان يأتيه هذا المال دون ضغط أو ظلم ، وهذا المبلغ لم يحصله الانجليز مع كثرة تعسفهم مع الناس ، وكان الشعب يعيش في عهده عيشة طيبة ، متمتعاً بعطف الملك وعدله ، حتى قال سائح انجليزي عنه ، إن الملك كان شديد العطف على رعاياه كما يحنو الأب على أبنائه » .

« وكان الملك مشهوراً بكرمه وكثرة عطاياه ، وأكبر دليل على رفاهية الشعب وغناء الدولة في عهده ، أنه بعد أن أنفق كل هذه النفقات في

---

(1) مع تصرف من كتابه تاريخ الهند ص 223 .

(2) الجنيه المصري يساوي نحو 5 ر13

المباني وفي إقامة عرش الطاووس من الذهب الذي تكلف عشرات الملايين من الروبيات ، وجد في خزائنه بعد وفاته 24 كرور روبية أي 240 مليون روبية . وكان الذهب والفضة والمجوهرات التي تركها تساوي 15 كرور أي 150 مليون روبية ، وذلك كله يدل على أنه ما كان محتاجاً إلى زيادة الضرائب على الشعب حتى يجابه النفقات الكثيرة التي ينفقها ، ولذلك يسميه المؤرخون بالملك المحظوظ لما أتيح له من الغنى والإستقرار واتساع الملك مما لم يتح لغيره من الملوك .

« ولقد كانت الزراعة والصناعة مزدهرتين في عهده أيما ازدهار ، حتى كانت الهند تصدر من منسوجاتها الجيدة إلى أوربا كميات وافرة » اهـ .

وكان شاهجهان بروحه ونزعته محافظاً على تعاليم الإسلام وآدابه ، فقد أبطل عادة تقبيل الأرض أمامه تحية له ، وكانت هذه التحية المعتادة للملوك ، حتى إن جهانكير حبس زعيم العلماء في الهند « مولانا أحمد السرهندي »(1) مجدد الألف الثاني لأنه لم يسجد له ، فقضى

---

(1) قال عنه صاحب نزهة الخواطر جـ5 ص41 إنه « الإمام العارف بحر الحقائق والأسرار محيي السنة النبوية . برهان العارفين والمحققين وحجة الأولياء والمتقين . آية من آيات الله العظام ونادرة من نوادر الأيام ، أخذ بيد العلم لما زلت به القدم ، وكاد يهوي في مهاوي العدم فكان مجدد الألف الثاني برهاناً ساطعاً على أشرفية النوع الإنساني . وهو أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، ولد في بلدة « سرهند » في شوال سنة 971 هـ - 1563 م وأخذ العلم عن مشايخ زمانه ولا سيما علوم الحديث ، ثم قعد للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة ، كما أخذ الطريقة عن مشايخها وتبحر في علوم الشريعة والحقيقة معاً . ولما توفي والده سنة 1007 هـ - 1598 م ارتحل إلى دهلي واشتهر أمره فوشي به عند « جهانكير » فحبسه كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقد صنف كثيراً وقضى عمره في إحياء السنة وإماتة البدعة حتى استحق لقب مجدد الألف الثاني من الهجرة =

شاهجهان على هذا التقليد السيء ، كما قضى على كل مظهر من المظاهر المخالفة للإسلام مما تركه جده أكبر من بعده ، ولم يبطله أبوه جهانكير . وكان كثير الإكرام للعلماء حتى قصدوه من جميع الجهات ، وقد مر بنا في قصة بناء المسجد الجامع في دهلي صورة طيبة من حياته ، ومن المعروف عنه أنه بعد أن تاب من الخمر في شبابه لم يرجع إليه .

وكان شاهجهان محباً للعلم مشجعاً على التأليف ، ويذكر المؤرخون أن العلامة عبد الحكيم السيالسكوتي(1) ألف بأمره كتباً كثيرة ، وكان يعطيه في العام مائة ألف روبية . وقد اتخذ اللغة الأوردية اللغة الرسمية في عهده ، وعمل على نشرها بوسائل مختلفة ، حتى إنه أنشأ سوقاً للرجال وأخرى للنساء، وفرض التكلم والتخاطب فيهما بالأوردية حتى تنمو وتزدهر .

= وأصبح مشهوراً به في التاريخ ، وقد توفي في سرهند في اخر صفر سنة 1034 هـ ـ 1624 م فدفن بها وما زال قبره مشهوراً يزار هناك للآن . ا هـ مختصراً . ومن سبحة المرجان في آثار هندستان لمولانا غلام آزاد .

(1) معروف في مصر بحاشيته على العقائد النفسية التي تدرس بالأزهر في علم الكلام ، ولد في قرية سيالكوت بالبنجاب ، واشتغل بالعلم وصار من نوابغ زمانه ، قدره شاهجهان حق التقدير وقربه إليه وأخذ برأيه وكافأه على تأليفاته مكافآت ضخمة ، حتى قيل إنه وزنه مرتين بالفضة ومنحه قيمتها ، وكان كل مرة ستة آلاف من نقود زمانه ، وأقطعه قرى متعددة يعيش فيها ، ويصنف في هدوء ، وقضى نحو ستين سنة يدرس ويؤلف حتى ترك وراءه مؤلفات وحواشي على الشروح متعددة في مختلف العلوم ، وتوفي في ربيع الأول سنة 1067 هـ ـ 1656 م ودفن في سيالكوت اهـ نزهة وسبحة المرجان .

شاهجهان في أواخر حكمه

كان هذا الملك المحظوظ كما سماه المؤرخون سيىء الحظ في أواخر أيامه ، فقد أصيب بمرض أقعده عن مباشرة أمور الحكم 1068 هـ ـ 1657 م ، وكان له أربعة أولاد : أورنكزيب ، ودارا شكوه ، ومراد ، وشجاع ، وكان لكل منهم ولاية يحكمها . فلما مرض استدعى ابنه دارا شكوه(1) بجانبه ليباشر شؤون الحكم ، وكان أكبر إخوته ، فأخفى نبأ المرض عنهم ، وأخذ يصرف أمور الدولة . فظن شجاع ومراد أن أباهما توفي ، واتهما « دارا شكوه » بقتله ، وأراد شجاع أن يذهب إلى أكرا بجيشه لينتقم لأبيه ، ولكن أورنكزيب نصحه بالتريث ، وأكد له أن أباه حي ، وأتفق الإخوة الثلاثة على إبعاد دارا شكوه ، والحيلولة بينه وبين الملك بحجة أن ذلك يقوض عرش المغول . ولما أفاق شاهجهان من مرضه ، ووقف على ثورة أبنائه على « دارا شكوه » غضب عليهم ، وأرسل ينصحهم بالهدوء والخضوع .

لكن دارا شكوه لم يكتف بهذا ، بل جرد حملة بقيادة ابنه سليمان لتأديب أخيه شجاع ، وكذلك أرسل الجيوش بتأديب بقية إخوته .

---

(1) ولد سنة 1024 هـ ـ 1615 م وقرأ العلم على بعض العلماء وتعلم الفنون الحربية ، وبايع لمحد الصوفية ، وصنف الكتب في سير المشايخ وغيرها ، منها سفينة الأولياء ، وسكينة الأولياء ، والسر الأكبر والأعظم الخ . . وبعض الناس يراه صوفياً صالح العقيدة ، ويستشهدون بمؤلفاته في هذه الناحية ، والآخرون يرون أنه كان مثل جده أكبر فاسد العقيدة مستشهدين ببعض مصنفات أخرى ، منها ترجمة كتاب هندوسي نقش فيه صور عظماء الهنود مكان بسم الله الرحمن الرحيم وقال في خطبة الكتاب إنه لب القرآن ، وسر مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وكذلك كتابه في التوفيق بين الإسلام والهندوسية اهـ نزهة باختصار جـ5 ص143 .

أما شجاع فقد التقى بجيش سليمان عند بنارس ، فانهزم وفر إلى بنكال ، وفي ذلك الوقت كان « أرنكزيب » قد تحرك بجيشه من « برهان بور » في الدكن متجهاً إلى «أكرا» ، وانضم إليه أخوه « مراد بخش » في « مالوا » ، وفي الطريق أرسل « أورنكزيب إلى « جسونت سنك » القائد الراجبوتي الذي أرسله « دارا » لتاديب أخويه ، وقال له : إنني أريد زيارة أبي لا الحرب ، فإما أن تصاحبني ، وإما أن تتنحى عن طريقي بدلاً من سفك الدماء ، ولكن القائد الراجبوتي لم يستجب له ، فوقعت الحرب بينهما في رجب سنة 1067 هـ ـ 1657 م ، وانتهت بهزيمة « جسونت » وفراره بعد القضاء على كثير من رجاله الراجبوت .

وتابع « أورنكزيب » سيره نحو العاصمة « أكرا » ، في الوقت الذي بدأ الرعب والإضطراب يدب فيها بعد أن وصلتهم أنباء انتصاره ، ومتابعة زحفه نحو العاصمة ، حتى أراد شاهجهان أن يفر إلى دلهي ، ولكنه آثر البقاء لعله يستطيع الصلح بين أبنائه وإنهاء الحرب بينهم ، ولكن « دارا » كان مغتراً بقوته ، وبالإمكانات التي تحت يده ، معتقداً أنه سيقبض على إخوته بكل سهولة ، ولذلك كان يثور على فكرة المصالحة ، ويصر على الحرب والإنتقام .

وحقاً كانت القوتان غير متعادلتين ، فقد كان جيش « دارا اشكوه » الذي يزيد عن المائة ألف ينتظر جيش أورنكزيب ومراد البالغ 35 ألفاً فقط ، والذي قطع مئات الأميال وأنهكه التعب .

وتلاقت القوتان في رمضان جنوب شرق « أكرا » على بعد 30 ميلاً ، وبدأت المدافع عملها ، ثم هجمت قوات « دارا شكوه » على

جنود الدكن ، فوقع الخلل في صفوف الدكنيين ولكن « أورنكزيب ومراد » صمدا للمعركة صموداً عجيباً ، فقد كانا يعرفان مصيرهما لو لحقت بهما الهزيمة ، وتدخلت الأقدار في المعركة لتصل بها إلى نهايتها المقدرة ، فلقي « رام سنك » قائد الراجبوتيين في صف دارا حتفه ، حين هجم على « مراد » يريد القضاء عليه ، فتفرق جنوده الراجبوت ، ووقع الخلل في صفوفهم ، وفي ذلك الوقت وقعت الكرة الملتهبة التي كانوا يستعملونها في الحرب على رأس الفيل الذي يركبه « دارا » وانفجرت ، فتركه وركب فرساً ، ورأى جنوده هذا فظنوا أنه يتأهب للفرار سريعاً من المعركة ، فخارت قواهم المعنوية ، وأخذوا يفرون من المعركة ، ولحقهم « دارا » يسابقهم في الفرار حتى وصل إلى « اكرا » ولكنه لم يذهب إلى أبيه خجلاً مما أصابه ، بل أخذ بعض المال والجواهر وزوجته وأولاده ، وتابع فراره إلى دلهي .

وفي ثلاثة أيام كانت الجنود الظافرة أمام العاصمة معسكرة . واستقبل أورنكزيب في طريقه وفي معسكره كبار رجال الحاشية والقواد والأمراء . مهنئين مقدمين خضوعهم له ، ولم يفت شاهجهان أن يشترك كذلك في تكريم ابنه المنتصر ، فأرسل إليه سيفاً مرصعاً بالجواهر ، وقد نقش عليه اللقب الذي منحه إياه ، وهو لقب « عالمكير » أي آخذ العالم وسيده ، ولكنه لم ينخدع ، ولم يترك الأمر في يد أبيه المريض ، لئلا يستعيد دارا شكوه ويمكن له في الملك ، ولذلك دخل العاصمة وقبض على أبيه واعتقله في القلعة ، وأحاطه بكل أنواع التكريم ، حتى لم يفقد شيئاً من أبهة الملك اللهم إلا السلطة التي كان قد فقدها من قبل ، وقد قضى شاهجهان في هذا الإعتقال نحو ثماني

سنوات حتى توفي سنة 1076 هـ ـ 1666 م ، وهكذا كانت نهاية هذا الملك الذي أطلق عليه المؤرخون اسم الملك المحظوظ. رأى بعينيه القتال الدامي بين أبنائه على الكرسي الذي يشغله . وهو مريض لم يستطع أن يوقف هذا القتال ، وعاش حتى أفعم قلبه بالألم للمآسي التي خلفها هذا القتال ، أفتراه ملكاً محظوظاً حقاً ؟!!

في « دارا » إلى دهلي منهزماً . فكان على أورنكزيب ومراد أن يتعقباه بعد أن خلا لهما الجو في « أكرا » حتى يقضيا عليه نهائياً ، ولكن خلو المجال لهما جعل كلا منهما يطمع في الملك ، وبدأت حاشية كل واحد تزين له أنه الأجدر والأحق ، وتعمل لذلك ما استطاعت ، ولم يكن مراد بالرجل الذي يوضع في كفة أمام أورنكزيب ، ولكن المطامع كثيراً ما تنسي الناس أقدارهم والحقائق البارزة أمامهم .

وأحس أورنكزيب بهذا الذي يدبره أخوه وحاشيته ، وفي ليلة كان مراد مخموراً فأركبه على فيل ، وساقه إلى قلعة سليم في دلهي ، ثم نقله إلى سجن قلعة « كواليار » المعروفة بسجن الأمراء ، وبذلك انتهى أمر مراد .

وفي ذي القعدة سنة 1067 هـ ـ 1657 م أعلن أنه صار ملكاً على الهند خلفاً لأبيه ، لكنه أجل الإحتفال بذلك حتى يفرغ من مشاكله مع دارا الذي فر إلى لاهور ، ومع شجاع الذي عاد من بنكال إلى بنارس ، وبدأ يعد العدة هو الآخر للإستيلاء على العرش .

تعقب دارا شكوه في لاهور ، ثم في ملتان حتى فر إلى السند ،

فأرسل بعض قواته لمطاردته والقبض عليه ، ورجع هو إلى دهلي ليحل مشكلته مع شجاع الذي أعد عدته للهجوم على أخيه .

وكان السادات حكام إله أباد وبنارس يعاونونه ، وأمدوه بفيلة مدربة على القتال بسلاسل زنة الواحدة 240 رطلاً ؛ تحركها في الهواء وتضرب بها ذات اليمين وذات الشمال فلا يبقى أمامها جندي واحد ، وحين تلاقى الجيشان وهجمت هذه الأفيال وهي مخمورة حدثت الفوضى في صفوف أورنكزيب ، حتى اضطر هو للنزول إلى قلب المعركة ، وقيد فيله حتى لا يفر ، وأمر بضرب النار على ركاب الفيلة ، فسقطوا وفرت فيلهم ، وأخذت الدائرة تدور على شجاع وجنوده فلاذ بالفرار ، وتعقبه بعض القواد حتى بنكال فآسام ، وهناك اختفت آثاره . واستراح أورنكزيب منه .

ولكن ما زال أمر « دارا » معلقاً لما ينته بعد ، وقد عاد من السند إلى أجمير وأخذ يعد عدته للهجوم ، فخرج إليه أورنكزيب وهزمه ففر ، وخلا الجو أو كاد من المنافسين له ، ولذا بدأ يعد العدة للإحتفال بجلوسه على العرش ، وكان ذلك في رمضان سنة 1069 هـ - 1659 م ، وكان احتفالاً رائعاً عم خيره الناس جميعاً ؛ الكبار والصغار ، وزاد من روعته وبهائه وصول الأنباء إلى الملك بالقبض على دارا شكوه في السند وإرساله إليه ، وانتهى الأمر بقتله بعد أن اعتمد الملك على فتوى من العلماء بخروجه على الدين ، ومحاربته الحاكم الشرعي ودفن في مقبرة همايون(1) ، وبذلك صفا الجو لأورنكزيب ، وكأنما ساقته العناية الإلهية

---

(1) قبض عليه « ملك جيون » أحد أمراء السند بعد أن استضافه أياماً وتقرب به إلى عالمجير . ولكنه

ليكون حاكماً فذاً ، ويصبح على مر التاريخ مثالاً طيباً للملك المسلم الذي يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة ، وذلك على الرغم مما صاحب اعتلاءه للعرش من سفك للدماء .

أورنكزيب ـ عالمكير

هو أبو المظفر محيي الدين محمد أورنكزيب الأمبراطور المغولي المسلم ، الذي يعتبره المسلمون المثل الطيب للحاكم المسلم الزاهد المتمسك بالشريعة وآدابها ، العامل على إحيائها ، وقد ولد في بلدة « دوحد » شمال برودة في كجرات بنحو 70 ميلاً في 15 من ذي القعدة سنة 1028 هـ ـ 1619 م وأمه « أرجمند بانو » المشهورة بإسم « ممتاز محل » المدفونة في مقبرة « تاج محل » ، وقد ولد في عهد جده « جهانكير » وتربى تربية دينية على يد كبار العلماء ، حتى أصبح متبحراً في العلوم الدينية ، متعبداً على نسق الصوفيين برغم اشتغاله بأمور الملك ، لم يشرب الخمر قط ، ولم يسمع الغناء مع مهارته في الإيقاع والنغم منذ صغره ، ولم يستعمل الذهب والفضة ، وأمر أن يستعاض عنهما بغيرهما ، وتزهد وتقشف طول مدة حكمه . ويعتبره المؤرخون أعظم امبراطور مغولي

حين ظهر في شوارع دلهي تلقى غضب الشعب عليه في قذائف الحجارة حتى كاد يقتل ، وحينما قتل دارا شكوه وطافوا به في الشوارع للتشهير به كانت دموع الناس تجري انهاراً عليه ، وثاني يوم قتل الذي قام بهذه التظاهرة بفتوى من العلماء كذلك اهـ. تاريخ الهند لسيد هاشمي ، ولعل ثورة الشعب كانت لحبه لدارا شكوه ولهذه الإنتهازية التي دفعت « ملك جيون » الى الغدر بضيفه ثمناً للزلفى عند الملك .

(1) معنى « أورنجزيب » زينة العرش : فاورنبج معناها : عرش ، وزيب معناها : زينة . ومعنى « عالمجير » : آخذ الدنيا وسيد العالم .

بلغت الدولة في عهده الذروة التي لم تبلغها قبله أو بعده ، وإن كان بعض المؤرخين الهندوس والغربيين ومن له إتجاه أو مذهب خاص من المسلمين يأخذون عليه أنه كان مسلماً متعصباً !! ، ولكننا نعرف أن كلمة متعصب هذه في نظر هؤلاء تساوي في نظر المسلمين معنى : العامل بدينه ؛ لأن هؤلاء لا يرقهم المسلم المتمسك بدينه ، وإنما يعجبهم رجل مثل « أكبر » ويرفعونه إلى السماء . . ولعل مثل هذا الحكم من المسلمين ـ أعني أنه المثل الصالح للملك المسلم ـ يبدو غريباً بعد ما عرفنا من الحروب التي خاضها عالمكير في سبيل الوصول إلى الملك وقتله لإخوته ، ولكننا نعلم أن مثل هذه الحروب لا تحكم على الرجل بقدر ما يحكم عليه عمله وسيرته في الحكم بعد أن يستقر فيه ، وتستقيم له الأمور ويأخذ على عاتقه مسؤوليتها. ونحن من خلال هذه النظرة نقدم لك هذا الأمبراطور . .

حكم عالمكير نيفاً وخمسين سنة لم تخل من المتاعب والحروب ، بل كانت سلسلة متتابعة من الحروب هنا وهناك ، وكثيراً ما كان الملك على رأس جيشه يباشر تأديب أعدائه بنفسه ، ويضم ممالك جديدة إلى رقعة مملكته ، حتى إنه لم يعرف طعم الراحة والإقامة الهنيئة في عاصمة ملكه ، وقد سبقت حكمه فترة من الزمن ، وجهاز الدولة مرتبك ، والمسؤولون فيها مشغولون بأنفسهم والحروب بينهم ، فأتاح هذا لمن يريد الخروج على سلطانها أن يخرج ، فلما استقر الأمر له بدأ يتجه إلى تسكين الفتن وفتح الممالك .

كان قائده « مير جملا » يقود جيشه في الشرق ففتح « كوج بهاري »

الذي كان مستعصياً على أبيه ، ثم تابع زحفه نحو الشرق يتتبع شجاعاً ، حتى وصل إلى أسام فأخضعها للملك المغول ، وكذلك ولاية آراكان على حدود بورما ، ورأى نفسه قريباً من الصين فأراد أن يمد فتوحه إليها ، ولكن الأمطار حالت دون ذلك ، فرجع إلى داكا في بنكال وتوفي في رمضان سنة 1073 هـ ـ 1663 م .

وبعد ذلك بنحو سنتين استفحل أمر القراصنة واللصوص على الشاطىء الشرقي والشمالي لخليج البنكال ، فقام واليها بالقضاء عليهم وضم « ولاية جانكام » الخصبة إلى ولايته .

وفي ذلك الوقت كان أهل التبت يسببون القلاقل والمتاعب لوالي كشمير ، كما قامت قبائل الأفغان في مناطق الجبال الشمالية الغربية بثورات على حكم المغول ، أما أهل التبت فقد تولى والي كشمير إخضاعهم ، وصاروا تابعين للدولة المغولية . وأما قبائل الأفغان فقد قام الملك بنفسه على رأس جيشه لإخضاعها سنة 1080 هـ ـ 1670 م . وعين قائده العظيم « آغر خان » لإخمادها ، وكان « آغر خان » من نوادر الرجال والقواد ، أبلى بلاء حسناً في جيش عالمكير في حروبه في بنكال والدكن . وخصه الملك بعناية لم يظفر بها قائد من القواد . وقد كتب بعض المؤلفين كتاباً عن حروبه وسماه « آغر نامه » . وقد استطاع هذا القائد الباسل أن يقضي قضاء نهائياً على تحركات الأفغان ، ويخمد أنفاسهم ويثير الرعب في نفوسهم ، حتى كان الآباء يخوفون أولادهم بذكر اسمه . .

مع ستنامى :

بعد ذلك في سنة 1082 هـ ـ 1672 م شغل الملك بحرب ـ لم تكن متوقعة ـ مع طائفة من فقراء الهندوس تعرف بإسم « ستنامى » ، تسكن في ناحية « نارنول » على بعد 60 ميلاً من دلهى . بدأت بصدام بسيط بين البوليس وأحد هؤلاء ، ولما هب رجال البوليس لنجدة إخوانهم تجمع هؤلاء وهزموهم ، فاستفحل أمرهم وقوي نفوذهم ، وزحفوا إلى دلهى حتى أصبحوا على بعد 35 ميلاً منها ، وشاع في الناس أنهم ينتصرون بقوى السحر !! ، وفت هذا في عضد جيش عالمكير وبث الرعب فيه ، فرأى الملك أن يحارب سلاح هؤلاء الفقراء الفتاك بسلاح من جنسه ـ ولا يفل الحديد إلا الحديد ـ فكتب تعويذة ـ وكان مشهوراً بالصلاح ـ وأعطاها لقائديه راجابشن سنك وحامد خان ، فقويت روحهم المعنوية ، وهجموا على الفقراء المشعوذين فأبادوهم وأخمدوا ثورتهم ، بعد أن بدأت تمتد ألسنة لهيبها إلى أكرا وراجبوتانا .

فرض الجزية :

وفي هذا الوقت ـ أعني سنة 1082 هـ ـ 1672 م ـ اتجه الملك إلى إعادة فرض الجزية على الهندوس تنفيذاً لتعاليم الإسلام ، وهي تؤخذ من غير المسلمين نظير ما يفرض على المسلمين من زكاة وجهاد ، في مقابل قيام الدولة بحفظ الأمن وتوفير الضروريات لهم ، وكان « أكبر » قد ألغاها عن الهندوس تمشياً مع سياسته التي أبعدها عن دائرة الدين ، وفرح بذلك الهندوس واطمأنوا ؛ إذ كانوا ينظرون إليها على أنها شعار الذل والقهر ، واستمر الغاؤها بعد أكبر أكثر من مائة سنة في عهدي

جهانكير وشاهجهان ، ومدة كبيرة من عهد عالمكير ، لذلك كان لفرضها من جديد وقع سيء في نفوس رعاياه الهندوس ، وثاروا وتجمعوا أمام القلعة حتى سدوا الطريق بينها وبين المسجد الجامع المقابل لها ، ولم يستطع الملك الخروج لصلاة الجماعة ، ولم تجد الوسائل السلمية لصرفهم ، وحينئذ أمر الملك بأن تتولى الفيلة تفريقهم وتشتيتهم ، وأصر على تنفيذ الشريعة في هذه الناحية ، ولم يكن في ذلك متعنتا أو قاصداً إهانة شعبه ، لأننا نجده من ناحية أخرى قد ألغى بعض الضرائب التي لم تفرضها الشريعة وأعفى الهندوس وغيرهم منها .

لكن الهندوس وغيرهم من المؤرخين الأوربيين لم يهضموا فكرة الملك واتجاهه لتنفيذ شريعة الإسلام في هذه الجزئية ، وإن كانوا بالطبع قد تقبلوا بسرور إلغاء بعض الضرائب التي لا تتفق مع الإسلام ، وكانت الجزية قبل المغول تؤخذ على الرجل من 10 إلى 40 من السكة الموجودة حينذاك ، ولكن في عهد عالمكير كانت 13 روبية سنوياً ، فكانت من جملة الأسباب التي دفعت الهندوس في راجبوتانا وغيرها على الثورة .

ثورة الراجبوت :

منذ عهد أكبر ، وبعد الصلات الطيبة التي قامت بينه وبين الراجبوت خصوصاً والهندوس عموماً ، والدولة لم تشهد حرباً مع هؤلاء الأقوياء في عهد جهانكير وشاهجهان ، بل كانوا أداة في يد الحكومة والجيش ، وتفانوا في خدمتها والدفاع عنها ولو ضد أبناء جنسهم ، وكان منهم القواد والحكام والموظفون الكبار والصغار .

من هؤلاء القواد « جسونت سنك » وكان في جيش شاهجهان الذي وجهه داراشكوه لتأديب أورنكزيب في الدكن ، ووقعت بينهما موقعة انهزم فيها « جسونت » وفر ، ثم عاد فقدم الولاء لأورنكزيب حين انتصر على دارا ، فعفا عنه وأعاده إلى منصبه ، وجعله قائداً على الجيش الذي وجهه لحرب أخيه « شجاع » ، ولكنه خان وانضم إلى شجاع ، ثم فر بعد هزيمته . ومع ذلك عاد وطلب العفو ، وفعفا عنه وأعاده إلى مركزه ، ومرة وجهه إلى كابل على رأس جيش من الراجبوت ، وفجأة علم الملك أنه جاء من كابل مع جيشه دون إذنه ، وأنه حارب أميراً من أمراء السند حين اعترض عليه وقتله ، فغضب الملك عليه لكل هذا ، وحين وصل بجيشه إلى دلهي أمر ببقائه خارجها ، وحجزه مع أهله وأولاده هناك .

ولكن بعض الجند العائدين إلى راجبوتانا استطاعوا أن يأخذوا معهم أحد أولاد « جسونت » خفية ، حيث وصل إلى « رانا»(1)أودى بور» وقص عليه قصة حجز « جسونت » وأولاده ، وكان هذا الرانا مع راجا جوديبور الراجبوتي أيضاً يتكاسلان ويتلاعبان في أداء الجزية ، ويعاونان الخارجين على الملك ، فرأى الملك بوادر الفتنة في هذا ، وذهب بنفسه إلى « أجمير » ثم أرسل إليهم إنذاراً بسرعة أداء الجزية والإمتناع عن مساعدة الخارجين ، وأرسل جنوده سريعاً إلى هناك ، فاضطروا إلى طلب العفو ، وتعهدوا بعدم حماية ابن « جسونت سنك » ، ومكث الملك في هذه المهمة شهوراً ورجع سنة 1088 هـ ـ 1688 م ، ولكن لم

---

(1) لقب مثل (راجا) لكنه أعلى منه .

يلبث هؤلاء أن نقضوا عهدهم ، وأعلنوا الثورة جهراً على الملك ، فرجع سريعاً إلى « أجمير » بجيشه ، وعين ابنه « محمد أكبر » ومعه « تهور خان » للقيادة ، وأمرهما بالذهاب لتأديب العصاة ، في الوقت الذي أمر فيه والي الدكن ووالي كجرات بالهجوم من ناحيتهم على الراجبوت ، فاضطر الرانا للفرار ، إلى الجبال بجيشه الذي اتحد مع جيش جوديبور ، فحاصرتهم جنود الملك ، وخربوا الأراضي الخصبة حولهم حتى لاتصلهم مؤونة وهنا لجأ الثائرون إلى الحيلة ، وأخذوا يغرون محمد أكبر ومحمد معظم ابني الملك ، ويستميلونهما ويمنونهما حتى انضم إليهم محمد أكبر وخان أباه ، وأعلن أنه الملك ، وبدأ في الزحف بجنوده ومعه الراجبوت إلى أبيه ، ولكن أمراء جنده حينما قاربوا مكان الملك أخذوا يفرون إليه واحداً بعد الآخر ، وعلى رأسهم « تهور خان » ، ففترت حماسة الجند وانفضوا من حوله وتركوه ، فأسقط في يده وسارع فالتجأ إلى المراهتا في الجنوب(1) . أما الراجبوت فلم يجدوا بداً من التسليم والخضوع ، حتى رانا أوديبور استشفع بمحمد معظم ابن الملك ، فعفا عنه وقربه إليه ، وأعطى له منصباً في حاشيته ، وبقي كذلك حتى مات ، فخلع الملك على ابنه « جي سنك » وأخويه الخلع ، وأعطاهم المناصب العالية ، فتفانوا في خدمته والإخلاص له حتى مماتهم ، وبهذا انتهت فتنة الراجبوت سنة 1090 هـ ـ 1679 ، وتفرغ الملك لعدو آخر ذي بأس وشدة ، أخذ يقلق الدولة في الجنوب ويغير على المسلمين في الدكن وهو سنبهاجي بن سيواجي المراهتي .

---

(1) بعد ذلك فر إلى إيران وانتهى أمره سنة 1681

حروب المراهتا :

المراهتا قوم يمتازون في الهند من قديم بلغتهم وحضارتهم الخاصة ويسكنون في شمال بومباي وجنوبها ، ويشتهرون بشدة بأسهم مثل الراجبوت ، وهم جنس من الأجناس المتعددة التي تسكن الهند[1] ، يبدأ حديثنا عنهم هنا من عهد سيواجي أو سيفاجي أو سهواجي كما ينطق أحياناً وهو والد سنبهاجي .

بدأ سيفاجي حياته في قرية صغيرة ، ثم التحق بجنود عنبر الحبشي الذي سبق الحديث عنه حينما تحدثنا عن أحمد نكر والمغول ، وامتاز بشجاعته ، فأخذ يتدرج في مناصب الجيش حتى احتل مكاناً رفيعاً ولقي إعزازاً وتكريماً ، وكان المراهتا بحكم وجودهم في مملكتي أحمد نكر وبيجابور يقاتلون المغول في صف هاتين الدولتين ، وأخذ سيفاجي يقوم بحملاته لحسابه هو لا لحساب هاتين الدولتين . وحينما رحل أورنكزيب من الدكن تاركاً حصار بيجابور سنة 1065 هـ ـ 1656 م ، وأسرع إلى أكرا ، ودارت الحرب بينه وبين إخوته من أجل الملك انتهز سيفاجي الفرصة . وأخذ يستعد ويهجم على أماكن متعددة ، ويوسع ولايته على

---

(1) يشتق اسم المراهتا من كلمة « مهارا شترا » التي تعني « المملكة الكبرى » فهذا الإسم والعرق الذي يدل عليه قديمان في الهند إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نعين بالضبط حدود مهارا شترا القديمة ولا أصل الشعب الذي كان يسكنها ، ففي القرن السابع عشر فقط ظهر المراهتا على مسرح التاريخ فمثلوا دوراً مهماً ، وفتحوا قسماً كبيراً من الهند ، وأقاموا دولة أعلية ، وعددهم الآن (في القرن التاسع عشر) عشرة ملايين ، ويعتنقون الديانة البرهمية (حضارة الهند ص 147) وهم الآن يمثلون الأغلبية في ولاية « بومباي » .

حساب المسلمين سواء في ذلك المغول أم بيجابور ، فأرسل اسكندرشاه ملك بيجابور جيشاً بقيادة أفضل خان لتأديبه سنة 1067 هـ ـ 1657 م ، ولم يكن من القوة بحيث يستطيع مجابهة جيش بيجابور ، فاعتمد على الحيلة والغدر ، وظلت الدولة مشغولة به عدة سنين حتى تم الصلح بينه وبينها .

وحينئذ اتجه للإغارة على أملاك المغول ، فهجم على « أورنك أباد » سنة 1072 هـ ـ 1662 م ، ونهب عدة أمكنة ، فأرسل له أورنكزيب أحد قواده على رأس جيش استطاع أن يأخذ « بونا » عاصمة سيفاجي الذي لاذ بالجبال ، ولم يستطع مجابهة المغول ، ولكن ساعده الحظ حين نقل الملك قائده إلى بنكال ، وعين مكانه ابنه « محمد معظم » ، فاستطاع أن يعود ويقوى نفسه حتى ضرب النقود بإسمه وكانت هذه من سمات الإستقلال ـ وزاد على ذلك فأخذ يهاجم قوافل الحجاج في « سورت » حيث كانوا يبحرون منها للحجاز قبل أن تنشأ ميناء بومباي ، واستفحل شره ، وأخذ يهدد حركة الملاحة على الشواطىء ، فأرسل اليه الملك جيشاً كبيراً استولى على « بونا » مرة ثانية سنة 1075 هـ ـ 1665 م ، وأخذ يتعقبه حتى حاصره ، واضطره للتسليم ، وشتت المراهتا وأذلهم ، وتقدم « سيفاجي » خاضعاً للقائد « جي سنك » ، ثم عفا عنه الملك وأحسن إليه ، وعين ابنه « سنبهاجي » في إحدى الوظائف الكبيرة تكريماً له ، ولما توجه الملك إلى « بيجابور » سار سيفاجي في ركابه وعاونه ، فازداد الملك رضا عنه ، وسلمه وثيقة يسجل فيها هذا الرضا .

وفي سنة 1076 هـ ـ 1666 م ، توجه إلى آكرا للإشتراك في إحدى الحفلات الملكية حاملاً معه الهدايا للملك ، فقوبل مقابلة كريمة ،

وأعطاه الملك منصباً كبيراً ، لكنه استصغره وفر راجعاً إلى الدكن ، وهناك استعان بملك كولكنده « أبي الحسن تانا شاه »(1) ، فأمده بالسلاح الذي استعمله في الهجوم على بيجابور وأملاك المغول معاً ، وكان جيش المغول في ذلك الوقت مشغولاً بحصار بيجابور ، فأتيحت له الفرصة كي يستعيد أملاكه التي اضطر من قبل للتنازل عنها للمغول ، ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى الصلح وطلب العفو من « محمد معظم » فعفا عنه ، وأقطعه بعض الأراضي في « برار » فاستقر بها ، وأخذ ينظم إقطاعيته الصغيرة بما استفاده من أنظمة المغول ، فقوى جيشه وأخذ يعتدي على كولكنده ، كما أعد أسطولاً نازل به الغربيين الذين جاءوا الهند ينازعون أبناءها السيطرة عليها ، واستقر كذلك حتى توفي سنة 1090 هـ ـ 1679 م وترك رياسة قوية للمراهتا في الجنوب خلفه عليها ابنه سنبهاجي .

ويذكر المؤرخون أن سيواجي لم يكن في حروبه مدفوعاً بعامل التعصب الديني ، بل بالعوامل السياسية ، ولذا كنا نراه يتفق مع المسلمين أحياناً ، ويحارب في صفوفهم ، وكان يحترم المصحف ويعظم المساجد ـ هكذا يذكر المؤرخ الهندي سيد هاشمي ـ وقد قيل : لي إن

---

(1) يعرف بأبي الحسن تانا شاه الحيدر أبادي لأن حيدر أباد كانت عاصمة له ، وكان حصن كولكنده قريباً منها ، وكان شيعياً تولى الحكم سنة 1083 هـ ـ 1673 م ،وترك الحكم في يد المندوس بينما كان منهمكاً في ملذاته فعاثوا في الدولة الفساد . ولد في حيدر أباد وتعلم علوم عصره وتصوف وسطع نجمه حين قربه الملك « عبد الله قطب شاه » وزوجه بابنته ، ثم اعتلى العرش بعد وفاة صهره ، وكان عالماً متبحراً ، قبض عليه أورنجزيب في قلعة « دولت أباد » وظل بها حتى مات ، وانقرضت الدولة بموته في ربيع الأول سنة 1111 هـ ـ 1699 م .

الهندوس يعتبرون سيفاجي من كبار المجاهدين ويحتفظون بصورة في بيوتهم تكريماً لذكراه(1) وقد أقامت له الحكومة الهندية أخيراً تمثالاً باعتباره من الأبطال الوطنيين .

سنبهاجي

لم يكن سنبهاجي منذ صغره مثل أبيه ، بل كان نزاعاً للشر والظلم للملسمين والهندوس على السواء ، حتى عزره أبوه كثيراً لسوء سلوكه ، وكان أبوه يتحفظ من الهجوم على المدن الهامة للمسلمين ، لكن هذا بدأ فأغار على « برهانبور » وسلب ونهب ، فاستغاث الأشراف وغيرهم بالملك ، وكان في ذلك الوقت قد فرغ من حربه مع الراجبوت واستقر له الأمر كما قدمنا ، فتوجه بنفسه على رأس جيش عظيم إلى الدكن ، ليقضي على هذا المشاغب . ويُصفي حسابه معه ومع الدولتين الاسلاميتين بيجابور وكولكنده .

أما سنبهاجي فلم يقو على مواجهة جيش الملك ، وداخله الرعب حين توجه الملك بنفسه للجنوب ، فانكمش وانصرف إلى لهوه وترفه ، وتقدم المغول فأخذوا بعض مقاطعاته التي ورثها من أبيه ، ثم زحف

---

(1) يقول عنه جوستاف لوبون في كتابه حضارة الهند ص148 . والأفاق سيواجي هو الذي أسس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولة الأمر أمة محاربة مرهوبة في القرن السابع عشر ، وهو الذي ألف عصابات ذات بأس شديد فسارت في الدكن وألقت الرعب في المدن حتى هدمت الدولة المغولية .

وقد مررت ببلدة تسمى OOSTY في ولاية « اندرابرديش » شمال مدراس في 3/12/ 1957 وقال لي مولانا الدكتور عبد الحق مدراسي أنها كانت مركز سيواجي وله فيها قلعة ظلت حتى هدمها السلطان « حيدر علي » حين استولى عليها من المراهتا .

جيش مغولي آخر بقيادة « مقرب خان » واستطاع القبض عليه ، وسيق مقيداً على فيل يشاهده الناس ويشمتون فيه ؛ لما أصابهم منه من ظلم وعدوان ، وفي مجلس الملك أساء وزيره الذي كان معه إلى المسلمين ، وأخذ يهاجم مما جعل الملك يغضب ويعاجلهما بالقتل ، لكنه في نفس الوقت احتضن ابنه « ساغو » ، ورباه وقربه إليه ؛ مما جعله دائماً يذكر هذا العطف بكل إخلاص ووفاء حتى مات .

لكن الأمر مع ذلك لم ينته ؛ فقد قام «رام راجا» أخو سنبهاجي خلفا له ، واعتمد على الإغارات والسلب والنهب هنا وهناك ، فتعقبته جيوش الملك بقيادة « سردار ذي الفقار خان » حتى اضطرته للفرار إلى « برار » سنة 1109 هـ ـ 1698 م ، وانتهى أمره ، وتفرق أمر المراهتة ، لكنهم كانوا لا يزالون يغيرون ويلجأون للجبال في كوكن وغيرها ، وكان الملك قد تجاوز سنه الثمانين ، ومع ذلك صمم على قطع دابر هؤلاء وإخمادهم ، فظل في الدكن عدة سنوات حتى قضى على كل حصن لهم ، وخضد شوكتهم تماماً وأقر الأمر في الجنوب كله ، وكان ذلك سنة 1116 هـ ـ 1705 م . لكن مما لاشك فيه أن القوة الغلابة هي التي أسكتتهم ، ومثل هؤلاء ينتهزون أول فرصة لضعف المملكة ، ويهبون للهجوم عليها والإستقلال عنها .

فلنترك هؤلاء إلى حيث انتهى أمرهم ، ولنعد إلى أمر بيجابور وكولكنده .

الإستيلاء على مملكتي بيجابور وكولكنده :

كانت في الجنوب ـ كما ذكرنا من قبل ـ خمس دول إسلامية ، قامت على أنقاض الدولة البهمنية ، وقد أخذ المغول يقضون عليها الواحدة بعد الأخرى ويضمونها إلى ملكهم ، ولكن بقيت دولتان تتمتعان باستقلالهما ، وفي عهد شاهجهان هاجمهما ابنه أورنكزيب ، وأرغمهما على تأدية الخراج ، وعدم معاونة الخارجين على سلطان المغول في الجنوب ، ولكنهما لم يوفيا بعهدهما ، فتباطآ في أداء الخراج ، وأخذا يعاونان سيفاجي ثم سنبهاجي وغيرهما على المغول فكانا مع المراهتة جرحاً كبيراً في جسم الدولة يحتاج إلى علاج حاسم وسريع ، ولذلك سافر الملك للجنوب بعد أن انتهى من أمر الراجبوت ـ كما قلنا من قبل ـ وأخذ يعالج هذه الأمور جميعها ، وقد ذكرنا أمر المراهتة ونهايتهم ، وبقي أن نذكر أمر هاتين الدولتين .

حينما ذهب الملك للجنوب أخذ يراسلهما بشأن الخراج ، وإعانتهما لأعدائه وتواطئهم مع الهندوس ضده ، وأرسل ابنه « محمد معظم » بجيش صغير إلى « بيجابور » لكنه لم يحرز نجاحاً ، فأرسل له مدداً آخر بقيادة « غازي خان » ، فالتقى بجنود بيجابور في « إندي » وانتصر عليها وزحف إلى العاصمة وحاصرها سنة 1094 هـ ـ 1683 م ، وطالت المحاصرة حتى وقع الخلاف بين قواد المغول ؛ بسبب ما علموه من تآمر « معظم » مع البيجابوريين ضد أبيه ، وتعاونه معهم سراً ضد القواد الذين معه ، حقدا عليهم ، فاضطر الملك للذهاب إلى هناك ، والإشراف على الحرب بنفسه ، مما أرغم الملك إسكندر شاه على التسليم

في ذي القعدة سنة 1096 هـ ـ 1685 م وأصبحت بيجابـور من أمـلاك المغول ، وقد أحاط أورنكزيب الملك اسكندر شاه وحاشيته بكل أنواع التكريم وأعطاهم الإقطاعيات الواسعة .

أما كولكنده فقد كانت أشد عداوة للمغـول من بيجابـور ، كان ملوكها من الشيعة ، وقد سبق أن أجبرهـم شاهجهان على التعهد بدفع الخراج ، وعدم سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم ، وعلى ذكر اسمه في الخطبة بدل اسم شاه إيران ، ولكن ملوكها لـم يخلصوا في تعهدهم ، لا سيما « أبو الحسن تاناشاه » الذي تأخر في دفع الخراج ، وأمد سيفاجي بالسلاح ، وعاونه ضد المغول ، وأكثر من ذلك ، كان قد أعد جيشـاً كبيراً لمساعدة بيجابور حين حاصرها الملك ، وزحف جيشـه فعـلاً إلى هناك في الوقت الذي كانـت بيجابـور قد انتهـت ، وشرع المغـول في الزحف إليه لتصفية الحساب معه هو الآخر .

كان أبو الحسن شاه منصرفاً إلى لهوه ، تاركاً أمور الحكم كلها في يد وزيره الهندوسي « مادنا بانديت » وقد نصحـه كثـير من الأمـراء بعـدم معاداة المغول ، وبوجـوب الوفـاء لهـم بالتزاماتـه ، لكنـه لـم يستمـع لنصحهـم واستمر في عناده .

كان جيش المغول الزاحف بقيادة « محمد معظم » سنة 1096 هـ ـ 1685 م وكان في حاشيته وأمراء جنده كثير من الإيرانيين الشيعة الذين يتلاقى هواهم مع أبي الحسن ، أو على الأقل يعطفون عليه لاتفاقهـم جميعاً في المذهب ، وكان معظم نفسه متشبعـاً من هؤلاء بالعـطف على

الشيعة وعلى أبي الحسن بنوع خاص ، وقد أداهم ذلك إلى أن يرسلوا لأبي الحسن ببعض شروط كانت خفيفة ومقبولة ، ولكن روحه العدائية جعلته يرفضها ويخرج بجيشه للحرب ، فلم يستطع أكثر الناس عطفاً عليه أن يقف بجواره ، فوقعت الحرب وانتصر المغول ، ودخلوا بلدة « حيدر أباد » عاصمته فالتجأ أبو الحسن إلى حصن « كولكنده » قريباً منها ، ثم اضطر أخيراً إلى التسليم بالشروط المفروضة عليه ، ومنها حبس « مادناباناديت » رئيس وزرائه ، وأداء الخراج ، وتسليم الأرض التي أخذها من المغول من قبل ، وكانت شروطاً خفيفة بتأثير معظم الايرانيين الذين معه أيضاً ، لكن أورنكزيب رضي بها على مافيها . وانتهى أمر « مادنا » بأن قتله بعض الخدم تخلصاً منه . أما أبو الحسن فقد عاوده داؤه القديم ، ولم يوف بالشروط واستعد للحرب ، فارتحل الملك إلى « حيدر أباد » وأعاد حصار حصن كولكندة ـ وكان منيعاً ـ فطال الحصار، واكتشف الملك أن ابنه «معظم» والايرانيين معه يتآمرون مع أبي الحسن على سلامته ، فحبسه مع من معه ، وثبت مع جيشه برغم المطر وقلة المؤونة حتى بدأ التفرق في صفوف المحاصرين ، وتقدم أحد قواد أبي الحسن ، وفتح باب القلعة فدخلها المغول ، واستولوا عليها وعلى ما فيها من أموال وجواهر واعتقلوا أبا الحسن سنة 1098 هـ ـ 1687 م بعد ثمانية أشهر من الحصار ، وبذلك انتهت كولكنده المستقلة ، وأصبحت هي الأخرى ضمن أملاك أورنكزيب ، ولم يبق في القارة الهندية كلها خارجاً عن أملاكه إلا المملكة الهندوسية في الطرف الجنوبي للهند « فيجابانكر » ، فاتسعت مملكته اتساعاً لم يشهده ملك من قبله أو من بعده ، حيث ضمت الهند وآسام وأراكان في بورما ،

وكذلك أفغانستان . وكانت تلك هي الذروة التي وصل إليها ملك المغول .

وسبق أن ذكرنا أن جيش الملك ظل معنياً بعد ذلك بالقضاء على الجيوب التي كان يؤلفها المراهتا في جسم الدولة حتى انتهى من أمرهم تماماً سنة 1116 هـ ـ 1705 م ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلاً ؛ فقد توفي في « أحمد نكر » بالجنوب في 28 ذي القعدة سنة 1118 هـ ـ 20 فبراير سنة 1707 م بعد أن حكم 52 سنة ، وعمره نحو تسعين سنة ، ودفن في « أورنك أباد » ومازال قبره هناك يزار ويتبرك به .

وقد رأينا كيف قضى هذا الأمبراطور حياته محارباً يتخذ من ميادين القتال سكنه الدائم ، وكأنما خلق هو لحياة النضال ، لا لحياة القصور ، وما فيها من متاع . لم يمنعه من ذلك عمره الذي بلغ التسعين ، ومات وهو في ميادين القتال بعيداً عن عاصمة ملكه « دهلي » . . لقد كان أعجوبة من أعاجيب الزمان في مختلف نواحيه .

أورنكزيب في نظر التاريخ

ينظر المسلمون في الهند إلى أورنكزيب نظرتهم إلى أولياء الله الصالحين ، ولم تستقر هذه الفكرة في أذهان المسلمين على مر القرون عبثاً ؛ فإن ما عرف عنه من تدينه وورعه وزهده وتمسكه بتعاليم الشريعة يرتفع به إلى هذا المقام بلا شك ، وهذا هو الذي دفع المؤرخين الهندوس والأوربيين إلى التهجم عليه ، وتشويه سمعته ورميه بالتعصب ، ومشى معهم في هذا الموكب بعض المؤرخين المسلمين من الشيعة ، لأنه قضى

على ملك الشيعة في الجنوب فأصبح مذنباً في نظرهم كذلك ومتعصباً .

ولا شك أن كلمة « متعصب » هذه كثيراً ما سمعناها من الأوربيين ، يرمون بها كل مسلم عامل بتعاليم دينه السمحة التي تكره التعصب وظلم الغير مهما كان دينه ، وهي كلمة تجري كثيراً على لسانهم ، يخوفون بها المسلمين الذين ضعفوا أمام هجمات الغرب الحارة والباردة ، حتى أصبح من السهل على المسلم الضعيف أن يتنازل عن كثير من تعاليم دينه وشعائر عقيدته في سبيل الا يرميه هؤلاء بالتعصب ، وهم في رميهم المسلمين المتمسكين بدينهم بهذه التهمة متلبسون بها ؛ لأنهم ما دفعهم على هذا إلا تعصبهم ضد المسلمين ، وحقدهم على كل مسلم صحيح العقيدة سليم العمل بها ، ولذا وجدناهم يؤلفون موكباً يزفون فيه « أكبر » الذي خرج على دينه ، وتاه بين الأديان ، وسموه متسامحاً ، فأصبحت كلمة التسامح عندهم تساوي تنازل المرء عن عقيدته ، وتلاعبه بما تفرضه عليه من واجبات ، ونحن لا نزال نرى الآن كلمة « تعصب » هذه يرمي بها ساسة الغرب وكتابه وصحافته كل مسلم مخلص لوطنه ودينه ، وكل جماعة إسلامية تحاول إعادة المسلمين إلى تعاليم دينهم ، فإذا نحن قرأنا في كتب التاريخ وصف أورنكزيب بالتعصب فنحن ندرك تماماً معنى هذه الكلمة ونقرأها على أنها أكرم وصف لهذا الملك ، راجين أن يكون كل ملوك المسلمين ورؤسائهم على نسق أورنكزيب فهماً لدينهم ، وعملاً بتعاليمه السمحة ، التي يلقى المخالفون لها في ظلها كل أمن ودعة واستقرار ، ما داموا لا يعتدون عليها ولا على معتنقيها . لقد أراد أورنكزيب أن ينفذ الإسلام في ملكه ، وهذا ليس عيباً يعاب عليه ، ولم تكن تعاليم الإسلام في يوم من

الأيام ظالمة أو متعنتة ؛ فإن الكثيرين من المسلمين دخلوا الإسلام بعد أن أحسوا حسن معاملته ، وحرصه على إقامة العدل والحرية بينهم ، وإن المنصفين لا يمكنهم أن يجدوا في أعمال أورنكزيب انحرافاً أو إكراهاً لأحد على اعتناق الإسلام ، أو تعصباً دينياً حمله على ظلم غير المسلمين .

فإذا كان قد حارب الراجبوت والمراهتا وأخضعهم فقد حارب مملكتي بيجابور وكولكندة المسلمتين وأخضعهما ، بل حارب إخوته من أجل استقرار الحكم له . ومن المقطوع به تاريخياً أنه كان يحسن لهؤلاء بعد أن يستسلموا له ، ويغدق عليهم ويعطيهم المناصب ، وكثيراً ما كانت تتكرر منهم الإساءة ونقض العهد ، ولكنهم كانوا يلقون منه صدراً رحباً ، واستعداداً للعفو في كل مرة . وما قتل سنبهاجي ووزيره إلا لما بدا من الوزير من تهجم على الإسلام والمسلمين في مجلس الملك حين أتى بهما مقيدين ، وما كان لتبجح المغرورين إلا السيف ، ومع ذلك احتضن الملك ابنه « ساغو » . وأغدق عليه النعم التي ظل يذكرها ويفي بها حتى مات .

ولقد كان كثير من قواده من الراجبوت ، وكان يستعين بالمراهتا ، وكذلك جميع الهندوس . فالأمر إذن لم يكن أمر دين يتعصب له تعصباً أعمى ، وإنما كان أمر حكم يجب أن يستقر ، وسياسة يجب أن تنفذ ، ولو كان متعصباً لما سلم قيادة جيوشه لقواد من الهندوس ، ولما وضع في يدهم أمور الناس ، ولو كان متعصباً يهدم المعابد بتعصبه لما بقيت في الهند على الأقل هذه المعابد الكبيرة القديمة التي تراها الآن في دلهي وأكرا ومترا وأورنك أباد وغيرها من المدن الكبيرة في الهند ، حقيقة إنه هدم بعض

المعابد ، لكن ذلك كان لضرورة حربية أو وقتية . ولم يكن لسياسة مرسومة في الهدم ، ومن المعلوم كذلك أنه أقام وسمح بإقامة بعض المعابد ، فلا يتصور إذن أن يكون التعصب الأعمى هو الذي دفعه إلى هدم بعض المعابد(1) .

وحين فرض الجزية لم يكن هدفه الإذلال لبعض رعاياه ، بل كان يرمي إلى تنفيذ جزئية من التعاليم الإسلامية . والجزية ليست إلا ما لا يؤديه غير المسلمين للدولة نظير ما يؤديه المسلمون من واجبات الدولة خاصة بهم ، كالزكاة والجهاد ، لكي تقوم بواجباتها نحو الشعب من حفظ الأمن وتنفيذ المشروعات العامة ، وليس من العدل أن ينفرد المسلمون بأداء هذا الواجب للدولة دون أن يفرض نظيره على غيرهم ، وفي الوقت الذي فرض عليهم فيه الجزية أعفاهم من بعض الضرائب ، لأنه وجدها مخالفة لتعاليم الإسلام ، فلم يكن الغرض تعصباً أو أخذ مال وكفى ، ولكن كان الغرض صبغ دولته بالصيغة الإسلامية التي تحترم حقوق الآخرين وحرياتهم في حدود القانون .

جاء في كتاب « باكستان ماضيها وحاضرها »(2) عن « أرنكزيب » كان من أهدافه أن يجعل من بلاد الهند وحدة إسلامية ، فتخلى عن

---

(1) ملخصاً من تاريخ الهند لسيد هاشمي ص259 ومن كتاب الأستاذ حبيب أحمد . وقد جاء في نزهة الخواطر جـ6 ص130 في بيان مآثره « من ذلك أنه وظف خلقاً كثيراً من العلماء والمشايخ ليشتغلوا بالعلم والعبادة متنظمين فارغي القلوب عن كل هم ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند ، وتوجد مناشيره عند أحبار الهند وفي « بنارس » وغيرها حتى اليوم . ا هـ

(2) من مجموعة اخترنا لك ص16 .

سياسة جده ، وفرض الجزية على غير المسلمين من الهندوس ، وليس معنى هذا أنه كان متعصباً ، دينياً ، بل كان يريد دولة إسلامية لحماً ودماً ، تتبع التعاليم الإسلامية في العدالة والمساواة دون تعصب يضر بمصلحة غير المسلمين ، فحين أشير عليه بفصل الموظفين الذين لا يدينون بدين الدولة من المناصب العامة كتب يقول : « إن الدين لا علاقة له بالمسائل العلمانية ، وهذه المسائل التي نحن بصددها لا مجال فيها للتعصب » .

فالتعصب الذي يدفع المسلم إلى الظلم لم يكن موجوداً قطعاً عند عالمكير ، ولكن التعصب بمعنى الإخلاص للدين الذي يحرم الظلم والذي لا يؤدي إليه كان مستولياً عليه حقاً .

ومما لا شك فيه أن فرض الجزية قد خلق له متاعب شتى ، كان في غنى عنها لو ترك الأمور تجري كما هي منذ عهد أكبر ، ومن هذه الناحية يمكن أن ينقده المؤرخ كرجل سياسي كان عليه أن يغلب الحكمة السياسية على بعض تعاليم دينه ، ولكن عالمكير لم يكن قطعاً من هذا الطراز ، بل كان الإخلاص للدين مستولياً عليه ، فجعل الحكم وسيلة لخدمة الدين ، ولم يجعل الدين مسخراً لأهواء الحكم . وكفاه بذلك - في نظر كل منصف - فخراً وشرفاً .

ومن الأشياء التي يتهمه بها مؤرخو الفرنجة « أنه بدأ يخبط الأهالي بعصا عسفه ويفحش في الجبايات والمكوس »[1] .

---

(1) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص311

ونحن نضع بجوار هذا الإدعاء ملخص ما جاء في كتاب المسألة الهندية[1] « ولما كانت المجاعة وضعف الرياح الموسمية قد أجدبت البلاد فقد ألغى ثماني ضرائب ، وإن كان حكام الأقاليم قد استمروا في تحصيلها لأنفسهم ليجابهوا بها نفقاتهم الكثيرة . إلا أن أورنكزيب لم يفتأ يصدر التعليمات إلى الموظفين لتخفيف الأعباء عن الأهلين ، فهو إذن كان يحمي الشعب من عسف الموظفين .

ويقول المؤرخ الهندي الكبير مولانا شبلي النعماني في كتابه عن أورنكزيب بالأوردية ما ترجمته : « كان في سابق عهده يؤخذ كثير من المحاصيل التي لا أصل لها في الدين فأبطلها ، وجعل أساس التحصيل متمشياً مع تعليم الشريعة ، ولم تخسر الدولة بذلك شيئاً » وجاء في نزهة الخواطر أنه « أبطل ثمانين نوعاً من المكوس سنة1069 هـ وكانت تحصل له من تلك الأبواب ثلاثون لكا (ثلاثة ملايين) كل سنة » .

ولا شك أن هذا يبعد الإتهام المذكور عن أورنكزيب . لا سيما إذا لاحظنا ما عرف عنه من تورع عن مال الرعية ، وحرص زائد على إنصافها كما سيأتي تفصيله . فلا يعقل أن يتورع الملك عن الإنفاق من بيت المال ، ويقوم بعمل الطواقي وبيعها والأكل من ثمنها ، لا يعقل أن مثل هذا الملك يرضى بأي ظلم يقع على رعيته ، وقد علم مرة أن أحد عماله حصلوا بعض الأموال من رعاياه بعد أن ألغاها ، فغضب

---

(1) للاستاذ عبد الله حسين ص187 نقلاً عن كتاب حكم المغول في الهند ص212 وكتاب « من أكبر إلى أورنجزيب » ص271 .

وعاقبه ، ورد الأموال إلى أهلها . فهل مثل هذا يقال عنه إنه كان ظالماً متعسفاً في تحصيل الضرائب من رعاياه ؟!!

ومن الأشياء التي أخذها عليه المؤرخون أنه قضى على المملكتين الإسلاميتين : بيجابور وكولكنده ، وكانتا سداً بينه وبين المملكة الهندوسية في الطرف الجنوبي « فيجايانكر » مما جعل حدوده تتصل بها ، وتصبح أداة تهديد للدولة المغولية ، ثم يزيدون بأنه ما كان يصح أن يحارب دولتين إسلاميتين في سبيل أن يضمهما إلى ملكه .

ولعل القارىء حين يرجع إلى ظروف الحرب بين هاتين الدولتين وبين أورنكزيب يعرف إلى أي حد كان معذوراً في هجومه عليهما ؛ فلقد اشتركتا مع الهندوس المراهتا في الهجوم على أراضيه، وقد كانت قبل هاتين الدولتين دول إسلامية ضمت إلى المغول قبل عهد عالمكير منذ عهد أكبر نفسه مثل كجرات وأحمد نكر ، وبرار وخانديس وغيرها ، فلم نسمع صوتاً من المعجبين بأكبر أو من بعده يعترض عليهم لهذا العمل كما يعترضون على عالمكير !! وأعتقد أنه لو ظل المغول أقوياء لما كان لهذا الإعتراض وجود ، وعالمكير القوي لا يسأل عن ضعف خلفائه ، وتفريطهم في صيانة الملك الواسع الذي تركه لهم . .

حقاً . ما كان يصح أن تراق الدماء بين دولتين إسلاميتين لا في الهند ولا في غيرها ، لا في عهده ولا في عهد غيره ، ولكنه لا يسأل وحده عن الأسباب التي أدت إلى هذه الحرب ، وقد ذكرنا أسبابها وظروفها سابقاً . مع أنها كانت امتداداً لحروب من عهد أسلافه .

وقد ذكر مولانا شبلي النعماني في تاريخه عن أورنكزيب تفردات انفرد بها بين الملوك لا بأس أن نذكر طرفاً منها في اختصار :

فمنها : تنظيماته المالية والإقتصادية فيما يختص بالخراج والضرائب هادفاً منها إلى تحقيق العدالة والرحمة .

ومنها : أنه عين في كل ولاية نائباً له وأعلن في الناس : من كان له حق على السلطان فليرفعه إلى النائب ، وأمر النائب أن يؤدي كل ما يثبت على السلطان (أي الحكومة) من حقوق . .

ومنها : أنه خصص موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ، ويرفعها إليه ، فكان بذلك يقف على أحوال رعاياه أولاً بأول ، وكان لا يكتفي بذلك ، بل يختبره ويفتش عنه حتى لا يخدعه الموظفون ، وكان يعلن للناس دائماً أنه ينصفهم ولو من نفسه ، وأنهم جميعاً عنده سواء .

ومنها : أنه أبطل عادة تقديم الهدايا إلى الملوك ، كما كان يفعل من قبل ، لا سيما من الأمراء وحكام الولايات الذين كانوا يشتطون في تعويض ذلك من الرعية . .

ومنها : أنه كان يجلس للناس ثلاث مرات يومياً دون حاجب حتى يستطيع كل واحد أن يصل إليه ويرفع شكواه .

وأهم من هذا كله من الناحية الإجتماعية والشعبية أنه جاء إلى الحكم والناس ينظرون إلى الملك على أنه فوق الطبيعة البشرية ، وأنه ظل الله في أرضه ، وكان الملوك يغذون هذه الفكرة ، بل يفرضونها على الشعب فرضاً ، وكان على الناس في كل صباح أن يقبلوا على القصر

لمشاهدة طلعة الملك قبل الفطور ، وكانوا في زمن أكبر يعتبرونها نوعاً من العبادة ، ويسجدون للملك وإلا عدوا خارجين عليه ، حتى أنه في عهد جهانكير سجن الشيخ أحمد سرهندي مجدد الألف الثاني كما يسمونه في الهند ؛ لأنه امتنع عن السجود للملك ـ كما سبق ذكر ذلك ـ وجاء شاهجهان فمنع هذا ، ولكن بقيت تقاليد أخرى متناهية في إذلال الشعب ، فجاء أورنكزيب وألغى كل المظاهر المنافية لروح الإسلام ، وأمر أن يحيوه فقط بتحية الإسلام « السلام عليكم » ، وقضى على الأبهة والفخامة التي كانت تحيط بالملك في قصره ، حتى المحبرة الفضة تركها ، واستعمل المحبرة الصيني ، وبلغ من حسن خلقه وتدينه أنه عفا عن بعض الذين اعتدوا عليه مرة في الطريق ، بل ورتب لهم منحة يومية ، أما الأراضي التي كانت خاصة بالملوك قبله ، يستغلونها لنفقاتهم الخاصة فقد جعل ريعها الضخم لبيت المال ، ولم يأخذ منه إلا القليل ، وعاش طول عمره عيشة الزهاد . يقول المؤرخون الأوربيون(1) : « كان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشري ، فاطماً للشهوات ، يصوم ويتقشف ويعيش عيشة الزهاد ، ويراقب آخرته » ، ولعل سفك الدماء الذي يشير اليه المؤرخون الاوروبيون هو ما حدث بينه وبين إخوته حين كانوا يتنافسون على الحكم ، ولا شك أن الحوادث التي وقعت إبان هذا التنافس لا يمكن أن نعتمد عليها بصورة عامة لتكوين حكم تاريخي على الرجل ، بل الذي يصح أن نعتمد عليه حقاً في هذا هو تصرفه بعد أن استقر له الأمر ، كما سبق أن أشرنا الى هذا .

---

(1) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص311 .

وأما الحروب فكان فيها مثل غيره . على أن الذي يراقب آخرته ـ كما يقولون ـ لا يمكن أن يكون سفاكاً للدماء اللهم إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً محافظة على سمعة الحكم واستقراره . لقد طلق ملاذ الحياة فكان يكثر من الصيام ، ويصلي التراويح بالناس ، ويجعل طعامه في رمضان من خبز الذرة ، ولا ينام إلا على الأرض ، ويصنع الطواقي بنفسه ويبيعها ليأكل من ثمنها ـ والدنيا كلها بين يديه ـ كما كان يكتب المصاحف لهذا الغرض ـ وكان معروفاً بحسن الخط ـ وقد أهدى نسخة من المصحف بخطه إلى مكة المكرمة ، كما كتب ألفية ابن مالك في صباه وأرسلها إلى مكة للإنتفاع بها .

أما التعليم فقد ازدهر في عهده أيما ازدهار ، ولم يكن ذلك عجباً ، فقد كان هو عالماً محباً للعلم والعلماء ، فكثرت المدارس في عهده كثرة لم يسبق لها مثيل ، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا لدراستهم ، وأنشأ المساجد الكثيرة ورتب الأرزاق للقائمين بها ، كما أصلح الشوارع والطرق ، وأكثر من إنشاء الرباطات والحمامات والإستراحات لأبناء السبيل ، وكذلك أنشأ دوراً للعجزة والمستشفيات في أكثر البلاد . وكانت عنايته بالثقافة والآداب والتعاليم الإسلامية ، وسيرته الدينية وزهده وتقواه وتصوفه مما بعث روح الحمية الإسلامية في النفوس ، وأحيا فيها ما كاد يندرس على يد « أكبر » من قبل . .

ومما يذكر له بالخير أنه عمل على تدوين الأحكام الشرعية للعمل بموجبها ، فجمعت الفتاوى المشهورة بين العلماء بإسم الفتاوى الهندية أو العالمكيرية ، وهي فتاوى لها قيمتها العلمية بين المشتغلين بالفتوى في

العالم الإسلامي ، وقد أنفق عليها مائتي ألف من النقود المعروفة في زمنه ، وقد وضع بنفسه كتاباً في الحديث وشرحه بالفارسية جمع فيه أربعين حديثاً ، كما حفظ القرآن بعد توليته العرش(1)

ذلكم هو أورنكزيب أو عالمكير الأمبراطور الذي لم تشغله دنياه وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته ، فكان امبراطوراً لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه ، وحسن سيرته وسريرته .

خلفاء أورنكزيب

لكل شيء إذا ما تم نقصان . .

كان عهد أورنكزيب هو القمة التي ارتقى إليها سلطان المغول في الهند ، وكانت قمة شاهقة تحتاج إلى كثير من قوة الأعصاب وضبط النفس ، لكي يظل ذلك السلطان محتفظاً بتوازنه فوقها ، لكنه للأسف لم يجد ما يحتاج إليه فهوى، وأخذ يتدحرج في طريقه الى الهاوية، وكلما قطع شوطاً بهرت أنفاسه وزاد لهثه ، وتضاعفت عليه علله وجروحه ، وهو يرتطم في صخرة بعد صخرة حتى وصل إلى الهاوية ، وقد فقد كل شيء من أمارات الحياة فتلقفته الأيدي القاسية الغريبة لتلفه في كفنه ، وتضعه في قبره بعيداً عن أرضه ووطنه ـ لتبدأ هي عهداً جديداً هو عهد

---

(1) أرخ أحد الفضلاء لبدء حفظه بقوله تعالى « سنقرئك فلا تنسى » ولانتهائه من الحفظ بقوله « لوح محفوظ » وذلك جرياً على العادة التي لا تزال مشهورة في الهند من استخراج التاريخ من عبارات ذات دلالة أو اختيار أسماء تؤدي للملك :

الإستعمار الإنجليزي الثقيل . لقد حكم المغول الهند حكماً قوياً قومياً قرابة قرنين ، وكان حكماً أشبه ما يكون بالعملاق الضخم القوي ، لذلك لم يقض عليه سريعاً ، بل ظل ينتقل من ضعف إلى ضعف أشد منه ، حتى قضي عليه نهائياً في مدة قرن ونصف ، حيث ابتدأ بعد وفاة أورنكزيب ، وانتهى سنة 1274 هـ ـ 1857 م تلك كلمة إجمالية تصويرية تحتاج إلى تفصيل . فإليك هذا التفصيل :

شاه عالم بهادور شاه الأول

1118 هـ ـ 1707 م إلى 1113 هـ ـ 1711 م

هل عرفت محمد معظم بن أورنكزيب الذي ولاه أبوه قيادة جيوشه لحصار بيجابور فبدأ يتآمر معها ضد أبيه ؟! وهل عرفته هو أيضاً حين توجه بجيشه للإستيلاء على كولكنده ، فتآمر هو وبعض قواده الإيرانيين الشيعة مع ملكها ضد أبيه ، وانكشفت مؤامراتهم فحبسهم الملك جميعاً ، ثم أطلق إبنه ،وأرسله إلى شمال الهند ، وأعطاه لقب « بهادور شاه » أي الشجاع الباسل ؟!

إنه هو « بهادور شاه »(1) الملك الذي ولي الحكم بعد أبيه باعتباره ولياً للعهد ، ولعل أورنكزيب الرجل الصالح قد أصيب في أبنائه ، فقد خانه ابنه « محمد أكبر » من قبل ، وتعاون مع الراجبوت ضده ، وكان

---

(1) ولد في رجب سنة 1053 هـ ـ 1644 م في أيام جده شاهجهان ، وحفظ القرآن وقرأ العلم وتدرب على الفنون الحربية .

ذاهباً لمحاربتهم ، وكانت نهايته أن التجأ إلى المراهتا ، ثم إلى إيران حيث اختفت أخباره ، وربما كان الجرح الذي أصاب قلب الملك الوالد من هذا هو الذي جعله يعفو عن ابنه الخائن الثاني ويوليه العهد . .

ومع أن بهادور شاه كان ولياً للعهد فإن أخويه ـ محمد أعظم ، وكام بخش ـ لم يسلما له بالملك ، فلم يستقر له إلا بعد حرب عنيفة معهما ـ شأنه شأن أبيه من قبل مع إخوته ـ فقبل أن يموت أورنكزيب أوصى أن يكون ابنه محمد أعظم والياً على مالوا وكجرات وشمال الدكن ، بينما أعطى ابنه الآخر « كام بخش » الولاية على بيجابور وحيدر أباد ، على أن يخضعا لأخيهما « محمد معظم بهادور شاه » حتى يظل ملكه متماسكاً ، ولكن الأخرين لم يقنعا بهذا النصيب .

كان بهادور شاه في شمال الهند «بشاور أو كابل على خلاف بين المؤرخين » حين مات أبوه في « أحمد نكر » بجنوب الهند ، فسارع بالسفر إلى العاصمة ، وتولى أمر الملك ، وفي نفس الوقت أعلن محمد أعظم أنه ملك خلفاً لأبيه ، فكتب إليه بهادور شاه أن والده أعطاه الولاية على مالوا وكجرات وشمال الدكن . وإن كان ذلك لا يرضيه زاده حتى يرضى بدلاً من الحرب بينهما ، وكان أعظم فظاً جريئاً يحقد على بهادور شاه ، فحين وصلته رسالة أخيه قال متهكماً : كأن هذا الأبله ـ يقصد «بهادور شاه » ـ لم يقرأ قول سعدى الشيرازي الصوفي : « إن غطاء واحداً يتسع لعشرة من الفقراء ، ولكن ملكاً واسعاً لا يكفي ملكين » وتحرك بجيشه نحو الشمال ، كما تحرك بهادور شاه من أكبر أباد نحو الجنوب لمقابلته ، وفي « سراى جاجو » جنوب أكرا

بنحو 15 ميلاً التقى الجيشان ، وسالت الدماء ، وأصيب أعظم وتفرق جيشه . وكان ذلك في ربيع الأول سنة 1119 هـ - يونيو 1707 م .

ويدأ بهادور شاه بعد ذلك ينظم شؤونه فجعل أحد قواده الشيعة أميراً للأمراء بمثابة رئيس الوزراء وهو « منعم خان »(1) ولعلنا نذكر حين حملة كولكنده كيف كان بهادور يظهر الميل الكثير للشيعة ويعطف عليهم (2) ، ولذا سلم أمور الدولة لهذا القائد الشيعي ، الذي بدأ في صبغ البلاد صبغة شيعية . مما جعل أهل السنة يثورون ، وكادت تكون فتنة ، لو لا أن تداركها الملك ، وأزال ما يشكو منه السنيون . .

مع الراجبوت :

كان الراجبوت قد اضطروا للسكون والخضوع أمام قوة عالمكير ، فلما توفي وقامت الحرب بين الاخوين انتهزوا هذه الفرصة ، وتجمع راجا جوديبور مع راجا « أوديبور » وأعلنا العصيان على سلطة الملك . فذهب الملك لأجمير ، وأرسل ابنه عظيم الشأن مع منعم خان على رأس

---

(1) هو الامير منعم بن سلطان الاكبر أبادى ، تولى عدة مناصب ، وتقرب إلى « عالمجير » وتدرج في المناصب ، ثم تقرب إلى ابنه « شاه عالم بهادر شاه » هلما ، وعاونه في حروبه ضد إخوته فقربه إليه وولاه رئاسة الوزارة ، وكان شيعياً عالماً تقياً كثير العطف على الرعية توفي سنة 1122 هـ - 1710 م اهـ باختصار من نزهة الخواطر ص 375 جـ 6 .

(2) جاء في نزهة الخواطر جـ 6 ص 104 أنه كان شيعياً ، أمر أن يدخل في خطب الجمع والأعياد لفظ الوصي عند ذكر سيدنا علي رضي الله عنه ، ولما ثار العلماء والعامة اجتمع بالعلماء وأخذ يناقشهم ، دفاعاً عن تشيعه ، ولكنه اضطر أمام ثورة الشعب إلى الرجوع عن ذلك والعودة بالخطب لما كانت عليه اهـ باختصار .

جيش لإخضاعهم ، وتم لهم ذلك ، ولكن شفع لهم منعم خان فعفا عنهم ، ثم أرسل إليهم قاضي القضاة لتعيين الخراج وتحصيله ، ولكنهم عادوا بعد ذلك للثورة ، حينما كان الملك في الجنوب ، وقتلوا قائد قلعة أجمير ، فسارع الملك إليهم ، ولكنهم أسرعوا فطلبوا العفو ، فعفا عنهم أيضاً .

مع أخيه كام بخش :

وحين رجع بهادور شاه من أجمير إلى العاصمة كتب لأخيه الـذي بدت بوادر الثورة والعصيان منه في الجنوب يذكره بوصاية أبيه ، التـي يلتزمها على أن يخطب باسمه ، ويؤدي له المال كل سنة ، ولكن « كام بخش» كان متسـرعاً سيىء العمل والرأي، فرفض أن يستجيب لأخيه، فذهب إليه بهادور شاه ، ومن سوء حظ كام بخش أو قل من سوء تدبيره أن حاشيته كانت ناقمة عليه لسوء معاملته ، ولعدم دفعه رواتب الجند ، مما جعلهم يتركونه حينما علموا بتحرك بهادور شاه نحو الجنوب حتى لم يثبت معه إلا 400 أربعمائة محارب ، فكان من الطبيعي أن ينهزم ، وقد جرح هو وابنه وجيء بهما إلى الملك ، فأخذ في العناية بهما وبعلاجهما ، ولكنهما لعنادهما أصرا على رفض كل رعاية منه ، حتى ماتـا متأثـرين بجراحهما ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة 1119 هـ ـ فبراير 1708 م .

مع المراهتا :

لم يظهر من المراهتا أي عداء ظاهري في عهد بهادور شاه ويظهر أن ما أصابهم من الارهاق في عهد أبيه من ناحية ، وما تمتع به بعضهم من

عطفه الكبير من ناحية أخرى جعلهم لا يرفعون رؤوسهم بحرب . كان «ساغـو» أو « ساهـو » كما تذكره بعض الكتـب قد عاش في كنف أورنكزيب بعد أن قتل أبوه « سنبهاجي » ، وظل وفياً لنعمة الملك حتى مات ، وحين وقعت الحرب بين أبنائه : بهادور شاه وأخويه : استأذن ساغو أن يستقر في بلاده فأذن له كبير القواد « ذو الفقار خان » ، وعينه والياً على « كوكن » من قبل المغـول ، على أن يقـوم بتحصيل الخراج ويسلمه للدولة نظير نسبة يأخذها منـه ، كما تعهـد بإصلاح بعض الأراضي ، وكان هذا العمل هو اللبنة الأولى في بناء قوة المراهتا ودولتهم التي صارت أكبر خطر على دولة المغول بعد ذلك ، مما جعل المؤرخين يأخذون على بهادور شاه هذه الغلطة .

مع السيك :

أول مرة تظهر فيها هذه الطائفة على مسـرح السياسة ، وتدخل من باب التاريخ ، ولذا يناسب أن نعطي عنها فكرة ولو موجزة للقارىء .

امتاز القرن الخامس عشر بقيام طائفة من المصلحين الهندوس بعد اختلاطهم الكثير بالمسلمين ، وكان غرضهم إصلاح الهنـدوسية ومـا يخالطها من عبادة الأوثان والتفريق بـين الطبقـات ، مثـل « بابـا كبـير دامن » ، « سوامـي ولـب » « أجاريـا » ، « مهاتمـا جيتنيه » و« كرونانـك (1) NANK وهـذا الأخـير هو الـذي أسس مذهـب « السيك » .

(1) معنى « كرو » عظيم . قديس .

ولد في سنة 874 هـ ـ 1469 م بالقرب من مدينة لاهور ، وسلك طريق الصوفية ، كما يقال إنه استرشد بطريقة الصوفي الكبير « بابا فريد الدين شكر كنج » المشهور بالهند ، وقرأ القرآن وذهب إلى مكة للحج ، وكانت دعوته تقوم على التوحيد والمساواة ، وإن كان يقول بالتناسخ كالهندوس ، وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً في البنجاب وسمى أتباعه « السيك » أو السيخ أي المريدين . . وأتباعه للآن لا ينكرون استرشاده بطريقة ولى الله بابا فريد الدين ، كما لا ينكرون ذهابه لمكة ، بل سمعتهم يفخرون بذلك . والمسلمون يقولون إنه كان مسلماً حقيقة ، وأخذ يدعو إلى مذهب وسط حتى لا ينفر منه الهندوس ، ولكنه مات قبل أن يكشف لأتباعه عن حقيقته ، فبقي مذهبه مستقلاً . . ، وكانوا في مبدئهم جماعة صوفية يعبدون الله على طريقة الصوفية . وإن كان مظهر حياتهم العامة كالهندوس ، وكان شعارهم المحبة والتسامح والتطهر من الآثام ، لا يهاجمون الرسول ﷺ بل يعتبرونه مرشداً عظيماً وتوفي . . «نانك» سنة 945 هـ ـ 1538 م .

وقام بعده بالإرشاد « كروآنكد » وهو الذي أسس لغتهم المعروفة بإسم « كرونكى »(1) وتوفي سنة 960 هـ ـ 1552 م وخلفه « كرو أمر داس » وهو الذي أسس مدينة « أمرتسر » عاصمتهم الروحية في قطعة أرض أعطاها لهم الأمبراطور المسلم « أكبر » .

---

(1) وهم الآن يقومون بحركة كبيرة في البنجاب لجعل هذه اللغة لغة رسمية للمقاطعة مما أدى إلى صدام بينهم وبين الهندوس .

وخلفه صهره « كرورام داس جي » الذي توفي سنة 989 هـ ـ 1581 م . فخلفه ابنه « أرجن ديو » الذي جمع كتابهم المقدس « كرانت صاحب »(1) وفي أيامه كان حاكم البنجاب من قبل « جهانكير » هو « جندو شاه » الذي أراد أن تقوم مصاهرة بينهما . ولكنه أنكر ذلك ، فنشأت العداوة بينه وبين الحاكم ، مما جعله يتهمه بالثورة ضد الملك ويقتله سنة 1015 هـ ـ 1606 م فخلفه ابنه « هركوبند » الذي أخذ يبث في مريديه الروح العسكرية ، فبدأت الدعوة تتحول تدريجاً إلى دعوة مسلحة .

ولما مات سنة 1054 هـ ـ 1644 م خلفه « كروهر رائي » ثم « هركرشن » ، ثم « تيغ بهادور » الذي توفي سنة 1086 هـ ـ 1675 م ، وخلفه ابنه « كروكوبند سنك » الذي صرف همه في تدريب أتباعه تدريباً عسكرياً ، ومكث نحو عشرين سنة بهم بين جبال الهملايا ليعودهم حياة الخشونة والحرب ، وقد بدأ بعد ذلك يستعمل القوة الحربية ، فاستولى على البلاد الجبلية ، وسلب ونهب ما فيها ، ثم تقدم للبنجاب ينهب ويقتل ويدمر ، وكأنه يستعرض قوته الحربية ، فتصدى له حاكم البنجاب ، وظلت الحروب بينهما قرابة اثنتي عشرة سنة هلك فيها آلاف من زهرة أتباعه السيك .

ثم حل الصفاء محل الحرب ، وذهب مع « بهادور شاه » المغولي إلى الدكن ليحارب في صفه ، ولكنه قتل هناك ، وقيل إنه غرق ، فقام أحد

---

(1) جمع فيه أقوال المرشدين السابقين ، وسمعت أنه يتضمن كثيراً من معاني الآيات القرآنية .

أتباعه واتهم المسلمين بتدبير قتله ، وادعى أنه هو « كوبند سنك »نجّاه الله من تدبيرهـم ، ورجع إلى البنجاب ليبث الحقد والكراهية في نفوس أتباعه للمسلمين ، وليشن حرباً متواصلة بينه وبينهـم فهاجـم قلعـة « سرهند » بقوة عظيمـة ، وقتـل قائدهـا واستـولى عليهـا سنـة 1120 هـ ـ1708 م ، ثم سيطر على المناطق الشمالية كلها حتى امتد نفوذه قريباً من دلهي ، وقتل الآلاف من المسلمين والهندوس على السـواء ، فجرد لهم « بهادور شاه » جيشاً تحت قيادة ابنه « عظيم الشأن » واستعد له السيك بجيش عظيم ، لكنهـم انهزمـوا هزيمـة نكراء ، وطاردتهـم الجيوش الملكية ، وحاصرتهم في حصن « لوكره » واستطـاع قائدهـم « بنـدا » الذي أدعى أنه « كوبندسنك » أن يفر من الحصار ، بينما تقدم أحد أتباعه المخلصين وسلم نفسه على أنه القائد ، وبذلك أخمدت هذه الثـورة ، ورجع الملك الى « لاهور » وتوفي بعد ذلك بعدة شهور (محرم : سنة 1123 هـ ـ1711 م) .

وقد كان ما لقيه «السيك » على أيدي المسلمين في هذه الموقعة وما تلاها من التنكيل والإنتقام سبباً في ازدياد العداء وتمكنه في قلوب السيك للمسلمين ، حتى استمر العداء بينهم على مر الأيام ، برغم أنهم أقرب الطوائف بعضها لبعض من الناحية المذهبية ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح في أيام التقسيم سنة 1947 م وما حدث فيها من مذابح ، حيث كان السيك أسرع الناس إلى قتل المسلمين والمسلمات والتنكيل بهم والتمثيل بجثثهـم ، لإشباع ما في نفوسهـم من حقـد تاريخـي على المسلمين ، وقد زرت معبدهـم الكبير في دلهـي في شارع « جاندني

جوك » ، وكانوا متجمعين فيه للعبادة ، فأحاطوا بي مرحبين حينما عرفوا أنني مصري ، وسألتهم عمن يعبدون ولمن يسجدون ؟ فقالوا لله الواحد ، وكان واعظهم يعظهم ، وبعدما انتهى من وعظه أخذ يعطي كل واحد منهم شيئاً من الطعام للبركة ، وحاول أن يعطيني ، ولكني اعتذرت ، لأنهم يأخذونه في أيديهم ، وبه السمن أو الزيت الكثير ، ثم أخذوا يطلعونني على الحجرة التي كان محبوساً فيها أحد زعمائهم في أيام الملوك المسلمين .

وقد أقيم المعبد في نفس المكان منذ خمسين سنة ، وقبل أن أخرج جاءوا بعقود الورد ، ووضعوها في عنقي على طريقتهم في تكريم ضيوفهم ، وأعطوني بعض الكتيبات عن مذهبهم ، وقد زرت أيضاً معبدهم الصغير في مدينة « ديوبند » التي كنت أقيم فيها ، ورأيت كتابهم المقدس محفوظاً في مكان بالمعبد ، وحينما يحضرون للعبادة ـ وغالباً ما تكون في الصباح الباكر ـ يضعونه على منضدة وسطهم ويتعبدون ويرتلون شيئاً منه . ورأيت في جانب آخر الطبول المختلفة الأحجام مع المزامير التي يستعملونها عند تراتيلهم ، وقد تقابلت مع كثير منهم من مختلف الطبقات ، وتحدثت معهم فكانوا في غاية الرقة ، وعرفت منهم أن لهم لوازم خاصة يمتازون بها عن غيرهم ، ويعتبرونها من شعائر دينهم ، فهم يطلقون شعورهم لا يعتدون على أية شعرة في جسمهم[1] ، ولذا تجد شعور رؤوسهم طويلة يلفونها تحت عمامة

(1) والمسلمون في الهند يحافظون على إضفاء اللحى ويطولونها كذلك حتى يكاد مظهرهم يتفق مع مظهر السيك ، لولا أن المسلمين يقصون شعر الشارب ، ويهذبون لحاهم وهذا محرم عند السيك ذلك هو الفارق في المظهر ، وقد يخفى على كثير من زوار الهند .

يتميزون بها حتى الأطفال في المدارس ، وتبع ذلك ميزة ثانية هي « المشط » الذي يلازمهم دائماً لتمشيط شعورهم ، ومنها الأسورة المعدنية الخفيفة في اليد « كالغويشة » سألت أحدهم ولماذا هذه ؟ ـ وكان ضابطاً فقال : لأنها من تعاليمنا ، وتذكرني بالله . ومنها « الخنجر » فكل منهم لا بد من أن يحمل خنجراً صغيراً أم كبيراً ، ومنها اللباس تحت الملابس كما نفعل نحن عادة . وعامة أهل الهند لا يلبسونه ويكتفون بلبس السراويل الطويلة البيضاء مثل البنطلون وإن كانوا لا يثنون طرفها ، وهم يحرمون الدخان على أنفسهم ، بل ويتضايقون من رائحته ، وقد لاحظت أن بعضهم كان يترك مكانه إذا دخن أحد بجواره ، وهم شديدو التمسك بتعاليمهم ، مقبلون على التعليم أكثر من غيرهم ، وكثير منهم يفضلون العمل في الجيش ، وهم الآن يطالبون بولاية خاصة لهم واعتبار لغتهم لغة خاصة ، وإن كان عددهم قليلاً لا يصل إلى عشرة ملايين ، لكنهم نشطون ومتعاونون وأكثرهم مثقفون .

جهان دار شاه ، وفروخ سير[1]

كان عظيم الشأن إبن بهادور شاه خبيراً بشؤون الحرب والإدارة ، تربى في رعاية جده أورنكزيب ، ورافق أباه في كثير من الحروب ، وقاد بنفسه بعض الحملات التي كتب له فيها النصر، وكان من حسن حظ

---

(1) ورد ذكره في بعض الكتب التاريخية بإسم « فاروق سير » وهذا غلط لعله نشأ عن الترجمة من الإنجليزية مع عدم معرفة معنى « فروخ » بتشديد الراء وإسم فروخ كثير في الهند ومعناه هنا محمود السيرة والعقبية .

الدولة أن يتولى أمورها بعد أبيه ، لكنه أصيب في الحرب التي دارت بينه وبين اخوته من أجل العرش ؛ فقضي عليه قبل أن يستقر على العرش ، وبعد ذلك استطاع « جهان دار شاه » بمساعدة « ذي الفقار خان » أكبر القواد أن يقضي على منافسة أخويه ويتولى العرش ، وكان لاهياً عابثاً منصرفاً عن شؤون الدولة ، جعل همه أولاً القضاء على منافسيه من إخوته وأبنائهم .

في ذلك الوقت كان « فروخ سير » - أي محمود السيرة - في بيهار ، فأخذ يعمل لجمع الحكام حول أبيه « عظيم الشأن » عندما علم بوفاة جده . لكنه أتاه نبأ قتل أبيه سريعاً ، فأخذ يعمل على الإنتقام له مستعيناً بحاكم « عظيم أباد - بتنا » الشريف حسين وأخيه(1) عبد الله حاكم إله أباد ، وزحف بجيشه إلى العاصمة ، وفي الطريق تقابل الجيشان عند « كجرا » التي تقابل عندها من قبل أورنكزيب وشجاع من أجل الخلاف على العرش أيضاً ، وكان السادات من قبل يعاونون « شجاعاً » وإذا كانوا قد هزموا حينذاك فإن من جاء بعدهم استطاعوا أن يكسبوا المعركة مع « فروخ سير » ، وقد ساعدهم على ذلك الخلاف الذي دب بين صفوف الجيش الملكي حتى مزقه ، وجعل جيش « فروخ

(1) من السادات الحسينيين . وقد لعبا دوراً هاماً في التغلب على حكم المغول ، وصار الملوك دمى في أيديهما ، وكان الشريف حسين عالماً فاضلاً شجاعاً كريماً محباً للعلماء وكان أحسن من أخيه عبد الله الذي كان مع شجاعته جاهلاً مغتراً مشغولاً بالنساء تاركاً أموره إلى أحد المندوس ، واسمه الحقيقي حسن ، تقرب إلى عالمكير وإلى من جاء بعده من الملوك ، وتولى على « أجمير » ثم على « إله أباد » .

سير » يتقدم سريعاً نحو العاصمة دون مقاومة تذكر ، وهناك تقابل الجيشان مرة أخرى ، وكان يمكن لجهان دار شاه أن ينتصر بجيشه لولا أنه كان عاكفاً على اللهو والشراب مع عشرات من النساء والمغنيات والراقصات اللاتي جئن معه إلى ميدان القتال ، وقد استطاع الشريف عبد الله أن يصل إلى الخيمة الملكية ، ويهجم عليها ، فأوقع الذعر بالملك ومن معه فلاذوا بالفرار ووقع الخلل في صفوف الجيش ، فانتصر « فروخ » وجلس على العرش سنة 1124 هـ ـ1712 م .

وأخذ بعد ذلك في تطهير الحاشية ، والإنتقام من أعوان الملك السابق شر انتقام ، وحدثت ثورة في دلهي فأرسل لقمعها الشريف عبد الله ، وأعطاه لقب قطب الملك الصديق الوفي ، كما أعطاه منصب الوزارة وأعطى أخاه الشريف حسين لقب أمير الأمراء ، وكان هذان الشريفان هما الحاكمين الحقيقيين ، فقد كان فروخ مديناً لهما بنصره ، وكانا قويين فلم يستطع أن يقف أمام أية رغبة من رغباتهما ، فكان من الطبيعي أن يصبح الأمر كله بيد السادات ، وأن يشعر الملك وحاشيته بالمضايقة منهم والرغبة في التخلص من سيطرتهم ، وكان في حاشيته القاضي عبد الله[1] فأعطاه لقب « مير جمله خان خانان » ، وولاه على

---

(1) هو القاضي عبد الله الخراساني نواب مير جمله معظم خان خانان مظفر جنك تقرب إلى عالمكير فولاه القضاء ، ولما تولى فروخ سير الملك سار معه من بتنا إلى دهلي ، وصار من أقرب الناس إليه ، وكان معادياً للسادات فعملا على إبعاده عن دهلي فولاه ولاية « عظيم أباد » ، ثم رجع بعد مدة وتقرب إلى السادات ونال تقديرهم حتى توفي .

« عظيم أباد » تنفيذاً لرغبة السادات ، كما أعطى « قليج خان(1) بهادور » لقب نظام الملك فتح جنك ، وولاه على الدكن وكان كلاهما ممن يكرهون السادات ويعتمد عليهم الملك . ولذا عملوا على إبعادهما عنه . إلى عظيم أباد والدكن .

ومما يجدر ذكره أن نظام الملك هذا هو رأس الاسرة المالكة التي حكمت في حيدر أباد الدكن حتى انتهت سنة 1947 م بضم المملكة إلى الهند حين التقسيم . .

وقد انتهز الراجبوت فرصة الخلاف والحرب بين الطامعين في العرش وثاروا وأعلنوا استقلالهم ، فسار إليهم الشريف حسين على رأس جيش وتمكن من هزيمتهم وفر الراجا الثائر إلى الجبال ، وطلب

---

(1) اسمه قمر الدين بن غازي الدين السمرقندي واشتهر باسم « نواب نظام الملك آصف جاه » عاش من عهد عالمجير إلى عهد محمد شاه . ولد سنة 1084 هـ ـ 1673 م ، ولقبه عالمكير بلقب « جين قليج خان » وولاه « بيجابور » ، وفي أيام شاه عالم بهادور الأول ولاه على « أوده » ، ثم تضايق من الجو حوله فلزم بيته ، ثم عاد لمنصبه في عهد « جهان دارشاه » ، ولما تغلب « فروخ سير » قربه إليه وأعطاه لقب « نظام الملك فتح جنك » مع ولاية الدكن ، وفي عهد رفيع الدرجات ولاه على « مالوا » ولكنه بعد مدة سار للدكن ، وقام بالأمر فيها عنوة ، ولما تولى محمد شاه استقدمه لدهلي وولاه الوزارة مع ولاية الدكن ، وظل مدة متمكناً من النفوذ والسلطان ، ثم أحس بتدبير المؤامرات حوله من حساده ومن الملك نفسه لأن نظام الملك كان يقف في سبيل شهواته حتى انتهى الأمر بعزله عن الدكن أو بالأحرى بأخذ ولاية الدكن منه ، فاستأذن الملك في الخروج إلى ناحية الشمال « مراد أباد » ، ولكنه توجه إلى الدكن وقاتل واليها ، وهزمه واستولى عليها ، ثم استرضاه محمد شاه حين جاء نادر شاه للهند ، ولقبه بأمير الأمراء ، وأقام بدهلي راغباً في إصلاح أداة الحكم ، لكنه رجع لما يئس من الإصلاح ، وظل حاكماً على الدكن حتى توفي ، وظلت مملكة حيدر أباد في ذريته حتى انتهت سنة 1947 م ، وكان من أعظم الرجال وأصلحهم وأشجعهم توفي سنة 1161 هـ ـ 1748 م ، ودفن برهانبور .

الصفح والعفو عنه وفي هذا الوقت وصل إلى الشريف حسين كتاب من أخيه ينبئه بازدياد الخلاف مع الملك ، ويأمره بالرجوع حالاً ، فرأى أن يقبل الصلح والعفو ، عن الراجا على أن يكون ابنه مع بعض الجنود الراجبوت في جنده ، ورجع إلى دلهي ، وهنا طلب الأشراف من الملك أن يبعد « مير جمله » من القصر ويوليه ولاية بيهار ، وأن يتولى الشريف حسين حكم الدكن ، فقبل الملك هذه الشروط ولم يكن بد من قبولها ، وفي الوقت نفسه أرسل سراً إلى داود خان حاكم كجرات أن يتربص في طريق الشريف حسين إلى الدكن ويقضي عليه ، ولكن كتب على هذه المؤامرة الفشل ، وقتل داود خان ، وأصبح الشريف حسين سيد لدكن ، وأخذ في تقريب السادات وتوليتهم المناصب .

مع السيك :

وفي هذا الوقت قام السيك في الشمال بثورة جامحة ، وأخذوا كعادتهم في الإعتداء على المساجد والمقابر ، وقتل آلاف من المسلمين والهندوس دون تفرقة بين الصغير والكبير ، حتى كانوا يبقرون بطون الحوامل ، كما أخذوا في تدمير البيوت وإحراقها ، ونهب كل ما تصل إليه أيديهم .

وكان على رأس هذه الثورة « بندا » الذي ادعى من قبل أنه « كوبند سنك » ، وثار على المسلمين واستطاع الفرار من الحصار في عهد بهادور شاه ،فوجه اليهم الملك جيشاً بقيادة عبد الصمد خان فتعقبهم حتى حاصرهم في قلعتهم ، وأخيراً اضطروا للتسليم سنة 126اهـ ـ 1714 م فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف ، وقبض على ثماغائة من كبارهم ، وعلى

رأسهم قائدهم « بندا » ، وساقهم إلى العاصمة ، وسار بهم في الشوارع تشهيراً بهم ثم قتلهم .

ويقول المؤرخ الهندي سيد هاشمي[1] : إن الناس يتناقلون قصصاً غير صحيحة عن هذه الواقعة ويقولون إن الملك وضع جثثهم احياء ، وبنى عليها الجدران . ألخ . ولكن ذلك كله غير صحيح ، ولذا فإن المؤرخ « الفنستن » الذي كتب عن الهند لم يجد رواية تؤيد هذه الأقوال . كما أن المؤرخ الهندي « خافي خان » الذي عاصر هذه الواقعة وشهدها كتب يقول : « إن الملك انتقم من « بندا » شر انتقام لاعتدائه على الناس وتقتيله الآلاف من الأبرياء ، وزيادة في تعذيبه أجبره على أن يقتل ابنه بيديه ، ثم قتل هو بعد ذلك . » ولم يذكر المؤرخون أكثر من هذا ولو حدث شيء مما يتناقله الناس لكتبه خافي خان كما كتب هذه الواقعة . . .

وهذه الواقعة من الحوادث التي يتناقلها السيك ويعلمونها لأبنائهم ليثيروا فيهم الحفيظة دائماً على المسلمين ، ولذا نجدهم من أشد الناس عداوة للمسلمين .

في هذا الوقت ظهر الخلاف شديداً بين الملك وبين السادات ، وكثرت المؤامرات من الملك عليهم ، مما اضطر عبد الله أن يطلب من أخيه حسين في الدكن أن يرجع سريعاً إلى دهلي ، فاستجاب له ورجع ومعه بضعة آلاف من جنود المراهتا ، فانزعج الملك من ذلك ، وكان

---

(1) ص269 في الحاشية من كتابه تاريخ هند .

جباناً متردداً ، بينا ثار الشعب على السادات ، وهاجم جنود المراهتا ، حتى فروا امامه تاركين أسلحتهم وملابسهم ، ويقول المؤرخ « خافي خان» وهو شاهد عيان لهذه الحالة : إن المنبوذين اشتركوا في الهجوم على جند السادات الذين فروا هلعين ، والشعب يجردهم حتى من ملابسهم ، وكان الملك يستطيع في هذه الحالة أن ينزل ضربته القاضية بالسادات ، معتمداً على من معه من الجنود وعلى الشعب الثائر الناقم عليهم ، لكنه لم يتحرك ولم تكن فيه نخوة الملوك التيموريين كما يقول المؤرخون ، وبذلك ضاعت الفرصة من يديه ، واغتنمها السادات ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وجاءوا بحفيد بهادور شاه من السجن وكان اسمه « رفيع الدرجات » وأجلسوه على العرش في9 من ربيع الأول سنة 1131 هـ ـ1719 م وبعد أيام قتلوا فروخ سير ، فثار الشعب عليهم حتى لم يستطيعوا أن يظهروا في الشوارع . .

وكان رفيع الدرجات مسجوناً منذ صغره ، وقد أصابه مرض العظام ، فلم يمكث طويلاً في الحكم ؛ إذ مات في رجب من هذه السنة .

رفيع الدولة :

فأجلسوا مكانه على العرش أخاه الأكبر رفيع الدولة ، وفي ذلك الوقت كان الشعب غاضباً هائجاً فهجم على أكرا ، وأخرج « نيكوسير » حفيد عالمكير من سجنه ، وأجلسه على العرش بمساعدة « راجا جي سنك » بينا كان الملك رفيع الدولة مريضاً ، فأسرع السادات بجيشهم

إلى أكرا ، حاملين معهم الملك ، ولكنه مات في الطريق بعد ثلاثة شهور وأيام من توليه الحكم .

محمد شاه :(1)

ورأى السادات أن الموقف يكاد يفلت من أيديهم ، فأسرعوا في طلب الشاب « روشن أختر » حفيد بهادور شاه ، وأجلسوه على العرش بعد ما قضوا على المعارضين ، ونادوا به ملكاً على البلاد بإسم « أبي المظفر ناصر الدين محمد شاه » في فتحبور سكرى في 15 ذي العقدة سنة 1131 هـ ـ 1719 م ، وقبضوا على « نيكوسير » الملك الذي أقامه الشعب ، وتقدم راجا « جي سنك » بطلب العفو فعفوا عنه ، وصفا الجو بذلك للسادات ليتصرفوا كما يشاءون ، ويتلاعبوا بأمور الملك كما يريدون ، دون أن يكون للملك أي أثر في شؤون الملك ، ومع ذلك كان الأشراف يحسون بعدم الإطمئنان ، ويدركون أن لهم بعض الخصوم الأقوياء الذين لا بد من القضاء عليهم » ، وكان « نظام الملك » أحد هؤلاء الخصوم ، فقد كان قائداً ذكياً قوياً ينال تقدير الأمراء والحاشية . وكان بعيداً عن العاصمة خلال هذه الحوادث التي مرت بها . . كان في « مالوا » حاكماً عليها بعد أن أخذ الأمير حسين حكم الدكن .

---

(1) حصل لبس في كتاب المرحوم الأستاذ محمد حبيب « بين الهند وباكستان » حيث ذكر أن رفيع الدولة اسمه محمد شاه وأنه عاش مدة كبيرة حتى جاء نادر شاه لغزو الهند . والواقع أن رفيع الدولة مات بعد شهرين كما تقول بعض الكتب أو ثلاثة كما تقول كتب أخرى ، وتولى بعده « روشن أختر » المسمى « محمد شاه » وهو الذي عاش حتى غزوة نادر شاه .

الصراع مع السادات :

في هذا الوقت وصلته رسالة سرية من « قدسية بيكم » أم الملك الشاب تقول فيها : « إن ملك التيمورية صار لعبة في يد الأشراف ، وإنقاذه متوقف عليك بعد الله سبحانه وتعالى ، وأن الملك أصبح دمية يحركها الأشراف ، حتى لم يعد يخرج للصيد إلا بإذنهم ، وهذا فوق أنهم الآن يدبرون الأمر لاستئصالك والقضاء عليك ، فافعل ما ترى لإنقاذ الموقف . . »

وكان نظام الملك في «مالوا» محصوراً بين نفوذ السادات في الشمال والجنوب حيث كان في الدكن حاكم من قبل الأشراف ، فرأى أن يتوجه بضربته أولاً للجنوب ، وسار بجيشه سريعاً إلى هناك ، واستطاع أن يهزم قوات السادات ، ويصبح سيد الدكن بغير منازع ، وكان ذلك سنة 1133 هـ ـ1730 م ، وبلغت هذه الأخبار « أكرا » فطار صواب السادات ، وقرروا أن يقوموا بعمل سريع لإنقاذ الدكن .

وسار الشريف حسين مع الملك الشاب على رأس جيش عظيمٍ نحو الجنوب ، وفي الطريق دبر الملك مؤامرة ، وقضى على خصمه الشريف حسين وعلى كثير من السادات ، وارتد بالجيش نحو الشمال ليقضي على الشريف عبد الله الذي أظهر الجلد والشجاعة تجاه هذه الأنباء المفجعة ، وأخذ واحداً من أبناء الأسرة المالكة ونادى به ملكاً بدلاً من « ناصر الدين محمد شاه » الملك الثائر عليهم .

وتلاقى الجيشان بين دلهي وأكرا ، واستمرت الحرب عنيفة يومين . دارت الدائرة بعدهما على الشريف الذي قبض عليه ، وانتهت بذلك سيطرة الأشراف ، وتخلص الملك من تسلطهم ، واستعاد نفوذه كاملاً . وكان ذلك في صفر سنة 1133 هـ ـ 1720 م .

نظام الملك :

وكان من الممكن حينئذ أن يقوم الملك بعمل يجدد به شباب الدولة الهرمة ، ويعيد إليها ما فقدته من قوة وهيبة ، ولكنه كان عن ذلك مشغولاً بلهوه وعبثه ، فظلت الأمور تسير في مجراها الطبيعي ، فزادت الدولة ضعفاً على ضعف ، ثم رأى أن يستدعي نظام الملك من الدكن وأنعم عليه بلقب « آصف جاه » ، وأعطاه الوزارة سنة 1135 هـ ـ 1722 م ، وكان نظام الملك رجلاً مجرباً قد حنكته الأيام ، ويمكن أن يقدم للدولة الكثير من الخدمات لو مكن له في ذلك ، ولكن القدر كان يتربص بهذه الدولة ، ويحول بينها وبين أيدي المصلحين حتى تصل إلى نهايتها المحتومة . قدم اقتراحات لإصلاح حال الدولة تدور حول منع الإقطاع الذي يسبب الكثير من الفساد والظلم للشعب ، ومنع تقديم الهدايا للملوك والرؤساء لما يترتب عليها من فساد جهاز الدولة ، وأيضاً وجوب فرض الجزية من جديد بعدما ألغيت في عهد رفيع الدولة بمعاونة بعض راجوات الهندوس ، وأخيراً وجوب مساعدة إيران في حربها ضد بعض الأمراء الأفغان ، رداً لجميل إيران عندما ساعدت همايون في العودة إلى العرش .

ولم ترق هذه الإصلاحات الجديدة في نظر الحاشية التي يهمها اللهو ومجالس الشراب مع الملك ، فرفضت . ففكر نظام الملك في الرجوع إلى الدكن .

وكانت هناك ظروف تضطره إلى هذه العودة بجانب رفض اقتراحاته ؛ فإن المراهتا الذين أصبحوا ذوي شوكة قوية في الجنوب بدأوا يرفعون رؤوسهم ضد المسلمين في الدكن ، وبجوار هذا ـ تلك المؤامرة التي دبرها بعض رجال القصر ضده في الدكن ، حيث أوعزوا إلى أحد القواد «مبارز خان » في حيدر أباد أن يهجم على « أورنك أباد » مركز حكم نظام الملك .

فلهذا كله عاد سريعاً إلى الدكن ، وقضى على مبارز خان وقتله بعد حرب بينهما ، كما قضى على المراهتا بعد حروب عنيفة ، وأصبح نظام الملك سيد الدكن المرهوب الجانب ، لا سيما بعدما تم الصلح بينه وبين المراهتا ، الذين انصرفوا بعد ذلك إلى جهات أخرى من أجزاء الدولة الإسلامية المفككة ، فأغاروا على مالوا وكجرات ، ونهبوا وقتلوا ودمروا ، ولم يكن في هذه البلاد حاكم قوي يردعهم ، فأشاعوا الرعب والفزع مع سيطرتهم عليها . وكان سلطان دلهي عاجزاً ضعيفاً غارقاً في ملذاته ومؤامراته ، فزاد جهاز الدولة اختلالاً وزاد طمع الطامعين فيها .

وإزاء هذه الحالة اضطر الملك مرة ثانية أن يستعين بنظام الملك سنة 1150 هـ ـ 1737 م ، فاستجاب له وذهب إلى دلهي ليقف بجواره ، ولكنه لم يمكث عدة شهور حتى هجم « نادر شاه » ملك إيران على الهند .

غزو نادر شاه الهند

يعتبر نادر شاه مجدد شباب الدولة الإيرانية بعدما رزحت كثيراً تحت حكم الأفغان ؛ فقد استطاع أن يرجع حكمها إلى يد أبنائها ، وأن يزحف على ما جاوره من البلاد في العراق وأفغانستان وغيرهما ويضمها لحكم إيران . . أما سبب اتجاهه للهند ؛ فقد اطلعت على روايتين مختلفتين : رواية تقول : إن بعض وزراء الملك المغولي بالإتفاق مع شاه ولي الله الدهلوى العالم الكبير لما رأوا فساد الأمور يستفحل وطمع الهندوس فيها ، وهجومهم عليها دون أن تستطيع ردها عنهم ، طلبوا منه أن يسير إليهم ليقضي على فساد الملك وحاشيته ، ويصد عن المسلمين عدوان الهندوس ، فاستجاب لهم وسار نحو الهند بجيوشه . .

ورواية أخرى تقول : إن بعض الأفغان الذين كان يحاربهم نادر شاه فروا إلى الهند ، وطلب تسليمهم فلم يستجيبوا له ، فرأى هذه فرصة لمتابعتهم والهجوم على الهند والتمتع بما فيها من أموال وخيرات ، وهذه رواية كتب التاريخ الهندية ، وأياً كان السبب ـ أحدهما أو كلاهما ـ فقد بدأ نادر شاه بالهجوم على قندهار وكابل ، وكانت تحت سلطان الهند فضمهما إلى ملكه ، ثم تابع هجومه على الهند الشمالية حتى وصل إلى لاهور وقبض عليها وعلى البنجاب . وظلت دلهي تغط في نوم عميق حتى كان على بعد 125 ميلاً منها . . حيث أعد محمد شاه جيشاً سار نحو الشمال ، وتلاقى الجيشان في رمضان سنة 1151 هـ ـ 1738 م عند « كرنال » في البنجاب ولم يكن الجيش المغولي بحالة تسمح له بإحراز النصر لتفرقه وتخاذله ، حتى إن القتال لم يستمر طويلاً حتى

انضم حاكم أوده « برهان الملك سعادت خان » إلى نادر شاه ، ولم يجد نظام الملك آصف جاه بداً من طلب الصلح ، الذي تم على أن يدفع لنادرشاه20 مليون روبية . . ولكن نادر شاه بعد ذلك اعتقل الملك محمد شاه بحيلة من حيله ، ووصل إلى دهلي منتصراً ، وأمر بذكر اسمه في الخطب ، وإزاء هذا العمل الذي اعتبره الشعب غدراً للعهد لقي نادر شاه من الشعب معارضة وثورة اضطر إلى أن يطفئها ، فأباح المدينة لجنوده ، فعاثوا فيها الفساد ، حتى تركوها أثراً تنعي من بناها . نهبوا وقتلوا ودمروا ، فشهدت دهلي من البأساء ما لم تشهده من قبل ، فقد قتل من أهلها أكثر من مائة ألف ، وسلب منهم نحو150 مليون روبية ، هذا فوق عرش الطاووس الثمين الذي أسسه شاهجهان من الذهب الخالص ، وكانت قيمته تساوي ستة ملايين من الجنيهات ، والجوهرة النادرة في العالم التي كان شاهجهان اشتراها من أحد التجار ، وزين بها تاجه وتوارثها الملوك ، حتى وقعت أخيراً في يد نادر شاه . ويقال إنه حين رآها لأول مرة ، وأضاءت أمامه ذهل ، وقال في دهشة : « كوهي نور » أي جبل نور !! فصارت هذه الكلمة التي أطلقها نادر شاه وهو في حالة ذهول علماً عليها ، وقد تنقلت هذه الماسة من يد إلى يد حتى استقرت في تاج ملك انجلترا . . .

وعاد نادر شاه بعد ذلك إلى إيران ، ولكنه ترك الملك ومملكته جثة هامدة لا حراك فيها ، تتواثب عليها النسور ، وتتخطفها الجوارح ، ويركلها كل من يقرب منها ، لم يعد للملك هيبة ، ولم يعد له نفوذ حقيقي على بلاده ، بل ولا على امرائه وقواده ، فأخذوا يتصارعون .

ومن الأسف أن ذلك كله كان يحصل وأعداء المملكة حولها ينهشون جسمها من كل جانب ، سواء كانوا من أهل الهند نفسها ، أم من الإنجليز الذين ثبتوا أقدامهم فيها ، وأخذوا يعملون حسب خطة مرسومة للإستيلاء عليها . .

وشغل الملك عدة سنين مع أمرائه المختلفين ، ومع المغيرين على مملكته من المراهتا والسيك ، والراغبين في الإستقلال من الولاة المسلمين ، على أنه لم يفق طويلاً من ضربة الغزو الخارجي حتى كان يطرق أبواب الهند غاز جديد قوي هو أحمد شاه الأفغاني .

أحمد شاه الأبدالي(1)

أو أحمد شاه الدراني الأفغاني : هجم على الهند من الشمال ، واستولى على « لاهور » ، فأرسل له محمد شاه جيشاً بقيادة ابنه « أحمد » وتلاقى الجيشان قرب « سرهند » وتمكن المغول من هزيمة الأبداليين ، فرجعوا إلى كابل في ربيع الأول سنة 1161 هـ ـ 1748 م وفي الوقت الذي كان فيه أحمد بن الملك يتعقب الأبداليين ويطهر البلاد منهم جاءه نبأ مرض أبيه ، فكر راجعاً إلى دلهي ، وانتهز الأبداليون الفرصة فرجعوا إلى الهند واستولوا على لاهور وتوفي محمد شاه سنة 1161 هـ ـ 1748 م ، وخلفه على العرش ابنه أحمد شاه ؛ ولم يرث إلا

---

(1) سمي كذلك نسبة إلى قبيلة كان أبوه حاكماً عليها ، وهو أفغاني الأصل ، كان في جيش نادر شاه ، ولما قتل قام لأخذ ثأره مستعيناً بالجنود الأفغان وأخذ يؤسس له ملكاً ضد الفرس . وجعل عاصمته ، (كابل) .

ملكاً مريضاً تجتمع عليه العلل من كل جانب ، فغرق هو الآخر في المؤامرات والدسائس والخلافات ، ومضت عليه عدة سنوات ثم كانت نهايته مؤلمة ؛ فقد قبض عليه أحد القواد ، وسمل عينيه ، وأجلس مكانه على العرش « عالمكير الثاني » سنة 1167 هـ 1754 م .

وكان هذا القائد هو غازي الدين حفيد نظام الملك آصف جاه الذي عين وزيراً للبنجاب بعد ذلك ، وكان الأفغان يسيطرون على لاهور ، فسار إليهم وانتزع لاهور منهم ، ولما علم أحمد شاه الأبدالي بذلك تقدم بجيشه من أفغانستان إلى الهند، واضطر غازي الدين إلى الخضوع وطلب العفو عنه ، فعفا عنه ، وتقدم إلى دلهي ، وكانت لا تزال رازحة بالخراب والبؤس منذ غزوة نادرشاه ، فدخلها وقضت جيوشه هو الآخر على ما كان قد بقي بها من أمارات الحياة ، ثم تقدم إلى « أكرا » وحاصرها ، ولكن الوباء تفشى في جنوده فاضطر لتركها والرجوع إلى أفغانستان سنة 1171 هـ -1757 م .

وقبل رجوعه طلب منه عالمكير الثاني أن يساعده على تثبيت سلطته ضد الثائرين عليه من كل جانب ، فاستجاب له وأبقى جيشاً في دلهي بقيادة نجيب الدولة ليساندوه على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام المتناثر .

ومن العجب أن في هذه السنة التي دخل فيها الأبدالي دهلي فاتحاً منتصراً كان الإنجليز في الشرق . . في بنكال ، يحاربون سراج الدولة حتى تمكنوا من التغلب عليه والسيطرة على البنكال كلها ، بينما هؤلاء في دهلي مشغولون بالحرب فيما بينهم !!

رجع الابدالي وترك نجيب الدولة نائبا عنه ، ولـكن غازي الـدين الذي استخذى من قبل أمامه لم يركن إلى الإستسلام النهائي ، فأخذ يدبر المؤامرات ضد نائبه نجيب الدولة وضد الملك ، ويبلـغ به العنـاد غايته حين استعان بالمراهتـا لتنفيذ أغراضـه !! وجـاء معهـم إلى دهلي واستولوا عليها ، وفر نجيب الدولة مع ولي العهد « شاه عالم الثاني » إلى المشرق ، تاركين الملك في قبضة الفاتحين الذين أبقوه رمزاً ، وتابعوا سيرهم نحو البنجاب ، فطردوا منها الموظفين والأمراء الأفغان ، وبذلك سيطر المراهتا على أكثر أجزاء الهند ، وعلم أحمـد شاه الأبـدالي بذلك فجهز جيشه وسار إلى الهند ثانياً ، وحين علم غازي الدين بتحرك أحمد شاه اتهم عالمكير بالتواطـؤ مع أحمـد شاه ونائبـه ، وقتلـه سنـة 1173 هـ ـ1759 م ، وأجلس مكانه على العرش ابن « كام بخش » ، ولكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى كان الأبدالي قد وصل إلى شمال الهنـد ، واستولى على لاهور ، وطرد المراهتا منها وتقـدم إلى سـهارنبـور ، ففـر غازي الدين من دهلي .

موقعة بانى بت :

وتقدم الأبدالى ، ولكنه لم يستقر بجيشه اللجب في دهلى ، فقـد خربها المراهتا عند انسحابهم منها بعد ما نالها من تخريب سابق متكرر ، وأقام في « دوآب » منطقة ما بين النهرين : جمنا وكنكا .

وحدثت عدة مواقع بين الأبدالى والمراهتا انهزموا فيها شر هزيمة ، وقضى على عشرات الألـوف منهـم ، وكان ذلك في سنـة 1174 هـ ـ1760 م .

ولما وصلت هذه الأنباء المحزنة إلى ملكهم وزعيمهـم في الجنـوب

اضطرب وغضب ، فقد كان يظن أنه بعد سيطرة المراهتا على الهند لن يقف أمامهم أحد ، وأنهم قد قبضوا على زمام الأمور فلم يعد لهم منازع ، وأن سطوة المسلمين قد قضي عليها نهائياً ، وهذا الخطر الجديد جاء ليعيد لهم ذكرى محمود الغزنوى ومحمد الغورى والأقوياء من المغول التيموريين ، وقد يتمكن الأبدالي من أن يجدد شباب الدولة الإسلامية ، ويركز سلطانها من جديد في الهند ، بعد ما أمل المراهتا وغيرهم من الهندوس أنها قد زالت ، وأن السلطة رجعت لهم ، لهذا كله عمل هؤلاء على أن يثيروا الهندوس كلهم ضد هذا الغزو الجديد ، فجمعوا جيشاً ضخماً مكوناً من ثلثمائة ألف مقاتل ، تسنده مدفعية قوية ، كان على رأسها « إبراهيم خان كاروى » المسلم الذي تعلم فنون المدفعية الحديثة من الفرنسيين في الدكن ، وكانت فرقة المدفعية مكونة من 12 ألف رجل و200 مدفع ، وعلى رأس الجيش كله القائد المراهتى « سدى شيوكو » المشهور بإسم « بهاو » ، وتحرك هذا الجيش الضخم ليقضي على الأبدالى والخطر الذي يسير في ركابه ، وكان جيشه مكوناً من أربعين ألفاً ، ومدفعية صغيرة مكونة من 40 مدفعاً ، ووصل المراهتا إلى دهلى ، وتجاوزوها إلى الشمال الغربي قليلاً . وفي « باني بت » التي شهدت أكثر المواقع الحربية في الهند تقابل الجيشان في جمادى الآخرة سنة 1174 هـ - يناير سنة 1761 م ، وضغطت مدفعية المراهتا على الأبدالى فتقهقر ، ثم في سرعة خاطفة ، وتنظيم جيد كر عليهم كرة أذهلتهم ، وأوقعت الذعر والخبال في صفوفهم ، بينما أخذ الجيش الأفغاني يعمل فيهم القتل ، حتى قتل في ميدان المعركة نحو مائتي ألف مقاتل ، ولاذ الباقون بالفرار ، وتعقبهم الأبدالى وخرج عليهم أهالي القرى ينتقمون

منهم ، لما أصابهم من تعسفهم ، فوقعوا بين خطرين حتى قتل الكثير منهم ، وقد قضي على أمرائهم وزهرة رجالهم ، وغالب قوتهم في هذه المعركة ، فكانت الموقعة القاهرة التي كسرت ظهورهم وقضت على غرورهم .

شاه عالم الثاني :

وقد مكثت دلهي مدة دون ملك ، ولما انتصر الأبدالي نادى بشاه عالم الثاني(1) سلطاناً على دهلي ، وكان في بنكال ، فأقام الأبدالي مقام شاه عالم ابنه « جوان بخت » ، ورجع إلى أفغانستان بعد أن أبقى له نواباً في دهلي ، ولكن جسم الدولة كان مريضاً ، فلم يجد فيه هذا الدواء - وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟! - ولو أن الأبدالي مكث في دهلي وأعلن حكمه فيها ، وقبض على ناصية الأمور لكان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ . . ولكن هكذا أراد الله . . وتوفي أحمد شاه في سنة 1187 هـ - 1773 م .

ظل « شاه عالم » بعيداً عن دلهي عدة سنوات ، وملكها تتلاعب به الأيدي ، وقد اشتد أزر المراهتا من جديد على يد ملكهم « مادهافاراو » ، ونظم جيشه تنظيماً حديثاً على النسق الأوربي ، ثم زحف على دلهي واستولى عليها وأعاد شاه عالم إليها وولاه السلطة ، فعينه شاه عالم على إمارة الجيوش كلها ، وأصبحت امبراطورية المغول في كفالته(2) .

---

(1) تذكره بعض الكتب بإسم (أعلم الثاني) .

(2) حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص312 .

وكان شاه عالم قد أراد أن يسترد البنكال من الإنجليز بالإتفاق مع بعض الأمراء المسلمين ، فوقعت بينهما حروب انتهت بانتصارهم في « بكسر » سنة 1178 هـ ـ 1764 م ، مما اضطره إلى أن يترك لهم السيطرة على بنكال وأوريا وبهار ، مكتفياً منهم بخراج يؤدونه إليه قيمته مليونان و600 ألف روبية ، ثم حدث بعد ذلك أن اعتدى عليه أحد القواد « غلام قادر خان روهلا » ، وكان قابضاً على زمام الأمر في دهلي من قبل فقلع عينيه ، مما أفقده كل هيبة كان يتمتع بها .

والحق أن شاه عالم لم تكن له أية شخصية في الحكم ؛ فقد كان يعيش في كفالة المراهتا ، وأخيراً تدخل الإنجليز ، وجعلوه تحت حمايتهم ، ودفعوا له مرتباً شهرياً قيمته تسعون ألف روبية ، على أن يتولوا إدارة شؤون البلاد نيابة عنه ، وكان ذلك سنة 1219 هـ ـ 1804 م ، ولم يمكث طويلاً حتى مات سنة 1221 هـ ـ 1806 م .

محمد أكبر الثاني :

وتولى الملك من بعده ابنه « محمد أكبر الثاني » . وعاش كوالده في كفالة الإنجليز الذين قد بلغوا من السيطرة حداً شمل الهند كلها تقريباً ومكث مدة طويلة في الحكم حتى توفي سنة 1253 هـ ـ 1837 م .

بهادور شاه :

وتولى بعده ابنه « سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه » ، وعين له الإنجليز مرتباً سنوياً قدره مليون ومائتا ألف روبية ، وكان ظلاً فقط لا نفوذ له ، حتى في القلعة الحمراء التي يسكنها في دهلي !! وكان الحاكم

الإنجليزي في ذلك الوقت « لورد كايننك » ، والقائد العام « دلهوزى » ، وقد وجه الإنجليز إلى بهادور شاه إنذاراً بأنه آخر ملك يسكن القلعة ، وأنها ستكون بعده ثكنة عسكرية ، وأن المخصصات التي يأخذها منهم ستنتهي بانتهاء حياته ، وكان معنى ذلك القضاء على ملك المغول ، وبالرغم من ضعف الملك كما رأيت ، فقد وقع هذا الخبر على الشعب ولا سيما المسلمين وقع الصاعقة ، فقد كانوا ـ المسلمون منهم والهندوس ـ ينظرون إليه مهما كان ضعيفاً على أنه حاكمهم الوطني . أما الإنجليز فغزاة أجانب معتدون ، لا سيما وقد ضجت الهند كلها من مظالمهم ، وأخذ أحرارها يستعدون للثورة عليهم ، وفي هذا الوقت أيضاً اخترع الإنجليز الخراطيش المدهونة بشحم الخنازير والبقر ، وكانوا يجبرون جنودهم على كسرها بأسنانهم بدل السكين . والبقر محرم على الهندوس تحريم الخنزير على المسلمين ، فولد هذا العمل تبرماً عاماً في الجنود انقلب إلى ثورة جامحة ضد الإنجليز للتخلص منهم ، وجعل الثائرون الملك بهادور شاه قائداً عليهم ، فلما فشلت الثورة قبض عليه الإنجليز ونفوه إلى رانكون في بورما مع زوجته « زنيت محل » وبعض أولاده ، وظل هناك حتى مات ، فكان آخر ملك مسلم تولى ملك الهند مما سيأتي تفصيله بعد إن شاء الله .

حضارة المسلمين في الهند

من الواجب علينا بعد أن انتهينا من عرض التاريخ الإسلامي في الهند أن نقف وقفة قصيرة ، لنتحدث حديثاً إجمالياً عما خلفه هؤلاء المسلمون من حضارة في الهند . بعد ما مر من حديث مشاع عنها

يستشفه القارىء من تاريخ السلاطين . وكلمة حضارة تمثل في أذهاننا نواحي متعددة من النشاط الإنساني ، وتعني إنتاجه في العلم والأدب والفن والمباني ، وأنظمة الحكم والحياة والصناعة والتجارة . . الخ . . فماذا كان نصيب المسلمين في الهند من ذلك كله ؟ إن الحديث عن ذلك يقتضي جهداً ، ويحتاج إلى بسط ربما يصل إلى كتاب مستقل ، ولكن إذا لم نستطع ذلك الآن فلا بأس من أن نعطي فكرة إجمالية عنه .

* * *

كان الفاتحون الأول للهند من المسلمين العرب ، ولا شك أنهم نقلوا إلى البلاد التي فتحوها واستقروا فيها دينهم ، وكثيراً من تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ، وقد انحسر الفتح الإسلامي العربي ، وانحصر على نقطة صغيرة في غرب الهند وهي السند ، فلم يكن لهذا العهد ملامح كبيرة ، وإن كان لا يمكن أن ننكر أثر ذلك في نواح متعددة ومنها لغتهم مثلاً ، فاللغة السندية لا تزال للآن تكتب بالحروف العربية وتضم كثيراً من اللغة العربية ، كما أن المسلمين فيها يمثلون الأغلبية الساحقة .

وبعد ذلك بقرون جاء المسلمون فاتحين على يد محمود الغزنوى ، ثم توالى فتح المسلمين ، واطرد حكمهم للهند حتى انتهى بانتهاء حكم المغول بعد نحو ثمانية قرون ونصف قرن . .

ولم يكن هؤلاء الفاتحون عرباً ، ولكنهم كانوا ـ بلا شك ـ مسلمين متحمسين للإسلام ، يحملون حضارة بلادهم في أفغانستان وفارس وما وراء النهر ، وهي حضارة يمكن أن نقول عنها في عمومها إنها حضارة فارسية ، ولو أن الحضارة الفارسية قد اندمجت في

الحضارة الإسلامية العامة ، لكن هؤلاء كانوا فارسي اللغة والثقافة ، لأن اللغة الفارسية كانت هي لغة المسلمين السائدة في تلك البلاد ، هذا بجانب لغتهم الأصلية التي عرفوها من بيئاتهم الخاصة .

لذلك كانت اللغة الرسمية لهؤلاء الحكام هي اللغة الفارسية ، حتى بعد أن ولدت اللغة الأوردية وتكونت وأصبحت لغة رسمية كذلك ، فلم تتزحزح اللغة الفارسية عن مكانتها كثيراً ، إذ ظلت لغة الحكام والأرستقراطيين ، والعلماء والأدباء والشعراء من المسلمين وغيرهم ، والنتاج الذهني الإسلامي في الهند في تلك العهود إنما عبرت عنه اللغة الفارسية ، حتى لنجد الكتب التي ترجمت من السنسكريتية والعربية في عهد هؤلاء الحكام ترجمت للفارسية ، والكتب التي ألفت لهم وفي عهدهم لغتها فارسية ، ولا عجب في ذلك ؛ فاللغة الأوردية هي لغة حديثة العهد بالوجود عمرها نحو أربعمائة سنة ، ومما لا شك فيه أنها لم تبلغ درجة النضج أو الكمال إلا بعد ذلك بكثير .

وكان هؤلاء الفاتحون مسلمين ، وبعضهم كان حديث العهد بالإسلام مثل المغول ، لأنهم أسلموا بعد أن فتحوا البلاد الإسلامية ، وأزالوا الخلافة العباسية ، وقد حكموا في الهند بلاداً واسعة تدين بالوثنية منذ آلاف السنين ، وكانت لهذه البلاد حضارة قديمة حافلة بأنواع المعارف والتقاليد ، والمسلمون فيها كانوا قلة ولم يكن عندهم بلا شك - ما كان للعرب الفاتحين دائما من الحماسة لنشر الإسلام ولغته ، لذلك لم يكن لهؤلاء الحكام من الأثر في نشر الإسلام ولغته وتقاليده مثل ما كان للعرب المسلمين ، ولم يلجأوا إلى القوة في جبر الهنود لاعتناق

الإسلام ، وهذا حسن ومطابق للإسلام ، إلا أنهم لم يكونوا ـ في جملتهم ـ بسلوكهم ولا برغباتهم ودعاياتهم ذوي أثر كبير في جذب الهندوس للإسلام ، ومن هؤلاء الحكام من شذ عن الإسلام وتعاليمه مثل أكبر ، لذلك نرى الأغلبية في البلاد التي كانت عاصمة الحكم الإسلامي غير مسلمة كما في دلهي وأكرا ، ونرى أغلبية سكان الهند غير مسلمين بالرغم من طول مدة الحكم الإسلامي لها ، إذ ظل نحو ثمانية قرون ونصف قرن متتابعة .

ولكن مما لا جدال فيه أيضاً أن المسلمين أثروا بدينهم وأدابهم وتقاليدهم في المجتمع الهندي في كل ناحية من نواحيه ، وهذا أمر طبيعي في شعب يعيش عيشة واحدة ، ويختلط عن قرب اختلاطاً كبيراً .

كتبت مجلة (ثقافة الهند) التي تصدرها الحكومة الهندية في عددها الصادر في ديسمبر سنة1956 مقالاً تحت عنوان « آثار الإسلام في الهند » نقتطف منه ما يأتي لمناسبته لهذا الموضوع :

« لقد كان أكبر أثر لفكرة الإسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس في تلك الحقبة هو عن طريق الفارسية ، كواسطة تفاهم تأثرت هي الأخرى بدورها إلى حد كبير بالعربية ، وعن طريق كتب التعاليم المقدمة التي ظهرت في عهد الإسلام ، والنتيجة العظمى لهذا الأثر هو النمو التدريجي للإعتقاد المتسع في وحدانية الله ، ونمو العقائد التوحيدية المحلية ، والنتيجة الثانية هو خلق لغة جديدة هي الأوردية التي أصبحت أكثر اللغات شيوعاً في الهند » .

« وهناك آثار أخرى أكثر من أن تسرد بالتفصيل ، إذ أنها تشمل دائرة بالغة الإتساع ، فأنت تراها في طراز المباني والبيوت والموسيقى والرسم والحرف والفنون وفي الهندام والألقاب والرياضة ، وبالاختصار في حياة البلاد بأسرها » .

ثم أخذ يسرد في تفصيل أثر هذه النواحي مما اكتفى هنا بإثبات فقرات منه حتى لا يطول بنا الحديث :

« أما فن البناء فكان أكثر فروع الفن اجتذاباً لاهتمام المسلمين ، فكان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين الأوائل ، وتمثل النبوغ الفني للعمال في رسم الأشكال البديعة على الجدران ، وتنمية التناسق والتناسب في الأبنية »

« وقد عرض « بابر » ذوقاً رفيعاً في الرسم ، ويقال : إنه أحضر إلى الهند معه تحفاً مختارة من الرسوم التي استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك ، وقد نقل بعضها إلى إيران « نادر شاه » بعد غزوة الهند ، ولكنها طيلة بقائها في الهند تركت أثراً عظيماً وخلقت دافعاً جديداً لفن الرسم في الهند .

« وقد برهن أكبر حفيد بابر على أنه راعية عظيم للفن من كل فروعه ، وكان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقة بالقصور الملكية ، وكل منها كمدينة » .

« وقد بنى مصنعاً قرب القصر حيث كانت الأستديوهات والغرف الخاصة بالفنون الأرفع والأكثر شهرة ، مثل الرسم والصياغة وصناعات

الأقمشة والسجاجيد والستائر والأسلحة ، وكان أكبر يتردد عليها كثيراً ويراقب أعمال الذين يمارسون تلك الفنون » .

« يوجد عدد كبير من النماذج الهندية البديعة في مختلف المتاحف الأوربية ، ففي المكتب الهندي بلندن والمتحف البريطاني وبودليان في أكسفورد تحف بديعة نادرة للفن ، يصعب على العالم الغربي إعطاءها حقها من التقدير البالغ الروعة » .

« ويتصل بهذا الفن فن تزيين المسلمين للكتب الدينية والأدبية القديمة بحواش ذهبية مزخرفة ، مما جعل الهندوس يقتبسونه أيضاً ، وكان المسلمون هم الذين أحضروا الورق للهند » .

« وقد ساهم المسلمون كذلك في الرقي بالفن الموسيقي ، حتى كان سلاطينهم يخترعون بعض النغمات الجديدة ، واستحدث المسلمون عدداً من الأدوات الموسيقية الجديدة ، وأطلقوا على بعضها أسماء فارسية » .

« وكذلك أدخل المغول فن تنسيق الحدائق والعناية بها ، مما لا نزال نرى أثره في « لاهور وسرى نكر » في كشمير ، وقد كان لهم ولع بجمال الطبيعة ، حتى كانوا يسافرون المسافات الطويلة إلى بنجاب وكشمير ؛ للتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة ، ولذلك كانوا يجتهدون دائما في إيجاد هذه المناظر في قصورهم وبساتينهم الخاصة والحدائق العامة » .

« وبجوار ذلك بلغ الرقي في تنظيم الإدارة وضبط أداة الحكم حداً بقي الكثير منه معمولاً به إلى عهد الإنجليز » .

« أما المكتبات وتنظيمها والعناية بها فقد كان للمسلمين شغف خاص بذلك ، وعلى رأسهم ملوكهم وحكامهم ، ولقد مات همايون على إثر إصابة حدثت له على السلم وهو نازل من مكتبته التي كان يحب أن يقضي فيها كثيراً من وقته ، كلما خلا من مشاغل الحروب وتنظيم الدولة » .

وهكذا كان للمسلمين أثر وأي أثر على رقي الحياة في الهند في جميع مظاهرها خلال القرون التي تولوا الحكم فيها . اهـ.

ويقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة الهند)(1) « مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها ، ولا أمة ـ كالمسلمين تم لها من النفوذ البالغ ما تم للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا « تاريخ حضارة العرب » ولا تستثن الرومان من ذلك . ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون(2) غير فريق كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيماً ، وظل هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم » .

ويقول الأستاذ مسعود عالم الندوي(3) :

---

(1) ص217 .

(2) بل ثمانية قرون ونصف قرن من سنة 1001 م إلى 1857 م حيث زال المغول وبدأ عهد الإنجليز

(3) في مقال له بمجلة الضياء العربية التي كان يصدرها في لكنو بالهند عدد رجب 1354 هـ تحت عنوان (المسلمون في الهند وتأثيرهم في دينها وحضارتها) . وقد أهدت لي دار العلوم ندوة العلماء في لكنو بعض أعداد الضياء القديمة مشكورة .

« كان أهل الهند يعبدون ثلاثين مليوناً من الآلهة منذ قديم الزمان ، فلما خالطوا المسلمين ، وقرع سمعهم صوت الحق ترقت فكرتهم الدينية ، وجعل مصلحوهم يغيرون شيئاً فشيئاً » .

« وأول من قام بالإصلاح « شنكرا جورج » المولود سنة 786 م والذي دعا إلى وحدة الوجود وعبادة معبود واحد هو « شيفا » (وهو إله الموت عندهم) وكان ذلك زمن قدوم المسلمين في « مليبار » .

ثم يليه « رامانج » الذي دعا إلى عبادة « فشنو » (وهو إله الحياة عندهم) وقد ولد هذا المصلح في القرن الحادي عشر .

« ثم نهض رجال مثل (كبير)[1] و « كرونانك » و « جيتن » الذين اقتبسوا من تعاليم الإسلام السامية ما يلائم هواهم وأسسوا ديناً جديداً . ولا يزال دين « نانك » ـ وأتباعه يدعون « بالسيك » لا يزال هذا الدين القائم على التوحيد منتشراً في البنجاب على الخصوص ، وأتباعه من أشجع الهنود ، وهم أقرب إلى الإسلام منهم إلى الوثنية ، لكن السياسة جعلتهم منحازين إلى الهنادك ، و« نانك » هذا قرأ القرآن وزار بيت الله الحرام » .

« وقام في القرن السالف مصلح كبير في « بنكال » اسمه « رام موهن راتي » قرأ القرآن وتعلم العربية والفارسية والسنسكريتية وبرع

---

(1) كان شاعراً ومن والديه مسلمين وكان صاحب فكرة ترمي إلى المزج بين الإسلام والهندوسية ولا يرى فرقاً بين (يرام) و (رحيم) وبين الكعبة وكيلاش وبين القرآن وبوران (ثقافة الهند ديسمبر 1956) .

فيها ، ولما شاهد أن دين البراهمة لا يتمكن من مقاومة تيار التعليم الحديث الذي يكاد يجرف البقية الباقية من حضارتهم أسس ديناً جديداً سماه (برهمو سماج) ، وأكثر تعاليم هذه الطائفة من التوحيد والمساواة ونكاح الأيامى وغيرها مقتبسة من الإسلام ، وقد مات سنة 1833 م وبدينه يدين (طاغور) ، فيلسوف الهند ، وأكثر كبار رجال الهنادك في بنكال » .

« وكذلك قام مصلح آخر « ديانند »(1) في شمال البنجاب ، ودعا بني قومه إلى التوحيد والمساواة ، وأسس طائفة « آريا سماج » التي هي أشد أمم الهند عداوة للذين آمنوا ، لكنهم مدينون للإسلام ، ولو أنكر الجاحدون » اهـ .

وقد كان تأثر الهندوس بالمسلمين في شمال الهند أكثر منه في جنوبها ؛ لأن الحكم الإسلامي لم يصل للجنوب إلا متأخراً ، وكان الحكم الإسلامي يتبعه حتماً الإختلاط الكثير بالمسلمين ، وتأثر الهندوس تبعاً لذلك . . لذلك تجد جنوب الهند أعرق في عبادة الأوثان من شمالها . قال الميجر « ج . د . باسو » ، وهو من كبار مؤرخي الهنادك في العصر الحاضر(2) : -

« هذه الوثنية الشنيعة والإعتقاد بالخرافات الضاربان أطنابها في جنوبي الهند ، إنما يرجع سببها إلى انعدام نفوذ الحكومات الإسلامية لا غير » .

---

(1) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

(2) في كتابه أرتقاء القوة المسيحية في الهند جـ2 ص106 (نقلاً عن الضياء) .

وقال مؤرخ آخر هندوكي (السير ب . س . راثي) :

« أثرت روح الإسلام الديموقراطية أيما تأثير في تقليل مفاسد نظام الطوائف بين الهنادك ، فدب بذلك دبيب التسامح والتنور في حياة البلاد الإجتماعية » .

وبجوار ذلك تأثر الهندوس بعادات المسلمين وتقاليدهم ، بل وملابسهم ومعيشتهم ، فمن المعروف عن الهندوس البساطة التامة في معيشتهم بخلاف المسلمين الذي يعنون بالمظاهر كثيراً ، وإن كان ذلك الأثر لم يخرج الجميع عن البساطة التي هي شعار سكان الهند ، وقد أدى طول حكم المسلمين إلى مشاركة الهندوس لهم في بعض مظاهر أعيادهم وفي بعض كلماتهم الدينية مثل : بسم الله - الحمد لله - إن شاء الله - السلام عليكم . الخ .

وحين انتشرت اللغة الأوردية أصبحت لغة المسلمين والهندوس على السواء ، وفيها كثير من الكلمات العربية .

* * *

وحين استقر الحكم للمسلمين في الهند على مر القرون ، أخذوا يعملون على توسيع رقعة مملكتهم ، وتوحيد البلاد تحت سلطانهم ، وبذلك رأت الهند نوعاً من توحيد الحكم والسياسة ربما لم يعرفوه من قبل .

وبجوار هذا انصرف المسلمون إلى الرقي بالبلاد من الناحية العلمية والأدبية والفنية والصناعية والمعمارية .

فشهدت الهند عهوداً زاهرة في هذه النواحي كلها لم تشهدها من قبل ، وكانت في ذلك تضارع أرقى البلاد في عصورهم ، بل ربما كانت تفوقها . فكان بلاط الملوك المسلمين ملتقى العلماء والأدباء والفنيين من كل الأقطار ، حيث يلقون العناية والأكرام ، فبرز في العهود المختلفة علماء فطاحل كانوا ولا زالوا فخر الهند بل فخر البلاد الإسلامية كلها ، كالإمام حسن محمد الصغاني(1) ومجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد السرهندي(2) والشاه ولي الله الدهلوي(3) وفطاحل العلماء من أسرته ،

---

(1) نسبة إلى « صاغان » معرب « جاغان » قرية بمرو . أتى آباؤه منها ، وولد بمدينة لاهور شمال الهند سنة 557 هـ أو سنة 577 هـ على خلاف بين مؤرخيه ، وتعلم بها ثم رحل إلى « غزنة » ثم إلى بغداد ، ثم إلى مكة وعدن ثم عاد لبغداد ، وتمتع بإنعامات الخليفة وأرسله إلى سلطان الهند « شمس الدين ألتمش » سنة 617 هـ 1220 م ثم خرج من الهند سنة 624 هـ 1225) م ثم عاد إليها في عهد السلطانة رضية بنت التمش ، ورجع منها إلى بغداد حيث توفي سنة 650 هـ 1252 م ، ثم نقل إلى مكة حسب وصيته . قال عنه السيوطي « إنه كان حامل لواء اللغة » وقال الذهبي « كان المنتهى إليه في اللغة » وقال الدمياطي : إنه كان إماما في اللغة والفقه والحديث . ومن مؤلفاته « مشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية » وله شروح كثيرة ، ومنها العباب الزاخر في اللغة في عشر مجلدات قبل أن يتمه ، منها مجمع البحرين في اللغة أيضاً ، والنوادر في اللغة والتراكيب وله عدا ذلك كثير من الكتب في الحديث واللغة . ا هـ ملخصاً من نزهة جـ 1 ص 137 .

(2) سبقت ترجمته .

(3) هو شيخ الإسلام وإمام المجتهدين في الهند قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم ، ابن وجيه الدين العمري الدهلوي ولد سنة 1114 هـ 1702 م في أيام السلطان عالمكير كان والده من كبار المشايخ في عصره بدهلي ، فرغ من تحصيل العلوم في الخامسة والعشرين وتصوف وبايع على يد والده فجمع بين العلم والتصوف ، وبلغ في كل منهما شأواً عظيماً ، حتى أصبح رأس مدرسة كبرى في الهند للآن ، وكان فصيحاً في العربية والفارسية ، وله عدة تصانيف تعتبر الغاية في السمو العقلي والديني ، وأهمها كتاب « حجة الله البالغة » المعروف . عاش حرباً على البدع والتقليد الأعمى ، وكان يجنح إلى الاجتهاد والترجيح بالرغم من أنه حنفي ، فكان يضعف بعض آراء الحنفية أحياناً تبعاً لقوة الدليل . وقد ترجم القرآن للفارسية ولم يبال بالمعارضين ، =

والسيد أحمد(1) الشهيد والسيد مرتضى الزبيدي(2) صاحب تاج العروس في شرح القاموس ، وغيرهم كثير من فطاحل العلماء الذين أفرد لهم بعض المؤلفين كتباً خاصة ، بسيرهم وأعمالهم(3) ، وقد كان الملوك يتنافسون في إنشاء المدارس والإغداق على العلماء ، وترجمة الكتب الثمينة ، كما كان للعلماء مركز مرموق عند الملوك ، فكانوا يعظمونهم ويقدمونهم على أنفسهم ، ويذهبون إلى زيارتهم في بيوتهم ، وربما كان بعض العلماء يمتنع عن مقابلة الملوك أحياناً برغم إلحاحهم في طلب

= وله عدة كتب في الفقه والحديث والتفسير تعتبر من أمهات الكتب ، كما أن له ديوان شعر بالعربي ، جمعه ابنه الشاه عبد العزيز وبعض مؤلفات في التصوف . وقد حاول إنقاذ حالة الحكم الإسلامي من الضعف ومن تلاعب الملوك ولهوهم . وتوفي سنة 1176 هـ ـ 1762 م وعمره 62 سنة ، ودفن في دهلي مع والده . أ هـ

(1) ستأتي ترجمته .

(2) هو السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني البلجرامي ثم الزبيدي علماً وشهرة ثم المصري وفاة ، ولد بالهند في بلدة « بلكرام » سنة 1145 هـ ـ 1732 م وتتلمذ على شاه ولي الله الدهلوي وغيره من مشاهير العلماء بالهند ، وأجازوه في رواية الحديث ، ثم ارتحل لطلب العلم فدخل زبيد باليمن وأقام بها مدة طويلة ، فاشتهر بالزبيدي ، ثم ارتحل إلى مصر سنة 1167 هـ ـ 1752 م ومكث بها حتى توفي ، وكان نادرة عصره بارعاً في علم اللغة والأنساب والحديث والتصوف ، ومن أهم مؤلفاته تاج العروس في شرح القاموس ، واتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين ، وغير ذلك من أمهات الكتب ، ولعظم شهرته كاتبه ملوك النواحي من الترك واليمن والحجاز والهند والمغرب والسودان وفزان والجزائر . وكان يعرف التركية والفارسية فوق معرفته بالعربية والأوردية ، ومن تلامذته الجبرتي المعروف الذي أفاض في الحديث عنه وعن منزلته بين الحكام والمسلمين في كتابه « تاريخ الجبرتي » وكتب عنه باستفاضة تحت وفيات 1205 هـ ـ 1791 م .

(3) سبحة المرجان في آثار هندوستان لغلام علي آزاد البلجرامي ، نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني .

الزيارة ، فنرى السلطان شمس الدين التمش يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي في بيته ، ويدخل خاضعاً ويسلم عليه كما يسلم المملوك على الملك ، ثم يجلس عند رجليه ويدلكهما ، ويذرف الدموع أمامه ، حتى يدعو له الشيخ ثم يأمره بالإنصراف .

ونجد السلطان جلال الدين فيروز خلجي وخلفه السلطان علاء الدين ، يحاولان زيارة الشيخ نظام الدين البدايوني ، فيمتنع عن استقبالهما ويقول : إن لبيتي بابين لو دخل هو من باب خرجت من الآخر والسلطان « أكبر » كان في مبدأ حكمه يذهب للعلماء في بيوتهم ، ويزورهم ويستمع إليهم ، وكان يمشي عشرات الأميال لكي يزور ولي الله « معين الدين الجشتي » في اجمير ، كما أنه كان يعظم ولي الله الشيخ سليم سيكري ، وبنى مدينة في مكانه القفر الذي كان يقيم فيه واتخذها عاصمة مدة من الزمن ، وسمى ابنه « سليم جهانكير » باسمه ، ولقد كان بعض الملوك من العلماء المؤلفين ، والادباء الفنانين البارزين ، مثل بابر وجهانكير وأورنكزيب وفيروز شاه ملك كولكنده الذي كان ماهراً في علم النبات والهندسة . وغيرهم ، وقد سبق الحديث عن ازدهار الفن في عهد المغول . في عهد أكبر وخلفائه ، فلا حاجة لإعادة الحديث عنه هنا .

أما أنظمة الحكم فبالرغم من أنها كانت قائمة على أساس جمع السلطة كلها في يد الملك ، كما كان سائداً في العالم في ذلك العصر ، إلا أن الهند في ظله قد بلغت من الرقي مبلغاً سعدت به بين الدول الأخرى وربما سبقتها في ذلك .

ومن المهم أن نشير إلى أن الحكم الإسلامي لا سيما في عهد المغول كان قائماً على أساس حكومة وطنية تعمل لصالح الوطنيين ، فلم يكن الحكام يعدون أنفسهم غرباء عن الشعب ، خصوصاً بعد أن اندمجوا فيه وتصاهروا معه ، وكان الحكم متجهاً دائماً لخدمة الشعب والرقي به في جميع النواحي الزراعية والصناعية والتجارية ، ويتمثل ذلك في إقامة المستشفيات والحمامات ، وحفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء الجسور والمدارس ، وإنشاء الحدائق والمتنزهات العامة والأحواض المائية الواسعة ، وضمان الدولة للعجزة عن العمل والمرضى ، وإنشاء الطرق القصيرة والطويلة ، حتى ربطوا أجزاء الهند الشاسعة بعضها ببعض ، ونظموا البريد تنظيماً يضمن وصول الرسائل بسرعة ، وعنوا بإنشاء الإستراحات على طول الطرق . بحيث يضمن فيها المسافر ما يحتاج إليه من راحة وماء وغذاء ، وغرسوا الأشجار المثمرة ، وغيرها على الطرق ، وعملوا على إقرار العدل ووصول الشكاوى للملك ، فوق أنه كان يجلس للشعب دون حاجب يستمع لشكاواه ولو ضده ، ورأينا فيما سبق كيف كانوا يحرصون على إنصاف الرعية بتعليق أجراس على أبواب القصر ، يستطيع أي مظلوم أن يدقها ليعلن الملك بشكواه ، كما كان بعضهم يجلس أمام القاضي فيحكم عليه دون تمييز بينه وبين أفراد رعيته ، وقد وضعوا أنظمة مالية وأخرى إدارية وزراعية ، وظل بعضها أساساً للعمل به حتى في عهد الإنكليز .

* * *

أما المباني وما وصلت إليه من رقي ، فقد سبق الحديث عنها مفصلاً

في مناسباتها ، وكذلك فن الرسم والتصوير .

وبجوار ذلك قامت الصناعات المختلفة في الهند ، ولا سيا صناعة الأقمشة الحريرية وغيرها ، وكانت تصدر إلى مختلف الأقطار حتى تصل إلى أوربا نفسها ، وكانت الشركة الإنجليزية في بدء عهدها تصدر منها البفتة وغيرها إلى انجلترا ، وكان الأوربيون يفضلون الثياب الزاهية المصنوعة في الهند على صناعة بلادهم ، ومن المعلوم أن خيرات الهند ومحصولاتها الوافرة هي التي أطمعت الغرب فيها ، فجاءوا من كل أمة حتى استقر الأمر فيها للإستعمار الإنجليزي .

وأحب في هذا المقام أن أضع أمام القارىء بعض ما كتبه المؤرخون عامة عن حضارة المسلمين في الهند ، ولا سيما المؤرخون الغربيون الذين تعودنا منهم غالباً ألا يثبتوا حسنة للمسلمين إلا إذا كانت واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها .

وأبدأ أولاً بما قاله المؤرخ المسلم الأمير شكيب أرسلان(1) :

« إن المدنية الإسلامية في الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة : إذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والهندية والبوذية وغيرها ، ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر ، حتى صارت الهند بواسطة الإسلام كأنها قطعة من إيران ، واشتهر في الهند كثير من الشعراء الفطاحل الذين كانوا

---

(1) في كتاب حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص319 .

يتحدون عظماء الشعراء الفارسية ، حتى إننا لا نجد بعد العرب في العالم الإسلامي ، لغة وثقافة تضارعان الفارسية وثقافتها » .

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون(1) :

« والمسلمون حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه في عواصمهم : أحمد أباد ، آكرا ، دهلي ، بيجابور وغيرها من المباني ينطق بعظيم حمايتهم للفنون ، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يشجعون الأدب والعلوم أيضاً ، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم ، وليس ذلك في كبرى الممالك وحدها ، بل في صغراها أيضاً ، ومن ذلك أن ملك مملكة كولكنده الصغيرة « فيروز شاه » كان يزاول علم النبات والهندسة والشعر ، ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغيله في الحروب ، وعلى تلك السنة سار ملوك المغول التي كانت حضارتهم أكثر هذه الحضارات ازدهاراً » اهـ .

ويقول عن الأمبراطور « أكبر »(2) :

فترى أنه أحصى الأراضي ومسحها وقدر أنواع تراب الولايات ، وفرض الخراج على حسب الخصب ، فجعل ثلث الغلات للدولة ، وثلثيها للمزارعين ، وألغى كثيراً من الضرائب وصار يدفع إلى ضباطه

---

(1) في كتابه حضارة الهند ص423 .
(2) ص424 المصدر السابق .

رواتبهم نقداً بدل الإقطاعيات ، وداومت دولة المغول على الازدهار في عهد خلفائه « جهانكير وشاهجهان وأورنجزيب » ـ ويقول أيضاً[1] :

« وقد حفزت ضرورة اطلاع الملوك على ما يحدث في الولايات إلى تنظيم شؤون البريد ، لتسير بسرعة وانتظام في كل ناحية ، فلا تزال تجري في كثير من الجهات ، فالبرد (بضم الباء والراء) كانوا سعاة مشاة[2] يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة في الطرق العامة ، وكانت تنصب على جوانب الطرق حجارة بيض ترى ليلاً ، حفظاً للسعاة من الضلال ، ويظهر أن الطرق كانت جيدة في عهد المغول ، فقد زعم « تافرنيه » الذي ساح في الهند أواسط القرن السابع عشر أن طرق الهند خير من طرق فرنسا وإيطاليا ، وكان خفراء من الجنود يحافظون على السياح ، فكانوا مسئولين تجاه قادتهم المقيمين بالمدن الكبرى عن كل ما يصاب به من يرافقونهم منهم » اهـ .

ويقول عن فخامة الملك أيام الأمبراطور « أورنكزيب »[3] :

« كان الملك إذا حط رحله في مكان نصبت له فيه الخيام بسرعة عجيبة ، فيخيل إلى الناظر أن مدينة خرجت من الأرض ذات شوارع وميادين ومفارق وحصون حسنة التخطيط ، وكان لكل خيمة من تلك

---

(1) ص428 .

(2) بل كانوا أيضاً يركبون الخيل المخصصة لذلك .

(3) ص431 .

مكان معلم من قبل على خريطة مرسومة . فتبدو قصور الملك المتحركة مشتملة على ما في أروع المباني من وسائل الراحة » ا هـ .

ويقول(1) :

« وسار المغول على غرار المسلمين الآخرين ، فأداسوا حضارة هؤلاء ، محبين للآداب والعلوم والفنون حباً جماً ، فرحبوا بالعلماء والشعراء ورجال الفن مهما كان جنسهم ، ولا تزال المباني التي شادوها ـ فلم يصنع الغرب ما هو أروع منها ـ تثير العجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حظوة في دولتهم ، فانشأوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحب المغول لعلم الفلك ورثوه كابرا عن كابر» وفي التعليق على هذا كتب يقول :

« لا يزال يرى في دهلي مرصد أنشيء في العصر المغولي قد أقامه « راجاجيبور » « جي سنك » لملك المغول محمد شاه سنة 1720 م الخ » ويعرف بين الناس بالهند باسم « جنتر منتر » باللغة الهندية أي آلة الرصد . ثم يقول بعد ذلك « ولم يبد المغول حماة للآداب والعلوم وحدها ، بل ترى الكثير منهم قد حذقوها أيضاً . فالحق أن حب الآداب ولا سيما الشعر كان نامياً عندهم ، فألف بعضهم كتباً مهمة فيها » ا هـ .

وقد سبق الحديث عن عناية بابر وأكبر وجهانكير بالعلوم والآداب والتأليف والتصوير فلا حاجة لتكرار الحديث هنا .

---

(1) ص434 .

وقال اللورد « ماكولي »(1) :

« إن الفتيات الأوربيات يلبسن ويتزين بثياب ثمينة تنسج بالهند ، ولا يخترن عليها أبداً ثياب بلادهن » .

وقال اللورد كلايف مدير عام شركة الهند الإنجليزية أمام اللجنة النيابية سنة 1776 م .

« إن بلدة « مرشد أباد »(2) تداني « لندن » في بهائها وجمالها . وإنما الفرق بينهما أن الأولى يملك أهلها المزارع الخاصة بهم أكثر مما تملكه الثانية ، ويبلغ عمرانها عدة ملايين (لعله أراد المقاطعة كلها) حتى لو أرادوا إبادة الإنجليز لكفتهم العصي والحجارة في طردهم » ولورد « كلايف » هذا هو الذي انتصر على حاكم « مرشد أباد » « سراج الدولة » سنة 1171 هـ ـ 1757 م ، واستولت الشركة عليها وعلى البنكال كلها .

وقال المؤرخ الإنكليزي « ونسنت » وهو شديد التعصب ضد المسلمين(3) :

« مما لا ريب فيه أن مدينة « أحمد أباد » كانت تعد من أجمل مدن العالم من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر للميلاد أي زهاء ثلاثة قرون » .

---

(1) عن مجلة الضياء عدد شعبان 1354 .

(2) من مدن بنغال .

(3) في كتابه تاريخ اكسفورد ص 271 نقلاً عن الضياء .

أما ابن بطوطة فيصف مدينة دهلي ويقول :

« وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند ، بل مدن الإسلام كلها بالشرق » .

وكان ابن بطوطة قد جاء إلى الهند في عهد السلطان « محمد تغلق » وذلك قبل أن يمر على دهلي مدة كبيرة تحت حكم المسلمين ، ولا شك أنها ازدهرت أكثر من ذلك في عهد المغول ، وقد كانت الهند الإسلامية مهوى افئدة المسلمين ، وملاذ الخائفين الفارين منهم ، بعد اجتياح المغول للبلاد الإسلامية أمام هولاكو ، كما قامت السفارات بينها وبين الممالك المختلفة حولها .

ويجمل بي أخيراً أن أضع أمامك ملخص مقال كتبه أحد المؤرخين الهندوكيين عن أثر الإسلام في الهند وقد عدد تلك المنن العظيمة بعشر[1] :

١ ـ وصل الإسلام الهند بالبلدان الخارجية ، حتى ازدهرت فيها الملاحة والتجارة البحرية التي كانت مفقودة فيها منذ قرون .

٢ ـ بسط الأمن جناحيه في أكثر بقاع الهند ، ولا سيما أقطارها الشمالية وذلك لم يكن متيسراً قبل ملوك المسلمين .

---

(1) لخصه الأستاذ مسعود عالم الندوي في مجلة الضياء .

٣ ـ تكونت وحدة سياسية بتأسيس قسم واحد من الحكومة في جميع أقسام الهند .

٤ ـ اتحدت الأوضاع والملابس في الطبقات العالية والمتوسطة من غير ما فرق بين المسلمين والهنادك .

٥ ـ نشأ فن جديد ممتزج من الفنون الهندية والصينية ، وكذلك تكون فن حديث بديع في البناء ، وترقت صناعات حديثة أخرى من الطراز العالي .

٦ ـ ظهرت لغة مشتركة مسماة بالهندوستانية (وهي الأوردية) ، وكذلك راج أسلوب خاص في الإنشاء بالدوائر الرسمية أنتجه الكتاب الهنادك العاملون فيها ، وازداد هذا الأسلوب رواجاً ، حتى استعاره كتاب اللغة المرهتية في كتاباتهم ونسجوا على منواله .

٧ ـ تمكنت اللغات الأهلية من الذيوع والإنتشار تحت ظلال الحكومة المركزية في دهلي ولم يتيسر ذلك من قبل .

٨ ـ التجديد الديني ، وظهور المتصوفة أيضاً مدين لقدوم المسلمين ، ورسوخ أقدامهم في الهند .

٩ ـ إزدادت الكتب التاريخية واتسع نطاقها حتى أصبح التاريخ فناً مستقلاً .

١٠ ـ كل ما حصل من الرقي في فنون الحرب وأدوات الحضارة يرجع فضله إلى الحكومات الإسلامية .

وخير الكلام وأوجزه في ختام هذا الموضوع ما قاله أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه ، فقد قال بعد أن سرد الكثير عن هذه الحضارة(1) :

« وبالإجمال فمن شاهد تلك الآثار، وقرأ هاتيك الأخبار يعلم أن الإسلام تحقق بحضارة باهرة . وعاش أعصراً زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بها سائر الأمم على شرط أن يقتدوا بأوائلهم » اهـ .

تلك هي الحضارة الإسلامية التي قامت على أرض الهند . وظلت مئات السنين يغذيها أصحابها ويزيدون فيها ، ويدعمون قواعدها ويعلون بناءها . ويغرسون في كل ناحية بذورها ، فتنمو على مر الأيام ، وتمتد فروعها وأغصانها ، ويتمتع الناس بثمارها وظلالها .

ظلت هكذا حتى أراد الله أن يقضي على الملك الإسلامي في الهند ، وأن يغير الحال بعد ما تغيرت النفوس ، وأن يزيل هذا الملك العظيم على يد الإنجليز ـ والإنجليز دائماً في كل مكان ـ فأخذ وجه الحياة يتبدل ، وتنكرت الظروف للمسلمين ، فأصبحوا عبيداً بعد أن كانوا سادة ، واشتد ضغط الإنجليز عليهم في كل ناحية من نواحي حياتهم ؛ خوفاً من أن يرفعوا رؤوسهم ، ويستعيدوا سلطانهم ، وأخذ الإنجليز ينشرون لغتهم وثقافتهم ، وعكف المسلمون الذين خافوا على دينهم وثقافتهم من الفاتحين الغاشمين ، عكفوا على حفظها بما استطاعوا أمام التيار الغربي الجارف .

---

(1) حاضر العالم الإسلامي جـ4 ص342 .

وتطورت الحياة في الهند ، وتطور أكثر الناس فيها ، ولكن بقي أكثر المسلمين ، وعلى رأسهم العلماء ـ ينظرون إلى هذا التطور نظرة مريبة ، فبثوا الألغام في طريقه ، وملأوا عقول الناس بأن كل حديث بدعة ضلالة ، وكانوا في ذلك ـ على ما أعتقد ـ مدفوعين بالنية الطيبة ، مع الخوف من الفساد الغربي الذي يفد مع الإستعمار في كل مكان ، فحاربوه وحاربوا معه كل جديد تقريباً(1) وعكفوا على علوم الدين يفهمونها على قدر استطاعتهم ويفهمونها للناس ، وذلك في نظرهم هو الطريق الصحيح لكسب العلم في هذه الحياة ، وما عدا ذلك فرجس من عمل الإنجليز ، لا بد أن تسد أمامه الأبواب والمنافذ ، حتى لا يتطرق إلى نفوس المسلمين ، فيخلخل فيها عقائدهم وإيمانهم ، ويضعف عنايتهم بأمور دينهم .

وهكذا أصبح عامة المسلمين في الهند حينذاك محصورين بين ضغط الحكومة واضطهادهم وإفقارهم ، وتهيئة كل سبل الجهل والضعف لهم ، وبين فكرة العلماء في محاربة كل جديد ، ولو علما نافعاً من علوم الطب والهندسة والكيمياء وما على شاكلتها ، فتأخر المسلمون ، تأخروا عن الركب كثيراً ، ومن تعلم منهم تعليماً حديثاً فقد تعلم بعد أن حطم

(1) وما زلنا نرى ذلك للآن حتى في كراهة كثير من المسلمين للملابس الإفرنجية (البدلة وتوابعها) حتى في حلاقة الرأس يكرهون التدريجة المعتادة عندنا في مصر ويسمونها إنجليزية ، حتى إن بعض العلماء يعيب لبس الحذاء ذي الرباط لأن الإنجليز كانوا يلبسونه ، ويكرهون الأكل بالملعقة والشوكة والسكين للملك أيضاً ، ويتحاشون ـ في اختصار ـ التشبه بالإنجليز في أي شيء ، وهذه روح في أصلها طيبة لكن المبالغة فيها وقياس دين المرء على أساسها شيء يضايق كثيراً .

القيود من حوله ولم يبال بسخط العلماء ، بل نقم على مر الأيام منهم ومن أفكارهم ، وتبعاً لهذا نشأ خصام عنيف بينهم وبين العلماء وأتباعهم . كما حدث بين متخرجي جامعة عليكرة مثلاً وبين العلماء الديوبنديين وغيرهم ، وكانت النتيجة على كل حال تأخر ركب المسلمين ، وانزواءهم قليلاً أو كثيراً عن إخوانهم في الوطن من الهندوس .

وبقيت بالرغم من كل هذا آثار آبائهم وأجدادهم تشير إلى عظمة الماضي وتنفخ فيهم أن يهبوا ليصلوه بحاضرهم ، إن لم يكن في ميدان الحكم ففي ميدان التقدم والعلم .

تلك هي الآثار والحضارة التي لا تزال الهند الحاضرة تعتز بها للآن ، كما سيعتز بها كل من يأتي من سكانٍ هذه البلاد إذا حماها الله من التعصب الهدام .

الغرب يتحرك نحو الهند

البرتغال

تحدثت في مبدأ هذا الكتاب عن علاقة الهند القديمة بغيرها من الدول الواقعة على الغرب منها ، سواء كانت دولاً عربية أم غيرها ، وكيف كانت تجارتها ومحصولاتها تنقل إلى ذلك العالم الغربي منها بوساطة التجار والبحارة العرب ، وقد ظل الأمر كذلك ، بل ازداد على مر الأيام نتيجة للحكم الإسلامي وتقدم البلاد ، وازدياد حاجات العالم لتجارة الهند وخيراتها ، وكانت هذه الخيرات تصل إلى أوربا عن طريق

مصر والبلاد العربية ، وكانت تصل مصر إما عن طريق بحر العرب ثم البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها تنقل براً إلى الإسكندرية ، وإما عن طريق الخليج الفارسي فنهر الفرات ، ثم تنقل السلع براً إلى موانىء الشام ، ومن هذه الموانـي في الشـام أو من الإسكندرية كان التجار الأوربيون وبحارتهم يتولون نقلها وتصريفها في أوربا ، وكانت الضرائب تجبى على هذه السلع ، تتولى جبايتها الدول التي تمر بها ، ولقد جاء على مصر وقت امتد فيه نفوذها على الشام فكانت تسيطر على الطريقين ، وتجبي الضرائب منهما ، وكثيراً ما تكون مرتفعة نظراً لحاجات الملوك للمال . . .

وقد كان الغربيون يجدون حرجاً من ارتفاع الضرائب ، ومن تحكم المسلمين في تجارتهم ، ولا سيما ملوك مصر الذين تولوا طرد الصليبيين من الشرق ، وكان هناك بجوار ذلك منافسة بين تجار البندقية وتجار « جنوا » في احتكار السلع الآتية من الهند لبيعها في أوربا بالثمن الذي يريدونه .

وقد استطاع تجار البندقية أن يسيطروا على نقلها ، ويحتكروا التجارة فيها ، وكانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة التي يسيل لها اللعاب ، ونتج من ذلك تغيظ أهل جنوا وبحثهم عن وسيلة ينتصرون بها على البندقية .

وكان هناك حالة نفسية في أوربا عقب الحروب الصليبية ، وعقب حروب الأندلس وطرد المسلمين منها ، وكانت البرتغال هي التي تتولى هذه الحركة في الأندلس ، إذ كانت تعد نفسها حامية العالم المسيحي

ومنقذة الأندلس من المسلمين ، كما كانت تعتبر من الواجب المقدس عليها أن تعمل للقضاء على نفوذ الإسلام في أي مكان كان .

وكان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة البرية والبحرية منها ، ويتحكمون في فرض الضرائب ، فنتج عن هذا وذاك رغبة في التخلص من حكم المسلمين ، بل والقضاء على سيطرتهم على البحار ، بل والقضاء عليهم في الهند نفسها ، وفي العالم الإسلامي ما أمكن .

ووجد أهل « جنوا » شريكاً لهم يرغب في التخلص من هذا الإحتكار وإن اختلفت الأسباب ، وبذلك تلاقت جهود جنوا والبرتغال .

وكان هذا التلاقي بدء مجهود جبار ظل يبذل عشرات السنين للوصول إلى الهند عن طريق آخر غير الطريق الذي يسيطر عليه العرب ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح . .

وقد بدأ العمل لتحقيق هذا الهدف « الأمير هنري » ابن الملك يوحنا الذي تولى طرد العرب من الأندلس ، والذي اشتهر فيما بعد بإسم « هنري الملاح » .

هنري الملاح : (1394 هـ ــ 1460 م)

كان هذا الأمير متشبعاً بكراهة المسلمين وبالرغبة في نشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، وكان رئيساً لطائفة تدعى « فرسان يسوع المسيح » .

وقد غفل بعض المؤرخين عن بواعثه في العناية بحركة الكشف ، فادعوا أنه كان يعني بها لذاتها ، ولكن الواقع الصحيح يدل على أنه انبعث لهذا العمل برغبة دينية قبل كل شيء ، وهي إضعاف المسلمين بكل الوسائل التي يستطيعها ، وكان أول شيء في نظره هو القضاء على نفوذهم في البحار الشرقية ، والتخلص من سيطرتهم على تجارة الشرق في مصر والبلاد العربية ، ولتحقيق هذه الغاية استغل مالية الجماعة المسيحية التي كان يرأسها ، وبدأ يرسل البعثات البحرية لكشف سواحل أفريقيا الغربية لقصد الوصول إلى الهند ، وكانت هذه السواحل مجهولة تماماً في ذلك الحين .

وقد حصلت هذه الحملات الكشفية على نجاح إثر نجاح شجعه على مواصلة العمل ، لكنه مات سنة 865 هـ ـ 1460 م قبل أن يحقق هدفه .

ولكن النجاح الذي لقيته هذه البعثات في معرفة البلاد الغنية ، واستغلال ثروتها على الساحل الأفريقي الغربي ، جعل البرتغال تتابع العمل الذي بدأه هنري الملاح ، حتى اكتشف « بارتلوميودياز » سنة 893 هـ ـ 1487 م رأس العواصف في طرف أفريقيا الجنوبي ، وهو الذي سمي ـ تفاؤلاً ـ رأس الرجاء الصالح ، ولأنه كان مفتاح الرجاء للوصول إلى الهند .

وفي سنة 903 هـ ـ 8 يوليو 1497 م خرج « فاسكودى جاما » على رأس حملة يريد الوصول بها إلى الهند عن هذا الطريق ، فوصل إلى رأس الرجاء ، واستدار شمالاً على الساحل الشرقي ، وقد فطن التجار العرب

الذين كانوا يسيطرون على التجارة في مدن الساحل الشرقي لأفريقيا إلى هدف البرتغال من هذه الرحلات ، وعندما وصل إلى « موزمبيق » وأخذ يستطلع الأنباء عن الطريق للهند ، خشي العرب أن يكون هذا بدء صراع معهم بقصد انتزاع التجارة من أيديهم ، فحنقوا عليه وأحجموا عن مده بأية معلومات ، وهكذا لقي من العرب في كل ثغر مر به .

لكنه استطاع بمعاونة أحد الربابنة الهنود أن يعرف معلومات عن الطريق ، بل أخذه معه ليدله عليه ، حتى وصل إلى « كاليكوت[1] » في 20 مايو سنة 1499 م ـ 905 هـ . وكانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة العربية في الهند ، كما كانت « ملقا » أهم المراكز العربية في الجزائر الشرقية للتجارة معها ، ومع الصين واليابان ، وكان العرب هم أصحاب التجارة وأسياد البحار في هذه المناطق من قديم ، ومع أنه كانت تقوم بينهم وبين الهنود والصينيين منافسات شأن التجار دائماً ، إلا أن الملاحة والتجارة كانت حرة لا يتدخل ملك ولا جماعة في القضاء على جماعة ، وكانت سفنهم الصغيرة أو الكبيرة خاصة بالتجارة ، ولا تعرف الحرب ولا تستعد لها ، لذلك كان وصول المراكب البرتغالية الكبيرة حادثاً جديداً لهم . .

---

(1) تقع كاليكوت جنوب الهند في ملابار على شاطىء بحر العرب ، وهي من البلاد التي وصلها الإسلام مبكراً على يد التجار والبحارة العرب ، وقد زرتها في نوفمبر 1957 م فوجدت بها جالية عربية للتجارة ، وللمسلمين فيها نشاط وحرية وعدة مدارس صغيرة وكبيرة ، ولا تزال ميناء ومركزاً للتجارة مع العرب .

وعندما وصل « دي جاما » إلى « كاليكوت » ـ كانت في حكم « الزامورين » أو « السامري » الهندوسي ، وكان للعرب عنده مكان ملحوظ ، فأخذوا يغرونه بالطارىء الجديد ، وينبهونه للخطر الكامن وراء مجيئه هكذا مدججاً بالأسلحة ، مما جعل « الزامورين » يستريب فيه ، ويقبض عليه أولاً هو ورجاله ، ثم أطلقه بعد مدة تمكن فيها « دي جاما » من إظهار نواياه الحسنة ، وعقد معه معاهدة تجارية ، وحمل مراكبه بمختلف السلع والأحجار الكريمة وعاد إلى « لشبونه » في سبتمبر سنة 1499 م ـ 509 هـ .

وقد استطاع « دي جاما » في رحلته هذه أن يجمع معلومات عن التجار العرب والبحرية العربية ، فلما رجع أخذ يهون على الملك البرتغالي أمر القضاء على العرب أعداء دينه ، فإن سفنهم الصغيرة لا تستطيع الثبات أمام السفن البرتغالية الكبيرة المسلحة ، كما أخذ يبشره بإمكان تكوين مستعمرة برتغالية كبيرة في الشرق ، ويجب أن نشير إلى أن هذا الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون إلى الهند كانت تقوم في شمالها ووسطها عدة دول إسلامية قوية بجانب حكومة دلهي في عهد « اسكندر اللودى » فكان في كجرات دولة إسلامية قوية ، وفي « مالوا » كذلك ، كما كان في الدكن أربع ممالك إسلامية قامت على أنقاض الدولة البهمنية الإسلامية ، هذا عدا الممالك الإسلامية في شرق الهند .

ولكن كان يجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوسية ، وأهمها في الطرف الجنوبي مملكة « فيجايانكر » وكانت الحروب والعداوات دائمة بين الهندوس والمسلمين في هذه المنطقة .

وكانت مصر في حكم المماليك الشراكسة ، وقد تولى السلطان الغوري حكم مصر بعد وصول « دي جاما » للهند بنحو سنتين ، كما كان في تركيا السلطان سليم الأول ، وقد كان اكتشاف الطريق الجديد للهند أكبر ضربة وجهت لمصر والبلاد العربية الإسلامية التي كانت تمر منها التجارة ، وتمتلىء خزائنها بالمال ، ولا سيما مصر التي كانت تملك كل الطرق التجارية في ذلك العهد ، وذلك بما كانت تجبيه من الضرائب وما يدخل في جيوب أهلها من المال ، نظراً لقيامهم بنقل التجارة وغيره ، إذ أن ذلك كله قد انتهى بتحول التجارة عن بلادهم إلى الطريق البحري الجديد.

كبرال :

بعد « فاسكودي جاما » خرج « كبرال » سنة 906 هـ ـ 1500 م متجهاً إلى الهند من الطريق الجديد على رأس أسطول مسلح بالمدافع ، وبدأ الإحتكاك بينه وبين العرب التجار منذ وصل إلى ميناء « كاليكوت » ، فدمر بعض سفنهم كما دمروا له المركز التجاري البرتغالي فيها ، وانضم « الزامورين » للعرب ، فأخذ « كبرال » يستغل الخلاف الذي بينه وبين الأمراء المجاورين له في « كتشن »(1) « وكانانور » فانضموا إليه وساعدوه ، ولكنه أخيراً اضطر أمام قوة الزامورين البحرية إلى العودة للبرتغال ، ولكن محملاً بالبضائع والنفائس الشرقية . .

---

(1) في الجنوب من كاليكوت ، وقد زرتها في نوفمبر سنة 1957 أما « كانانور » ففي الشمال منها وقد زرتها كذلك ، والمدن الثلاثة تقع على بحر العرب . . ولكن كوتشن مبناؤها أكبر من كاليكوت بكثير .

وإزاء هذا العداء الذي بدا من الزامورين وانحيازه للعرب ، أعدت البرتغال حملة قوية تحت قيادة « دي جاما » ليقضي على العرب ويجبر الزامورين على الإنصياع له ، وسار « دي جاما » إلى الهند يعترض كل سفينة عربية ويحطمها ، حتى نشر الرعب في البحر العربي ، وبلغت هذه الأنباء المزعجة أسماع الزامورين فاستعد له ، ولكن سفنه كانت غير مزودة بالمدافع مثل السفن البرتغالية ، مما أوقع بها خسائر كبيرة في إحدى المعارك كما أنه قتل أيضاً ، وقام خلفه من بعده على خطته ، ولكنه رأى ألا قبل له بمنازلة هذا العدو وحده ، فاستعان بملك مصر « قانصوه الغوري » ـ وكلاهما في الهم شرق ـ فكتب السلطان الغوري للبابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة ببيت المقدس إن لم يستدع البرتغاليين من الهند ، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار ، ولكن البرتغال لم تعبأ لهذا ، واستمرت في عدوانها للقضاء على العرب المسلمين ، وأرسلت حملة بقيادة « فرنسيسكو ألميدا » ، وكانوا قد وضعوا خطة لذلك ؛ أن ينتزعوا « ملقا » في الجزائر الشرقية من العرب ، كما ينزعون شاطىء أفريقيا الشرقي منهم ، ثم يستولون على « عدن » و« هرمز » مفتاحي البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وبذلك يتمكنون من استئصال شأفة المسلمين نهائياً في البحار وفي التجارة . .

ولو أن المسلمين في جميع الدول تنبهوا لهذا ، وتركوا خلافاتهم ليقابلوا عدوهم لأمكن لهم أن يقضوا على البرتغال ، ويرجعوها إلى رقعتها الصغيرة في أوربا ، ولكنهم للأسف قد أهمتهم أنفسهم ولم

يتعد نظرهم مواقع أقدامهم ، لذلك اتيح لهذه الدولة أن تسيطر على الشرق ، وأن تهزم البحرية الإسلامية ، وتقضي على النفوذ العربي في البحار .

استجاب « قانصوه الغوري » لطلب الزامورين الذي انضم إليه في الوقت نفسه ملك الكجرات السلطان « محمود بيكرو » ، وجاءت السفن المصرية بقيادة الأمير حسين وكان مزوداً بأحدث الأسلحة ، وانضم إلى الأسطولين ، واستطاعوا أن يهزموا البرتغال أولاً أمام سواحل ملابار بكاليكوت سنة 914 هـ ـ 1508 م ، وكاد أمل البرتغال يقضى عليه ، لولا أن تشبث « ألميدا » بالأمل ، وأعاد تجميع ما بقي من أسطوله ، واتجه به نحو الشمال ، حيث كان الأسطول المصري بقاعدته في « ديو » من مواني « كجرات » ، وهناك ساعدته الخيانة في التغلب . فقد كان حاكم « ديو » من قبل السلطان محمود من أصل أوربي فانضم سراً للبرتغاليين ، ومنع تموين الأسطول المصري ، فاستطاعوا بذلك هزيمة الأسطول المصري والهندي سنة 914 هـ ـ فبراير 1509 م . وإزاء هذه الحالة ، وإزاء الظروف الجديدة في مصر ، حيث كان الأتراك بقيادة سليم الأول يتحرشون بها للقضاء على سلطان المماليك وضمها إليهم ، إزاء هذه الظروف رجع الأسطول المصري ، وبذلك انفتح الباب الواسع للنفوذ البرتغالي في الشرق وفي البحار ، وكان ذلك بدء استعمار الغرب للشرق مئات السنين التي تلت هذه الواقعة ، ولو قدر للأسطولين المصري والهندي هزيمة البرتغاليين ، والسيطرة على البحار ، وطردهم منها إلى الغرب لكان من الممكن أن يتحول مجرى التاريخ ،

وتتخلص الدول الشرقية من استعمار طال أمده ، ولا زالت تعاني للآن أثره .

ومن المهم أن نشير مع ذلك إلى ما فعله البرتغاليون تطبيقاً لخطتهم في القضاء على العرب في شرق أفريقيا ، فقد هجموا على الموانى التي يسود فيها النفوذ العربي فأحرقوها ونهبوها ، وقتلوا الآلاف من سكانها ، حدث هذا في « كاوه » وفي « موزمبيق » بقيادة « ألميدا » وهو في طريقه للهند . .

وقد قتل « ألميدا » أثناء رجوعه في جنوب أفريقيا ، فتولى أمر القيادة « البوكيرك » سنة 1509 هـ ـ 1515 م ، وهو أعظم قائد برتغالي متعصب وطد نفوذ البرتغال في الشرق .

فقد استطاع الإستيلاء على « جزيرة سقطرة » ، واتخذها قاعدة بحرية له ، ثم طلب من ملك هرمز ، على الخليج الفارسي الخضوع له ، ودفع الخراج بعد أن هزمه وأغرق 400 سفينة له ولغيره ممن تجمعوا لحربه فاستجاب له ، ومع ذلك لم يستطع إخضاع « الزامورين » في « كاليكوت » بالرغم من الهجوم المفاجىء عليه ، فإنه استطاع أن يتصدى للعدو ، وينزل به هزيمة شديدة حتى قتل أحد القواد ، وحمل « البوكيرك » نفسه مجروحاً إلى سفنه . بعد ما حاول محاولة يائسة الإستيلاء على كاليكوت واتخاذها قاعدة له ، ومات في « جوا » سنة 1515 م ، وكان البرتغاليون قد استطاعوا بمساعدة الهندوس المراهتا ، وفي مملكة فيجايانكر أن يستولوا على « جوا » سنة 1510 م ، وكانت في آخر أملاك عادل شاه ، وقد انضم الهندوس للبرتغاليين مدفوعين بعامل

الكراهة للمسلمين ، وبالرغبة في القضاء على نفوذهم ، كما منحوهم بعض القواعد في بلادهم لتوطيد أقدامهم . وهكذا جمعت هؤلاء الرغبة في القضاء على النفوذ الإسلامي ، وقد استطاع « البوكيرك » أن ينشيء قواعد برتغالية في : ديو ، وجوا ، وملقا ـ التي استولى عليها من العرب ـ وهرمز ، وسقطرة .

وبذلك وطد نفوذ البرتغال في الشرق ، وأصبح مرهوب الجانب صاحب نفوذ واسع ، فقد كانت الملاحة في البحار تحت رحمته ، وإن كانت قواعده في الهند لم تتعد عدة بلاد اتخذها مراكز لتجارته ، وحصنها للدفاع عنها .

وظلت البرتغال في الهند حوالي قرن أصابها في نهايته الإنهيار ، حيث استولى عليها الملك « فيليب الثاني » ملك أسبانيا ، وضمها إلى أملاكه وأصبحت مستعمراتها في الهند تحت حكم الإسبان ، وذلك سنة 988 هـ ـ 1580 م ، وبالرغم من أن البرتغاليين هم الذين فتحوا الطريق لأوربا إلى الهند ، وسبقوها إلى استغلال خيراتها ، والسيطرة على بعض بلادها ، فإنهم لم يستطيعوا الثبات فيها كثيراً ، وربما كان للمنافسين الذين ظهروا بعد ذلك من الهولنديين والإنكليز والفرنسيين ، والذين استقبلهم الهنود استقبالاً حسناً ليخلصوهم ، أو على الأقل ليقضوا بهم على البرتغاليين الذين لم يفتأوا منذ نزلوا الهند يسيئون إلى دولها ، ويتدخلون في المنافسات بينها ، ويعملون على التبشير بالدين المسيحي ـ ربما كان ذلك من أهم الأسباب في القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند ، حيث لم يبق لها إلا « جوا » و « دمن » و « ديو » ،

وهي مدن صغيرة حولها بعض قرى على الساحل الغربي من الهند ، وهذه هي الولايات الصغيرة التي تتمسك البرتغال بها للآن ، برغم إلحاح الهند عليها بتركها كما فعلت انجلترا وفرنسا(1) .

هولندا

بدأت خيرات الشرق تتدفق على أوربا بكثرة بوساطة البرتغاليين ، وبدأت الأموال تتدفق على البرتغال من وراء ذلك ، وكان الهولنديون باعتبارهم أمة بحرية يتولون نقل التجارة الهندية من الموانى الإسبانية والبرتغالية إلى أوربا الشمالية ، وكانوا في ذلك الوقت تابعين لإسبانيا ، ولكنهم قاموا بثورة أدت إلى إعلان استقلالهم سنة 1581 م ، فحرمهم الملك « فيليب » لذلك من نقل التجارة إلى الشمال ، ولم يسكت الهولنديون على هذا الحرمان ، بل إنه دفعهم إلى المجازفة ـ وكانوا أمة بحرية ـ فخاضوا البحار التي خاضها البرتغاليون من قبل ، ووجدوا في ذلك عنتا شديداً ؛ لأن البرتغاليين جعلوا سر البحار والطرق التي اكتشفوها خاصاً بهم ، وتألفت الشركات الهولندية من أجل التجارة الهندية ، ثم اندمجت هذه الشركات في شركة واحدة بإسم شركة الهند الهولندية 1011 هـ ـ 1602 م .

ونزلت هولندا ميدان المنافسة مشبعة بالعداء للبرتغاليين ، والرغبة في القضاء عليهم في الهند .

---

(1) كانت فرنسا تسيطر على بعض المدن على الساحل مثل نيوماهي شمال كاليكوت وغيرها فتركتها بعد انسحاب الإنجليز . وقد زرت نيوماهي في رحلتي للجنوب في نوفمبر سنة 1957.

وكانت خطة الهولنديين في الشرق هي السير في هدوء مع أهل البلاد للحصول على أكبر قدر ممكن من التجارة ، غير متدخلين في مسائل التبشير بالمسيحية ، وإن كانت أساليبهم قد اعتمدت على القوة فيما بعد ، وقد استطاعوا أن يهزموا الأسبان والبرتغال ، ويؤسسوا محطة تجارية في « جزيرة جاوا » بأندونيسيا عام 1007 هـ ـ 1598 م ، وبدأوا من ذلك الوقت يتوسعون في جزر الملايو بعقد المعاهدات تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، واستولوا على ملقا من البرتغاليين سنة 1015 هـ ـ 1606 م ، ثم أسسوا عاصمة لهم في « جاوا » تسمى « بتافيا » سنة 1029 هـ ـ 1619 م ، ومنذ ذلك الوقت وهم يستعمرون أندونيسيا حتى بعد الحرب العالمية الأخيرة ، حيث استطاعت أندونيسا أن تخوض معهم حرباً بعد جلاء اليابانيين ، انتهت بإعلان استقلالها وتكوين جمهورية مستقلة بها .

أما في الهند فقد استولوا على « سيلان » ، ثم عقدوا معاهدة مع الزامورين ضد البرتغال سنة 1013 هـ ـ 1604 م واستولوا على « كوتشن » سنة 1071 هـ ـ 1660 م ، وأنشأوا مراكز تجارية في سورت وأحمد اباد وأكرا ، ولم تتوسع هولندا كثيراً في الهند ؛ إذ لم تستطع منافسة الإنجليز ، فوجهت كل نشاطها إلى الجزر الشرقية الغنية بالمحصولات . وفي سنة 1240 هـ ـ 1824 م تنازلت عن أملاكها في الهند لإنجلترا مقابل استيلائهم على أملاكها في « سومطرة » .

إنجلترا وشركة الهند الشرقية الإنجليزية

بلغ التنافس بين الدول الغربية حد السعار في الإستيلاء على أراض جديدة ، والحصول على مغانم وفيرة من خارج بلادها ، فاتجهت في

اكتشافاتها واستعمارها نحو الغرب ونحو الشرق ، واصطدمت بعضها ببعض ، واستطاع الأسطول الإنجليزي أن يقهر « الأرمادا » الإسباني سنة 977 هـ ـ 1588 م وفتح هذا النصر الباب للسيادة البحرية الإنكليزية .

وفي ذلك الوقت كانت البلاد الشمالية الأوربية تشكو مر الشكوى من ارتفاع أسعار التوابل التي تستوردها البرتغال وأسبانيا من الشرق ، وبدأت رؤوس تفكر في عمل ما تعمله هذه الدولة المحتكرة ، وتذهب بنفسها لجلب التجارة من هذه البلاد الشرقية ، واجتمع بعض زعماء لندن لبحث هذه الفكرة ، وشجعهم على ذلك ما حصلت عليه بعض السفن البريطانية من جواهر وبهارات ، وعقاقير ومنسوجات من سفينة هولندية استولت عليها ، حين كانت قادمة من الشرق محملة بخيراته ، فأسال ذلك لعاب الإنجليز ، وجعلهم يقررون تأليف شركة تجارية تقوم بهذه المهمة ، وتقدموا بطلب للملكة « اليزابيت » لتأليف هذه الشركة ، فصدر المرسوم بتأليفها في سنة 1009 هـ ـ 31 ديسمبر 1600 م .

وقد ساعدت الدولة على ذلك « مدفوعة بعاملين : أولهما سياسي ، وهو العمل على كسر شوكة إسبانيا . وثانيهما تجاري ، وهو حرمان الأسبان من احتكار التجارة الهندية العظيمة الأرباح ، وتحويل جانب منها إلى أيدي الإنجليز »[1] .

وكثير من المؤرخين يقولون : إن غرض الشركة أولاً كان تجارياً

---

(1) تاريخ أوربا الحديثة ص291 .

بحتاً ، ولعلهم في هذا يأخذون بظاهر ما أعلنته الشركة عند قيامها ، ولكني أخالف هؤلاء وأستريب في نية الشركة ؛ فإن ذلك الزمن كما قلت سابقاً كان زمن تسابق بين الدول في كسب مستعمرات جديدة في الغرب والشرق ، والإنجليز حين ألفوا هذه الشركة كانوا يعلمون جيداً ما فعلته البرتغال في الهند في مدى قرن من الزمان ، من تأسيس مستعمرات بها ، وبسط نفوذها عليها بجانب التجارة ، فلا بد أنهم حين هموا بتأليف الشركة وضعوا أمام نظرهم هذه الحقيقة ، إن لم يكن من الأهالي فمن الحكومة على الأقل ؛ فقد تعلمنا من خطط الإنجليز أنهم يخفون دائماً مآربهم الحقيقية وراء مظاهر مختلفة ، ونحن المصريين قد أخذنا درساً منهم في هذه الناحية ، حينما تستروا وراء المال لاحتلال مصر واستعمارها ، فلا يمكن لنا الآن أن ننخدع بمظاهر أقوال الشركة دون أن ننظر إلى الحقائق التي كانت تختفي وراء هذا القول وهذا العمل ، وإن أعمال الشركة فيما بعد كفيلة بأن تؤيدنا ، وتجعلنا نخالف هؤلاء المخدوعين ، لا سيما وتلك السياسة الخفية كانت سياسة فرنسا وهولندا في الهند وفي الجزر الشرقية ، فلا يعقل أن تكون انجلترا أم الإستعمار بريئة من هذه النية .

بدأت الشركة ضعيفة في أول الأمر كشأن كل مولود ، واعتمد الإنجليز على الحيلة والتودد إلى حكام الهند وتقديم الهدايا المختلفة لهم ، وكان الحكام متضايقين من البرتغال ، وسلوكها الخشن معهم ، فتقبلوا الإنجليز بقبول حسن ، وربما فكر بعضهم في استغلالهم لضرب البرتغاليين ، وكسر شوكتهم ، وتقرب الإنجليز إلى الملك « أكبر » المغولي الذي كان يفتح بابه لكل طارق من هؤلاء ومن المبشرين

أيضاً ، وكان ظاهر هؤلاء التجاري مع قوة ملوك الهند باعثاً لهم على ألا يفكروا في العواقب ، فما كان أحد يظن أن هؤلاء الذين جاءوا يلتمسون الرزق ، ويقفون بباب الأمراء والحكام وأصحاب التجارات ينقلبون يوماً من الأيام إلى سادة يتحكمون ، فلم يكونوا في نظر الحكام إلا تجاراً مرتزقين ، من أجل هذا لم يعطهم الحكام أية عناية من الناحية السياسية ، وأحياناً كانوا يعطفون عليهم ويمنحونهم بعض التسهيلات ، كرفع الضرائب عنهم ، وإعطائهم إذناً بإنشاء مراكز تجارية لهم ، ولم يكن المركز إلا قطعة أرض يقام في ناحية منها بعض أكشاك خشبية للموظفين ، يحيط بالجميع سور من الأسلاك أو من غيرها ، شأنها شأن مراكز « بنك التسليف » المعروفة في مصر ، وكان يقوم بحراسة هذه المراكز حراس وطنيون ، ثم تدرجوا فجعلوا الحراس أيضاً من أبناء جنسهم ، وأخذوا يسلحونهم بحجة الحراسة ، ومن هنا نبت الجيش الإنجليزي ـ المكون من الإنجليز ومن أبناء البلاد الذين انخرطوا في سلكهم ـ تكون الجيش الذي أخضع الهند لسلطان الإنجليز فيما بعد ، وقد رأت الحكومة الإنجليزية أن تعين لها معتمدين لدى حكام الهند ، فإن ضرورة وجود الإنجليز والتجارة الإنجليزية أصبحت تقضي باتصال حكومي على أي نوع كان ، ولم يكن ذلك الاتصال موجوداً من قبل ، فعين الملك « جيمس الأول » ممثلاً له في بلاط الملك المغولي « جهانكير » .

« وحين ظهر هذا السفير ممثلاً لملك انجلترا وشركة الهند الإنجليزية معاً لدى بلاط « جهانكير » المغولي قال له وزراء هذا الملك : إن ملك

إنجلترا ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون ، فلما مضت سنتان ونصف على إقامته هناك دون أن يظفر بطائل عند الملك المغولي ضرع إليه أن يعطيه كتاباً لمولاه ، فقال له الوزير الأول : إن مما لا يناسب قدر ملك مغولي أن يكتب رسالة إلى أمير صغير كملك انجلترا ، بيد أن تلك الشركة الإنكليزية لم تقنط ، فنالت بالدسائس براءة من الملك المغولي سمح لها فيها بأن تتاجر في « سورت » ، فاتسعت أعمالها بالتدريج »[1] ، وكان قد تغير السفير وأصبح « توماس رو » ، فتقرب إلى الملك ، واختلط بحاشيته ، واستطاع أن يحصل على إذن بإعفاء التجارة الإنجليزية من الضرائب ، فاستطاع هذا أن ينشىء محطات تجارية للشركة في « سورت » سنة 1021 هـ ـ1612 م ثم في « برهانبور » و« أجمير » و« أكرا » بعد ذلك بسنين قليلة .

واشتدت المنافسة بين الشركات الإنجليزية والهولندية والبرتغالية ، ولكن اتجه هم الإنجليز أكثر إلى الشركة الهولندية الجديدة ، أما البرتغاليون فلم يعدلهم خطر كبير ، وبإسم المنافسة بينها وبين الهولنديين أخذت تحصن مراكزها لحماية تجارتها ، وقد استطاعت سنة 1043 هـ ـ1633 م أن تحصل على إذن بإنشاء مركز تجاري لها في البنكال ، وفي سنة 1049 هـ ـ1639 م أقامت أول حصن لها في الهند وهو حصن « سنت جورج » في مدراس ـ وقد تحول الآن إلى متحف زرته في ديسمبر 1957 م ويقع على شاطىء البحر ـ على أنها كادت تصاب بالإفلاس حين اشتدت منافسة الهولنديين من جهة ، وحين أصدر

---

(1) حضارة الهند ص242 .

« كرومويل » سنة 1066 هـ ـ 1655 م أمرا بمنع احتكار الشركة للتجارة الهندية ، ولكن ذلك لم يلبث طويلاً ، فعند ما تولى « شارل الثاني » أعاد لها مكانتها واحتكارها ، ووسع نفوذها ، وجعل لها الحق في إعلان الحرب على من يقف في سبيل مصلحتها ، وعظمت أرباح الشركة حتى كانت تتراوح ما بين 100% , 200 (1)

وقد اشترت سنة 1072 هـ ـ 1661 م مدينة « بمباي » من البرتغاليين ، واتخذتها مركزاً للشركة ، وأصبح لها فروع في كل مكان بالهند تقريباً ، بعد أن نفذت إلى داخل البلاد ، ولم تقتصر على السواحل ، وذلك حسب ضرورة الشراء والبيع في مراكز التجارة المختلفة .

فرنسا تدخل ميدان المنافسة في الهند

وفي سنة 1075 هـ ـ 1664 م تألفت شركة فرنسية سميت : شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وكان قيامها مختلفاً في ظاهره عن قيام الشركة الإنجليزية ، فقد تألفت برأي الوزير الفرنسي « كولبير » ، وأعانها

---

(1) هكذا يقول كتاب تاريخ أوربا الحديثة ص 292 ، ولكن ما اطلعت عليه من كتب التاريخ الهندية تفيد أن شارل الأول سنة 1645 ـ 1649 طلب من الشركة مالاً (10 آلاف جنيه) على سبيل القرض فامتنعت الشركة فحلت بها المصائب ، ولما جاء كرومويل بعده بنظام الجمهورية قدمت له الشركة 30 ألفاً من الجنيهات قرضاً ، فعاونها حتى انتشلها من الخراب ، ولما جاء « شارل الثاني » بعده لقيت منه الشركة معاونة أكثر حتى ربحت أرباحاً عظيمة ، فقدمت له هدية أربعمائة ألف جنيه ، وبهذا يكون « كرومويل » قد نفخ الروح في الجسد الميت في « شارل الثاني » وأعاد إليه شبابه ـ هكذا جاء في كتاب (نقش حياة . .) ص 660 , 672 .

بقرض حكومي وضمان حكومي أيضاً ، والحق أن فرنسا تأخرت كثيراً عن زميلاتها في العمل بالهند ، ولكن ذلك كان لظروفها الداخلية ، فلما تولى « كولبير » عمل على إقامة هذه الشركة ، وكان مقصدها مرسوماً من أول الأمر ، ليس التجارة فحسب ، بل السيطرة أيضاً ، وبذلك دخل ميدان المنافسة عامل جديد قوي ، له أغراضه الواضحة في التحكم ، وبسط النفوذ على الهند وطرد الغربيين منها .

واستطاع الفرنسيون أن يتخذوا لهم مركزاً تجارياً في « سورت » سنة 1085 هـ 1674 م ، وأخذوا يعملون على التودد للأهالي واكتساب ثقتهم ، وفي نفس هذا العام أنشأوا مركزاً تجارياً لهم في « بوند شيري » على الساحل الشرقي جنوب مدراس بنحو80 ميلاً ، وأسسوا بها قلعة حصينة ومدينة حديثة ، وأخذوا يدربون الأهالي على الدفاع عن القلعة والمدينة معاً .

وفي الوقت الذي كانت المنافسة بين الإنجليز والفرنسيين على أشدها أصيب الإنكليز بضربة قاصمة من « الأمبراطور أورنكزيب » ، حين حدثتهم نفسهم بفرض سلطاتهم على بعض أملاكه في البنكال ، فاضطروا لطلب الصلح ، ودفع غرامة مالية كبيرة ، وذلك سنة 1101 هـ ـ1689 م ، على أنه سمح لهم في السنة التي تليها بإنشاء مركز وتحصينه في كلكتا سمي « حصن وليم » سنة1690 م وقد تأثرت الشركة بتلك الضربة ، وبما كانت تنفقه على تحصين مراكزها للدفاع عنها ضد الفرنسيين وغيرهم ، ثم زادت نكبتها حين سمحت الحكومة الإنجليزية بإنشاء شركة أخرى تجارية ، فاضطرت تلك لوقف أعمالها مدة ثلاث

سنين ، ثم اتحدت الشركتان تلافياً للخسارة الفادحة التي أصابتهما ، وسميت الشركة الجديدة بإسم « الشركة المتحدة » سنة 1114 هـ ـ1702 م .

وإلى هذا الوقت لم تستطع شركة من هذه الشركات أن تفرض نفوذها على جزء من أراضي الهند التي كانت في حكم الأمبراطور القوي « أورنكزيب » ، لكن بعد وفاته سنة 1707 م بدأت الدولة القوية في الضعف والتفكك ، وأخذت الحكومات المستقلة تتكون في المناطق المتعددة ، وتقوم الخلافات والحروب بينها ، فكان ذلك من حسن حظ المتنافسين على الصيد ، فقد بدأوا عمليتهم الحقيقية في السيطرة ، وكسب الزمن والبلاد إلى جانبهم ، وانقضت النسور الجائعة على الجسم المريض تنهشه وتزيده ضعفاً من كل جانب ، وهو لا يرحم نفسه ، بل يهيء لآكليه أحسن الفرص لأكله والقضاء عليه .

وقد بلغ التنافس بين الإنجليز والفرنسيين ذروته حين قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا في حرب الوراثة النمساوية التي بدأت سنة 1740 م في أوربا وانتقلت هذه الحرب بطبيعة الحال إلى ممثليها في الهند .

دوبليكس :

وكان على رأس الشركة الفرنسية في ذلك الوقت قائد ماهر ، ومجرب حكيم وسياسي قدير هو « دوبليكس »[1] ، فصمم على أن يجلي الإنكليز عن الهند ، وينفرد هو بجسم الدولة المغولية المريض ، وقد وفق كثيراً في

---

[1] اسمه أحياناً « دوبليه » .

مهمته ، وأجلى الإنكليز عن مدراس سنة 1160 هـ ـ1747 م ولكنها ردت إلى الإنجليز بعد ذلك حينما عقد الصلح بينهما .

وقد خرجت فرنسا من الحرب في أوربا منهزمة ، وكان موقف « دوبليكس » حينذاك حرجاً ، إذ أصبحت دولته عاجزة عن مده بمال أو رجال ، ولكنه كان رجلاً قديراً ، فقرر أن يعتمد على نفسه في القيام بمهمته في الهند ، وأخذ يتدخل في الخلافات الناشبة بين الأمراء المتنازعين على الحكم في الجنوب ، واستطاع أن ينصر فريقاً على آخر ، ويكتسب من ذلك منزلة ونفوذاً واسعاً ، فوقف بقوته الشخصية أمام الإنجليز الذين يخشون سطوته في الهند .

« وهكذا استفحل أمر « دوبليكس » ، وعظم نفوذه من غير أن يكلف فرنسا شيئاً ، فلما رأى الإنكليز أنهم كادوا يجلون عن جميع ما يمتلكون في الهند تذرعوا بحوك الدسائس في « قصر فرساي » ، فاستطاعوا بوسائل لا يزال أمرها سراً غامضاً أن يحملوا لويس الخامس عشر على استدعاء « دوبليكس » ، وعلى ترك جميع ما فتحه ، فكان هذا أخزى عهد قطعه ملك فرنسي ، ويئس « دوبليكس » وعاد إلى فرنسا ليموت فيها يائساً »(1) ، وكانت عودته سنة 1168 هـ ـ1754 م .

كان هذا العمل أشد ضربة وجهت لنفوذ فرنسا في الهند ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، ولم يستطع من جاءوا بعده أن يحافظوا أو يسترجعوا شيئاً من نفوذ فرنسا الذي اضمحل بعد استدعائه .

---

(1) حضارة الهند ص244 .

وبذلك كسبت الشركة الإنجليزية كثيراً ، واستطاعت أن توطد أقدامها ، لا سيا وقد تولى أمرها « مستر كلايف » سنة 1170 هـ ـ 1756 م ، بعد أن أظهر مواهبه في استرداد أحد المواقع من حلفاء دوبليكس ، وظهر الإنجليز في الهند بمظهر القوي النفوذ ، المتفوق على منافسيه الغربيين ، لا سيا بعد أن انتزعوا « بوند شيري » من أيدي الفرنسيين ، وأخذوا يتدخلون في شؤون البلاد لفرض سيطرتهم عليها . .

موقعة بلاسى سنة 1170 هـ ـ 1757 م

ورأى حاكم البنكال « الأمير سراج الدولة » أن الإنجليز أصبحوا لا يكفون عن التدخل في شؤون الحكم ، وكان رجلاً مخلصاً لبلاده ، غيوراً عليها من التدخل الأجنبي ، ففكر في أن يوقف هذا التدخل ، ويقضي على الشر قبل أن يستفحل ، فهاجم حصن « وليم » في « كلكتا » ، واستولى عليه من الإنجليز ، واعتقل عدداً من رجالهم الذين ماتوا في معتقلهم الضيق ، ولكن الإنجليز سرعان ما استعانوا بقوتهم البحرية التي جاءتهم بالمدد من مدراس ، فاستردوا الحصن وعقدوا صلحاً معه .

وقد تفادى سراج الدولة بعد ذلك الدخول معهم في حرب ما أمكنه ذلك ، وكان من الجائز أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لكن الإنجليز لم يريدوا ذلك ، لا سيا بعد أن لاحت لهم الفرصة للتخلص من « سراج الدولة » الحاكم الوطني ، وكانت هذه الفرصة تتمثل في اتصال بعض الخونة من جيش « سراج الدولة » بالإنجليز ، وكان على رأسهم أحد

قواده وهو « مير جعفر » ، وأخذ الإنجليز يتصلون به سراً ، وكانـوا يذهبون إلى بيته في زي النساء المحجبات ، حتى إذا وثقوا من مساعدته نقض « كلايف » المعاهدة ، وهاجموا سراج الدولة بجيش عدته ثلاثة آلاف تقريباً ، منه نحو 900 جندي انجليزي ، أو 650 كما جاء في حضارة الهند ، والباقي من الهنود ، وكان جيش سراج الدولة مكوناً من 60 ألفاً ، لكن عدم التسليح الجيد مع خيانة بعض القواد أضعفا مركزه . .

وعند ما تقابل الجيشان قرب « بلاسي » سنة 1170 هـ ـ 23 يونيو 1757 م ، نفذ الخائنون خطتهم ، وتراخوا عن القتال ، ولكن « مير مدن ، ومهراجا موهن لال » القائدين الوفيين ثبتا بمن معهم من الجنود ، وهجموا على الإنجليز ، حتى اضطروهم إلى الفرار والهرب بين الأشجار ، وكان على رأس مدفعيتهما أحد الضباط الفرنسيين . ثم تدخلت الطبيعة في المعركة ، فأمطرت السماء وفسدت أكثر الذخيرة التي في أيدي الجيش البنكالي ، واستؤنفت المعركة بعد الظهر ، وبرغم فساد كثير من الذخيرة ، وتوقف المدافع ، فقد هجم « موهن لال » « ومير مدن » وأحدثوا الرعب في صفوف الإنجليز ، وأخذ « كلايف » يستنجد الخائن « مير جعفر » ما وعد به ، وفي هذه الحالة أصيب « مير مدن » ، فدب اليأس في نفس سراج الدولة ، لكنه مع ذلك أصر على الإستمرار في الحرب ، وأمر « جعفر » بالهجوم لمساعدة « موهن لال » الذي أصر على متابعة الهجوم مهما كلفه الأمر ، وكان قائداً وفياً قل نظيره بين القواد ، وحينئذ رأى « مير جعفر » الفرصة قد سنحت لتنفيذ خيانته ، فاشترط على سراج الدولة أن ينسحب

« موهن لال » أولاً ، ويترك له الميدان ، واستجاب له سراج الدولة في براءة ، وأرسل إلى قائده الوفي أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه أبى أولاً ، ثم خضع إزاء إصرار سراج الدولة ، وفي الوقت الذي أخذ فيه « موهن لال » ينفذ أوامر الإنسحاب أرسل « مير جعفر » لأصدقائه الإنجليز أن يهجموا سريعاً ، في الوقت الذي حدث فيه الإضطراب والعصيان في صفوف الجند ، وانصرفوا من الميدان ، وبذلك تحقق سراج الدولة من الفشل الذريع وفر من الميدان ، وذهب لعاصمته « مرشد أباد » متنكراً في زي الشحاذين ، ولجأ إلى قصره . . أما « موهن لال » القائد الوفي الشجاع فقد أسر في 25 يونيو بعد ما أنكر على « مير جعفر » خيانته وموقفه الزري ، فعذبه جعفر وقتله وصادر أملاكه .

وفي 2 يوليو قبض على سراج الدولة في « مرشد أباد » وقتل بأمر « كلايف » وعندما تقدم قاتله نحوه سجد لله شكراً ، وأخذ في الإستغفار ، فعاجله بضربة خرّ بها صريعاً شهيد الدفاع عن بلاده وشرفه . .

وقد كان جزاء خيانة « جعفر » أن ولاه الإنجليز حكم البنغال(1) ، كان هذا جزاؤه عند الإنجليز ، وما أقسى جزاؤه عند الله والناس .

فقد ظل الناس يذكرون هذه الموقعة ، ويحتفلون بذكراها الحزينة

(1) ومع هذا فقد جاء في كتاب قصة الحضارة جـ3 لمؤلفه (ديورانت) وترجمة الدكتور زكي نجيب محمود أن جعفر دفع إلى اللورد (كلايف) مبلغاً يعادل ستة ملايين ريال نظير توليه الإمارة . (عن الهند والغرب ص76) .

كل عام ، وهذا الشاعر الفيلسوف محمد إقبال يسجل على « جعفر » ، وزميله « صادق » الذي خان المجاهد العظيم « سلطان تيبو » ، وانضم للإنجليز في ميسور يسجل عليهما هذا العار في بيت من الشعر الأوردي يردده كل متعلم في الهند :

جعفــر أزبنــكال صادق ازدكن

تنك دين تنك ملـت تنـك وطن

ومعنى هذا البيت الأوردي أن جعفر من بنكال وصـادق من دكن عار الدين وعار الملة وعار الوطن . . نعم . . ولعنة الله على الخائنين . .

وقد كانت هذه الموقعة مفتاح تحول في تاريخ الهند ، فبدأ النفـوذ الإنجليزي يسيطر على البنكال ، فلم يكن الخائن « جعفر » سوى ظل أسود ودمية قبيحة يلعب بها أسياده الإنجليز ، ومنذ ذلك الوقت دخلت بنكال في حكم الإنكليز ، وأخذ شبحهم ونفوذهم المخيف يزحف على ولايات الهنـد المتفرقـة المتخاذلـة ، لا سيما بعـد أن حاول « مـير قاسم » ـ الـذي خلف جعفـر على حكم البنـكال أن يستـرد النفـوذ الوطني ، ويطرد الإنجليز بمساعدة « شاه عالـم » الـذي كان قد ولاه « أحمد نادر شاه » ملك المغول ، وشجاع الدولـة[1] ، ولكنهـم هزمـوا جميعاً في موقعة «بكسر » سنة1178 هـ ـ1764 م ، واضطر « شاه عالـم »

(1) هو جلال الدين بن أبي المنصور التركماني حكم في بلاد (أود) بعد وفاة أبيه ولما انهزم مع زملائه في (بكسر) أشار عليه بعض أصدقائه بالإلتجاء للإنجليز فالتجأ إليهم فولوه الحكم في (أوده) تحت سيادتهم وتوفي سنة1188 هـ ـ1774 م (نزهة جـ6 ص57) .

أن يتنازل للإنجليز عن حق الإشراف المالي على البنكال وأوريسة وبيهار ، على أن يأخذ منهم مليونين و600 ألف روبية ، وبذلك توطد نفوذ الإنجليز أكثر مما كان ، وأقاموا حكاماً وطنيين يتلاعبون بهم كما يريدون .

واجتازت الشركة بعد ذلك دوراً من الإختلال والضعف الإداري ؛ لانتشار الرشوة بين رؤسائها وموظفيها ، وسعيهم إلى جمع المال بكل وسيلة ، بعد أن توطدت أقدامهم وانتشر نفوذهم ، فأرسلت الحكومة الإنكليزية « اللورد كلايف » إلى الهند بعد أن كان قد غادرها ، فعمل على القضاء على الرشوة وإصلاح الإدارة والجيش ، وحسن العلاقات بين الشركة وأمراء الهنود ، ثم عاد إلى لندن سنة 1181 هـ ـ 1767 م .

وقد كان من الممكن أن تسير الأمور سهلة لينة أمام الشركة ، فإن سلطان المغول قد ضعف ، وأصبح فعلاً في حماية الشركة ، فلم يكن هناك خوف من جانبه . . لكن كان أمام الإنجليز منافسوهم من الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون يهددون نفوذهم في الهند ، وكان أمامهم أيضاً قوتان جديدتان : إحداهما قوة « المراهتا » الذين سيطروا على أغلب أجزاء الهند ، وأنشأوا لهم دولة مرهوبة الجانب ، وثاني القوتين : قوة « حكام ميسور » الجديد « حيدر علي » ومن بعده ابنه « سلطان تيبو » .

وقد تولى أمر الشركة في ذلك الوقت « ورن هستنجز » ، وكانت الشركة في حالة من الإضطراب والضعف ، جعلت الحكومة الإنجليزية

تمدها بقرض كبير ، على أن تصبح خاضعة تماماً لإشراف الحكومة ، وأن يعين حاكم عام للهند يكون مسؤولاً أمام الحكومة عن شؤون الإدارة في الهند ، وأن تكون محكمة عليا في كلكتا تشرف على أمور القضاء في البلاد الخاضعة لهم .

وكان على الحاكم الجديد أن يتغلب على المصاعب الكثيرة التي تحيط بالشركة .

وحدث أن قامت الحرب بين فرنسا وإنجلترا سنة 1192 هـ ـ 1778 م ، فامتدت هذه الحرب إلى ممثليهما في الهند ، واجتهد كل منهما للقضاء على الآخر قضاء تاماً حتى يخلو له الجو فيها . رأى « هستنجز » أن ينازل المراهتا للقضاء عليهم ، وكانوا قد هزموا قبل ذلك هزيمة منكرة ، كادت تقضي على شوكتهم تماماً في موقعة « باني بت » سنة 1174 هـ ـ 1760 م على يد « أحمد نادر شاه » ، حيث قتل أكثر من مائتي ألف ، فأضعف ذلك من قوتهم ، لكنهم أخذوا بعد ذلك يستعيدون هذه القوة ، فعاجلهم الإنجليز بالحرب للقضاء عليهم ، فهم حلفاء الفرنسيين ، ويخشى أن يؤدي هذا التحالف إلى طرد الشركة الإنجليزية ، وتمكن « هستنجز » من هزيمة المراهتا ، والإستيلاء على « كواليار » أمنع معاقلهم ، ثم اضطر لعقد صلح معهم حينما جاءته الأنباء بقيام سلطان ميسور « حيدر علي » بالإغارة على أملاك الإنجليز في « مدراس » سنة 1194 هـ ـ 1780 م . فتم الصلح سنة 1782 م مع المراهتا ، وتفرغ بعد ذلك إلى حاكم ميسور .

ومن الواجب أن نقف هنا قليلاً مع حاكم ميسور الذي شكل خطراً كبيراً على الإنجليز في الجنوب وكاد يقضي عليهم ويطردهم من الهند .

حيدر علي

كان جندياً في جيش ولاية «ميسور» الواقعة على الشاطىء الغربي في جنوب الهند، ويبلغ عددها نحو ستة ملايين أغلبهم من الهندوس، وأخذ يترقى في الجيش، لما أبداه من الشجاعة والبسالة في هزيمة أعداء الراجا الهندوسي، ولا سيما المراهتا سنة 1173 هـ ـ 1759 م، فسمي حينئذ «بفتح حيدر بهادر[1]» ثم صار صاحب الكلمة العليا في الولاية والوزير الأول للراجا الذي كان منصرفاً للتعبد والتصوف. وبعد موت الراجا كان ابنه الذي خلفه في قبضة «حيدر»، حتى أصبح هو الملك الفعلي، وضرب النقود بإسمه.

وقد خشي الإنجليز من ظهور هذه القوة الجديدة، وتحالفوا مع المراهتا ونظام الملك في حيدر أباد، ثم هجموا من مدراس على «ميسور» بقيادة «أيركوت»، القائد الإنجليزي؛ فاستطاع حيدر أن يردهم سنة 1179 هـ ـ 1765 م. وفي سنة 1769 م هجم بستة آلاف من الفرسان فجأة على «مدراس» فأحدث الارتباك في صفوف الإنجليز، واضطرهم لطلب الصلح بالشروط التي يمليها عليهم، مع عقد معاهدة دفاعية معه، وقد رضي «حيدر علي» بهذا الارتباط الدفاعي مع الإنجليز، نظراً لقوة جيرانه «المراهتا» الذين أصبحوا أكبر خطر في

(1) هو حيدر علي بن فتح علي خان ولد سنة 1150 هـ ـ 1737 م وكان أبوه في خدمة راجا ميسور الهندوسي «ناندراج» فتدرب حيدر على الفنون الحربية ودخل في خدمة الراجا سنة 1749 وظل يترقى حتى صار قائداً. ثم تخلص من وزير الراجا وصار هو الوزير الحاكم الفعلي، ثم صار ملكاً على ميسور.

الهند في ذلك الوقت ، وقد كان لهزيمة الإنجليز في « مدراس » أثر سيء في انكلترا ، فانحطت قيمة أسهم الشركة ، وازداد خوف الإنجليز من المستقبل بالنسبة لها .

وقد حدث بعد عقد هذه المعاهدة بسنة أن هجم « المراهتا » على « ميسور » بجيش جرار ، فقام « حيدر علي » لصدهم ، وانتظر أن يهب حلفاؤه الإنجليز لمساعدته ، ولكنهم ترددوا ، ثم أحجموا عن الوفاء بالعهد ، وادعوا أنهم على الحياد ، وانهزم « حيدر » أمام « المراهتا » فحفظها في نفسه للإنجليز ، وازداد حنقه عليهم ، وكانت حالة الشركة السيئة من الأسباب التي حملت الإنجليز على عدم دخول الحرب مع « حيدر » ومنذ ذلك الوقت قرر هذا الرجل العظيم أن يعتمد على نفسه ، فعنى بتكوين جيش قومي من الجنود المدربين ، كما أنشأ بحرية قوية ، وأخذ يستعين بالفرنسيين في تكوين هذا الجيش وتسليحه ، ثم هجم على « المراهتا » وهزمهم ، واسترد البلاد التي فقدها ، وزاد عليها حتى وصلت حدود بلاده إلى نهر «كرشنا » ، وفي سنة1192 هـ ـ1778 م قامت الحرب بين فرنسا وإنجلترا ، حينما أعلنت الأولى الإنضمام مع الأمريكيين علناً في حرب الإستقلال ضد الإنجليز ، فعمل نواب فرنسا في الهند على تضييق الخناق على الشركة الإنجليزية حتى تجلو عن الهند ، وأخذوا يستميلون إلى جانبهم الحكومات الهندية ، ويمدونها بالسلاح والفنيين لتدريب جيوشها ، فاستطاعوا بذلك أن يكونوا قوة هددت الإنجليز في الهند ، وفي الوقت نفسه أخذ القائد الإنجليزي يعمل على إضعاف فرنسا في الهند وطردها منها ، فأعلن « حيدر علي » أن الهجوم

على أملاك الفرنسيين يعتبر هجوماً عليه ، ولم يبال الإنجليز بهذا ، وهجموا على الموانى الفرنسية ، فهاجمهم « حيدر علي » في « مدراس » وهزمهم في عدة مواقع ، واستولى على أسلحتهم . مما جعلهم يستعجلون « هستنجز » في إرسال مدد إليهم ، فجاءهم المدد من بنكال ، وفي الوقت نفسه أعانهم نظام حيدر أباد ، وسمح لجنودهم بالمرور في أراضيه ، وكذلك راجا بهو نسلا بعد أن أخذ مليونا وستمائة روبية . وكان الإنجليز في ذلك الوقت في حرب مع المراهتا ، فعقدوا معهم صلحاً لكي يتفرغوا لحيدر علي كما سبق .

وكان هذا المدد بقيادة « أيركوت » ولكن حيدر حاصرهم مع الفرنسيين وفي أثناء المعركة تراجع الفرنسيون ، وتركوا الحصار البحري . وبذلك انفتح الطريق البحري أمام الإنجليز لتموين جيوشهم ، وإمدادها بالرجال والسلاح فهجموا عليه هجوماً عنيفاً بمدافعهم ، وثبت لهم حيدر ، ثم اضطر للتراجع وترك السواحل في سنة 1195 هـ - نوفمبر 1781 م ، ومع ذلك ظلت الحرب الداخلية التي كان يقودها ابنه « فتح علي » المشهور فيما بعد بإسم « تيبو سلطان » وفي منطقة « الكرناتك »، غربي مدراس قضى على اكثر من الفين من جنودهم ، ثم جاءه المدد من الفرنسيين ، ولكن « حيدر علي » لم يمهله القدر حتى تتم هذه المعركة ، فمات سنة 1196 هـ - 1782 م واضطر ابنه « فتح علي » أن يرجع للعاصمة ليتم فيها مراسم الملك .

تيبو سلطان :

وكان « فتح علي » « تيبو سلطان »[1] قد عرف بالشجاعة والبسالة في الحروب التي خاضها ضد الإنجليز والمراهتا في أيام أبيه ، فلم تلن قناته حين تولى الملك ، بل كان أصلب عوداً ، وأشد خطراً على نفوذ الإنجليز حين واصل الحرب ضدهم ، وفي الوقت الذي كانت فيه رحى الحرب لا تزال دائرة في الهند انتهت الحرب بين فرنسا وانجلترا بمعاهدة « فرساي » (20 يناير سنة 1783 م) . وبذلك أصبح « تيبو سلطان » وحده في الميدان ضد الإنجليز ، ومع هذا فقد قابلهم حينما هجموا عليه من الشمال على الساحل ، وهزمهم شر هزيمة ، وأخذ أسلحتهم وأسر الكثير من جنودهم ، ثم استولى على « منكلور » وفيها مثل بين يديه ممثلا فرنسا وإنجلترا . أما ممثل فرنسا فقد حضر ليعلن أنهم وقعوا صلحاً مع الإنجليز ، فهم بعد ذلك لا يدخلون ضدهم في حرب ، وأما ممثل انجلترا فكان لتوقيع صلح معه ، تعهد فيه كل من الطرفين بإنهاء الحرب وإطلاق الأسرى ، ورد ما أخذه من أملاك الآخر ، وكان ذلك في سنة 1198 هـ ـ مارس 1784 م .

وفي فبراير سنة 1785 م عاد هستنجز إلى لندن وجاء بدله « كور نفاليس » ، وقد أعلن أن الشركة لا تتدخل في الخلافات الداخلية بين الولايات ، وبرغم ذلك فإن خطابه في يوليو 1789 م إلى نظام حيدر

(1) هكذا ينطقونه في الأوردية ، أما في العربية فينطق « السلطان تيبو » ويطلقون عليه في الهند السلطان المجاهد الشهيد .

أباد ، ووعده له بمساعدته ضد أعدائه ، كان فيه وعد أو على الأقل شبه وعد بوقوفه مع حيدر أباد ضد ميسور ، فاعتبره « تيبو سلطان » موقفاً عدائياً ضده ، وقد حدث أن هاجم « تيبو » واجاترافنكور الهندوسي المتحالف مع الانجليز ، وذلك لمنازعات بينهما ، مما زاد الحالة توتراً ، وعمل الإنجليز على الإتفاق سراً مع نظام حيدر أباد والمرهتا ضد « تيبو سلطان » سنة 1204 هـ ـ 1790 م ، على أن تقسم ميسور بينهم عند الإستيلاء عليها ، ثم هجموا في فبراير من نفس السنة على ميسور من عدة جهات ، فقاتل « تيبو » قتالاً نادر المثال في البطش والمهارة ، وكسر الكولونيل « فلويد » الإنجليزي . واجتاح المنطقة الإنجليزية حتى وصل إلى جوار مدراس ، مما اضطر الإنجليز أن يسوقوا عليه جحفلاً جراراً تحت قيادة « كورنفاليس » نفسه ، فردوا « تيبو سلطان » للوراء ، حتى دخلوا « منكلور » على شاطىء بحر العرب وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس « تيبو » الصلح فاجيب إليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويدفع غرامة قدرها 75 مليون فرنك (30 مليون روبية) وتم ذلك في سنة 1207 هـ ـ 1792 م[1].

* * *

(1) حاضر العالم الإسلامي جـ 319 . وقد رأيت في متحف سانت جورج بمدراس في ديسمبر سنة 1957 صورة لتيبو وهو جالس ومعه ولداه الصغيران اللذان أصر الإنجليز على أخذهما رهناً عندهم حتى لا يعود إلى محاربتهم ، وكان يودعهما في هذه الصورة المؤثرة للغاية .. ورأيت بالمتحف صورة كبيرة للقائد « كورنفالس » الإنجليزي وهو يتسلم الولدين الصغيرين !!! وكان يتولى شرح الصور لي العالم والزعيم المسلم الكبير الدكتور عبد الحق مدراسي وكان ضليعاً في عدة لغات منها العربية ، وقد توفي عليه رحمة الله في مارس 1958 .

بعد ذلك عاد « كورنفاليس » إلى لندن وجاء بدله « سيرجون شور » ، فمشى على سياسة عدم التدخل ، والمهم أنه لم تحصل حرب بينه وبين ميسور في مدته ، ولما اشتعلت الحرب بين نظام حيدر أباد والمراهتا لم يتدخل بينهما ، مع أن الشركة وعدت نظام حيدر أباد من قبل بمساعدته ضد أعدائه ، وقد هزم النظام أمام المراهتا ، مما خلف في نفسه مرارة من الإنجليز ، فبدأ يميل لأعدائهم الفرنسيين ، ويستقدم ضباطاً منهم لتدريب جنوده ، وأخذت تتكون في الجنوب شبه جبهة معادية للإنجليز ، على رأسها « تيبو سلطان » القوي العنيد الذي لا تزال مرارة الهزيمة تحز في نفسه ، ويتربص بالإنجليز الدوائر ، وكانت الحرب قد بدأت بينهم وبين الفرنسيين في أوربا سنة 1793 م ، فاشتد النزاع بينهما أيضاً في الهند ، وأخذ الفرنسيون يستميلون المراهتا ، ويرسلون إليهم الأسلحة والضباط ، وكانت الحكومة الإنجليزية نظراً للفساد الذي عم إدارة الشركة وموظفيها قد أصدرت عدة قوانين لإصلاحها جعلتها تحت إشراف الحكومة المباشر ، بحيث تختار هي الحاكم العام .

وفي سنة 1212 هـ ـ 1798 م اختارت (ولزلي) حاكماً عاماً ، وكان الخلاف بين الشركة و « تيبو سلطان » قد بلغ أقصاه ، بينما كانت خطة نابليون لغزو الشرق قد أصبحت معروفة ، وحينما جاء إلى مصر أخذ يستعد للتحرك نحو الشرق ، ويرسل رسله إلى شريف مكة وإمام مسقط ، يفاوضهما في المحافظة على طريق مواصلاته . كما أرسل إلى « تيبو سلطان » في الهند ، وقد استغل « تيبو » هذا الخلاف ، وأخذ يستفيد من الفرنسيين ، ويتحالف معهم ، ويستعين بجنودهم

وأسلحتهم ، حتى أنشأ جيشاً قوياً وبحرية عظيمة ، كما أجرى عدة إصلاحات في مملكته جعلتها من أقوى الممالك في ذلك الوقت ، وهذا ما جعل « ولزلي » يحسب حساباً كبيراً لهذه القوة ، ويجعل أهم أعماله في الهند القضاء عليها قبل أن تقضي هي على الشركة ، وعمد إلى الحيلة والدس ، فاتصل بنظام حيدر أباد ، الذي كان قد استقدم بعض الضباط الفرنسيين لتدريب جنوده بعد انهزامه أمام المراهتا وعدم معاونة الإنجليز له ، واستطاع « ولزلي » بالحيلة والتهديد أن يضمه إلى صفه ، ويحمله على طرد الضباط الفرنسيين ، والإستعاضة عنهم بضباط انجليز .

وعندئذ أخذ «ولزلي» يحتك بحاكم «ميسور» فأرسل له لكي يتخلى عن مخالفة الفرنسيين وعن الموقف العدائي ضد الإنجليز ، ولكن « تيبو » لم يعبأ بهذا الإنذار ، فهجم الإنجليز عليه بجيش جرار يقوده مشاهير القواد ، كان منهم شقيق (ولزلي) الذي صار فيما بعد (دوق أف ولنجتون) ، وحاصروا « تيبو » في العاصمة (سر نكابتم) ، ولكنه استبسل في الدفاع ، وحاربهم بكل شجاعة ، وفي الوقت الذي كان فيه مستبسلاً في الدفاع تقدم أحد قواده الذي كان يعتمد عليهم ، وهو (مير صادق)(1) ففتح القلعة للإنجليز فتمكنوا من الإستيلاء عليها ، وخر

---

(1) و « مير صادق » هذا هو الذي دمغه الشاعر إقبال مع الخائن الآخر (جعفر) في بيت من الشعر سبق أن ذكرته عند الكلام عن موقعة « بلاسي » في (بنغال) ، وما زال اسمها يتردد على الألسنة بكل احتقار ولعلنا لا ننسى في هذا المقام أيضاً موقف حكام حيدر أباد وارتماءهم في أحضان الإنجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض الهند حتى خرجوا منها ، وانتهى حكمهم حين ضمت الهند هذه الولاية إليها بعد حرب مع حكومة الهند عقب الإستقلال أريق فيها دماء الآلاف من المسلمين ، وقد مزقت هذه الولاية الآن بين ولايات متعددة ، حتى لا يظل اسمها =

« تيبو » المجاهد شهيداً في ساحة المعركة . ودفن في « سر نكابتم » وما زال قبره هناك يذكر الناس بعظمته وجهاده لتحرير الهند وطرد الإنجليز منها . .

وقد انتهت ميسور ، وأصبحت تحت حكم الإنجليز ، فجاءوا بطفل من الأسرة الهندوسية التي كانت تحكم من قبل ، وعينوه حاكماً إسمياً تحت لجنة وصاية تشرف عليه ، بينما قبضوا على أسرة (تيبو) ونقلوها إلى (كلكتا) ، وجروا لهم بعض الأرزاق لمعيشتهم ، وأعطوا نظام حيدر أباد بعض الأطراف لضمها إلى ولايته ، جزاء له على موقفه معهم ، بينما أنعمت الحكومة الإنجليزية على (ولزلى) ؛ لنجاحه في القضاء على أكبر عدو لهم في الهند .

وبذلك انطوت صفحة حياة هذا المجاهد ، بينما بدأ التاريخ ينشر له صفحة مشرقة الجلال ، لن تنطوي على مر الأيام ، وسيبقى هو وأبوه ، « حيدر علي » مثلين حيين على الجهاد والإستبسال في سبيل الدفاع عن الحرية والكرامة . .

ومن العجب أن الإنجليز بعد أن تمكنوا من الهند ، وأخذوا يفرضون عليها ثقافتهم لم يتورعوا عن الإساءة للأموات احتراماً لبطولتهم بعد أن انتهت عداوتهم في حياتهم ، فأخذوا يشوهون سمعة هذا البطل . وبلغ بهم الحقد والإسفاف إلى الحد الذي جعلهم يسمون

- عالقاً بالأذهان ولا يمنعنا إنكارنا على هؤلاء موالاتهم للإنجليز من أن نشيد بعنايتهم بالعلوم الإسلامية واللغة الأوردية والنهوض بها ، كما شاهدت آثار ذلك بنفسي حين زيارتي لحيدر أباد في ديسمبر 1957 م ؛ فقد كانت مظاهر النهضة في جميع مرافق الحياة بارزة شاملة بفضل ملوك حيدر أباد السابقين .

كلابهم بإسم « تيبو » ، وتابعهم مع الأسف الشديد بعض الهندوس ، مما أثار غضب أحد الكتاب الهندوس وهو الأستاذ « فتح جند نسيم » فكتب في صحيفة « الجمعية »[1] يندد بعقلية بعض إخوانه الهندوس الذين تابعوا الإنجليز في الإساءة إلى بطل عظيم دافع عن بلاده ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل تخليص الهند من الإستعمار الإنجليزي ، ولو قدر له الإنتصار لما شهدت الهند الإستعمار الإنجليزي ، الذي ظل يمتص دماءها أكثر من مائة عام .

وبالقضاء على «تيبو» استراح الإنجليز من أخطر عدو لهم ، وأصبح من السهل لهم السيطرة على الجنوب ، بعد أن يقهروا المراهتا الذين كانوا يمثلون القوة التي يخشاها الإنجليز بعد « تيبو » ، ولذلك أخذ (ولزلي) يعمل على بث الفرقة فيما بينهم مستغلاً أطماع بعضهم ضد بعض ، وبذلك استطاع أن يدخل معهم في حرب هدت من كيانهم ، لكنها لم تقض عليهم تماماً ، ثم عقد معهم (ولزلي) صلحاً قبل رجوعه إلى (لندن) ، لوقوع خلاف بينه وبين المشرف على الشركة هناك حول خططه الإستعمارية في الهند ، والشطط الذي يرتكبه في سبيل ذلك ، على أن الإنجليز بعد ما انتصروا على (نابليون) توطد مركزهم في الهند والشرق كله ، وتخلصوا من منافسة الفرنسيين ، واستولوا في سنة 1815 م على رأس الرجاء الصالح وسيلان وجزيرة مورنياس وجزائر سيشل وغيرها .

---

(1) التي تصدرها جمعية العلماء في دهلي ، وقد استمعت لترجمة هذا المقال في شوال 1376 وأعجبت بروح الكاتب وإنصافه ، لا سيما وهو شديد العناية بإبراز مواقف البطولة التي وقفها المسلمون ضد الإنجليز . .

بعد ميسور

من الممكن أن نقول بسهولة إنه بعد القضاء على حاكم ميسور القوى تنفس الإنجليز الصعداء ، فقد تخلصوا من حاكم قوي عنيد ، وانفتح أمامهم المجال للسيطرة على باقي أجزاء الهند حسب الخطة التي وضعوها .

حقيقة بقي أمامهم « المراهتا » في الجنوب « وهم قوة لا يستهان بها . لكنها تضعضعت أولاً بعد موقعة « باني بت » سنة 1772 م مع أحمد شاه الأبدالي ، ثم لاحقهم الإنجليز ثانياً بضربات جريئة هدت من قوتهم أيضاً ، ثم أعملوا فيهم حرب التفرقة ، فنجحوا أيما نجاح - وهي وسيلتهم دائماً في التسلط على الشعوب - . فنجد « ولزلى » بعد الإنتهاء من ميسور يستولي على مقاطعات « كرناتك » وتانجور في الجنوب . ويرتب لحكامها مرتبات ، ثم ينشب أظفاره في مملكة « أوده » في الشمال(1) ، فقد كان بها بضعة آلاف من جنود الشركة بحجة معاونتها ، فطلب من حاكمها أن يزيد العدد ، وأن يتنازل للشركة في الوقت نفسه عن مقاطعتي « دوآبه ، وروهيل كهند » نظير مصاريف هؤلاء الجنود ، ولم يكن الحاكم من القوة بحيث يستطيع أن يرد أي طلب من هذا القبيل . .

ولما عاد « ولزلى » حل محله « كورنفاليس » لكنه مات بعد شهرين من وصوله إلى كلكتا سنة 1220 هـ - 1805 م .

---

(1) وكانت عاصمتها لكنو وحكامها مسلمون .

ثم جاء بعده سير جورج بورلو ، وفي سنة 1222 هـ ـ 1807 م جاء « لورد منتو » وعقد صلحاً مع السيك وأمراء الهند ، وازدهر الحكم الإنجليزي وقوي في عهده ، وبعده عاد لورد «هستنجز» سنة 1228 هـ ـ 1813 م ، وقامت في عهده حرب بين الشركة وبين نيبال انتهت بسيطرة الإنجليز عليها ، حتى وصل نفوذهم إلى الهملايا ، على أن المهم أن هذا الرجل توجه إلى « المراهتا » الذين كانوا لا يزالون يقضون مضاجع الإنجليز فقضى عليهم ، وأصبحوا خاضعين تماماً لحكم الشركة ، وقد اعتقل ملكهم في كانبور واجريت عليه الأرزاق وذلك سنة 1818 م ، وأظن أنه بعد القضاء على المراهتا لم يعد في الهند من يرفع رأسه أمام الإنجليز ، ولذا أخذ الحكام يتقاطرون لإظهار حبهم ومودتهم وتحالفهم معهم ، وكان كل من يخالف الشركة أو يبدي أي تباطؤ في الإستجابة لها يخلع من الحكم ويولى بدله ، وكانت الهند أشلاء ممزقة ، فسهل على الإنجليز السيطرة على هذه الأشلاء ، حتى ملك المغول نفسه في دهلي كان يتقاضى منهم مرتباً تاركاً كل الأمور بيدهم .

وفي سنة 1239 هـ ـ 1823 م . استولى الإنجليز على آسام وأراكان وتناسرم في بورما ، فاتسعت حدود مملكتهم من الشرق ، ولكن بقيت من الناحية الغربية مفتوحة ، أعني الناحية التي كان الغزاة يتدفقون منها دائماً إلى الهند من جهة أفغانسان والسند ، وكانت هذه الناحية تقلقهم ؛ فإنه من الممكن أن يأتي للهند غاز جديد يضيع على الشركة كل جهودها في السيطرة على الهند ، لا سيما والروس في ذلك الوقت كانوا يهددون إيران وأفغانستان بجيوشهم ومن الجائز أن تنحدر هذه الجيوش بعد ذلك إلى الهند ، وفي البنجاب والسند كان الأمراء لا يزالون متمتعين بنفوذهم ،

بعيدين عن نفوذ الشركة التي حصرت همها في الجنوب والبنكال والوسط .

لذلك حاول الإنجليز أن يخضعوا أفغانستان لهم حتى تكون سداً بين الهند والروس ، وكان ملكها في ذلك الوقت « دوست محمد خان » نهجموا عليها من ناحيتين ، وفي طريقهم إليها استولوا على بعض الحصون لأمراء السند ، وتلاقى الجيشان الزاحفان في «قندهار» ، ثم ساروا إلى « غزنه » واستولوا عليها ، وأخذوا منها ابواب « معبد سومنات »التي كان قد أخذها الغازي « محمود الغزنوى » عند هدمه لهذا المعبد سنة 1026 م ، ويقول بعض المؤرخين إنهم أرجعوها للهند ، على أن مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزي ، أكد لي أنهم أخذوها إلى لندن وليس لها وجود بالهند .

وبعد الإستيلاء على « غزنة » ، زحفوا إلى العاصمة « كابل » ، وما كان ملكها في ذلك الوقت مستعداً لمنازلتهم ، فتركها وذهب إلى الشمال ، فدخلها الإنجليز ، وأجلسوا على العرش « شاه شجاع » ولكن رجال القبائل الأفغانية المشهورة بقوتها وشدة مرامها وكرهها للأجنبي ، شقوا عصا الطاعة عليه ؛ لأنه وصل إلى العرش عن طريق الأجانب ، فاستعان الإنجليز بالرشوة ليشتروا سكوتهم ، وأنفقوا في ذلك كثيراً . مما أوقعهم في أزمة جعلتهم يمسكون بعدها عن الرشوة ، فعادت القبائل للثورة على الإنجليز الذين لم يثبتوا أمام هؤلاء الأفغان في كثير من المواقع ، وبالرغم من أن الملك « دوست محمد خان » الذي فر وترك عاصمته من قبل عاد فسلم نفسه للإنجليز اللذين أرسلوه

بدورهم إلى كلكتا محاطاً بمظاهر الإحترام سنة 1256 هـ ـ 1840 م ، وبالرغم من أن الإنجليز قد قوي ساعدهم بهذا التسليم ، فإن رجال القبائل لم يهنوا ولم يستكينوا ، وكان « محمد أكبر خان » ابن الملك المستسلم يقود هذه الثورة ، فزحف إلى (كابل) ، وحاصر الإنجليز فيها ، ومنع الطعام والمؤن حتى دب في قلوبهم اليأس ، واضطروا للتسليم والخروج من أفغانستان ، على شرط أن يتركوا مدافعهم وبعض رجالهم رهائن في (كابل) ، وكان ذلك سنة 1257 هـ ـ 1841 م ، وخرج الجيش المنكسر في طريقه إلى الهند ، ورجال القبائل الأفغانية تهاجمه من كل مكان ، حتى أفنته عن آخره ، ولم ينج منه إلا شخص واحد ، رجع إلى المعسكر الإنجليزي في « جلال أباد » بالهند . وكان هذا الجيش مكوناً من خمسة عشر ألفاً ، وتم ذلك في سنة 1258 هـ ـ 1842 م .

وإزاء هذه الكارثة التي أصابت الإنجليز تجرأ أمراء السند . فاحتجوا عليهم لاختراقهم أراضيهم ، فكان الرد على هذا الإحتجاج أن استولوا على السند وضموه إلى أملاك الشركة .

وبعد ذلك قامت حرب بين السيك والإنجليز من سنة 1845 هـ ـ 1849 م انتهت بانهزام السيك وضم البنجاب التي كانت تحت حكمهم إلى الشركة ، وكان آخر حكام السيك « مهاراجه رنجيت سنك » ، وقد استولى الإنجليز على أملاكه ونقوده ومجوهراته ، وكان منها الماسة المشهورة « كوه نور »(1) التي كانت أولاً في عرش الطاووس الذي أخذه

---

(1) تاريخ الهند لسيد هاشمي ص 398 نقلاً عن المؤرخ « كين » في كتابه تاريخ الهند جـ2 ص 201 .

«نادر شاه الايراني» من دلهي بعد غزوها سنة 1739 م ، ويقال هنا في الهند أن « نادر شاه » قتله الأفغانيون عند عودته ، وربما انتقلت هذه الالماسة إلى يدهم ؛ لأن المعروف أن السيك استولوا عليها من بعض الزوار الأفغان ، وظلت في يدهم حتى أخذها الإنجليز ، ووضعوها في تاج الملكة في ذلك الوقت وظل به ، وقد سمعت أن الهند طالبت به الإنجليز كما طالبت بالمكتبات التي نقلوها من الهند إلى لندن !! .

وبعد الإستيلاء على البنجاب وصلت حدود أملاك الشركة إلى الحدود الطبيعية للهند فأصبحت آمنة من هذه الناحية .

مملكتا حيدر أباد وأود :

سيطر الإنجليز على كل أجزاء الهند فعلاً ، وشمل حكمهم ونفوذهم كل مملكة أو إمارة فيها ، وأصبح من فيها من الملوك والأمراء دمى يلعب بها الحاكم العام للشركة كما يريد ، لكن بقيت مملكتان إسلاميتان واسعتان هما مملكة « حيدر أباد » في الجنوب ومملكة أوده في الشمال ، وهما وإن كانتا خاضعتين للإنجليز فعلاً ، إلا أن مظهرهما باق برغم انهيار كل ما حولهما من الإمارات والممالك ، ويظهر أن هذا الشكل وحده لم يعجب السادة الإنجليز في لندن ، فأصدروا تعليماتهم للحاكم الإنجليزي في الهند « دلهوزى » بإزالة ما بقي لهما من هذا المظهر .

وكان في « حيدر أباد » جيش انجليزي تحت إسم حمايتها ومعاونتها ضد أعدائها ، وكان فيها رؤساء وقواد انجليز يشرفون على جيشها أيضاً ، وكانت مصاريف هؤلاء جميعاً تدفعها الشركة وتحسب ديناً مؤجلاً

على المملكة ، وهي طريقة اتبعتها في كثير من الممالك والإمارات الهندية ؛ لتتخذ هذا الدين وسيلة بعد ذلك إلى التدخل في شؤونها والإستيلاء عليها ، وهذا ما اتبعته مع مملكة « أوده » من قبل حين ضمت بعض مقاطعاتها نظير الدين الذي لها ، ثم كان وسيلة للقضاء عليها نهائياً كما سيأتي . .

أما « حيدر أباد » فقد أخذ الإنجليز يتعللون معها بأن أمور الحكم فاسدة ، وأن الملك يترك الحكم لوزراء فاسدين يستدينون بالربا ، مما سيجر على الدولة الخراب ، وجعلوا هذه التعللات مقدمة لإلحاق حيدر أباد بأملاكهم ، ولكن لأمر ما لم يقدم « دلهوزى » على هذه الخطة ، واكتفى بأن يعقد معاهدة مع « حيدر أباد » تقضي بضم إحدى مقاطعاتها « برار » إلى الشركة نظير الدين الذي عليها . وكان ذلك سنة 1270 هـ ـ 1835 م ـ وبقيت حيدر أباد بملكها ، وإن كان للأنجليز النفوذ الفعلي عليها . بعد ذلك اتجه « دلهوزى » إلى « أوده » التي كانت تتخذ « لكنو » عاصمة لها ، وقد تكونت هذه الدولة في القرن الثاني عشر الهجري حين استقل بأمورها « سعادت خان » الذي كان والياً عليها من قبل حكومة دلهى ، وبعد وفاته تولى « شجاع الدولة » فكان ملكاً عليها حين غزا « أحمد شاه الأبدالي » الهند ، وقد تحالف مع شاه عالم ملك دهلى ومير قاسم حاكم البنكال ليخلصوا الهند من حكم الإنجليز ويستردوا البنكال منهم ، ولكن قوة الإنجليز المنظمة استطاعت أن توقع الهزيمة بالمتحالفين في « بكسر » سنة 1764 م واضطر شجاع الدولة أن يعقد صلحاً معهم .

وبعده تولى ابنه « آصف الدولة » وكان كريماً سخياً كثير الإنفاق ، شيد البناء الضخم المعروف في لكنو بإسم « إمام باره » وقد زرته في التاسع من المحرم سنة1376 هـ ـ1956 م ، فدهشت لفخامته وضخامته كأنه قد حفر في جبل ، ويعتبر مركز الشيعة في لكنو . رأيتهم يستعدون فيه للإحتفال بيوم عاشوراء الموافق ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء ، ولهذه الذكرى في الهند أهمية بالغة بحيث يشترك فيها السنيون والشيعيون على تفاوت بينهم في هذه المشاركة ، فالشيعة قد اعتادوا أن يصنعوا من الخشب ما يشبه « النعش » أو قبة الحسين ، ويسيرون بها في الشوارع في أشكال مختلفة كبيرة وصغيرة يحملها جماعة أو واحد ، ثم يسيرون خلفها في بكاء وحزن ويسمونها « التعزية » ، ويضربون خدودهم وصدورهم بالحديد والحجارة حتى تسيل دماؤهم ، ويسقطون صرعى وتحملهم عربات الإسعاف لعلاجهم ، وذلك حزناً على ما جرى للحسين رضي الله عنه ، وتتجمع في « إمام باره » هذه « التعزيات » وفيها يكون الإحتفال الرسمي ، حيث يجلس زعماء الشيعة يستقبلون المعزين ، كأن جثة الحسين بجانبهم ، وكأنه قتل منذ لحظات ، والحكومة الهندية تعطل الأعمال الرسمية في جميع أنحاء الدولة ثلاثة أيام بهذه المناسبة ، مع أنها تعطل أعمالها يوماً واحداً بمناسبة عيد الفطر ويومين في عيد الأضحى . وهذا التقليد من أيام الإنجليز الذين كانوا يجاملون الحكام السابقين لهذه الدولة من الشيعيين ، وجميع الشيعة في الهند ، وكل القرى والمدن هناك تجد فيها هذه الظاهرة يفعلها الشيعة ، ويجاريهم بعض العوام من السنيين ، وإن كان العلماء والعقلاء السنيون يحاربون هذه العادة ، ويمنعون السنيين من الإشتراك فيها ، حتى رأيت

دار العلوم ديوبند الدينية وهي أكبر معهد ديني في الهند ، تبالغ في المنع وعدم المشاركة في أي مظهر من ذلك ، فلا تعطل أعمالها في ذلك اليوم برغم أنه عطلة رسمية .

وبعد آصف الدولة تولى أخوه « سعادت علي خان » .

وبعده « غازى الدين حيدر » ثم « نصر الدين حيدر » الذي ارتقى العرش بمساعدة الإنجليز ، وبعده « أمجد علي شاه » ثم « محمد علي » ، وبعده « واجد علي شاه » وقد رأيت صورهم وآثارهم في متحف كبير في لكنو ، وفي عهد هذا الأخير أراد دلهوزى أن ينحيه عن العرش بحجة الفساد في أعمال الحكومة ، برغم أنه كانت هناك معاهدة عقدت سنة 1837 م تمنعه من ذلك ، وإن كانت تبيح للشركة إدارة الأعمال والإشراف عليها ، ولم يستمع دلهوزى لنصيحة « لورنس » وقبض على « واجد علي شاه » ، واعتقله في « كلكتا » سنة 1273 هـ ـ1856 م ، ويقول المؤرخ « كين » : « إن الشركة خالفت المعاهدة ، وأجبرت الأهالي على تنفيذ قوانين الشركة التي لم تكن متفقة والوضع في البلاد ، وهي تظن أنها فعلت ما تستحق عليه الشكر ، وفعلاً تلمت هذا الشكر بعد ذلك في ثورة جامحة سنة 1274 هـ ـ1857 م »(1) . .

بعد ذلك تقدم « دلهوزى » خطوات نحو واقع الأمور في الهند ، فقد أصبحت الألقاب فيها كما يقول أحد الشعراء « ألقاب مملكة في غير موضعها » ، فألغى هذه الألقاب التي يحملها الملوك والأمراء في الوقت

---

(1) نقلاً عن تاريخ الهند لسيد هاشمي ص 401 .

الذي يتقاضون فيه مرتبات من الشركة ، وكأنهم موظفون على المعاش ، مثل حاكم « أركات » وتانجور ، كما حرم « نانا صاحب » وارث ملك المراهتا « باجي راو » من المرتب ، وأكثر من هذا وجه إنذاراً للملك المغولي « بهادور شاه » القابع في قلعته بدهلي بأنه سيكون آخر رجل يحمل لقب الملك من أسرته ، وأن القلعة ستؤخذ منه ، وتحول إلى ثكنة للجيوش الإنجليزية . وهكذا خلا جو الهند كلها من منافس أو مقاوم للإنجليز ، وأصبحوا فيها الأسياد المطاعين ، وانحسر النفوذ الوطني وحل محله النفوذ الأجنبي ، ولم تقف هذه الكثرة الهائلة من الهنود أمام الشركة ، وتتغلب عليها أو تحد من نفوذها .

وإن المرء ليتساءل كيف يتم ذلك ؟ وكيف استطاعت الشركة تدريجاً التسلط على الهند والتغلب على كل سكانها ؟!

لقد بدأ الإنجليز عملهم في الهند خضعا متملقين تحت ستار التجارة ، حتى إذا حانت لهم الفرصة للعمل عملوا ، واعتمدوا على مبدئهم المعروف « فرق تسد » ، ولم تكن الهند في الحقيقة في حاجة إلى عناء كبير لبث بذور التفرقة ؛ فقد كانت من أخصب البيئات لنمو أساليب التفرقة فيها ، بل كانت هي نفسها متشتتة متطاحنة ، طحنتها خلافات الدين واللغة والجنس ، هذه الخلافات التي أضيفت إليها الخلافات حول العروش المتعددة في الهند ، ولسنا نجد كالهند بلداً تحمل إسماً واحداً . ثم نجد الشعب الذي يسكنها عدة شعوب متباعدة تمام التباعد ، فاقدة تماماً كل مقومات الشعب الواحد ، فاللغة مختلفة ، والأصل مختلف ، والأديان مختلفة ، والطبائع والعادات والآمال

متباعدة ، فإذا أضفت إلى كل هذا تلك الحروب التي لم تنطفىء على أرض الهند ، وما كانت تتركه من حزازات ومرارات بعيدة الغور في النفوس ، أدركت كيف كان من السهل على الإنجليز أن يستفيدوا من كل ذلك ، وأن يستولوا على الهند بحفنة قليلة من جيشهم ، مسخرين أبناء الهند ومالية الهند للوصول إلى مآربهم . .

وإن ما تراه في الهند الآن من قيام حكومة واحدة مركزية تحكم شعباً متحداً ليعد من معجزات الزمان ، ولعل الإستعمار له الفضل في ذلك حين جعلهم جميعاً هدفاً لضرباته وسهامه مدة كبيرة من الزمن جعلتهم ينسون فروقهم في سبيل التخلص من آلامهم ، ومع هذا فلا تزال هذه الفروق تعمل عملها ـ وإن كان محدوداً ـ في بناء الدولة الهندية .

واسمع ما يقوله المؤرخ والفيلسوف الإجتماعي الفرنسي « جوستاف لوبون »[1]

« قد يعجب الإنسان لأول وهلة من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفة من جنود كثيرين لا من بضعة آلاف من الجنود ، ولكن عجبه يبطل إذا عرف أن كلمة الهند ليست سوى تعبير جغرافي ، وأن الهند بلاد وشعوب مختلفة أشد الإختلاف ، وأنها لا تحتوي على ما تعرفه أوربا من معنى « الأمة الواحدة » أي وحدة العرق واللغة والمشاعر المؤدية إلى وحدة المصالح .

---

(1) في حضارة الهند ص248 .

وأنها لا تشتمل على قومية هندية كالقومية الفرنسية أو الألمانية أو الطليانية ، الخ ، وإن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبي عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذي يفرق بين مختلف طبقات العرق الواحد يوجب نظر أي هندوسي إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين » .

ويقول : « والإنكليز توصلوا إلى فتح الهند برجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بجنود غير جنودهم ، ونقود غير نقودهم ، فالحق أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس ، وبأموال حكومات من الهندوس » .

ويقول الأستاذ « سيلي » الإنجليزي[1] : « فتحت الهند بجنود ثلاثة أرباعها من الهنود ، والربع الآخر من الإنكليز ، وحينما كنا مشغولين بفتح بلاد يعدل عمرانها عمران أوربا كلها وجدنا السبيل ممهدة ، والعقبات مذللة ، وما اضطر قاطنو انكلترا إلى أداء ضريبة ، أو استقراض لأجل تحقيق هذا المطلب ، وما تكبدوا أي عناء ، ولا مسّت حاجة إلى تجنيد . وصفوة القول أن فتح الهند لا نحسبه فتحاً في الحقيقة ، إذ لا فضل فيه لإنكلترا ودولتها وجندها » .

ويقول « جون ميكوم » : « لولا مساعدة أبناء الهند لما غلبت على أمرها » ويقول الأمير شكيب أرسلان في هذا المعنى[2] : .

---

(1) في كتابه توسع إنجلترا .

(2) حاضر العالم الإسلامي ص177 جـ4 .

« لما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقـوام المتحـدرة من الأروم المتنازعة ، والعروق المتقاطعة في كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقو على الوقوف في وجه أهل الغلب والإجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعـد دور ، وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد متباينون لم يختلط بعضهم ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسـامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهـم على مالا نهاية له من الفوارق دماً ولغة وتهذيباً وديناً » .

هذه الحقيقة الواقعـة التـي يلاحظهـا كل مؤرخ للهنـد هي التـي جعلت من الصعب تكوين أمة متحدة المشارب والآمال ، بحيث تترابط للدفاع عن آمالها إذا تعرضت لأذى في أية منطقة من المناطق التي تسمى الهند . .

وقد أدرك الباحثون والمفكرون والحكام من الإنجليز هذا المعنـى فاستغلوه لمصالحهم وتثبيت مراكزهم ، وعرفوا أن بقاءهم في الهند مرتبط ببقاء هذه الحالة ، فأخذوا يزيدون في عوامل التفـريق ، ويذكون نار الخلافات حتى طحنت الهند طحناً ، مما جعـل عقـلاء الهنـود يدركون هدف الإنجليز ، ويحسون ثقل المظالم التي تنصـب عليهـم جميعـاً ، والتي صهرتهم في نارهـا ، فاتجهـوا إلى التعـالي عن هذه الإختلافـات وتناسيها بقدر ما يمكن حتى يستطيعوا أن يتخلصوا من العذاب الـذي يصبه المحتل فوق رؤوسهم ، فكانوا كما يقول الحكيم العربـي « إن المصائب تجمعن المصابينا » ، فأخذوا يتعاونون ، ومن هنا عرفوا الطريق إلى الحرية وطرد الأجنبي ، فساروا عليه حتى وصلوا إلى نهايته ، فكان

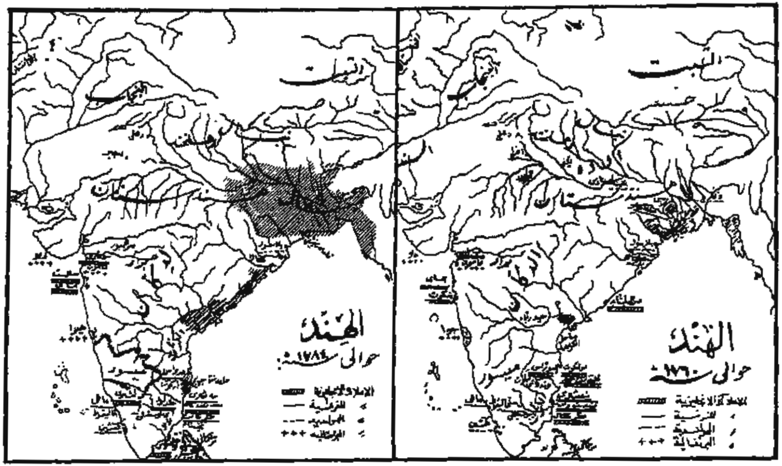
امرهم مع الإنجليز كما قال أحدهم وهو الأستاذ « سيلي »(1) : تغيب امبراطوريتنا الهندية عن الوجود عندما يبدأ الشعور القومي ينمر فيها ، وعندما يشعر الناس فيها بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطاتنا » .

ويمكن القول بأن هذا الشعور القومي المشترك بدأ في الهند مصغراً عندما أحس الشعب ـ المسلم والهندوسي على السواء ـ بما أصابه من أرزاء ، وما صار إليه من فقر واضمحلال على يد الشركة الإنجليزية ونظامها الذي كانت تحرص على تنفيذه كلما استولت على ناحية من نواحي الهند ، وكانوا لتفرقهم لا يشعر أحدهم بما أصاب زميله على يد الإنجليز بل ربما أعانهم عليه ، حتى إذا تم للإنجليز أكل جميع الأجزاء سقط في يد الهنود ، وعرف آخر واحد منهم ختمت به بريطانيا غذاءها الهندي الدسم أنه أكل ـ كما يقول المثل العربي ـ يوم أكل الثور الأبيض .

وحين أطبق الإنجليز قبضتهم على الهند ، وأحست بقسوتها ، وظهر لهم الأسد الإنجليزي على حقيقته ، بدأوا يفكرون في التخلص منه ، ويحاولون فك رقابهم من قبضته ، فكانت المحاولة الأخيرة اليائسة التي تمثلت في ثورة سنة 1274 هـ ـ 1857 م . هذه الثورة التي امتزج فيها دم المسلم بدم الهندوسي دفاعاً عن وطنهم . . وأخرجت لنا مثلاً حية عالية في الفداء والتضحية ، كما أرتنا مثلا حية سافلة في الإجرام والإعتداء . . كما سنرى في الصفحات الآتية :

---

(1) حضارة الهند ص248 .



وردت أسماء بعض البلاد في هذه الخريطة مختلفة في النطق عما جاء في الكتاب مثل تاليقوط (كاليكوت) ودامون (دمن) وروهلخند

الثورة الهندية

أسبابها ـ حوادثها ـ نتائجها

سنة 1274 هـ ـ 1857 م

كان الغرور يدفع بالإنجليز إلى الظن بأنهم كلما استولوا على جزء من الهند وأدخلوا فيه نظمهم كأنهم دفعوا بالحياة في شرايينه ، وأن الناس لا بد أن يقدروا لهم هذا ويقبلوا أيديهم ـ الأيدي التي صفعتهم !! ، والغرب كله غارق في هذا الغرور . حتى سمى احتلاله لبلاد غيره ، ونهبه أرزاقه وتخريبه لمرافقه وحيويته ، سمى هذا (استعماراً) من التعمير ، ونحن جاريناه في ذلك في كل كتابتنا العربية ، لكن انقلبت الكلمة من معناها الذي أراده الغربيون المحتلون إلى لفظ فقد كل معناه الأول ، وحمل معنى جديداً مغايراً كل المغايرة له ، وهو الظلم والإستبداد والتخريب لكل حيوية الأمة .

ومن العجيب ونحن بصدد الكلام عن الثورة الهندية أن الإنجليز أطلقوا على أهل البلد الذي احتلوه ونهبوه واغتصبوه ، فقام أحراره يمنعونهم من السلب والنهب والإغتصاب ، ويطالبونهم بالعودة إلى جزرهم ، وترك البلاد لأصحابها الشرعيين ، سمى الإنجليز أهل البلاد الذين يقفون ضد الغاصب الناهب «بغاة» هكذا بلا حياء !! وسرت هذه الكلمة مع سريان حكمهم في البلاد فاستعملها أهل الهند وسموا

أنفسهم «بغاة» كما سماهم الإنجليز !! والثورة تحمل معنى كريماً هو غليان العواطف ، والتهاب الشعور ، والقيام ضد الظلم والطغيان طلباً للحرية والإستقلال ، أما البغاوة فهي الخروج على السلطان الشرعي بدون وجه حق . وهي التعدي والظلم على صاحب الحق . . «فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمر الله »⁽¹⁾.

وقلب الحقائق بهذا الشكل هو ما رأيناه ونراه دائماً في سلوك المحتلين الغاصبين الغربيين ، الذين يسمون أنفسهم «العالم الحر» ويدعون أنهم ينشدون الحرية ، في الوقت الذي يئدون فيه حريات الشعوب ، ويصبحون هم أحراراً حقاً ، لكن في قتل حريات الآخرين !! وهم يخنقون أنفاس الشعوب ، ثم يسمون اليد التي تمتد لفك الخناق يداً إرهابية باغية يجب قطعها !! وهكذا .

والثورة الهندية حين أشعلها الأحرار الهنود أرادوا أن يحرقوا بلهيبها الحبل الذي أحاط بعنقهم ، وأرادوا أن يستردوا النعم التي كانوا يتمتعون بها من قبل ثم فقدوها على أيدي الإستعمار !!

والثائرون حين يقذفون بأنفسهم في اللهب ، لا يختارون هذا الوضع إلا بعد أن يحسوا بلهب أشد منه . وحين يقبلون على التضحية باسمي الثغور ، لا بد أنهم قد تركوا وراءهم جحيماً لم يعد لأنفسهم به طاقة ، فأقبلوا على الموت فراراً من الحياة ، وكأنهم مقبلون على حياة النعيم .

---

(1) قرآن كريم من سورة الحجرات .

فهل بلغت الحالة في الهند هكذا على يد السادة الإنجليز ؟!! وماذا كانت الحياة إذن قبل أن يدوس الإنجليز بأقدامهم هذه الأرض ؟.

هذا ما يحتاج لتفصيل ، ربما لايتسع له كله المقام ، ولذا نعول على التركيز بقدر الإمكان ، مراعين أن نعطي للقارىء صورة وافية على كل حال .

الهند بين عهدين

عهد الحكم الإسلامي ،وعهد الشركة

كانت الهند طوال القرون التي مرت بها تنعم في ظل الحكومات الإسلامية بكثيرمن الأمن والإستقرار والرفاهية . سواء أكانت الحكومة المركزية في دهلى أم حكومـات الـولايات المستقلـة ، وكان الجميع يتنافسون في الرقي بالشعب وتوفير حاجاته ، ونشأت حضارة ظلت تنمو وتزدهر في ظل رعاتها الحكام ، وكان أبناؤها يتولـون أمورهـا ، سواء منهم المسلمون أم الهندوس ، وكانت خيراتها تستقر فيها ، وتتداول في أراضيها ، ولا تذهب بعيداً عبر البحار ؛ ليعيش عليها شعب آخر حرم من الخصب ومن وسائل النعيم والحياة .

والحكام المسلمون وإن كانوا قد انحدروا إلى الهند من خارجها ، لكنهم كانوا يحكمون الشعب لصالح الشعب ، فقد أصبحـوا على مر الأيام من أبنائها ، وأصبحت الدماء الهندية الأصيلة تجري في عروقهم ، لا سيما بعد أن تزاوج الملوك والأمراء مع الأسر الهندية العريقة ، فارتبط العرش بالشعب برابطة الدم والنسب . ولم يعد هناك الفـارق الـذي يفرق بينهما .

فلم يكن الملوك إذن ينظرون إلى الشعب على أنهم غرباء عنه ، مستعبدون له ، بل كانوا ينظرون إليه على أنهم من صميمه ، كما كان الشعب ينظر إليهم هذه النظرة ، ويجد فيهم دائماً صدى آلامه وآماله ، حين يراهم يهبون للتخفيف عنه كلما وجدوه مثقلاً بالضرائب والكوارث ، وكما كان يجد فيهم صدى أفراحه حينما كانوا يشاركونه أعياده ، فكان الحكم لذلك حكماً وطنياً ، حتى لو صدر عنه أي ظلم أو عسف فهو كما يصدر من أية حكومة وطنية على شعبها ، وفي ظل هذا الحكم انصرف الشعب إلى الإنتاج والعمل واستغلال خيرات بلاده ، لصالحه هو لا لمصلحة شعب آخر ، فازدهرت الزراعة ، وارتقى العمران وتقدمت الصناعة ، ونمت حتى كانت الهند تصنع ما يكفيها ويفيض عن حاجتها ، فتصدره للخارج ويتهافت الناس على تجارة الهند وصناعتها ، لا سيما الملابس ؛ فكانت تسبق إنجلترا فيها بمراحل ، فتوفرت الخيرات ، وتكدست في الخزائن ، حتى أصبحت الهند مضرب الأمثال في الغنى والثروة وخزائن الذهب والفضة والأحجار الكريمة .

وكان كثير من الناس ينعمون بخيرات الحكم الوطني ، ويتمتعون بعطايا الملوك والأمراء ـ وما أكثرها ـ سواء من الأراضي أم المال . والجميع منصرفون إلى أداء واجباتهم الدينية ، وواجدون من المدارس ودور العلم الكثيرة المنتشرة في كل مكان ما يقدم لهم غذاءهم العلمي والديني ، سواء كانوا من المسلمين أم الهندوس ، وكان المسلمون على الخصوص مطمئنين إلى أن الحاكم مسلم ، مهما خرج على تعاليم دينه أحياناً فهو في روحه مسلم ، فكانت القافلة تسير في طريقها مهما أصاب

لرأس الحاكمة من ضعف ، ومهما قامت في البلاد من حرب تسلم الحكم من رجل إلى رجل آخر . .

وهكذا كانت الهند سعيدة ، أو على الأقل مستقرة آمنة راضية بما هي فيه .

ومع ما سبق أن ذكرناه في حديثنا عن المدنية والحضارة في العهد الإسلامي في فصل سابق ، فإنني أراني في حاجة لأن أضيف إلى كلامي هناك كلاماً آخر كتبه المؤرخون ، ولا سيما الغربيون والإنجليز منهم على الأخص ، فهم إن لم يكونوا متعصبين لأقوامهم فإنهم لا يظلمونهم ، ويحاربون الشرق على حسابهم ، وهذا الذي أنقله هنا يلقي مزيداً من الضوء على الهند في ظل الدولة الإسلامية قبل العهد الإنجليزي وبعده .

قال المؤرخ الإنجليزي «الفنستن» حـ 2:

كانت بنكال تفوق جميع البلاد في خصبها وحسن موقعها ووفرة إنتاجها . وكثرة محصولاتها ، فهي بقعة تُغني الإنسان عن جميع الحاجات في معترك الحياة ، إذ كانت مشبع الجائع ، ومروى الظمآن ، ومقضى ذوي الحاجات ، يوجد بها من القماش ولا سيما الحرير ما لا يدانيها فيه أي مكان من الأرض[1] .

ويقول المؤرخ « بيتر ولدويل » .

« كان سكان هذه المنطقة (الهند) في رغد من العيش ، وسعة من

---

(1) نقلاً عن مجلة الضياء العربية عدد شعبان 1354 وكانت تصدر من لكهنو .

الرزق يقضون حياتهم مطمئنين آمنين من الخطر والخوف على النفوس والنفائس ، إذ لم يكن الملوك يتحينون الفرص لحرمان رعاياهم مما يتمتعون به من الحياة الطيبة ، وما رزقوه من الأموال الطائلة ، وما منحوه من العظمة والأبهة(1) .

ويقول المؤرخ الدكتور «روبرتسن» :

«حاصلات الذهب والفضة في الهند كانت تجارتها كثيرة الربح في كل عصر من عصور تاريخها ، فلا نكاد نجد قطراً من الأقطار المسكونة يغني أهله ويكفيهم مثلها ، فهواؤها الملائم لهم ، وأرضها الخصبة ، وبراعة ساكنيها وكفاياتهم كل ذلك هيأ لهم ما كانوا في حاجة إليه لبقائهم» .

وقال لورد «كلايف» أحد مديري الشركة الذي سبق الحديث عنه مراراً « إن بنكال تصبح بذخائرها لأن تجعل أهلها أكثر أهل الأرض سعة ونعيماً» وقال في شهادته أمام اللجنة النيابية التي كانت تحاكمه سنة 1766 م :

«إن بلدة «مرشد أباد» تداني « لندن» في بهائها . إلخ ما نقلناه سابقاً .

وقال «مستر دار» :

إن سياح بنكال سيشهدون لها على أثر وفاة «سراج الدولة» (الذي

---

(1) المصدر السابق

قتله الإنجليز بعد انتصارهم عليه في موقعة بلاسي سنة 1757 م) بأنها أغنى بلاد العالم ثراء ، وأكثرها عمراناً ، وأوفرها إنتاجاً وزراعة ، فالتجار والأغنياء يقضون أعمارهم في خفض ودعة ، والصناع يعيشون عيشة رغدة وحياة طيبة ».

ويقول «لورد ماكولي» :

« إن الفتيات الأوروبيات يلبسن ويتزين بثياب ثمينة تنسج في الهند ، ولا يخترن عليها أبدا ثياب بلادهن »[1] .

ويقول المؤرخ الإيراني[2] : «أحمد أباد» عاصمة الكجرات ، ولها فضل كبير على سائر مدن الهند من حيث العمران والمدنية ، ولا نبالغ إن قلنا إنه لا يوجد مثلها في جميع أنحاء العالم ، وأسواقها واسعة بخلاف المدن الأخرى» .

ويأتي المؤرخ الإنجليزي المتعصب ضد المسلمين «فنسنت» فيؤيد هذا القول ويقول : «مما لا ريب فيه أن مدينة (أحمد أباد) كانت تعد من أجمل مدن العالم من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر» أي إلى عهد الإنجليز .

ويقول جوستاف لوبون[3] : «بلغت «أحمد أباد» ذروة عظمتها في العصر المغولي ، فبدت أجمل مدينة في الهندوستان وفي العالم على ما

---

(1) كل هذه الأقوال عن المصدر السابق .
(2) امين الرازي في كتابه هفت أقليم .
(3) ص517 من كتابه حضارة الهند .

يحتمل ، فكان عدد سكانها يزيد على المليونين ، وكان لمصانع ديباجها ومخملها وحريرها وطيلسانها وورقها شهرة في كل مكان ».

ويقول الكسندر هملتون : «إن صناعة النسيج كانت رائجة في الهند» حتى إنه كان يوجد في مدينة واحدة خمسون ألف عامل (في عهد أورنكزيب) وكانت تصدر الثياب إلى الخارج وبخاصة أوربا، وفي سنة 1794 استوردت الهند «منأن» فقط من الثياب ولم تكن جيدة»[1] ؛ والمن ثمانون رطلاً .

ويقول بروفيسر ولسن : «كانت صناعة الحديد في إنجلترا حديثة . بينما كانت في الهند أقدم منها بمئات السنين»[2] .

ويقول سير هنري مدير الشركة ؛ إن الهند كانت قارة صناعية ، ولكنها الآن جعلت قارة زراعية[3]

ويقول «روبرت نايت» : «لما قدمنا إلى كجرات أول مرة سنة 1807 م كان فيها الغنى والثروة ، والآن نرى الكثير من أهلها لا يجدون ما يسترون به أجسامهم ، والإقطاعيون يؤدون إلينا ثلاثة أضعاف ما كانوا يؤدونه لمن قبلنا ، ولذا اضطروا أن يستدينوا بالربا من طائفة« البنيا » (وهي طائفة مالية تجارية كاليهود في جمع المال) ، فإذا عجزوا عن سداد ديونهم استولى الدائنون على أملاكهم وقراهم ، ولو

---

(1) ص93 من كتاب حكومة خود اختياري « أي الحكومة المختارة الحرة » بالأوردو لمؤلفه المؤرخ الهندي الكبير سيد طفيل أحمد .

(2) كتب ذلك سنة 1823 (نقلاً من ص93 من المصدر السابق) .

استمر الحال على ذلك فلا تتصور كيف يكون المستقبل»[1] .

ويقول سير بارتر فرير[2] :

« كان مجلس ابن الملك يجتمع فيه كل الناس ، ويتحدثون اليه بما يريدون ، وبذلك كان الملك يعرف حال الرعية ، ومدى تنفيذ القوانين عليها » .

ويقول مستر «برينر فرانسيس » في كتابه عن أحوال الهند[3] :

« يحافظ الملك على رعيته كما يحافظ على أسرته وأعزته ، ولا يصبر على ظلم يصيب الشعب من الحكام أو الجنود » .

ويقول « مستر توماس مترو » يصور حالة الهند قبل الإنجليز[4] :

« ما كان هناك نظير لفلاحة الهند وصناعتها وعمالها ، فقد كان لهم السبق الأعلى في كل ذلك ، وكانت توجد المدارس في كل قرية ، وكل الناس يحبون الضيافة والبر ، وأفضل من هذا أنهم كانوا يكرمون المرأة ويحافظون على عفتها محافظة تامة ، فكانوا بذلك مهذبين حقاً ، وإني

---

(1) المصدر السابق ص48 .

(2) من كتاب مسلمانون كاروشن مستقبل (أوردو) ص59 أي المستقبل المضيء للمسلمين للمؤرخ (سيد طفيل) أيضاً .

(3) عن كتاب (نقش حياة) لشيخ الإسلام في الهند المرحوم مولانا حسين أحمد مدني أي مذكراته عن حياته ص157 .

(4) عن المصدر السابق ص ٧٥١ أيضاً .

أعتقد أن الاتجار بين الهند وأوربا والإنجليز على الخصوص ، سيتيح لهم (للإنجليز) فائدة كبيرة من هذه الناحية » .

هكذا يعترفون بأنهم سيستفيدون من أخلاق أهل الهند .

ويقول « لورد وليم بنتنك » ـ وكان حاكماً في الهند ـ في تحقيق أجري سنة 1882 م(1) :

« إن أكثر الأشياء كانت في عهد الحكومات الإسلامية أحسن منها في عهد السيطرة الإنجليزية ، فالمسلمون سكنوا في البلاد التي فتحوها ، واختلطوا مع أهلها وتزاوجوا معهم ، والمسلمون أعطوا الحقوق كلها لأهل الهند ، وكان الفاتح والمفتوح سواء في المزاج والعواطف والمودة ، وما كانت بينهم تفرقة بأية حال ، وعلى عكس ذلك كانت سياسة الإنجليز في الهند ؛ فإنهم لم يشركوا معهم الهنود في أي أمر من أمور الحكومة ، ومن جانب آخر أنشبوا أظفارهم في خيرات البلاد ، وقبضوا على كل شيء » .

ويقول المؤرخ الهندي « بانديت سندرلال » في كتابه « السيطرة الإنجليزية على الهند » :

« في عهد جهانكير وأورنكزيب ومن جاءوا بعدهما كانوا يعزون المسلمين والهندوس على السواء ، ولا يفضلون بعضهم على بعض ،

---

(1) نقلاً عن كتاب (نقش حياة) لمولانا مدني ص158 نقلاً عن ميجر باسو في كتابه حكومة المسيحيين في الهند ص446 جـ4 .

وكانت جميع المذاهب سواء في الحقوق وفي الحرية . كما أعطيت المقاطعات الكثيرة لكثير من الهندوس ، فلما جاء الإنجليز وقبضوا على الولايات الهندية أخذوا يبينون الشعب ومذاهبه الدينية ، وجعلوا التفرقة على أساس اللون بين الأوروبيين والهنود ؛ بقصد إذلال الهنود ، مع أن الإنجليز جاءوا تجاراً وضيوفاً ، فوجدوا من الملوك والشعب كل إكرام ، ثم جلسوا في مجالس الملك ، ثم بالتدريج سيطروا على الهند ، وعزلوا حكام الهند ، وأحلوا بدلهم حكاماً منهم ».

ويكتب السيد طفيل أحمد المؤرخ الهندي في كتابه « روشن مستقبل »(1) :

« كانت الحالة العامة في زمن المسلمين أن الملوك والأمراء يهتمون بأمر التعليم ، ويوقفون لذلك المقاطعات الكثيرة ، وبعد انتهاء نفوذ حكومة المغول في دهلي كان في « روهيلكند » ونواحيها « من مملكة أود » خمسة آلاف من العلماء يدرسون في المدارس المختلفة ، ويدفع لهم مرتباتهم حافظ رحمت خان » .

ويكتب « الكبتن الكسندر هملتون » في مذكراته عن الرحلة الهندية فيقول : « في عهد « أورنكزيب » كانت الكليات أربعمائة في بلدة (تاتا) في السند » . فإذا كان هذا عدد المدارس الكبيرة في بلدة بعيدة عن العاصمة فما عدد مدارسها الصغيرة ، وما عدد المدارس الكبيرة في المدن الهامة ، مثل دلهي وأكرا وغيرهما ؟ !

---

(1) نقلاً عن كتاب « حياة حافظ رحمت خان ص274 .

« ويكتب المقريزي في خططه : أنه كان في عهد محمد تغلق ألف مدرسة في دلهي » .

ويكتب « مستر لدلو » (1) فيقول : « في العصور الماضية كانت المدارس الكثيرة في كل قرية ، وأبناؤها كانوا يتعلمون فيها ، ولكن بعد ما سيطرنا عليها أغلقنا المدارس فأصبحوا جهالاً » .

وكتبت « إندين ريفورم سوسائتي » سنة 1853 م في رسالة لها تقول (2) :

« كانت المدارس في كل موضع بالهند ، لكنا حرمناهم من التعليم بعد أن ألغينا اللجان القروية التي كانت تقوم به ، وما أقمنا بدلها شيئاً » .

ويقول تيلر : « مما لا يختلف فيه اثنان أن الهند كانت مركزاً علمياً كبيراً يتفجر نور العلم من عقولها ، وكانت الأمم الأوروبية القديمة المتحضرة ترتوي من ذلك المنهل العذب ، وتتحلى بما فيه من علم وأدب وصناعة » (3) .

هذه حالة التعليم المزدهرة في عهد ملوك المسلمين ، ولا شك أن ذلك كان راجعاً إلى عنايتهم بالشعب وتعليمه ، كما كان راجعاً إلى كثرة المال الذي ينفقونه وينفقه الشعب في أمر التعليم وكانت الهند في هذه العهود مضرب الأمثال في الغنى والثروة .

---

(1) (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص185 نقلاً عن تاريخ باسوجك ص14 وكالروشن مستقبل 124 .

(2) نقلاً عن (روشن مستقبل ص124) .

(3) عن الضياء .

يقول الأمبراطور « جهانكير » في مذكراته :

« كان ملوك الهند يوزنون بالذهب في الأعياد ، ويوزعون ما يساويها من المال على الفقراء والمساكين ، وأول ما وزنت كان وزني ثلاثة من وعشرة سير ثم زاد وزني ، وكنت أوزن في السنة مرتين : مرة في أول السنة الشمسية ، ومرة في أول السنة القمرية ، وأنفق ما يساوي وزني على الفقراء والمساكين » .

وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم ، فيأخذ الواحد منهم كيسين من المال ، فيهما نحو آلاف الروبيات ، وفي الطريق يبذلون هذا المال على الفقراء ، فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية ، وكان كل دخل الهند لأهلها لا يخرج منه شيء ، حتى تكدست الأموال في الخزائن ، وصارت مضرب الأمثال في الغنى ، وهذا هو ما أسال لعاب الغرب ، وأغراه بالتجارة معها وسلب خيراتها ، حتى نضبت هذه الخيرات من أيدي أهلها ، وبدأت تتدفق على الغرب ليعيش عليها أهل أوربا ـ ولا سيما الإنجليز ـ في رغد وأمن وسعة ، بينما أهلها يموتون جوعاً ، ويشقون من الفقر والجهل والذل .

يقول جوستاف لوبون(1) : « ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلافاً من السنين ، وازدهرت الفنون فيها على الدوام ، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ونسائجها ، حتى صار

(1) ص 553 من كتابه حضارة الهند وهذا الكتاب ألف في أثناء الإحتلال الإنجليزي للهند .

من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا في ألوف السنين ، أجل ـ إن الثورات وتبديل الأسر المالكة مما كان يؤدي إلى انتقال الثروات بين حين وحين ، بيد أن هذه الثروات كانت تبقى في الهند ، فيستعملها مالكوها الجدد كأسلافهم في تشييد المباني والقصور ، واقتناء النفائس ، وتشجيع الفنون . واليوم صارت بلاد الهند أفقر بلاد العالم بعدما أن كانت أغناها . وبلاد الهند قد هزلت بعدما خضعت منذ قرن لنظام مؤد إلى امتصاصها ، وقد بينا أن فن البناء شرع يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنكليز فيها ، وسيكون مصير الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل » .

ولقد حرصت فيما سبق على أن أدع الأقلام الأوربية ـ وبخاصة الإنجليزية منها ـ تصور نعيم أهل الهند في ظل ملوكها المسلمين ، حتى لا يكون هناك مجال للشك في هذا التصوير ، فمثل هؤلاء لا يكتبون الحق الذي يصور هذه الحالة الطيبة إلا إذا كان واضحاً لا يمكن إنكاره ، وكان عندهم شيء من الإنصاف العلمي للتاريخ الذي يكتبونه للأجيال المقبلة ، وهذا الذي نقلته هو قليل من كثير مما كتبوه ، ونقلته كتب التاريخ الهندية ، ونشرته في عهد السيطرة الإنجليزية على الهند ، واعتقد أنه أيضاً قليل من كثير مما يجب أن يكتب ، وكانت الظروف تحول دون كتابته خوفاً من بطش السلطة القائمة(1) ، ولعل مؤرخي الهند

---

(1) لما كتب مولانا محمد ميان ناظم جمعية علماء الهند كتابه التاريخي (ماضي العلماء المجيد) ونقل فيه مثل هذه الأقوال قبضت عليه حكومة الإنجليز في الهند ، وحاولت مصادرة الكتاب ، ولكنه كان قد نقل من المطبعة إلى مكان آخر ، وعاقبت صاحب المطبعة ، وقد سمعت ذلك من المؤلف الفاضل ، والآن يعيد كتابة تاريخه من جديد بعد جلاء الإنجليز .

يقومون بواجبهم إزاء تاريخها حين يكتبونه الآن في حرية ، فقد سمعت الكثير من هذا الذي يؤمله المثقفون في مؤرخيهم المعاصرين ، وهم يعيدون كتابة تاريخ الهند في حرية وطلاقة .

لقد كتب المؤرخون الهنود كثيراً من أعمال الإنجليز السيئة في الهند ، ولكنهم جميعاً كانوا يحرصون على نقل أقوال الإنجليز التي دونوها في كتب نشرت وتبودلت في إنجلترا ، حتى لا يكون هناك مجال للسلطة الإنجليزية في الهند ، أن تحول بين هؤلاء وبين نشر ما ينقلون ، ولكنهم مع ذلك لم يسلموا من مطاردتها . .

وها أنذا أنقل لك فيما يأتي بعضاً من أقوال هؤلاء الذين يصورون لنا ما فعله الإنجليز في الهند ، مما دفع أهلها دفعاً إلى الثورة عليهم للتخلص منهم ، بعد ما أحسوا بقبضتهم تضيق وتشتد على أعناقهم ، فمنذ بدأ الإنجليز يسيطرون ويحكمون ظهرت نياتهم ، وأخذوا يفرضون على الشعب قوانينهم الجائرة التي ترمي إلى إفقاره ، وامتصاص دمه وتجهيله وزلزلة عقائده .

ومن العجب حقاً أن الشعب الهندي الكبير لم يفطن إلى ما كان يفعله الإنجليز بالولايات التي استولوا عليها ، حتى يأخذ حذره ويحاصر الخطر ، ويقضي عليه قبل أن يستفحل ، وتنتقل عدواه إلى بقية أجزاء الهند !!

ولعل التفكك والتناحر اللذين كانا يسودان الولايات الهندية في ذلك الوقت ، ولا سيما بعد موت « أورنكزيب » هما اللذان ساعدا

الإنجليز على بلوغ ما يريدون ، وجعلا الهنود لا يحسون ما يقع في جوارهم ، بل ربما كانوا يساعدون الإنجليز أحياناً ضد إخوانهم .

كتب « مستر ميكلم لوينس » أحد القضاة الإنجليز في مدراس يقول[1] :

« نحن أذللنا الذوات من أهل الهند ، ومسخنا قانون وراثتهم ، وغيرنا قواعد الأعياد وعقود النكاح ، وما وقرنا شعائر مذاهبهم ، بل كنا نضحك عليهم ؛ ونجعل شعائرهم سخرية ، وأخذنا أوقاف المساجد ، وزورنا في الدفاتر ، وأخذنا جميع ولاياتهم ، وخربنا جميع البلاد بالسلب والنهب والقتل ، وآذيناهم . وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة ، وجعلنا أعزة أهل الهند أذلة يتيهون في الأرض » .

ويقول « لورد ماكولي » في رسالته إلى الحاكم العام « لورد هستنجز » بصدد القوانين التي سنوها في الهند[2] :

« إننا نجبرهم على القسم حتى في صغائر الأمور ، ولم يكونوا متعودين ذلك ، وشرفاؤهم يعدون القسم شكا في شرفهم ، وهذا عار عليهم ، وفضلاً عن ذلك فإنهم يعدون الحجاب أهم شيء ، فلو دخل أحد بيتهم ورأى السيدات فإنه عار لا يغسل إلا بالدم ، ومع ذلك فإن أهل « بنكال وأوربسة وبهار » كانوا أهدافاً لهذه الغلطات ، وقد اجتمع حول الإنجليز جماعة هم أسوأ أهل الهند من الحلافين الكذابين

---

(1) في كتابه في السياسة الهندية ص76 .

(2) ص630 نقلاً عن « روشن مستقبل » ص65 ، 66 .

النهابين ، في الوقت الذي قبضنا فيه على الشرفاء ، وملأنا بهم السجون ، ثم دخلت الجنود الإنجليزية والموظفون بيوتهم ، يفعلون بنسائهم ما يريدون ، مع أننا رأينا الأشراف يقتلون على أبواب بيوتهم دفاعاً عن حرماتهم ، وأنهم لم يجزعوا من السلب والنهب الذي وقع من « المراهتا » مثلما جزعوا من فعل الإنجليز وهتكهم للأعراض » .

ويقول « لورد ماكولي نفسه[1] » : «إن أنهار الثروة في الهند كانت تنساب الى انجلترا » . ويقول « مستر بروكس إيدسن[2] :

« إن المال الذي جمعه الملايين من الهنود في عدة قرون أخذناه نحن إلى إنجلترا » .

ويقول « لورد ماكولي أيضاً » : « كما كانوا سابقاً يخدرون الرجل القوي الشجاع بالأفيون ليذهب عقله وقوته . فهكذا قام نظام حكمنا على جعل الهنود جبناء » .

وقد لاحظ المؤرخون أن أخلاق الهنود تغيرت وانحطت كثيراً ، نتيجة عمل الشركة الإنجليزية في الهند ، فإن أعمال الموظفين والجنود الإنجليز ومن التف حولهم من أرذال الناس كانت ذات أثر سيء في أخلاق الشعب ، ثم كان الفقر الذي أصاب الكثرة من أهل الهند ذا أثر كذلك في تحويل أخلاقهم الحسنة إلى أخلاق وعادات سيئة ، فبينما كانوا يحرصون على الصدق والأمانة حتى ليقول « جنرال سليمان » الذي وكل

---

(1) نقلاً عن كتاب حكومة خود اختياري أي الحكومة المختارة ص112 لسيد طفيل أيضاً بالاوردية .

(2) المصدر السابق ص111 , 112 نقلاً عن كتابه قانون التمدن والانحطاط .

إليه حفظ الأمن : « إنني رأيت كثيراً من قطاع الطرق يحرصون على الصدق ، ولو كان فيه هلاكهم » إذا بهم يتحولون في أخلاقهم إلى الكذب والسرقة والغش والخديعة ، بحيث أصبح ذلك مظهراً عاماً للناس ، وذلك أثر لما ذكرته من قبل من أخلاق الموظفين الإنجليز ومن التف حولهم من أرذال الناس ، ثم من الفقر الذي يضطر الناس إلى ارتكاب ذلك . .

وقد كتب أحد القسيسين الإنجليز في مدراس إلى مديري الشركة سنة 1087 هـ-1676 م يقول : « إنكم تسيئون إلى الحكم وإلى دينكم بأعمال موظفيكم ولو تعلمون ما يعملون لجرت دموعكم أنهاراً »[1] .

وقد كانت الشركة تحرص على هذا النوع من الموظفين الذين يشكو منهم القسيس ، كي يحققوا لها أهدافها في السلب والنهب ، دون مراعاة لضمير أو شرف أو قانون ، وهذا يظهر لنا بجلاء من رد الشركة على الحكومة الإنجليزية حين طلبت منها تعيين أحد الأشخاص «سيرادوزرد مائيكل بورون » في إحدى وظائفها بالهند ، فقد كان رداً غريباً يستوقف النظر حقاً ، ويرينا إلى أي حد بلغ استهتار هؤلاء . قالت الشركة في ردها :

« لا يمكن أن يتحمل المسؤولية في الشركة رجل « جنتلمان » ، وإننا نلتمس من الحكومة أن تترك لنا حرية اختيار الموظفين ، حتى ننتخب من

---

(1) روشن مستقبل ص34 نقلاً عن كتاب أوراق قديمة عن الهند البريطانية لمؤلفه « وهيلر » ص70 .

يتناسب مع عملنا وهدفنا وبقية موظفينا ، فنحن نخشى أن يدخل في الشركة رجل مثل « مستراذورد » من الشرفاء ، فيفسد علينا عملنا ، وتنتهي تجارتنا إلى الإفلاس »[1] .

ويقول (هستنجز) الذي كان حاكماً عاماً للشركة في أواخر القرن الثامن عشر عدة مرات[2] : « الإنجليزي بعد ما يجيء إلى الهند يصبح إنساناً آخر يرتكب الجرائم ، متحامياً في كلمة (إنجليزي) ولا يخطر بباله أنه يعاقب على جريمته » . ونحن في مصر نعرف مدى صدق هذا القول .

وقد اعتمد الإنجليز على جماعة من التجار ، وجد كل في الآخر فرصته التي يبتغيها ، وهؤلاء التجار يعرفون في الهند بإسم (البنيا)[3] ، وهم في الحرص على المال والمهارة في ابتزازه بأي طريق كاليهود ، فمولوا للإنجليز وسهلوا لهم كل سوء ، كما ساعدهم الإنجليز على كسب الثروات الطائلة ، حين كانوا يعتمدون عليهم في تحصيل الأموال ، وهؤلاء كانوا يقرضون أصحاب الإقطاعيات الذين

---

(1) روشن مستقبل ص35 نقلاً عن كتاب برتش أنديا ، أي الهند البريطانية لمؤلفه جيمس مل ص 23

(2) من كتاب علم المعيشة ليرني ص585 .

(3) ويعرفون أيضاً بإسم « ماروباري » نسبة إلى منطقة « ماروار » من واجبوتانا . يقول جوستاف لوبون ص134 « كلمة » مارواري في الهند مترادفة وكلمة اليهودي في البلاد الأخرى وينقل عن المؤرخ الهندي سيد ملاباري « لا يقوم المارواري بعمل لايدر عليه ربحاً مائة في المائة . والمروري مع كونه من أتباع وشنو لا يحترم الآلهة ، ويفضل ديناراً حاملاً صورة الملكة على أكثر هذه الآلهة حرمة » .

يضطرون أمام الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الشركة عليهم إلى الإقتراض بالربا الفاحش منهم ، ثم يعجزون عن سداد الديون ، فيتولى (البنيا) على أملاكهم بمساعدة الإنجليز الذين يشاركونهم مكاسبهم ، وهكذا فتح الباب واسعاً لثراء هؤلاء مع الإنجليز على حساب إفقار الأهالي . .

وبهذا عمت البلاد التي تحت سيطرة الشركة روح من الإنتهازية البغيضة التي لا تبالي بخلق أو شرف ، أبطالها الإنجليز وطبقة من التجار ، وضحاياها أهل البلاد المساكين ، والخلق الكريم الذي عرفه الهنود قبل مجيء الإنجليز . ولقد شكا حاكم (كرنات) في مدراس إلى مديري الشركة وقال : « إن عمالكم يجيئون وليس لهم عمل هنا ، ولا أنتم تدفعون لهم المرتبات التي تكفيهم ، ولكنهم حين يرجعون بعد سنوات يرجعون بآلاف الجنيهات ، فمن أين لهم هذه المبالغ الكبيرة ؟ » .

نعم من أين هذه المبالغ الكبيرة للموظفين حين يعودون ، حتى لاحظ الشعب الإنجليزي وحكومته هذا ، فكانوا يضجون من أفعالهم ويحاكمونهم ويدينونهم ـ الكبير والصغير منهم على حد سواء ـ ولكن من أين للشركة أيضاً هذه المبالغ والأرباح الكثيرة ، فقد كانت أرباحها أكثر من 200 % أحياناً .

وقد أعطت (كرومويل) حين تولى الحكم بعد شارل الأول سنة 1006 هـ 1650 م مبلغ ستين ألف جنيه لمساعدته لها ، ثم أعطت شارل الثاني الذي تولى بعده ، ما يصل إلى أربعمائة ألف جنيه ليساندها

ويساعدها[1] ومعلوم أنها بدأت التجارة في الهند بعشرات الآلاف من الجنيهات ، وأصيبت بصدمات عدة مرات ، وكما أنفقت الكثير في المنافسة مع البرتغال والهولنديين وغيرهم ، فمن أين لها كل ذلك حتى ترشو الملك بأربعمائة ألف جنيه ؟! فقط !!

إن الأمر حقيقة كما قال لورد ماكولي : « إن أنهار الثروة في الهند كانت تنساب إلى إنجلترا » .

ولهذا أصبحت الهند كما قال سيرجون لورنس سنة1360 هـ ـ1844 م « إن الهند أصبحت مفلسة ، حتى إن أكثرهم قد هاموا على وجوههم »[2] .

لقد كانوا يفرضون ضرائب باهظة على الشعب ، بلغت أضعاف ما كان يؤخذ منهم في عهد ملوك المسلمين باعتراف الإنجليز أنفسهم ، وبحوار ذلك حاربوا الصناعة الهندية حتى قضوا عليها تماماً ، وتحولت الهند من قطر صناعي زراعي إلى قطر زراعي فقط ، وذلك ليخلو الجو للصناعات الإنجليزية ، وكانوا يجبرون العمال على العمل في الشركة بأجور زهيدة والسياط مسلطة على ظهورهم ، وبذلك فرضوا الإفلاس على الشعب تماماً .

يقول مستر هنتر : « لقد أوجب أعضاء الدولة على الزراع خراجاً أكثر مما يستطيعون ، فربما لا يبقى لهم ولأولادهم من الزرع ما يقتاتون به » .

---

(1) كتاب معيشة الهند ص670 وما بعدها .

(2) خود اختياري ص43 .

ويقول سيرهنري سنت جورج مدير الشركة[1] : إن الهند كانت قارة صناعية ولكنها الآن جعلت قارة زراعية .

وقال مستر إندر يوميم أمام لجنة سيمور سنة 1275 هـ ـ 1841 م : لما أغلقت الصناعة على أهل الهند تحولوا للزراعة[2] .

وجاء في تقرير مصلحة التجارة (1766 ـ 1811 م) ما يأتي :

كان الصناع والمحترفون يكرهون على العمل للشركة ، ويؤخذ منهم ميثاق غليظ لا يزيدهم إلا خسارا ، ولا يجدون بجانبهم ولياً ولا نصيراً ، يستغيثون ولا مغيث ، ويجبرون على عمل لا تشتهيه نفوسهم ، وكثيراً ما اضطروا إلى دفع غرامات لإعراضهم عن العمل ، وكان الحائكون يعاقبون عقوبة هائلة تكون فيها عبرة لغيرهم ، وكانت تنتهي بتركهم العمل) [3] .

ويقول بولتس ص 79 [4] :

كان يصب على أبدان الصانعين البائسين من المظالم والعقوبات مالا يتصوره العقل ، كأنهم جعلوا عبيداً للشركة ، فإن الغرامة والحبس والتعهد الجبري والضرب بالعصا ، كل ذلك أبادهم وقطع حبلهم ، وأتى على حرثهم ونسلهم .

---

(1) خود اختياري ص ٣٩ .
(2) المصدر السابق .
(3) (4) نقلاً عن مجلة الضياء شعبان 1354 .

ويقول جيمس تيلر[1] :

كان من نتائج كساد سوق التجارة والصناعة أن انحطت (دهاكه) ـ عاصمة بنكال ـ عمراناً ، فإن عمرانها الذي كان يضم مائتي ألف قد صار إلى ثمانية وستين ألفاً فقط ، وأسرع الفقر إلى أزدياده أكثر مما أسرع العمران إلى انتقاصه .

ويقول كارل ماركس في كتاب « حكومة الإنجليز في الهند »[2] :

لقد محت الحملة الأوروبية آثار المنازل ، وما أبقت لها عيناً ولا أثراً ، ولم يصبح للصناعة الهندية من أسواقها نصيب ، وأخذت أوربا ترسل خيوطها إلى تلك البلاد بقدر ما يمكنها ، حتى انعدمت الخيوط الأهلية ، ولم يبق فيها شيء ، فتلك البقعة التي كانت مركز القطن مستها الحاجة إلى خيوط خارجية ، فبدأ ورودها إلى الهند من سنة 1818 م ، ووصل مقدارها سنة 1837 م ـ أي بعد تسع عشرة سنة ـ إلى خمسة آلاف ومائتي ضعف ما كان أرسل في أول الأمر .

وقال ميجر وينجت ، يصور مقدار ما افادته بريطانيا من الهند[3] :

« في القرن التاسع عشر للميلاد أعطت الهند لإنجلترا من النقود ما ينيف على ألف ألف مليون ، وقد أنفق أبناء وطننا في سبيل التجارة الهندية والقيام بها مائة وثلاثين مليون روبية ، فالتجارة في الهند أهم منها

---

(1) ، (2) ، (3) نقلاً عن مجلة الضياء شعبان 1254 .

في جميع المالك الأخرى ، فكثير من شبابنا وفقرائنا يطعمون فيها ويرزقون ، ولا يزيد دولتنا قوة ومنعة في بقاع الأرض إلا سيطرتها على الهند » .

وهذا الذي يتحدث عنه الميجر فيا أعطته الهند لإنجلترا في القرن التاسع عشر غير ما أخذته منها من قبل ، طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلقد كانت الشركة تتصرف في الهند تصرف (الحواه) ، لا تراعي أي شرف أو ضمير في سبيل المال . وهذه حادثة مع حاكم « الكرنات » في مدراس نذكرها على سبيل المثال(1) : فقد احتاج ملك الكرنات إلى مال ليصرف مرتبات الجنود ويهدىء ثورتهم . وتدخل الإنجليز وعرضوا عليه قرضاً . فقبله نظير إعطائهم بعض المقاطعات على سبيل الرهن ، وتسلموا الرهن واستولوا على خراجه ، وماطلوا في الدفع وهو يطالبهم ، والجنود تنتظر حتى مضت سنتان ، ثم بدأوا يدفعون له من محصول الأرض التي استولوا عليها ، وبذلك لم يخسروا شيئاً ، ولم يدفعوا فلساً نظير الأرض التي أخذوها . وهكذا كانوا يفعلون في الهند لكسب الأموال الطائلة بطريق الحيلة والغدر . حتى كانت موقعة « بلاسي » في البنكال سنة 1757 م . التي انتصروا فيها ، فبدأت تجارتهم تتخذ وجهاً جديداً فيه ملامح القوة والبطش ، ثم أضافوا إلى تجارتهم في الأموال تجارة أخرى درت عليهم المكاسب الخيالية ، وهي التجارة في العروش والحكام ، فكانوا كلما ساعدوا حاكماً على أن يصل للحكم تنهال عليهم الثروة من الحاكم الذي

(1) روشن مستقبل ص39 نقلاً عن مصنفات برك جـ3 ص209 إلى210 .

ساعدوه ، فوجدوها طريقة أكثر ربحا ، وأوفر دخلاً فتعاملوا بها أيضاً !!

فبعد انتصارهم في « بلاسي » وإجلاسهم « الأمير جعفر » الخائن الذي تآمر معهم ضد سراج الدولة ، أخذت تنهال الأموال على « قلعة وليم » في بنكال فدفع مير جعفر ثلاثين مليوناً من الروبيات عطية « لكلايف » ، وأعطاه مقاطعة في جنوب كلكتا ، خراجها السنوي مليون روبيه ، ودفع لأعضاء مجلس الشركة في بنكال ستمائة ألف ، وهذا شيء خاص بالأفراد ، وهو غير المصروفات التي تتقاضاها الشركة منه نظير مساعدتها له ، والتي لم يستطع دفعها كلها ، فدفع بعضها نقداً وأعطاها (24) مديرية نظير الباقي لها تستولي على دخلها .

يقول لورد ماكولي(1) :

« كان الذهب والفضة ينهالان على الشركة وعمالها كالمطر ، وصل ثمانية ملايين روبية إلى كلكتا من « مرشد أباد » (في قلعة وليم التي بنيت حولها كلكتا الحالية) عن طريق البحر ، وكانت المراكب أكثر من مائة والأعلام ترفرف عليها ، وفيها المزامير وآلات الطرب ، وكانت « كلكتا » الحالية خراباً لم تبن بعد » .

وهذه المبالغ التي أمكن حصرها غير المبالغ التي استولى عليها الإنجليز بالسلب والنهب . وفي هذا يقول « لورد كلايف » نفسه ، الذي كان مديراً للشركة في ذلك الوقت ، وتمت على يده موقعة

---

(1) في كتاب تاريخ كلايف ص517 نقلاً عن (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص215 .

« بلاسي » : « جمعنا الثروة العظيمة بالنهب من سكان بنكال البالغ عددهم في ذلك الوقت ثلاثين مليوناً[1] » .

ويقول « بروكس إيدمسن » في كتابه « قانون التمدن والإنحطاط »[2] :

« أرسل الإنجليز الخزائن الممتلئة بالمال إلى لندن ، كما أرسل الرومان خزائن اليونان إلى « روما » ، ولقد كانت الخزائن التي أرسلت من الهند ثمينة لا يستطيع الإنسان تقديرها ، ، ويمكن أن أقول إنها كانت أكثر من الأموال الموجودة في أوربا كلها » .

ويقول أيضاً : « بعد حرب « بلاسي » ووصول أنهار الثروة إلى لندن » ظهر أثرها حالاً في رقي البلاد ، وإنشاء الصناعات المختلفة ، ونشاط الأسواق التي كانت من قبل جامدة خامدة » .

ومثل هذا يقول « سير وليم ديجي » وكل الذين أرخوا لانجلترا والهند .

ويذكر كتاب « روشن مستقبل » ص 47 المبالغ التي استولى عليها الإنجليز من حكام بنكال نظير مساعدتهم في حكم البلاد فيقول :

في سنة 1757 دفع الأمير جعفر	30, 610, 750	روبية

(1) نقش حياة ص 215 نقلاً عن جريدة « تنظيم أمرتسر » الصادرة في 28 اغسطس 1928

(2) المصدر السابق ص 216 وحكومة خود اختياري ص 79 نقلاً عن كتاب «Unhappy india» ص 323 .

في سنة 1760	دفع الأمير قاسم الذي جاء بعده	2, 627, 690	روبية
في سنة 1763	دفع الأمير جعفر ثانياً	14 , 184 , 990	روبية
في سنة 1765	دفع الأمير نجم الدولة	1 , 976 , 900	روبية

وهكذا كان سلوك الإنجليز في الهند واستيلاؤهم على المال بشتى الطرق ، فقد كانوا كلما استولوا على ولاية وضعوا أيديهم على أموالها وخزائنها ومجوهراتها ، ونقلوها إلى لندن ؛ كما حدث في ميسور بعد قتل تيبو سلطان ؛ وفي كرناتك وأود ، وممالك المراهتا والبنجاب والسند وغيرها ، وكان حكام الشركة يمثلون مع الملوك في الهند ما نعرفه عن « البلطجية » في مصر . « فقد طلب « هستنجز » من « راجا بنارس » ـ وكان من أتباعه ـ مالاً ورجالاً ، فلما شكا الراجا من كثرة ما يطلب منه عزله ، وولى بدله آخر استجاب له ، وفي « مملكة أود » لم يتورع عن محاصرة أم الملك وجدته في قصرهما بجيوشه لينهب منهما مليونا من الجنيهات ، لا لشيء إلا لأنه يريد مالاً ، وأنهما تملكان هذا المال(1) » .

ويذكر المؤرخون بجانب ذلك حيلة أخرى من حيلهم ، وصلت إليها الشركة بواسطة أحد الأطباء الإنجليز ، الذي استدعاه « فروخ سير » ملك دهلي لعلاج بنته ، بعد ما استعصى علاجها ، وكان يدعى الدكتور « هملتن » ، ولما نجح في علاجها فرح الملك ، وأراد أن ينعم

(1) من تاريخ أوربا الحديثة ص323 .

على الدكتور بمال كثير جرياً على عادة الملوك، ولكن الدكتور تصرف حسب الخطة الموضوعة التي تطلبها الشركة ، فلم يقبل المال ، والتمس شيئاً آخر ، ربما بدا بسيطاً في نظر الملك ومستشاريه في ذلك الوقت ، فلم يفطنوا إلى ما يترتب عليه من نتائج وخيمة ، وهو إعفاء تجارة الشركة من الضرائب ، فأجابه الملك إلى ما طلب ، وكان صدور القرار بذلك بمثابة أمر صدر بإعدام التجار الهنود وإفلاسهم ، في الوقت الذي فتحت فيه أبواب الثروة والتحكم والسيطرة للإنجليز .

فقد بدأ الإنجليز يتاجرون أفراداً وجماعات في كل شيء صغير وكبير ، في القصب والأرز والبان والسمن ، وكل ما يحتاج إليه أهل الهند ، وأخذوا ينزلون الأسواق عارضين تجارتهم بثمن أقل مما في أيدي التجار الهنود ، فلم يستطع هؤلاء منافستهم ، فحل بهم الخراب والإفلاس ، وسيطر التجار الإنجليز على الأسواق والمكاسب ، وأخذ بعض التجار الهنود يحتمون بهم ، ويشترون منهم هذه الحماية بمبالغ ضخمة يدفعونها لهم ، على أن يقيدوا تجارتهم ، بإسمهم ليعفوا من الضرائب مثلهم . وبدا شبح الخراب يخيم على البلاد ، ويحل ضيفاً ثقيلاً عليها فوق ما هي فيه ، واضطر « الأمير قاسم » حاكم بنكال وقتئذ أن يشكو إلى الشركة . ويقول لها : « في كل قرية » وفي كل مدينة يذهب الإنجليز ، ويتاجرون في كل شيء حتى السمك والتمباك ، ولم يتركوا لأهل البلاد شيئاً ، وهم يأخذون الأشياء من الأهالي جبراً بأرخص الأثمان ، ثم يبيعونها للناس بأسعار غالية ، وبمثل هذا

وبإعفائهم من الضرائب تحل الخسارة والخراب بالبلاد »[1] .

ولم تعر الشركة هذه الشكوى شيئاً من الإهتمام ؛ لأن الطريقة التي يشكو منها الأمير هي الخطة المرسومة لها للربح ، مما اضطر معه الأمير قاسم أن يعفو الأهالي من الضريبة على تجارتهم كذلك ، وكان هذا تحدياً منه للشركة ، وقضاء على أرباحها التي أحست لذتها ، وإهداراً لمعنى الإمتياز الذي حصلت عليه من الملك « فروخ سير » ، ولم تنظر طبعاً إلى أن هذا حاكم من حقه أن يعفو أبناء البلاد ، كما أعفاهم الملك الآخر وهم أجانب ، طبعاً لم تنظر الشركة إلى هذا ، وإنما نظرت إلى مكاسبها وأرباحها فقط . ولذا غضبت على الأمير ، وأساءت إليه . حتى اضطر لترك الحكم والفرار لشمال الهند . والإتفاق مع « شجاع الدولة» ملك «أود» ، «وشاه عالم» ملك «دهلي» للوقوف في وجه النفوذ الإنجليزي ، فكانت موقعة « بكسر » سنة 1764 م التي أنهزموا فيها أمام تنظيم الإنجليز وأسلحتهم الحديثة ، ثم عقدوا صلحاً مع « شاه عالم » ، وبمقتضاه أشرفوا على تحصيل الأموال ، والتصرف فيها ، وهو ما يسمى بالأشراف على « الديواني » ، فكانوا يحصلون أموالاً كثيرة ، وينفقون قليلاً ، ويأخذون لأنفسهم الكثير ، معتمدين على نفوذهم ، وعلى المعاهدة التي أعطتهم حق الإشراف ، بعدما لم يكن لهم أي حق من قبل ، وهكذا أخذوا يزحفون ، وأخذ البلاء والخراب يزحفان معهم على شعب الهند أينما حلوا ، بينما أخذت أنهار الأموال تتدفق على « لندن » كما قال لورد ماكولي .

---

(1) من تاريخ دت ص23 .

لقد كانت البنكال أول مقاطعة هندية تلقت ضربات الإنجليز وأفواههم مفتحة ، وأيديهم ممتدة للسلب والنهب ، كما كان في الجنوب ، ولذلك ظهر فيهم أولاً آثار هذا البلاء الذي لازم ظل الإنجليز أينما ساروا ، فتبدل رخاؤهما فقراً ، وأمنهما خوفاً ورعباً ، وسعادتهما شقاء ونصباً ، حتى ليقول لورد كلايف نفسه[1] .

« كفى أن أقول في مظالم بنكال بأنني ما سمعت وما شاهدت مثل هذه المظالم والأعمال السيئة والفساد وأخذ الرشوة » .

فتحولت « مرشد أباد » التي كانت تضاهي لندن ـ كما قال أحد الإنجليز ـ إلى أطلال وخرائب ، بعد أن فر منها أكثر سكانها ، وأصبحت بنكال التي كانت جنة الهند ـ كما قالوا ـ موطن الشقاء والبؤس والخراب ، وكذلك كان الحال في الجنوب .

يقول فرنسيس براون[2] .

« إني أعلن أن (مليبار) درست معالمها ، وانحط شأنها ، وباد كل من فيها من سكانها ، بما صبت عليهم بريطانيا من أنواع المظالم والعقوبات ، وبما ضربته عليها وعلى أهلها من الذلة والمسكنة » .

وهكذا وبمثل هذا زحف الخراب على الهند كلها ، حتى ليقول سر

---

(1) في كتاب تاريخ كلايف لمصنفه «ميلكم» نقلاً عن خود اختياري ص10 .
(2) عن مجلة الضياء .

فريدرك ترويس في سنة 1820 م يصور حالتها(1) :

« إن منظر الهند يكدر قلب كل ناظر إليها ، ويمكن الألم في دماغه ، وكذلك أهلها أكثر منها خسراناً . كأنه ما بقيت فيهم نسمة من الحياة ، ويخيل للناظر إليهم أنهم خامدون ، أبدانهم ملفوفة في ثياب رثة وسخة بالية ، أثر الفقر ظاهر على وجوههم ، كل همهم أن يحصلوا على كسرة من الخبز يسدون بها رمقهم ، ويقاسون ما يقاسون من نصب وعرق من أجلها فقط ، لهم أجسام هزيلة ووجوه مصفرة » .

وفي كتاب بنكال في عهد الشركة الهندية الشرقية (سنة 1781 م) جاء ما يأتي(2) :

« قد هلكت المالك بعد أن شد على أهلها الخناق بكل ما يمكن من الأساليب ، واجتيح نحو نصف أملاك الأعيان الأباة في زمن أقل من ستة أعوام ، فدمرت أخصب الأراضي ، وغرب خمسة ملايين من الرجال الجادين الأبرياء أودى بهم » .

ويقول « ولسن »(3) : « إن جلب المال من الهند لانجلترا جعل الهند جسماً بلا روح ، فإن استنزاف الدم من رجل مريض بفقر الدم يقضي عليه » .

وهكذا تجمع أقوال الإنكليز أنفسهم على شناعة ما فعلوا بالهند وما آل إليه أمرها على أيديهم ، وهم لا يزالون يزحفون في عهد الشركة .

---

(1) , (2) مجلة الضياء .
(3) كتاب Unhappy india ص112 .

ويلاحظ أنهم بعد أن تمكنوا من الهند ، وفرضوا سيطرتهم عليها . وأخذوا في تنظيم شؤونها بقوانين يصدرونها ، كان هدفهم تنظيم سيطرتهم ونهبهم ، وإفقار أهل الهند وإذلالهم ، وتحويل البلاد إلى بقرة حلوب لأهل بريطانيا لا لأهل الهند ، فالهنود ـ في نظرهم ـ اراذل متأخرون لا يصلحون لعمل إلا أن يكون تافهاً وحقيراً ، وهم لا يعاشرون ، ولا يختلط بهم .

يقول مستر توماس منرو في تقريره عن القوانين التي وضعوها للهند :

« لاحظ ولا نصيب لأهل الهند ، ولا دخل لهم في الحكومة ، ولا يوجد أحد منهم في قيادة الجيش ، ولا في الضباط ، ولكن في بعض الأعمال الحقيرة ، وفي كل مكان يحتقرون ، ظناً أنهم من أراذل الأمم ، وجميع الأمور المهمة في الجيش وفي الدواوين في يد الإنجليز ، ولذلك تذهب الأموال من الهند إلى أوربا »(1) .

ويكتب مستر كنزي في مذكراته :

« هذا العمل محير جداً : إن شرفاء الإنجليز ورحماءهم يحتقرون أهل الهند ، ويعملون على إذلالهم وتحقيرهم ، وفي الحقيقة أنهم لا يستحقون ذلك لأنهم شرفاء »(2) .

---

(1) من تاريخ « دت » ص166 جـ2.

(2) خود اختياري ص18 .

ويكتب مستر « لدلو » في كتابه « برتش إنديا » أي الهند البريطانية :

« إن الإنجليز لو فتحوا جميع الهند ، وقبضوا عليها فتكون النتيجة أن يصير أهلها أذل الناس » .

وهذا ما حدث فعلاً بعد أن تسلط الإنجليز عليها كلها ، فصاروا أذل الناس وأفقر الناس ، وأكثرهم جهلاً حتى صار يضرب بهم المثل في هذه الأمور كلها بين الأمم ، وإذا تواطأ الفقر والجهل على أمة أورثاها الذل ، وكان الموت أولى بها من الحياة .

ولقد وجدت أثناء مطالعاتي إحصائية طريفة ، أو قل إنها مفجعة لو أردنا الحقيقة ، نقلها مولانا مدني في كتابه « نقش حياة »[1] تبين ما حدث من المجاعات والقحط في كل من إنجلترا والهند في الألف الثاني المسيحي ، أردت أن أضعها هنا لنتبين منها مقدار ما جنته إنجلترا من الهند ، ومقدار ما جنت عليها :

---

(1) ص 248 عن جريدة « أتيس لود هيانه » 27 يونيو سنة 1926 .

من سنة	إلى سنة	كان في إنجلترا	كان في الهند	حالة القحط
1000 م	1100 م	20 قحطاً	2	عام
1100 م	1200 م	15 قحطاً	1	محلي في نواحـي دهلي
1200 م	1300 م	19 قحطاً	3	محلي
1300 م	1400 م	16 قحطاً	3	محلي
1400 م	1500 م	09 قحطاً	2	محلي
1500 م	1600 م	15 قحطاً	3	محلي
1600 م	1700 م	06 قحطاً	3	غير معين

ومعنى هذا أنه في سبعة قرون وقع القحط في إنجلترا مائة مرة مع ملاحظة انخفاض نسبته في القرن الذي نزلوا فيه إلى الهند ـ بينما وقع في الهند سبعة عشر فقط ، وكان ذلك قبل سيطرة الإنجليز على الهند واستغلالها خيراتها ، لكن هذه الحالة تبدلت تماماً بعد ما حل الإنجليز بالهند وتمكنوا منها ، فمن سنة 1700 إلى سنة 1800 م وقع القحط في إنجلترا سبع مرات أي في مدة قرن . ولكن في الهند من سنة 1700 ـ 1745 م وقع أربع مرات ، ومن سنة 1769 إلى سنة 1800 م وقع القحط سبع مرات ، فالمجموع إحدى عشرة مرة ، ومن سنة 1801 م إلى 1900 م وقع قحط واحد في إنجلترا ، أما في الهند فوقع إحدى وثلاثين مرة . . هكذا : ـ

من سنة 1800 إلى سنة 1825 م خمس مرات مات فيها 5 ملايين هندي أي في ربع قرن .

من سنة 1826 إلى سنة 1850 م إثنان مات فيهما مليون فقط في ربع قرن .

من سنة 1851 إلى سنة 1875 م 6 مرات مات فيها 6 ملايين أو عشرة عند بعض المؤرخين في ربع قرن أيضاً .

من سنة 1876 إلى سنة 1900 م 18 مرة مات فيها 26 مليوناً .

وهذا الإحصاء يبين للقارىء في جلاء ووضوح كيف أخذت حالة الهند في التدهور ، حتى صار أهلها فرائس الجوع والمرض ، ثم الموت في عهد الإنجليز الذين أخذت بلادهم ترتقى وتسعد على حساب هذا الشعب المسكين ، وغيره طبعاً من الشعوب المماثلة له .

بلاد عاشت ولا تزال تعيش على السلب والنهب ، وحرمان أهل البلاد الشرعيين من الضروريات لتنعم هي بلذة الحياة !!

ومن العجب أن يحاول بعض المؤرخين الإنجليز أن يعللوا ما حدث في الهند من القحط بأسباب طبيعية محلية ، من كثرة الأمطار والحرارة وغير ذلك ، كأن هذا لم يكن يحدث من قبل ، وكأن الطبيعة تغيرت سننها عند ما حلوا هم في الهند . . ربما !!

وقد قلت فيما سبق : إن الإنجليز لما بدأوا في تنظيم سيطرتهم على الهند منذ أوائل القرن التاسع عشر كان أمامهم أهداف ، هي التي عملوا لها من قبل ذلك ، ولكنهم أخذوا يضعونها في قوالب براقة ، ظاهرها

الرحمة وباطنها العذاب ، وكان من أعمالهم ثم من خططهم المنظمة ، أن يقضوا على التعليم الوطني الحر الذي كان يقوم به الملوك السابقون ، والأغنياء من الشعب ، وكان تعليماً غير مدخول ، يهدف إلى تربية النفس وتقويمها ، وإعدادها لخدمة دينها وبلادها ، وطبعاً وجد الإنجليز في هذا التعليم خطراً عليهم ، فقضوا عليه ، ثم لم يقيموا بدله شيئاً يذكر ، فقد كانت خطتهم أن يعصبوا عيون الشعب حتى لا يرى مهازلهم ، ويحس مفاسدهم ، ويقوم في وجههم كما حدث في أمريكا . . وكانوا يعلمون ذلك تماماً ، ويعملون بما قاله أحدهم وهو مستر سميدي : « إنه إذا غلب شعب أو قطر على أمره ، فلا بد أن القوة الفاتحة تفسد على المفتوحين تعليمهم ، وتأخذ زمامهم بأيديها طوعاً أو كرهاً ، فمما لا ريب فيه أن العلم لا يمكن أن يرضى بالعبودية طويلاً » .

ولهذا وجدنا أحد أعضاء المجلس التعليمي الإنكليزي في الهند يقول سنة 1793 م : « ما فقدنا أمريكا إلا لسفاهتنا ، وإذننا في قيام المدارس والكليات هنالك ، ويجب ألا نعيد هذه السفاهة في الهند » .

هكذا أراد الإنجليز ، وهكذا فعلوا ، حتى إذا ظهر خطؤهم وتذمر الشعب منهم ، اضطروا لأن يقوموا بشيء من التعليم ذراً للرماد في العيون ، ولكن بطريقة تقضي على خلق المتعلمين ، وعلى الروح الدينية والوطنية فيهم ، وعلى قدر ما ينتفعون به في الوظائف ، وكانت خطتهم كما قال أحدهم : « ينبغي أن نعلم الهنود ونربيهم بقدر ما ينفعنا في تجارتنا وحكومتنا » ، وعلى أساس أفكارهم الإنجليزية وأذواقهم ومشاربهم كما قال لورد ماكولي : « علينا أن نعد من أهل الهند جماعة

تشبه الهنود في اللون والدم ، وتماثل الإنجليز في الفكرة والعقلية » .

وهذه هي خطتهم العامة في مستعمراتهم حتى تبقى في قبضتهم كما كانوا في مصر .

الإنجليز والدين :

وبجانب ما فعله الإنجليز في إذلال الشعب وإفقاره وتجهيله ـ كما رأيت ـ أضافوا عملاً آخر كان له أثر خطير ، بل ربما كان أخطر مما تقدم كله في إثارة النفوس ، وإهاجة حقدها وغضبها .

فلقد حرصوا على أن يستقدموا معهم طوائف المبشرين ليقوموا بواجبهم المعروف في خدمة الإستعمار ، والمبشرين دائماً كانوا طلائع الإستعمار وعمده ، وقذائفه اللينة الملمس لهدم معنويات الأمم ، وتمهيد الطريق أمام المستعمرين ، فلا عجب إن اعتمد عليهم الإنجليز في العمل بالهند ، وساعدوهم بشتى الوسائل على أداء رسالتهم الخيرية !!!

وحين نظر الشعب بمختلف أديانه إلى يد المستعمر الدخيل الذي أفقرهم وأذلهم تمتد إلى أقدس شيء لديه ، وهو عقيدته ، مستعملاً في ذلك كل إمكاناته ، إزداد غضبه وحنقه ، وربط بين أساليبه في الافقار والتجويع ، وأساليبه في زعزعة العقائد ، وفهم أن ذلك يجري حسب خطة موضوعة ، لتبديل عقيدة الشعب إلى المسيحية البروتستانتية التي تحميها بريطانيا ، والإنسان قد يصبر على الفقر ، وقد يتحمل الضغط والعسف ، ولكنه يتحول إلى أسد هائج إذا خدش في دينه وعقيدته ،

ومن هنا ازدادت ثورة العلماء ، واشتد حنقهم على الإنجليز ، ووجدوا الدلائل القوية لشحن النفوس بالثورة ضد الدخلاء ، واستجاب لهم الشعب في سهولة ويسر .

ونحن نضع أمامك ما قرره «سير سيد أحمد خان » أحد رجال الهند البارزين في كتابه « أسباب ثورة الهند » ، وهو رجل معروف بميوله الإنجليزية ، فلا يمكن أن يكون متحاملاً عليهم ، يقول(1) :

« لقد تيقن أهل الهند أن الإنجليز سيحولونهم إلى النصرانية ، متخذين من التجويع والإذلال وسيلتهم إلى ذلك ، كما فعلوا مع اليتامى الذين فقدوا أباءهم في مجاعة سنة 1837 م ، وكان القسيسون المبشرون يتقاضون مرتباتهم من الشركة ، وكبار الموظفين من الإنجليز يستغلون مراكزهم في تحسين المسيحية لصغار موظفيهم الواقعين تحت سيطرتهم ، كما كانوا يجمعونهم في بيوتهم بالقسس يحاولون التأثير عليهم وجذبهم للدين المسيحي ، ويأتون بالشبهات والشكوك ليزلزلوا عقائدهم ، وبلغت هذه الدعاية أقصى حد ، حتى لم يعد الموظفون الهنود يأمنون على دينهم .

وكان المبشرون يوزعون الكتب مجاناً . وهي محشوة بالطعن على أديان أهل الهند وزعمائهم الدينيين ، كما كانوا يذهبون إلى اجتماعات المسلمين والهندوس في حماية البوليس ، ويأخذون في تحقير عقائدهم

---

(1) نقلاً عن كتاب « شندر ماضي » أي « ماضي علماء الهند المجيد » لمولانا محمد ميان ص17 — 18 جـ4 ملخصاً من كتاب أسباب ثورة الهند ص17 — 23 .

دون مبالاة ، والناس يسمعون كل هذا وتثور نفوسهم ، ولكنهم يخشون سطوة البوليس .

ونشط المبشرون كذلك في فتح المدارس التبشيرية بعون الشركة ، يعلمون فيها الدين المسيحي ، حتى اعتقد الناس أن الغرض من فتح هذه المدارس أن تكون شبكة لاصطياد أولادهم وتنصيرهم ، وكانوا يمتحنون الطلاب في الكتب الدينية المسيحية ، ويسألون الصغار من ربكم ؟ ومن ينجيكم ويفديكم ؟ ولا ينجح إلا الطالب الذي يجيب حسب عقائدهم ، ثم يعطونه الجوائز !! ثم فتحوا - بجوار ذلك - مدارس للبنات ، وزادوا على طريقة تعليمهم توجيهاتهم للطالبات برفع الحجاب ، وهو شيء حساس بالنسبة للمسلمين في الهند ، وربما الهندوس أيضاً ، فاعتقد الناس أن الإنجليز يجتهدون من كل سبيل للقضاء على دينهم وتقاليدهم ، حتى إنهم سموا الهنود الذين اشتركوا مع الإنكليز في هذا الأمر « بالقسس السود » ، وقد كانت الوظائف الصغيرة التي تركت للهنود لا يمكن الحصول عليها إلا بشهادة من هؤلاء القسس .

وفوق ذلك تلقى موظفو الحكومة خطابات - ولعلها منشورات - من أحد القسس الكبار ، يلح فيها عليهم باعتناق الدين المسيحي . ولهذا كله فهم الشعب أنها خطة موضوعة لتنصيره ، وأن « اللورد كيننك » جاد في ذلك وأنه أخذ على نفسه عهداً أمام الحكومة أنه في مدى الثلاث السنوات الباقية له سيتمم هذه المهمة !!

وكان هذا مما أثار حنق ملك دهلي وأثار ثائرته على الإنجليز(1) .

وكان عمل الإنجليز في الهند نحو زعزعة العقائد وتنصير الشعب قائماً على خطة موضوعة حقاً ، ربما لفوها في ستائر مختلفة ، ولكنها لم تخف عن الشعب ، ومع ذلك لم يستطع الإنجليز أن يستمروا في نفاقهم طويلاً ، فقد وقف أحد أعضاء البرلمان سنة 1274 هـ ـ 1857 م يقول في صراحة :

« الحمد لله الذي أرانا هذا اليوم الذي أصبحت فيه الهند تحت سيطرة إنجلترا ، وأمكن أن يرفرف علم المسيح عليها كلها ، وعلينا أن نجمع قوانا ونبذل جهدنا في تنصير شعب الهند ، ولا نترك الكسل يستولي علينا »(2) .

ذلك كلام صريح أمكن لهم أن يقولوه بعد أن أصبحت الهند في قبضتهم ، وتمكنوا من هزيمة الثوار ، وإن كانت خطتهم قد سارت عليه منذ وطئت أقدامهم أرض الهند ، وبدأوا يتدخلون في شؤونها . .

فهذا لورد ماكولي يكتب إلى أبيه رسالة من الهند يقول فيها : عن التعليم الذي أقاموه في الهند : « لقد أثر هذا التعليم في الهند كثيراً ، حتى لا يوجد واحد منهم يعرف الإنجليزية وبقي على صداقته لدينه ، وإني متيقن بأننا إن ثابرنا على خطتنا التعليمية التي وضعتها فسوف لا يبقى هندوسي على دينه في مدة ثلاثين سنة » وكان لورد ما كولي معنياً بوضع أنظمة التعليم الجديدة في الهند .

---

(1) المصدر السابق لسير سيد أحمد ص322 .

(2) تاريخ الماضي المضيء لعلماء الهند ص26 نقلاً عن خود اختياري96 .

وبالطبع لم يكن هجومهم على الدين الهندوسي فقط ، بل كان هجومهم أقوى ما يكون على الإسلام ، باعتباره الدين السماوي الذي كانت تسير عليه الهند في نظمها باعتبار حكومتها الإسلامية ، ولكنه ربما قال ذلك لاعتقاده أنه من السهل التأثير على الهندوس .

وقال العالم الإنجليزي « مونيه وليامز » عن أثر التربية الإنكليزية في الهنود(1) :

« إنهم يهملون لغتهم ، ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم ، من غير أن يكسبوا شيئاً من صفات الأوربيين »(2) .

ثم قال جوستاف لوبون : يضاف إلى ذلك الارتباك الهائل لدى الهندي المثقف ، وتجريد التربية الأوربية له من أي خلق ، فما كان يستند إليه في سيره من الأسس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خسر إيمان آبائه من غير أن يستبدل به مبادىء سير الأوربي » ثم قال : « ذلك هو أثر التربية الأوربية في شعب غير ناضج !! ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقايسة بين أولئك المثقفين ، وبين من تخرج في المدارس المحلية الخالصة . فهؤلاء يظهرون متزنين مهذبين محترمين ، جديرين بأن يتبوأوا مقاعد في أرقى مجالس أوربا العلمية على خلاف أولئك المثقفين » .

ويقول : « قد أدى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسي إلى

---

(1) ،(2) نقلاً عن حضارة الهند ص693 .

تقويض ثقافته السابقة التي نمت له مع الزمن ، وإلى إحداث ما لم يعرفه من الحاجات من غير أن تمن عليه بوسائل قضائها »[1] .

وأحب أن أضع أمامك أيضاً تصوير هذه الحالة بقلم زعيم من زعماء الثورة وهو «مولانا فضل حق خير أبادى» الذي خاض غمارها في دهلي ، وتزعم العلماء ، وأصدر الفتاوى ، وخطب وحض على الثورة في كل مكان ، ثم لما انتصر الإنجليز اعتقلوه ، ونفوه إلى « جزائر أندمان» في خليج البنكال حتى توفي هناك ، ولكنه ترك تصويراً قيماً صادقاً باللغة العربية نثراً ونظماً للثورة وأدوارها ، ثم ما أصابه في منفاه ، وقد امتاز أسلوبه بالسجع والتركيز ، وهذا هو ما قاله عن موقف الإنجليز من أديان الهند ، حين أخذ في سرد أسباب الثورة « هذه الواقعة ، الفازعة الفاقرة ، التي جعلت الأمراء فقراء صعاليك ، والملوك مماليك » .

« من قصتها : أن النصارى البراطنة ، شحنوا صدورهم بالشحناء الباطنة ، بعد ما تسلطوا على ممالك الهند وأقطارها ، وقراها وأمصارها ، وأذلوا أعزة رؤسائها بالإستقصاء ، ولم يذروا فيها من يبدي لهم قرنه بالإستعصاء ، هموا بأن ينصرّوا كلاً من قطانها وسكانها تنصيراً ، ظناً بأن هؤلاء الضعاف لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، ولا يستطيعون سوى الإنقياد محيصاً ومصيراً ، ليصير الناس كلهم ، كمثلهم ، من ملاحدة ، متوافقين على ملة واحدة ؛ لتخيلهم أن اختلاف الثلل[2] والملل ، من

---

(1) حضارة الهند ص699 .

(2) جمع ثلة وهي الفرقة وجماعة .

أقوى العلل ، لتطرق الخلل ، في بقاء التسلط والعمل ، فجدوا كل جد ، وبذلوا كل جهد ، لرفع هذا الإختلاف ، بابتداع الحيل ، فبنوا لتعلم الأطفال والأغفال ، وتلقينهم كتب لسانهم ودينهم في القرى والبلاد مدارس ، وصيروا معالم العلوم والمعارف والمدارس التي بنيت في العهود السوالف دوارس »(1) .

ويقول في هذا من قصيدته الدالية التي نظمها في منفاه عن ملكة بريطانيا :

همت بتنصيرهم قبلاً وهم شيع   من مسلمين ومن عباد أبداد(2)

أي عن عباد أصنام . يريد الهندوس .

وقد كان موقف الإنجليز نحو أديان الهند هذا الموقف من الأسباب القوية في توحيد الشعور بين المسلمين والهندوس ، ضد عدوهم المشترك ، فتناسى كل منهم ما كان يتمسك به من عدم الإختلاط ، ولا سيا الهندوس الذين يعتقدون أن لمسهم للمسلمين ينجسهم ، ويوجب عليهم أن يتطهروا من ذلك بالإغتسال ، تناسوا كل ذلك في سبيل تخلص أعناقهم من الغل الذي وضعه الإنجليز في أعناقهم ، فخاضوا الثورة جنباً لجنب . وإن كان حظ المسلمين من ذلك قد فاق حظ الهندوس ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ لأن الكوارث التي نزلت بالمسلمين لم ينزل مثلها على زملائهم الهندوس .

---

(1) ملخصاً من كتاب « الثورة الهندية » ص55 وما بعدها .
(2) المصدر السابق ص462 .

تعنت الإنجليز مع المسلمين

حكم المسلمون هذه البلاد منذ فتحها محمود الغزنوي في أول القرن الحادي عشر ، وظلوا يتداولون حكمها دولة بعد دولة ، حتى جاء الإنجليز إليها تجاراً ، فأكرموهم وأتاحوا لهم فرصة المتاجرة ، ومنحوهم كثيراً من الامتيازات ، فكانت الباب الذي دخلوا منه إلى السيطرة شيئاً فشيئاً ، حتى تم لهم القضاء نهائياً على الحكم الإسلامي في سنة 1274 هـ ـ1857 م ، ومعنى ذلك أن هذا الحكم ظل في الهند ثمانية قرون ونصف قرن ، كان المسلمون فيها هم السادة والحكام ، وكانت الشريعة الإسلامية هي الأساس العام لحكم البلاد .

وهذه مدة ليست قصيرة في نظر التاريخ ، وهي كفيلة بتثبيت دعائم المجد للمسلمين ، فقد ظلوا في هذه القرون يجمعون خيوط السيطرة في أيديهم ، فمنهم الملوك والأمراء ، ومنهم الحاشية والقواد والضباط إلا قليلاً من الهندوس الذين كانوا يحوزون ثقة الملوك ، ومنهم حكام الولايات ، وحكام المدن والقرى ، إلا قليلاً من الهندوس أيضاً كانوا يشتركون في حكم المدن والقرى تحت إشراف الحكام المسلمين ، ومنهم القضاة الذين يحكمون في المسائل المدنية والجنائية حسب أوامر الشريعة الإسلامية ، وكل هؤلاء كانوا يتمتعون بالرواتب والعطايا من الملوك ، فيصبحون من ذوي الثروات الكبيرة أو الصغيرة ، ومن أصحاب النفوذ والجاه في البلاد ، ويرثهم أبناؤهم في مناصبهم أحياناً وفي ثرواتهم .

كان هذا يتمتع به المسلمون بجانب اعتزازهم بشيء أهم ، وهو

أنهم الحاكمون ، وأن شريعتهم نافذة يسري سلطانها على الكبير والصغير ، وملوكهم يوقرون علماءهم ، ويوفرون لهم أداء رسالتهم الدينية ، بما يعطونهم من مال ، وبما ينشئونه من معاهد ، لدراسة الشريعة والتفقه فيها ، وما يوقفونه هم والأمراء والأعيان على هذه المدارس ، وعلى المساجد أيضاً من إقطاعيات وعقارات توفر للطلاب والعلماء التفرغ لمهمتهم ورسالتهم في خدمة دينهم .

وقد جاء الملوك والأمراء وبعض هؤلاء الأعيان والأهالي من خارج الهند حقاً ، لكنهم اتخذوا منها وطناً لهم هم وذرياتهم ، ونسوا أوطانهم الأصلية ، وتضافروا على النهوض بالبلاد والرقي بها ، ودفع الأعداء عنها ، حتى أصبحت جنة ، ذكرها المؤرخون باسم « جنة آسيا » تمتع بخيراتها سكانها جميعاً ، كما تمتعوا بعدل الملوك والحكام وعطفهم دون تفرقة بينهم .

وكان أكثر الهندوس منصرفين للتجارة والزراعة والصناعة ، مشاركين مع ذلك في وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، لكنهم لم يكونوا معتمدين على الوظائف ، ولا سيما الكبيرة منها اعتماد المسلمين .

فلما جاء الإنجليز ، وبدأ نفوذهم يتسع ، وبدأ الملوك يكلون إليهم الإشراف على بعض الأعمال في الولايات ، كانوا يتعهدون للحكام المسلمين بإبقاء كل وضع على حاله . دون المساس بنظم الشريعة ولا بنظام الوظائف ، ولكنهم كانوا حين يأنسون من نفسهم القوة ، ومن الحاكم الضعف ، يعمدون إلى نقض تعهدهم ، وإلى الحد من نفوذ المسلمين وعزل موظفيهم ، وإحلال الإنجليز أو الهندوس أحياناً

محلهم ، ثم يعمدون إلى تغيير القوانين الإسلامية كلية ، وعزل القضاة المسلمين ، وتعيين قضاة منهم يحكمون على أساس القوانين الجديدة التي وضعوها ، بدلاً من الشريعة الإسلامية ، كما حدث في بنكال بعد سنة 1764 م ، وهكذا أخذ الإنجليز يزحزحون المسلمين عن أماكنهم التي احتلوها منذ ثمانية قرون ، ويقضون على أمجادهم شيئاً فشيئاً ، ويحيلون عزهم إلى ذل ، وغناهم إلى فقر ، وسعتهم إلى ضنك ، فتحمل المسلمون من عسف الإنجليز الذي نزل بالهند ما لم يتحمله زملاؤهم الهندوس .

وكان هؤلاء الإنجليز يتصرفون مع المسلمين هذا التصرف مدفوعين بعاملين : أولهما : روح التعصب ضد الإسلام الذي لم ينسه الإنجليز منذ الحرب الصليبية ، حتى جاءوا للهند ، بل لم ينسوه بعد ذلك حين احتلت جنودهم مدينة « القدس » في الحرب العالمية الأولى ، فهتف قائدهم حين دخلها . . « اليوم انتهت الحروب الصليبية » فكان لهذا التعصب أثره بلا شك في كل مواقفهم مع المسلمين .

وثانيهما : إدراكهم أنهم يسلبون الحكم من أيديهم ، وأنهم يحرمونهم مجداً ظلوا يتوارثونه مدى هذه القرون ، وليس من السهل على المسلمين أن يسلموا في يسر بالقضاء على هذا المجد ، لذلك ركز الإنجليز سهامهم على المسلمين في كل أنحاء الهند ، حتى تركوهم جسداً بلا روح ، وعزلوهم تماماً عن تيار الحياة بجميع أنواعها ، فلا سلطان ، ولا غنى ، ولا نفوذ ، ولا وظائف ، ولا تعليم ، وأصبح ملوك الأمس وسادته أذلة فقراء ، ربما لا يجدون ما يأكلون ، وأصبحت قصورهم العامرة خراباً .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وصار الذين كانت الدنيا في أيديهم يسعون إلى لقمة يأكلونها ، أو رقعة من الثياب يلبسونها ، فتسخر الدنيا منهم ، وتولى ظهرها لهم ، والناس ينظرون إلى هذا ويتحسرون ، وتفيض قلوبهم من الدمع حزناً ألاَّ يجدوا هم الآخرون ما ينفقون . جدب ، وذلة ، وحسرة ، اشترك فيها سيد الأمس والمسود . ولم يكن ذلك كله إلا على يد الشياطين البيض الوافدين من الغرب . لم يكن عجباً إذن أن نرى أناساً من هؤلاء المهضومين المظلومين يهبون كالأسود ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هيبتهم الضائعة ، ودنياهم المدبرة ، ودينهم المعتدى عليه .

أريد بعد تقرير هذه الحقائق أن أترك الحديث عنها أيضاً للوثائق التاريخية التي دونها مؤرخون إنجليز ، لم يمنعهم تعصبهم من ذكر الحقائق أحياناً . هذه الحقائق التي لم يكن من السهل على متعصب إنكارها .

أرسل اللورد « النبرو » حاكم الهند العام « دوق ولنجتن » سنة 1259 هـ ـ 1843 م ، كتاباً جاء فيه :

« إنه لا يمكن الإغضاء عن حقيقة جلية ، وهي أن الأمة المسلمة معادية لنا بعقيدتها ، فالبرنامج الحقيقي عندنا أن نبتغي مرضاة الهنادك »(1) .

---

(1) مجلة الضياء نقلاً عن كتاب « Unhappy india » ص 399 .

فعلى أساس هذه الحقيقة الجليلة تصرف الإنجليز مع المسلمين تصرف العدو الحانق القادر على عدوه ، فعملوا بكل ما يمكنهم على خنق أنفاس عدوهم ، بينما عملوا على استرضاء الهنادك ؛ لأنهم في رأيهم ليسوا أعداء لهم بحسب عقيدتهم كالمسلمين ؛ ولأمر آخر تيقنه الإنجليز ، وهو العمل المتقن على التفرقة بين السكان ، وإرضاء الكثرة الهندوسية على حساب المسلمين .

وكثيراً ما كانوا يستولون على أملاك المسلمين ، ويعطونها للهنادك ، وكثيراً ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين ، ويعينون بدلاً منهم الهنادك ، وهكذا كانوا يحققون هدفين بعمل واحد ، أو يضربون عصفورين بحجر واحد - كما يقال .

ويدّون أحد الموظفين الكبار الإنجليز في البنكال مشاهداته لأحوال المسلمين ، ومعاملات الإنجليز لهم وذلك في كتاب له ، سماه « مسلمو الهند»(1) وهو W.W. Henter ونشره لأول مرة سنة 1288 هـ - 1871 م ، وقد كتب فيه : إنني قضيت في البنكال مدة كبيرة ، وشاهدت أشياء كثيرة ، أكتبها كما عرفتها ، وأقدمها للإنكليز الذين لا يعرفون حقيقة الحال في هذه البلاد ، وما طرأ على أهلها من انحطاط ، كما قرر في مقدمة كتابه : أن الإنجليز للآن لم يفهموا عقلية الشعب الذي يحكمونه ، ولذا تجيء تصرفاتهم بعيدة عن الصواب ، كما أنهم يفصلون

---

(1) إسمه بالأوردو (هماری هندوستاني مسلمان) وترجمتها الحرفية (مسلمو هندنا) وهو مترجم للأوردية .

أنفسهم عن الشعب بهوة واسعة » ، وهو كثيراً ما يتحامل على المسلمين وشريعتهم ، لكنه مع ذلك يذكر كثيراً من الحقائق التي تلمغ قومه بالعار .

يكتب ليصور لنا الطريقة التي وصلت بها الشركة إلى السيطرة فيقول :

« إننا ما قبضنا على الهند مثل الفاتحين ، ولكن الشركة اعتمدت على الحيلة والمعاهدات ، حيث تقدمت للملوك ، فأخذت منهم الإذن بالإشراف الإداري على بعض ولاياتهم ، وتعهدت ألا تمس النظم القائمة ، وكان عمالها يعرفون أنفسهم حق المعرفة ، ويتصرفون في حذر ، معلنين أن الشركة نائبة عن الملك في الإدارة ، ولذلك أبقت العمل بالنظم الإسلامية ، وعينت القضاة والعلماء المسلمين في المحاكم ، وهذه حقيقة غابت عن كثير من الكتاب الإنجليز الذين يكتبون عن الشركة ويعيبونها ، ولو أننا قبضنا على كل شيء دفعة واحدة ، وأخذنا في يدنا الحكومة والملك لوقعنا في ورطة عظيمة ، وجابهنا ثورة عاتية ، إذ أن المسلمين كانوا يهبون للجهاد الذي يعتبرونه في هذه الحالة فرض عين على الذكور والإناث ولكننا تحاشينا ذلك ، فأبقينا إسم الملك ، وحكمنا بإسمه على الولايات . وكانت النقود والأوامر نصدرها بإسمه ، وإن لم يكن له أي نفوذ ، وأخذنا بالتدريج نغير شيئاً فشيئاً ، حتى تغيرت الهند من دار الإسلام إلى دار الحرب ، دون أن يحس أحد بوقع هذا التغيير ، حتى إننا لا نعرف تماماً متى بدأ ؟

فحين تمكنا من السلطة أقدمنا على التغيير ، ووضعنا القوانين

الجديدة ، وأبطلنا العمل بالشريعة الإسلامية ، وعزلنا القضاة والعلماء المسلمين ، وكذلك الموظفين المسلمين[1] .

وينقل مولانا مدني هذا الكلام في كتابه « نقش حياة » ويعلق عليه فيقول :

« هكذا فعل الإنجليز الذين أكرمهم الملوك المغول « أكبر ، وجهانكير وشاهجهان ، ومن بعدهم » ، وقد أخطأوا خطأً كبيراً ، إذ أكرموهم ومنحوهم الإمتيازات التي مكنت لهم في الهند ، حتى قبضوا على كل شيء ، ثم صاروا يعاملون المسلمين معاملة « الضرة » ، وأخرجوهم من القضاء، ومن جميع الأعمال الكبيرة ، وكان هذا جزاء الإحسان عند الإنجليز !! »

ويقول « هنتر » أيضاً :

« حينما قبضنا على الهند كان المسلمون فيها أرقى السكان عقلاً وسياسة وعملاً وعلماً ، وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة ، ولكننا مع ذلك أغلقنا جميع أبواب العمل بالحكومة في وجوههم ، بعد ما كانوا يتولون المناصب الكبيرة والصغيرة ، وكان الهندوس يتقبلون كل ما يحصلون عليه من الوظائف بالشكر ، والإنجليز في ذلك الوقت يشتغلون كتبة وملاحظين للأعمال ، ولكن تغير الحال بعد ما قبضنا على السلطة ، بحيث لا تجد من المسلمين ضباطاً أو قواداً أو قضاة في المحاكم العالية » ، ثم يذكر « أنه كان في بنكال من القضاة في المحاكم العالية 21

---

(1) ملخصاً من ص 227 — 229 .

قاضياً ، منهم هنـدوسيان ، والباقي من الإنجليز ، ولا يوجد فيهم مسلم واحد . . »(1) .

ويذكر هذا الكاتب الإنجليزي اعتراضات المسلمين على حكم الإنجليز وتصرفهم فيقول :

« إنهم يتهموننا إتهامات لم توجه إلى أية حكومة في العالم ، ولا يصح أن نغض النظر عنها بحال من الأحوال ، فهم يتهموننا :(1) بأننا أغلقنا عليهم أبواب المعيشة الطيبة التي كانت توفر لهم الحياة الكريمة ، (2) وبأننا قضينا على تعليمهم الديني ، وروجنا فيهم التعليم الـذي لا يخدم دينهم ولا ينشط روحهم ،(3) وبأننا ضيقنا الحياة على القضاة المسلمين ، حين عزلناهم من مناصبهم التي كانوا يؤدون فيها بجانب عملهم المدني والجنائي عقود النكاح والطلاق، وأحكام الدين الخاصة بهم .(4) وبأننا حلنا بينهم وبين أداء واجبات دينهم ،(5) وهذا عندهم جرمنا الفظيع ـ أننا أخذنا الأوقاف الإسلامية التي وقفها كبار المسلمين للإنفاق منها على التعليم والمساجد ، وصرفنا ريعها في غير ما جعلت له(2) ، وغير هذه توجد إتهامات كثيرة ، ومن السهل أن يثبتوا علينا كل

---

(1) ملخص من ص237 من كتابه « مسلمو الهند » .

(2) ذكر الكاتب في ص255 وما بعدها أنهم لما أشرفوا على بنغال وجدوا أنفسهم محرومين من ريع دخل المقاطعة بسبب الأراضي الموقوفة على المساجد والمدارس ، وكانت معفاة من الضرائب ، فوضع « ورن هستنجز » مشروعاً للإستيلاء عليها سنة1185 هـ ، ـ1772 ولكنه فشل، فعاود الكرة لورد كورنوفاليس سنة1207 هـ ـ1793 م ففشل أيضاً . وكذلك سنة1229 هـ ـ1815 م فلجأت إلى المحكمة وكان قضاتها من الإنجليز ، فحكمت بها للحكومة ، فزاد دخلها ثلثمائة ألف جنيه من الضرائب عليها ، ثم يقول : من الحقائق التي لا يمكن إنكارها أننا لو لم نجاف

ذلك بسهولة ؛ إذ أنهم صادقون في دعواهم، وهم يرددون ذلك جهراً ويقولـون : إنـكم أيهـا الإنـكليز أخذتـم الديوانـي « أي إدارة أعمال الدواوين)، والمحاكم نيابة عن ملوك المغول، لتحافظوا عليها وتنموها وترتقوا بها ، وكنتم في ذلك الوقت الخدام والعمال عند ملـوك المغـول بمقتضى العهود التي أخذت عليكم ، ولكنكم تمردتم ، ونسيتم إحسان المحسنين ، بعد أن أنستم في أنفسكم القوة ، وقبضتم على الحكم »[1] .

ومن اللازم أن نفسر هذا الوضع الذي يتحدث عنه هذا المؤرخ الإنجليزي ، فعند ما بدأ نفوذ الإنجليز يسري في البلاد نشأت فكرة تقوم على جعل أعمال الحكومة في يد الإنجليز ، على أن يبقى الحكم بإسم الملك ، ويذكر إسمه في المساجد ، وتضرب النقود بإسمه ، وهكذا ، يعنى يفصلون بين الحكم وبين الملك . . ويجعلون الملك رمزاً للحكم الإسلامي ، أما إدارة الأعمال كلها فتكون بواسطة الإنجليز على أنهم نواب الملك . وهـذا ما يعبـرون عنـه دائماً بإسـم (أعمال الديواني) ، وهذه الفكرة هي التي عارضها العلماء وقاموا في وجهها وقالوا : لا يتصور أن يكون هنـاك ملك إسلامي بدون حكم إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وقام جهاد العلماء وصدرت فتاويهم من أجل هذا الوضع الشاذ ، وأعلنوا حين صار هذا الوضع سائداً في الهند أنها أصبحت دار حرب ، ويجب على المسلمين أن يهبوا للجهاد ضد

الأمانة والتدين حين استولينا على الأوقاف الإسلامية لما حرم مسلمو الهند اليوم من معاهدهم العلمية وأنظمتهم العالية .

(1) ملخصاً من كتاب « مسلمو الهند » ص 207 ، 208 .

المتسلطين الإنجليز ، حتى يردوا الحكم إلى يد الملك ، ويصبح هو الحاكم الفعلي لا الإنجليز .

ولقد كان من نتيجة تعنت الإنجليز مع المسلمين ، وتشريدهم وسد سبل الرزق في وجوههم ، وانتزاع أراضي الأوقاف منهم أن تحولت حالهم من اليسر إلى العسر ومن العز إلى الذل .

ويصف « هنتر » هذه الحالة التي شاهدها بنفسه ـ بعد أن وصف حالهم أيام أن كانوا هم السادة والحكام ـ فيقول : « هذه حقائق عن بنكال التي عشت فيها زمناً طويلاً ، أكتبها كما شاهدتها عن حالتي اليسر والعسر للأسر الملكية وغيرها ؛ ليعرف الشعب الإنجليزي ما عرفته في هذه البلاد ، ومع ذلك فإن ما أذكره عن بنكال يمكن أن يصدق أيضاً على كل مقاطعات الهند التي وقعت في قبضتنا ، ثم يقول بعد هذا :

« إن في مرشد أباد » وما حولها كثيراً من الأمراء الذين كانت لهم سطوة في الماضي ، مما لا نزال نرى آثاره في قصورهم التي تدهش الإنسان حين يرى فيها آثار المجد السابق ، ومع ذلك فقد تحولت هذه القصور التي يسكنها هؤلاء الأمراء إلى خرابات ، فسقوفها قد خربت ينهمر منها المطر على سكانها الأمراء ، كأنه لا فرق بين داخل القصر وخارجه ، وقد تحولت الحدائق التي كانت ممتلئة بالورود المتنوعة إلى أرض جدباء ممتلئة بأشجار الشوك ، وأصبحت الأحواض الجميلة التي كانت تحوطها الورود ، وتسبح في مياهها الأسماك الملونة ، أصبحت حفراً ممتلئة بالقاذورات » .

« ولقد شاهدت كثيرا من هذه الأسر وزرتها في بيوتهـا ، ورأيت كثيراً من الأولاد والأحفـاد من الـذكور والإنـاث ، وليس لهـم باب للرزق ، فيقترضون ولا يستطيعون سداد القروض ، فيتجمع عليهم الدائنون في منازعات تصل إلى القضاء ، وتنتهي بالحكم عليهـم .. إلخ »[1] .

ويقول أيضـاً : « في كل مكان تذهـب إليه في البنـكال حتـى في الغابات تشاهد للمسلمين قصوراً عظيمة بحدائقها وأحواضها ، ولكنها صارت كلها خراباً الآن ، ونجد بجانب ذلك مساجد للعبادة ، مما يدل على إخلاصهم في نشر الإسلام » ، ثم يستطرد فيقول : « وفي الحق إنهم اعتمدوا في نشر دينهم على الفطرة البسيطة ، وعلى المساواة التي جعلها الإسلام من أهم أسسه ، حيث أعطوا البراهمـة حقوقاً متسـاوية مع المسلمين سواء بسواء ، وكان ذلك أهم سبـب في انتشـار الإسلام في بنكال » .

هذا تصوير لحالة الأسر التي كانت لهـا السيادة في الماضي ، وهـو تصوير مؤلم ومفزع ، تتفتت له القلوب ، فما بالك بالأسر الأخرى التي كانت أقل منها ، أسر الموظفين الذين طردوا ، أسر أصحاب الأراضي الذين نزعت منهم أراضيهم ، نتيجة للضرائب الباهظة ، أسر القضاة ، أسر العلماء المدرسين ، أسر الضباط والجنود المسلمين الذين طردوا من عملهم ، هذه الأسر التي أصبحت أحـق النـاس في العالـم بالعـطف والرحمة كما يقول « هنتر » نفسه ..

---

(1) ص216 من كتاب « مسلمو الهند » .

لا شك أن هذا التصرف الجائر مع المسلمين خاصة يعتبر وصمة عار على الإنجليز ، وهو مما يحيل الجبان إلى أسد هصور ، وكان هذا مما دفع بالمسلمين إلى الثورة ، كي يتخلصوا من البلاء الذي نزل بهم .

موقف العلماء من الإنجليز وأثرهم في الثورة

كانت العوامل السابقة تفعل فعلها في نفوس أهل الهند جميعاً ، وتشحنها بالثورة والغضب على الإنجليز ، وكان هناك بجانبها عامل هام آخر ، لعله أهم من كل العوامل السابقة ، لأنه عامل روحاني نفساني ، والعوامل الروحية تتقدم دائماً العوامل المادية ، وتعلو عليها ، وكان يقوم بهذا الجانب علماء المسلمين الذين وجدوا في تسلط الإنجليز وضعف السلاطين قضاء على الدين وعلى الحكم الإسلامي معاً ، فهبوا يدفعون هذا الخطر وينبهون الناس إليه بمختلف الوسائل .

ويعتبر العالم الكبير « شاه ولي الله الدهلوى » رأس هؤلاء العلماء ، وذلك لما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكام منهم كذلك إلى الخطر المقبل عليهم ، وإلى التمسك بدينهم .

ومن واجب كل مؤرخ للهند أن يقف ولو قليلاً مع هذا المصلح الكبير الذي يعتبر صاحب مدرسة فكرية عظيمة ، لا يزال لها للآن أتباع ومريدون في الهند يفتخرون بنسبتهم إليها .

شاه ولي الله ومدرسته

إسمه أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين ، واشتهر بإسم شاه(1) ولي الله الدهلوي . ولد بدهلي في 14 من شوال سنة 1114 هـ ـ 1704 م ، وقد اعتادوا في الهند أن يسموا المولود إسماً يوافق حساب جمله سنة ميلاده ، وكان اسمه على هذا الأساس « عظيم الدين » ، وكان أبوه ـ عبد الرحيم ـ من العلماء الممتازين الذين راجعوا « الفتاوى العالمكيرية » الشهيرة ، ويذكر مؤرخوه أن إسم ولي الله لصق به منذ ولادته ، حين بشر أبوه مراراً في الرؤيا بولادة ولد صالح له ، وممن بشره من الأولياء كذلك قطب الدين بختيار كعكي وطلب أن يسمى بإسمه ، ولذا سمي بقطب الدين أحمد واشتهر بولي الله ، وإن كانت سيرته المباركة تجعله جديراً بهذه الشهرة .

تعلم في كنف أبيه ، فحفظ القرآن في السابعة ، ثم أخذ يدرس علوم زمانه على والده وعلى كثير من المشايخ ، فأتمها وهو في سن الخامسة عشرة ، وحينما توفي أبوه سنة 1131 هـ ـ 1719 م ، قام بالتدريس ، واشتهر بالتفوق ، فوفد عليه الطلاب من كل ناحية ، ثم رحل إلى الحرمين للحج ، وللتزود من العلم على رجال الحديث المعدودين هناك سنة 1143 هـ ـ 1731 م فقرأ كتب الحديث عليهم ، وأخذ منهم الإجازات في روايته ، وأدى فريضة الحج وعاد في

---

(1) كلمة شاه تضاف إلى بعض الأسر للتشريف فقط .

أوائل سنة 1145 هـ ـ1722 م ، ليستأنف حياة الجهاد في سبيل الدين والوطن ، وأصبح علماً ومرجعاً في علوم الحديث والتفسير على الأخص ، واشتغل بالدراسة والتأليف في بيت أبيه أولاً ، ثم لما كثر طلابه واشتهر أمره أعطاه السلطان محمد شاه بناء كبيراً للمدرسة ، وافتتحها بنفسه ، واشتهرت بإسم « دار العلوم »(1) . فخرج علماء ممتازون على غراره في الفهم وحرية البحث، كما أخرج كتباً عدةباللغتين العربية والفارسية تعتبر من أمهات الكتب في أبوابها ، أهمها في العربية : كتاب « حجة الله البالغة » المشهور ، كما قام بترجمة القرآن إلى الفارسية ، وقد بلغت كتبه 54 كتاباً بالعربية والفارسية .

وقد توفي أورنكزيب وعمر الشيخ أربع سنوات ، وعاش حتى عاصر بعده تسعة ملوك آخرين : بهادور شاه ، جهاندار شاه ، فروخ سير ، رفيع الدرجات ، رفيع الدولة ، محمد شاه ، أحمد شاه ، عالمكير الثاني ، شاه عالم الثاني .

وقد بلغت الدولة في عهد هؤلاء مبلغاً من الضعف جعلها مطمعاً للطامعين في الداخل والخارج ، فأغار عليها المراهتا والسيك ، واستقل كثير من الأمراء عن دهلى ، وغزاها من الخارج نادر شاه الإيراني ، ثم أحمد شاه الأبدالي الأفغاني ، وخربت دهلى مرتين أثناء غزوهما ، وطمع الفرنسيون والهولنديون والبرتغال والإنجليز في البلاد ، وتنافسوا في اغتنام خيراتها حتى انفرد بها الإنجليز ، وتحكموا فيها وأذلوا أهلها .

---

(1) وقد سألت في دهلى عن هذه المدرسة فقالوا لم يعد لها أثر ، وإن كان يوجد هنا حي يسمى بإسم شاه ولي الله .

وكانت البلاد ضائعة بين ملوك وأمراء وطامعين في الحكم ، يتعاركون ويتفننون في القتل والإنتقام ، كما يتفننون في اللهو والشراب ، وبين رعية ضل رعاتها ، فراحت ترعى كالسائمة ، منصرفة إلى اللهو والفساد ، وبين علماء جامدين مقلدين متزمتين ، وصوفيين خرجوا عن حقيقة التصوف إلى العبث بالدين .

ونظر الشيخ فرأى البناء ينهار على يد أصحابه ، فقام وشمر هو وتلاميذه لينقذ ما يمكن إنقاذه ، وركز جهاده في التدريس والتأليف ، والنصح لعامة الناس وملوكهم ، وكان بروحه الصوفية وآرائه الجديدة في فهم القرآن والحديث ، وحملته على التقليد الأعمى والتزمت والجمود صاحب مدرسة عظيمة ، كان لها أثرها في تطور الفكر في الهند ، حتى إن أولاده وتلاميذه ساروا على نهجه ، وانتسبوا إلى مدرسته ، وظل كثير من العلماء ينتسبون إليها للآن ، ولما كان كثير من هؤلاء العلماء المتسبين إلى مدرسته الفكرية الصوفية قد أثروا تأثيراً كبيراً في مجرى الحياة ، وفي حوادث الهند وثورتها ، فإن شاه ولي الله قد عد رأس هؤلاء المجاهدين في سبيل دينهم ووطنهم .

وبعد حياة حافلة بالعمل توفي في26 محرم سنة1176 هـ ـ1763 م ، وكان له من الأولاد شاه عبد العزيز ، شاه رفيع الدين ، شاه عبد القادر ، شاه عبد الغني . وكانوا حقاً أولاد أبيهم في العلم والجهاد في سبيل الدين والوطن ، قام شاه عبد العزيز مكان أبيه ، وخلفا له على مدرسته وفكرته ، فنهض بالعبء . وكان عبئاً ثقيلاً يتطلب رجالاً ، فبعد موت الشاه ولي الله بسنة واحدة انهزمت جيوش الملوك المسلمين

أمام الإنجليز في « بكسر » سنة 1764 م ، وبذلك فقدوا الأمل في أي انتصار بعد ذلك ، ودب اليأس في قلوبهم ، وطغى الإنجليز وسيطروا ، وأصبح شاه دلهي كموظف لديهم ، ليس له نفوذ على ملكه ، وصدق عليه المثل الذي كان يقال سابقاً عن أحد الملوك المسلمين في الهند « شاه عالم من دلهي إلى بالم » يشير إلى أن نفوذ الملك لم يتجاوز حدود دهلي(1) .

أما النفوذ الفعلي فكان للإنجليز ، إلى حد أنهم كانوا يتحكمون فيمن يدخل دلهي ومن يخرج منها ، حتى منعوا « شجاع الدولة » ملك « أود » من دخولها ، وكشروا عن أنيابهم ، وبدت نواجذ الشر من أفعالهم ، حتى تجرأ مندوب الشركة سنة 1218 هـ ـ1803 م على إجبار الملك على توقيع قرارات قدمها إليه ، ثم أعلن في غير خوف أو حياء أن « الخلق لله ، والملك للملك ، والحكم للشركة » . يشير بذلك إلى الفصل بين الملك وبين القوة التنفيذية ، حيث يبقى ملكاً بدون ظل ، وإسماً بلا نفوذ ، أما النفوذ والسلطة والحكم الفعلي ففي يد الإنجليز ، وكانت هذه الخطوة الثانية في سيطرتهم على الهند ، فهم إلى الآن لم يجرأوا على خلع الملك ، بل أعلنوا أنهم يحافظون على بقائه ، وإن كانوا يأخذون سلطة التنفيذ في أيديهم ، بحجة إصلاح الأمور !!

ولكن الشعب ـ وعلى رأسه العلماء ـ لم يستسيغوا هذه الخطوة ، فماذا يعملون بإسم الملك ؟ وماذا تستفيد البلاد من شخص جرد من

---

(1) و « بالم » إسم قرية في ضواحي دلهي فيها المطار الآن المسمى بهذا الإسم .

سلطانه ؟ لقد عارض الشاه ولي الله من قبل مثل هذه الفكرة ، وقال : إنه لا يتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وأن معنى الإمام أن يرعى مأموميه ويقيم العدل بينهم .

لذلك هب الشاه عبد العزيز(1) يستثير الشعب لحماية سلطانه ، والجهاد في سبيل إبقاء الحكم الإسلامي في يد أصحابه ، بعد أن عجز الملوك والأمراء عن كبح جماح الإنجليز ، فأصدر فتواه المشهورة بأن الهند الآن أصبحت دار حرب لا دار إسلام ، وعلى المسلمين أن يهبوا جميعاً للجهاد ، وقال(2) : إن إمام المسلمين الآن أصبح لا حول له ، ولا تنفذ أحكامه ، والحل والعقد صار بيد المسيحيين الإنجليز ، حتى لم يعد أحد يستطيع دخول دلهي إلا بإذنهم ، وهم يحصلون الخراج ، ويعينون الموظفين ؛ ويدفعون المرتبات ، ويشرفون على القضاء والأمن وتنفيذ الأحكام ، وهم وإن كانوا لا يتعرضون للشعائر الدينية مثل الصلاة والأذان والذبح والأعياد ، إلا أن الأمور الأساسية في الإسلام لا يحترمونها . ولا يدعونها في يد أصحابها ، فوق أنهم يهدمون المساجد بغير اكتراث .

---

(1) هو الابن الأكبر للإمام ولي الله الدهلوي ولد سنة 1159 هـ - 1746 م وتتلمذ على والده وكثير من مشاهير العلماء حتى أصبح من أفذاذهم ، لا سيا في علم الحديث ، بحيث لا نجد واحداً الآن من علماء الحديث بالهند إلا وهو متصل السند بشاه عبد العزيز ، وهو صاحب كتاب « التحفة في الرد على الشيعة الأثنى عشرية » ، التي ترجمت للعربية وطبعت بتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب ، وغير ذلك من الكتب القيمة »، وتوفي سنة 1239 هـ - 1823 م في دهلى .

(2) نص الفتوى موجود في كتاب « فتاوى عزيزية » للشاه عبد العزيز باللغة الفارسية طبع دهلى ص 16 , 17 .

من أجل هذا تصير كل بلاد يقبض عليها الإنجليز بهذا الشكل قد انتقلت من دار الإسلام إلى دار الحرب . » ثم أخذ يذكر أدلة ذلك من فعل النبي ﷺ ، وخلفائه الراشدين » .

وعلى هذا الأساس انتشرت الدعوة في طول البلاد وعرضها بأن واجب المسلمين الآن أن يهبوا للدفاع عن بلادهم ذكوراً وإناثاً ، وأخذ العلماء يطوفون بالمدن والقرى يفهمون الناس ذلك ، ويستثيرونهم ، وعلى رأس هؤلاء العلماء أبناء الشاه ولي الله وتلاميذه .

ومما يثير الإعجاب حقاً أن العلماء لم يقتصر دورهم على الكلام ، بل إنهم كونوا الجيوش ، وخاضوا الحروب لإنقاذ المسلمين من الإنجليز وغيرهم من أهل الهند ، كالسيك الذين انتهزوا فرصة ضعف ملوك دهلي فعاثوا في بنجاب مفسدين ، يقتلون المسلمين ويهدمون دورهم ، وينهبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، وينزلون بهم من البلايا والمصائب ما تقشعر منه الجلود .

وهذا هو الذي دفع « سيد أحمد عرفان بريلوى » أحد تلاميذ مدرسة شاه ولي الله ، والسالكين على طريقته إلى أن يهب لإنقاذ إخوانه المسلمين من يد هؤلاء السيك ، وأعتقد أن المظالم الشدية والإبادة التي كان السيك يقومون بها تجاه المسلمين ، هي التي جعلت هذا المجاهد يتجه أولاً وفي سرعة إلى بنجاب ، وكان إقداماً منه لم يسمع بمثله ، ولذا يعتبر من أبرز العلماء في حركة الجهاد التي قامت في الهند ، وكان لإقدامه أثر كبير في بعث الهمم في النفوس ، حتى اقتفت أثره في الجهاد والفداء ، ولذا نحب أن نعطيه حقه ، ونقف معه وقفة تليق بموقفه في الدفاع عن المسلمين .

سيد أحمد بريلوى

الشهير بإسم «سيد أحمد الشهيد »

ولد في قرية « راي بريلى » من أعمال لكنو في غرة المحرم سنة 1201 هـ 1786 م من أسرة كريمة ، اشتهرت بالعلم والتقوى ، وينتهي نسبها إلى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما[1] ، ولم تتجه نفسه إلى التعليم برغم حرص والده ومعلميه على تعليمه ، حتى إذا توفي والده وهو في السابعة عشرة من عمره ترك بلدته ، وسافر إلى لكنو ، وانخرط في سلك الجنود عند أحد الأمراء المسلمين .

ولم يمكث طويلاً ، ثم توجه إلى دهلى سنة 1221 هـ 1806 م ، حيث جذبته مدرسة شاه ولي الله ، فتتلمذ على شاه عبد القادر ، وتلقى الصوفية من أخيه شاه عبد العزيز ، حتى أتى من العلم والمعرفة ما تدهش له العقول ، وهو في الحادية والعشرين 1222 هـ 1807 م ، ثم حن إلى حياة الجندية والجهاد ثانية فذهب إلى معسكر « أمير خان » في « تونك » بإقليم راجستان ؛ وأخذ يحثه على الجهاد والقتال في سبيل الله ، ويشجعه في حربه للإنجليز ، ثم رجع إلى دهلى بعد أن اصطلح أمير تونك معهم ، وأخذ يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم ، وترك البدع والخرافات الشائعة في أوساطهم ، متعاوناً في ذلك مع العالمين

---

(1) وهي الأسرة التي ينتسب إليها الأستاذ أبو الحسن الندوى العالم الهندي المعروف والذي يشرف على دار العلوم في لكنو ، وقد أصدر جزئين في تاريخ السيد الشهيد بالأوردية .

الجليلين ، الشيخ عبد الحي والشاه إسماعيل من أسرة شاه ولي الله ، وقد بايعاه على الدعوة والجهاد ، ثم رحل إلى « بتنا » واتسع نفوذه ، وكثر أتباعه ومريدوه ، ومن هناك رحل إلى الحجاز للحج سنة 1237 هـ ـ1822 م ، وكان ذلك بعد أن هزم محمد علي الوهابيين وأجلاهم عن الحجاز ، ورجع بعد سنة ليستأنف حياة الكفاح والجهاد والدعوة إلى الله ، حتى صار له أتباع ومريدون في كل نواحي الهند ، يبايعونه على التطهر والجهاد ، وأخذ يعد العدة لإنقاذ المسلمين من براثن « السيك » في بنجاب ، وبدأ فراسل الأفغان بمقصده ، وطلب منهم العون والمساعدة ، فاستجابوا له ، وانتشرت دعوته للجهاد في إيران وأفغانستان ، وتحمس الجميع شعوباً وحكومات لإنقاذ المسلمين من السيك والإنجليز معاً ، ولما وثق من مساعدة الأفغان له كون جيشاً من أتباعه المجاهدين في الهند ، وسار به نحو الحدود الشمالية الغربية ، وعسكر هناك سنة 1240 هـ ـ1824 م ، ثم أرسل إلى حاكم السيك « رانجيت سنك » يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فاستشاط الحاكم غضباً ، وزحف بجيشه لقتال المسلمين ، ووقعت بينهم عدة معارك كان النصر في أكثرها للمجاهدين المسلمين.

وقد كان السيد المجاهد يحرص في دعوته على شيئين : أولهما تطهير الدين من البدع والخرافات الفاشية في العوام ، وثانيهما ـ الدعوة إلى الجهاد . فظن بعض العوام والعلماء أن هناك صلة بين دعوة المجاهد والدعوة الوهابية التي شوهت سمعتها في الهند ، نظراً لقيامها بهدم القباب في مكة والمدينة وغيرهما ، مما جعل الرأي العام الإسلامي

يكرهها ، ويكره كل من يتصل بها ، ومن الأسف أن العوام في الهند وبعض العلماء انساقوا وراء عواطفهم ، وتأثروا بدسائس الإنجليز والسيك ، ولم يفرقوا بين دعوة المجاهد لتطهير الدين من البدع ، والدعوة الوهابية التي يكرهونها ، بل ربطوا هذه بتلك ، ثم لم يراعوا الظروف الخطيرة التي يمر بها المسلمون ، والتي تستدعي التكاتف العام ، وعدم الإلتفات إلى مثل هذه التفاهات الشكلية ، والعواطف الذاتية ، والدعايات التي يروجها الإنجليز كذلك ، فطعنوا المجاهدين من الخلف ، وأشاعوا بين العوام أن هؤلاء المجاهدين ورئيسهم من الوهابيين ، فنفروا منهم بعض الناس ، وأتاحوا للأعداء أن يستفيدوا من هذه الخلافات ، بل إنهم بالفعل أعانوا الأعداء على إخوانهم المجاهدين ـ ويا بئس ما صنعوا ـ فدس بعضهم السم للسيد المجاهد في عشائه ، وأراد الله أن ينجيه منه ، ـ بعد ما ظل مغمياً عليه بضعة أيام ـ ليواصل الجهاد في سبيل الله والمسلمين ، وقد بويع السيد المجاهد بالإمارة للمسلمين ، ونودي بإسمه في الخطب ، ثم زحف على مدينة « بشاور » وهزم حاكمها من قبل السيك ، « سلطان محمد خان » ، واتخذها عاصمة له ، وأقام الحدود وعين القضاة ، ونفذ شرع الله ، ويظهر أن الظروف اضطرته لذلك ، لأنه لم يكن يطمع في يوم من الأيام في إمارة أو رياسة ، بل كان كل همه أن يستخلص الهند من يد الإنجليز والسيك المفسدين ، ويتركها لحكامها الأصليين .

وأقضت هذه الإنتصارات مضاجع « السيك » وأراد « رنجيت سنك » أن يخرج لقتال المجاهدين ، لكنه لم يستطع لتغلغل السيد في

الجبال ، وبثه الدعوة في القبائل وقوة نفوذه فيها ، وإذا كان « السيك » لم يستطيعوا منازلة السيد المجاهد في هذه النواحي فإن المتزمتين من علماء الدين ، والصوفية المزيفين استطاعوا أن ينفروا بعض العوام والأمراء منه كما قلت ، بدعوى أنه وهابي ، وحينما رأى السيد ذلك ، بادر بترك البلاد مرتحلاً إلى « مظفر أباد » في نواحي جبال « كشمير » ووقعت بينه وبين « السيك » مناوشات كتب له فيها النصر .

ولما علم أن قائد السيك « شير سنك » توجه بجيشه إلى « بالاكوت » ، سبقه إليها وحصنها ، ولكن بعض جنوده خانوه ، وأخذوا الرشوة من « السيك » ، وتواطئوا معهم ، فهجموا على المسلمين بغتة ، ووصلوا إلى مكان رئاسة المجاهدين الذين استماتوا في الدفاع عن أنفسهم حتى استشهد الكثير منهم ، وعلى رأسهم المجاهدان سيد أحمد ، وشاه إسماعيل الدهلوى اللذان اشتهرا فيما بعد بإسم السيد أحمد الشهيد ، والسيد إسماعيل الشهيد وذلك سنة1246 هـ ـ1831 م ، ولقيا ربهما[1] ، بعد أن أديا رسالتهما الدينية والوطنية على خير ما يؤديها

(1) وقد دفنا في « بالاكوت » حيث استشهدا ، ولم يصدق كثير من أتباع السيد أحمد أنه استشهد وظنوا أنه اختفى ، وسيعود إليهم ، وظلوا على هذا الإعتقاد مدة حتى يئسوا من عودته ، وقد أخبرني الأستاذ أبو الحسن الندوى أنه رأى « وثائق » في متحف لاهور كتبها إنجليزي كان نائباً عن حكومته عند « السيك » وقتذاك ، ويقول فيها : إنه بعد دفن السيد الشهيد أخرج المتعصبون من « السيك » جثته ولحرقوها ، وقد اطلعت وأنا في مدراس عند العلامة الدكتور عبد الحق على كتاب ظهر حديثاً بإسم المهدوية في الإسلام للأستاذ سعد وطبعته لجنة النشر والتأليف الأزهرية ، فوجدته قد عد السيد أحمد الشهيد من اللذين ادعوا المهدية وأن شيخه بشره بذلك إلخ . . والعارف بحقيقة تاريخ السيد الشهيد ينفي تماماً هذه الفكرة المفتراة عليه ، فهو لم يدع ذلك مطلقاً لنفسه، وكان في إخلاصه وحماسته الدينية وشدته في محاربة البدع =

مجاهد مخلص ، ولم يكن استشهادهما ليفل من عزيمة أتباعهما ، فقد حمل اللواء بعد السيد خلفاء له ، أخلصوا لله عملهم وحملوا أرواحهم على أكفهم ، واستمروا في كل مكان بالهند يدعون الناس إلى الجهاد ، جهاد السيك وجهاد الإنجليز معاً ، وقد كان لهذه المواقع الحربية ، واستشهاد من استشهد فيها دوي عظيم ، استيقظ عليه النائمون ، وتحمس بعده الكسالى الخاملون ، وسرت الدماء في العروق تطلب الثأر للدماء المراقة ، وتنشد بالأرواح الكرامة المضاعة ، وكان الإنجليز بعد ذلك الوقت قد استولوا على بنجاب ، وأصبح « السيك » في حمايتهم ، فأنذروا المجاهدين أن الحرب مع « السيك » حرب معهم ، ولم يبال المجاهدون بالطبع بهذا الإنذار ، فقد كان من أهدافهم حرب الإثنين معاً ، وبدأ الجهاد العنيف ضد الإنجليز في النواحي الجبلية الغربية على الخصوص ، حيث كان الجبليون الأشداء المتعصبون من أتباع الشهيد ، فأخذ هؤلاء يقضون مضاجع الإنجليز ، ويناز لونهم في حروب عنيفة كلفت أعداءهم الغالي من المال والرجال .

= والخرافات بعيداً عن مثل هذه الإدعاءات ، وقد سألت الأستاذ ابا الحسن الندوي الذي كتب تاريخه مطولاً عن ذلك فنفاه نفياً قاطعاً وقال : ليس في تاريخه أية حادثة تشير إلى أنه ادعى شيئاً من ذلك ، وإن كان بعض أتباعه قد افتتنوا بعد وفاته فخيل لهم أنه لم يمت ولكنه اختفى وسيرجع إليهم ، ولكنهم سرعان ما رجعوا عن خيالهم بعد ما مضت مدة على استشهاده . أما زميله السيد إسماعيل الشهيد فهو حفيد الإمام ولي الله الدهلوى وابن الشاه عبد الغني الدهلوي (وكلمة شاه هنا تضاف لبعض الأسر في الهند على سبيل التكريم) ، تتلمذ على أعمامه الأفاضل بعدما توفي أبوه وهو صغير ، ونبغ في علوم الدين والرياضة وفي الفروسية والرماية ، وكان دائماً يدعو الناس إلى التمسك بالسنة والقيام لجهاد الإنجليز ، وانضم إلى السيد أحمد وسارا معا إلى حرب السيك حتى لقي ربه شهيداً ، وله مؤلفات عدة قيمة بعضها بالعربية .

ومع تلاميذ الشاه ولي الله وأتباع السيد الشهيد المنتشرين في الهند قام غيرهم من العلماء ـ وإن كانوا يخالفونهم في بعض الآراء ـ ليستثيروا الشعب ضد العدو ، ولم يقتصروا في استثارتهم على المسلمين ، بل كانوا يثيرون الهندوس أيضاً لتخليص الوطن من عدوه ، ومن الواجب أن نشير إلى أن السيد أحمد الشهيد وإن كان قد حارب السيك لمظالمهم الفظيعة على المسلمين ، فإنه كان يرمي من وراء حركته العامة إلى تحرير البلاد كلها من أيدي الإنجليز ، حتى إن بعض أمراء الهندوس انضم معه حين حربه للسيك، وكان دائماً يرسل رسائله إلى الأمراء الهندوس يستحثهم على الإتحاد معه لحرب الإنجليز ، وهكذا لم تقتصر دعوة المجاهدين ـ وعلى رأسهم السيد الشهيد ـ على المسلمين ، بل شملتهم مع الهندوس ، لغاية واحدة وهدف مشترك ، هو تخليص البلاد مما تعانيه من ظلم الإنجليز .

ومن الحق علينا أن نذكر أن الشعب ـ في جملته ـ تجاوب مع الداعين ، وأخذ الخطباء والشعراء يخطبون ، وينشدون الشعر لإثارة الحماسة والدعوة إلى الفداء، وكان كثير من الأمراء الهندوس قد أصابهم العنت على يد الإنجليز ، وكثير منهم أدرك الخطر على حقيقته ، وعرف أن النار ستحرق البيت كله ، فبادروا إلى الإتفاق مع المسلمين ، ناسين الفروق التي كثيراً ما عملت عملها في التفريق والتشتيت بينهم وبين المسلمين .

لقد أصبحت نغمة الجهاد ضد الإنجليز على كل لسان ، وشغل كل عالم ، وأصبحت المنشورات تكتب وتوزع ، والناس يطوفون ـ علماء

وغيرهم ـ بالمدن والقرى لهذا الغرض ، وكان بعضهم يتزيا بزي السائلين الرث . وبلغ بهم الأمر إلى حد أنهم اخترعوا مسألة توزيع الأرغفة على حراس المدن والقرى ، وكل من يأخذ رغيفين عليه أن يصنع ستة أرغفة ويوزعها ـ وهكذا ، وكان أحد العلماء « أحمد علي شاه » يوزع الخبز مع « زهر النيلوفر » على المسلمين والهندوس ، وانتشرت هذه العملية في طول البلاد وعرضها ، ولا بد أنهم كانوا يرمون من ذلك إلى هدف تجميع الناس على الثورة ، بإسم الخبز المشترك حتى لا يخونوه ، وفي الهند يرمزون إلى كل خائن بقولهم « نمك حرام » أي ملح حرام لم يؤثر فيه ، كما نقول عندنا « خائن العيش والملح » ، هذا ما أراه ، ولو أن لمؤرخي الهند تعليلات أخرى اختلفوا عليها على قرب العهد ، فقال بعضهم : إن ذلك كان يرمز إلى الثورة من أجل الخبز ، وبعضهم يرى أن ذلك كان رمزاً للإفلاس لإهاجة الخواطر ، ويرى المؤرخ الهندي المعاصر « سندرلال » أن الخبز كان رمزاً للحرب من أجل الحياة ، والزهر كان رمزاً للحرب من أجل الدين(1) .

وهذه المسألة في ذاتها تدل على مدى اشتغال الشعب بالإستعداد والتهيؤ للثورة ضد الإنجليز ، حتى أصبح كل واحد يستطيع الإستيلاء على قلوب الناس حين يقف ويعلن عداوته للإنجليز ، ودعوتهم للوقوف في وجوههم ، فقد ذكر أحد العلماء أن أحد كبار الموظفين في المحاكم لقيه في ذلك الوقت وسأله عن حاله ، فأجاب : أنه سيىء جداً ، فقال له : أنت رجل عالم ، وعليك أن تأخذ القرآن المجيد ، وتذهب إلى

---

(1) كتاب « ماضي العلماء المجيد » جـ4 ص21 لمولانا محمد ميان .

القرى ، وتعظ الناس وتحثهم على الجهاد ، ففعلت كما أشار علي ، فتلقيت من الشعب الكثير من الروبيات[1] . . وهكذا انتشر الداعون للثورة والجهاد بإسم الدين يلهبون الشعور ، حتى كان جبناء البنغاليين يتحولون إلى أسود فتاكة مثل الأفغانيين ، بمجرد ما يسمعون الداعين للثورة . .

يقول مستر «أي . سي . بيلي » سكرتير حكومة الهند :

« إن الجنون الديني المستمد من القرآن الكريم قد اشتعل إلى أقصى حد ، وبدا الخطر الأكبر من ثورة المسلمين التي ألهبها العلماء المتعصبون الغاضبون على الإنجليز ؛ بما لهم من أثر كبير على العوام الجهلاء »[2] .

ويقول مستر هنتر :

« كان علماء شمالي الهند أول من أفتى بوجوب الجهاد ضد الإنجليز ، ثم سرت هذه العدوى إلى مسلمي البنكال الذين أصدروا منشورات تحض على الجهاد ، حتى أن الشيعة الذين يعادون هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يخالفوهم ، فأصدروا هم كذلك منشورات مثلهم »[3] .

وقد زاد النفوس اشتعالاً ما أقدم عليه « دلهوزى » من اعتقال « واجد علي شاه » ملك « أود » وضم بلاده للشركة سنة 1273 هـ ـ1856 م ، وكذلك إلغاؤه كثيراً من الألقاب والمرتبات التي كان

---

(1) المصدر السابق ص4 .

(2) روشن مستقبل ص108 نقلا عن كتاب « مسلم الهند » لمستر هنتر .

(3) روشن مستقبل ص108 نقلاً عن كتاب « مسلمو الهند » لمستر هنتر .

يتمتع بها بقايا ملوك الولايات التي ضمت للشركة من قبل ، مثل حاكم «أركان» و «تانجور» ومثل «نانا صاحب» وارث ملك المراهتا ، وأكثر من ذلك كله هذا الإنذار الذي وجهه هو « واللورد كيننك » إلى ملك المغول « بهادور شاه » المسن القابع في قلعته ، بأنه سيكون آخر ملك يتمتع باللقب والمرتب وسكنى القلعة التي ستصير بعده ثكنة للجيش الإنجليزي ، وقد كانت من قبل مهوى الأفئدة ، ومحط الرجاء ، ومسكن الملوك العظماء ، فأي غم أصاب الهنود ولا سيما المسلمين ؟ فلئن كان ملكهم قد بلغ من الضعف إلى نهايته ، لقد كان الأمل أن يقوى هذا الملك بواسطة الشعب الذي يسنده ، حتى يبقى حكم الهند في يد أبنائها ، ولقد رأينا الشعب بمختلف دياناته يقف خلف « بهادرشاه » يسنده ويقوي ظهره ، وتقدم المراهتا وغيرهم ممن عاشوا كثيراً محاربين للملك المغول ، تقدموا مختارين ، فأعلنوا طاعتهم له ، ووضعوا نفوسهم وما يملكون رهن إشارته ، في سبيل طرد الإنجليز من البلاد ، فملك المغول ـ إذن ـ على رغم ضعفه كان رمز الشعب على اختلاف طبقاته ، والقضاء عليه وعلى مركز ملكه ، وتحويله لثكنة يسكنها صعاليك الإنجليز ، هو قضاء على أمل للشعب ظلوا متعلقين به ، ومن شأن هذا التصرف أن يزيد في غضب النفوس ، بل إنه ليبلغ بها إلى غايتها في الغضب ، وفي الإستبسال من أجل الإبقاء على أملهم .

ومن أجل هذا أخذت الجهود المتبعثرة تتحد ، والغضب الذي يجري كالسيل هنا وهناك بدأ في التجمع والتنظيم ، وقام جماعة يديرون ويضعون الخطط للقيام بثورة جماعية في الهند كلها ، بحيث لا يستطيع الإنجليز مجابهتها ، فيضطرون لترك البلاد والرحيل عنها لأهلها ؛ هكذا

قدر المدبرون ودبروا ـ المسلمون منهم والهندوس ـ حتى قيل إنهم عينوا 11 مايو سنة 1858 م موعداً لقيام الثورة في جميع أنحاء الهند ، وكتبت المنشورات ، وتفرق الخطباء يخطبون ، ويجهزون لذلك اليوم . ولكن هل أحكموا التدبير وأتقنوا تنظيم الثورة في جميع النواحي ، وفي وقت واحد كما ينبغي ؟ . وماذا كانت نتيجتها ؟

كل هذه أسئلة تجد الجواب عنها فيما يأتي . .

الثورة

أدوارها ونهايتها

كان من المصادفات العجيبة أن تندلع الثورة من الجنود في ثكناتهم العسكرية في « ميرت[1] » ، وفي اليوم الذي قيل إنه حدد لقيام الثورة ، ولأسباب داخلية تتصل باستهتار الإنجليز بعقائد الجنود من الهند ، وتعسفهم في معاملاتهم . .

فقد جلب الإنجليز « خراطيش » كانوا يدهنونها بشحم الخنازير والبقر ، وكان يتعين على الجنود قطع هذا الشحم المتجمد قبل استعمال هذه الخراطيش ، ولتعنت الإنجليز واستهتارهم كانوا يأمرون الجنود بقطعه بأسنانهم ، وكان فيهم كثرة من الهندوس وقلة من المسلمين ، والبقر محرم أكله على الهندوس تحريم الخنزير عند المسلمين ، فتذمر

---

(1) شمال دلهي بنحو 50 ميلاً لا يزال للآن فيها معسكر كبير للجيش الهندي . . وهي من مدن الولاية الشمالية (يو - بي) العامة .

الجنود وعصوا الأوامر الصادرة اليهم في هذا الشأن استجابة لعقائدهم الدينية ، وطلبوا إعفاءهم من هذه العملية ، ولكن الإنجليز في نوبات غرورهم أخذتهم العزة بالإثم ، ورأوا في عمل الجنود ذنباً لا يغتفر ، وعصياناً لا بد أن يقابل بالقمع ، حتى لا تحدث أحداً نفسه بالخروج على أوامرهم ، وحتى يذلوا الجنود ، وبالتالي من كان وراءهم من الأهالي في ناحية حساسة وهي عقائدهم ، واستمروا في غرورهم ، وأنزلوا بالجنود العصاة عقاباً قاسياً ، حيث حكموا على 85 منهم بالسجن عشر سنوات ، وتفننوا في إذلالهم بشتى الوسائل ، وأدع هنا وصف هذه المحاكمة لمؤرخ أمريكي هو « إدورد تومس »(1) يقول :

« سيق 85 جندياً إلى المحكمة العسكرية تحت مراقبة الحراس ، وحكم عليهم بهذا الحكم الفظيع ، ثم عريت أجسامهم من ملابسهم العسكرية ، وكبلوا بالحديد ، وكان منظراً مؤلماً تسيل له قلوب رفقائهم ، إشفاقاً عليهم ورحمة بهم ، وكان في المحكوم عليهم من خدم الإنجليز خدمات جليلة ، وحارب في صفوفهم ، ولقي الشدائد والأذى في سبيل مرضاتهم وشكا جميع الاسرى الى القائد سوء حالهم ، وتضرعوا إليه بكل ما يمكن من الكلمات الرقيقة ، والدموع المنهمرة ، حتى لا يبتليهم بهذا الذل والهوان ، لكنه لم يصغ إليهم ، فلما يئسوا من

---

(1) في كتابه The ather sideofmedal ترجمة مجلة الضياء عدد ربيع الأول سنة 1354 وقد عني المؤرخ الأمريكي بإظهار الجانب الذي حرص الإنجليز على إخفائه من حوادث الثورة ، ويعتمد عليه المؤرخون المسلمون والمنصفون من غيرهم في إبراز مظالم الإنجليز وفظائعهم في الهند .

رؤسائهم شخصوا بأبصارهم إلى زملائهم قائلين : ما لكم تشاهدون كل ما نحن فيه من الذل والخزي وأنتم ساكتون ؟ أولا تحسون المذلة ؟ ، أم انطفأت أرواحكم ؟ ما بالكم لا تحركون ساكناً في شأننا ؟! . فوجدت هذه الكلمات سبيلاً إلى قلوب أصحابهم ، ونزلت عليهم كالصاعقة ، فاعتزموا شيئاً أسروه في أنفسهم ، ولولا الجنود المدججة بالسلاح والآلات النارية لوثبوا عليهم ، وأطلقوا سراح إخوانهم ، لكنهم كظموا غيظهم ، وانطوت صدورهم على الحقد والعداء للظالمين ، وأصبح الذين كانوا يضحون بالنفوس والنفائس لنيل مرضاة رؤسائهم ، يتربصون بهم الدوائر ويقعدون لهم بالمرصاد » .

وهكذا صارت قلعة « ميرت » بركاناً يغلي بالغضب على الإنجليز جزاء تعنتهم وظلمهم الذي لم يستطيعوا التبرؤ منه .

يقول القائد العام للشركة في ذلك الوقت « أنسر »(Anser) (1) :

وقد شاهدت بنفسي الخراطيش التي كانت مبعث الريبة ، فوجدت أن الجنود كانوا على حق في امتناعهم عن استعمالها ، وما كنت إخال أن هذه الخراطيش تدهن بشحوم البقر والخنزير ، فالحق أنهم لم يحفلوا بعواطف الجنود الأهلية .

ويقول حاكم الهند العام وقتئذ « لورد كيننك » عن هذا الحكم(2) :

---

(1) المصدر السابق .
(2) المصدر السابق .

« بلغ هذا الحكم من السفاهة مبلغاً لا يوجد له نظير في تاريخ الهند ، وبذلك اضطرمت نار الثورة وشب لهيبها » .

كانت هذه المحاكمة في 9 مايو سنة 1274 هـ ـ 1857 م ، ولم يأت اليوم الثاني حتى وثب الجنود في معسكر « ميرت » على رؤسائهم الإنجليز ، يقتلون ويدمرون ، ومنها بدأوا زحفهم إلى العاصمة « دهلى » .

يقول مولانا فضل حق خير أبادى في كتابه « الثورة الهندية » عن هذه الواقعة(1) :

« فعمد ـ أي الإنجليز ـ بادىء ذي بدء بمكائدهم إلى أن يذلوا جنودهم ، من مسلميهم وأهاندهم ، عن رسومهم وقواعدهم ، ويضلوهم عن أديانهم وعقائدهم ، لزعمهم أن الجنود من الأبطال ، إذا ارتضوا لأديانهم بالأبدال ، وتلقوا أحكامهم بالقبول والإمتثال ، لا يكون لغيرهم مساغ ومجال للنكول ، مخافة النكال ، فكلفوا الأهاند منهم ـ وهم جم غفير وجمع كثير ـ بإذاقة شحوم البقر ، والمسلمين ـ وهم قليل نزير ـ بإذاقة شحوم الخنازير ، فانحرف كل من الفريقين عن الطاعة والإنقياد ، حفظاً لما لهم من الدين والإعتقاد ، فأخذوا يقتلون فريقهم ، ويقطعون طريقهم ، ويغتالون طرخانهم وبطريقهم(2) ، ومنهم من اعتدى وأساء ، وارتكب الفظاظة والقساء

---

(1) ص259 وكان من زعماء المجاهدين ونفي بعد فشل الثورة إلى (جزائر أند كان) في خليج البنغال ، وكتب عنها هذا الكتاب الذي يعد أصدق تصوير لها .

(2) ألقاب لرؤساء الفرق : الطرخان يكون على رأس خمسة آلاف والبطريق على رأس عشرة آلاف جندي . .

(القسوة) ، فقتل الولدان والنساء ، فاستحق الخذلان والهوان ، من اغتيال النسوان ، واستوجب الخزى والعار ، من قتل الصبية الصغار ، ثم إن كلاً من الجنود المنحرفين قد انتهضوا من معسكرهم ومقامهم ، بعد الفتك بأمرائهم وحكامهم ، فسار كثير منهم إلى دار الملك « دهلى » التي هي مصر مشهور ، وبلد معمور ، ومثوى لجمع كثير من آل تيمور » .

كيف دخل الثوار الجنود « دهلى » :

زحف الجنود الثائرون إلى دهلى في صباح الحادي عشر من مايو ، وكان من الطبيعي أن يقوم الجيش الإنجليزي في دهلى بصدهم عن دخولها ، ولكنهم هزموه وعبروا « كوبرى » نهر « جمنا » ودخلوها ، ويحسن هنا أن أنقل شيئاً من مذكرات امرأة إنجليزية عاشت في المعمعة ، ووصفت أهوالها(1) ، قالت بعدما تحدثت عن بلبلة أفكار الإنجليز ، وخوفهم من أنباء الثورة المقبلة ؛ واعتقادهم أن قائد الإنجليز في « دهلى » - جنرال كراؤ - كفيل بالقضاء على أية ثورة بما لديه من أسلحة ، قالت : بينما كنا نتحدث في بيتنا الذي كان يقع على الطريق الآتي من « ميرت » إذ رأينا الغبار قد ارتفع من جانب « ميرت » ، والجنود الانجليز - الفوارس منهم والمشاة - يستقبلوننا تارة ، ويستدبروننا تارة أخرى ، ثم علمنا بعد حين أن الجنود الهنود في الجيش

(1) وهي مسز هورتست ترجمت مذكراتها للفارسية ومنها ترجمها للعربية السيد علي الزيني بجامعة لكنو ، ونشرت بالضياء عدد رجب وشعبان سنة 1354 ننقلها على علاتها .

الإنكليزي قد فروا وانضموا للثوار ، والذين بقوا يحاربون حرب الفرار ، وجنود الثوار تهجم عليهم من كل جانب كالبحر ، فأقام الجنرال « كراؤ » مدفعاً على تل كان هناك لدفعهم ، ولكنهم لم يبالوا بهذا المدفع ، وتقدموا إلى «دهلي » تاركين جرحاهم وقتلاهم بجوار حائطنا » .

ولما تركت بيتها خارج أسوار دهلي ، وأرادت الإحتماء داخلها ، وسارت متخفية ، استطاعت أن تشاهد كثيراً من أدوار الثورة فتقول « وكان على الجسر الكوبري » زحام من أهل البلد ، قد خرجوا لاستكشاف الحادثة ، فلما سمعوا خبر هزيمة « مجنرال كراؤ » ، وأن جنده يفرون من الثوار ، أخذتهم النشوة ، وكانوا ينظرون إلينا ـ ونحن نسير أمامهم ـ بالازدراء والإحتقار ، لكننا ما أظهرنا شيئاً من الكبر والزهو ، وإلا لقتلنا جميعاً ، ويا ليت ذلك قد كان ، ولم نر ما رأيناه بعد من شدائد الحياة ، فلما وصلنا إلى أبواب دهلي (وكان عليها سور يحيط بها مثل كل المدن في الأيام الماضية) وجدناه منسداً بالازدحام ، وكان الناس يخرجون من داخل البلد ويصيحون : اقتلوا الإنجليز حيث وجدتموهم ، ولا تبقوا منهم رجلاً أو امرأة ولا ولداً » .

وتقول : « فلما وصلنا عند حصن سليم الغوري ، رأينا أهل المدافع قد وقفوا مستعدين ، ينتظرون الأوامر لإطلاقها على الثوار ، ولكنهم كانوا من الأهالي ، فألقوا القنابل في الخندق ، ونهبوا السلاح ، ولحقوا بالثوار ، فقويت بذلك روحهم المعنوية ، وجاء الثوار يتعقبون جند جنرال « كراؤ » الفارين ، وأخذوا في قتل الإنجليز ونهب أموالهم ، ووقع الشغب في كل مكان » .

وتقول حينما نظرت من مخبئهـا إلى الخـارج : « رأينـا جماعـة من الإنجليز يقتلون ويحرقون بأيدي الهنود ، وحينما انتقلت من مخبئها إلى مخبأ آخر تقول : « ومشينا في البيت فرأينا في كل جانب وزاوية جثث القتلى والمضروبين الذين كانت لا تزال أجسامهـم حارة ، والـدم كان يسيل في كل مكان ، حتى كانت الأقدام تزل فيه ، كما كانت الحيطان ملطخة بالدم كذلك » .

وحينما جاء لهم خادمهم الفيال المسلم ، الذي كان يرعى فيلهـم سألوه عن الأخبار . فقال لهم : « إن البلدة كلها في يد الثوار ، وأنهم اختاروا ملكهم الشيخ المتهدم للجلوس على عرش الحكومة (أي حاكماً وقائداً للثـورة ، ومـن قبـل لم يكن له أي نفـوذ لأن الحـكم كان بيد الإنجليز) ، ونهبـوا كل بيت إنكليزي ، وقتلـوا كل من وجـدوه من الإنكليز ، والجنود الإنكليز ، الذين اجتمعوا في المعسكر قد تفرقـوا ، ولو أن مخزن الذخائر لا يزال في يد الجنرال كراو » .

وتقول معلقة على حديث زوجها لها ، وهم في مخبئهم يطمئنها إلى انتصار الإنجليز :

« وكانت هذه الكلمات لتسليتنا فقط ، وإلا فإن زوجي كان عارفاً أن الجنود الأهلية إنما بغوا ؛ لأنهم لا يريدون سيطرة الإنجليز عليهم ، للتباين الموجود في القومية والوطن والدين والعـادات والتقـاليد ، ويريدون إعادة الدولـة المغـولية ، لأن الإنـكليز قد أهانوهـم في المعاشرة ، وأفسـدوا عليهـم دينهـم ، حتـى أجبروهـم على عض الخراطيش ، وكسرها ، وهي مدهونة بشحوم الخنازير والبقر .

وبينما نحن في هذا الكلام ، إذ سمعنا صوتاً مدوياً زلزل بنا الأرض فوقعنا كلنا من شدته ، وعلمنا أن ذلك أثر تفجير الإنجليز لذخائرهم ، خوفاً من استيلاء الثوار عليها ، حين عجز الضباط عن المقاومة ، وقد فنى البارود والضباط إلا قليل منهم ، وكان هذا اليوم الثالث عشر من مايو » .

وتقول : « إن خادمنا الفيال جاء وأخبرنا أنهم سألوه عنا ، وأن رئيس الشرطة قد قرر جائزة ثلثمائة روبية لكل من يأتيه برأس رجل من الإنجليز ، ومائتين وخمسين لرأس المرأة ، وللطفل مائتين . فارتعدنا من هذه الأخبار ، ونسينا ما كنا فيه من الجوع » .

وتقول حين خرجوا وراء زوجة الفيال ، وقد ارتدوا جميعاً الملابس الهندية للتخفي والذهاب إلى مخبأ آخر : « فخرجنا لابسين الملابس التي أتت لنا بها ، نقفو أثرها مارين بشوارع وسكك دهلي التي كانت ملطخة بالدماء ، وما رأينا في الطريق أحداً إلا الكلاب والغربان والنسور التي تنهش أجسام الموتى » .

ثم تقول : « وبعد ذلك بأيام خفض الهنود من ثورتهم ، وكانوا يقتلون ذكور الإنجليز بعد التحقيق معهم والمرافعة عنهم ، وكانت الأوامر تصدر من ملك الهند « سراج الدين محمد بهادر شاه » ، ويستبيحون النساء ، وكانوا أولاً يعرضون الإسلام عليهم ، فكثير من الإنجليز دخلوا في الإسلام وخلصوا أنفسهم من أيدي الظلمة »[1] .

---

(1) لما قبض الملك على السلطة أصدر أوامره بعدم الإعتداء على النساء والأطفال والإنجليز غير المحاربين ، ويظهر أن ما تقوله الكاتبة كان بعد صدور هذه الأوامر ، أما قبلها فكانت الثورة بلا عقل تسيرها رغبة الأهالي في الإنتقام .

ثم تقول : « وبعد هذه الشدائد عزمنا على الخروج من دهلى إلى « أكرا » ، وأخذ فيالنا يهيء لنا أسباب السفر ، لكن أخباره وصلت إلى رئيس الشرطة فشنقه ، لأنه من المسلمين الذين يعينون الكفرة المسيحيين ، وعلقه في جزع شجرة كانت في فناء دارنا ، ولكن ما كانت عندنا فرصة لنقضي حق الجزع عليه ، ونقيم المأتم على هذا الرفيق الوفي » .

تلك صورة خاطفة آثرت أن أعجل بها هنا قبل الكلام على التفاصيل ، وهي على كل حال ليست صورة غريبة عما يلازم هذه الثورات من حوادث ، تأتي نتيجة لاشتعال عواطف الحقد والكراهية على قوم معتدين متعنتين .

* * *

نرجع بعد ذلك للوراء لنذكر أن العلماء دعوا لاجتماع عام في المسجد الجامع بدلهى ، وأعدوا فتوى بإعلان الجهاد وقعها كثير من العلماء البارزين ، ولما شاعت هذه الفتوى في هذا الوقت ثار كثير من الناس ، وتجمع في دهلى عشرات الالاف من الجند الثائرين ، وفي الوقت نفسه أصدر الثائرون من المسلمين والهندوس إعلاناً مشتركاً ، يقضي باختيار الملك المغولي المسن « بهادور شاه » قائداً أعلى للثوار ، وانضوى المراهتا - الذين كانوا دائماً محاربين لملوك المغول - انضووا تحت حكمه راضين مختارين في سبيل جهاد مشترك لأخراج الإنجليز ، وكان اختيار الملك المسن رمزاً لرضاء الجميع عن الحكم الوطني المغولي ، وإن لم يكن الملك في شيخوخته قادراً على قيادة ثورة عارمة كهذه الثورة ، فوق أنه لم

تكن هناك شخصية قوية يتجه إليها الثائرون تقودهم في هذه الظروف الحرجة . .

وقد جعلت القيادة العامة على الجنود الثائرة لبعض أبنائه مثل « ميرزا مغل » و « خضر سلطان » ، ولم تكن لهم تجربة في مثل هذه الشدائد ، وكان على المدفعية رجل شجاع ماهر هو « بخت خان » ، وانقض الأهالي مع الجنود على الإنجليز في كل مكان ، وهزموا قواتهم التي تعرضت لهم ، وأخذوا يقتلون كل من يرونه من الإنجليز ، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً ، كانت ثورة النفوس جارفة ، وانطلق كل ثائر ينفس عما في نفسه من غل وحقد على هؤلاء الذين أذلوهم ، وكادوا لدينهم وسلطانهم ، وسيطر الثوار على الموقف في « دهلى » وجرت دماء الإنكليز أنهاراً في الشوارع والبيوت ، وكان القتل مصير أي فرد يتواطأ مع عدو البلاد ، أو يخفيهم في بيته ، وكان من الممكن أن تنجح هذه الثورة في دهلى ، وفي غيرها لو وجدت القيادة الرشيدة الحازمة ، والتنظيم الذي يعرف كيف يستغل العواطف المشتعلة ، والإخلاص الذي ينفي خبث الخبثاء ، والخائنين الجبناء . .

ولكن ما أراده الله كان ، وهو لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يمكن للشجرة التي ظل السوس ينخر فيها طويلاً أن تثبت أمام العواصف العاتية ، وكانت الثورة تحمل في طياتها كثيراً من عوامل الضعف وعدم الإستعداد لمجابهة القوة المنظمة بمثلها ، كما أن كثيراً من المحيطين بالملك كانوا على صلة بالإنجليز ، وبجانب هذا كان كثير من التجار الهندوس قد وجدوا الثراء والإنتعاش على يد الإنجليز ، مما جعل الإنجليز يجدون أسناداً لهم وأعواناً في كل ناحية . .

وفي أثناء الثورة وبعد ما ظهرت بوادر الفشل ترك الملك ـ الـذي جعله الثوار قائداً عاماً لهم ـ قلعته مع أهله وأولاده ، والتجأ إلى مقبرة « همايون » خارج البلد ، بعيداً عن مركز الخطر ، فكان لهذه الخطـوة أثرها السيىء جداً في نفـوس الثـوار ، حيث بعثـت في قلوبهـم الذعر والخوف ، وتفاعـل هذا العامـل مع العوامـل الأخـرى ، فلـم يلبـث الإنجليز أن سيطروا على الموقف في دهلي بعد أن استمرت الثورة أربعة شهور أي في 19 سبتمبر سنة 1857 م .

ولعل خير ما تقرؤه في وصف هذه الثورة وأدوارها ، هو ما دونه أحد زعمائها وهو مولانا فضل حق خير أبـادى الـذي أشرت إليه مرات من قبل ، والذي اشترك في إيقاد اللهب وعاش وسطه حتى انطفأ . كتب يقول[1] :

«ذهب كثير من الجيوش إلى دار الملك في دهلي ، فأمروا بها من كان من قبل من بينهم رئيساً[2] ، وقد رد إلى أرذل العمر ، وهو في الحقيقة لزوجه[3] ووزيره مأمور ، وكان عامله الذي كان في المعنى والياً عالياً ، للنصارى موالياً ، وفي حبهم غالياً ، ولمن عداهم مبغضاً قالياً ، وكذا بعض عشيرته الأقربين[4] يفعلون ما يشاءون ، ويعملون بآرائهم وفي طاعته يراءون ، وهو إمر لا يعلم أمراً ، ولا يأمر برأيه أمراً ، ولا يفقه

---

(1) ص 361 وما بعدها من كتابة الثورة الهندية ملخصاً .

(2) يقصد بها دور شاه .

(3) يقصد الملكة زينت محل وحكيم أحسن الله خان كما جاء في هامش الكتاب .

(4) يقصد ابن الملك « ميرزا مغل وغيره » .

خيراً ولا شراً ، ولا يحكم بشيء جهراً وسراً ، ولا يملك نفعاً ولا ضراً ، هذا وقد انتهض من بعض القرى والبلاد ، جمع من المسلمين الجلاد ، للغزو والجهاد ، بعد الإستفتاء والإستشهاد ، من العلماء الزهاد ، وإفتائهم بوجوب الجهاد ، وقد أمر ذلك الأمر على الجيوش ، بعض من له الأحفاد والأبناء ـ يريد ميرزا مغل وخضر سلطان وغيرهما ـ ، وكانوا من السفهاء الخوان الجبناء ، والمتنفرين من العقلاء الأمناء ، لم يشهدوا ملحمة وحرباً ، اختاروا للمعاشرة والمشاورة سوقة من أهل السوق ، وانغمروا في الترف والفسوق ، وكانوا يأخذون من الناس بحيلة تزويد الجيوش وتجهيزهم مالاً جماً ، ثم يأكلون كل ما يأخذون أكلاً لما ، ألهتهم ملاهيهم في رخاء العيش . فأخرتهم عن مقدمة الجيش ، يبيتون نياماً ، ويظلون سكارى ، وإذا انتبهوا وصحوا فهم أغفال حيارى ، هجمت عليهم بالجنود النصارى ، وقد عسكروا على جبل شاهق ، ونصبوا عليه مجانق[1] يرمون بها المساكن والدور ، كأنها شهب وصواعق . والجنود المنحرفة (الثائرون) أشتات مختلفة ، صاروا طرائق قدداً ، بعضهم لا يطيع أحداً ، والبعض لا يجدون ملتحداً ، منهم من ونت لفقره طاقته ، وأقعدته عن القيام بالحرب فاقته ، ومنهم من عوقه عن الحرب ما نهب ، ومنهم من هرب وقلبه رهب ، ومنهم من طغى وبغى ، ومنهم من يستنكف بلبس الشفوف ، عن الدخول في الصفوف ومنهم من كان يجالد ويحارب ، والنصارى بعد ما وهنوا ، استمدوا في الحرب هنالك الغرب ، فأمدوهم بكثير من العدد والعدد ، وأعانوهم بمدد بعد

---

(1) لا بد أنها المدافع ، لكن يظهر أن السجعة حكمت عليه .

مدد ، في أقصر المدد ، فجمع النصارى على ذلك الجبل كثيراً من الأعوان . فمن جنودهم أشياعهم البيض ، ومنهم أجراؤهم من أراذل المنادك ، والمسلمين الذين ارتدوا بولاء النصارى عن الإيمان ، وباعوا دينهم ببخس من الأثمان . . »

« وقد ائتلف بالنصارى من سكان البلد آلاف ائتلافاً ، فالمنادك كلهم معهم وأما المسلمون فقد اختلفوا اختلافاً ، فبعضهم للنصارى قالون ، وبعضهم لهم موالون ، في حبهم غالبون ، يجدون لكسر الجنود الثائرة بالحيل والمكائد ، ويجتهدون في فل شوكة المجاهدين ، وتبديد شملهم ، وتفريق جمعهم . »

« وطفق النصارى يحملون على البلد وأبوابه ، والمجاهدون وفريق من الجنود ، يعوقونهم عن البلد ، يتجالد الفريقان ليلاً ونهاراً ، ركباناً ورجالاً ، وكانت الحرب بينهما أربعة أشهر سجالاً[1] ، فذاق كثير منهم شهد الشهادة ، وسعدوا إذ صعدوا معارج السعادة ، « وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ، وما بقي من المجاهدين إلا قليل ، يبيتون جياعاً ، ويصبحون إلى الغزو سراعاً ، فكانوا مع جمع من الجيش يحفظون السور ، ويسدون الثغور » .

ثم وصف بعد ذلك كيف انتهز الإنجليز فرصة نوم حراس احد المواقع واستولوا عليها ، ثم أخذوا منها يضربون البلد والسور المحيطة بها[2] ، حتى هدموا بعض أجزائه ، وسيطروا على القلاع المشرفة عليه ،

---

(1) من 11 مايو إلى 14 سبتمبر سنة 1857 م .

(2) وقد دلني بعض الزملاء على آثار الضرب في السور عند بوابة كشمير في دلهي ويسمونها (كشميرى جيت) .

وبحيلة حربية « دخل فريق من النصارى وجنودهم من باب أوهنوه ، وسور هدموه ، فلم يجدوا مزاحماً ولا مقاوماً » ، ثم استمالوا أهل الجهة التي دخلوا فيها وحصنوها ومنها أخذوا يزحفون ويستولون على بيت بعد آخر ، ويتحصنون فيه ، ويضربون من يظهر من الثوار ، وفي ذلك الوقت « خرج الملك مع من له من آل وعيال ، إلى مقبرة هي من البلد على ثلاثة أميال ، (مقبرة همايون) ، وكان مطيعاً لزوجه وعامله الخوان ، مغتراً بما كان يختلقه من الكذب والبهتان ، ويسول له أن النصارى بعد تسلطهم يتبعونه بإحسان ، ويمكنونه في الملك بأبهة وسلطان ، وكان مغروراً مسروراً ، وخرج مع الملك من له من الأمراء والأجراء ، تاركين في بيوتهم أمتعتهم ، وبخروجهم من البلد استولى الرعب على كثير من سكانه ، فخرج كل من مكانه ، فلما خلت الديار من أهلها ، دخلت النصارى وجنودهم فيها ، فمالوا على ما وجدوا فيها من المال . واغتالوا من بقي في الدور من النساء والأطفال ، والضعفاء من الرجال . . »

وكان وقت تشيب لهوله الولدان ، ومع ذلك ثبت فريق من المجاهدين ، يقاتلون هنا وهناك ، ولكن البدالين من الهنادك بالإشتراك مع مرزا إلهي بخش منعوا كل قوت عن المجاهدين ، وحالوا بينهم وبين ما كان يجبى إليهم من ثمرات القرى « حتى ظلوا وباتوا جياعاً ، والتاعوا التياعاً ، فاضطروا أشد اضطرار ، وفروا أشنع فرار ، فاستولى النصارى على البلد وأبوابه ، وقلعته وسوره ، وأسواقه ودوره . . »

ومن المؤسف حقاً أن تقوم الخلافات الكثيرة بين زعماء الثوار . وأن

تسول للأمراء وبعض حاشية الملك نفوسهم خيانة المجاهدين ، وطعنهم من الخلف ، وأن يشتغل أبناء الملك بالخلاف فيما بينهم من أجل العرش في هذا الوقت ، وأن يعملوا على إضعاف المجاهدين وقوادهم الأمجاد ، مثل « جنرال بخت خان » ، وقد كانوا يظنون بعقولهم الساذجة أنهم بما يقدمونه للإنجليز ضد إخوانهم سيقربهم لديهم ، ويجعل لهم الحظوة عندهم ، ولكن خيب الله ظنونهم ، فكانوا ضحايا غدرهم مثل غيرهم . . . وهكذا تمكن الإنجليز من الإنتصار على الثائرين بعد أربعة أشهر ، ولم يساعدهم على ذلك إلا حسن تنظيمهم وثباتهم ، في الوقت الذي اشتغل فيه أكثر الثائرين ، ولا سيما بعض رؤسائهم بأنفسهم ومطامعهم ، فجرت عليه سنة الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

الثورة في المناطق الأخرى

ولنترك دهلى الآن ـ بعد أن وقعت في قبضة الإنجليز ـ لنعرف أخبار الثورة في المناطق الأخرى .

فمن المؤسف حقاً أن الثورة لم تقم كلها في وقت واحد ، كما كان منتظراً ، وقد أتاح ذلك للإنجليز فرصة التفرغ لمنطقة بعد أخرى ، كما أن مناطق الثورة قد انحصرت في وسط الهند : في دهلى ، وكانبور ، وجهانسى ، ولكنو ، وتهانه بهون ، وبعض مناطق الحدود التي كانت من قبل في ثورة ضد الإنجليز .

ففي البنكال مثلاً قامت ثورة على يد « منكل باندى » في 22 مارس سنة 1857 في منطقة « دمدم » ، ولكنها أخمدت بسرعة ، قبل أن تبدأ الثورة في المناطق الأخرى ، وأعدم هذا الرجل في 8 مايو . .

ولما قامت الثورة في دهلي لم تقم في لكنو ، وكانپور ، وجهانسي إلا متأخرة بعد أن وصلتهم أخبارها بأسابيع . .

ففي 14 مايو وصلت أخبار الثورة إلى « كانپور » فقام « نانا صاحب » المراهتي بالثورة فيها . وكان يسكن في « ديتهورا » ، ولكنه لم يشرع في هذه الثورة إلا في السابع من يونيو ، أي بعد مضي نحو شهر على الثورة في « دهلي » وكان « نانا صاحب » متفقاً مع ثوار دهلي على الثورة ، وأعلن معهم خضوعه للملك « بهادور شاه » ، وقد هاجم الإنجليز في كانپور بالمدافع ، وقاتل قتال الأبطال هو وقومه من المراهتا ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، ولما يئس من النصر قضى على كل من كان تحت يده من الإنجليز نساء وصبياناً ، وألقى بجثثهم في بئر ، اتخذ منها الإنجليز مزاراً بعدما انتصروا ، أما هو فبعد هزيمته ترك كانيور واختفى . .

أما لكنو : فقد قامت الثورة أيضاً متأخرة مثل كانبور ، وكان الأهالي ساخطين على الإنجليز ، لا سيما بعد اعتقالهم ملكهم « واجد علي شاه » ، وكانت زوجته وتسمى « حضرت محل » لا تزال في لكنو العاصمة ، هي وابنها الصغير « مرزا رمضان علي » الذي عرف بإسم « برجيس قدر » ، فقام الثوار والزوجة الباسلة على رأسهم ، لتنتقم لزوجها ووطنها ، وكان بعض رؤساء الثوار في دهلي مثل « جنرال بخت خان » ، ومولانا « أحمد الله شاه مدراسي » المعروف بإسم « دلاورجنك » وغيرهما قد فروا منها ، وتركوها بعد أن لعبت بالثورة الأغراض والأهواء والدسائس ، وانضموا للثوار في لكنو ، وقام أحمد

الله شاه بتنظيم الحـركة ثم في 5 يونيو سنـة 1857 م . أعلنـوا جلـوس « برجيس قدر » على العرش ، وانتزاع أمـر الحكومـة من يد أحمـد الله شاه ، وكان ذلك بمساعـدة نواب أحمـد علي خان المعـروف بإسـم « مموخـان » الـذي يقـول فيه مولانـا فضـل حق « إن الملـكة فوضـت الأمركله ، حله وعقده ، إلى عامـل خامـل ، لم يكن للأمـر أهـلاً ، يستصعب كل سهل ، ويحسـب كل صعـب سهـلاً ، ثم مضى يصف فساده وسوء اختياره لرجاله وقواده ، وكان من نتيجة ذلك أن غضـب عليهم مولانا أحمد الله شاه مدراسي ، ثم تنحى عن العمل .

وعندما أحس الإنجليز بالثورة تحصنوا هناك في قصور حصنوها ، وجاءهم المدد ، وكان الثائرون قد هجموا عليهـم هجمات متـوالية ، وأحرقوا بعض هذه القصور ، التي لا تزال للآن في لكنو ، ـ كما رأيتها ـ وفيها آثار التخريب والحريق ، وقد حولها الإنجليز بعد انتصارهم إلى متحف حربي ، عرضت فيه أسلحة ذلك الوقت ، ونسفوا الحديقة التي أمامه ، وأقاموا فيها تمثالاً لأحد القواد ، المهـم أن الثائرين فشلـوا ، فاضطروا إلى تسليم لكنو للإنجليز ، وخرجوا هائمين على وجوههم . وفي الوقت نفسه تقدم الإنجليز ، وحاصروا قصر « بيكم حضرت محل وولدهـا الملك برجيس قدر » ، وكل من كانوا معهـا « قـد فروا من مراصدهم فراراً ، لم يستطيعوا معه قراراً ، وتركوها وابنها وحيدين في قصورهما ، وخانهما كثير من أولياء دولتهما ، وأركان سلطتهما ، ونكثوا المواثيق والأيمان ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، فدخل النصارى البلد ، فوجدوا بيوتها خالية ، وحاصرت جنودهم وأعوانهم مقصورة كانت فيها

الوالية ، فخرجت مع ابنها وامرأتين من صواحبها متخفية راجلة ، ودخلت محلة أخرى عاجلة ، ومكثت في تلك البلدة ثلاثة أيام تستعد ، وتستنفر الناس ولكن دون جدوى ، فلما استيأست من الأعوان نفرت مع ابنها وعدة من الأنفار ، للسفر إلى القاع والقفار ، فاجتمع لها جماعات من الفرسان والرجال ، بل وربات الحجال ، وهم حفاة عراة ، وقد كانوا قبل من السراة »[1] .

ولما أحست الملكة « حضرت محل » أن معها جمعاً تستطيع به منازلة الإنجليز ، عسكرت في إحدى البلاد ، واستعدت للحرب والجلاد ، ولكن للأسف لم يستطع من معها الثبات أمام الإنجليز ، ففر الكثير وبقي قليل يحاربون حتى استشهدوا في بلدة « نواب كنج » قريباً من لكنو .

وعندما انهزم الثوار في لكنو ذهب بعض رؤسائها إلى مدينة « شاهجهانبور » الواقعة على الغرب منها ، واقاموا حكومة إسلامية في مركز «محمدي » التابع لها ، وكان من هؤلاء مولانا أحمد الله شاه مدراسي وجنرال بخت خان ، واتصل بهم « نانا راؤ والمراهتي ، الذي قاد الثورة في كانبور هو ومولانا عظيم الله كانوري وغيرهم ، واستطاعوا أن يهزموا الإنجليز أولاً ، ولكن النصر انقلب بعد قليل إلى هزيمة استشهد كثير منهم فيها .

أما الباقون فقد فروا إلى « نيبال » ، في أقصى الشمال . وقد قتل

---

(1) من كتاب الثورة الهندية لمولانا فضل حق ص396 بتصرف .

مولانا أحمد الله بواسطة خيانة دبرها له الراجا الهندوسي « بلدنيو سنك » ، حيث دعاه إلى مائدته ، وأظهر له حمايته ، ثم غدر به وقتله .

أما « حضرت محل » فقد ذهبت مع ابنها «برجيس قدر » إلى نيبال ، وعاشا هناك حتى ماتت ، وبعد ذلك رجع « برجيس » إلى « كلكتا » ، حين اطمأن إلى عفو الإنجليز عنه ، لكن دبرت له مؤامرة لقتله بواسطة السم ، ومات وانتهى .

وفي « جهانسي » جنوب دلهي قامت الثورة بقيادة « راني لكشمي باي »[1] الهندوسية ، وكان الإنجليز قد وضعوا يدهم على ولاياتها قبل ذلك بسنوات ، فأرادت هذه المرأة الباسلة أن تنتقم لنفسها منهم ، فوقعت بينها وبينهم عدة معارك ، انتهت بانتصارهم أيضاً كما انتصروا في المواقع الأخرى .

موقعة شاملي وتهانه بهون

عندما قامت الثورة شارك العلماء فيها مشاركة فعلية في كل ناحية ، وحملوا السيف والبندقية مع إخوانهم ، ولكن هناك موقعة يستحق أن نفرد لها مكاناً خاصاً ، وهذه هي الموقعة التي دارت رحاها في هذه المدن التابعة لمديرية « مظفر نكر » شمال « ميرت » بين العلماء والإنجليز . . .

---

(1) وقد عنيت الحكومة الهندية بإخراج طوابع بريدية تذكارية لها1957 وهي راكبة فرسها تقود الثورة ضد الإنجليز بمناسبة مرور مائة عام على الثورة وإن كانت زميلتها في الثورة ضد الإنجليز في لكنو « حضرت محل » زوجة واجد علي شاه ، لم تحظ بهذه العناية !!

فعندما قامت الثورة في دهلي كان تلامذة مدرسة شاه ولي الله وأتباع السيد أحمد الشهيد المسترشدين بطريقته يفكرون في القيام بعمل إيجابي ، وأتباع السيد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد منذ استشهد ، فلا عجب أن ينتهزوا هذه الثورة العامة ويخوضوا غمارها .

اجتمع من هؤلاء العلماء الصوفيين الكبار : الحافظ ضامن ، والحاج إمداد الله ، ومولانا محمد . . . وبحثوا في أمر قيامهم بثورة ضد الإنجليز ، لكن رأي مولانا محمد كان يقضي بالإمتناع عن ذلك ؛ لعدم الإستعداد ، وعدم وجود أسلحة توازن ما في أيدي الإنجليز ، وإزاء هذا الإختلاف استدعوا مولانا محمد قاسم نانوتوي[1] ، ومولانا رشيد أحمد كنكوهي[2] ، وكانا من تلامذة مدرسة شاه ولي الله أيضاً ، ومن

(1) ولد في قرية « نانوتا » التابعة لسهارانبور سنة 1248 هـ ـ1822 م ودرس في دهلي وظهرت عليه علامات النبوغ منذ صغره وتشبع بروح مدرسة الشاه ولي الله وأولاده ، وصار من الأفذاذ وهو شاب ، واشترك في الثورة وعمره 25 سنة ولما فشلت اختفى مدة حتى أعلن العفو العام وكان يقضي أكثر مدة اختفائه في ديوبند . ثم عمل مع جماعة من المخلصين على تأسيس مدرسة عربية دينية تقوم على صيانة التعاليم الإسلامية من فساد الغرب ونوايا الإنجليز فأسسوها سنة 1282 هـ ـ1867 م في مسجد صغير لا يزال للآن وقد كبرت مدرسته وصارت أعظم معهد ديني في الهند وما حولها وقد قمت بالتدريس فيها سنتين وثلاثة شهور . وله مؤلفات أوردية قيمة في غاية التركيز وسمو العبارة وحفيده الآن مولانا محمد طيب مدير دار العلوم بديوبند . ويعتبر مولانا قاسم من نوادر العلماء في عصره وبعد عصره وتوفي سنة 1297 هـ ـ1879 م ودفن بديوبند .

(2) ولد سنة 1244 هـ ـ1828 م في بلدة كنكوه التابعة لسهارانبور ، وتعلم في دهلي على علماء من أبناء وأحفاد شاه ولي الله ، وأخذ الطريقة عن الحاج أمداد الله ، ثم اشترك في الثورة وقبض عليه واستمر في السجن ستة أشهر ، ثم خرج واشترك في تأسيس دار العلوم ديوبند والتدريس بها وظل قائما بالتدريس وهداية الناس حتى أصبح له أتباع كثيرون وتوفي سنة 1323 هـ ـ1905 م ودفن في بلدته وأحفاده للآن معروفون في كنكوه وله عدة مؤلفات قيمة بالأوردية .

كبار العلماء الصوفيين كذلك ، ولما قال مولانا محمد لا توجد عندنا أسلحة توازي ما عند الإنجليز قال مولانا قاسم : ألا توجد معنا أسلحة مثل ما كانت في يد أهل بدر ؟ . قالوا : نعم كفى ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، وشمروا عن سواعدهم ، ودعوا الناس للجهاد ، وجعلوا إمامهم مولانا الحاج إمداد الله ، ومولانا قاسم قائداً عاماً ، ومولانا رشيد قاضياً ومولانا محمد منير النانوتوى والحافظ ضامن قائدين على الميمنة والميسرة ، وكان هؤلاء جميعاً محل اعتقاد من العامة ، فتجمع المجاهدون حولهم من كل ناحية ، وأتوا بأسلحتهم ، وكانت كلها من الطراز القديم حتى البنادق ، وكانوا يعنون بالتدريب من قبل .

وبدأوا في « تهانه بهون » التابعة لمظفر نكر قريباً من ديوبند - فاستولوا عليها وعلى ما حولها . وأقاموا فيها الحكم الإسلامي ، وأخرجوا منها الحكام الإنجليز ، فلما وصلت هذه الأنباء إلى الإنجليز تحركوا من « سهارانبور » ومعهم مدافعهم ، متجهين إلى بلدة « شاملي » ، وعلم العلماء بذلك ، ففكروا كثيراً : كيف يقابلون المدافع بالسيوف والبنادق القديمة ؟! ولم يلبثوا كثيراً حتى رأى مولانا رشيد أن يقوم بعمل جرىء ضد هذه القوة الزاحفة ، وأسرع فأخذ كتيبته المكونة من أربعين مجاهداً ، وكمن بين الأشجار في طريق هذه القوة ، حتى إذا مرت بهم أمطروها برصاص بنادقهم ، ففر الإنجليز وتركوا مدافعهم وأسلحتهم ، واستولى عليها مولانا رشيد وحملها إلى إمامهم « الحاج إمداد الله » فأثار هذا شعلة الحماسة في نفوس المجاهدين ، وقد ألقوها أمامهم في المسجد .

ثم تقدموا فقبضوا على مديرية « شاملي » بعد معركة حامية بينهم وبين الإنجليز استشهد فيها الحافظ محمد ضامن قائد الميسرة ، وبرغم استشهاده فإن انتصارهم وما كان يترامى إليهم من أنباء انتصارات إخوانهم في دهلي وغيرها شد من أزرهم وأزر العوام ، حتى كانوا يطاردون الإنجليز بالعصي والحجارة ، يشترك في ذلك كل الأهالي حتى النساء والصبيان ، ولكن بعد فترة جاءت الأخبار المؤسفة من دهلي حين هزم الثوار واستولى الإنجليز عليها ، وأخذوا ينكلون بأهلها ، ففت هذا في عضد المحاربين ، وخمدت فيهم روح الحماسة ، فلم يعد مفر أمامهم من إلقاء السلاح ، والنجاة من أيدي أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم ، فهاجر مولانا إمداد الله إلى مكة . وسطع نجمه هناك ، وأصبح يدعى شيخ العرب والعجم ، وكان من كبار الصوفيين ، وقبضوا على مولانا رشيد وظل في السجن ستة أشهر حتى صدر قانون العفو العام ، فأفرج عنه . أما مولانا قاسم النانوتوي فقد اختفى حتى صدر قانون العفو فسلم من السجن .

وهؤلاء العلماء المجاهدون هم الذين قاموا بإنشاد دار العلوم ديوبند التي صارت أكبر معهد ديني عربي في الهند والبلاد الآسيوية الشرقية ، وقد واصلوا جهادهم في سبيل حماية المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم من شرور المستعمرين ، وتشددوا في ذلك حتى خاصموا كل ثقافة إنجليزية ، بل كل ملبس ومظهر إنجليزي ، ولا زال هذا المبدأ سائداً في هذه المدرسة وأمثالها للآن ، ويعتبر ذلك مثلاً حياً في المحافظة على كيان المسلمين ، ولو أنه حمل في طياته بعض العيوب والمضار .

ونعود بعد ذلك إلى أخبار الثورة فلا نجد منطقة غير هذه المناطق السابقة قد قامت فيها ثورة تذكر ، ففي جنوب الهند لم يتحرك أحد ، وكان نظام حيدر أباد على رأس المعاونين للانجليز . وفي الشمال الغربي حيث البنجاب . وحيث الرجال المحاربون الأشداء لم يحدث فيها إلا ثورة خفيفة لم تدم طويلاً ، وكان السيك فيها أكبر حرب على الثائرين ، متفننين في تعليبهم : مسلمين أم هندوساً ، وفي الحدود الشمالية حدثت بعض ثورات أو على الأصح ، استمر أتباع المرحوم سيد أحمد الشهيد في حربهم للإنجليز الذين وجهوا لهم قوات حربية كثيرة ، ذاقت الشدائد على يد هؤلاء المجاهدين الذين لم يلقوا سلاحهم حتى بعد أن انهزمت الثورة بل ظلوا شوكة قوية في ظهر الإنجليز لمدة طويلة . وكذلك قامت ثورات في بعض مدن مقاطعة « يوبي » مثل إله أباد ، وفتحبور ومراد آباد ، وبجنور ، وغيرها ، ولكنها كانت في عمومها ثورات خفيفة ، تمكن الإنجليز من إخمادها والتنكيل بالأهالي فيها ، والإنفراد بالسلطة العامة التامة في الهند .

أسباب فشل الثورة

وهكذا فشلت الثورة التي كان منتظراً لها أن تنجح ، ومن الأسف أن القائمين على أمرها لم يحكموا تدبيرهم ، ولم يجمحوا شهواتهم ، إلا قليلاً من المخلصين الذي آثروا الجهاد والإستشهاد ، ومن يقرأ مظالم الإنجليز وتعنتهم مع الهند في كافة نواحي الحياة يعتقد أن الشعب كان سيعصف بهم بين يوم وليلة ، ولكن حين جد الجد لم نجد إلا بعض النواحي تتحمل عبء الثورة وحدها في غير تنظيم واستعداد ، ولهذا

أشك كثيراً في رواية التاريخ التي تقول إن الثوار حددوا وقتاً معيناً هو 11 مايو ؛ فإن هذا الوقت قد جاء ولم تقم ثورة في أية ناحية من نواحي الهند ، أما دهلي فاعتقد أن الثورة فيها قامت نتجية ثورة الجند ، وقدومهم إليها من « ميرت » ، فقام الأهالي معهم في هذا التاريخ تقريباً ، فالحقيقة التي اطمئن إليها أنه لم يكن هناك تنظيم محكم لجهاز الثورة ، ولا استعداد لها ، وليس أدل على ذلك من أن الثورة لما قامت في دهلي في 11 مايو ، وبلغ خبرها إلى النواحي الأخرى بعد ذلك بيومين أو ثلاثة لم تقم أية ثورة في هذه النواحي مباشرة . لقد تأخرت لكنو ، وكانيور قريباً من شهر عن قيام ثورة دلهي ، فلو كان هناك تنظيم ووقت متفق عليه لقامت الثورة في وقت واحد كما كان يرتجى ، وإلا اتهمنا القائمين بهذه الثورة بالتقصير ونقض العهود فيما بينهم ، وعلى كلا الحالين فالذي حدث ما كان يصح أن يحدث بين قوم أرادوا التخلص من عدو شرير ، متمكن مستعد بالأسلحة الحديثة ، من أجل ذلك أميل إلى ما قاله المرحوم مولانا أبو الكلام أزاد وزير معارف الهند السابق في المقدمة التي كتبها لمؤلف الدكتور « سين » المعاصر الهندي عن هذه الثورة حيث قال :(1) « إنه لم يقم دليل للآن على أن هذه الثورة كانت نتيجة مشروع متفق عليه من قبل ، أو كان تدبيرها سبباً في تآمر الجنود الهنود (الذين يعملون في الجيش الإنجليزي) مع الشعب على الثورة ، وإعدام حكومة الشركة ، وطرد الإنجليز من

---

(1) اطلعت على هذه المقدمة مترجمة للأوردية في عدد الجمعية الخاص بذكرى هذه الثورة الصادر 11 مايو في سنة 1957 .

الهند » ، ولا شك أن ظواهر قيام الثورة تؤيد هذا القول تماماً .

فأول سبب لفشل هذه الثورة هو اعتمادها على العواطف المشتعلة ، وعدم العمل على تنظيمها وقيامها كلها في وقت واحد ، وعدم شمولها للبلاد كلها ، مما أتاح للإنجليز فرصة واسعة للقضاء على الواحدة تلو الأخرى .

فمما سبق عرفنا أن المواطن التي قامت بالثورة محدودة ، وأنها انحصرت تقريباً في وسط الهند الشمالي ، بينما سكتت النواحي الأخرى ، أو ساعدت الإنجليز .

2 ـ ومن أسباب فشل الثورة كذلك انضمام « السيك » للإنجليز ، وهم قوم أولو بأس وشدة ، وكانوا يسيطرون على البنجاب الشهيرة بقوة رجالها ، وأقاموا فيها ملكاً نزعه الإنجليز من أيديهم قبل الثورة بمدة قليلة . ومع ذلك رأينا هؤلاء يسارعون في إرضاء الإنجليز ، ومناصرتهم ضد إخوانهم المواطنين دون أن يغضبوا لملكهم المسلوب ، أو لكرامتهم الجريحة ، أو يمنعهم ضميرهم من الفتك بمواطنيهم زلفى للإنجليز ، بل لقد كان هؤلاء يتفننون في تعذيب إخوانهم المواطنين لا سيما المسلمين تفنناً سبقوا فيه ساداتهم الإنجليز ، يقول السيد محمد لطيف في كتابه « تاريخ بنجاب »(1) «وما وقيت «بنجاب» شر الثورة، فحسب ، بل كانت مستعدة لتدبير كل الوسائل لابقاء مجد الإنجليز في الشرق ، وكان الموقف جد خطير ، لكن « بنجاب » ظهرت مع الإنجليز بمظهر القوة التي لا تغلب » وكان هذا المؤرخ من الماثلين للإنجليز .

(1) ص581 طبعة 1891 م .

3 ـ ومن الأسباب أيضاً موقف الجنوب حكاماً وشعوباً ، ولا سيما ملك « حيدر أباد » فقد وقف مع الإنجليز ضد مواطنيه الهنود ، وملوك حيدر أباد كانوا دائماً مع الإنجليز ، حتى ضد الملوك المسلمين ، كما فعلوا مع السلطان « تيبو المجاهد » سلطان ميسور ـ كما سبق أن بينا ذلك في حربه مع الإنجليز ـ وقد ضمن موقفهم في صف الإنجليز الهدوء في القسم الجنوبي من الهند ، مما جعلهم يتفرغون بقواتهم لإخماد الثورة في الشمال .

4 ـ ومن الأسباب الخارجية تدفق الجنود الإنجليز على الهند في ذلك الوقت بمحض المصادفة ، فقد كان كثير منهم ذاهباً إلى الصين في مناوشات مع الإنجليز هناك ، فلما قامت الثورة نزلوا في الهند لإخمادها ، وقد استطاع الإنجليز بجنودهم الذين وصلوا إلى « كابل » كذلك أن يسدوا الطريق في وجه أي عون يأتي للهند من روسيا ، كما استطاعوا أن يمنعوا عنها أي عون من الدول الخارجية بسيادتهم البحرية . وهكذا وقفت الهند وحدها أمام الإنجليز دون أن تجد عوناً خارجياً .

وفي الحقيقة كانت الهند تستطيع وحدها لو اتحدت أن تطرد الإنجليز بالعصي والحجارة كما اعترف بذلك رؤساؤهم ولكنهم لم يتحدوا فجرت عليه سنة الله .

5 ـ وقد كان هذا التفرق أهم سبب في فشل الثورة ، حتى إن الذين قاموا بها اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، حتى أكل بعضهم بعضاً ، وكان بعضهم عوناً للإنجليز مثل « ميرزا إلهي بخش » صهر الملك ، وغيره ممن كانوا يتولون أعمالاً هامة في قيادة الثورة ، وهم في نفس الوقت خونة وجواسيس للإنجليز .

وثورة تحيط بها هذه الظروف كلها مصيرها حتماً إلى الفشل أمام قوم أتقنوا ضروب الحرب والكيد والتفرقة بين المواطنين. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة تلك الحادثة التي ترينا كيف كان الإنجليز يحاربون بكل الأسلحة الممكنة ، وهذا شأنهم دائماً ، فلا عجب .

لقد زوروا منشوراً بإسم الملك وزعوه في كثير من البلاد وقت قيام الثورة ، تضمن وعداً من الملك للمسلمين خاصة بأنه بعد الإنتصار سيوزع عليهم وحدهم الإقطاعيات الواسعة ، فلما علم الملك بذلك ركبه الهم حتى لتقول بنت له : إنها قامت في الليل فلم تجده على سريره ، فذعرت ثم ذهبت إلى المسجد الملحق بالقصر ، فوجدته جالساً يبكي ويتضرع إلى الله ؛ ثم علمت منه أنه ما استطاع النوم لهذا المنشور المزور عليه ، وفي الصباح ركب فيلاً ، ومشى في شوارع البلد أثناء الثورة ، يعلن أن ما نشر مكذوب عليه ، وأنه ينوي بعد الإنتصار أن يؤلف لجنة مشتركة من المسلمين والهندوس تختار بإسم الشعب من يكون ملكاً عليهم .

ويحسن بعد ذلك أن أضيف إلى ما تقدم مما ذكره المؤرخون للثورة رأي المرحوم مولانا أبي الكلام أزاد .

فهو يقول : إن قواد الثورة لم يتفقوا ، بل كان بعضهم يحسد بعضاً ويتآمر ضد أصحابه وزملائه ، في الوقت الذي كان الانجليز فيه متماسكين ، وإذا استثنينا بعض القواد المخلصين مثل « أحمد الله مدارسي » وأتباعه فإننا نجد أن كثيراً ممن قاموا للثورة قاموا لأسباب شخصية ، وظلم وقع عليهم أخيراً من الإنجليز ، فانقلبوا أعداء لهم بعد أن كانوا أصدقاءهم .

بعد فشل الثورة

وهكذا قدر للإنجليز أن ينتصروا على هذه المحاولة الأخيرة التي قام بها الأحرار من أجل بلادهم ، وحين انتصروا خلا لهم الجو ليفعلوا بالبلاد ما يريدون ، فماذا فعلوا ؟ وماذا لقيته البلاد على أيديهم ؟ ! بعد أن دفعوها دفعاً إلى الثورة بأعمالهم التي سبق الحديث عنها كما صرح بذلك كثير من مؤرخيهم حيث يقول « مستر ليكي » « إن كان في العالم ثورة على حق فهي ثورة مسلمي الهند وهنادكها(1) » نعم كانوا على حق . ولكن مع ذلك فعل الإنجليز ـ بعد انتصارهم ـ بهم ما فعلوا » .

ومما لا شك فيه أن الثوار حين قاموا بثورتهم انطبعت تصرفاتهم بطابع الثورة التي تسيطر عليها العواطف المتأججة ، عواطف الحب للوطن التي دفعتهم إلى التضحية ، وعواطف الحقد التي دفعتهم إلى صب غضبهم على ظالميهم ، ومغتصبي بلادهم وأقواتهم وحرياتهم ، فوقعت تصرفات هوجاء ، راح ضحيتها بعض الأبرياء من نساء الإنجليز وأطفالهم أيضاً ، ومن المعروف أن الثورة لا عقل لها ، وقد يرتكب فيها كثير من الأشياء التي تمليها الظروف ، وإن تكن خارجة عن حدود العقل والحكمة .

ولا شك أن الإنجليز حين الثورة قتلوا كثيراً كما قتل منهم الكثير ، فهذه طبيعة الثورات والحروب ، ولكن مما لا يشك فيه عاقل أيضاً أن الثورة حين تنهزم أمام جهاز حكومي منظم مسؤول ، فإن هذا الجهاز لا

---

(1) حكومة خود اختياري ص32 .

يصح له أن يتصرف تصرفات الرعاع ، ولا أن يتعدى في تصرفاته محاكمة القائمين بأمر الثورة الـذين قادوهـا ، إن كان يريد الإنتقـام ، على أن تكون محاكماتهم داخل نطاق الظروف المحيطة بهـم ، وعلى أن تجـري المحكامات في هدوء ، بعيدة عن اشتعال العواطف الذي هو من طبيعة الثـورات ، لا من طبيعـة الحكومـات . لا سيما إذا كانـت الثـورة قد فشلت ، والعواطف قد هدأت ، فإذا عاقبت الحكومـة الثـوار فإنـه لا يصح مطلقاً أن تنزل إلى الدرك الذي تعيبه على الرعاع الثائرين ، ولا يصح كذلك أن تتفنن في أنواع التنـكيل حتى تفـوق أشـد المجرمـين إجراماً ، وتأتـي من الأفعـال مالا يمـكن أن يفعلـه إنسـان لا يعـرف مسؤولية ، ولا يحمل ضميراً .

فهل سار الإنجليز - وهم القـوم المتمدنـون المتحضرون ، الـذين تعالوا على الشعوب بما يدعونـه من تمـدن وحضـارة - هل ساروا بعـد انتصارهم سيرة الحكومة المتمدنة ؟! وماذا فعلوا في الشعب الذي ظلموه أولاً ، ثم كبتوا أنفاسه حين قام يريد التنفس الحر ؟.

لقد فعل الإنجليز بالثائرين بل وبغيرهـم ما لا يمكن لعقـل أن يتصوره ، ولا لضمير أن يتحملـه ، حتى وجـد التـاريخ من عقـلاء الإنجليز أنفسهـم من يتبرأون من أفعـال بنـي قومهـم الـوحشية . ويصمونها بأبشع ما يمكن أن يوصم به عمل في التاريخ .

ولقد كتب المؤرخون - ولا سيما الإنجليز كثيراً - عنها ، وكانـوا في جملة كتاباتهم متحاملين على الهند بالطبع ، فسموا أهل الوطن المطالبين بحقهم بغاة !! ووصفوهم أوصافاً قبيحة ! وأخذوا يبررون أفعال بني

قومهم ، ويحللـون الحـوادث تحليلاً مناسبـاً لأفكارهـم ومصالحهـم ، ويشوهون كل وجه جميل لهذه الثورة ، وساعدهم انتصارهم وحكمهم للبلاد مدة طويلـة على أن يكتبـوا ما يشـاءون ، ويقلبـوا الحقائـق كما يريدون ، وأن يحولوا بين الكتاب الآخرين ومـا يريدونـه من إظهـار الحقائق .

ومـع ذلك كلـه ، ومـع حرصهـم على أن تبـدو أفعالهـم سليمـة ومعقولة ، فان سوء تصرفاتهم ووحشيتهم ، وخروجهم على كل قانون وضمير وإنسانية ، كل ذلك لم تستطع الأساليب المصطنعـة أن تخفيه كله ، فظهر بعضه في أقوالهم ومذكراتهم ، وهذا البعض هو الذي يمكن لنا أن نستشهد بشيء منه على ما فعل هؤلاء بالهند وقوادها وأهلها حين انتصروا عليهم ؛ لأن الحقيقة لا بد أن يجيء الله لها من يجلوها يوماً من الأيام ، وقد كتب مؤرخ أمريكي هو « مستر إدوارد تومس » كتاباً عن تاريخ الهنـد سماه «The other side of medal » وترجمتـه الحـرفية « الجانب الأخر للميدالية » كما تقـول : الجانـب الأخـر للصـورة . . صور فيها الناحية الأخرى التي حرص الإنجليز على إخفائها في الهند ؛ لأنها النواحي التي تدمغهم بالظلم والوحشية ، وعلى هذا الكتاب يعتمد كثير من مؤرخي الهند كما نقلنا وسننقل عنه الكثير . .

وإذا كان المسلمـون قد تحملـوا النصيب الأكبـر في الظلـم قبـل الثورة ، ثم قاموا بالعبء الأكبر فيها ، فإنهم تحملوا كذلك من ضروب الإنتقام والتنكيل ما لـم يتحمله غيرهم . .

ففي دهلي : قبضوا على الملك ومن كانوا معه في مقبرة همايون من زوجه وأولاده وحاشيته ، وساقوهم إلى البلد مقيدين في ذلة وانكسار ،

وفي الطريق أطلق الضابط « هيدسن » بندقيته على أبناء الملك وأحفاده ، فقتل ثلاثة منهم هم : « ميرزا مغل » ، وميرزا خضر وميرزا أبو بكر »[1] وقطعوا رؤوسهم وتركوا جثثهم في الطريق مدة ، ثم سولت لهم نفوسهم المتحضرة المتمدنة !! أن يتجاوزوا في التمثيل بالقتل ، والتنكيل بأبيهم الشيخ المتهدم إلى حد تشمئز منه النفوس . .

فعندما قدموا الطعام للملك في سجنه وضعوا رؤوس الثلاثة في « إناء » وغطوه ، وجعلوه على المائدة أمامه ، وكانت مفاجأة مذهلة . بل قاتلة حين كشف الغطاء ، فلم يجد طعاماً ، بل وجد بدله رؤوس أبنائه الثلاثة ، وقد غطيت وجوههم بالدم الأحمر القاني !!! وهنا يتمالك الشيخ الضعيف نفسه ، وتظهر فيه طبيعته الملكية المغولية ، طبيعة الأنفة والعزة ، ويقول في رباطة جأش غريبة : « إن أولاد التيموريين البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم محمرة وجوههم » ، واحمرار الوجه في إطلاق اللغة الأوردية كناية عن الظفر والإنتصار ، فيقولون : جاء محمر الوجه : أي ظافراً .

---

(1) جاء في كتاب « دهلي كي جان كنى » أي (دهلي في النزع الأخير) لحسن نظامي أن ميرزا إلهي بخش ذهب إليهم في صحبة الضابط هدسن ليقنعهم بضرورة الخروج من المقبرة حتى خرجوا ، ولما ضربهم « هدسن » بغدارته وسقطوا يتمرغون في دمائهم وقف على رأسهم فرحاً بهذا المنظر ، ثم أخذ في كفه حفنة من دمهم وشربه ، وقال : لو لم أفعل هكذا لظلت نفسي في ثورتها . لقد كنت أثور كلما سمعت أسماء هؤلاء .. ثم قطع رؤوسهم ، وعلق أجسامهم على مكان الشرطة « كوتوالى » وقدموا الرؤوس إلى أبيهم ، ثم بعد ذلك علقوها على بوابة لا تزال معروفة للآن في نيو دلهي بإسم « خونى دروازه » أي بوابة الدم وهي قائمة وحدها بجانب الشارع تحدث بهيكلها وبإسمها عن فظائع الإنجليز .

وبعد ذلك أخذوا هذه الرؤوس ، وعلقوها على بوابة كبيرة تسمى للآن في تيودلهي بإسم « خوني دروازه » أي بوابة الدم .

ومع منافاة هذا العمل لأبسط قواعد الإنسانية والمروءة ، فإن القائد الإنجليزي العام في البنجاب « مونتجمري » أرسل إلى القاتل « هيدسن » ، لا ليلومه أو يؤنبه على هذه الوحشية ، بل ليهنئه بها فيقول :

« عزيزي هيدسن . أهنئك بما قمت به من القبض على الملك ، وقتل أولاده ، وأرجو أن تقتل كذلك أبناء الأسرة المالكة الآخرين »(1) .

واعتقد أن أي إنسان مهما كان حين يقرأ هذه الحادثة ، لا يجد ألفاظاً تساعده على وصف ما فيها من خسة ودناءة ووحشية ، في الوقت الذي عجب فيه أيما إعجاباً بتماسك هذا الملك الضعيف ، حين فوجىء بهذا المنظر على مائدة الطعام !! نعم ، وهكذا فعل مدعو المدنية والحضارة !!

وبهذه الروح الخبيثة روح الإنتقام والتشفي أنهالوا على دلهي وأهلها يدمرون ويقتلون وينهبون ، حتى بلغ عدد قتلاهم سبعة وعشرين ألفاً(2) . وحتى هدموا أكثر أحياء دهلي وتحولت إلى أنقاض ، وقد احتلوا المسجد الجامع بخيولهم ، وعطلوا الصلاة فيه لعدة سنين ، وكانوا لا يجدون إنساناً يظنون أنه مسلم بلحيته ، أو قصر ملابسه إلا قتلوه ، حتى

---

(1) مجلة الضياء نقلاً عن كتاب « ادورد تومس » The other side of medal .

(2) كتاب نقش حياة لمولانا مدني ص47 جـ2 نقلاً عن « تبصرة التواريخ » وماضي العلماء المجيد

تكدست الجثث في الشوارع ، وجرت الدماء أنهاراً ، وقد كتب بعض الإنجليز أنهم كانوا يتحاشون الخروج إلى الشوارع ، حتى لا تؤذي هذه المناظر نفوسهم !!

جاء في كتاب الثورة الهندية لمولانا فضل حق[1] :

« والنصارى بعد استيلائهم على البلد ، عمدوا إلى أخذ الملك وأولاده وأحفاده ، وهم لم يبرحوا مستقرهم ، مستوثقين بمن غرهم بأكاذيبه وسرهم ، وكان في تلك المقبرة مغروراً مسروراً ، فأضحى مأسوراً مكموداً مصفوداً ، وأخذوا من معه من الأبناء والأحفاد ، مقرنين في الأصفاد ، وذهبوا به إلى البلد ، مع من معه من الأهل والولد ، فاغتال أحد ضباطهم « هيدسن » وذهبوا به إلى البلد ، مع من معه من الأهل والولد ، فاغتال أحد ضباطهم « هيدسن » أبناءه وأحفاده بالبندق أثناء الطريق ، وأهدوا رؤوسهم مقطوعة ، إلى رئيسهم (الملك) في خوان موضوعة ، وتركوا جثثهم منبوذة ، ثم علقوا تلك الرؤوس مجذوذة ، وحبسوه في بيت من سم الخياط ، ثم نفوه من ممالك واسعة ، إلى بلاد شاسعة (رنجون في بورما) مع زوجه التي كانت لهم موالية ، وقد خابت فيما طمعت ، وسلبت أموالاً قد جمعت وقد شينت ، بعد ما كانت زينت[2] ، وقتلوا كل من وجدوا من قومه بالضرب والخنق ، كما قتلوا ممن عداهم كثيراً من الخلق ، ولم ينج من هؤلاء الضعفاء إلا من فر مستخفياً ، متوارياً بالليل سارياً ، وقليل ما هم » .

---

(1) ص ص 379 وما بعدها .

(2) كان اسمها « زينت محل » وقد قصد بهذا التورية .

« ثم النصارى قتلوا من كان في نواحي المصر وتلك الأرجاء ، من الأراكن أعضاء الحكومة والرؤساء ، وغصبوا أرضهم وعقارهم ، ومساكنهم وديارهم ، وأمتعتهم وأموالهم ، وأسلحتهم وأثقالهم ، وأفراسهم وأفيالهم ، ثم أهلكوهم وعيالهم جميعاً ، ثم إنهم حشروا جنودهم بكل سبيل ، ليأخذوا من فر بالأخذ الوبيل ، فأخذوا كثيراً من الهاربين ، وما نجا منهم إلا القليل ، ونهبوا كل ما كان معهم حتى الجلابيب ، ثم بلغوهم عظماءهم ، فقبضوا عليهم بالخنق والتقتيل ، ولم يذر الفتك شباناً ولا ضعافاً ، حتى بلغ القتلى والخنقى آلافاً . . »

« وجل من ابتلي بظلم الظلام ، أهل الإيمان والإسلام ، وأما الأهاند « الهندوس » فقد سلموا ، إلا من ظن به أنه ممن يعاند ، ولم يسلم من المسلمين إلا من فر من بيته مهاجراً ، ومن كان للنصارى ناصراً ، وفي دينه قاصراً ، أو من كان لهم جاسوساً ، ومن رحمة الله ميئوساً ، كعامل الملك(1) ، الذي يتولاهم ، بل سلطهم وولاهم » .

« وقد خرجت الخواتين(2) ، والمحصنات من النساء ، في هذه الداهية الدهياء ، وعجزن ـ وفيهن عجائز وعجازى ـ عن الفرار للإعياء ، فمنهن من هلكت من غلبة الفرق ، ومنهن من أهلكت نفسها بالغرق ، صوناً لعرضها وحرمتها ، وحفظاً لعفتها وعصمتها ، وأكثرهن صرن سبايا ، وابتلين برزايا ، فمنهن من استرقها بعض الجهال

(1) يريد وزيره حكيم أحسن الله خان ومثله كذلك ميرزا إلهي بخش صهر الملك .

(2) « جمع خاتون » وهي كلمة تلحق بإسم النساء كما تلحق كلمة « خان » بالرجال للتعظيم .

(الأراذل) ، ومنهن من بيعت بأبخس الأثمان ، وكثير منهن هلكن عطشاً وجوعاً ، وكثير عبن فلم يستطعن رجوعاً ، ولم ير لهن أثر ، ولم يسمع عنهن خبر ، وكثير أصبحن بلا أولياء ، من بعولة وآباء ، وإخوة وأبناء ؛ إذ كان كل يوم من هذا الزمن الكريه ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فكم من نسوة أصبحن أيامى ، وأطفال أمسوا يتامى ، وكم من ثكلى تبكي وتنوح ، وثكلان تعبر عبراته عن حزنه وبسره يبوح ، وقد صار البلد قاعاً صفصفاً ، وأهلوه تفرقوا وتمزقوا ، وذهبوا أيدى سبا ».

ذلك وصف كتبه شاهد عيان . آثرت أن أنقله على طوله ، لما فيه من صدق في الخبر ، ودقة في التصوير ، تغنيني عن كل تعقيب .

ولننتقل إلى أقوال الإنجليز أنفسهم :

يقول « سبنسر وولبول » : إن ما فعله نادر شاه الوحشي بدلهى من النهب والسلب والقتل تجاوزه الإنجليز بكثير ، بعد ما استولوا على دهلى ، ولقد نصبوا المشانق العامة في الشوارع ، وصلبوا ثلاثة آلاف رجل ، كان منهم تسعة وعشرون من الأسرة الملكية[1] :

ومثل هذا القول قاله « ألفنستن » وكان من القواد الذين قادوا حملات التعذيب ، ويظهر أنه كان يتباهى ويفتخر بهذا العمل ، وقد بلغ بهم التبجح إلى حد أن يكتب « نكلسن » إلى « إدورد » يقول :

---

(1) عن نقش حياة لمولانا مدنى ص47 جـ2 .

علينا أن نسن قانوناً يبيح لنا إحراق الثوار وسلخ جلودهم وهم أحياء ؛ لأن نار الإنتقام التي تأججت في صدورنا لا تخمد بالشنق وحده[1] » وهل كانوا في حاجة إلى قانون ليفعلوا ذلك ؟!!

ومما يجدر ذكره أن « نكلسن » هذا هو الذي كتب يمدح « والد مرزا غلام أحمد » قادياني ، ويقول : « إن في « قاديان » تسكن هذه الأسرة التي وجدنا فيها دون جميع الأسر الوفاء للإنكليز » . !! ومرزا غلام أحمد قادياني هو الذي أدعى النبوة ، وأبطل فرض الجهاد ، وملأ كتبه بالثناء على الإنجليز مفتخراً بأنه وأباه من قبل من أصدقائهم الأوفياء ، ويتبعه القاديانيون في الهند وغيرها ، ويكتب « مجيندى » في مذكراته :

« وبتنا تلك الليلة ، وكنا حراساً على المسجد الجامع في دهلي ، نمضي أكثر أوقاتنا في قتل الأسرى الذين قبضنا عليهم صباحاً ، نقتلهم بالرصاص أو بالشنق ، ولكن مع ذلك كان يظهر على وجوههم آثار الشجاعة والصبر ، مما يدل على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لهدف عظيم ولذلك كانوا لا يخافون من الموت أو القتل » .

ويذكر مستر « تومسن » للسير « هنري كوتن » عن أحوال بعض المسلمين المسجونين في بنجاب ما يأتي :

أتاني ذات ليلة عسكري من طائفة « السيك » ، وبعد ما حياني بالتحية العسكرية خاطبني قائلاً : لعل الرئيس يحب أن يشاهد

---

(1) ماضي العلماء ص85 نقلاً من كتاب أدورد تومس الأمريكي « الوجه الثاني . . » The othe side of medal

المسجونين !؟ فقمت وهرولت مسرعاً إلى السجن ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض ، يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، ووجدت أجسامهم قد أحرقت بواسطة النحاس الملتهب من رؤوسهم إلى أقدامهم ، وتفوح منهم الروائح الكريهة ، فلما رأيت هذا المنظر المفزع أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليهم الرصاص من « الطبنجة » التي كانت معي . فلما سمع « كوتن » هذه القصة المؤلمة سأل « تومسن » : ولكن ماذا فعلت بالذين تولوا كبر هذا التعذيب الشنيع ؟! قال : ما فعلت شيئاً . . !!

ويعلق المؤلف الأمريكي على هذه الحادثة فيقول : « منظر فاجع : أناس يحرقون أحياء بالنار المشتعلة ، والإنجليز والسيك قائمون حولهم يتلذذون برؤيتهم كأنهم في منتزه عام ! »(1)

نعم لقد فقد الإنكليز بعد انتصارهم كل إحساس بمعاني الإنسانية ، وتجاوزوا في انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان . رأوا أن القتل بالرصاص سهل على المقتولين ، فاستعملوا المشنقة ، وكانوا يشنقون في كل مكان ، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون ، وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ، ثم يطلقونها فتتناثر أشلاؤهم في كل مكان ، وكانوا يلفون أجساد الضحايا المسلمين بجلود الخنازير ،

---

(1) كتاب ماضي العلماء ص59 نقلاً عن كتاب إدورد تومس « الوجه الثاني » ص 41،40 وعن مجلة الضياء .

ويخيطونها عليهم ، أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونهم ، وكانوا يجبرونهم على فعل الفاحشة بعضهم ببعض ، وكانوا يحشرون الناس في البيوت ثم يشعلون النار فيها ، فيتحول المساكين إلى رماد رجالاً ونساء وأطفالاً !! ، وكانوا . . وكانوا . . . لم يتركوا وسيلة للتنكيل والتعذيب يتفنن العقل في إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم ، ولم يفرقوا بين ثائر ومهادن ، فالكل عندهم ثائر ، وأي جندي هندي بالمشرق يسأل عما فعله أي جندي بالمغرب !! صور مخزية تمت على يد مدعي الحضارة ، ستظل في التاريخ وصمة عار على جبينهم . وكم على جبينهم من وصمات !

ففي «بشاور» قبض على 120 جندياً بتهمة أنهم التحقوا بالثوار ، ولم يكن أحد منهم قد اعتدى على أي إنكليزي ، ولكنهم فقط اضطروا للإلتحاق بالثوار ، فكتب قائد البنجاب « جنرال نكلسن » إلى « إدوارد » حاكم « بشاور » يقول له : إني أرجو منك العفو عن 55 أسيراً من هؤلاء ، لأن ضباطهم أكدوا لي أنهم ما شاركوا في الثورة بأي نصيب ، وأما الباقون فليصهروا بنيران المدافع والقنابل ، فرد عليه يقول : « إنه لا يمكن العفو عنهم ؛ لأنهم كانوا يقاتلون في صفوف الأعداء ، وبودي أن أجزيهم جزاء قاسياً حتى يعتبر بهم المعتبرون ، ورأيي أن أقتل ثلثهم من رؤسائهم وأشرارهم ، أما الباقون فلا أرى إلا أن أعاقبهم بأنواع شتى من العذاب أقلها الحبس ثلاث سنوات »(1) .

---

(1) ماضي العلماء المجيد ص61 نقلاً عن كتاب لإدورد تومس « الوجه الثاني » ص 34، 36 . وعن مجلة الضياء .

وكتب الضابط « لورد روبرت » رسالة إلى أمه يقول لها :

« سافرنا من « بشاور » إلى « جهلم » مشاة ، نقتل الثوار في الطريق ، ونجردهم من الأسلحة ، ولما وجدنا أنهم لا يبالون بالشنق ، كنا نشدهم على المدافع ونطلقها فتتناثر أجسامهم ، ولا ريب أن هذا أسلوب فظيع ، لكن لا مندوحة لنا عنه ، وقد حدث يوماً أن انتبهنا على رعد المدافع ، وفي الوقت نفسه سمعنا أنيناً ، فاستفسرنا عن ذلك ، فعلمنا أن أحد الضباط عبأ مدفعه ، وشد على فوهته أحد الثوار . ثم أطلقه فتناثرت أجزاء الرجل في الهواء ، وأصاب رأسه المتطاير أحد المارين ، فصرخ من شدة ما أصابه من الألم . . »[1]

وكتب مستر دي لين مدير جريدة « تايمز أف أنديا » بناء على ما جاء في أجندة « رسل »[2] :

« كان المسلمون الأحياء يخاطون بجلود الخنازير ، ثم يخيطونها عليهم أو يدلكونهم بشحومها ، ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كان يجبر أهل الهند على أن يفعل أحدهم الفاحشة بزميله ، وهذه التصرفات ستظل وصمة عار على جبين المسيحيين الإنكليز ، لا تمحى على مر الأيام »[3] .

---

(1) المصدر السابق .
(2) ص45 المطبوعة في مايو سنة1858 .
(3) نقلاً عن كتاب « ماضي العلماء المجيد » ص60 جـ4 .

يقول « ادورد تومس » الأميركي :

قد كان كل جندي أهلي متهماً بالإشتراك في الثورة ، وقتل نساء الإنكليز وصبيانهم ، سواء كان بريئاً أم مذنباً ، بعيداً عن المعركة أم قريباً منها ، حتى إن الجندي في « بشاور » بأقصى الشمال يسأل عن مقتول إنكليزي في « دهلي » .

وذكر مستر «مجندى » في مذكراته حادثة فظيعة شاهدها بعينيه فقال : « إن الإنكليز والسيك كانوا يطعنون جندياً هندياً بالحراب ، لكن طعناتهم لم تقض عليه نهائياً ، وبقي فيه رمق من الحياة ، وحينئذ جمعوا الحطب وأشعلوا فيه النار ، ثم ألقوا الهندى المسكين فيها ، ولبثوا يشاهدون هذا المنظر بكل فرح وسرور »(1) .

وكتب اللورد « كاينتك » إلى الملكة « فكتوريا » وكان حاكماً في الهند يقول : ـ « إنهم قتلوا خمسين ألفاً من الأهالي من غير ما إثم ارتكبوه ، أو ذنب اقترفوه »(2) .

فكم قتلوا إذن ممن ظنوهم قد اشتركوا في الثورة ؟!!

وكتب « مستر كوبر » وكان مشرفاً على القوات في شمال الهند :

في أول أغسطس سنة 1857 م حل عيد الأضحى ، فكانت فرصة لإبعاد الجنود المسلمين في الجيش الإنجليزي ، حتى يخلو الجو لتعذيب

---

(1) ترجمة مجلة الضياء عن المؤرخ الأمريكي .

(2) عن المصدر السابق .

الثوار المسلمين دون أن يجدوا من يعطف عليهم ، فأعطيناهم - أي المسلمين - إجازة لقضاء عطلة العيد في « أمرتسر » ، وبقي ضابط مسيحي مع السيك الأوفياء لنا ، وأخذوا في قتل المسلمين المقبوض عليهم بكل اطمئنان ، ولكن ظهرت أمامهم مشكلة دفن هذه الجثث ، حتى لا تظهر روائحها الكريهة فتؤذى الناس ، ثم حلت المشكلة حين وجدوا بئراً جافة يرمونها فيها ، فأخذوا يقتلون عشرة بعد عشرة رمياً بالرصاص ، فلما بلغ عدد القتلى 150 قتيلاً كان القاتل قد تعب ، وكان شيخاً كبير السن ، فأعطوه فرصة ليستريح ، وبعد قليل استأنفوا عملية القتل ، وحين بلغ العدد 237 جاء الضابط المشرف على السجن ، وأخبرهم أن الباقين من الثوار لا يستطيعون الخروج من السجن ، فذهبوا إليهم وكان منظراً مرعباً حين فتحوا الباب فوجدوا من فيه جثثاً هامدة ، وكانوا 45 ماتوا من شدة الفزع والحرارة ، وكان الكناسون يتولون إلقاء هذه الجثث في البئر »[1] .

ومن الغريب أن « لورنس » وروبرت » ومونتجمري كتبوا إلى مستر « كوبر » المشرف على هذه القوات يهنئونه بهذا العمل المجيد !!![2] .

ويقول المؤرخ الأمريكي « إنهم لم يكتفوا بالشنق بل كانوا يحرقون

---

(1) ماضي العلماء ص68 نقلاً عن المصدر الامريكي السابق ص70

(2) نقلاً عن المصدر السابق ص7 .

القرويين بعد أن يغلقوا عليهم بيوتهم ، ويشعلوا النار فيها ، فيصيروا رماداً »[1]

وكتب مندوب جريدة « تايمز أف إنديا » يقول :

« لقد تركت السير في شوارع دهلي بعد ما رأيت بالأمس حادثاً مفجعاً ، رأيت جثمان أربع عشرة امرأة من النساء المحجبات ملقاة في الطريق ، وقد قتلهن أزواجهن ، خوفاً على عفتهن من الجنود الإنكليز ، ثم انتحر الأزواج بجانبهن . »[2] .

وهذا الخبر وحده كاف في تصوير ما أصاب الأهالي من فزع وجزع ، نتيجة الأعمال الوحشية التي قام بها الإنجليز . .

ويقول « إدوارد توماس[3] » : كان الجنود الإنجليز ينهبون دكاكين الخمور ، ويشربون ما فيها حتى يسكروا ، ثم يخرجون إلى الشوارع يقتلون كل من يقابلهم بلا تمييز » .

وما أن شاع في الهند القتل والإحراق والنهب بدون تمييز ، حتى تحولت المقاطعات الشمالية خاصة إلى جحيم ـ أصدر الحاكم العام الإنجليزي أمراً لجنوده بتجنب الإحراق للقرى ، كما أمر الحكام بعدم تعذيب الأهالي الذين لا يحملون سلاحاً، وسلب حق الشنق العام من يد بعض الحكام الإنجليز الذين أساءوا التصرف في استعمال هذا

---

(1) نقلاً عن المصدر السابق ص63 .

(2) ماضي العلماء ص68 نقلا عن المصدر الامريكي السابق ص70 .

(3) ص70 من كتابه « الوجه الثاني » .

الحق . . كما أنه عين « جون جرانت » حاكماً لوسط الهند ، ليضع حداً للمجازر البشرية التي عمت المدن مثل إله أباد وكانبور وغيرهما ، ومع ذلك لم يخضع الجنود لأوامره ، وكانوا يستهترون به ويطلقون عليه إسم « الملك العطوف » ولم يبالوا به ، وقد حدث مرة أن الجنود الإنجليز كانوا راجعين من إحدى القرى بعد إحراقها ، وكان يرافقهم في مهمتهم بعض الجنود الهنود الأوفياء . ومع ذلك استداروا عليهم فقتلوهم رمياً بالرصاص دون مبالاة .

وفي هذه الحادثة قالت « تايمز أف إنديا » : « إن هذا تصرف وحشي » ، والأوامر الصادرة من الحاكم العام بمنع الإحراق العام والشنق العام ، وبتعيين حاكم لوسط الهند ليخفف من هذه الجرائم . . أقول هذه الأوامر نفسها أكبر دليل على إسراف الإنجليز في هذه الناحية إسرافاً دعا الرؤساء إلى اتخاذ مثل هذا الموقف ، ومع ذلك لم يستمع الجنود وضباطهم لهذه الأوامر ، واستمروا في طغيانهم يعمهون . . فقد استولى عليهم سعار الإنتقام من الثائرين وأهلهم وكل من اتصل بهم ، وسكروا بنشوة النصر ، فلم يقفوا عند حد في التنكيل بأهل الهند ، وذاقت منهم الويلات التي تقشعر لذكرها الأبدان .

ويكفي ما قدمناه نموذجاً لتصرفاتهم ، على أن قراء العربية ليسوا في حاجة كبيرة إلى ذكر تفصيلات كثيرة من هذا النوع ، فقد شاهدوا وقرأوا الكثير من تصرفات الإنجليز في بلادهم في ظروف كهذه ، ولو أن الذي فعلوه في الهند قبل مائة سنة قد يفوق كثيراً ما فعلوه في البلاد العربية التي نكبت باحتلالهم في هذا القرن .

محاكمة بهادر شاه وانتهاء الحكم الإسلامي

ويمكن القول بأنه لم تأت أواخر سنة 1857 م حتى كان الأمر قد تم لهم في الهند ، وسيطروا على الموقف في كل مكان ، وبدأوا بعدما مضت حدة الإنتقام الفوضوي في كل مكان يقيمون محاكم صورية ، لمحاكمة المتهمين بالثورة عليهم .

ويهمنا هنا محاكمة واحدة هي محاكمة الملك « بهادر شاه » ومعرفة ما انتهى إليه أمره فيها . . لقد قبضوا عليه وقتلوا ثلاثة من أولاده رمياً بالرصاص في الطريق ، وهم مقيدون مساقون إلى محبسهم ، وقطعوا رؤوسهم ، وقدموها في طبق كبير إلى والدهم الشيخ الضعيف ، ضمن أطباق الطعام التي كانوا يقدمونها له ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ واختاروا له حجرة ضيقة في قلعته وقصره الذي كان يحكم منه ، وأترك وصف محبسه للأستاذ صابر حيث يقول[1] .

« كان بهادور شاه يستمر في محبسه بحجرة ضيقة ، متربعاً على سرير بسيط، عليه تكية واحدة، وكان دائماً مستغرقا في تفكيره، حتى ما كان يحس بالإنجليز حين يجيئون عنده ، ينظرون إليه مستهزئين ، وعلى بعد ثلاثة أقدام كان يوجد رئيس الحرس ، وعلى باب الحجرة اثنان مسلحان ، وقد جردوه في حجرته من كل شيء حتى الورق والقلم ، وحتى اضطر مرة أن ينقش بعض الأبيات على الجدار ، وكان شاعراً

---

(1) نقلاً عن مقال له باللغة الأوردية بجريدة « الجمعية » لسان حال جمعية العلماء 6 اغسطس 1957.

مجيداً ، وهي أبيات تصور تفكيره ونفسيته في هذه الفترة العصيبة من حياته . يقول فيها : « إن القصر الذي أصبح الآن قفراً كان من قبل آهلاً بالسكان . والمكان الذي استولى عليه ابن آوى كان عامراً بالإنسان ، والمكان الذي لا نجد فيه الآن إلا الخزف والحصا والتراب كان مملوءاً بالجواهر واليواقيت، إن أحوال العالم تتقلب دائماً ، فأين كنت من قبل ؟! وأين أنا الآن ؟! إن الذي لا يذكر الله في رغد العيش ، أو في وقت الغضب والطيش ، لا يعد من الآدميين » .

وقد بدأت محاكمته في دهلي في 27 يناير سنة 1858 م ، وسيق كالمجرمين إلى ساحة المحكمة المؤلفة من الإنجليز ، وبدأت المحاكمة بالسؤال العادي : هل لك اعتراض على المحكمة ؟ فقال : لا . . . ، ثم وجهوا إليه التهم الآتية :

(1) أنه تعاون مع آخرين في الثورة ضد الشركة ، مع أنه كان يتقاضى مرتبه منها ، وكان عليه أن يكون وفياً لها !!

(2) أن ابنه ميرزا مغل تعاون مع آخرين ضد الشركة ، مع أنهم كانوا من رعاياها ، وعليهم أن يكونوا خاضعين لها ، لكنهم فيما بين 11 مايو ، وأول أكتوبر سنة 1857 م غدروا ، وأشاعوا أن بهادور شاه صار الحاكم للهند ، ودبروا المؤامرات مع « بخت خان » لقلب الحكومة الإنجليزية في الهند ، وأعانوا الجنود على ذلك !!

(3) حوالى 16 مايو أمر وشارك في قتل 49 من الإنجليز رجالاً ونساء وأطفالاً داخل القلعة ، كما حرص على قتل الإنجليز أياً كانوا . ووعد ببذل المكافأة على ذلك !!

وقد رد الملك ينفي هذه التهم جميعها ، وأنه كان لا سلطان له أثناء الثورة[1] ولكنهم استمروا في محاكمته ، واستطاعوا الحصول على مكتوبات تؤيد دعواهم ، كما أن بعض حاشيته وخدمه قد جندهم الإنجليز للشهادة ضده !!

ومع أنه من الثابت أن بهادور شاه حين تولى قيادة الثورة ، وأصبح في يده زمام الحكم ، كان أول أمر أصدره أنه لا بد من المحافظة على أرواح الإنجليز وأموالهم ، ويجب على كل واحد من الرعية أن يمسك عن الإعتداء ، وأنه بعد هذا الأمر لم يحصل اعتداء ما على غير المحاربين من الإنجليز ، كما اعترف بذلك بعض كتابهم[2] ، أقول بالرغم من ذلك فإن السادة المنتصرين لم يطيقوا صبراً على وجود الملك بدون محاكمة وبدون حكم .

فحين انتهت جلسات المحاكمة التي طالب المدعي العام فيها بإعدامه ، كان رأي الأكثرين من أعضائها ومن كبار القواد في الهند أن يعدم ، ولكن «لوردكايننك» عارض هذا الرأي ، ورأى أن يستبدل النفي بالإعدام ، وتم له ما أراد من نفيه خارج الهند .

وفي يوم الخميس 17 اكتوبر سنة 1858 م نفذ أمر النفي ، ورحل هو وأسرته[3] وبعض أفراض حاشيته إلى مدينة « رنكون » عاصمة بورما

---

(1) كتاب «محاكمة بهادور شاه لخواجه حسن نظامي ص 2,1 .

(2) كما جاء في العدد الخاص عن جريدة . « نئي دنيا » اي الدنيا الجديدة بمناسبة عيد استقلال الهند الصادر في 16 اغسطس 1957 م .

(3) منها زوجته زينت محل وأولاده جوان بخت ، كلثوم زماني بيجم ، رونق زماني بيجم ، وابن صغير ثان هو جشيد بخت .

وكان عدد المرحلين 35 فرداً . وحينما نزلوا به في « رنكون » أركبوه عربة مكشوفة للجماهير ، وساروا به إلى مقره في شارع كلكتا في أطراف المدينة ، وخصصوا له مكاناً لمحبسه ، ولزوجه وأولاده مكاناً بجانبه ، ووضعوا الجميع تحت حراسة شديدة(1) .

وفي أول نوفمبر سنة 1858 م في عهد الملكة فكتوريا صدر قرار بنقل حكم الهند من يد الشركة إلى يد الحكومة البريطانية ، وتم تعيين أول حاكم عام من قبل الملكة وهو لورد « كايننك » وأعلنت الملكة على البلاد البيان التالي(2) : -

من الملكة إلى الأمراء والزعماء والأمة الهندية . .

نحن فكتوريا حامية العقيدة - بفضل الله - ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا ، والمستعمرات وملحقاتها في أوروبا وآسيا وأفريقيا أمريكا واستراليا ، نعلن بهذا ونصرح بأنه بناء على نصيحة المجلس وموافقته ، قد أخذنا على عواتقنا الحكومة المذكورة ، وبهذا ندعو جميع رعايانا في داخل حدود هذه الأراضي أن يكونوا مخلصين موالين حق الموالاة لنا ولورثتنا وخلفائنا ، وأن يقدموا خضوعهم إلى سلطة الذين سنقوم بتعيينهم بعد من آن لآخر . . . ومن أجل هذا قد عينا « شارلس جان فيكونت «كايننك» أول وال وأول حاكم عام على أراضينا ، لكي يدير شؤون حكومتنا بإسمنا . . . » وجاء فيه « ثم إننا قد وافقنا وأبقينا

(1) ص 44 من كتاب « دهلي كي سزا » بالأوردية ومعناه « عقاب دهلي » لخواجه حسن نظامي

(2) ملخصاً من كتاب المسألة الهندية للأستاذ عبد الله حسين .

في الهند جميع المعاهدات والتعهدات المعقودة معهم تحت سلطة شركة الهند الشرقية الموقرة ، ولسنا نريد مزيداً من التوسع عن ممتلكاتنا الحالية . . وسنحترم ما للأمراء الوطنيين من الحقوق والمكانة أسوة بنا (!!!) .

ونحن لا نعتزم أن نفرض عقيدتنا المسيحية على أحد من رعايانا ، الذين سوف ينعمون بحماية القانون ، في غير فارق بين الأديان وفي غير محاباة (وقد اضطرت الملكة لهذا نظراً لما اقترفته حكومة الشركة من قهر الناس على الدخول في المسيحية كما سبق بيانه) . . ونحن نبدي أسفنا الشديد لما نزل بالهند من أعمال الرجال الطامعين الذين خدعوا مواطنيهم بالأنباء الكاذبة ، وقادوهم إلى العصيان الذي قمعناه بقوتنا (وهذه عادة الإنجليز كلما احتلوا بلداً سموا أصحابه المدافعين عن حريتهم بالبغاة الكذابين الطامعين . . ولا ندري من الباغي الكذاب الطامع ؟! ولكن متى عرفت لغة الإستعمار معنى الحياء ؟!)

ثم تقول : « ونحن نبسط عفونا على هؤلاء الذين يرغبون في العودة إلى واجباتهم العادية ، ولكننا لن نعفو عمن باشر قتل الرعايا البريطانيين (!! ولكن الآلاف الذين قتلهم البريطانيون بصورة بشعة لا حساب لهم ولا قيمة !!) ، أما الذين قبلوا مختارين إيواء القتلة مع العلم بجنايتهم ، أو الذين كانوا في الثورة بمثابة زعمائها أو المحرضين عليها فإننا نضمن بقاءهم أحياء على أن يحاكموا ، وستقدر العقوبات عليهم بمراعاة جميع الظروف التي حملتهم على طرح الولاء لنا (!!) . . أما أولئك الذين يثبت أنهم قد ارتكبوا جرائمهم بسبب تصديقهم الأنباء

الكاذبة التي كان ينشرها ذوو الأغراض فسيعاملونْ بقدر كبير من التسامح ، أما بالنسبة لجميع الذين حملوا السلاح ضد الحكومة فإننا نعدهم ـ بإعلاننا هذا ـ بالعفو الشامل غير المقيد ، وتناسي كل ما اقترفوا ضدنا وضد تاجنا وكرامتنا (هكذا!!!) . . وسيمتد هذا العفو إلى جميع الذين يؤدون هذه الشروط قبل أول يناير التالي . . . وحين يأذن عفو الله بأن يعود السلام إلى الهند ، فإننا نشهد الله على أننا سنمضي بالبلاد الهندية في طريق التقدم والسلم والنهوض بالأعمال العامة . الخ » .

* * *

وبذلك دخلت الهند رسمياً ضمن مستعمرات التاج البريطاني ، وظلت كذلك حتى اضطر الإنجليز للجلاء عنها سنة 1947 م وأعلنوا استقلالها في 15 أغسطس من هذه السنة . . .

وبودي ـ أخيراً وبعد كل ما تقدم ـ أن أضع أمام القارىء صورة مجملة لعهد الشركة ، ثم لعهد الحكومة في الهند ، كتبه « ول ديورنت » في كتابه « قصة الحضارة »(1) :

« كانت شركة الهند الشرقية قد تأسست في لندن عام 1600 م ، لتشتري منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة ، وتبيعها بأثمان مرتفعة بأوربا . وقد أعلنت الشركة عام 1686 م ، عزمها على إقامة مستعمرة إنجليزية واسعة في الهند ، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم

---

(1) من ص 40 جـ3 ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .

إلى الأبد ، وأنشأت مراكز تجارية في مدراس وكلكتا وبمباي ، وحصنتها وجاءت إليها بجنود ، وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد « كلايف » في قبول الهدايا التي بلغت قيمتها أحياناً مائة وسبعين ألفاً من الريالات ، قدمها له حكام الهند المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم بالإضافة إلى تلك الهدايا بجزية سنوية ، تعادل مائة وأربعين ألفاً من الريالات وعين الأمير جعفر حاكماً على البنكال ، لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين من الريالات ، وراح يضرب كل أمير وطني بالآخر ، ويضم أملاكهم إلى حظيرة شركة الهند الشرقية شيئاً فشيئاً ، وأدمن أكل الأفيون ، واتهمه البرلمان ، وبرأه ، ولكنه أزهق روحه بيده سنة 1774 م . وأما « وارن هستنجز » وهو شجاع علامة قدير فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغاً كبيراً يقدر بربع مليون ريال ، ضريبة عليهم دفعوها في خزينة الشركة ، وقبل الرشاوى لقاء وعد بألا يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضي التي لم تستطع دفعها واحتل « أود » بجيشه ، ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف من الريالات ، وتسابق الهازم والمهزوم في الرشوة ، وفرضت على أجزاء الهند التي خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراض بلغت خمسين في المائة من وحدات الإنتاج ، بالإضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان ، وباع آخرون أبناءهم ليسدوا ما كانوا يطالبون به من ضرائب متصاعدة ، يقول ماكولي « جمعت في «كلكتا» أموالاً طائلة في وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليوناً من الأنفس البشرية إلى قصى حدود الشقاء ، نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا في جو من

الطغيان ، إلا أنه لم يبلغ بهم كل هذا المدى » . فما جاءت سنة 1857 م ، حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالي الشرقي من الهند إفقاراً أوغر صدور الأهالي ، فشقوا عصا الطاعة في ثورة يائسة ، وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت العصيان ، وتولت هي الحكم في الأراضي التي سيطرت عليها . واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضاً سخياً للشركة و أضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام في الهند ، ولقد كان هذا فتحاً للبلاد غاشماً صريحاً » . .

كان هذا تصويره الإجمالي لعهد الشركة الذي انتهى بضم الهند لمستعمرات التاج ، ونحن نريد أن نقف بهذا الجزء من الكتاب إلى انتهاء الحكم الإسلامي ، على أن نتبعه إن شاء الله بجزء آخر عن الهند في عهد الإحتلال ، وبعد الإحتلال ، وما شاهدته أثناء إقامتي فيها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أعلق على هذا العهد الذي قطعته ملكة بريطانيا لأهل الهند في إعلانها السابق ، ولا أريد أن أتولى التعليق بنفسي بل أتركه لهذا الكاتب المؤلف الغربي « ول ديورنت » الذي يقول في إجمال :

« وقد عاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند . . ولئن حارب الانجليز مائة وإحدى عشرة حرباً في الهند ، مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها ؛ ليتمموا فتحها ، لقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات في كلكتا ، ومدراس ، وبومباي ، ولاهور ، والله أباد ، ونقلوا من انجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبوا الشرق بروح الغرب الديموقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً في

إطلاع العالم على ما شهدته الهند في ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة ، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً ، مكن لطائفة من الحكام المتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام ، قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية ، وكان ثمن هذه الخيرات طغياناً إقتصاديا ، قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها ، فلا تكفيهم طعاماً ، وكان ثمن هذه كذلك طغياناً سياسياً كان من أثره ـ وقد جاء بعد طغيان أورنكزيب الضيق الأفق بزمن قصير(1) أن يميت روح الشعب الهندي قرناً كاملاً » .

ونعود بعد ذلك إلى ملك الهند المسلم الذي نفي إلى « رانكون » :

لقد انتهى الحكم الإسلامي في الهند ، ووضع الإنجليز نهايته على أيديهم بعدما استمر ثمانية قرون ونصف قرن ، وتخلصوا من آخر ملك مسلم فيها ، ونفوه مع أهله وحاشيته . . وظل في محبسه المنعزل حتى وافته المنية في عصر يوم الجمعة 14 جمادى الأول سنة 1279 هـ ـ 7 نوفمبر 1862 م وقد بلغ من العمر 89 سنة . وكان عمره حين تولى العرش في 17 سبتمبر سنة 1837 م ستين سنة ، وحين قبض عليه كانت سنه 85 سنة فيكون قد أمضى في منفاه نحو أربع سنين . .

وهكذا انطفأ آخر مصباح في الأسرة التيمورية التي حكمت الهند

---

(1) يلاحظ أن أورنجزيب محل حملة شديدة من المؤرخين الغربيين وبعض مؤرخي الهند ، وعلة هذه الحملة ما حرص عليه أثناء حكمه من تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، وإعادة فرض الجزية على الهندوس . وقد تكلمنا عن هذا بتفصيل خلال الحديث عن « أورنجزيب » .

منذ استولى الملك « بابر » عليها سنة 932 هـ ـ 1526 م ، ونزع ملكها من يد أسرة «اللودى» المسلمة .

مات في محبسه على سرير حقير ، وما حوله أحد إلا زوجته « زينت محل » وولداه ، وأخفى الإنجليز خبر وفاته ورأوا أن يدفنوه قريباً من مكانه مبالغة في الإخفاء ، ولم يحضر أحد دفنه إلا طبيبه ، وحافظ محمد إبراهيم أستاذ ابنه جمشيد بخت ، فتوليا تكفينه والصلاة عليه ، وحفرا قبره ودفناه ، وكانا آخر من لازم الملك المغولي الراحل ، وآخر من أسلماه إلى أمه الأرض .

وقد تولى الإنجليز حراسة قبره مدة طويلة ، ولم يكن للقبر أية علامة أو بناء عليه ، ولذا كادت تضيع معالمه بعد ما نبتت الحشائش عليه ، وداسته الخيل بحوافرها في ميدان التدريب الذي كان بجواره ، وما كانت هناك علامة باقية تشير إليه إلا شجرة السرو بجواره .

ولقد كان الملك المنفي من أجود الشعراء . وكان لا يفتأ يقرض الشعر عن حاله ، ويتصور ما سيصيب قبره بعد وفاته ، فقال في شعر يفيض بالعبرات :

« من يوقد الشمع على قبري ؟ ومن يأتِ إليه بالورود ؟ نعم لا ورود ولا شموع ، حتى لا تأتي فراشة تحوم حولي ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبري ، بعد وفاتك يا ظفر ، من يأتي على قبرك ليقرأ لك الفاتحة ؟ » .

ولد وعاش والدنيا حوله تخدمه ، وتمشي في ركابه ، وتلتمس رضاه ، وها

هو ذا يعيش أواخر أيامه سجيناً ، فانطلقت شعريته الفياضة الحزينة ، تصور التعاسة التي لازمته آخر حياته ، وكأنه كان يتنبأ !!

فقد عمد الإنجليز إلى منع أي أحد من زيارته . وإلى إضاعة معالم قبره ، حتى لا يتجمع الناس حوله ، ويذكرون ـ كلما تجمعوا ـ قصة غدرهم وظلمهم من أولها إلى آخرها . .

ولقد قام بعض المخلصين من المسلمين، وحاولوا مراراً أن يقنعوا حكومة بورما الإنجليزية بإقامة بناء على القبر ، أو حتى السماح لهم بإقامة هذا البناء ، ولكنّ ظلت جهودهم تذهب هباء ، وظل الإنجليز يتعنتون حتى مع رفات القبر ، حتى ليذكر الأستاذ « سيد أبو ظفر الندوى » في مذكراته حين زيارته لبورما وبحثه عن قبره في 23 يوليو سنة 1915 م أنه وجد القبر قد اندرس تحت حوافر الخيول في ميدان التدريب الذي كان قريباً منه وقد قام السيد عبد السلام رفيقي ـ مؤسس الصحافة الأوردية في بورما ـ بجهود جبارة لدى الحكومة ، ليقنعها ببناء مقبرة ليهادور شاه ولكن مساعيه كلها فشلت مع إنهم في الهند عنوا ببناء مقبرة عظيمة على رماد أحد ملوك المراهتا السابقين ، وظل الأمر كذلك حتى تألفت لجنة من المسلمين في بورما لجمع اكتتابات لبناء المقبرة ، وفي سنة 1932 م ذهب وفد إلى نظام حيدر أباد برئاسة « داود جي أحمد » ومعهم خريطة هندسية لمشروع بنائها ، وطلبوا من الملك المسلم أن يساعدهم في هذا الغرض ، ولكنه أبى ! أو لعله راعى في إبائه عواطف أصدقائه الإنجليز !! فذهبوا إلى بومباي وجمعوا من المسلمين فيها أربعة آلاف روبية ، وهو مبلغ قليل ، ترجع قلته إلى خوف الناس من

الإنجليز ، وتملقهم لعواطفهم القاسية ، ولم يكف هذا المبلغ إلا لتغطية نفقات سفر الوفد ، وعاد من الهند إلى بورما خائباً !!

ولكن الجهود تضافرت بعد ذلك برئاسة حاج داود أحمد رئيس بلدية بورما حتى تم بناء المقبرة في سنة 1946 م ـ نعم بعد نحو قرن من الزمان .

والإنجليز يحاربون رفات القبر !!

وقد توفيت زوجته زينت محل بعده بنحو 22 سنة ، وذلك في 14 شوال سنة 1303 هـ ـ 17 يوليو 1886 م ودفنت بجواره ، كما دفنت معه أيضاً بنته « رونق زماني بيكم » التي توفيت في 30 ذي القعدة سنة 1349 هـ ـ إبريل سنة 1930 م .

والمقبرة التي بنيت بعد نحو قرن من الزمان عبارة عن سور ، في وسطه قبر الملك ، وزينت محل ، ورونق زماني ، وبجانبه بيت من خشب ، مغطى بالصفيح (الصاج) لإقامة الزوار ، وعلى يمينه مسجد وبيت للطعام من الخشب أيضاً ، وقد أصبح مزاراً للناس من كل ناحية . .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن القائد الهندي المشهور « سبهاش تشندر بوس » حينما قام على رأس جيش ضد الإنجليز في الحرب الماضية لإخراجهم من الهند ، ذهب إلى قبر «بهادورشاه » في سبتمبر سنة 1943 م ، وأدى له التحية العسكرية ، تقديراً لموقفه الخالد في محاولة إخراج الإنجليز من الهند سنة 1857 م ، وعاهد الله أمام قبره أن يظل مجاهداً

حتى تتحرر الهند ، ويخرج الإنجليز منها ، وتتحقق أمنية الملك المظلوم الراقد بعيداً عن وطنه ، ضحية غدر الإنجليز وتعنتهم . . . . ثائر يحيي رفات ثائر . .

وقد كتب على اللوحة التي وضعت على قبره ما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »

آخر مصباح في أسرة المغول الملكية

حضرة أبو ظفر سراج الدين محمد بهادر شاه ظفر رحمة الله عليه .

جلس على العرش من سنة 1837 م إلى سنة 1858 م .

« اليوم بتاريخ 7 نوفمبر سنة 1862 م ـ 14 جمادى الأولى 1279 هـ يوم الجمعة صعدت الروح التي استقرت في بهادر شاه 89 سنة ، وودعت جسده إلى الأبد ، فغربت شمسه ، وفاضت كأس عمره ، واحتضنت أرض « رنكون » آخر مصباح في الأسرة التيمورية . ولد في « جهان آباد ـ دهلي » ولكنه عانى سكرات الموت بعيداً عن الوطن بآلاف الأميال ، على سرير بسيط حقير ، وكانت حياته ربيعاً حافلاً بالخدم والحشم ، ولكنه مات وما حوله إلا ثلاثة : زوجته وولداه ـ وقبل أن تغرب شمس النهار فاضت روحه ، بعد ما عرف العالم حالة أسرته المنكودة ، فاستقر الجوهر اللامع من دهلي في أرض « رنكون » . . . فاعتبروا يا أولي الأبصار .

وتحت هذا كتب تاريخ وفاته في بيتين من الشعر بالأوردية ترجمتها :

« في أربعة عشر من جمادى الأولى يوم الجمعة وقت العصر » .
« كانت هذه اللحظة لحظة حاسمة في تاريخ الغربة والسجن » .
« قال فيها ملك الموت لملك الهند ، وهو بعيد عن وطنه » .
« إن جنة الخلد هي وطنك يا ظفر ، يا غريب الوطن » .

ثم كتب تاريخ وفاته بالإنجليزية هو ومن دفن معه ، وتحته كتب بالعربية في أسفل اللوحة :

ملكة نواب زينت محل : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة 14 شوال سنة 1303 هـ مطابق 17 يوليو سنة 1886 م . بنت الملك : رونق زماني بيكم : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة 30 ذي القعدة سنة 1349 هـ مطابق 30 ابريل سنة 1930 م

أما الأمير « جوان نجت » فقد ذهب الإنجليز به إلى سجن في بلدة « مولين » قريباً من الحدود لرغبتهم في تفريق الأسرة ، ومنعوا أي اتصال بينه وبين الأهالي ، والمصدر الذي نقلت عنه هذه المعلومات كلها[1] يقول : ولذلك لم يعرف عنه شيء ، غاية ما هنالك يوجد قبر ، ولكن لم يكتب عليه شيء حتى نعرف صاحبه . أما الأمير « جمشيد بخت » فقد كان صغيراً عند نفيه مع أبيه ، ولذا صاحبه أستاذه « حافظ

---

(1) معلوماتي عن بهادور شاه وأسرته في « رنجون » نقلتها عن العدد المخصوص لمجلة « دور جديد » الأوردية الصادرة في « رنجون - بورما » عدد 298 بتاريخ 23 ديسمبر سنة 1956 م لصاحبها ورئيس تحريرها مولانا إبراهيم مظاهري .

إبراهيم » ، وفي « رنكون » دخل مدرسة إنجليزية ، وكان سجنه في بيت خشبي أمام سجن أبيه ، وعند ما كبر تزوج من أسرة بورمية سنة 1905 م ، فرزق باسكندر بخت ، وهو الوحيد الذي بقي ذكرى لهذه الأسرة الملكية ، وإن كان لم يعرف عنه شيء بعد ذلك (1) .

ولما توفي جمشيد بخت سنة 1921 م ، تحمس المسلمون هناك لدفنه بجوار والده ، ولكن الحكومة الإنكليزية حالت دون ذلك ، وحاربت بقوتها وسلطانها الجثة الهامدة ، وخشيت اجتماع الولد مع أبيه تحت التراب فدفن في مكان آخر !!

وأما كلثوم زماني بيكم : فقد تزوجت من أمير مسلم صيني على الحدود ، ولكن سرعان ما طلقت لاختلاف الطبائع بينها وبين زوجها ، ولم يعرف شيء عنها بعد ذلك .

وأما حافظ إبراهيم جمشيد بخت فقد سعى بعد وفاة الملك لكسب العيش ، فاشتغل إماماً وخطيباً ومدرساً في مسجد برنكون مدة 19 سنة ، ومن تلامذته يوجد إمام وخطيب « مسجد بنكالى ، في « رنكون » للآن ، وهكذا كان مصير هذه الأسرة الملكية التي شاء لها سوء طالعها أن تكون نهايتها مأساة على يد الإنكليز . الذين أمعنوا في كيدهم لها ، وتعنتهم معها حتى قضوا على كل أثر لها . .

---

(1) أخبرني مولانا محمد ميان المؤرخ أنه لما ذهب لبورما تقابل مع فرد من ذرية الملك هناك .

وقد عنيت بالسؤال عن ذرية الأسرة التيمورية التي حكمت الهند قرابة قرنين ونصف قرن ، وتفرعت كثيراً ، وهل يوجد منها أحد الآن بالهند يعرفه الناس ، فلم أظفر بجواب يدل على تعارف الناس على أحد من هؤلاء الآن !!

ولا شك أن كيد الإنجليز ، وإمعانهم في إزالة أي أثر حي لهذه الأسرة يذكر الناس بالعهد السابق ، كفيلان بتحقيق هذه النهاية ، وبالقضاء على كل معالم هذه الأسرة الملكية ، حتى لم يعد لها ذكر إلا في بطون كتب التواريخ ، وفي أشعار جيدة تركها الملك السجين ، وكان شاعراً مجيداً ، ففاضت نفسه بلوعاتها شعراً حزيناً ، لا يزال كثير من الناس بالهند يرددونه في حزن وألم ، كلما ألمت بهم مصائب ونزلت بهم أحداث وكلما تذكروا مصير الملك المظلوم .

وكان الملك الحزين كثيراً ما يحلو له ترديد أبيات قالها في منفاه ، وظل يناجي الرسول ﷺ بها حتى مات ، لا نستطيع أن ننقلها بما هي عليه من روعة وموسيقى حزينة ، ولذا نكتفي بنثرها هنا ، ونسدل بها الستار على نهاية هذا التاريخ الإسلامي العتيد ، على الفردوس الإسلامي المفقود :

« يا رسول الله . ما كانت أمنيتي إلا أن يكون بيتي في المدينة بجوارك »

« ولكنه أصبح في « رنكون » وبقيت أمنياتي مدفونة في صدري »

« يا رسول الله » كانت أمنيتي أن أمرغ عيني في تراب أعتابك »

«ولكنْ ها أنذا أتمرغ في تراب « رنكون »

« وبدلاً من أن أشرب من ماء زمزم ، بقيت هنا أشرب الدموع ، الدامية ، فهـل تنجدني يا رسول الله . . ولـم يبق من حياتي إلا عدة أيام ؟!! ،

فهرس

فهرس التراجم بالهامش

صدر حديثاً للمؤلف عن
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

مشاكلنا فى ضوء الاسلام
الاسلام والغرب وجهاً لوجه
الى الشباب فى الدين والحياة
تاريخ الاسلام فى الهند

من منشورات

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

تأليف	اسم الكتاب
د . علي شلق	أبو نواس
د. علي شلق	المتنبي
د. علي شلق	أبو العلاء المعري
د. علي شلق	ابن الرومي
حنا نمر	النابغة الذبياني
واضح الصمد	الصناعات والحرف في الجاهلية
الاب جرجس داوود	الأديان عند العرب في الجاهلية
عباس مصطفى الصالحي	الصيد والطرد في الشعر العربي
تركي رابح	منهج التربية الاسلامية
حنا نمر	دراسات لدبية

هذا الكتاب

كتاب « تاريخ الاسلام في الهند » للمفكر عبد المنعم النمر ، هو أول كتاب باللغة العربية ، يسجل تاريخ دخول الاسلام للهند ، والحكم الاسلامي الذي استمر مزدهراً فيها مدى ثمانية قرون ونصف . وقد ظل مؤلفه يجمع معلوماته خلال رحلاته في الهند ، طوال اقامته هناك . ثم ظل يقرأ له عاماً آخر بعد عودته ، حتى خرج الكتاب مرجعاً وافياً للباحثين ، ولكل من يهمه الاطلاع على تاريخ الحكم الاسلامي في الهند .

من هذا المنطلق فان المؤلف يقدم إلى المكتبة الاسلامية العربية كتاباً كانت في أمس الحاجة إليه ، حيث يسد فراغاً كان لا بد أن يملأ خصوصاً وأن الكتاب أشبه بموسوعة عن تاريخ الاسلام في الهند ، وضعه المؤلف بروح متفتحة ، بناءة ، معللة الحوافز والدوافع ، ومصدرة الأحكام المنصفة .

وحسب المكتبة العربية الاسلامية أنها تغتني بهذا الكتاب المفرد ، المستند الى مشاهدات المؤلف المتنوعة ، وإلى المراجع العلمية والتاريخية الموثوق بها .

الثمن : ٤٠ ل . ل
أو ما يعادلها

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع